D E M A S H Q

الثورة السورية الواقع والتحديات والآفاق



أدبية فكرية جامعة ■ تصدر من لندن ■ العدد (١) يناير 2013





أدبية فكرية جامعة ▪ تصدر مؤقتاً من لندن

تصدر عن "مؤسسة دمشق للدراسات والنشر" - لندن



برعاية مؤسسة "بناة المستقبل"



ريع العدد يعود حصرياً إلى مخيمات اللاجئين السوريين

بين ثقافة الاستبداد والاستهلاك
وثقافة القطيعة مع العصر



فهرس المحتويات

كلمة

أحب دمشق، ليس لي من الذكريات الحميمة، شخصية المعنى هناك سوى القليل مما يجرح القلب أو يوترّ الحنين. لم أقطن بيتاً من الحجر القديم وأحواض الياسمين في القصاع ولا الشاغور ولم أترك في قلب دمشقية آثراً لحبٍ قد تجود به المسافة بين ركن الدين وأول السفح الجميل لقاسيون. لم اكن يوما دمشقياً الا بذلك القدر العظيم من الرغبات والمجازات، وما تجترحه الروح من أمنيات وهوى. كنت جار المكان القريب: أطل على دمشق كما يطل الجار على جاره في الحديقة، فيلقي عليه السلام، ويسأله، بعد قهوة الصباح، عن سرّ النضوج المبكر للثمار الموسمية: كيف تبدو اليوم كاملة النضارة قبل موعدها؟ من أين يأتي التين الشامي بهذا المذاق الرفيع. كيف تحمل أشجار الليمون أكثر مما تحتمل؟ فيضحك الجار، لا يوضحً أو يجيب، بل يغني، كما كان يفعل، منذ ما قبل الحروف والتاريخ، لفتنة الشام.

لم أكن سوى المسافر الموسمي في دروب الشام، يحملني الهوس الغريب ببيت الجيران إليها. يحملني النداء الخفي العصيّ على التفسير، الى صدرها البهي، فأذهب فيها، هنا قرب الجامع الأموي، أرى التناغم الفطري بين بيت الله والحيوات على الطريق، أفتش المكتبات القديمة، تحت سوره الشرقي، عن كتبٍ قد أجدها. أحاول من هناك، الوصول، عبر شارع ضيق بلا اسم، إلى شارع كبير الاسم والمعنى في دمشق، وأفشل، أحاول مرة أخرى، وأفشل، لأعرف، بعد أقل من نصف ساعة من المشي الفضولي البطيء، بأني وصلت إلى شارع المتنبي. إلى حيث لا أعرف عما كنت أبحث وماذا أريد، عن فوضى الشارع الطويل وما تقدمه محاله التي لا تُعدً، عن مقهى على الرصيف أم عن أي شيءٍ يُذكرّ بالاسم الشهير ويبتغيه. «كأني من الوجناء في ظهر موجة... رمت بي بحاراً ما لهن سواحل». أردد بيت الأبدية ذاك، وأواصل البحث عن الشاعر الأبدي في المكان. لا شيء يحيل عليه في هذا الشارع العادي سوى اليافطات: شارع المتنبي، مقهى المتنبي، مكتبة المتنبي، أو لعلني، أنا الذي عجزت، عن التقاط تلك الاحالات. لعلها، في كل زاوية هناك ولم أجدها، فكيف يمكن للمدينة أن تكف عن الذهاب العذب في روح شاعرها؟ كيف تترك وصفه البديع لها في هذا البيت وتستريح: «لها ثمرٌ يشير اليك منه بآشربة وقفن بلا أوانِ». يستحيل، لن تكف دمشق يوماً عن استحضار نفسها، لن تفاضل بين ثمارها التي تشير إليك، وهذا الأبد المُعلق، على شكل صورة قبيحة للاب القائد، في كل زاوية وشارع. لن تكف دمشق عن نفسها، ولن أكف أنا عن متعة التجوال في نفسها التي أحب، فأرجع من جديد للمرور بدكاكين الحميدية العتيقة، أدور من حول



الجامع الأموي، وأتابع من هناك إلى ضريح الشيخ محي الدين في الحي الشهير.

كتاب «الجلال والجمال» هو المكان، استعارة قصوى لعشق إلهي لا تخمد ناره، ولا يكشف للعابر مثلي، بيسرٍ، عن أسراره الدفينة، تلك التي فتشهًا الشيخ، فكرة تلو الاخرى، وأودعها دمشق؛ دمشقه العالية مثل لحظة الوصل الأخاذة بالمعشوق. دمشق آلمأخوذة بجلال أمسها الطويل الطويل؛ دمشق محي الدين بن عربي، انصهار المخلوق جمالياً بخالقه الوحيد. دمشق المتنبي، نزق القصائد والحياة ولا نهائية الرغبات. ودمشق هذا الضريح الفقير، الوجوه تحج صوب الأمنيات، تقاسم الشيخ أسرارها، تبوح له، وتستغيث. دمشق. ما أود أن أكونه أنا فيها قرب الضريح، على الطرقات، أمام القهوة العربية شبه الساخنة. في ظفائر البنات اللواتي تحلّقن، مثل الحمام، على الرصيف أمام هذا الليل.

لا أعرف الكثير عن ليل دمشق. لا لأن الأماكن تخلق ليلها الشخصي وتملي، دائماً، شروطها عليه، أو تغيب هي في اقتراحاته التي لا تُردّ. ليصير ليل المكان، والحال هذه، هو المكان، حالة قصوى من التوحد الفطري بعيد المنال. ذاك الذي لا يمكن للغريب سبر أغواره في ليلة أو ليلتين. لا، ليس لهذا السبب المقبول لم أعرف، كما أحب، ليل دمشق. ولا لأني تمنعت عن مواصلة السير واكتشاف المزيد من مشاهدها الليلية الكثيرة، فقد فعلت وحاولت، بل لأن الليالي التي قضيتها فيها لم تكن، في كل مرة أتيت فيها دمشق، لم تكن تكفي لاشباع ما أريده، عادة، من الليل في الامكنة التي أجيء. كنت الجار القريب كما أسلفت، أعود إلى الشام حين أعود من فيينا إلى عمان، حين تحملني المواسم والحنين إلى بقايا الأهل في الزرقاء أو الضواحي الجديدة للعاصمة الأردنية، إذ لا بد لي، ناك حول مائدة شامية الأصل والمذاق، أمام الكثير من العرق المحلي الصنع، في استحضار طقسي للحكايات والرغبات واللعنات والبوح الحزين:

- تعال الى النافذة. يقول الصديق، فأذهب خلفه، خلف أصابعه التي تمتد، بحذر غريب، عبر النافذة:

- أترى البيت هناك، بيت جيراننا. جاء العديد من رجال الأمن إليه، قبل عام ونصف تقريباً، واعتقلوا سمير، ولا تعلم عنه العائلة أي شيء يذكر، لعله في سجن تدمر الآن، أو ربما في حفرة جماعية ما قرب السجن، لا أعرف، المهم أنهم أخذوه.



الطويل؛ دمشق محي الدين بن عربي، انصهار المخلوق جمالياً بخالقه الوحيد. دمشق المتنبي، نزق القصائد والحياة ولا نهائية الرغبات. ودمشق هذا الضريح الفقير، الوجوه تحج صوب الأمنيات، تقاسم الشيخ أسرارها، تبوح له، وتستغيث. دمشق. ما أود أن أكونه أنا فيها قرب الضريح، على الطرقات، أمام القهوة العربية شبه الساخنة. في ظفائر البنات اللواتي تحلّقن، مثل الحمام، على الرصيف أمام هذا الليل.

لا أعرف الكثير عن ليل دمشق. لا لأن الأماكن تخلق ليلها الشخصي وتملي، دائماً، شروطها عليه، أو تغيب هي في اقتراحاته التي لا تُردّ. ليصير ليل المكان، والحال هذه، هو المكان، حالة قصوى من التوحد الفطري بعيد المنال. ذاك الذي لا يمكن للغريب سبر أغواره في ليلة أو ليلتين. لا، ليس لهذا السبب المقبول لم أعرف، كما أحب، ليل دمشق. ولا لأني تمنعت عن مواصلة السير واكتشاف المزيد من مشاهدها الليلية الكثيرة، فقد فعلت وحاولت، بل لأن الليالي التي قضيتها فيها لم تكن، في كل مرة أتيت فيها دمشق، لم تكن تكفي لاشباع ما أريده، عادة، من الليل في الامكنة التي أجيء. كنت الجار القريب كما أسلفت، أعود إلى الشام حين أعود من فيينا إلى عمان، حين تحملني المواسم والحنين إلى بقايا الأهل في الزرقاء أو الضواحي الجديدة للعاصمة الأردنية، إذ لا بد لي، حينها، من عبور الحدود الرديئة والبليدة الفاصلة بين البلدين، وكأني لا أقوم، روحياً، مع احتساب الوقت الاضافي للطريق وسخف الحدود، سوى بالتنقل المعتاد بين مختلف المدن الأردنية، فالشام هي الامتداد الطبيعي، هي مركز ذلك الامتداد الطبيعي للجغرافيا والبلاد التي تحمل اسمها، الى كونها حاضنتها الثقافية الأهم أيضاً. لهذا، أعود في كل مرة من عمان إلى دمشق، ولهذا لا أعرف عن ليلها ما آعرفه عن الليل في المدن التي عشت فيها طويلا، أو تلك التي أزورها لمرة واحدة وأقتنص، بلهفة الغريب الذي قد لا يعود مرة أخرى إليها، أقتنص، أو أحاول، ما يقدمه الليل، دفعة واحدة، من أسراره هناك. ولكن دمشق ليست مدينة لزيارة واحدة، وهي ليست مدينتي الأولى أو الثانية ولا الأخيرة، انها المكان الذي ترجع في كل مرة اليه وتقول: سأرجع بعد عام أو ربما أقل. سأفتش ليلها عنها في المرة القادمة، قد أشاهد ما لم أشاهده اليوم. قد، وقد. فأرجع مرات أخرى إليها وأكرر الأمنيات عينها، ولا أفتش ليلها عما أريد، بل أتابع التجوال من حيٍ هنا، الى أخر هناك، لأدخل، بعد العاشرة ليلاَ... دائماً بعد العاشرة، بيت الصديق الدمشقي في قلب حي الميدان، وأكمل الليل هناك حول مائدة شامية الأصل والمذاق، أمام الكثير من العرق المحلي الصنع، في استحضار طقسي للحكايات والرغبات واللعنات والبوح الحزين:

- تعال الى النافذة. يقول الصديق، فأذهب خلفه، خلف أصابعه التي تمتد، بحذر غريب، عبر النافذة:

- أترى البيت هناك، بيت جيراننا. جاء العديد من رجال الأمن إليه، قبل عام ونصف تقريباً، واعتقلوا سمير، ولا تعلم عنه العائلة أي شيء يذكر، لعله في سجن تدمر الآن، أو ربما في حفرة جماعية ما قرب السجن، لا أعرف، المهم أنهم أخذوه ■

القصائد والحياة ولا نهائية الرغبات. ودمشق هذا الضريح الفقير، الوجوه تحج صوب الأمنيات، تقاسم الشيخ أسرارها، تبوح له، وتستغيث. دمشق. ما أود أن أكونه أنا فيها قرب الضريح، على الطرقات، أمام القهوة العربية شبه الساخنة. في ظفائر البنات اللواتي تحلّقن، مثل الحمام، على الرصيف أمام هذا الليل.

لا أعرف الكثير عن ليل دمشق. لا لأن الأماكن تخلق ليلها الشخصي وتملي، دائماً، شروطها عليه، أو تغيب هي في اقتراحاته التي لا تُردّ. ليصير ليل المكان، والحال هذه، هو المكان، حالة قصوى من التوحد الفطري بعيد المنال. ذاك الذي لا يمكن للغريب سبر أغواره في ليلة أو ليلتين. لا، ليس لهذا السبب المقبول لم أعرف، كما أحب، ليل دمشق. ولا لأني تمنعت عن مواصلة السير واكتشاف المزيد من مشاهدها الليلية الكثيرة، فقد فعلت وحاولت، بل لأن الليالي التي قضيتها فيها لم تكن، في كل مرة أتيت فيها دمشق، لم تكن تكفي لاشباع ما أريده، عادة، من الليل في الامكنة التي أجيء. كنت الجار القريب كما أسلفت، أعود إلى الشام حين أعود من فيينا إلى عمان، حين تحملني المواسم والحنين إلى بقايا الأهل في الزرقاء أو الضواحي الجديدة للعاصمة الأردنية، إذ لا بد لي، حينها، من عبور الحدود الرديئة والبليدة الفاصلة بين البلدين، وكأني لا أقوم، روحياً، مع احتساب الوقت الاضافي للطريق وسخف الحدود، سوى بالتنقل المعتاد بين مختلف المدن الأردنية، فالشام هي الامتداد الطبيعي، هي مركز ذلك الامتداد الطبيعي للجغرافيا والبلاد التي تحمل اسمها، الى كونها حاضنتها الثقافية الأهم أيضاً. لهذا، أعود في كل مرة من عمان إلى دمشق، ولهذا لا أعرف عن ليلها ما آعرفه عن الليل في المدن التي عشت فيها طويلا، أو تلك التي أزورها لمرة واحدة وأقتنص، بلهفة الغريب الذي قد لا يعود مرة أخرى إليها، أقتنص، أو أحاول، ما يقدمه الليل، دفعة واحدة، من أسراره هناك. ولكن دمشق ليست مدينة لزيارة واحدة، وهي ليست مدينتي الأولى أو الثانية ولا الأخيرة، انها المكان الذي ترجع في كل مرة اليه وتقول: سأرجع بعد عام أو ربما أقل. سأفتش ليلها عنها في المرة القادمة، قد أشاهد ما لم أشاهده اليوم. قد، وقد. فأرجع مرات أخرى إليها وأكرر الأمنيات عينها، ولا أفتش ليلها عما أريد، بل أتابع التجوال من حيٍ هنا، الى أخر هناك، لأدخل، بعد العاشرة ليلاَ... دائماً بعد العاشرة، بيت الصديق الدمشقي في قلب حي الميدان، وأكمل الليل هناك حول مائدة شامية الأصل والمذاق، أمام الكثير من العرق المحلي الصنع، في استحضار طقسي للحكايات والرغبات واللعنات والبوح الحزين:

- تعال الى النافذة. يقول الصديق، فأذهب خلفه، خلف أصابعه التي تمتد، بحذر غريب، عبر النافذة:

- أترى البيت هناك، بيت جيراننا. جاء العديد من رجال الأمن إليه، قبل عام ونصف تقريباً، واعتقلوا سمير، ولا تعلم عنه العائلة أي شيء يذكر، لعله في سجن تدمر الآن، أو ربما في حفرة جماعية ما قرب السجن، لا أعرف، المهم أنهم أخذوه ■



الملف

الثورة السورية: الواقع والتحديات والآفاق



عمّار ديّوب

في أسباب الثورة السورية وبعض مشكلاتها

أحكم النظام الشمولي، الممثل للطبقة البرجوازية الصغيرة منذ بداية السبعينيات، السيطرة على المجتمع، عبر الاستفادة من الإصلاحات -الإصلاح الزراعي، التأميم، مجانية التعليم، فرص عمل للفقراء، فتح المجال لزيادة عدد أفراد الجيش والأمن- ما قبل السبعينات، وعمل على اجتثاث كل مؤسسات المجتمع المدني المستقلة والسياسية كذلك، دافعاً معركته معها إلى النهاية، إما عبر الاعتقال أو التهجير أو الاستيعاب في مؤسساته كالجبهة الوطنية التقدمية وأشباهها. وفي مطلع الثمانينات إثر الحرب ضد حركة الاخوان المسلمين الطائفية، تمت السيطرة الكاملة على المجتمع، وعلى الحياة السياسية، واستمر الأمر إلى بداية الألفية.

ترافق منذ السبعينات مع السيطرة الأمنية، فتح مجال النهب والفساد بأوسع أشكاله، فتشكلت سلطة بيروقراطية وطفيلية، وتم تصفية القطاع العام وتوسعت دائرة القطاع الخاص، وبتحقق ذلك، مع الألفية الجديدة، صار الإصلاح الزراعي والتأميم والتعليم المجاني والصحة، بمهب الريح، فتعمق الفرز الطبقي وازداد اتساعاً فاكتملت بذلك طبقة مافيوية كولونيالية جديدة، وأفقر الملايين وظهرت شرائح المهمشين ودمرت الزارعة. وبدا أن نظام الحكم يدير الأزمة ولا يحل المشكلات، منذ عام ألفين تقريباً، وبدا أن شروط الثورة تتفاعل، منذ ذلك الوقت.

أزمات بلا حلول

تراكم الأزمات ذاك، كانت السلطة تضبطه عبر السيطرة الأمنية، وعبر اجتثاث السياسة بدءاً من السبعينيات، وبعد الثمانينيات، فُتح المجال الديني على أوسع نطاق، فاتجه الشعب المتعب والمفقر والمذلول نحو ساقية الايمان مضطراً، كشكل وحيد للفعالية العملية المسموح القيام بها، وازداد الوعي الديني عند كافة المجموعات الدينية؛ في الدين الواحد وفي الأديان المتعددة. ولكن عراقة المجتمع المدني والسياسي والعلماني واليساري بصفة خاصة، منعت تحوّل الديني إلى طائفي، وبقيت تناقضات المجتمع السوري، تعتمل في إطار المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ككل مجتمعات الأرض، ولم تتحوّل الحساسيات الدينية، إلى طائفية سياسية.

الأزمة الاقتصادية تعمّقت في حقبة الاصلاح والتطوير ولاحقاً في حقبة الاصلاح الاداري التي قال



بها النظام منذ عام 2000، فلم تكن لمواجهة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية بل فاقمتها بشكل مضطرد، وكان يستبعد الإصلاح السياسي بشكل ثابت، والذي طالبت به المعارضة على اختلاف تياراتها. هذه المشكلات، لم تدفع النظام نحو استبدال السيطرة الأمنية بالإصلاح السياسي، ولا بأي إصلاح أخر لحل المشكلات، وحين كان يظهر وكأنه يتبنى ذلك، كما قرأت المعارضة خطاب القسم، عام ألفين، كانت المعارضة تصدق أقواله وتتعاطى بسذاجة استثنائية، وتدخل بجدال طويل عن الصراعات بين أجنحة وأجيال السلطة، وأن رئيس الجمهورية يريد الإصلاح بينما الجيل الهرم القديم يعاند ذلك، ولكنه سيخرجهم من الحياة السياسية وسيكون هناك تغيير ما عبر السلطة، وعقدت الأمال العظيمة، على ذلك، ولم يتحقق شيئاً يذكر. الحقيقة أن النظام كان يمارس السياسة البراغماتية اتجاه أصحاب النوايا الحسنة، وقد كشفت المعارضة عن نفسها علانية سياسياً وتنظيمياً، وهو ما كلفها غالياً، وبالتالي كان النظام يتابع كل حكايا المعارضة، بل ويشارك معها عبر "سياسييه" في النقاشات التي جرت في سورية، حينما كان ربيع دمشق مزهراً مع بداية الألفية، ولكنه، وبعد عامين صار شتاء قارصاً ولا يزال، ولم تحلّ المشكلات.

السياسات الليبرالية وبدء الثورة

الأزمات التي تكرست، بعد نهب الدولة والفساد، أصبحت مع السياسات الليبرالية الجديدة، المحمية من قبل أدوات النظام السياسية والإيديولوجية، أكثر كارثية وهو ما أشعل الثورة السورية في منتصف أذار عام 2011، وقد تفاعلت بشكل واسع مع ثورات العالم العربي، ومع انتصار الثورة التونسية والمصرية وبدء الليبية وقبلها جميعاً الثورة البحرينية، فانفجرت الثورة السورية، في دمشق ودرعا بداية ولاحقاً عمّت سورية، وخلال شهر أو شهرين، كانت سورية كلها تغلي، واشتعلت الثورة وتعاظمت منذ ذلك الحين وإلى الأن، وأخذت أشكال عدّة ولا تزال تتمظهر بأشكال جديدة.

إذن الشرط المحدّد للثورة هو الاقتصادي بالتحديد، حيث الإفقار الواسع والتهميش الكبير ودمار الزراعة والصناعات المتمركزة قرب العاصمة وفي مختلف المدن السورية وانهيار في قطاعات الدولة الانتاجية وفي الأجور، والشرط السياسي يتمثل بنظام سياسي تسلطي شمولي بالغ البطش، ومعارضة سياسية ليبرالية وشعب مفقر بوعي ديني سائد. إضافة لكل ذلك همجية مواجهة النظام للثورة؛ فشدة القمع اعتقالاً وقتلاً وطائفية، كلها ساهمت في تمدّد الثورة وتوسعها بشكل كبير. ولكن كل ذلك، ما لم يكن هناك شرط اقتصادي محدد للثورة، لاستطاع النظام حصرها في تمردات جغرافية معينة ولاندثرت.

غياب الصراع السياسي وتفرد الثورة الشعبية

في هذه المعطيات علينا تحليل الثورة الشعبية، وتعقيدات مساراتها وأهدافها والتداخلات الدولية والإقليمية فيها، وبالتالي فإن بدأت الثورة سلمية، وعمّت المظاهرات البلد بطوله وعرضه، فإن النظام لم يستثن منطقة واحدة من الاعتقال والقتل وملاحقة الثائرين عبر قواه الأمنية ولاحقاً عبر" فئة الشبيحة"، بل وأقحم الجيش في معركة ضد الشعب، وهو ما أظهر مكوناً جديداً في الثورة، مكون المدافعين عن النفس وعن الثورة من المدنيين والعسكريين المنشقين. إذن، الثورة بدأت سلمية وكان سقف مطالبها منخفضاً، وكانت أهدافها تنحصر في إصلاحات جزئية، تطال محاربة الفساد وإعادة هيكلة الأجهزة الأمنية ومحاسبة بعض رؤوسها، وفصل السلطات، وإنهاء احتكار الاعلام، والسماح بالمظاهرات، ولكن عنف النظام، دفع الثورة لرفعها سقف مطالبها من تقاسم السلطة إلى إسقاطها، ومن إصلاحات عامة، إلى تغيير كامل لبنية السلطة، وبالتالي تصاعدت الشعارات نحو إسقاط النظام وإعدام الرئيس.

هذه القوة والجرأة الثوريتان، خشيهما النظام خشية عظيمة، خاصة وأن مدينة (حماه) المدماة منذ الثمانينيات، لم تذهب نحو السلاح بداية، وبقيت ثورتها سلمية بالكامل ولم تظهر ميلاً طائفياً أبداً، بل إن دخولها الثورة تأخر قليلاً عن بقية المدن السورية. فهم النظام منذ الاندفاعة الكبيرة للشعب إلى الثورة، إنها ليست تمردات يمكن تطويقها، كما طوّق أحداث سابقة مناطقية في مدينة السويداء ومنطقة القدموس وحتى انتفاضة الأكراد عام 2005 فاستطاع قمعها وإنهائها حينذاك، وبذلك رفع من حدّة الموجهة والقتل والدمار، فبدأت الدبابات تجتاح المدن والقرى بعد الأشهر الأولى، وراح منسوب القتل يتعالى ويرتفع.

إعلام النظام وإعلام المعارضة

الثورة هذه، واجهها النظام إعلامياً عبر بث بروباغندا متكررة، عن جماعات سلفية وإرهابية هي وراء كل ما يحدث، ومدعومة من الامبرياليات العالمية والدول الخليجية، ومرّر هنا حكاية (بندر بن سلطان) عبر خطة نشرتها مؤسسات الدولة وأعيد تكرار فحواها عبر الاعلام الرسمي والخاص" الرسمي"، بل وأرسلت أجهزة الأمن بعض عناصرها لتوزيعها في شوراع سورية، ليعطي لنفسه شرعية المقاومة والممانعة بين أوساطه ولدى تابعيه، وحتى في أوساط المؤسستين الأمنية والعسكرية، وهو الموضوع الذي لم تواجهه المعارضة السورية، بل تلاقت تصوراتها عن الثورة بروباغندا شبيهة بما يقوله النظام، وصنفتها بأنها ثورة شعبية"سنية" وهو استبدادي ويحمي الأقليات أو يحتمي بها، وبالتالي استطاع النظام أن ينجح في تحييد كتل بشرية كبيرة عن فعل، لنكون أمام ثنائية العنف اللامحدود وأيديولوجيا تشدد على الطبيعة الاسلامية للثورة والغزو الخارجي الإمبريالي والخليجي، هذه القضايا كما أشرت لم تفككها المعارضة المكرسة؛ بل هي من كرسها، عبر دعواتها ولا سيما "المجلس الوطني" حيث الحماية الدولية فالحظر الجوي فالغزو الخارجي، وبالتالي صار للكتلة المحيدة والصامتة أسباب حقيقية في الابتعاد عن الثورة، بل وفي الوقوف إلى جانب النظام لأسباب متعددة ومنها غياب المسألة الوطنية ومنها الخوف من الدمار

والخوف من دولة إسلامية قادمة.

جدل السلمية والعسكرة في الثورة

إن تصاعد همجية النظام وممارسته كل ما أشرنا له، وبشكل متكرر ودون توقف، ودون أية توسطات بل وتجاهل كل مطالب الشعب، وعدم سوق أي رأس من رؤوسه إلى المحاكمة، والاستمرار بإذلال الأهالي والتنكيل بهم بمختلف أشكال القمع، دفع الأهالي لرفع مستوى الرد ضده، فكان المكون العسكري للثورة، ونشأ اضطرارياً وبإمكانيات بسيطة وبهدف محدد هو حماية الأهالي والمحافظة على التظاهرات السلمية، ولكن استهتار النظام بالأهالي وممارسة كل أصناف الهمجية، من قتل وطائفية وتعذيب وتنكيل بالقرى والمحاصيل وحتى الاعراض حيث الاغتصاب كما ذكرنا، نقل العمل العسكري من مرحلة الدفاع عن النفس، إلى مهاجمة المراكز الأمنية والمواقع العسكرية التي كانت وعلى مدار أشهر تخوض الحرب ضد مناطق الثورة السلمية، وبذلك صار للثورة مكوناً شعبياً عبر التظاهر ومكوناً عسكرياً عبر المنشقين والمدنيين المسلحين، ومكوناً سياسياً عبر مختلف القوى السياسية، وهو الأسوأ في صيرورة الثورة، وصار مع تطور الثورة يشكّل إعاقة حقيقية في انتصارها.

المكون العسكري، ليس هو الثورة، ولا يمكن حصر مكوناتها المتعددة فيه، فهو جزء منها وهو ما يجب التركيز عليه، وهو مكون موضوعي في سياق الثورة، وليس أمراً يمكن تجاوزه، أو رفضه كما يقول دعاة "السلمية" ممن لايعون جيداً طبيعة النظام كنظام شمولي تسلطي، ويقدمون رغباتهم على الواقع، وليست حجتهم في أن النظام لديه خيار الحل السياسي سليمة، فالبشر ليسوا ملائكة حتى يصمدون أمام كل الوسائل الجهنمية التي ووجهوا بها، وهي ليست ثورة سياسية يمكن التحكم بها عبر قوى سياسية معنية. فهي ثورة شعب لطالما مورس عليه كل صنوف الاستغلال والقهر والعدوان، لذلك كان ذلك المكون موضوعياً في نشأته وصيرورة تطوره. قد يكون هناك تداخلات دولية وإقليمية ولكنها ليست خارج الأسباب الموضوعية، بل ولا تزال الأمور في هذا الإطار، وما وجود تلك التداخلات الخارجية سوى ظواهر جزئية، يمكن فهمها تماماً نظراً لحاجيات الثورة المتعددة، وتبقى في إطار مضامين وأوجه الثورة الشعبية الغنية، لهذا فإن المكون العسكري بالتأزر مع بقية مكونات الشعب هو من قاد إلى تطور الثورة ووصولها إلى انقلاب موازين القوى لصالحها، وما استخدام النظام لأعلى درجات العنف، إلا علامة واضحة على ضعفه وتقهقره المستمرين.

مشكلة الوعي في الثورة

من خصائص الثورة الشعبية، أن قارعت النظام بوعيٍ تقليدي غير المطابق لأسباب الثورة، أي أن الوعي المطابق لها، لم يتشكل عبر الاحتجاجات والمظاهرات، حيث أن النظام مُحكماً قبضته على المجتمع، وملغياً كل نويات الحياة السياسية، وقد دفع الناس دفعاً نحو الوعي التقليدي، الذي قدم إجابات دينية على المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وبذلك انتقل الناس من وعيهم الاجتماعي والسياسي والوطني إلى وعي ديني يمايز بين الأفراد وفق هوياتٍ دينيةٍ، وطبعاً لم تكن المعارضة تستطيع مد الجسور نحو الشعب؛ فالنظام اجتثها كلية بممارساته القمعية على مدار عقود متتالية، وكذلك هي لم تبذل أي جهد حقيقي في إعادة مدها من جديد. ولكن، تكمن أهمية الثورة في أن لها أسباباً اقتصادية بالدرجة الأولى وسياسية بالدرجة الثانية ولاحقاً أصبح العنف اللامحدود عاملاً ثالثاً وأحيانا يصبح عاملاً أولاً، وهو الأمر الذي منعها من أن تأخذ أبعاداً طائفية رغم أن وعي الناس العام وعياً دينياً كما أشرنا، فقد قام الشعب أثناء الثورة، بممارسة الحصار ضد المجموعات المتشددة دينياً، عبر معالجات أهلية ميدانية، رفضت تلك المظاهر، مع الحرص على إشراك هؤلاء المتشددين بالثورة وحضهم على الابتعاد عن الطائفية السياسية، وأقصد أن الثورة الشعبية عملت على احتضان كافة شرائح المجتمع، رافضة تقديم العامل الديني على العامل السياسي والاقتصادي، لأن تثويرالدين سيكون عامل تفرقة وهو ليس سبباً للثورة، سيما وأن الناس لا تعادى الدولة لهذا السبب. ولأن الدولة ذاتها رعت الدين ورجال الدين وبنت من دور العبادة أكثر مما بنته أية دولة عربية في الفترة نفسها؛

بمعنى أخر، لم يجد الشعب المنتفض أبداً سبباً لأن يكون الدين من أسباب الثورة، ونزعم أن الشباب المتدين بثقافة عالية دينياً لم يكن له دوراً أساسياً في بداية الثورة، وأن الفاعل الأساسي كان أقرب للشباب العلماني والليبرالي واليساري، ولاحقاً ومع دخوله لم يقدم رؤيته الدينية، بل دخل كثائر يريد إسقاط النظام، والتخلص من مشكلات الاستبداد والنهب والفساد وتحكم الأمن بالناس. يكمل الشرط الخاص بالوعي هذا، رؤية الشعب لثورات الشعوب العربية وهي تنتصر، وما شكلته من حافزٍ عربيٍّ فاعلٍ للثورة، وثقة كبيرة بإمكانية الشعب على التغيير. تزامن هذين المعطيين هما ما دفعا الشعب إلى الثورة السورية.

قضية الحرية في الثورة

إحتفى الإعلام العربي والدولي بمفردة الحرية وألصقها بالثورة السورية، وكرّر أنها ثورة حرية ولها طابعاً إسلامياً ما، ليسهل عملية الربط بين الحرية و"الأغلبية السنية" ويحولها إلى ثورة إسلامية، بينما الحقيقة، أنها تكرست واقعياً كثورة ضد النظام بكليته، أي ضد الوضع العام في البلد وبالأصل هي نتاج شرط اقتصادي طاحن، لتكون الحرية تماثل رفض السياسات الليبرالية والنهب والافقار والتسلط بكل أشكاله، وتسعى لتحقيق مطالب الشعب في العيش الكريم بلا نهب ولا فساد ولا سرقة، إضف لذلك عدم ارتفاع الأهداف والشعارات الطائفية في سماوات الثورة، بل ولا حتى الدينية رغم أن الوعي دينياً.



النظام يتهاوى.. والثورة لا تنتصر

الثورة التي تطورت في ظل هذه المناخات من همجية النظام ورداءة سلوكات المعارضة وغياب أهداف محددة للثورة، واجهتها مشكلة عدم انهيار النظام، كما جرى في مصر وتونس، ووجود كتلة محيّدة ومتردّدة وكتلة موالية له، وفي ظل هذا الاصطفاف السياسي، واستمرار استخدام النظام أدوات عنف لا محدودة لا تستخدم إلا في الحروب الخارجية(دبابات، طائرات، مدافع) دخلت الثورة بإرباك الاستنزاف يرافقه تقدم بطيء لصالحها، وبالتالي تعاظمت حاجياتها للدعم الواسع، مالياً وأدوية وغذاءً وسلاحاً. العبء الأكبر قدمه الشعب المفقر وبعض الشرائح من الأثرياء، وتصيّدت دولاً وجماعات خارجية هذا الواقع لتؤثر به، وتصفي حساباتها مع النظام، أو لتساهم في صناعة النظام القادم في سوريةعبر أشكال من الدعم الهامشي. واحدة من مشلاته الثورة الكبيرة في أنها لم تستطع، تجسّيرالهوة بين الموطنين، ولم تدخل فيها أقسام جديدة في الثورة، وبقي توسعها في المناطق الأشد تضرراً والأبعد عن مناطق الأقليات الدينية، وهو ما استفاد منه النظام وما تضررت منه الثورة في السنة الأولى، ولكن ومع ارتفاع كلفة إسقاط النظام عبر تدمير الأخير لمناطق بأكملها وقتل المئات كل يوم، فإن الثورة تقدمت كثيراً، وأصبحت الفئات المترددة والصامتة والمحيدة بل وحتى الموالية، أقرب لتقبل فكرة رحيل النظام... أي أن فشل المعارضة في تقديم خطاب وطني وأهداف وطنية واضحة للثورة، أبقى تلك الفئات بعيدة عن الانخراط في الثورة، الأمر الذي أدخل البلاد باستطالة زمنية لعمر النظام، ولكن ومنذ أيلول عام 2012 ودخول حلب المعركة بقوة لم يبقى له سوى الرحيل، فما يفعله من دمار وقتل وقصف بالمدفعية والدبابات للمدن والبلدات والقرى، لا يمكن أن يصنف إلا في إطار حرب النهاية، أو حرب ما قبل الرحيل النهائي، وقد رفع الشعب من سوية المقاومة العسكرية، وتوسعت الرقعة الجغرافية التي يسيطر عليها، والتي تصل لسبعين في المائة، وتتمايز بين الليل والنهار، وبين مدينة وأخرى.

لا يمكن توقع النهاية القريبة، ولا يمكن استبعادها بأن واحد، الاصطفافات التي ذكرتها، أصبحت دون قيمة تذكر، وصارت أغلبية الشعب الثائر أو المحيّد أو الموالي مع رحيله، أو البدء بمرحلة جديدة، يتخلص فيها الشعب من كل هذا الدمار العظيم والقتل المخزي، والبدء بمرحلة جديدة، أساسها دولة لكل المواطنين.

إذن الثورة الشعبية السورية، ثورة تقودها أحياء مفقرة ومدن منكوبة بالاستغلال والاستبداد والقمع العاري، بل وحتى مدينة كبيرة كحلب، لم يعترف النظام لها بأية قيمة وأهمية، فمارس فيها نفس ما مارس من دمار في مختلف البلدات الصغيرة، لكل ذلك تستمر الثورة وتتصاعد ويستمر النظام في اخفاقاته وتتلاشي الأرض التي يسيطر عليها.

العامل الخارجي وأثره على الثورة

العالم متداخل مترابط متشارط، بعلاقات متكافئة أو بعلاقات تبعية، في إطار نظام رأسمالي تهيمن عليه الشركات العولمية وسياسات المحاور، ويعيش أزمة حقيقية كنمط انتاج رأسمالي وليس كأزمة مالية عابرة، ويشهد منذ عام 2008، مظاهرات ضده في مراكزه، ولا سيما في إسبانيا واليونان وإيطاليا والبرتغال، وما شهدته الدول العربية، يأتي في هذا الإطار. يضاف لذلك، أن المنطقة العربية، محكومة إمبريالياً بنظام عالمي ينطلق من أبدية إسرائيل كدركي مقاتل في الجبهة الأمامية للإمبرياليات، وبالتالي كل تغيير ثوري في منطقتنا، يجب ألا يطال وجود إسرائيل كقوة إقليمية، وهناك واقع العراق المحكوم أمريكياً وإيرانياً، وبالتالي الثورات العربية متأثرة بقضايا إقليمية شديدة الخطورة، وهي تشكل خطورة حقيقية على تطورها بالتأكيد؛ في إطار هذا الشرط، بدأت الثورة، وتوسعت وطال أمد عدم انتصارها، وهو ما تطلب منها أن تتلقى دعماً من الخارج. ولكن مشكلة الثورة ليس في الدعم بحد ذاته، بل في عدم وجود قوى سياسية تقود ذلك الدعم دون إرتهانات للخارج، وإدارته بشكل يؤدي إلى تجذير الثورة كثورة شعبية وطنية، وقد مورس عكس ذلك، فتم الاعتماد على الثورة وتوظيفها سياسياً لصالح قوى سياسية على حساب قوى سياسية أخرى، ليصار إلى عقد تفاهمات دولية، تخضع لسياسات تلك الدول بدلاً من أن يتم الاستفادة منها لصالح الثورة. وبالتالي صارت الثورة في الميزان الدولي، الذي هو ميزان عاجز، بسبب الأزمة الاقتصادية، وبسبب دعم لا محدود تقدمه روسيا والصين وإيران للنظام، دعماً مالياً وعسكرياً ودبلوماسياً عبرالهيئات الدولية، وبذلك تم تدويل الثورة السورية، لتصير قضية متاجرة واقتسام دولي على سورية، وهو ما لم تفهمه المعارضة المكرسة، ودخلت كأطراف تابعة للدول العظمى، وكل تفاعلات الأثر الدولي في هذا الإطار.

براغماتية الثورة وتصاعدها

الثورة اليتيمة من الدعم الخارجي، قرأت اللوحة العالمية جيداً، وأقصد براغماتياً، فأعطت بعض الولاء للمجلس الوطني ثم سحبته عنه، ورفعت بعض الشعارات لدولة ما ثم اسقطتها، وهكذا، لأنها بكل بساطة تريد المؤازة ضد نظام يستخدم أدوات حرب لا تستخدم إلا بالحروب الخارجية. بقيت الثورة بعيدة عن التدخل الدولي، ولم تخضع لدولة ما، ولا تستطيع أية دولة أن تدعى قيادته كما يدعى النظام، ولكنها بالتأكيد لا تعادى العالم ولا ترفع شعارات قومية ولا وطنية رغم أنها تحتمل ذلك؛ هي ثورة ضد النظام التسلطي في سورية، وليست ضد إمبريالية ما أو ضد الكيان الصهيوني، في هذه الأونة أقلها، وبالتالي من الطبيعي ألا ترفع الشعارات ضد أعداء وهميين؛ فخصمها الوحيد والقاتل هو النظام ومن يؤازره دولياً، ومعركتها الحاسمة ضد النهب والتسلط والقتل والدمار.

وفي هذا الإطار قبلت الدعم الخارجي- وهذا حال كل ثورات العالم التي تأخذ سنوات وسنوات-؛

هذا الدعم المحسوب بدقة والمشروط بدقة، هو دعم لا يستهدف الخلاص من النظام، فهو لا يزال يقتل الشعب منذ عامين تقريباً، ودول ذلك الدعم تريد وراثة النظام فقط، وبأقل الكلف وعبر لغوٍ إعلامي وقليل من الدعم المالي وبعض الأسلحة التي تأتي بشكل متقطع وبائس بكل المقاييس، ولولا قوة الثورة وتصاعدها واعتمادها على السلاح المستولى عليه من مستودعات جيش النظام وثكناته، لتشرذم المكون العسكري، أو اتجه نحو خيارات مأساوية وربما تراجعت الثورة فعلياً. إذن، قوة الثورة وتصاعدها هو سبب كل هذه الصراعات الدولية على سورية وليس العكس كما تتوهم المعارضة وكثير من العقائديين، ولم تقود المعارضة أية حملات دولية مستقلة للدفاع عن الثورة واستقدام الدعم لها، وكانت تفاهماتها الدولية أقرب للاستجداء الدولي بهدف الاعتراف بها. وقد شكل انقسامها وانقسام دول العالم في دعم متمايز لتياراتها، عامل تفرقة إضافي في تقسيم المعارضة، وفي تأخر نجاح الثورة؛ فأغلب الخلاف، حول مسائل كراسي السلطة القادمة وليس فيها اختلافات جذرية عن الاقتصاد أو شكل النظام السياسي أو أي موضوع ذو أهمية فعلية، فهيئة التنسيق مدعومة من روسيا والصين وحتى إيران، والمجلس الوطني مدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وكثير من دول العالم؛ هذا الصراع بين الكتلتين السياسيتين، أضعفهما دون شك، والأنكى أنهما لا يثقان بالشعب، ولا يقودان معركة دبلوماسية لنصرة الثورة، بل هما مجرد طرفان تابعان لدول عظمى؛ هذه الحقيقة تظهر بالضبط في موافقة هذين الطرفين على كل ما تقدمه تلك الدول العظمى من سياسات وأفكار، ليس لها أية معنى سوى الخضوع لتوازنات الصراع الدولي وإطالة الثورة وتحويلها إلى أزمة إلى أن تضعف سورية، ويتدمر كثير من مرتكزاتها كدولة إقليمية.

إن الدولة الروسية، ليس لها أية مصلحة بذلك، ولكن وقوفها إلى جانب النظام في مواجهته الشعب، يساهم في دمار سورية. وأيضاً، إن أمريكا وأوربا، بعدم ممارستهما أية ضغوط دولية فعلية ضد النظام وضد روسية ومن يواليها، أيضاً تطيل عمر النظام وتساهم في دمار سورية.

وبالتالي لا وجود لثورة الشعب على طاولة العمل الدبلوماسي، بل هناك فقط أزمة تخضع لموازيين دولية ليست بصالح الروس بسبب الثورة وليست بصالح الدول المعادية للنظام بسبب همجية النظام، وقيمة مناصرتها للثورة ليس من موقفها مع الثورة بل من قوة الثورة ذاتها؛ المعارضة المكرسة والتي تفتقد لأي شعور عالي بالمسؤولية اتجاه الشعب وثورته، لا زالت تعقد الصلة على الدول الامبرالية لإيجاد حل معين للثورة السورية، فالهئية لاتزال تلهج بحل سياسي لا يأتي، والمجلس لا يزال يلهج بتدخل دولي لا يأتي بدوره، وبالتالي تمارس هذه القوى دوراً رجعياً ضد التاريخ الثوري للشعب، ولا تعترف به من أصله في قاموسها السياسي البائس.

تأخر حسم الثورة لمعركتها بإسقاط النظام، أتٍ من عدم وضوح الأهداف، وهي كثورة شعبية تخوض مواجهات ومعارك دامية غير قادرة على صياغتها، وإن تصدي الإعلام لنشر وقائع الثورة، أدخلها بتعدد الولاءات والمرجعيات والرؤى السياسية المتمايزة، لتغيب الرؤية الجامعة والأهداف المحددة للثورة، وبذلك استمرت الثورة بأهداف عمومية جداً، ولم تستطع قواها الفاعلية حل مشكلاتها، ولا سيما غياب موقف محدد دقيق من بقية الشعب غير المنتفض ولديه كل أسباب الانتفاض والثورة، ومسألة العلاقة مع دول العالم، والموقف من المسألة الوطنية، والموقف من الوضع الاقتصادي للملايين، والذي كان متدهوراً قبل الثورة وتفاقم أثناءها، ولم تستطع الثورة تحديد شكل النظام السياسي القادم؛ هذه القضايا كان يفترض بالقوى السياسية التصدي لها، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً بذلك ودخلت بصراعات ثانوية لا معنى ولا قيمة لها، وهي لا تتعدى لعبة الكراسي، بدلاً من أن يكون الصراع على مستقبل الثورة وأهدافها، وعلى تعدد طرق حل المشكلات، فهو مبرر وجودها، وبالحقيقة لولا الثورة لما كان لهذه القوى السياسية أية قيمة واعتبار!

يمكننا القول هنا، إن العامل الخارجي، له سياساته ومصالحه، ولم يقدم شيئاً حقيقياً للثورة السورية، وكان من أكبر الأخطاء التعويل عليه، وهو ما فعلته المعارضة المكرسة، تنديداً واستجلاباً، وقد ساهموا بذلك في تأخير الثورة لإعلان أهدافها، وتحديد علاقة وطنية بدول العالم وحل مشكلاتها الواقعية ولا سيما مسألة تثوير بقية المناطق السورية، التي لديها كل أسباب الثورة.

نعم، إن التركيز على الخارج منع تجذر وتوسع الثورة داخلياً، وذلك لأن العالم متداخل كما أشرت، والسوريين بحكم الجغرافيا السياسية والثورة كثيروا الحساسية لكل مجريات العالم، وهذه الحساسية انعكست اصطفافات متباينة من الثورة، كونها ثورة شعبية بالأصل.

نخلص للقول: ما يحدث في سورية ثورة شعبية، وهي تتنوع في مكوناتها، وستبقى تتطوّر في هذا الإطار بالتحديد، إلى أن يسقط النظام وتبدأ سورية مرحلة جديد، وحينها سيكون الشعب أمام ثورات جديدة، ولكن بأدوات جديدة، وسيكون قادر حينها على التعبير عن أهدافه بدقة ووضوح، وربما ستكون الصراعات دون أدوات حربية كما تتم بشكل مركزي في الأونة الاخيرة.

حاولت في هذا الدراسة أن أناقش أسباب الثورة؛ وطبيعتها: فهل هي شعبية، سياسية، دينية، طائفية؟ ومسألة إلتباس أهدافها، وبعض مشكلاتها، وقضية السلمية والعسكرة، وقضية المعارضة بشكل مقتضب، وقضية العامل الخارجي ■

سلام السعدي

السلاح في الثورة السورية

صيرورة الانتقال من الدفاع الى الهجوم

تعيش سوريا منذ ما يزيد عن العام ونصف العام، ثورة شعبية ضد نظام استبدادي امعن في نهب البلاد وإفقار العباد، وعمل بشكل منهجي عبر سنوات حكمه المديدة على تصفية الاحزاب والحياة السياسية، وإدارة السياسة من فوق، ومنع كل اشكال الاحتجاج والمشاركة بالشأن العام.

وقد مرت هذه الثورة بمراحل متعددة وصولاً الى هذه اللحظة التاريخية الحرجة من عمرها حيث تسود لغة السلاح، وحيث تحولت نسبة كبيرة من جموع المحتجين السلميين التي ملأت الساحات بتظاهرات شعبية حاشدة في جميع المدن السورية، الى ثوار مسلحين في كتائب تطورت تدريجياً واشتد عودها وباتت اليوم تشكل مكوناً اساسياً من مكونات الثورة.

يمكننا اليوم ان نلحظ بأن الثورة السورية ترتكز على شكليين نضاليين بارزين، هما الشكل الشعبي السلمي من جهة والشكل العسكري من جهة أخرى، وقد تبادل هذين الشكلين المواقع والهيمنة عبر مختلف مراحل الثورة في صراعها المرير مع النظام، وفيما احتل الشكل الشعبي السلمي الموقع المهيمن في مراحل الثورة الأولى (منذ بداية الثورة في 15آذار وحتى شهر آب 2011)، برز مؤخراً العمل المسلح كشكل نضالي اساسي في صراع الثورة ضد النظام.

تطور اشكال النضال

لا يوجد صيغ جامدة ووصفات جاهزة لأشكال النضال في الثورات الشعبية، حيث تثبت حركة التاريخ ودراسة الثورات العالمية الظافرة والمنتصرة بأن وسائل نضالها كانت تتنوع بتعدد الثورات وتنوع الواقع السياسي والاجتماعي لكل منها، كما تتغير بتغير الظروف التي تمر بها الثورة.

التقط المتظاهرون السوريون منذ البداية تجربة خروج التظاهرات من المساجد في يوم الجمعة والتي ازدهرت في الربيع العربي، حيث سادت رغبة جامحة لديهم في "تقمص" اساليب النضال السلمي للثورة المصرية والتونسية، لكنهم فشلوا مراراً في محاولة احتلال حيز مكاني يضغطون به على السلطة لترحل (كميدان التحرير في مصر)، وهكذا دفعهم القمع العنيف من قبل السلطة وسقوط اعداد متزايدة من الشهداء الى الابتعاد عن التقليد الأعمى والسعي الى ابتكار اشكال



نضالية "سرية" تتناسب مع طبيعة السلطة القمعية وتتجنب المواجهة المباشرة معها، وهكذا بدأنا نشاهد ما عرف بالمظاهرات "الطيارة"(وهي تظاهرات سريعة تباغت قوى الامن وتنفض بسرعة ولها اثر معنوي يرتبط بالإصرار على مواصلة الثورة رغم عمليات القمع) وكتابة الشعارات الثورية على الجدران في الظلام الدامس، ووضع مكبرات الصوت التي تصدح بأغاني الثورة في الأسواق، وصولا إلى الإضراب العام الذي كان اعلى اشكال النضال السلمي، كل ذلك كان نتاج مدرسة الجماهير الثورية في سوريا التي طورت لاحقاً تحت ضغط القمع العنيف حماية شعبية مسلحة للتظاهرات، ومن ثم انشأت مكوناً عسكرياً للثورة تطورت مهامه من حماية التظاهرات السلمية الى الكفاح المسلح لإسقاط النظام، في صيرورة طويلة(حوالي العام) للانتقال من الدفاع الى الهجوم.

هكذا فإن كل انتفاضة أو ثورة جماهيرية تحمل معها أساليب نضال جديدة ومتنوعة، لا بل فإن كل فترة تمر من عمر انتفاضة معينة تضفي أساليب نضالية متمايزة عن الفترة التي تسبقها أو تليها، وذلك وفقاً للواقع ولظروف المواجهة الشعبية مع السلطة، لذلك تطورت اشكال النضال في الثورة السورية وصولاً إلى العمل المسلح، وبناء على ذلك فمن المتعذر جداً ان ترتبط الاشكال النضالية برغبات وإرادة المثقفين والنخب والأحزاب من دون النظر الى سير العملية الثورية، ودرجة اندفاع الجماهير ومشاركتها، وردود فعل السلطة واستعدادها للتسوية مع الحركة الجماهيرية (حيث رفضت الفئة الحاكمة في سوريا القيام بأي نوع من انواع التسوية مع كما في مصر وتونس)، وهكذا فإن تباكي البعض على سلمية الثورة السورية -التي قتلتها أجهزة النظام- واعتبارها الوسيلة الوحيدة والقطعية لإسقاط جميع النظم وفي جميع الظروف الاقتصادية والسياسية، هي نظرة مثالية لا تعي الواقع ولا تفهم بنية النظام وبنية الثورة وآلية تطورها.

اليوم وصلنا إلى مرحلة يشكل فيها العمل المسلح المكون الابرز من مكونات الثورة وذلك لأسباب متعددة، منها الاسباب المباشرة التي يمكن حصرها في العنف الشديد الذي مارسه النظام، ووضع الجيش في مواجهة الشعب وبروز ظاهرة الانشقاقات التي تطورت إلى عمل مسلح منظم، ومنها الاسباب العميقة والبنيوية التي مهدت لسيادة العنف كشكل نضالي في الثورة السورية وسننتقل الى هذه الاسباب.

العوامل البنيوية في ظهور العنف كشكل نضالي

يمكننا تحديد العوامل الرئيسية في الوصول إلى هذا المستوى من العنف كشكل نضالي بعاملين أساسيين: الاول يتعلق ببنية النظام، والآخر مرتبط ببنية الثورة.

النظام، بنية تنتج العنف

في بنية النظام، لا نقول جديداً اذ نشير الى طبيعة النظام السوري الأمنية المافيوية التي تتسم بالتحكم الشديد بموارد الدولة ومؤسساتها ونهبها لصالح المافيا الحاكمة، وكذلك التحكم التام بالمؤسسة الأضخم في البلاد أي الجيش، فلا استقلالية ولو نسبية خارج فضاء العائلة الحاكمة لأي مؤسسة سورية مهما صغرت مهامها وتدنت مسؤولياتها، أدت هذه البنية الامنية للنظام الى استخدام اكبر قدر من العنف والقوة في مواجهة الاحتجاجات السلمية التي بدأت بروح مطلبية إصلاحية، وهنا لا مجال للحديث عن اخطاء فردية (حيث تساق قصة عاطف نجيب وأطفال درعا كسبب لاندلاع الثورة)، وأما ان افراداً في النظام الامني قد ارتكبوا خطاء مجنونه فهذا امر مؤكد لا مراء فيه، لكنهم ارتكبوا هذه الاخطاء تحت ضغط البيروقراطية الامنية المافيوية القائمة، وضغط عناصر الطبقة المالكة التي كانت مصالحها مرتبطة بالحكم وبإبقاء قبضتها على البلاد، وهكذا فإن الاخطاء الفردية والتقديرات المغلوطة وأسلوب النظام في اخماد الثورة هو نتيجة حتمية للظروف الاقتصادية الاجتماعية ولطبيعة وبنية النظام، فعند هذه الدرجة من سوء الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للغالبية العظمى من السوريين، وعند هذا المستوى من النهب للثروات والتحكم بالبلاد من قبل المافيا الحاكمة، فمن المؤكد ان يواجه النظام جمهور الثورة بهذا المستوى من العنف المفرط.

إن استخدام النظام السوري هذا القدر الكبير من العنف لإخماد الثورة، هو مبرر جداً من وجهة نظر كل النظم الدكتاتورية المشابهة، حتى انه يشكل ضرورة لبقائها واستقرارها، وعلى مدار التاريخ كان استخدام النظم التسلطية للعنف أثناء قمع الاحتجاجات ضدها يتناسب عكساً مع قوة واتساع قاعدتها الاجتماعية، فمع انحسار القاعدة الاجتماعية لأي نظام يضطر إلى توسيعها بالترغيب والترهيب، كما يحمله خوفه من حالة العزلة الجماهيرية التي يعيشها على استخدام كل أنواع العنف التي يختزنها في مؤسساته القمعية، وهكذا يحق لنا أن نتساءل عن المستوى الذي وصل إليه النظام السوري في فقدان قاعدته الاجتماعية واضمحلال شرعيته حتى يستخدم هذا المستوى المرعب من العنف ضد المحتجين.

بنية الثورة ومكوناتها الاجتماعية

بينما نجح عنف ودموية الأجهزة الأمنية بمنع انخراط الفئات الوسطى بشكل اكبر ومستمر في الحراك السلمي، فقد عجز عن منع الفئات الشعبية المفقرة من المشاركة الكثيفة والمستمرة، حيث شكلت هذه الفئات الأرضية الصلبة التي قامت عليها الاحتجاجات وكانت سر قدرتها على الصمود والاستمرار، كما كان لها الدور الحاسم في تبلور المكون العسكري لاحقاً، وذلك في خضم صراعها مع النظام، حيث أن وضعها الطبقي في سورية المعاصرة، يجعلها تفهم قبل غيرها بأن مسألة الحرية هي من المسائل التاريخية الكبرى التي لا تحل في نهاية الأمر في مثل هذه النظم المافيوية إلا بالقوة، وإن الظفر بالحرية لن يتم دون تقديم أكبر التضحيات، وبتحطيم قوة الحكم المطلق بجميع الوسائل بما فيها بقوة السلاح، لقد كانت أول من فهم هذه المعادلة، وأعظم من

اندفع من أجل تحقيقها.

وفي تفاصيل التدهور الاقتصادي-الاجتماعي الذي لحق بهذه الفئات، نشير الى ان ازدياد أعداد الفقراء والعاطلين عن العمل كان سمة العقد الأخير من تاريخ سوريا، الذي تميز بانهيار قطاعات الإنتاج الزراعي والصناعي وانسحاب الدولة من الحياة الاقتصادية وإفساح المجال لمافيات المال والعقارات والخدمات المتحالفة مع السلطة، فارتفعت وتيرة النهب والسطو على مقدرات الدولة والمواطنين ليغدو حجم من هم تحت خط الفقر نحو 7 ملايين نسمة، يمثلون 34.3% من إجمالي سكان سورية.

وخضعت جغرافية الانتفاضة السورية لجغرافية الفقر بشكل كبير، فكان التهميش التنموي سمة عامة ومشتركة للمناطق الثائرة والتي حملت السلاح لاحقاً، حيث تشير بيانات عام 2004 إلى تركز الفقر "المدقع" في المنطقة الشمالية الشرقية، وتحديداً إدلب وريف حلب ومحافظات الرقة ودير الزور والحسكة، التي استحوذت على أكبر عددٍ من الفقراء بالعام 2004، وتعد المنطقة الشمالية الشرقية اليوم احد اهم حوامل المكون العسكري للثورة، بينما ازداد في الأعوام الأخيرة الفقر الشديد و العميق في المنطقة الجنوبية التي شهدت مدنها (ومنها درعا شرارة الثورة) أكبر زيادة في معدلات الفقر منذ عام 2004 حيث أصبحت نسبة الفقر في عام 2007 ضعف نسبة الفقر في عام 2004 تقريباً، وبالتالي فإن هذه المنطقة التي كان لديها أدنى مستويات الفقر في عام 2004، غدت ثاني أفقر منطقة في عام 2007.(الأرقام من المجموعات الاحصائية للمكتب المركزي للإحصاء، ومن كتاب محمد جمال باروت، العقد الاخير في تاريخ سوريا: جدلية الجمود و الإصلاح)

وهكذا نجد أن شرارة الانتفاضة انطلقت من المنطقة الجنوبية التي شهدت اكبر وأسرع تدهور تنموي خلال الخمس سنوات الماضية، وامتدت وتوسعت في المدن المهمشة وفي الأرياف (ريف دمشق، ريف حماه، ريف ادلب، ريف حلب)، وإذا كان من سمات هذه الثورة أنها أخذت شكلا مناطقياً واضحاً، فقد استمدت ذلك من الشكل المناطقي الذي يأخذه الفقر في سوريا، حيث شكل سكان "مناطق الفقر" شرارة الانتفاضة وجموع المتظاهرين والمكون العسكري لاحقاً، وهكذا أثبتت الطبقات الشعبية بأنها الوحيدة القادرة على القتال على رأس الشعب بكل ما تعنيه كلمة قتال من معنى، في سبيل تحقيق الحرية الكاملة، وتحقيق حياة كريمة وعادلة، كانت مستعدة للقتال حتى الموت في سبيل ذلك.

مراحل تطور العمل المسلح:

خضع العمل المسلح أثناء الثورة لثلاث مراحل، في المرحلة الأولى بدأ كردود فعل فردية على عمليات القتل ضد المتظاهرين وكانت ردود الفعل تلك تطال أفراد من الأمن المتورطين بالقمع وكانت تأخذ طابع انتقامي فردي أكثر من أي شيء آخر، ثم تطور في المرحلة الثانية ليأخذ شكل تنظيمي بسيط ومرتبط بالحركة الشعبية وداعم لها وكان يقوم بثلاثة مهام:

حماية التظاهرات الشعبية التي خرجت باستمرار من جميع الأحياء والبلدات الثائرة والتي كانت تتعرض لهجمات الأمن و الشبيحة، فطور الحراك الجماهيري وسائل مسلحة لحماية حراكه وكان ذلك يجري بالتعاون مع المنشقين عن المؤسسة العسكرية.

تامين مصادر مالية من خلال مصادرة أموال تعود لمؤسسات الدولة أو لأفراد يعملون مع الدولة وذلك بهدف تمويل عمليات التسليح وتقديم المعونة للناشطين والمسلحين المتفرغين لذلك.

القيام بعمليات اغتيال لشخصيات هامة وللمتعاونين مع الأجهزة الأمنية.

في هذه المرحلة من التطور البسيط للعمل المسلح ظهرت تخوفات وانتقادات مبدئية لاستخدام السلاح ونظر البعض إلى هذا الشكل النضالي على انه مجرد أعمال قام بها أفراد منفصلون عن الجماهير ومرتبطون بالخارج، وبأنه يضعف معنويات الجماهير ويقلل من انخراطهم بالثورة و يصرفهم عنها، إن العمل المسلح وفقاً لهؤلاء كان يشوش أهداف الثورة و يسيء إليها.

هذا ما توصل إليه البعض متجاهلين أن العمل المسلح في الثورة السورية هو شكل نضالي حتمي في هذه المرحلة من الثورة وعند هذا المستوى العالي من الحراك الجماهيري ومن رود الفعل العنيفة جداً للسلطة، كما ان التدقيق في العمليات المسلحة وتطورها يشير إلى أنها رفدت الثورة بوسيلة نضالية هامة حافظت عليها ومنعت إمكانية سحقها عبر حماية التظاهر السلمي الذي استمر بالاتساع مع بروز ظاهرة حماية التظاهرات، لقد ابتكر الحراك الثوري شكلين نضاليين متكاملين مترابطين، ليس لأحدهما أن يستمر دون الآخر، التظاهر السلمي من جهة، والعمل المسلح المرتبط بنشاط الثورة من جهة أخرى.

البعض ربط تخوفاته من العمل المسلح بتجربة أحداث الإخوان المسلمين ويؤكد انطلاقا من ذلك على فشلها، لقد كان العمل المسلح بالثمانينيات عبارة عن هجوم يائس من قبل مجموعات الإخوان على سلطة قوية عسكرياً وسياسياً ومتماسكة اجتماعياً (بسبب الاستقرار الطبقي الذي أوجدته عمليات التأميم والإصلاح الزراعي)، وكان هذا الهجوم فاقد لكل ارتباط شعبي وهنا صبت المعادلة بكل تأكيد في صالح السلطة الأكثر تنظيما وقوة وعتادا، فالتعبئة الثورية للجماهير في ظل وضع ثوري هي السبيل الوحيد لتجاوز معادلة تفوق سلاح السلطة، وهذا ما حدث في الحالة السورية، حيث شهدت سوريا اندفاع سيل جماهيري جارف ليشارك بالسياسة وتعبئة جماهيرية ثورية لم تشهد لها سوريا مثيل في تاريخيها الحديث، إن ارتباط العمل المسلح كشكل نضالي بالتعبئة الجماهيرية هو مصدر قوته، فوحدها التعبئة الثورية للجماهير يمكنها أن تهزم التفوق العسكري والتقني وان تبطل مفعوله، وهنا ينبغي دراسة تكتيك العمل المسلح وتطويره بما يضمن الحفاظ على هذه المعادلة، فالتاريخ اثبت انه يمكن إخماد أية ثورة، وحتى أكثر الثورات بعثاً للآمال قد أمكن تدميرها عندما انفصل قادتها الثوريين وطليعتها الجماهيرية عن القاعدة الشعبية الأوسع واختاروا العمل "النخبوي" الثوري المسلح، وعندما لم تأخذ قيادتها بضرورة الحشد والتعبئة الجماهيرية في مواجهة قوى السلطة القمعية.



مما لا شك فيه أن العتاد والسلاح ودرجة تطوره هام في الثورات التي يكون فيها السلاح احد أشكال نضالها، ولكنه غير حاسم في أهميته، ولو كان حاسما لفشلت جميع تلك الثورات، لان السلطات الحاكمة تدخل دوما المعركة مع الطبقات الشعبية وتحت إمرتها مؤسسات الجيش والأمن وقوى القمع المنظمة داخل المجتمع (البلطجية، الشبيحة...) ومع ذلك نجحت ثورات عديدة في العالم بإسقاط أعتى الأنظمة، إن ما يحدد في النهاية انتصار الطبقات الشعبية الثائرة هو أصالة أهداف الثورة وارتباطها بالواقع السياسي- الاقتصادي، وبالتالي توفر القدرة على تعبئة الجماهير حول برنامج الحركة الثورية، وهنا تأتي أهمية البرنامج الثوري وأهمية طرائق التنظيم والتكتيك الثوريين وكذلك فطنة وتوقد ذهن القيادات الثورية، والتي تمثل جميعها نقاط ارتكاز مفقودة في الثورة السورية، وذلك لأسباب ذاتية تتعلق بطبيعة وتكوين المعارضة السورية، وكذلك لأسباب موضوعية تتعلق بطبيعة الدولة السورية المحكومة بقوة الاستبداد والأجهزة الأمنية التي سحقت الحياة السياسية، ففي سوريا لا يوجد أحزاب سياسية قوية ولا حتى قيادات وطنية تقود الثورة، بالإضافة لعجز الثورة حتى الآن عن إيجاد قيادة ميدانية موحدة، وذلك بحكم المخاطر الأمنية الكبيرة التي تحيط بالناشطين والمتظاهرين وانعدام الحيز العلني للنشاط، هذا ما يجعل من النشاط المناطقي السري، المتصف بالتشتت والاعتماد على الذات هو أساس العمل الثوري في سوريا مع قدر ضئيل (يرتفع باستمرار) من التواصل والتنسيق بين فعاليات الثورة على الصعيد الوطني، وهذا مكمن ضعف في الثورة وفي برامجها المطروحة أو ربما الغائبة.

بالنتيجة حدث اتساع كبير في نشاط العمل الثوري المسلح خلال هذه المرحلة، لكنه حافظ على ارتباط وثيق بنشاط الثورة الشعبية فكان يمارس تكتيكاته على ضوء استمرار هذه العلاقة، كان ينسحب من المدن لكي لا يوفر ذريعة لقوى الأمن والجيش بقصفها، ثم يعود ويدخلها بعد حين، ساهم بالإضراب في المدن الكبرى، وقدم أمور عديدة أثبتت انه ابن شرعي للثورة وهو يدعمها ويوضحها أكثر من كونه يشوش عليها، وان غيابه عن الثورة -الذي يطلبه البعض- عدا عن كونه غير ممكن حسب السير الموضوعي للأحداث، لكنه أيضا كان ليضع الثورة الشعبية في طريق مسدود ويدخلها في مرحلة من الإحباط واليأس والتخبط أمام جبروت النظام، فكان لا بد للثورة من أن تطور أشكال نضالها بما يجعلها تفتح افقاً جديداً على أرضية افقها الأول أي العمل الشعبي كوسيلة أساسية وإستراتيجية في إسقاط النظام، هذا التكامل هو ما أزال التشويش عن الثورة ووضحها و جعل خطواتها أكثر ثقة وثبات على طريق النصر.

المرحلة الثالثة، المكون العسكري كشكل نضالي مستقل:

انتقل النظام من دائرة الحل الامني الى دائرة الحل العسكري وراج يتبع سياسة الارض المحروقة من دون رادع، وتزايد معها الاعتماد على السلاح لحماية التظاهرات وكذلك تزايدت الانشقاقات عن الجيش، فكان العمل المسلح يتطور تدريجياً، وكان التنظيم والتسليح والتدريب والتكتيك يتطور معه أيضا في ضوء الحاجات المتزايدة له، وهكذا اشتد عود العمل المسلح في الثورة وراح يأخذ شكلاً أكثر اتساقاً وانضباطاً وتنظيماً، وارتفعت أعداد المسلحين الذين يدافعون عن الثورة إلى حد جعل العمل المسلح يجتاز مرحلة جنينية سابقة ليدخل بمرحلة أخرى يكون فيها تأثيره أكبر وقدرته أعلى، وذلك بالتزامن مع ارتفاع مستوى التكتيك القتالي ضد أجهزة النظام ومليشياته وحيازة الثوار على بعض الأسلحة المضادة للدبابات والمدرعات التي جعلت من اقتحام المدن مهمة عسيرة ومكلفة للغاية، هذا ما دفع النظام لاستخدام المدافع والحوامات العسكرية والطيران الحربي لقصف مناطق خارج سيطرته وعاجز عن دخولها، وبالنتيجة فإننا شهدنا تطور نوعي في العمل المسلح حيث أصبح له بنية تنظيمية ومهام ونشاطات لا ترتبط بشكل مباشر بالحراك الشعبي كما كانت سابقاً (مهام حماية التظاهرات واغتيال المخبرين) انها مهام "عسكرية"، تعمل على تحقيق انتصارات عسكرية على النظام، أي انه اتجه للتشكل التنظيمي والعسكري تحت شعار: "إسقاط النظام بالكفاح المسلح".

لذلك بات يتحصن في مدن وبلدات معينة، وتعجز السلطة عن الدخول إلا بتدمير شامل للمدن، حيث ينزح السكان عن المدينة ويتوقف الحراك الشعبي فيها ويتحول إلى عمل مسلح مباشر، كما أن ارتفاع أعداد المنشقين وتطوع أعداد متزايدة من المدنيين في الجيش الحر بعد تدمير مدنهم وقتل أهلهم أدى إلى تغير نوعي في أعداد الجيش الحر، وباتت كتلته كبيرة بحيث يصعب معها تنفيذ انسحابات تكتيكية كما كان يفعل سابقا لكي لا يدمر المدن، هذا دفعه للتمركز في أماكن والدفاع عنها حتى النهاية لتتحول إلى مناطق عسكرية مدمرة وغير مأهولة بالسكان لا تصلح إلا كساحات قتال وتمركز للجيش الحر.

إن انتهاء العمل الشعبي والتظاهر في المناطق التي يتمركز فيها الجيش الحر، بسبب تدمير المدن ونزوح السكان والتحول نحو الكفاح المسلح في المدن المدمرة، حدث بوتيرة سريعة ومتزايدة، وهو أخطر ما حمله هذا الشكل من العمل المسلح على التعبئة الجماهيرية والمشاركة الشعبية.

لكن خطراً آخر لا يقل اهمية حمله هذا التشكل المستقل للعمل المسلح، وهو ارتفاع مستوى التدخلات الدولية والإقليمية في شؤون الثورة، وإذا كانت هذه التدخلات متعذرة في ثورة شعبية جامحة، فإنها ايسر في تشكيلات عسكرية محددة تحتاج الى دعم كبير بالمال والسلاح لتحافظ على مواجهة متوازنة مع النظام المدجج بالسلاح، الاسوء هو اشتراطات الداعمين، والتي كانت تتضمن رفع مستوى الخطاب الطائفي في الثورة مستغلة البيئة الخصبة الناشئة.

إن مستوى العنف الذي استخدمه النظام ضد ثورة شعبية سلمية، وطول مدتها وارتفاع مستويات القتل والدمار الذي يحدثه النظام في البيئة الحاضنة للثورة، بالإضافة لتدني مستوى الممارسة السياسية لدى المعارضة، كل تلك العوامل جعلت من المحتم ظهور خطاب متطرف لدى قسم من أهل الثورة، خطاب أصولي اجتذبه الدمار والقتل والعنف الذي أمّنه النظام، بالإضافة لدعم سياسي مالي خليجي وجد في هذا الخطاب مخرجاً لنظامه السياسي من مأزق الثورات العربية

وشعاراتها المدنية الحداثية، فمن المؤكد بأن الهوة القائمة بين مطامح الثورات العربية والنظام السياسي العربي هي أعظم ما تكون مع النظم السياسية الخليجية.
هكذا تزايدت المظاهر "الدينية" في خطاب المكون العسكري للثورة، وهي تعبر في جزء منها كما قلنا عن لجوء روحي الى الاله الجبار القادر على كسر ارادة الطاغية الذي يفتك بالشعب، وعن غياب التشكل السياسي لهذا المكون، لكنها في شقها المتطرف "الأصولي" تعبر عن ارادة اقليمية ليست بريئة على الإطلاق، حيث عملت بجهد على خلق مجموعات اصولية متطرفة تحرف الثورة عن مسارها، وتضرب اهدافها المعلنة في دولة مدنية ديمقراطية الشعب فيها هو مصدر السلطات.

خاتمة:

من غير المتوقع ان يتمكن المكون العسكري للثورة السورية عند هذا المستوى من التسليح والترابط والتنظيم من إلحاق هزيمة عسكرية بالنظام الذي يدافع عن نفسه عبر جيش مدجج بالأسلحة ومخصص لمواجهة الكيان الصهيوني، كما أن النظام لن يتمكن من هزيمة المكون المسلح عند المستوى الذي وصل إليه ومع الالتفاف الشعبي الذي يحظى به، هذه هي المعادلة العسكرية السائدة، لكن العمل المسلح في الثورات الشعبية لا يبتغي حسماً عسكرياً بقدر ما يبتغي الحسم السياسي، وهكذا تتابع الثورة السورية طريقها بمسار ثابت نسبياً وبصفة عامة "مهيمنة" وهي: مزيد من القوة والتوسع للثورة وقواها، ومزيد من الضعف والتفكك والانهيار للنظام السوري ومؤسساته، تتابع الثورة طريقها وهي تتمسك بالاحتجاج السلمي وبالعمل المسلح جنباً الى جنب، وسيأتي اليوم الذي ستتخلى فيه الثورة عن العمل المسلح، عندها ستكون ساعة الحسم السياسي قد حانت ■

سلامة كيله

عن الثورة السورية وانتصارها

السؤال الذي يتكرر هو، متى يمكن أن تنتصر الثورة السورية؟ أو لماذا تأخر انتصار الثورة السورية؟
والسؤال وجيه من زاوية أن ثورات تونس ومصر لم تستمر سوى اسابيع، وثورات ليبيا واليمن لم تستمر سوى أشهر، أما الثورة السورية فها هي تتجاوز العام ونصف. ولهذا، أولاً، فهي "تأخرت"، وثانياً يصبح السؤال متى ستنتصر هو المعلم الذي يتحكم في جل الأسئلة والنقاشات.
ربما نستطيع تحديد أسباب "تأخر" انتصار الثورة، والظروف التي فرضت أن تأخذ كل هذا الوقت، لكن ليس من السهل الإجابة على سؤال متى تنتصر، لأن ذلك يتعلق بجملة محددات ربما لا نستطيع تلمسها كلها.
عن "التأخر"
ليس الأمر مسألة تأخر إلا بالقياس على الثورات الأخرى، حيث ليس من زمن لاستمرار الثورات، سواء كانت نهايتها الانتصار أو الهزيمة، لأن الأمر يتعلق بمقدرة الشعب على التواصل والاستمرار بغض النظر عن آليات المواجهة التي تفرضها السلطة من جهة، وبطبيعة السلطة ومدى تماسكها من جهة أخرى.
وإذا كانت قد تميزت ثورات تونس ومصر بالاندفاعة السريعة التي أربكت السلطة وأرعبت قواها، ومن ثم فرض ذلك أن يتحرك الجيش لكي ينقذ الموقف من خلال مسك السلطة تحت شعار تحقيق انتصار الثورة في عملية هدفت إلى إبعاد الرئيس وحاشيته فقط. فإن الوضع السوري تحرّك في مسار آخر، ودخل في دهاليز متعددة. الأمر الذي لم يفرض على "بعض أطراف السلطة" أن تميل إلى إبعاد الرئيس وحاشيته من أجل امتصاص الثورة. إلى الآن على الأقل، دون أن نتجاهل أن هذا الأمر لازال ممكناً.
في هذا السياق يمكن رصد مستويات متعددة، بعضها موضوعي وبعضها ممنهج، بعضها يتعلق بطبيعة الثورة ذاتها وبعضها يتعلق بطبيعة السلطة.وهي كلها تؤسس لفهم استمرار الثورة إلى الآن من جهة، وإلى استمرار "تماسك" السلطة ومقدرتها على خوض الصراع من جهة أخرى. مع ملاحظة أن طول الزمن ليس دليلاً على عجز الثورة أو فشلها، حيث أن كثير من الثورات في التاريخ استمرت سنوات. ولا شك في أن طبيعة القوى المتصارعة هو الذي يعطي الزمن كل

أبعاده ومعناه.

بالتالي يمكن تلمس جملة مسائل أدت لأن يستمر الصراع، وألا تحسم الثورة الأمر إلى الآن، يمكن تحديدها تواً:

1- إذا كانت الثورات هي نتيجة انفجار شعبي عام ينتج عن ممارسات طويلة من النهب والاستغلال والسيطرة، تدفع الشعب في لحظة إلى التمرّد بعد أن يحسّ بالعجز عن العيش، نتيجة البطالة الواسعة والأجر المتدني خصوصاً، ومن ثم نتيجة انهيار الاقتصاد والتعليم والصحة، كما كان واضحاً في تونس ومصر مثلاً. فإن الوضع السوري، الذي كان يسير نحو التماثل مع هذه البلدان، والتكيّف مع اشتراطات "العولمة"، كان قد حقق الانفتاح بانتصار اللبرلة للتو، حيث اكتمل تحويل الاقتصاد من اقتصاد منتج نسبياً إلى اقتصاد ريعي بالكامل سنة 2007. وحيث تشكلت الكتلة الشعبية المهمشة والمفقرة (حوالي 30% بطالة، وأكثر من ذلك تحت خط الفقر).

هذا الأمر أوجد احتقاناً كبيراً، لكنه لم يكن قد وصل إلى حد كسر حاجز الخوف من السلطة، التي عُرفت باستبداديتها وعنفها من خلال ممارساتها الطويلة. ولهذا كان الأمر يحتاج إلى وقت لكي تزيد حالة الإفقار من الاحتقان إلى الدرجة التي تدفع إلى التمرّد الشامل. العوامل الأخرى التي دخلت على خط حدوث الانفجار (الثورات العربية، والعنف الذي سيلعب دوراً مزدوجاً) هي التي افضت إلى الثورة بالطبع، لكنها لم تستطع حل مشكلة كسر حاجز الخوف إلا بشكل بطيء ومتتالٍ، الأمر الذي جعل الثورة تتوسع ببطء. لهذا أخذ توسعها من دمشق ودرعا ووصولها إلى حلب وكل سورية تقريباً ما يقارب السنة.

وهو الأمر الذي كان يجعل السلطة قادرة على الضبط بفعل قوتها، وتركيز هذه القوة على "المناطق الثائرة". وأيضاً ألا يقود إلى ارتباكها حيث كان التوسع السريع هو الذي سيفرض الارتباك والخلخلة السريعة، كما في تونس ومصر. فقد ظلت متماسكة (أي دون انشقاقات) وقادرة على التحكم في مواقع الصراع.

2- بدا وكأن السلطة قد استفادت من تجارب الثورات في تونس ومصر خصوصاً، حيث ارتأت بأن "انتصار الثورة" هنا وهناك نتج عن عدم استخدام العنف بشكل "كافٍ"، وخصوصاً عدم ادخال الجيش في الصراع، والتعامل العنيف مع التبلورات الأولى للثورة. لهذا اندفعت لاستخدام الرصاص (ادخال الفرقة الرابعة والوحدات الخاصة في القمع) منذ الاعتصام الأول في درعا يوم 18/ 3/ 2011، رغم أن عدد المعتصمين في الجامع العمري لم يكن كبيراً. والهدف هنا هو قتل إمكانية التفكير في الثورة انطلاقاً من أنها سوف تُغرق بالدم، الأمر الذي يقود إلى تخويف قطاعات كبيرة، فتجهض الثورة.

وإذا كانت هذه الممارسة قد أدت إلى العكس تماماً في درعا وكل حوران، حيث توسّع التمرّد لكي يتحوّل إلى ثورة، فقد أدى إلى نشر الخوف في المناطق الأخرى، وفرض ان تصبح المشاركة محفوفة بالموت، بالتالي حصرت الحراك في نخب وفئات لا يعني الموت لها شيئاً، أو لديها قناعة تامة بضرورة الثورة. لهذا لم تتحوّل الحراكات إلى حشد جماهيري دافق إلا في بعض المواقع قبل أن يصبح القتل هو وسيلة السلطة في مواجهتها (مثل حماة خصوصاً، التي جرى التعامل معها في البدء بشيء من الحساسية، عكس حمص التي قمعت بعنف شديد منذ أول تجمع كبير). هنا اصبحت المشاركة في الثورة ذو كلفة عالية، وتخضع "انفعالات" أخرى سنجدها في آلية القتل ذاته.

فهذا الخوف من القتل كان يتحوّل إلى عنصر انخراط في اللحظة التي يحدث فيها القتل. فقد شهدنا أن الحراكات الأولى كانت من نشاط شباب يريد الثورة، سواء نتيجة حاجته إلى الديمقراطية (وفي كثير من المناطق كان هؤلاء هم العنصر المحرّك للثورة) أو نتيجة البطالة والإفقار الذي يعيشه. لكن كان التصدي بالرصاص للمتظاهرين ووقوع شهداء هو العامل الذي يحوّل التظاهرات الصغيرة إلى دفق بشري هائل.

وهنا تحكمت السلطة في طريقة التعامل مع التظاهرات، حيث أنها كانت تمارس القتل في مناطق ولم تكن تمارسه في أخرى انطلاقاً من حساب مقدرتها على المواجهة، وتركيزاً على المناطق المنتفضة من أجل سحقها. وبالتالي جعلت توسّع الثورة بطيئاً كذلك.

3- مع رفض السلطة الاستجابة للمطالب الأولية للمحتجين (والتي قالت أنها محقة)، ومع انفلات الوضع في درعا من تحت سيطرة السلطة، التي بدت أنها "محررة"، بات الشعار الذي خطه أطفال درعا قبيل الثورة بأيام تأثراً بالثورات العربية هو المطلب المطروح. لقد رُفع شعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، وهو أمر فرض ان يكون الانخراط في الثورة ليس على قضايا مطلبية مباشرة هي ما يهدف إليه المنتفضون، ويسعون إلى تحقيقه عن طريق إسقاط النظام، بل من أجل إسقاط النظام ذاته. بمعنى أن دخولهم الصراع بات الآن قائم على مواجهة السلطة لإسقاطها وليس صراعاً من أجل مطالب محدَّدة هي تلك التي تحرّكهم في ثورتهم (وهذا أحدث إشكالاً تالياً، حيث جرى إهمال تلك المطالب في سياق الثورة العام).

الفكرة هنا هي أنه إذا كانت الفئات المفقرة لاتزال تخاف طرح مطالبها "البسيطة" (الأجر والعمل والتعليم والصحة، و"كف شر السلطة") فقد أصبح عليها المشاركة تحت هدف أكبر هو إسقاط السلطة. وهذا ما كان يجعل الانخراط في الثورة أصعب أيضاً، وكما أشرنا كسر عبر القتل، وفي أوقات متتالية.

هذا لا يعني خطأ طرح الشعار منذ الشهر الأول، فقد فرض الظرف الموضوعي ذلك، لكن كان له أثر آخر لا بد من تلمسه، في ثورة هي شديدة العفوية.

4- الثورة في تونس كانت عفوية في انطلاقها لكن عملت أحزاب ونقابات على تنظيمها (وإنْ ظل هذا الدور ضعيفاً). والثورة في مصر بدأت بدعوة إلى إضراب منظم لكنها تحوّلت إلى ثورة عفوية (نتيجة غياب الفعل السياسي الهادف إلى قيادتها إلى السيطرة على السلطة بتحريك كل الشعب، الأمر الذي جعل مبدأها هو: اعتصام اعتصام حتى يسقط النظام).

في سورية انطلقت الثورة عفوية، ورغم التعقيدات المتعددة (التي أشير إليها سابقاً، والتي سيشار إليها تالياً) فقد ظلت عفوية. وكل المحاولات البسيطة التي كانت تجري تنظيمها من قبل الشباب أنفسهم في إطار التنسيقيات كانت تواجه بشراسة القمع السلطوي. وظهر واضحاً بأن أحزاب المعارضة هي في وارد آخر، حيث لم تتوقع الثورة، وكانت في الغالب تعتقد باستحالتها. وحين بدأت لم تحدد مكانها فيها (أي في الشارع) بل ظلت تمارس الآليات التقليدية ذاتها، التي انبنت بعيداً عن الطبقات الاجتماعية (سواء نتيجة القمع الطويل أو نتيجة تقولب هذه الأحزاب في أفكار وممارسات وعلاقات منفصلة عن هذه الطبقات وبعيدة عن اهتماماتها). لهذا كانت فاعليتها تنصبّ على "السلطة"، الحوار من أجل "الانتقال السلمي والآمن إلى الديمقراطية"، أو تبلورة التصورات حول المرحلة الانتقالية التي سـ "تطبق" بعد استلام السلطة (من خلال التدخل الخارجي في الغالب).

بالتالي ظل وعي الشباب الثوري هو المتحكم في مسار الثورة، وهو وعي بسيط كان في قطيعة مع الفكر السياسي والعمل السياسي نتيجة الاستبداد الطويل وتدمير الثقافة. وبالتالي لم يكن قادراً على التصدي لسياسات السلطة التي كان واضحاً أنها وضعت إستراتيجية مواجهة متكاملة (في المستويات العسكري والسياسي والإعلامي). ورغم أن الممارسة الثورية قد اكسبته خبرة وفرضت عليه تطوير الوعي، وهذا ما سيؤدي إلى تشكّل كادرات مهمة في المرحلة القادمة، إلا أنه لم يكن قادراً على تلافي مشكلات الثورة، ووضع إستراتيجية واضحة لكيفية إسقاط السلطة عبر استقطاب كل الفئات الاجتماعية إلى الثورة، ولا على بلورة مطالبه، والبديل الذي يرتأيه لتحقيق هذه المطالب بعد إسقاط السلطة.

بهذا كانت كل المشكلات التي تواجهها الثورة، وهي كثيرة، تحل ببطء وبعد ممارسة أخطاء، وكثير منها لم يجرِ الشغل على حله.

5- ربطت السلطة بين استخدامها العنف الشديد والخطاب الذي لا بد من أن يغطي على هذا العنف، لهذا (وكما فعلت الإمبريالية الأميركية) قالت بوجود عصابات سلفية مسلحة تسعى لإقامة إمارات سلفية. لكن الأهم هنا هو العمل على تكريس أن الثورة هي حراك سني أصولي يقوده الإخوان المسلمين، وأن الثورة هي ذو طابع طائفي ضد نظام علماني أو سلطة "علوية". كان يجري التركيز على الشق الأول علناً عبر الإعلام "الموالي"، لكن كان يجري نشر الفكرة الأخرى على أوسع نطاق. فقد هدفت السلطة إلى بناء شرخ مجتمعي يضمن التفاف "الأقليات الدينية" حول السلطة، وتمسكها بها، ودفاعها عنها. هنا خصوصاً العلويين الذين من بعضهم تتشكل "البنية الصلبة" للسلطة، ويكون ضرورياً لكي تبقى هذه البنية متماسكة وقوية أن يجري ضمان "ولاء" البيئة التي تتشكل منها.

لكن أيضاً كان ضرورياً إبقاء قطاعات مجتمعية كبيرة خارج الحراك من أجل عزل المجموعات المتمردة وسحقها. وكان ينظر إلى "الأقليات" كعنصر اساسي، والعلمانيين من كل الطوائف. إضافة إلى الفئات المستفيدة من السلطة مثل التجار ونخب الفئات الوسطى (المحامون والأطباء والمهندسون والعاملون في القطاع الحديث)، التي هي أصلاً في صفها.

لقد جرى اللعب على ما جرى في العراق، وهو وضع أثّر كثيراً في تشكل وعي كل المجتمع السوري نتيجة الهجرة الكثيفة للعراقيين إلى سورية، وأسس للشعور بخطر التدخل العسكري الإمبريالي من جهة، وبأهوال الصراع الطائفي ودور الأصولية من جهة أخرى. كما جرى على الربط بين أحداث سنوات 1979/ 1982 وما يجري الآن، من منظور أن الأمر يتعلق بانتقام "إخواني" (وربما سني) من العلويين الذين يصوّر بأنهم من سحق التمرّد الإخواني المسلح في ذلك الوقت (رغم أن الشباب المتدين يحمّل الإخوان أيضاً مسئولية ما جرى حينها، لأنهم من بدأ الصراع الطائفي).

وكان إدماج الساحل في الثورة أمراً أساسياً لكي يكون تفكك السلطة أمراً محتوماً. لكن مع الأسف لازال هذا المنطق مسيطراً، ولقد تعمّق في سياق تطور الثورة بدل أن ينتهي. وما جعله ينجح إلى الآن هو سياسة بعض أطراف المعارضة التي صممت على أن تفرض على الثورة طابعاً أصولياً إخوانياً، واستخدمت كل علاقاتها من أجل ذلك، فهيمنت على الإعلام الذي هو أصلاً متوافق معها، وضخّت الأموال من أجل شراء "المرتزقة". وأخذت من الواقع حيزاً ضيقاً عممته على أنه هو الثورة، وهو الحيز الأصولي السلفي، الذي كان شباب الثورة قد أعلنوا منذ الشهر الأولى للثورة: لا سلفية ولا إخوان، مؤكدين على الطابع الشعبي والمدني للثورة.

بهذا كانت سياسة هذه الأطراف تصبّ في تأكيد خطاب السلطة، وبالتالي تفرض تخويف "الأقليات" وكثير من العلمانيين، والرافضين للتدخل الإمبريالي، ومن ثم يبقى الفئات المترددة قطاع واسع، وتؤسس لتماسك قطاع كبير من الأقليات خلف السلطة. أي أنه بدل كسر خطاب السلطة والعمل على انخراط هؤلاء في الثورة جرى تدعيم ترددهم أو وقوفهم مع السلطة. رغم أن مسار الثورة فرض تقلصاً تدريجياً لدعمها السلطة، وانخراط قطاعات أوسع في الثورة، الأمر الذي جعلها تشمل كل سورية، لكن مع بقاء هذه المشكلة قائمة لدى قطاعات من "العلويين" بالخصوص.

6- وإذا كانت العناصر السابقة يؤشّر لسبب تأخر انتصار الثورة، فهي تؤشّر كذلك إلى السبب الذي لم يجعل السلطة ترتبك وربما تتفكك. ولابد هنا من ملاحظة التمايز القائم بين وضع تونس ومصر من جهة، وسورية من جهة أخرى من هذه الزاوية بالتحديد. حيث سيكون "انفصال" الجيش عن السلطة (التي هي هنا الرئيس وحاشيته) أكثر تعقيداً.

فقد عمل حافظ الأسد على أن يشلّ قدرة الجيش على القيام بأي انقلاب بعد سلسلة طويلة من الانقلابات شهدتها سورية. لهذا عدّد أجهزة الأمن (17 جهازاً كما يشار عادة)، وجعل كل منها منافس للآخر لكي يضمن مراقبة كل جهاز لنشاط الآخر، وبالتالي يشل كل إمكانية لتآمر. ولقد أصرّ على ألا ينسق أي جهاز مع الآخر إلا بأمر منه. وبالتالي فقد اصبح هو مركز المعلومات عن "كل شيء" بما في ذلك نشاط الأجهزة ذاتها.

هذا مستوى مهم، وهو الأساس الذي تشكلت عليه السلطة التي باتت في جوهرها هي سلطة أمنية (أو سلطة الأمن). لكن سنلحظ برع في تعيين كبار ضباط مسئولين في الفرق العسكرية، لكنهم متنافسين وفي الغالب متناقضين، ولا يحق لأي منهم أن ينسّق مع الآخر حتى في حالات الحرب. وأيضاً خاضعين لبنية أمنية اخترقت كل تراتبية الجيش، من الفرقة إلى أصغر وحدة. فقد كان المسئول الأمني هو "السلطة" في كل مستوى من مستويات الوحدات العسكرية.

وكذلك أخضعت كل تحركات الجيش للرئيس ذاته.

في هذا الوضع أصبح كل عنصر معني بإطاعة الأوامر العليا، وتنفيذ الأوامر، دون أن يفكّر في الاختلاف أو التمرد، لأنه حينها سيلقى في السجن. بمعنى أن حافظ الأسد استطاع أن يضع كل وحدات الجيش تحت "ضوء كاشف".

هذا الوضع لم يؤدِ إلى بناء جيش مقاتل، بل أسس لبناء جيش مشلول. وهو الآن ينفذ الأوامر تحت سيطرة سلطة أمنية شديدة (ومنها الشبيحة كذلك)، وينشق فقط في لحظة ارتباك هذه السلطة الأمنية.

وهذا ما يجعل مسألة عدم حدوث انقلاب عسكري مفهومة. فقد بني الجيش لكي يمنع ذلك. بالتالي كان صعباً تحرّك الجيش لكي "يدعم" الثورة، أو يقوم بعملية التفاف كما جرى في تونس ومصر.

7- ربما لا بد من أن نشير إلى العنصر الدولي في هذا المجال، حيث كانت الولايات المتحدة على "علاقة وثيقة" بكبار ضباط الجيش في تونس ومصر، وبالتالي كانت في تونس تريد التخلص من بن علي الذي جرى اعتبار أنه موالٍ لفرنسا، ودعمت في البلدين التغيير من أجل "تنفيس" الثورة في سياق العمل على إجهاضها. لهذا كانت دافعاً لرحيل كل من بن علي وحسني مبارك، وضاغطاً على قيادات الجيش من أجل ذلك.

في سورية يبدو الأمر مختلف، حيث تبلور الجيش في سياق لا يسمح بتحقيق انقلاب، وأميركي خصوصاً، بعد أن صيغت القيادات العليا في تكوين "منسجم" (إلى حد ما) بالتخلص من الضباط الذين كان يمكن أن يقوموا بانقلاب أميركي بعد فشل محاولة غازي كنعان/ عبد الحليم خدام. وإذا كان لكل من تركيا وفرنسا اختراقات في السلطة فهي لا تصل إلى حد القيام بانقلاب عسكري.

في المقابل نلمس الدعم الكبير من قبل إيران (التي تمد السلطة بالخبرة والدعم العملي)، وروسيا/ الصين (اللتين تشكلان الحماية له في المجال الدولي، ومجلس الأمن). حيث يبدو أنها محمولة على دعم هذه القوى بعد أن ضعفت داخلياً وبدأت تفقد السيطرة على الأرض. وهو الأمر الذي أبقاها متماسكة، وحدّ من إمكانية تفككها.

أسوا من ذلك هو أن الولايات المتحدة لا تحب الثورات غير البرتقالية، وتجد فيما يجري ثورات من أجل تغيير النمط الاقتصادي والقطيعة مع الدول الإمبريالية، وإذا كانت تعمل على الالتفاف على الوضع لكي تبقي الوضع كما هو في البلدان التي تحظى بتبعيتها، فهي لا تريد للثورة السورية أن تنتصر، وتفضّل بقاء الوضع كما هو. أما السعودية التي هي كذلك ترتعب من الثورات خشية وصولها إليها، فتعمل على دمار الثورة أكثر من نشاطها من أجل إسقاط السلطة "المتحالفة" مع إيران في إطار "المحور الشيعي". فقد دعمت السلطة مالياً في المراحل الأولى للثورة، ومن ثم عملت على تشجيع وتقوية القوى الأصولية في الثورة من أجل "أسلمتها" في سياق الدفع نحو حرب طائفية تفشلها.

وبالتالي يمكن القول بأن كل "الغرب" الذي يدعي دعم الثورة هو في السياق ذاته، حيث يجب أن تعم الفوضى وتنتشر الأصولية وتدخل سورية في حرب طائفية.

في هذا الوضع بدت القضية السورية بالنسبة للدول الإمبريالية القديمة كوسيلة "لعب"، ومجال "تصارع"، لكن على حساب الثورة ومن أجل تدميرها، وتدمير سورية المجتمع والتاريخ. أما الروس فلم يستطيعوا التصرف كما فعلت أميركا في تونس ومصر، وهم في ذلك ينمون عن غباء مفرط، أو عن عجز فارط سيفقدهم آخر مواقعهم. وإيران لا ترى بديلاً آخر عن "عائلة الأسد" والمافيا الحاكمة حتى من صلب السلطة ذاتها، وهو الأمر الذي سوف يفقدها هي الأخرى تحالفاً أساسياً في إطار صراعها من أجل تأكيد ذاتها كقوة إقليمية، وربما عالمية.

مجمل هذه العناصر فرضت أن يطول الصراع، وألا نصل بعد إلى "إسقاط النظام"، لكن أن تستمر الثورة.

"العقدة" أو الوضع الآن

إذن، ما هو الوضع الآن؟ الثورة تجاوزت السنة والنصف، والحراك يشمل كل سورية تقريباً، والفئات المنخرطة في الثورة واسعة، بينما تقلّص حجم المترددين، ويكاد يتلاشى عدد المؤيدين. ولا يبدو وضوحاً في الأفق، حيث يظهر وكأن الوضع محكوم بعقدة ما،أو هو مستشكل في موضع معيّن.

ما يبدو واضحاً هو أن قوة السلطة قد تراجعت بعد كل هذه الشهر من الصراع، وبعد أن امتدت الثورة إلى كل هذه المناطق في سورية، رغم ما يبدو من تفوق لها. وإذا كانت تستخدم قوى معينة في صراعها، هي تلك "الموثوقة" (مع غقحام لقوى من الجيش تحت التهديد)، فقد أستهلك بعضها، واصبحت مع كل هذا الامتداد للثورة غير قادرة على تغطية كل المناطق، الأمر الذي فرض تراجع سيطرتها عن كثير من مناطق الوسط والشمال، والشرق، وحتى في دمشق والجنوب. إنها قادرة على القصف بالمدفعية والطائرات، غير أنها غير قادرة على السيطرة العملية على الأرض. وما يبدو أنها مسيطرة في مناطق أساسية يُظهر الصراع أنها عاجزة عن السيطرة.

وإذا كان الجيش لم ينشق نتيجة التكوين الذي أشرنا إليه للتو، فإنه يبدو محل شك بعد أن كثرت الانشقاقات أو عمليات الهروب، لهذا هو موضوع في معسكراته دون اتصال أو إجازات في الغالب، ومن يؤخذ للحرب يوضع في سياق يمنع انشقاقه نتيجة التشديد الأمني. ولهذا يبدو أن في السلطة هوّة كبيرة بين الفئة الماسكة، أي التحالف المالي الأمني (بالتحديد العائلة)، وبين

بقية مؤسسات السلطة. الأمر الذي يدفع إلى القول بأنها لم تعد سلطة بل باتت طغمة تقاتل من أجل الاستمرار في السيطرة، او حتى تقاتل من "حلاوة الموت" بعد أن باتت تتلمس عجزها عن حسم الصراع في وضع يبقي الدولة والمجتمع والسلطة قائمة ومستمرة. مما جعلها تقرر التدمير المنهجي الشامل كسياسة وحيدة ربما تقود إلى انقاذها.
سنجد بأن هذه الفئة الحاكمة باتت تتصرف من موقع الشك في بنية الدولة والسلطة، بما في ذلك الجيش والمؤسسات الأمنية، والمستوى السياسي. وهو الأمر الذي جعلها تعود للاعتماد على "الحلقة الأضيق"، وهي "الجهاز الموثوق" الذي يتكون من الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري والمخابرات الجوية، بالإضافة إلى تشكيل كبير من الشبيحة المدربة تدريباً مافياوياً، او على شاكلة الباسيج (الحرس الثوري الإيراني) كما صرّح احد مسئوليه.
بالتالي فإن كل هذا العنف الممارس من قبل السلطة هو التعبير عن ضعفها، وشعورها بأنها باتت على شفير الانهيار، وهو الشعور الذي أخذ يتحكم بكل بنى السلطة، والذي فتح على انشقاقات وربما تعاطف مع الثورة. وهنا يبدو أن وضع السلطة بات مهزوزاً، وقابلاً للتفكك والانهيار. فقد باتت قوة صغيرة في مواجهة شعب مسلح إلى حد كبير، وتمارس وفق منطق اليائس، وتقتل وتدمر لكأنها مقتنعة بأنها لن تحكم ثانية.
هذا الوضع ربما يفتح على ترتيب ينطلق من القيام بـ "تصفية حساب" داخلية، حيث يمكن أن يستجرّ الوضع إلى حدوث كسر في البنية الصلبة لمصلحة "استمرار الدولة" (وحتى حماية العلويين). ربما يكون ذاك الشعور بالهزيمة الذي فرض كل هذا التدمير حافزاً لكي يتحقق "الانقلاب" كما حدث في تونس ومصر، لكن هنا بعد شلالات دم، ودمار كبير، وحقد يحتاج إلى ما يناسبه لكي ينطفي.
في المقابل، لا تبدو الثورة في أفضل حالاتها، حيث لم يقد توسعها، ولا قاد كل هذا الزمن، إلى تنظمها، على العكس من ذلك بدت فوضى. العمل المسلح فوضى، والحراك فوضى. كما أربكت الثورة بوضع المهجرين الذين بات ضرورياً رعاية أوضاعهم. وإذا كان القصف والتدمير والقتل والتهجير قد فرض تراجع الحراك الشعبي، وكان في اساس الاندفاع نحو العمل المسلح، فقد ظهر ميل لكي يصبح العمل المسلح هو الوسيلة الوحيدة لهزيمة السلطة. وهو أمر مربك، لأنه ليس من الممكن دون حراك شعبي كسر قوة السلطة، ولقد أظهرت كل ثورات العالم أنها فاشلة حينما تقوم على العمل المسلح، لأن تفوق السلطة يظل هو الأساس، وهي تسيطر على الأرض أو تستخدم الطيران.
كما أن "الجيش الحر" هو اسم "عام" لا يمتّ إلى الواقع بصلة، نتيجة أنْ ليس هناك مؤسسة، بل "قيادة" تحمل الاسم، لكنها لا تتحكم في نشاط مجمل المجموعات المسلحة القائمة على الأرض. وأيضاً يظهر الاختلاف واضحاً بين سياسة قيادة الجيش الحر وسياسة كل هذه المجموعات. وكذلك فإن هذه المجموعات ليست موحدة، وتتخذ طابعاً مناطقياً في الغالب. ولا تمتلك خبرة عسكرية، ولا أسلحة مناسبة. لكنها تتصرف وكأنها تقود الصراع وتقرر في مساره. لهذا لا تبدو فاعليتها كبيرة في وجه قوة السلطة حين تخوض هذه السلطة حرباً من أجل السيطرة.
هناك ارتكابات وأخطاء صعبة تقوم بها بعض المجموعات المسلحة. وهناك تكتيك خاطئ ينطلق من فكرة "التحرير"، ربما تقليداً للتجربة الليبية التي أتت في سياق آخر. وهناك تدخلات وتداخلات تربك الثورة، خصوصاً تلك التي تقوم بها مجموعات أصولية تأسست سياستها على السيطرة والتحرير، لكنها لا تفعل سوى زيادة القتل والتدمير، ربما في سياق سياسة تهدف إلى ذلك من أجل "فرض" التدخل العسكري الإمبريالي، الذي هو مدخلها الوحيد للوصول إلى السلطة.
ولقد أربك الوضع أكثر دفع السعودية لمئات السلفيين (الوهابيين الذين هم أساس تنظيم القاعدة) إلى الساحة السورية، وتمويلهم وتسليحهم تحت حجة دعم الثورة، لكن هؤلاء "مبرمجون" (وهذا التعبير دقيق) على أن أولوية صراعهم هي مع الروافض (الشيعة والعلويين، والإسماعيلية والدروز، وحتى مع المسيحيين)، الأمر الذي يدفعهم إلى ارتكاب حماقات ضد العلويين في سياسة لا بد من أن تخدم السلطة التي عملت طويلاً من أجل إشعال هذا الصراع كي تضمن تماسك العلويين خلفها. والأخطر هو أنه يقود إلى تحويل صراع الشعب ضد سلطة ناهبة ومستبدة إلى صراع طائفي يدمر المجتمع وينقذ السلطة. وبالتالي يفشل الثورة (فقد أفشلوا صراع المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأميركي انطلاقاً من البرمجة ذاتها).
ولقد أدت بعض "العمليات العسكرية" إلى تقوية السلطة بدل إضعافها، مثل السيطرة على حيي الميدان والتضامن في دمشق، والدخول إلى حلب.
وبهذا ضعفت سيطرة السلطة لكن لم تحلّ سلطة بديلة محلها، الأمر الذي فتح على نشوء عصابات تقتل وتنهب وتسلب وتخطف، وأصبح أمن الناس مهدداً في كل لحظة. وهو أمر لا شك ينعكس سلباً على الثورة، بحيث يربك مناصريها.
وبالتالي بات العمل المسلح مجموعات محلية متناثرة دون تنسيق أو خطة، أو رؤية. وباتت التنسيقيات ضعيفة الفاعلية، وانخرط قطاع كبير في العمل الإغاثي، وخرج جزء كبير من الشباب الذي شارك في الثورة إلى بلدان أخرى، إضافة إلى من استشهد أو سجن.
لهذا ظهر بأن الثورة دون أفق في اللحظة التي وصل الوضع فيها إلى تبلور كل الظروف التي تسمح بالحسم. لنتذكر أنها بلا برنامج أو رؤية، ودون قيادة فعلية. وكذلك دون إستراتيجية توضّح كيفية الوصول إلى إسقاط السلطة. الثورة تمتلك البطولة الفائقة لكنها لا تمتلك الرؤية، وتمتلك الشجاعة الكبيرة دون أن تمتلك الإستراتيجية التي تجعلها تنتصر.
هنا "العقدة". وهو الوضع الذي لم يوصل إلى تحقيق "انقلاب داخلي"، ولا إلى أن تتطور إمكانات الثورة، ويتعزز تنظيمها فتستطيع الانتصار. ولهذا ينفتح الأفق على احتمالات، ويصبح الحسم في الزمن الذي يمكن أن تنتصر الثورة فيه أو تتفكك السلطة أمراً صعباً. فربما تنكسر البنية الصلبة، أو يجري توافق روسي إيراني على دعم "انقلاب" يهدف إلى تحقيق "مرحلة انتقالية" تعطي قدراً

من الديمقراطية داخلياً لكنها تحافظ على المصالح الروسية الإيرانية. أو يفرض تطور الصراع إلى أن تقوم فئات داخلية بهذا "الانقلاب" دون حاجة إلى دعم روسي أو إيراني.
أو يكون ممكناً تنظيم آليات الثورة لكي تصبح أقوى وتفرض السيطرة على الأرض. وربما تنهار السلطة فينفتح الوضع على الفوضى. ربما هذا السيناريو الأخير غير مرحب به من قبل الروس والإيرانيين، ولا من قبل فئات في السلطة لأنها سوف تفقد امتيازاتها، ولا كذلك من قبل تركيا التي تخاف الفوضى في سورية. وربما يكون الاحساس بأن هذا الخيار بات ممكناً كفيل بالدفع نحو تحقيق الانقلاب الداخلي، والانتقال إلى تأسيس "دولة جديدة".
متى يحدث ذلك؟ في كل هذه "الفوضى" ليس ممكناً التكهن، وما يجب التركيز عليه هو ليس متى يسقط النظام بل كيف نطوّر الحراك الشعبي والمسلح بحيث يصبح قادراً على الانتصار؟
لهذا ما هو مطروح هو تحديد المطلوب، أي وضع رؤية واضحة للثورة ولمسار تطورها، لكي توصل إلى تحقيق الانتصار.

فوضى السلاح وتنظيم الثورة

لم يكن استخدام السلاح بعد أشهر من النضال السلمي حالة عبثية أو مجرّد انفعال. صحيح كانت هناك بعض القوى التي تستعجل التسليح وتسترخص الميل إلى العنف، لكن ما جعل الشباب المؤمن حتى النخاع بالسلمية يتجه إلى السلاح هو طبيعة تطور العنف الذي مارسته السلطة، خصوصاً منذ نهاية شهر تموز حين زجت الجيش في الحرب ضد الشعب، وطورت من أساليب القتل والإهانة طيلة شهر آب.
إذن ليس مفيداً التحسّر على السلمية أو الخوف من هذه النقلة المهمة في صيرورة الثورة. وليس مفيد أصلاً هذا النقاش، فقد انتقلنا من الشكل الذي بدأت الثورة به، أي التظاهر الذي كان يعطيها شكلاً محدَّداً هو شكل الانتفاضة (العفوية، الشعبية)، إلى الثورة بكل معانيها، حيث التظاهر والعمل المسلح. ولأننا انتقلنا كل هذه النقلة، أصبح ضرورياً أن نتلمس كل مشكلاتها، وأن نبحث في صيرورتها. حيث أصبحت بحاجة إلى "عقل" أعلى (أو أعمق)، لأنها باتت تحتاج إلى التخطيط الأدق، والاستفادة من التجربة بوعي، وتحقيق التنظيم الشامل لكل عناصر الثورة.
هنا تُطرح مسائل حساسة، أولها كيفية تنظيم العمل العسكري (من حيث تنظيم ترابط المجموعات، ومن حيث تحديد إستراتيجية واضحة لكيفية تطوره بشكل منظم وواضح الخطوات)، وثانيها كيفية تحقيق الترابط بين العمل العسكري والنشاط الشعبي بعد أن ظهر أن العمل العسكري هو كل شيء وأن التظاهر الذي هو فعل الطبقات الشعبية بات هامشياً، وثالثها كيفية تنظيم المناطق التي باتت خارج سيطرة السلطة بشكل أو بآخر.
فالمسلحون مجموعات متفرقة، رغم أنهم يحملون اسم الجيش الحر (وهو اسم لبنية وهمية يستخدم ممن كان، وهذا هو الخطر)، بعضهم اصبح يجهر بلونه الطائفي (وهم من بقايا الإخوان المسلمين والسلفيين بدأوا يدعمون بـ "جهاديين" مبرمجين على أولوية الصراع الطائفي)، وبعضهم شعبي (وهم الأكثرية) ليس لديه خبرة في العمل المسلح، أو في أشكال الحروب، لهذا تكون ممارستهم "دفاعية"، وحين يهاجمون تحدث أخطاء كثيرة. ولقد وقعوا في الخطأ أكثر من مرة دون الاستفادة من التجربة. وأهم هذه الأخطاء هو احتمائهم بالمدن والناس، الأمر الذي فرض "تدمير" الحراك الشعبي في العديد من المدن والمناطق، من منظور "تحرير" المدن، دون تلمس بأن السلطة تمتلك القدرة على تدمير المدن، وأن وازين القوى لا تسمح بالانتقال إلى هذه الخطوة، وبالتالي فهم يؤخرون تصعيد الصراع بدل أن يساعدون على تطوره، حيث لا بد من التركيز على مهاجمة المراكز الحساسة، و"الجيوش الزاحفة" للسيطرة على المدن، ومواقع الصواريخ والقذائف التي تقصف وتدمر. وهذا ما يفرض التركيز على حرب العصابات بدل التسرّع في "تحرير" المدن في وضع غير مؤاتٍ.
هذا يحتاج إلى إستراتيجية عسكرية ضرورية لكي تكون فعّالة في مواجهة سلطة تستخدم كل أسلحتها. ويفرض تنسيق عمل المجموعات، وتنظيم نشاطها بشكل مشترك. وهنا لا بد من تهميش المجموعات الأصولية ن وعدم الخشية من ذلكن نتيجة الخطر الذي يمكن أن تشكله على الثورة، وكذلك منعها من ارتكاب حماقات طائفية أو عسكرية. لا يجب الخوف هنا من "تصادم" لأن ضبط الوضع الآن أفضل من انفلاته لاحقاً بعد أن تكون قد قويت هذه المجموعات، وبدأت ممارساتها الطائفية.
إذن، نحن بحاجة إلى هيكلة المجموعات وإخضاعها لقوانين في ممارساتها الداخلية، وممارساتها مع الشعب، وكذلك مع الشبيحة وأفراد الجيش الذين يقاتلون ضد الشعب، او الذين لا يقاتلون لكنهم مازالوا في عداد الحيش. ونحن بحاجة ألى أن يكون واضحاً أنها لازالت معنية بدعم النشاط الشعبي، وحمايته، والتأكيد على ضرورته، لأنه القوة الأهم في كل هذا الصراع. وأن تتحدَّد إستراتيجية عسكرية واضحة تقوم على أساس قوانين حرب العصابات وليس الحرب النظامية. وأن يكون هدفها إضعاف القوة العسكرية الأساسية للسلطة، خصوصاً الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري والشبيحة والمخابرات الجوية.
لقد أدى دخول دمشق والتمترس في مناطق ناشطة، مثل الميدان والتضامن، إلى تلاشي الحراك هناك بعد أن فرض التدمير والقتل هجرة السكان. وكذلك حصل في حلب بعد أن نهضت للمشاركة بقوة في الثورة، وها هي تتدمر ويتلاشي الحراك الشعبي فيها. وهو الأمر الذي يطرح السؤال: هل الغباء أو السذاجة هما خلف هذه السياسة العسكرية الفاشلة، والتي أعلنت تجربة حمص والزبداني فشلها مسبقاً؟ أو هناك سياسة لدى الأصوليين لزيادة التدمير والقتل على أمل أن تحدث سيربرينتسا جديدة تفرض على "المجتمع الدولي" التدخل؟ فالخطأ يتكرر، ويبدو أنه يتكرر بقصد وليس نتيجة عدم استفادة من التجربة.
إن الكتل الأساسية من المقاتلين هم من الشباب الذي شارك في التظاهر منذ البدء، والذين وصلوا

بعد ستة أشهر إلى الحاجة إلى السلاح دون تدريب كافٍ أو خبرة سابقة (سوى قلائل ربما). وهم لا يمتلكون سوى القليل من الأسلحة البسيطة، والذخيرة القليلة. وهم لن يستطيعوا الحصول على أكثر من ذلك لأنهم يحصلون عليه من مخازن الجيش أو من تجار سلاح بأسعار عالية. وإذا كان هناك من سيرسل فسيرسل القليل الذي لن يساعد على حسم الحرب، لأن من سيرسل لا يريد حسم الحرب. بالتالي يجب أن يكون واضحاً بأن هذه المجموعات لا تستطيع التحوّل إلى جيش، وأنها لن تستطيع مواجهة تفوق السلطة. الأمر الذي يفرض عليها أن تعرف كيف تقيم الترابط مع الحراك الشعبي، وأن تركّز على تطوير الحراك الشعبي، وأن تكون وسيلة منع قمعه. بالإضافة لما جرت الإشارة إليه سابقاً من حيث ضرب القوى العسكرية التي تدمر وتقتل والمراكز الحساسة، والشبيحة.

وربما يكون عليها دور حماية "الأقليات" (التي لازالت مع السلطة أو محايدة) من الجرائم التي يمكن أن ترتكبها مجموعات أصولية (بعضها أُرسل لهذا الغرض). فهؤلاء جزء من الشعب حتى وإنْ كانوا الآن في "الصف الآخر" نتيجة تخويف من قبل السلطة وخوف من ممارسات وتصريحات ومواقف من بعض أطراف المعارضة، ومن الإعلام الخليجي ونظمه. والخطر أن يلعب البعض باسم الثورة في المسألة الطائفية فيزيد من خوف هؤلاء ومن تمسكهم بالسلطة. المطلوب هو عكس ذلك، أي اقناع هؤلاء بأن الثورة لهم كما هي لكل الطبقات الشعبية (وهم منها). وأيضاً حماية المؤسسات العامة، وأمن الناس في وضع بات يسمح بنشوء عصابات مسلحة نتيجة تراجع سيطرة السلطة على الكثير من المناطق. حيث لا يجب أن تحدث فوضى في أي منطقة لم تعد الشرطة قادرة على "حمايتها".

وفي هذا السياق لا بد من تغيير أسماء الكتائب، والتسمية بما هو وطني. فلسنا "جيوش الفتح"، حيث مضى زمنها. وما يهمنا الآن هو ما يوحّد وليس ما يخيف جزءاً من الشعب نتيجة "الضجة الإعلامية الأصولية"، والدور السعودي الداعم للصراع الطائفي عبر دعم الأصوليين حصراً.

ثم أن تراجع الحراك الشعبي يجب أن يلفت الانتباه، لأنه لا انتصار دون الحراك الشعبي، حيث يربك السلطة أكثر من السلاح الذي تمتلك ما يواجهه بتفوق. قوة السلاح الثوري تقوم على اعتماده على الحراك الشعبي، وليس سحق هذا الحراك عبر السيطرة على المدن والعجز عن الدفاع عنها، والنتيجة تدميرها ورحيل الشعب الذي كان يتظاهر، ليصبح بحاجة إلى مساعدة، أي يتحوّل إلى "عبء" بدل أن يكون هو الفاعل الأساس. ليس من "حروب تحرير" في الدول "التي تحكم محلياً" (بدل أن نقول "وطنية" لكي لا تثير الالتباس)، ولا تسقط النظم بالسلاح، بل بالشعب بالتحديد، ويمكن أن يكون السلاح عنصراً مساعدا ومكملاً فقط.

هذا الأمر يفرض إعادة تشكيل التنسيقيات في كل المناطق لكي تعنى بتفعيل الحراك الشعبي، ولا بد من أن تبنى بناءً على الخبرة التي تراكمت خلال الشهر السابقة، بحيث تعمل على دراسة الوضع جيداً من أجل تحديد طبيعة التظاهر وزمنه وشعاراته التي يجب أن تعبّر عن أهداف الثورة ومطالب الناس، وتحدد السياسة العامة. ولكي تتجاوز الميل نحو النظر إلى المجتمع الدولي بل تركز على الفعل الداخلي، وتبرز الإصرار على استمرار الثورة وانتصارها.

لقد ظهرت مشكلة الحراك الشعبي في أنه لم يستطع تشكيل تنسيقيات ثابتة نتيجة الدموية التي تعرضت لها، لكننا اليوم بأمسّ الحاجة لتنظيم الفعل لكي يعود الحراك الشعبي قوياً وفاعلاً، رغم كل الدموية التي يواجَه بها من قبل السلطة. الشعب يجب أن يبقى في الشوارع، ويمكن للمجموعات المسلحة أن تحميه، بشكل لصيق أو من خلال قطع الطرق على القوى التي تهرع لمواجهته.

الحراك بحاجة إلى تنظيم بالضرورة لكي تصبح فاعليته أكبرن وتأثيره أعلى. ولكي يكون قادراً على توضيح الأهداف والمطالب من خلال الشعارات التي يجب أن تُرفع. لا يكفي الاعتماد على الله، أو المناشدة، لا بد من طرح كل ذلك لكي تكشف الثورة أخيراص عن جوهرها الذي شوشه الإعلام، وخربته أطراف المعارضة، وأربك من يجب أن يكون في صف الثورة. ولكي تواجه السلطة ببرنامج بديل يتضمن "روح" الثورة.

أخيراً، لا بد من تلمس أن ضعف السلطة فرض أن تصبح عاجزة عن فرض سيطرتها على مناطق كثيرة (وهذا لا يعني أن المناطق باتت محررة كما أوضحنا)، وهو الأمر الذي يفرض جملة مهمات تتعلق بإدارة هذه المناطق من أجل الأمن، كما من أجل توفير حاجيات السكان، بالتالي تشكيل سلطة بديلة.

كل ذلك يفرض أن تتشكل "قيادة" فعلية من التنسيقيات وقيادات المجموعات المسلحة والهيئات المدنية. هي التي تنظم العلاقة بين كل هذه الأطراف، وتحدد السياسة العامة، وتتمسك بالأهداف التي قامت من أجلها الثورة، وتصبح هي المعبّرة عن الثورة بالتحديد.

إن التعقيد الذي وصلت إليه الثورة يفرض الوضوح في الأهداف والسياسات، وفي العمل الذي بات ضرورياً أن يصبح منظماً، وربما معداً لكي يكون سلطة بديلة بعد أن ضعفت السلطة وأصبح ممكناً انهيارها. حيث أنها "تضرب الحجر الأخير"، والذي سيفشل كما فشلت كل سياساتها السابقة. لم تعد العفوية مفيدة، ولا أصبحت الفوضى مقنعة. كما لم يعد التمسك بالحسم العسكري أمراً صحيحاً، ولا "تحرير المدن". نحن لسنا ليبيا، ولن نكون. نرجو نزع هذا "المثال" من أفكارنا، والتمسك بالحراك الشعبي مدعوماً بعمل مسلح يخدمه بالتحديد، عبر شلّ قوة السلطة، وإرباك تحركها العسكري.

لقد تقدمنا كثيراً، وبات ميزان القوى في غير صالح السلطة، وهو الأمر الذي يفرض تنظيم قوانا من أجل الاستفادة من هذا الخلل لمصلحة انتصار الثورة ■



عزيز تبسي

ظاهرة الشبيحة

مؤشرات مبكرة على انحطاط الطغمة العسكرية

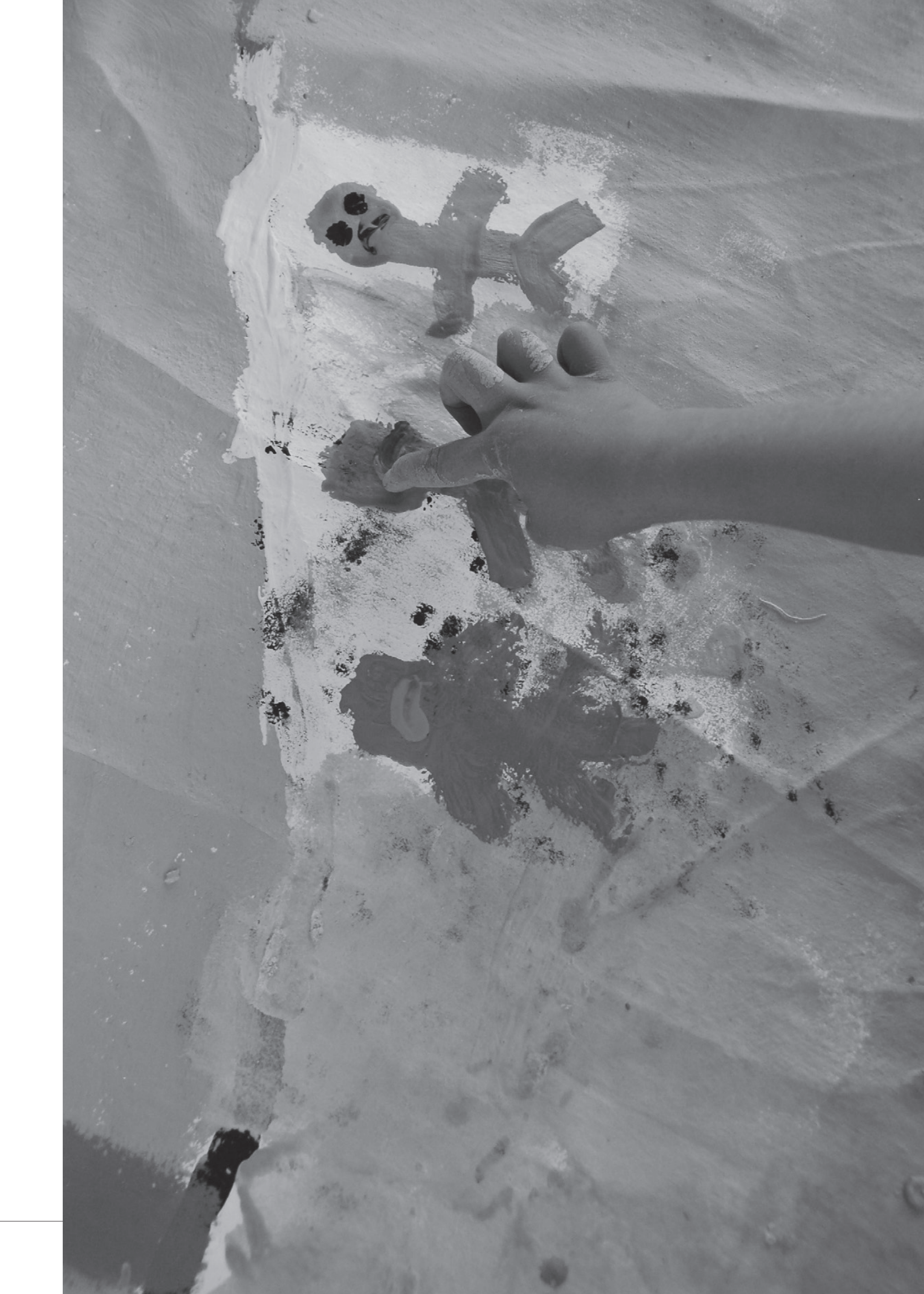
-1-

كتب ماركس في كراس الثامن عشر من بروميير-لويس بونابرت ،في رصده وتعقبه للإنقلاب الذي قاده لويس بونابرت إبن أخ نابليون(1851)،مقدماً في سياق الصراعات بين أجنحة البورجوازية الفرنسية وخياراتها المصلحية التفضيلية ،على حل الجمعية التشريعية ومجلس الدولة وإعتقال عدد كبير من النواب وإعلان الأحكام العرفية في32مقاطعةونفي الزعماء الإشتراكيين والجمهوريين من فرنسا،في هذا الهجوم الإنقلابي إستعان لويس بونابرت على خصومه بجماعات هامشية من الحثالة الإجتماعية (من باعة البسطات والقوادين والعاهرات وأصحاب السوابق الجنائية والعاطلين عن العمل......)وشكلت سنداً اجتماعياً وميدانياً لإنقلابه،لم يعلم هذا النابليون أنه بهذا الدعم اللامحدود والإعتماد التام على هذه الفئة،قد كرس نفسه زعيماً للحثالة،التي رغم تدريباها على اللفظية الجمهورية وقيمها التي يجري الغدر بها،ستنسى نفسها من حين لآخر وتحيي السجق والنقانق.

لابأس من إعلان الحسد الظرفي لماركس، على حجم المعلومات التي كانت تضعها بين يده البورجوازية الفرنسية،عن طريق كتابها وصحفها وجلسات برلمانها العلنية، ليغدو النقاش مفيداً وفعالاً حين يتكئ على وقائع ومستندات، لا على التخمين والنسبية والقلق من الثقة بالمعلومة المتداولة بأن تنقلب في آخر لحظة إلى عملة زائفة. ويغدو شاقاً الوصول إلى "الصندوق الأسود" حيث تتكدس الحقائق، وربما تتلف قبل الوصول إليها.

تبقى هذه الجماعات الهامشية على مر التاريخ وفي كافة ظهوراتها على مسرحه أسيرة وضعها الإجتماعي القلق وشرطيتها البافلوفية، حيث الكلبية الجائعة والنهمة والعدوانية تطبيقها الوحيد في الشرط السوري.

رغم كل التكتم عن اسمهم، وإلباسهم أطقم اللجان الشعبية ووضعهم لشاراتها، إلا أنه وفي أول علامات ظاهرة لتبدد "آثار السكرة وعودة الفكرة" سيهتفون بعالي الصوت شبيحة للأبد كرمى عيونك يا أسد، ويطلقون في مبادرة لغوية اسم الشبيحات على الجناح النسائي منهم الذي لم



تخرج عنه أفعال حربية علنية، باستثناء استعراضات نسوية مبتذلة تبين مدى الاستخفاف بقيم الانتفاضة الشعبية الثورية حين تبرزنها في موقع المؤخرة من البنطال، ممارسات هي من أركان سلوك الساقطات أخلاقياً، ويكون بينهما شبيحة المسيح كذلك على سبيل التنوع الفلكلوري الذي سمته الفاشية في واحدة من هزلياتها السوداء"الوحدة الوطنية".

لم يكن عند هذه الحثالة حياء لتفتقده، كان عندها سجلاً جنائياً أسود ومحكوميات طويلة في السجون التي تديرها شرطة فاسدة ويراقبها قضاء أكثر فساداً، تقدمت الطغمة بكرمها المحصور بأعوانها وفتحت رتاجات الأبواب المغلقة لتطلق ما تبقى من قطيع الكواسر هذا أمام الجمهور الأعزل في الشوارع والجامعات والساحات العامة.

اكتسبت مساهمة ماركس ملمحاً مختلفاً وجريئاً، لكونها تجاوزت المحددات المألوفة التي تعتمدها مقاربات العلوم الإجتماعية التي كانت في حينها تقسم المجتمع الرأسمالي إلى ثلاث طبقات البورجوازية والفلاحين والعمال، والتي بدأت تتوضح تمايزاتها وهويتها السياسية والطبقية في سياق النضالات اليومية، والانتفاضات الشعبية...

وإن كانت مقاربة ماركس قد شكلت اجتهاداً ثورياً في بلدان الرأسمالية الأوروبية، فإن المقاربة في بلداننا لا تشكل خروجاً عن التنميط التقليدي للجماعات الاجتماعية، التي لم تكتسب تمايزاتها وتتحقق هوياتها الطبقية لغياب نضالاتها النقابية والسياسية وتواطئ أحزابها مع الفاشية الحاكمة منذ زمن طويل، والتعهد ببيع وتسويق اللفظيات الثورية والوطنية والقومية، المجوفة برمتها والفاقدة لأي مصداقية، وما تسميات العمال والفلاحين وصغار الكسبة إلا تعابير مائعة وغير دالة على تمايز اجتماعي واضح، وقد تدل على الموقع الوظيفي في المصنع أو الحقل أو الورشة المتوسطة أو الصغيرة ولا تتحول إلى تسمية مجازية إلا لحظة استخدامها للتأكيد على تمايز طبقي مدعماً بنضالات طبقية افتراضية من نمط دحر الإستعمار والرجعية والتصدي"للمؤامرات" التي بدأت مع إنقلاب8آذار 1963ولم تنتهي حتى الساعة، ليس كل تجمع يندرج تحت تسمية المجتمع، هناك خلية النحل وكومة الحجارة، وفق تعبير للويس ألتوسير.

رغم دلالات العناصر الرمزية التي تستخدم لتأكيد الهوية كالحضور الشكلي للنقابات/الاحتفال بالأول من أيار/التذكير من حين لآخر بدور الطبقة العاملة ونضالاتها العالمية وربط هذه الجماعة الإجتماعية، التي تشربت قيم الخنوع والذل والتسول "للعطاءات والمكرمات"وهي أعطيات مالية نقدية تضاف على الراتب الشهري قبل الأعياد وبعض المناسبات السلطوية التي تقوم مقام الأعياد عند أتباعها، لتسحب قبل انتهاء "فرحة" العيد بمكر التضخم النقدي وارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية الأساسية، في أثر من التطبيق المحلي الهزلي للنظرية الاقتصادية"الكنزية"التي وصلت إلى سقفها التاريخي وفقدت جدارتها بالمراوغة بين الاقتصاد الحقيقي والاقتصاد النقدي وردم الهوة بينهما، غالباً ما يجري ربط الجماعات الاجتماعية بتلك النضالات، لتأكيد وحدة نضالية عربية وأممية يكتفي الفرع السوري منها بيوم العطلة والتصفيق والهتاف، عند الطلب، للقائد المفدى.

لكن يبقى الأهم هو تهشيم قيمة قوة العمل والمفاهيم الناتجة عنها: الدخل-الثروة-الإبداع والابتكار-الإنتاج تراكم الثروة أو تراكم الديون، إنتاج القيم المادية والقيم الروحية، لتسويّد القيم الناتجة عن الأنشطة الريعية الطفيلية التي أخذت طريقها للسيطرة: البنّدقة والشطارة والحربقة و"المفتّح بالمازوت" لتأكيد الصعود الطبقي والوظيفي و"العلمي" دون كفاءات... كل هذا لن يعدل في حقيقة كون هذه الجماعات (الثورية في طور الكمون) هي عينها القاعدة الشعبية الخاملة في الشرط السوري، لم تساهم في تحرير الصراع من سماته المملوكية المغلقة، مكتفية بالترقب الخامل لظهور المعجزات من نتائجه، كالاستبدال البيولوجي للرئيس الراحل بابنه، كما استبدال فؤاد غازي بعلي الديك وعدنان بوظو بوجيه شويكي.

لتغدو نتائج البيولوجيا هي المدخل المأمون للتغيير مشفوعاً بالميتافيزيقيا الرجائية كأيديولوجيا راسخة للمقاومة السلبية "الله يقصف عمرو" و "الله لا يوجه له الخير" و" الله يصطفل فيه" في معاينة للمهمة المؤجلة، والتي باتت لعظمتها، في مدركات الوعي الشعبي، تستوجب قوة فوق بشرية لتنجزها.

-2-

تساءل الكثيرون والكثيرات لماذا استعانت الطغمة العسكرية بعد الله طبعاً، التي لا تلبث تذكره عند الضرورة، بالمجرمين وأصحاب السوابق والسجلات الجنائية السوداء للنيل من خصومها العزل، وتثقيل وزنها الميداني في الصراع السياسي الذي تخوضه بضراوة الذئاب ونذالة الضباع؟ سلطة تحت حيازتها فيالق جرارة من قوات قمع مكتملة الشروط الثلاثة: موالية- مدربة- عديمة الأخلاق بما يكفيها للقيام بأقذر الجرائم والتضييق على الخصوم وإرهابهم. ويمكن أن يدعمها عشرات الألوف من عناصر تنظيماتها الفاشية المهيئين عقائدياً من أعضاء حزب البعث وإتحاد شبيبة الثورة...، خياراها لم يكن من الطوارئ ومستلزماتها، لقد أعد له بهدوء بما يمكن تسميته مجازاً بالتخطيط، بدأ بعفو رئاسي شمل الموقوفين من هؤلاء المجرمين وألحق بعفو رئاسي آخر ليشمل ما تبقى منهم، بالإضافة لقوائم عفو خاص لمرتكبي جرائم شائنة لم يشملها العفوين السابقين مشروط بالالتحاق بهذه الجماعة، وأخيراً غض النظر عن المطلوبين بجرائم وجنح سابقة وإهمال ملفاتهم واستدعاؤهم ب"ودية أبوية حنونة" لتوقيع عقود عمل مع مؤسساتها الحربية والأمنية، ممارسات تشبه استدعاء احتياط الجيوش أوقات الحرب أو حين الاستعداد لها. ليستحوذ الشبيحة دور كبسولات الفياجرا لمعالجة ترهلات الجسد العسكري المنهك بالإمتيازية الطائفية وتفييش الجنود والتهريب وسرقة طعام العساكر. توسعت الجماعة وتزايدت فاعليتها وصلاحيتها، ووضعت تحت تصرفها ينابيع مالية مهولة، إعادة بيع البنزين والمازوت والغاز والخبز، والتحكم بالأسواق ببسطات سلع متنوعة من الدخان إلى الأدوات الكهربائية، لتغدو أشهر من حزب البعث الذي يقود الدولة والمجتمع وجبهة وطنية تقدمية.

وصل إلينا هذا الاسم من سياقات الحرب الأهلية اللبنانية ونواتجها، حين بدأت صحف بيروت في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات تشير إلى جماعات مارقة، تثير الفزع من حين لآخر بمشاجراتها الدموية، وتتعدى على القوانين العامة والحيوات الخاصة، كانت تلك الصحف تسرد تجاوزاتهم المتكررة بنوع من اليأس والتسليم القدري بنفوذهم، ربما للإيحاء أن هذه الجماعات هي المنتوج الطبيعي-الشرعي للمليشيات لحظة تضلّ هدفها السياسي قبل أن تتفسخ ويتحول فيها العمل العسكري ولوازمه إلى نمط حياة، ويحتاج لعناصر تجدد ديمومته، لتكون على حساب: الدولة/المجتمع/الناس/البيئة... القيم العمومية.

وفي يوم سألت أخي الذي كان في المقاومة الفلسطينية، عن هؤلاء، فأجاب بحسه العملي العميق الذي لا يتناسب مع عمره: لا يستطيع أحد التشبيح في بيروت بمفرده ولا حتى كمجموعة منظمة، مع وجود مجموعات صارمة وضاربة من أجهزة أمن المقاومة الفلسطينية (أمن/17 والكفاح المسلح) ووجود أمن خاص بكل منظمة فلسطينية ولبنانية، ما يحصل هو ممارسات متعمدة يشرف عليها كبار ضباط أمن 17 وغيرهم من قادة المليشيات الكبيرة لأخذ "الخوات" النقدية من أصحاب المطاعم والفنادق والمسابح والمحلات... "الخوة" مقابل السلامة الشخصية والحفاظ على ديمومة وسائل المعيشة، وتتصارع هذه الجماعات فيما بينها على مناطق النفوذ، بمعارك صغيرة، قد تتحول لكبيرة، وسرعان ما يتدخل "الكبار" لإيقافها وإعادة توزيع الحصص ورسم حدود النفوذ ... لكن أخي استشهد مدافعاً عن بيروت المحاصرة 1982 وتبدد جسده في شوارعها، ولا يمكن الحوار معه عن آخر تجليات الشبيحة في الحياة العامة وتوسعهم في جغرافيا بلاد الشام، ولن أتمكن بالمقابل أن "أزف" له نبأ: أن صار للشبيحة "دولة ورجال" وعصر انتقالي يمكن تسميته بتسليم قدريّ: عصر الشبيحة.

الشبيحة منتوج عضوي لنظام الطغمة العسكرية الحاكمة وفسادها السياسي والاقتصادي وانحطاطها الأخلاقي، وبعض من قاعدتها الطائفية. شكلت الطائفية-العائلية نواتها الصلبة التأسيسية، قبل توسعها متحررة من مركزيتها، لتتعمم على البلد برمته، وتغدو السلطة العارية الوحشية للطغمة العسكرية بحيازتها قوة مالية مهولة ناتجة عن المجال الطفيلي الذي تغزوه وتوسعه بقوة الكلاشنكوف، والمسدسات المكتومة الصوت والسجون الكيدية والاحتيال المشفوع بأختام الفساد القضائي، تراكمات ناتجة من السرقات العلنية وريوع المضاربات العقارية وتهريب المحروقات والسجائر والمخدرات...الخ، انطلقت من ضباط وصف ضباط وعساكر مسرحين من الخدمة، وضمت مجموعات هامشية لا تملك أي تحصيل تعليمي أو إتقان حرفي، ما يسموا وفق قاموس العمل ب"الفعّالة" ومفردها"فاعل"، وهو تعبير محلي للدلالة على من لا يملك سوى قوته العضلية المجردة/العارية، يستخدمها في الحفر، نقل كوم تراب من مكان لآخر، رفع أحمال ونقلها... وتتوسع لتشمل عاطلين عن العمل وأصحاب سوابق جنائية من مدمني مخدرات وقتلة...، مع هذا المتحد(طغمة عسكرية-شبيحة) نكصت الدولة الرأسمالية بقيمها الجمهورية(الإفتراضية)، إلى شكلها المملوكي عديم الحياء، ووقعت رهينة أسره مكبّلة بالأصفاد تحت رحمة طلقات الكلاشنكوف الحاسمة، وفرار طويل من تعقب ومطاردات اثني عشر فرع مخابرات، تأكل من يواجهها نيئاً ومسلوقاً.

لم ينطلق هؤلاء كعضوية مميزة الهوية والأهداف مثل حزب البعث في وثبته الطويلة من مقهى البرازيل إلى الحياة السياسية، بل من البقايا المتحللة من جمعية الإمام المرتضى الفاشية الطائفية شبه العسكرية التي كان يقودها الأستاذ جميل الأسد(الذي خلّف بعد وفاته لورثته 5,4 مليار دولار وكميات مهولة من سبائك الذهب والمجوهرات والعقارات... دون التوصل اليقيني عن طبيعة عمل هذا الأستاذ). والمنحلون من سرايا الدفاع التي كان يقودها العميد الركن الدكتور رفعت الأسد(صاحبة الميراث الدموي في مدينة حماة وسجن تدمر ...)، بعد أزمة 1983-1984 ونتائج الصراع السياسي الحربي بين أجنحة السلطة السياسية، اللذين اعتادوا المغانم والسلبطة على الناس في أسواق دمشق وبيروت على وجه الخصوص، وإظهار"العين الحمراء"على الدوام والتهديد بمشاهدة "نجوم الضهر"، وإستعدادهم الدائم لاستخدام العنف في حل النزاعات، وتجاوز القوانين وأجهزة السلطة التنفيذية التي تطبقها، ليصيروا مع الوقت، التعبير الواضح عن التمازج العضوي بين القوة العدوانية العارية والسوقية المنحلة.

تشكلت ظاهرة علنية شبه حربية في المناطق الساحلية قبل أن تتوسع تنظيمياً على بعض جغرافيا البلاد، تتمول ذاتياً من الاقتصاد الأسود المتنامي وتتحصن بفساد القضاء والشرطة والأمن والإسناد العلني من مراكز القرار العليا في السلطة السياسية، لتنتج مع الزمن رمزيتها وإشاراتها الخاصة: اللباس الأسود- الذقن الطليقة-الرأس الحليق- الطول الفارع والبدانة الهرمونية- الأوشام الظاهرة على الزنود والأذرعة........انطلق هؤلاء من مطاعم طاحونة الحلاوة وسلحب وجورين وأبي قبيس، حيث التثقيف العقائدي يأخذ شكل "مازوات "مع جرعات العرق وسجائر الحشيش الثقيلة، لتغيب مع الوقت الفروقات الثانوية بين "حبيب- غالي- حقير، وهي من الأسماء الأثيرة على ألسنتهم" وتهيؤا لفرض قيمهم على المجتمع من خلال وصولهم الميّسر إلى الإعلام المركزي الاحتكاري، وحيث الثقافة انحسرت إلى ركن الغناء والدبكة، لتتحول مغنيات وراقصات ومغني ودبيكة مقاصف الغاب الغربي إلى مغني"الوطن"وقواديهم إلى أعضاء مجلس الشعب ورجال أعمال.

وليست الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية ما يعجزون عن مقاومته فحسب، بل العرق ولفائف الحشيش والسمك المشوي والكباب والترقب المتوتر لأحدث ظهورات "الحلوات" (للتربيت) على مؤخراتهن والاختبار اللزج لحدود ممانعتهن ومقاومتهن، ووضع ورقة نقدية من فئة الألف ليرة بين أثدائهن المنفرة... ولا يعرف متى بدأت مغامراتهم، أعندما رأى المغني في السماء ثلاث نجمات، وتبين له على وجه السرعة أن "واحدة لحافظ واثنتين لرفعت" وأعلنها كنبوءة هادرة، وفق موال شهير جرى تداوله في أعوام 82-84 في الأوساط الدنيا من المجتمع.



أم من "ضربت المرش في البيجو ماشخرت، وراح وجع بطني مش خريت" لتتأسس وتنطلق معها أو قبلها ظاهرة اجتماعية ذات طابع عسكري حربي، أنتجت مقولاتها الشفهية وممارساتها الجنونية السوداء.

وطالما ربط الناس بين الشبيحة والأشباح وهم يسمعون الاسم ويدورونه في رؤوسهم لأول مرة، مما شكل دافعاً للروائي السوري فواز حداد لتوضيح ذلك في فصل من روايته -مشهد عابر- لتبديد هذا الالتباس بشكل نهائي وحاسم:

"الأشباح تظهر في الليل والشبيحة في الليل والنهار، الأشباح مشكوك في وجودهم، الشبيحة لاشك في وجودهم. الأشباح يظهرون للقلة، الشبيحة يظهرون للجميع. الأشباح تخيلات غير حقيقية، الشبيحة واقع حقيقي."

-3-

لكن بالتدقيق في الوقائع أكثر، يمكن رد الأساس التكويني لهذه الظاهرة إلى حزمة من العناصر المتحدة، بدايتها البنية القمعية للطغمة العسكرية الحاكمة، المحروسة من بواكيرها بمظلة سياسية- حقوقية: قانون الطوارئ- الأحكام العرفية- المحاكم الاستثنائية- المحاكم الميدانية- المحاكم العسكرية للمدنيين، حظر الصحافة والأحزاب والعمل النقابي...، بذلك ألغيت أي إمكانية للمراقبة والمحاسبة، وزاد تمحور الطغمة العسكرية حول أقلية طائفية من تعقيد آليات إعادة الاعتبار للسلطة العمومية، واستكملت بتهميش الدولة ومنظومتها الحقوقية والأخلاقية بالتجاوز المنهجي للقوانين العامة والسخرية منها، بدءً من قوانين السير وامتطاء ظهر القضاء وإنتهاءً بالسرقات العلنية للأموال والممتلكات العامة والخاصة والتعدي على التراث الوطني من آثار ومتاحف وغيرهما واختطاف الفتيات وطالبات الجامعات وإرغام صناعيين وتجار كبار على توقيع عقود شراكة مع ضباط كبار كان أبرزهم قائد سرايا الدفاع وزبانيته، قبل أن تكر السبحة وتنفرط خرزاتها، وعدم تعرض الفاعلين للمحاسبة، باستثناءات قليلة تحصل من حين لآخر تأخذ شكلاً انتقائياً بات معروفاً ب"أكباش الفداء" يظهر حدود المعالجة الضيقة وعدم جدواها في تطويق ظاهرة الفساد الإداري والمالي والعسكري والأمني التي بدأت تتوسع معاً، لتغدو نمط جديد من شكل الحكم الاستثنائي المتجدد.

باكراً عجزت لجنة محاربة الكسب غير المشروع في عام1977، أي بعد أقل من سبعة سنوات على الحركة التصحيحية، خرجت من عجزها وفشلها أنماط سخرية شعبية مؤلمة "من يحاسب من؟" في إشارة إلى عمومية اللصوصية في بيروقراطية الدولة المدنية والعسكرية، و "لا منحاسب ولا منتحاسب!!" في إشارة أخرى للسان حال البيروقراطيين الفطنيّن والمرشحين لأن يكونوا "أكباش فداء"، فشلت هذه اللجنة في تحقيق أهدافها المتواضعة وبزمن مبكر، أمام التوسع المهول للفساد ووصوله إلى مراتب عالية لا يمكن أن تحاسب، وقد عنى ذلك للناس جميعاً تشريعاً للفساد المدمج بنمط دولة الطغمة العسكرية، وتخفيض مستوى عقوبته الجنائية وأثره الأخلاقي.

ويمكن الاطمئنان إلى تاريخ أوضح، الدخول العسكري إلى لبنان 16حزيران1976، والسيطرة على الطرق الدولية والمحلية وعلى مرفأ طرابلس، حيث تحول التهريب إلى مؤسسة قائمة بذاتها، أشرف عليها كبار الضباط في الجيش والأجهزة الأمنية وتعاونت معهم منظمات لبنانية وفلسطينية، اشتهر منهم قائد منظمة الصاعقة زهير محسن الذي اشتهر بزهير عجمي، نسبة لمستودعات السجاد العجمي التي سرقها بالشراكة مع رفعت الأسد ونقلاها للبيع في أسواق دمشق والخليج قبل أن تغتاله مجموعة فلسطينية وهو يقوم بواجبه الوطني في أحد صالات القمار في مدينة كان في الجنوب الفرنسي 25تموز 1979، وغدت الخدمة في لبنان فرصة لجني ثروة، وأخذ النهب المنظم واستباحة الأملاك العامة والخاصة وإعادة التذكير بالسبايا من النساء والفتيات والغلمان، شكلاً من أشكال المكافئة على الولاء والالتزام بالشكل البين للخيانة الوطنية، نمط من رشوة كبيرة كانت ثمناً للامتثال لخيار الطغمة العسكرية، الذي أخذ الأسلوب الحربي في العدوان على الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وقاعدتهما الشعبية في المخيمات والبلدات اللبنانية، واستمرت فيما بعد بنقل البندقية وسيارات "الزيل" المخصصة لنقل الجند والمسروقات، من كتف بيروت الغربية الوطنية إلى بيروت الشرقية الفاشية... وفتح كل المنافذ الحدودية لنقل المسروقات والمهربات وبيعها في الأسواق السورية الجائعة للسلع الاستهلاكية، والمساهمة في إدارة المرافئ البحرية الحكومية، ومشاركة تلك التي أنشأتها الميليشيات ووضع اليد على المطار الدولي، والتوسع في حماية زارعي الخشخاش وصانعي المخدرات وتزوير العملات وتسويقها، وتبييض الأموال في المصارف الخاصة، مما دفع الكثير من التجار الكبار على شحن بضائعهم إلى مرافئ بيروت وإدخالها تهريباً للسوق السورية لتخفيض مكوس الجمارك واللعب في مواصفات البضائع وصلاحيتها والتفلت من قوانين المقاطعة المفروضة على بعض الشركات، قبل أن "تتنبه" البيروقراطية المدنية لذلك وتقدم تسهيلات أفضل في الموانئ السورية. وبعدها سيتداول السوريون (في النصف الثاني من السبعينات) مرويات لا تنتهي عما يحصل في مرفأ اللاذقية البحري، مرة عن فقدان "مدحلة وبلدوزر" ومرات عن فقدان حاويات بضائع بكاملها و"تراكسات"، في إشارة للسرقات المهولة التي تحصل في وضح النهار وأمام أعين الموظفين الحكوميين "حماة القوانين العامة"، لتعرض بعد حين البضائع ذاتها على أصحابها أو منافسيهم لشرائها بأسعار بخسة.

أفصل بين الشبيحة والطغمة العسكرية، بما يفيد في إنتاج مقاربة نسبية لوضعهم، وهو في عمومه فصل تعسفي، غير محقق في الواقع وربما غير مجدي، لكونهما يشكلان توأماً سيامياً غير قابل للفصل.

مشاهير قادة الشبيحة، أو معلميهم، هم من الضباط الكبار وأعضاء في مجلس الشعب، ويمكن بجردة حسابية بسيطة التحقق من أن تمثيل الشبيحة في هذا المجلس يفوق أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية عدا الحزب الذي يقودها، وبلغ أكبرهم رفعت الأسد موقع نائب رئيس

الجمهورية، ويديرون منذ زمن بعيد شركات احتكارية كبرى مثل -شركة الساحل-، التي تقوم عن جد لاعن هزل ب"التخليص الجمركي"وهو بعمومه إخراج البضائع من المرفأين الحكوميين الوحيدين بأقل ضرائب جمركية يحصلها صندوق الدولة ووزارة المالية، حالة أشبه بالتهريب لكن بشكل أكثر ضماناً للتاجر أو الصناعي، ومن لا يلتزم بهذه الشركة ما عليه إلا قراءة الفاتحة إن تثنى له ذلك على "روح" بضاعته.

وعمل آخرون على احتكار بيع الرمل البحري، بعد أن اعتبروه ملكية خاصة لهم وبأسعار يضعونها بموجب مصلحتهم الضيقة ويعممونها على كافة شركات البناء والمقاولات، واعتبر الكثيرون من المتابعين أن عائدات بيعه تفوق صافي عائدات حقل نفطي، وساهم غيرهم في الاستيلاء على الأملاك العامة وهي بعمومها أراض وغابات طبيعية بافتعال حرائق فيها وتحويلها إلى رماد، قبل أن تأتي الجرافات وتسوي تربتها... وطالما تسألنا نحن من يتتبع هذه الظاهرة، متى سينتهي هؤلاء من مرحلة التراكم البدئي أو الأولي لرأسمال التي شهدت وفق ماركس أبشع أشكال الاستغلال ووحشيته، أم هي مرحلة تراكم أولي مستمرة، لن تنتهي إلا بنهاية هذا النمط الوحشي من النهب المتحد مع التدمير.

وسيكتشف الكثيرون من "المعلم-ين "ويمكن اعتبارها التسمية السورية "لعراب- ماريو بوزو" خفايا روحه الرياضية والفنية السمحة بعد تكديس مليارات الدولارات في المصارف الأوروبية وضرورة التواصل مع قاعدة اجتماعية جاهزة، ليحتلوا مواقع الشرف في الأندية الرياضية وشركات الإنتاج التلفزيوني واتحادات الألعاب الرياضية الفريدة كالتنس والفروسية والسباحة ... في أشكال لتبييض السيرة الذاتية وإعادة إنتاجها، لطالما استخدمتها ومنذ زمن بعيد المافيات الأميركية والإيطالية والكولومبية وغيرها.

ينبغي كشف السر والتصريح به، الطغمة العسكرية لم تتحجب خلف الشبيحة، لأنها هي عينها الشبيحة. هي من وفر الشروط المناسبة لإنتاجهم وحمايتهم وتسليحهم وتسويقهم، وخيار الشبيحة السياسي الذي تكتبه على جدران البلدات والقرى التي تدخلها "الأسد أولا أحد" أو "الأسد أو نحرق البلد" والرسالة التهديدية الشهيرة التي أرسلت على الهواتف المحمولة بعد انطلاقة الانتفاضتين الشعبيتين في تونس ومصر وقبل أن 18 آذار هم من أرسلها ومن شركتي الاتصالات التي بحيازاتهم والتي تبدأ بسخرية من محمد البوعزيزي وكل من أضرم النار بجسده احتجاجاً على وضعه المعيشي وفداءً لكرامته الإنسانية المهدورة والمنكل بها، وتنتهي "نحرق أنفسنا والبلد... فداء للقائد"، هو خيارها ذاته ولا بديل لها عنه، خيار القوة المهيمنة منها، القوة الأكثر رجعية وطائفية وفاشية.

تتحجب السلطة السياسية خلف هذه الأشكال في الشروط التي هيئتها للسيطرة المطلقة والتي تفرض السكون على الحركات الاجتماعية، لتعيد إنتاج وتثبيت مالا يمكنه صموده أمام انطلاق الصراعات السياسية الحادة، حين لن يتوفر لها إظهار الحياد الشكلي.

ولهذه الطغمة العسكرية تجارب سابقة في افتعال مشاكل أو غض البصر عن مؤشرات انفجارها بين جماعات أهلية محلية والتمكن من تقنية زراعة العداوات والضغائن والتدخل لحلها بحصاد الولاءات، ولإعادة إنتاج شبكة العلاقات المحلية وتصليبها، وتذكير بموقع الهيمنة الذي تحوذه ودعوة الآخرين إلى احترامه وتقديسه (صراعات البدو والدروز في السويداء/الإسماعليين والعلويين في القدموس ومصياف/الأكراد والعرب في القامشلي والحسكة/الصدامات الدورية للعائلات والعشائر المافيوية في حلب: بري-حميدة/العساسنة-البقارة/الماردل-العرب/البطوش-العقيدات/...

تشكل هذه المجموعات العسكرية، حائط صد عن السلطة والقيام ببعض وظائفها الأكثر قمعية ووحشية، لكنها من جهة أخرى وباستمرار حالة الصراع السياسي وتصاعده تؤسس أعمالها موضوعياً المقدمات العملية لتفكيك دولة الرأسمالية الكولونيالية، وفي أفضل الاحتمالات اختزال وظائفها بامتلاكها موارد مالية مستقلة قابلة للتوسع على الدوام على حساب الاقتصاد الحقيقي ومداخيل الدولة الضرائبية، مما يؤسس موضوعياً لإنتاج استقلالية نسبية عنها، تتحول تدريجياً إلى شريك فعلي، وعلني للسلطة من داخلها وخارجها.

رغم الرغبة الدائمة عند الطغمة العسكرية للتنكر لما يمكن اعتباره منتوجها -طفلها- ولا يمكن إلا أن نعتبره شكلاً مستحدثاً من أشكال تقسيم العمل، يتكفل الطرف الأدنى بتنفيذ الخيارات الأكثر تطرفاً (بالمعنى الشامل للتطرف، أقصى درجات النهب والسرقة، والعدوانية على الآدمية، إيقاع أقصى أنواع العقوبات بالخصوم، والتفلت من المحاسبة) حيث يحققون بتوفر هذه الحزمة من الحصانات، الشكل الأكثر رجعية وعدوانية وفاشية في مشروع السلطة ويغتنمون بالمقابل منها موضوعياً وظائفها الأخرى: الحقوقية- القضائية- الإدارية-المالية... ومما سيظهر بسرعة تراجعاً في أدوارها الاجتماعية-الحمائية في قطاعات التعليم والصحة والخدمات العامة وتوفير فرص العمل... ودعم بعض السلع الضرورية.

التطاول الدائم على مواقع السلطة العمومية والتوسع على جغرافيها، وهي شكل من أشكال تخصيص متطرف للدولة، وقضم متواصل لوظائفها مقدمة موضوعية لإسقاطها وتدميرها، لم يتصور أحد حتى في أشد الكوابيس سواداً أن تسقط دولة ما بعد الإستقلال في أيدي عصابات مافياوية سميت بعجالة: الشبيحة.

الخيار الثوري الشعبي

إن المواجهة الحاسمة والنهائية مع الطغمة العسكرية ومنتوجاتها الاجتماعية هي عينها المواجهة مع عموم الأشكال السياسية التي تواطأت وتحالفت وحجبت الحقائق عن التوسع الطفيلي الريعي الاحتكاري للطغمة العسكرية ولغرورها الطائفي الأرعن، وتحويل البلد إلى مزارع ومقاصف خاصة، وحقل للنهب المنظم. وفضح الحدود السياسية لوعود "أبواق أريحا" أمام أسوار



الفاشية العالية والمحروسة بالجريمة المتوثبة، والتمسك المشبوه بالانحياز العميق للفاشية، وهم يروجّون لتفعيل ماشبه لهم نضالات "برلمانية"أمام غمرة الإعصار الشعبي الثائر.

تبقى موضوعة السلطة السياسية، فهمها ومراقبتها وتحديد قوتها، هي الموضوعة التي تستحوذ على كل مقاربات علم السياسة وعموم المقاربات السياسية اليومية، ويتفعل الكتمان وحجب المعلومات والقمع كأسس متينة لتعقّيد إدراك الموضوع وحجبه بطبقات سميكة من التضليل، حواجز تقف في وجه من يريد الوصول إلى المراكز العصبية للطغمة العسكرية والآليات التي تعمل بها. رأينا وسمعنا الكثير من المتظاهرين والشهود والعساكر يقولون: إن الشبيحة وبعض التشكيلات العسكرية الخاصة (الفرقة الرابعة ومخابرات القوى الجوية على وجه الخصوص) هم القوة القمعية الأكثر عضوية وصلابة في تمثلهم للعدوانية البهائمية الفاشية للطغمة العسكرية عن كل ما عداهم.

ملحق

من هم أصدقاء"الشعب" وكيف يحاربون المعتقلين السياسيين؟

الجناح الخاص بالسياسيين أثناء سجن حلب المركزي

الانتخابات الرئاسية15 كانون الثاني8-شباط 1985

حين طلب رئيس المفرزة الاستعداد للمشاركة في التصويت الانتخابي الذي بات يحمل اسماً بدلالة دينية مزيفة "المبايعة"للرئيس القائد، المرشح الوحيد للرئاسة. شكّل يومها وما تلاه من أيام، استهلالية الدخول في الاحتكاك الأول مع رهط من المجرمين الجنائيين، والذي يقودهم"محمد بظت"، وهو سجين بتهم مختلفة منها الشذوذ الجنسي السلبي وتعاطي المخدرات وترويجها، أضافت له إنجازاته في السجن: العمالة بالتجسس على زملائه السجناء و يعرف من خلالها ب"العوايني"من المعين، أو العين، التي ترى منها إدارة السجن، عموم السجناء، وتحصي أنفاسهم وتضبط حركتهم، ويحظى بإذن خطي من مدير السجن يسمح له بالتجول في عموم الأجنحة لبيع حبوب المخدرات وتأجير التلفزيونات...

استعانت المفرزة الأمنية وإدارة فرع الأمن الذي يقودها بمجموعة من المجرمين، لبث الرعب والإحباط في صفوف مساجين عزل ومنهكين... فقد سيروا في مسيرات بممر الجناح الطويل كأنهم في ساحة عامة، أو جادة عريضة يعلوهم "محمد بظت"هاتفين معه، ومرددين خلفه "بالروح بالدم نفديك ياحافظ"... ويختمونها ب "فرحنا يابو سليمان"، لكونهم انتظروا عفواً يأتيهم بعد انتهاء البيعة، و توجب الوقوف على السجناء ب"استعداد" وفق التعبير العسكري فور دخولهم الزاعق الممر الطويل، وباتوا يوشون للإدارة بكل من لا يقف ولا تكون وقفته مستقيمة، لتقوم الإدارة بمعاقبته، ويهتف" أبوجمعة" الجلاد الشهير في شعبة الأمن السياسي: هاد الشعب ما نقدر عليه، ولا نقدر نوقفه عن الهتاف. في إشارة إلى المجرمين والجانحين والأحداث الهاتفين بأثر حبوب

الهلوسة التي يتعاطونها ويبيعهم إياها"محمد بظت"لاغيرها.

انتهت الهزلية بنتيجة أنه لم يفرج عن اللذين قبلوا بالتصويت من السجناء السياسيين (وهم أقلية خنقها اليأس)، ولاعن اللذين رفضوا التصويت بحزم، ومعظم الذين هتفوا مع"محمد بظت" لم يشملهم العفو الموعود، لكونه استثنى الجرائم الشائنة.

وهذا من بعض عجائب الطغمة العسكرية، وهو ما سيتكرر في جميع السجون، حيث فقدت أعداد غير قليلة المعنى القيمي والرمزي للاعتقال السياسي، مادفعت بعضنا إلى نقد العقلانية الهيغلية، في غير أوان النقد، التي حققت تعيينها التاريخي في الدولة الرأسمالية، سحرنا يومها بهيغل وتناسينا اللاعقلانية الجنونية الرأسمالية التي عبأت الشعوب الأوروبية وساقتهم كخراف إلى أكبر مسلخ بشري في الحربين العالميتين الأولى والثانية، بصعود دموي للفاشية والنازية، والعدوان الإمبريالي البهائمي المستمر على شعوب الأرض "غير المتمدنة"، وقذفها في وجوه الشعوب اللاهثة بالاستقلال، كمختصر لنمط تاريخي يأتي معه بالحرية والمساواة والعدالة، بأنظمة عميلة ورجال صنعتهم بجينات كلاب الحراسة، ليلبسوا في عجالة السراويل المحلية وقلنسوتها.

ملحق ثان

سجن دمشق المركزي-الجماهير"العفوية" تحيي قائدها المفدى

السجين "رسول الجوجو" من بلدة سرغايا، معتقل بتهمة الانتماء لحزب البعث الموالي للنظام العراقي الشهير مخابراتياً "اليمين المشبوه"، ولم تدارك مسألة شبهته طيلة خمس وعشرون عاماً من 1966 1992-ليغدو يميناً صافياً أو بعثياً من أنصار القيادة القومية... حدثنا هذا الرجل وهو بعثي سلطوي كذلك، دفعته الحاجة المادية ليعمل مع الجماعة العراقية التي لا تبخل على أعضائها بالمال، مما شكل في داخله حالة من الازدواجية الفريدة: قابلية حزب البعث للقسمة على اثنين.

حدثنا عن خضوعه لسلسلة من دورات التدريب المسرحي في المسرح العسكري، ساهم فيها مجموعة من كبار رجال المسرح السوري ونقاده، لإعداد هؤلاء الرجال أصحاب الأشكال الغريبة ومخارج الحروف السوقية... و لم يتمكنوا رغم خبرتهم وفراستهم من التنبؤ بمكان عمل هؤلاء المتدربين فور تخرجهم من هذه الدورة.

كانت المهمة التي يكلفون بها دوماً، واحدة لم تتغير، الحضور إلى كافة المؤتمرات الجماهيرية بألبسة شعبية متنوعة فلاحين أو عمال أو باعة متجولين للإيحاء بأهمية القاعدة الشعبية للسلطة، التي تستحضرها بألبسة تنكرية، ويدخلون بموجب بطاقات خاصة وتعليمات صارمة للجان المراقبة الأمنية بتسهيل دخولهم وجلوسهم، يتوزعون في أربع أطراف القاعة باستثناء المقاعد المخصصة لرجال الدولة الكبار الذين يقودون الدولة والمجتمع وجبهة وطنية.

وحالما يبدأ المهرجان الخطابي يتبادلون الوقوف والجلوس لإلقاء أبيات من الشعر العامي أو الفصيح، كانوا قد دربوا عليها جيداً، لذكر الإنجازات الخارقة للقائد الفذ من مثل دوره في زيادة

الثروة الحيوانية وإكثار أشجار الزيتون، وتحويله مجرى الأنهار بموجب ورقة بخط يده، ووقوفه كالطود أمام رياح المؤامرات وعواصفها، وتغييره الفذ لقوانين المجموعة الشمسية بما يناسب مقومات الصمود… وكانت وما تزال تنطلي على من يرى في القاعات وعلى شاشات التلفاز في النقل الحي والمباشر، كما يسمونه، بافتراض أن النقل الحي هو غير النقل المباشر، أو من يسمع في المذياع، أن قوة شعبية حقيقية عفوية بريئة هي من تترك حقولها ومصانعها وبسطاتها وتغلق محالها وتأتي إلى هذه القاعات لترد الجميل وتبدي الشعور بالامتنان للقيادة التاريخية. وحين اعتلى الرئيس الراحل المنبر لافتتاح خطابه الأشهر في أزمة 79-82 ب:الله أكبر!! ماذا أرى بحراً أرى موجاً أرى…الخ.

كان رسول الجوجو ورفاقه المناضلين منتشرون بين مجاميع الشبيبة يستثيرونها في هياج مبين لتحية القائد الرمز ■

في الأعداد القادمة

ملف:

في نقد الثورة السورية

مجلة دمشق تدعو الكتاب السوريين والعرب إلى المساهمة في ملفاتها

مفيد نجم

في مآلات الثورة السورية وآفاقها المستقبلية

مقدمات أولية

قبل محاولة رسم أي تصور مفترض للمآلات، التي يمكن أن تنتهي إليها الثورة السورية، لابد أولا وكمدخل للوصول إلى هذه الغاية، من الإجابة عن سؤالين مهمين، أولهما ما الذي جعل النظام المجرم يعلن الحرب على الانتفاضة الشعبية السلمية منذ أيامها الأولى، ويسعى جاهدا لجرها من طور السلمية، إلى طور المواجهة العسكرية، التي يمثل فيها الطرف الأقوى، وذلك من خلال عمليات الإجرام المنظمة، وانتهاك الأعراض وارتكاب المجازر المتنقلة، ما دفع قسما من الحراك الشعبي وعناصر الجيش السوري المنشق لحمل السلاح دفاعا عن النفس أولا، ومن ثم من أجل إسقاط هذا النظام المجرم. أما السؤال الثاني فيتعلق بالأسباب التي جعلت الموقف الدولي عاجزا عن التدخل الفعّال، بصورة مباشرة، أوغير مباشرة لوقف المذبحة، التي يرتكبها النظام بحق الشعب السوري، الأمر الذي جعل النظام يتمادى في ممارسة أبشع أنواع الإجرام، دون أن يحسب أي حساب لما يمكن أن يترتب على هكذا أفعال، يعدّ الصمت عنها وصمة عار في جبين العالم المتحضر، وقيمه الإنسانية التي يدّعيها.

لقد بدا واضحا منذ الأيام الأولى للثورة، أن النظام المجرم قد اتخذ خيار القمع والإرهاب، الذي اعتاد عليه كسياسة طوال الحقبة السابقة، لسحق الانتفاضة الشعبية، وأنه قد استعد لمواجهة أي احتمال مفترض لأية هبة شعبية مفترضة ، تحت تاثير ثورات الربيع العربي، ولذلك سارع الخطاب السياسي للنظام منذ البداية، إلى اتهام الحراك الشعبي بالعمالة والارتهان لمخططات الخارج، لتبرير سياسته القمعية، إلى جانب الترويج الفاضح لمسألة الطائفية، والحديث المستمر عن سعي القوى المتطرفة إلى إقامة إمارات سلفية، في محاولة منه لتحقيق غرضين اثنين، الغرض الأول منهما داخلي، ويتمثل في دفع ما أصطلح على تسميتهم بالأقليات في المجتمع السوري للالتفاف حوله، والحؤول دون انخراطهم في الحراك الشعبي، والغرض الثاني خارجي، ويهدف للإيحاء للغرب وأمريكا بأن مجموعات إسلامية متطرفة، تقف وراء هذه الأحداث، سعيا وراء إسقاط النظام(العلماني) في سوريا، ما سيشكل خطرا على الاستقرار في المنطقة، وفي المقدمة منه أمن واستقرار إسرائيل، ولعل التصريح الشهير لحوت مافيا المال في سوريا رامي مخلوف للصحافة الأمريكية، عن ارتباط أمن إسرائيل بأمن النظام، هو التعبير الأمثل عن تلك

المحاولات، التي ما يزال العامل الإسرائيلي مدخلا أساسيا لفهم موقف الغرب عموما، والولايات المتحدة خصوصا من الثورة السورية. لقد انطوى خطاب النظام المزدوج على تناقض ومغالطات فاضحة، ففي حين حاول النظام أن يوحي لقوى اليسار وللرأي العام العربي أن هذه الانتفاضة، هي مجرد مؤامرة تقف وراءها إسرائيل والولايات المتحدة، وقوى أصولية إسلامية في المنطقة لضرب قوى الممانعة، التي يشكل النظام قاعدتها في المنطقة، كان خطابه الإعلامي يحاول في الآن ذاته أن يقنع الغرب بخطورة أي تغيير على الأمن والاستقرار في المنطقة، يمكن أن يحدث في حال سقوط النظام، ووصول القوى الأصولية المتطرفة إلى السلطة. لقد استند النظام في اختياره للحل الأمني إلى جملة من العوامل الداخلية والإقليمية والدولية، التي عمل على تأمينها في إطار استراتيجيته لتحقيق استمرار نظامه واستقراره ، ودوره كلاعب أساسي في المنطقة.

العامل الداخلي

لجأ النظام إلى إقامة شبكة علاقات وتحالفات داخلية معقدة قبل وصوله إلى السلطة مع قوى اجتماعية وسياسية مختلفة، دينية وتجارية وعسكرية وحزبية، ضمنت له التأييد والدعم والقاعدة الشعبية. بعد أن استطاع قبل هذا ومعه أن يؤمن هيمنته على المؤسسة العسكرية مسبقا، بعد نجاحة في إزاحة رئيس هيئة الأركان أحمد سويدان عام 1968، وتعيين حليفه التابع مصطفى طلاس رئيسا للأركان، مما ضمن له السيطرة الكاملة على المؤسسة العسكرية، لاسيما بعد أن قام بتسريح كل العناصر العسكرية، المناوئة له، أو المشكوك في ولائها. لقد استفاد الأسد كثيرا داخليا وعربيا ودوليا، من النهج السياسي لخصومه في السلطة والحزب، عندما قدّم نفسه بوصفه الشخصية المعتدلة، والمنفتحة على محيطها العربي، والقابلة للتفاهم والتعاون، بما في ذلك استعداده للاعتراف بالقرارات الدولية 242 و338، وإعادة العلاقات الديبلوماسية مع الولايات المتحدة، ما جعل وصوله إلى السلطة مؤمنا من قبل جميع الطراف، في الوقت الذي كان يتفاوض فيه مع السوفييت، على تأمين مصالحهم عبر منح الحزب الشيوعي السوري دورا في المرحلة القادمة من خلال ما يسمى بالجبهة الوطنية التقدمية، واستقدام المئات من الخبراء العسكريين السوفييت، والاستمرار في النهج(الاشتراكي). لكن رأس النظام عمل منذ الأيام الأولى لوصوله إلى السلطة وفق أجندته الخاصة، إذ قام باستبدال جميع قادة الكتائب والسرايا العسكرية المحيطة بمدينة دمشق، والذين يقدر عددهم بأربعة وعشرين ضابطا من الطائفة السنية، بضباط موالين له من طائفته، انطلاقا من إدراكه لأن من يسيطر على دمشق العاصمة، يسيطر على سوريا كلها. قبل هذا عمل الأسد أثناء توليه وزارة الدفاع بعد انقلاب شباط 1966على الاحتفاظ بقيادة القوى الجوية لخطورتها، وتكوين تنظيم عسكري، بإشراف شقيقه رفعت الأسد، أطلق عليه اسم سرايا الدفاع عام 1968 تمهيدا للسيطرة على دمشق وتأمين حماية النظام، وهو ما توضح لاحقا بعد التوسع الكبير في عدد منتسبيها خلال مرحلة السبعينيات من القرن الماضي، من خلال استقدام المزيد من الطلاب الفاشلين دراسيا، والباحثين عن فرص عمل من مناطق الساحل السوري تحديدا، ليصل عددها إلى عشرات الآلاف، وتبدأ بالسيطرة على المواقع الاسترلتيجية المحيطة بالعاصمة، بعد أن كانت سيطرت على المطارات العسكرية منذ بداية تشكيلها. إضافة إلى ذلك عمل على تجريد وزارة الدفاع، من سلطتها الفعلية على الجيش، من خلال إناطة كل القرارات المهمة والأساسية به شخصيا، بعد أن استحدث لنفسه منصب القائد العام للجيش والقوات المسلحة، مما أفرغ تلك الوزارة من أي سلطة مؤثرة، على واقع المؤسسة العسكرية، كما كان عليه الحال أثناء توليه هو لوزارة الدفاع. العامل الثاني والهام الذي قام به الأسد، هو، العمل على اجتذاب الطائفة العلوية إليه وتكريس ولائها له، من خلال منحها امتيازات خاصة، على مستوى رموز عشائرها الأربعة، العسكرية والدينية، وفي هذا الصدد يروي باتريك سيل في كتابه سيرة الأسد، بأن رئيس الوزراء عبد الرحمن خليفاوي كان عليه أن ينتظر مدة ستة شهور ليتمكن من مقابلة الأسد، في حين كان أي شيخ من شيوخ الطائفة العلوية، يمكنه أن يقابله خلال ساعات. يقف وراء هذا النهج الذي سيتكرس أكثر في عهد الأسد الابن عاملان مهمان، تركا أثرهما الهام على واقع الصراع الاجتماعي الداخلي، لاسيما في المرحلة الراهنة، العامل الأول أن الأسد ينتمي إلى أصغر العائلات العلوية، بينما كان اللواء محمد عمران الذي قام باغتياله في مزرعته بطرابلس لبنان، واللواء صلاح جديد ينتميان إلى عشائر علوية أكبر وأكثر نفوذا داخل الطائفة والجيش السوري، بينما كان الضباط الذين أدخلهم الأسد إلى الجيش ما يزالون يحملون رتبا صغيرة، لا تمكنه من السيطرة على الجيش. وفي إطار سياسته لاحتواء الطائفة، وضمان التفافها حوله لجأ النظام إلى ربط مصالحها به بصورة مباشرة وعملية . لقد قامت سياسة النظام على مبدأ اساس، هو السيطرة على القوات المسلحة أولا، من خلال فتح المجال الواسع أمام الشباب العلوي للتطوع في الجيش، مستغلا عدم وجود أي فرص عمل تذكر في مناطقه المهمشة لتأمين حياته ومستقبله سوى التطوع في الجيش، وبعد أن تحقق هذا الهدف بدأ بتسليمهم المواقع الحساسة في السرايا والكتائب والألوية، للهيمنة على تلك الوحدات العسكرية والتحكم بها، خصوصا بعد توقيعه لاتفاق فصل القوات مع العدو الإسرائيلي عام 1974، وتكريس حالة اللاسلم واللاحرب معه، ما جعل المؤسسة العسكرية التي عمل على تحويلها إلى جيش عقائدي، تترهل وتزداد فسادا من خلال المكاسب والامتيازات الكبيرة، التي منحها لقادتها بهدف ضمان ولائهم الكلي له. أما على مستوى العلاقة مع الطبقة التجارية لاسيما في مدينة دمشق، فقد بدا التفاهم بين رأس النظام وبينهم واضحا منذ البداية، كما تجلى في لافتات الدعم والتأييد التي رفعوها على مداخل الأسواق التقليدية في دمشق، بعد أن وعدهم بتحقيق الانفتاح الاقتصادي، الذي يضمن مصالحهم، انطلاقا من إدراكه لأهمية حصوله على تاييدهم لسياساته الداخلية في تحقيق الاستقرار، لكنه في الآن ذاته، وكما عمل في المجالات المختلفة الأخرى وفق أجندته الخاصة، بعيدا عن أي اعتبار لمصالح القوى الحليفة له، مكتفيا في إطلاق يدها في الموقع المخصص لنفوذها، عمل على تفتيت البنية الاجتماعية لمدينة دمشق، عندما اجتذب مئات الآلاف من أبناء الأرياف إليها، للعمل في المؤسسات والمعامل، التي



قام بتركيزها فيها بعد تدفق أموال النفط الخليجي عليه، مما أثر كثيرا على واقع التنمية في الريف، وولد أزمات مستفحلة في دمشق، التي بدأت أحياء العشوائيات تتنامى فيها وتكتسح غوطتها، لكن الأهم كان إقامة ما يشبه المستوطنات العسكرية لعائلات قوات سرايا الدفاع وسرايا الصراع والأمن والحرس الجمهوري، والتي تتكون أغلبيتها الساحقة، من أبناء الطائفة العلوية داخل دمشق، وعلى أطرافها(السومرية- المزة -86 مساكن الحرس بدمر- مساكن الحرس في قدسيا، وفي جديدة الشيباني- مساكن يعفور- حي السكة بمخيم اليرموك- الدخانية طريق المليحة- مساكن الحرس مفرق صحنايا) والتي ستكون خزانا أساسيا للشبيحة والمجرمين، الذين يمارسون أبشع أنواع الإجرام والمذابح بحق المواطنين ورموز الحراك السلمي، في دمشق وريفها بصورة خاصة. بالمقابل سهل النظام أمام أبناء تلك العائلات وأقاربهم، الذين بدأوا بالتوافد إلى العاصمة، والتمركز فيها فرص العمل في الدوائر والمؤسسات الحكومية، ضمن خطته للهيمنة على المواقع الحساسة داخل المؤسسات الإعلامية والتربوية والاقتصادية والإدارات الأخرى. ويمكن اعتبار ما حصل في التلفزيون والصحف السورية ومكاتب الصحف العربية، التي كانت وما زالت تحتكر وزارة الإعلام منح التراخيص لها، لاسيما بعد أن أصبحت هذه الوزارة السيادية حكرا على الوزراء العلويين، خير مثال على هذا الواقع الجديد من السيطرة على مؤسسات الدولة. إن هذه السياسة بمنطلقاتها الطائفية، كانت تهدف إلى ربط مصالح الطائفة به، باعتبارها الأكثر وثوقا بالنسبة له من جهة، ومن جهة أخرى لجعلها خط الدفاع الأول عنه، ولذلك لجأ في إطار استراتيجيته تلك، إلى تقديم الكثير من الامتيازات لها، سواء على مستوى المؤسسات العسكرية والأمنية، أوالمنح الدراسية الخارجية، أثناء تولي رفعت الأسد لمكتب التعليم العالي، في القيادة القطرية في سبعينيات القرن الماضي، لكن الأخطر كان هيمنتهم الكاملة على المؤسسات الأمنية والعسكرية، التي بدأ نفوذها يتسارع ويتضخم، حتى أصبحت هي من يقود البلد، ويتحكم في ترتيب أوضاعه الداخلية. على صعيد آخر لجأ النظام ومنذ بداية وصوله إلى السلطة عام 1970إلى إقامة مجموعة من التحالفات الداخلية، على مستوى علاقته بالطوائف المختلفة، من خلال رموزها الاقتصادية والدينية والعشائرية، لربط مصالحها به، بحيث يضمن ولاءها ودعمها لنظام حكمه، ويضفي عليه نوعا من الشرعية. لقد تجلت تلك السياسة في توزيع المواقع والمسؤوليات المدروس داخل مؤسسات الدولة والجيش والحزب والإدارة المحلية، لكن دورها الوظيفي بقي في حدود العمل التنفيذي أو الهامشي، مقابل هيمنته الكلية على المواقع الأمنية والعسكرية الحساسة، صاحبة القرار في السلطة.

بعد انقلاب شباط 1966وتوزيع المسؤوليات بين أطراف التحالف الثلاث في هذا الانقلاب، استطاع اللواء صلاح جديد أن يعيد هيكلة الحزب بالصورة التي يضمن فيها ولاءها له، من خلال موقعه الذي اختاره لنفسه كأمين قطري، ولذلك عمد النظام مع المجموعة الانقلابية، في خطوة لمواجهة حالة الرفض التي قوبلت بها حركته الانقلابية، من قبل الكثير من قيادات الحزب، إلى تهديد تلك القواعد بحل الحزب من جهة، ومن جهة أخرى إشغالها في معارك جانبية مع القوى الناصرية على الساحة السورية، بعد تفعيل نشاطها وتعزيزه بقوة وكثافة، ما خلق حالة من الاشتباك العنيف بينها وبين كوادر الحزب، حتى استطاع تأمين المزيد من تاييد قيادات الحزب وعناصره، من خلال المفاوضات التي كان يجريها معها، وإغرائها بالمناصب والامتيازات التي كان يقدمها لها. لقد كانت سياسة النظام المزدوجة على صعيد البعث تسعى لتحقيق هدفين في آن معا، توسيع قاعدته الجماهيرية من خلال إدخال المزيد من الأعضاء إليه، معتمدا في ذلك على احتكار الوظائف واشتراط الحصول عليها بالانتساب إلى الحزب ، ما أفقد الانتساب إلى الحزب دافعه العقائدي، وجعله لا يتعدى حدود المنفعة الشخصية. وبعد أن تمركزت جميع المسؤوليات السياسية والعسكرية والحزبية بشخص الرئيس، واختياره لقيادات ضعيفة وشديدة الولاء له، أصبحت وظيفة الحزب الذي تمركز حول شخص أمينه العام، تنحصر في الإمساك بمفاصل الدولة والمجتمع، وتطبيق سياساته، مقابل الامتيازات التي كان يقدمها لها. إن حاجة النظام لحزب البعث كانت نابعة من حاجته إلى وجود واجهة سياسية، تتخفى وراءها سياسة الاستفراد والاستحواذ المطلق على السلطة، إضافة إلى دوره في الترويج لسياسته على الساحة الحزبية العربية عبر توطيد علاقاته مع القوى والأحزاب القومية واليسارية العربية . إن وظيفة الحزب لم تعد تتجاوز إطار التمجيد والتسويق والدفاع عن النظام، وقيادة ما يسمى بالمنظمات والنقابات الشعبية والمهنية، التي كانت وظيفتها احتواء وتأطير جميع قطاعات الشعب، والعمل على تسخيرها لخدمة مشروع النظام السياسي في الهيمنة والتسلط، واحتواء المجتمع. لقد كان يكفي الأمين العام- الأسد أن يحضر الاجتماع النهائي للمؤتمر القطري، ويقوم بتزكية من يراه مناسبا لعضوية القيادة القطرية، من الأعضاء الذين يطمئن إلى ولائهم المطلق له، حتى يسارع المؤتمر إلى تزكيتهم، ما جعل الحزب يختصر بشخص أمينه العام وحده. لكنه مع تنامي دور الأجهزة الأمنية وسطوتها على الحياة العامة في سوريا، أصبح الحزب كغيره من قطاعات الحياة الأخرى خاضعا لسلطة تلك الأجهزة، بل اصبح البعثيون كتبة تقارير لتلك الأجهزة عما يدور في اجتماعات قيادات الحزب المختلفة. قبل هذا ومعه كان العمل الحثيث على تدعيم ركائز الدولة الأمنية، التي جعلت من أجهزة الأمن المتغولة باضطراد سلطة عليا، تخضع لها مؤسسات الدولة والحزب. لقد كانت شخصيات مثل اللواء علي دوبا واللواء محمد ناصيف تتمتع بنفوذ وتأثير واسعين، سواء على مستوى الدولة أو الحزب أو الجيش، أكثر مما يتمتع به رؤساء وزارات وقيادات حزبية عليا، أو شخصيات عسكرية وسياسية تعد من شركاء للأسد في انقلاب 1970، الأمر الذي يكشف عن مدى تغول تلك الأجهزة الأمنية والعسكرية(إدارات المخابرات العامة والمخابرات العسكرية والأمن الجوي والأمن السياسي- سرايا دفاع والحرس الجمهوري وأمن الوحدات الخاصة) وخضوع الدولة لسيطرتها وسطوتها، ما أدى لقيام تحالف بين تلك الأجهزة وإدارات مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية الأخرى، يرعى الفساد، ويعممه، حتى أصبح لكل

موقع في الدولة ثمن محدد، أوخدمات أمنية، يجب على الساعي إليها أن يقوم بتأديتها، مقابل الحصول على هذا الموقع. من هنا يمكن أن نلاحظ مع اتساع الثورة واستمرارها غياب أي دور للحزب والحكومة، واقتصار القرار الأمني على دائرة ضيقة من الأسرة الحاكمة، ومستشاريها الأمنيين والعسكريين من الطائفة نفسها.

النظام: شبكة علاقات إقليمية معقدة

استطاع النظام أن يوظف الواقع الجيوسياسي لسورية في معادلات المنطقة بصورة كبيرة، فبعد علاقات التحالف القوية التي استطاع أن يقيمها مع نظام الملالي، في إيران منذ سقوط نظام الشاه، ويوظفها في معادلات المنطقة الجديدة، راح يعمل على تعميق ذلك التحالف، وينسج خيوطه القوية، انطلاقا من إدراكه بأن تحالفه مع النظام الجديد، والذي يتقاطع معه مذهبيا بصورة أو بأخرى، سوف يعزز موقفه في وجه عدوه اللدود في بغداد، نظام صدام حسين، وكان تحالفه معه أثناء الحرب العراقية- الإيرانية تعبيرا جليا عن محاولته لاستنزاف خصمه تمهيد لإسقاطه. بعد انتهاء تلك الحرب الطويلة التي خسرتها إيران، كانت الاستراتيجية الإيرانية الجديدة، تقوم على التعويض عن خسارتها لتلك الحرب، في مد نفوذها في المنطقة العربية عبر البوابة اللبنانية، بالتحالف مع النظام السوري، على قاعدة تبادل المنافع والأدوار، في إطار تقاطع المصالح والطموحات التي تقوم عليها استراتيجية الطرفين، في المنطقة. لقد التقت الأهداف الاستراتيجية لكل من النظام الأسدي وإيران في إيجاد حليف قوي لكليهما في لبنان، يضمن للنظام السوري الاستمرار كطرف أساس في الصراع العربي- الإسرائيلي، بعد تحييده لجبهة الجولان بموجب اتفاق فصل القوات عام 1974 والذي أظهر التزاما قويا به، وخسارته للورقة الفلسطينية، إثر افتضاح دوره التآمري على المقاومة الفلسطينية، خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 من جهة، ومن جهة أخرى لتحقيق هيمنته وسيطرته الدائمة على لبنان عبر إيجاد حليف استراتيجي قوي، انطلاقا من إدراكه لضعف القوى الوطنية اللبنانيةالتي عمل علىتفتيتها من الداخل، وعدم قدرته على بناء علاقات تحالف بعيدة المدى معها بسبب خضوعها لتوافقات سياسية داخلية ودولية، تجعلها تمتلك هامشا للمناورة في علاقتها معه، في حين كانت الاستراتيجية الإيرانية تقوم على مدّ نفوذها في المنطقة، عبر دخولها كلاعب أساس في الصراع العربي- الإسرائيلي، من خلال خلق قوة عسكرية منظمة ومدربة، تمتلك السلاح المتطور اعتمادا على وجود قوى شيعية، تخضع لسلطتها الدينية والسياسيةوعلى الحدودمع اسرائيل، فكانت ثمرة هذا التقاطع في الطموح والأهداف لكلا الاستراتيجيتين، هو المولود الجديد، المتمثل في حزب الله. لقدسعى النظام الأسدي إلى تغيير قواعد اللعبة السياسية في لبنان، م نخلال خلق قوة عسكرية وحزبية تتفوق على الجيش اللبناني عد ة وعددا بحيث تتمكن من الهيمنة على الساحة السياسية اللبنانية وتتحكم بها بالتعاون مع الأطراف الحليفة للنظام الأسدي هناك.إن تلك العلاقة التحالفية بين النظامين الأسدي والإيراني لم تكن اتخضع لأهداف مرحلية، كما كان الحال في علاقة النظام مع القوي اللبنانية المختلفة، بل نابعا من إدراك عميق لطبيعة التحالف المصيري، الذي يكرسه قيام هذا الحزب بين أطراف المعادلة الثلاث(إيران والنظام السوري وحزب الله) على المدى البعيد، فالنظام الذي يمثل الشريان الحيوي لإمداد حزب الله بالسلاح والخبرة والمال وعناصر الحرس الثوري الإيراني، كان يدرك مدى حاجة الطرفين الآخرين للوظيفة الحيوية، التي يمكن أن يقوم بها بالنسبة لكل منهما، إضافة إلى ما يمكن أن يوفره وجوده في لبنان، من غطاء سياسي لسلاحه، ودوره الذي يريد أن يلعبه في إطار الاستراتيجية الإيرانية في المنطقة، ما يجعل حزب الله بعد تحوله بما يملكه من قوة عسكرية، إلى ثقل سياسي كبير على الساحة اللبنانية، قادرا على تأمين هيمنة النظام السوري على لبنان في ظل المصالح المتبادلة، متخذا لأجل تحقيق هذه الأهداف ذريعة تحرير ما تبقى من أرض لبنانية محتلة. بالمقابل لم يكن لحزب الله أن ينجح في استراتيجية احتكاره للمقاومة، وصولا إلى احتكار امتلاك السلاح في لبنان، لولا الدعم الذي كان يقدمه له نظام الوصاية الأسدي هناك، بغية إضفاء مشروعية وطنية وسياسية على سلاحه الذي يملكه، حيث لم يكتف حزب الله ضمن هذه الاستراتيجية باحتكار العمل المقاوم ومنع القوى الوطنية الأخرى من ممارسة هذا الدور، بل قام بتنفيذ نفس السياسية التي اتبعها حتفظالأسد قبل وبعد مرحلة قفزه إلى السلطة عبر القضاء على جميع رموز الطائفة العلوية سواء بالاغتيال(محمدعمران) أو بالسجن المؤبد(صلاح جديد)لضمان ولائها المطلق له، فقام حزب الله بتحجيم القوى الشيعية الأخرى، وفي مقدمتها القوى اليسارية التي اغتال عددا من رموزها الهامة، وحركة أمل التي استطاع أن يلحقها باستراتيجيته، بعد تحجيمها في معارك إقليم التفاح، التي ذهب ضحيتها أكثر من خمسمائة مقاتل.

وفي الوقت الذي كان فيه التحالف الاستراتيجي بين النظام وإيران وحزب الله يتعمق، ويزداد رسوخا، كان النظام يعمل على إقامة نوع من التوازن في علاقاته الإقليمية، يضمن له الاستقرار، والمحافظة على دوره الفاعل والمؤثرة في معادلات المنطقة عربيا وإقليميا، وذلك من خلال إقامة علاقات قوية ومتنامية مع الدولة التركية ذات التوجهات الإسلامية المعروفة بهدف الخروج من حالة العزلة التي كان يعيشها بعد إجباره على الخروج من لبنان، فكان تنازله عن لواء اسكندورنة، وفتح الأسواق السورية على مصراعيها أمام لصناعات والمنتجات التركية، على حساب القطاع الصناعي والافتصاد السوري، هو الرشوة التي قدمها النظام، لإنجاح تلك السياسة، في منطقة بالغة الحساسية، من الناحية السياسية والمذهبية على مستوى صراع المصالح والإرادات بين تلك القوى الإقليمية الأساسية فيها، ذات التوجهات المختلفة، إيران وتركيا والمملكة السعودية ومصر. ومن أجل هذا الهدف، حافظ النظام على علاقاته التقليدية مع دول الخليج العربي، من خلال تقديم نفسه كعامل توازن بينها وبين إيران، وشريك لا غنى عنه في التسويات القائمة في المنطقة، لاسيما على صعيد الصراع العربي- الإسرائيلي، لكن تلك الحسابات السياسية الخاصة



بالنظام، لاسيما بعد إصراره على الحل العسكري، لمواجهة الانتفاضة الشعبية، لم تستطع أن تحقق النتائج المرجوة منها، انطلاقا من تقديراته لحقيقة المخاوف الجدية، التي يشكلها انتصار الثورة على الوضع العام في المنطقة، وعلى أوضاعها الداخلية تحديدا، ما جعله مطمئنا لردود أفعالها على تلك السياسة العنفية التي انتهجها، إلا أن وحشية النظام الإجرامي، وعنفه المنقطع النظير، والمدعوم عسكريا وماليا ولوجستيا من حليفيه الإيراني وحزب الله للقضاء على الثورة، شكل رأيا عاما داخليا ضاغطا في تلك البلدان، وتهديدا لمصالحها، بات معه من الصعب السكوت عن هذا االعنف المنفلت والأعمى، وأدى بالتالي إلى انكشاف واضح في صراع المصالح والإرادات بين تلك القوى الإقليمية في المنطقة.

العامل الإسرائيلي

لاشك أن هذا العامل يأتي في طليعة العوامل المؤثرة في الوضع السوري ما بعد الثورة، وهو ما كان يدركه النظام ويضعه في سلم أولوياته منذ وصوله إلى السلطة عام 1970، وحتى قبل ذلك عندما رفض السماح لسلاح الجو السوري الذي كان قائدا له، تقديم التغطية الجوية المطلوبة للقوات السورية، عند تدخلها إلى جانب المقاومة الفلسطينية أثناء أحداث أيلول الأسود عام 1970، إن لم نأخذ بعين الاعتبار دوره في هزيمة حزيران، وتسهيل عملية احتلال إسرائيل للجولان. إن أهمية هذا العامل ودوره الأساسي يتأتى من التزام الولايات المتحدة والغرب، وحتى روسيا الاتحادية بأمن إسرائيل وحرب التحريك عام 1973 قام بها النظامان المصري والأسدي، كان مخططا لها أن تكون نهاية الحروب مع إسرائيل، ويمكن العودة في هذا الصدد لخطاب الأسد الأب في حفل الإفطار الرمضاني، الذي أقامه لرجال الدين الإسلامي، وخطابه الشهير الذي تحدث فيه بصراحة عن أن حرب تشرين هي آخر الحروب، إضافة إلى الالتزام الدقيق والمفرط طوال أكثر من أربعين عاما بالاتفاقات المجحفة، التي وقعها النظام مع لإسرائيل بوساطة من وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر 1974، والتي تنص فيما تنص على قيام منطقة عازلة يمنع الجيش السوري من التواجد فيها، دون أن يقابله ما يماثل ذلك على جبهة الجولان المحتلة. لقد كان حرص النظام على احترام اتفاقاته مع إسرائيل دقيقا، في الوقت الذي لم يحترم فيه الدسنور السوري الذي صاغه على مقاسه يوما من الأيام. يتذكر جميع السوريين ومنهم أبناء الجولان المحتل أن أي شخص كان يريد أن يدخل إلى مناطق الجولان المتاخمة للمنطقة المحتلة، كان يحتاج إلى تصريح أمني من قبل المخابرات السورية، وبذلك لم يكن النظام يثبت لإسرائيل مصداقيته في احترام اتفاقاته معها، بل كان يؤكد حرصه على حماية وجودها في الجولان المحتل، من أي خطر يمكن أن يحدث من خلال أراضيه. أما ما يخص دعمه لحزب الله وحركة حماس، فقد كان هذا الدور يندرج بما يمكن أن نسميه باللعب في الهامش السياسي المتاح له، لتحقيق جملة مصالح سياسية إقليمية، في مقدمتها اكتساب صفة النظام الممانع لكسب دعم وتأييد القوى اليسارية والدينية العربية، وإضفاء نوع من المشروعية على نظامه الفئوي الذي لم يدخر وسيلة لتصفية القوى السياسية اليسارية والدينية في سورية، وهنا تبرز أولى المفارقات السياسية التي كان يقوم عليها سلوك النظام ومشروعيته الكاذبة. لقد ظل النظام المناور يستخدم ورقة حزب الله والمقاومة الإسلامية الفلسطينية لتحقيق جملة أغراض سياسية، في مقدمتها الحفاظ على نفوذه ودوره السياسي باعتباره أحد اللاعبين الأساسيين في المنطقة، وبذلك كان يعمل من خلال هذا الدور على ابتزاز العالم وإسرائيل، وفي نفس الوقت يبرير نهجه السياسي والقمعي داخليا، تحت مظلة قانون الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية، التي كانت تتيح له التحكم برقاب الشعب السوري وكم أفواهه. ولتبرير سلوكه حيال قضية استعادة الجولان بعد حديثه المطول عن التوازن الاستراتيجي مع العدو الإسرائيلي، لجأ النظام إلى القول بأنه يمكنه أن يترك القضية للأجيال القادمة، وكأنه لم يكن المسؤول عن احتلالها ولا يتحمل أية مسؤولية وطنية تجاه أرض محتلة تشكل جزءا من جغرافية الوطن السوري، وبذلك كان يقدم هدية كبرى لإسرائيل، التي تحصل على70 بالمئة من احتياجاتها المائية من هضبة الجولان، وينعم آلاف المستوطنين بخيرات البلاد الوفيرة وأرضها الخصبة، ناهيك عن موقعها الدفاعي الحصين في أي حرب محتملة في المستقبل، نظرا لمحدودية العمق الإسرائيلي على تلك الجبهة. مقابل هذا الدور الذي يلعبه النظام فإن إسرائيل التي وصفت صحافتها الأسد الابن بأنه ملك ملوك إسرائيل، لن تجد نظاما يخدم مصالحها، وقد خبرت أساليبه وطرق المساومة معه مثل هذا النظام، الأمر الذي يجعل مصلحتها الاستراتيجية، تقتضي الإبقاء عليه على الرغم من تحالفه مع النظام الإيراني، طالما أن سلوكه البراغماتي هو الذي يحدد بوصله أهدافه وسياساته، في حين أن تغيير النظام سوف يأتي بقوى جديدة تجهل مواقفها منها، ولا تعرف طبيعة التعامل معها، أوموقفها من معاهدة فصل الوقت التي حرص النظام طوال عقود مضت على إظهار التزامه الشديد بها. من هنا يبرز دور العامل الإسرائيلي في إطالة أمد الأزمة عبر تأثيره على صنع القرار الأمريكي خصوصا، والأوربي عموما.

روسيا والنظام السوري

يلعب الموقف الروسي من النظام السوري دورا أساسيا في بقاء هذا النظام من خلال الدعم السياسي والعسكري واللوجستي، الذي تقدمه له بسخاء. لقد حالت روسيا دون صدور أي قرار دولي يدين جرائمه، ويفرض عقوبات دولية واسعة عليه حتى الآن. لقد كان هذا الموقف مفاجئا ومستغربا من قبل الكثيرين الذين راهنوا على تبدل ما، في هذا الموقف، كما حدث في ليبيا، لكن مثل هذا التبدل لم يحدث، ما جعل من الروس والإيرانيين الطرفين الداعمين بشكل أساسي للنظام، في معركته مع الشعب السوري. إن قراءة هذا الموقف لا يمكن أن تصل إلى غاياتها، خارج إطار المتغيرات التي أحدثتها ثورات الربيع العربي، التي خسر فيها الروس مصالحهم الاقتصادية والسياسية في المنطقة، إذ لم يبق لهم سوى المحور السوري الأسدي والإيراني، وهم

يدركون أن سقوط نظام الأسد هو بمثابة مقدمة لسقوط النظام الإيراني، لأنه سوف يعزز ثقة المعارضة الإيرانية الداخلية بقدرتها على إسقاط النظام هناك، ويحرم هذا النظام من مكاسبه السياسية التي استطاع أن يحققها من خلال تحالفه مع نظام الإجرام السدي، ويغطي بها على أزماته الاقتصادية وممارساته القمعية، وبالتالي تكون روسيا قد خسرت كل مواقع نفوذها ومصالحها، في هذه المنطقة الحساسة والاستراتيجية من العالم، والتي تقع قريبا من حدودها أيضا، ويفترض أن تكون مجال نفوذها الطبيعي. لاشك أن ضعف الموقف الدولي، وفي المقدمة منه الموقف الأمريكي يعد من الأسباب، التي ساعدت روسيا على مواصلة هذا الموقف المنحاز، حتى تحولت روسيا إلى محامي الشيطان للنظام المجرم في المحافل الدولية، إضافة إلى تعزيز موقفها السياسي في مواجهة أمريكا والغرب، بهدف استعادة دورها كلاعب دولي، يجب أخذ مصالحه بعين الاعتبار. لذلك من غير المتوقع أن يحدث تبدل ذو قيمة في الموقف الروسي من المسألة السورية، حتى ولو قرر الغرب أن يتدخل بصورة منفردة في سوريا، وهو ما يمكن استبعاده حتى الآن على الأقل، فهي تريد الإبقاء على نظام الأسد بأي شكل من الأشكال، لأنه سيبقى بحاجة إلى دعمها وحمايتها له، وبالتالي سيكون الضمانة الحقيقية لمصالحها على المدى البعيد. يدرك الروس أن التغيير في سوريا لن يكون لمصلحتهم، لأن الشعب السوري سيكون صاحب قراره، وبذلك لن تبقى تلك المصالح وسيلة النظام لشراء المواقف الدولية الداعمة له، على حساب مصالح الشعب السوري كما كان يفعل دائما.

من جهة ثانية يعبر الموقف الأمريكي والغربي عموما، عن حالة التخبط والارتباك الواضح حيال الوضع الماسأوي السوري، كما تعكسه مواقفه السياسية التي تتناقض، بسبب محاولة التهرب من المسؤوليات الأخلاقية والإنسانية، مما ساهم في إطالة أمد الأزمة من جهة، ووفر للنظام الظروف والوقت المناسبين للإيغال في جرائمه، واستخدام كل أنواع القوة المدمرة والمحرمة دوليا، في محاولته اليائسة والمجنونة للقضاء على الثورة.

العامل الداخلي:

واقع المعارضة السورية والحسابات الدولية

تحتاج دراسة هذا العامل إلى بحث مستقل وموسع، يتناول جوانبه المختلفة تاريخيا وسياسيا وتنظيميا، للوصول إلى فهم حالة التشتت والتناقض والصراع، التي تحكم سلوك تلك المعارضة وعلاقاتها ببعضها البعض، والتي ما زالت تحول دون توحدها واجتماعها، على تفاهمات مشتركة، تجعلها تشكل قوة فاعلة ومؤثرة في المعادلة السورية الداخلية، وفي التاثير على الموقف الدولي، إن لم تكن الحامل الأساس للثورة السورية. لقد أفرزت الثورة السورية واقعا جديدا، من خلال طبيعة الحراك الشعبي والشبابي الذي يقودها، في حين كان دور القوى السياسية التقليدية منفعلا وتابعا، أكثر منه فاعلا ومحركا للثورة، ما خلق فجوة بين قوى الحراك الثوري، وتلك المعارضات، التي كانت تعاني من الترهل السياسي والجمود والصراعات الإيديولوجية والفكرية، على المستوى الداخلي، وفيما بينها، إضافة إلى قدرة النظام على اختراق بعضها، وخلط الأوراق عبر تشكيل معارضات وهمية، بهدف التضليل وخلق معارضات وهمية تتبنى مواقف مؤيدة لمشاريع النظام. لم تستطع المعارضات السورية من خلال تباين توجهاتها السياسية تحقيق التوافق المطلوب حتى على مستوى الموقف من النظام، ما جعل مواقف العديد منها يتعارض مع مطالب الشارع السوري، حتى توقيع وثيقة القاهرة قبل شهور قليلة، والتي أجمعت فيها على مطلب إسقاط النظام، وعدم التفاوض معه قبل رحيله عن السلطة. لاشك أن إيغال النظام في عنفه الممنهج وجرائمه الوحشية، وخداع تلك القوى المعارضة بادعائه الكاذب في الإصلاح، هو ما جعل تلك القوى تدرك استحالة تبرير مواقفه السابقة، كما هو الحال بالنسبة لهيئة التنسيق على سبيل المثال، في حين أن المجلس الوطني ظل خاضعا لشروط تشكيله، التي جاءات من خلال توافقات دولية وإقليمية، الأمر الذي جعل مواقفه تخضع لاعتبارات دولية وإقليمية، حرمته من حرية القرار والحركة، والتركيز على وضع القوى الثورية في لداخل، يضاف إلى ذلك الدور الذي لعبته الحسابات السياسية الخاصة لبعض القوى المعارضة، والطموحات الشخصية لبعض الأعضاء داخل المجلس، ما حال دون استقطابه لجميع قوى المعارضة، وتفعيل دوره بوصفه الحامل السياسي للثورة، والمسؤول عن تأمين احتياجاتها ماديا وطبيا وتسليحيا وإغاثيا، بعد استفحال أزمة المهجرين السوريين في الداخل والخارج، بفعل وحشية آلية القتل والتدمير الهمجي للنظام، إضافة إلى عجزه عن مواكبة التحولات المتسارعة في مسيرة الثورة، لاسيما بعد التحولات الداخلية، التي أحدثها ظهور الجيش الحر والمقاومة الشعبية المسلحة. وبقدر ما راهن المجلس على دعم الخارج ومحاولة كسب تأييده السياسي والعسكري، فإن ذلك ساهم في إضاعة جهوده ووقته في العمل على الصعيد الخارجي، لأنه لم يستطع قراءة تلك المواقف بدقة، وعجز بالتالي عن مواكبة متطلبات الثورة، إلى جانب زيادة تدخل تلك القوى في مواقفه وقراراته. المرحلة الجديدة التي بدأت مع ظهور الائتلاف الوطني، كمظلة لعدد واسع من أطياف المعارضة السورية، يمكن القول أننا أمام بداية تحول في وضع المعارضة والثورة السورية، خاصة بعد توالي الاعترافات الدولية به كممثل شرعي وحيد للشعب السوري. لقد جاء هذا التحول ثمرة لجهود دولية وإقليمية، وعمل دؤوب ومجتهد من قبل مجموعة من الشخصيات الوطنية المعارضة للنظام، بعد أن اقتنع الكثير من أطياف المعارضة، بأنه لا بد من البحث عن صيغة توافقية، وإطار تنظيمي وسياسي جامع وجديد، يستطيع جمع أكبر عدد ممكن من قوى المعارضة، يمكن للعالم أن يتحاور معه، ويثق بقدرته على إدارة الصراع مع النظام، وقيادة المرحلة الانتقالية بواسطة قيادة إسلامية معتدلة، وغير منظمة، بهدف الحؤول دون جنوح العمل المعارض، وفي مقدمته العمل المعارض المسلح نحو التطرف، والوقوع في أحضان المجموعات المسلحة السلفية الجهادية. إن هذا التحول بقدر ما يعكس رغبة دولية وإقليمية في البحث عن مخرج للوضع السوري المأساوي،



فإنه يتطلب من قوى المعارضة الحذر واليقظة تجاه أية محاولات دولية، لفرض حل يقوم على نوع من التوافق بين مطالب المعارضة، وشروط النظام المدعومة من قبل روسيا وإيران، لأن ذلك سيبقي على جزء خطير من مرتكزات النظام، التي أذاقت الشعب المنتفض الويلات سابقا ولاحقا، وهو ما لن يقبل به الشعب، الذي يواصل ملحمة تصديه البطولي لجرائم الإبادة الأسدية بوتيرة عالية وقوية. لقد أدى تخلي العالم عن مسؤوليات الأخلاقية والإنسانية تجاه مأساة الشعب السوري إلى زيادة ظاهرة التطرف، ودخول قوى جهادية على خط المواجهة، وهو ما كان يسعى إليه النظام لتأكيد مزاعمه حول حقيقة الانتفاضة الشعبية ضد نظامه الإجرامي، الأمر الذي زاد من تعقيد المسألة السورية ومخاطرها المستقبلية على المستوى الداخلي بعد سقوط النظام، ما لم تتم عملية ضبط السلاح وتوحيد القوى العسكرية، في إطار تنظيمي جامع، يؤدي إلى وضع استراتيجية مواجهة مدروسة من جهة، ويسهم في السيطرة على وضع تلك القوى ووظيفة سلاحها من جهة أخرى. إن الثورة السورية التي تتعزز انتصاراتها على أرض الواقع، تجري محاوت إقليمية ودولية لمنع السح المتطور عنها وتجيير بعض فصائلها لخدمة مشاريعها الخاصة، الأمر الذي يجعل الثورة واالكتائب المسلحة بمسمياتها المختلفة تواجه خطر انحراف عن أهدافها الحقيقية عبر جرها إل معارك هامشية، في الوقت الذي يجب عل تلك القو منع النام من استفراد بكل منطقة عل حدة، عبر التنسيق والمؤازرة لدعم صمود تلك الكتائب ودتعزيز انتصاراتها طالما أن الهدف هو انتصار الثورة عل هذا النام المجرم. إإن هذا الواقع الذي تحاول فيه قوولية وإقليمية خلق حالة من اليأس والإنهاك عند الشعب السوري المنتفض بهدف القبول بالتفاوض مع النظام.

المجرم لإيجاد تسوية يقبلها النظام والمعارضة، تستدعي بلورة رؤية جامعة لسورية الغد، تتجاوز العمومية في الطرح والمواقف، وإيجاد توافق وطني واسع على تلك الأهداف الوطنية الجامعة، بحيث يكون قادرا على قيادة المرحلة القادمة، التي ستكون الأخطر في تاريخ سوريا لأن تبعات سقوط النظام ونتائجه على الساحة السورية التي غدت مفتوحة لقوى مختلفة داخلية، وإقليمية، ودولية سوف يؤدي إلى قيام صراع إرادات ومصالح متناقضة، لاسيما أن العمل المسلح لقوى المعارضة المختلفة لا يعرف حتى الآن خارطة توجهاته الفكرية والسياسية،وما زال منفلتا من أي رابط جامع يمكن التفاهممعه، ما سيقود إلى حالة من عدم الاستقرار يتوجب على هذا الائتلاف أن يكون متيقظا وقادرا على التعامل معها بحزم وشفافية ووعي وطني يسهم في تقصير أمد معاناة السوريين وتحقيق تطلعاتهم من أجل الحرية والكرامة والمساواة والتقدم وقبل كل هذا ضمان وحدة القوى المنضوية تحت لوائه لضمان فاعلية دورها مستقبلا في ظل وضع منفلت على الآرض وغياب التنسيق بين تلك القوى التي هي في الأصل قوى غير عسكرية ■

بشار العيسى

ثورة من أجل وطن توافقي حرّ للسوريين وعقد اجتماعي عصري

أتت ثورات الربيع العربي في صيغة عمليات قيصرية طارئة لإنقاذ وليد (مجتمعات دخلت أمه، الدولة العربية السائدة في حالة موت سريري أو كادت. ولئن أتت هذه الثورات في صيغة علاج طارئ . وبخاصة الثورة السورية . لكنه من نوع العلاج الذي آخره الكيّ، فالثورة ليست حبوب "مضادات حيوية" تشترى من الصيدلية بمعايير ملليغراميه، مغلفة بتعليمات ومواقيت وشروط استعمال ومحاذير اختلاطات ثانوية، كما يشتهي البعض بصدق وكما يشوّش البعص بسوء نية.

حدثت الثورة السورية بداية، كحالة تمرّد مجتمعي شعبي محدود (غير سياسي أو ايديولوجي) توّجت أنشطة اعتراضية او تضامنية لنشطاء في العاصمة لإظهار بهجة استقبال الثورات العربية، تحولت بقوة الرمز السّلمية على عنف السلطة فاحش القسوة بأظافر أطفال درعا وكرامة وجهائها الى انتفاضة كرامة شعبية لاستنفاذ القدرة على التحمّل واستهلاك آخر لقاحات الخنوع المعمّمة لسلطة الاسد/ البعث.

لقد أطلق فجور الاجهزة العائلية الفئوية المتسلطة آخر المناعات المنزلية المكتسبة من عتمة الثقافة الشعبية: الكرامة الانسانية والمجتمعية، في شكل انتفاضة بالمعايير الكلاسيكية تحولت الى ثورة شعبية لتجاوزها حدود السياسة والنخب السياسية والقوى الوسطية والعادة والتعوّد على التدجين الى صرخة شملت البلاد "الشعب يريد".

توسعت الانتفاضة بسرعة كبيرة الى ثورة شعب تركت وراءها بعيدا، النخب والقوى السياسية (ان وجدت حقا) وذهبت المدن الارياف والارياف بجموع الشعب الى الساحات إن أمكن، والى الشوارع حيث سمحت ومع اشتداد القمع (غدت كل فسحة خارج باب الدار ساحة تمرّد على الاستكانة) ، لدرجة اصبح الخروج من باب المنزل نهار الجمعة ذهابا الى الثورة للتظاهر وشكلا تطوعيا لاستقبال الموت في كل لحظة، مثلما صار جهاز تلفون "المحمول" يعتبر آلة حربية.

لقد أعلن السوريون بتمردهم هذا والخروج الى الشارع بشعرات موحّدة بكسر الحاء، وحدتهم كأمة سورية بمفهوم شعب، ووحدة وطنية بمفهوم مناطق يشملها بلد اسمه "سوريا" (واحد واحد واحد الشعب السوري واحد)، بالحدود الدولية المعترف بها، يجمعها ويوحدها: شمول الاستبداد بجرائم ترامت وتغلغلت في جسد الشعب بكل مكوناته الطبقية والخصوصيات السورية وحتى

اللبنانية والفلسطينية.

لم يطرح النشطاء السوريون الاوائل (جلّهم اليوم إما شهداء أو أسرى معتقلات السلطة بصيغة مشاريع شهداء) على انفسهم اسئلة شخصية لشدة تماهي الروح الفردية بشعارات الثورة العصرية، من نوع ماذا أستفيد؟ ما الذي يمكن ان يحدث لي؟ اي مصير ينتظر أسرتي وأهلي واولادي؟

تذهب قناعتي أنه يندر ان وقفت أمّ سورية في وجه ابنها او حبيبة في وجه صديقها قائلة: لا تخرج يا حبيبي قد تقتل، بل كما وصفت اكثر من شهادة على صفحات الفيسبوك: انهم يخجلون من محيطهم كون ان لا شهيد في اسرهم.

لقد وحّدت قسوة السلطة وشدة جرائمها السوريين والتأمت صفوفهم بتعميم القهر والجوع ومعايشة الفساد، بزوادة أغاني "القاشوش" و"الساروت" ورمزية الطفل "حمزة الخطيب" ولافتات "كفر نبل" و"الحراك" و"عامودا"، ولم تتوحد من خلف الأساطيل الأجنبية، ولا تقدمتهم الاحزاب أو الايديولوجيات الى الساحات ولا سار بهم المجلس الوطني السوري او الكردي بل هم الذين فرضوا اجندتهم (اجندة شباب الحرية السورية) على الدول وعلى النخب والمنظومات المرتجلة التي حاولت ملاقاة الحدث بوهم ما سبقها في دول الثورات وليبيا خاصة، اقتناص لحظة ضائعة بغير جدوى.

كان من الصعب ومازال ضبط ايقاع شدّة غليان صرخة الثوار "الشعب يريد اسقاط النظام" من اجل الكرامة والحرية والمواطنة العادلة، رغم كل قسوة السلطة، كان المارد الشعبي قد خرج من القمقم ولم تعد تفيد معه التعاويذ ولا التلاوات ولا الرشاوي لقد سقطت السلطة بقوة السّلمية الجامعة المانعة منذ الشهر الاول للثورة حين خرجت عامودا تصرخ: بالدم بالروح نفديك يا درعا، ومع شريط الفيديو عن بياضة بانياس صارت السلطة ترتجف في أكفان ضحاياها وصار الكل يركض من خلف الثورة وهي ذاهبة بخط مستقيم الى اسقاط النظام.

يتساءل المرء، وهو يتابع ثورة شعب جرح بكرامته ينتعش ويزداد تصميماً على مواجهة الموت والقدر كلما اتسع نهر الدم المسفوح بحيوية لم يشهدها تاريخ الانسانية قط، كيف لها ان تتوقف او تتحول؟ صحيح كما قلنا، لم تكن الثورة بضاعة صيدليات بل ثمرة ارض قاحلة عطشت على مدى سنين انحبس فيها المطر وتشطّت بالقنوط، لن تأتي بثمرة براقة ملمّعة مغلّفة بورق ملون مكتوب عليه بكل اللغات التجارية الاستهلاكية، لكنها ثمرة يد الانسان المتشققة، تخرج من تحت الركام للحرية موتاً.

بقيت الثورة السورية خلال كل هذه المدة معلقة بالاجتهادات المحلية للنشطاء الصابرين وهم يفتقدون كل شيء الا الصّبر والعزم على استرداد كرامتهم وحرية البلد، هل هذا يكفي؟ هل هذا الصبر وشواء اللحم الحيّ يكفي لانتصار الثورة، وسلميا، وبغير اخطاء، وبغير اي قدرة مادية على الصمود؟ انه السؤال المصيري الذي واجهه الثوار منذ الشهور الاولى وحاولت القوى الحزبية تقديم اجوبة تالفة وما زالت.

كل يوم يمر يتأكد ان الثورة السورية ثورة شعب بغير قيادة سياسية ترسم لها خارطة طريق وتلاقي بالسياسة نشطاء الميدان الى منتصف الطريق ثورة سلمية أُرغمت على التسلح بحاجة الدفاع الذاتي حين تخلى العالم والمدنية الانسانية بشرعة حقوق الانسان وهيئة الامم نجدتهم ولو بدفن شهيد بأمان،

ثورة بدون وسائط مالية، بدون قدرات دفاعية، بدون مناطق آمنة، بدون أعراف حروب دولية وكونية، في مواجهة عدو شرس فاجر، فلم تجد غير لحم ابنائها تقدمه كل يوم وكل ساعة وامتلأت السجون وغدت مستودعات معامل وشركات رامي مخلوف وشركاءه التجار الفاسدون امثال صائب نحاس بالأسرى والمعتقلين، ولكن هل كل الناس بنفس درجة تحمّل الالم فتعض جرحها بغير صرخة حمقاء بقول او فعل؟ فكانت ظاهرة الانشقاق لجنود وضباط شرفاء انضموا الى المدن الثائرة فتطعمت الثورة ببدايات لقاح للدفاع الذاتي فكان الجيش الحر مثل حبات سبحة على صلاة متهدجة، لمواجهة فحش افعال "الشبيحة" المسعورين بالفتنة الطائفية.

متأخرا ادرك الشعب السوري ان لا اصدقاء حقيقيين لثورته غير الذهاب الى مصيره حتى سقوط الجلادين الفاسدين، وما مشاعر طيف واسع من قوى وشخوص وتكتلات سياسية سوى كلمات عزاء وجمل منمقة وصرخات يشتتها الريح، في حين ان كل ما يحيط بالوطن السوري اقليميا ودوليا يعمل جاهدا على تسويف الحسم على حساب الدم السوري وبالتحايل على شرعة الامم، الى حين تتمكن من خلق بؤر فاعلة لمصالحهم وصراعاتهم الاقليمية والدولية في مستقبل وشكل الدولة السورية التي ستنجم عن انتصار الثورة اذا تحقق او مغبة فشلها عليهم اذا فشلت.

فات شباب الثورة لأسباب قاهرة، أهمية ان تفرز الثورة قيادة سياسية تنطق برؤيتها ومصلحة الشعب السوري وطنا ومكونات، لكن حجم الحرب التي شنتها السلطة على الثورة وسرعة تحرك الدبابات والمدافع في طول البلاد وعرضها وحجم الاعتقالات الهائل عشرات الآلاف تجاوز اجماليه المئات من الآلاف، فضلا عن ضيق ذات اليد، حالت دون تواصل مراكز قوى الثورة الميدانية، وتباحثها حول المهام السياسية للثورة واهمية البرامج والرؤية الجامعة للتغيير بالانتقال من الاستبداد الى الديمقراطية غدت أكثر صعوبة مع تدمير المدن وعزل الارياف وتفريغها مما أدى الى هجرات مليونية داخل الوطن وخارجه.

كل ذلك مجتمعا أفقد نشطاء الثورة أهم آلية للسيطرة والضبط وتنظيم القوى وجمع الاحتياط لإدخاله المعركة في اللحظة المناسبة وادارة عملية تَحاور مكونات الشعب السوري (وأجزاء مهمة ومؤثرة منه تمد السلطة بآلة وادوات القتل والسيطرة) والتفاوض مع المحيط الاقليمي والتقدم الى الأمم المتحدة كقوة مسؤولة بموجب شرعة الامم لحماية السلم وحقوق الانسان، بشخصية حقيقية لا بشخصيات زائفة بهياكل أسيرة مغلوبة لمراكزها ومموليها.

كل يوم يمر يثبت حجم الخسارة التي نجمت عن تأخر انجاز هذا العمل الحاسم: فرز قيادة سياسية للثورة من الثورة ومن القوى الحاضنة لها حقا وفعلا في الميدان، لان الايام القادمة سواء

أانتصرت الثورة ام تعرضت لانتكاسة مرحلية، ستبين مخاطر عدم فرز هذه القيادة لا في تحويل الانتكاسة الى نصر فحسب بل ايضا في حماية النصر من تحوّله الى انتكاسة منتصرة تكاد تكون بنفس درجة خطورة الهزيمة.
تتكشف الحقائق يوما عن يوم عن ان الثورة السورية اصبحت تحتاج وبشكل لم يعد التأجيل محتملا، الى قيادة تمثيلية شرعية تمتلك رؤية سياسية واضحة تصبح خارطة طريق لانتصارها بإسقاط السلطة واستعادة الدولة بمسؤولية لا تحتمل اللبس امام العالم وامام الشعب السوري بسائر مكوناته.

الحل يجب ان يكون سوريا

يثار جَدل كثير حول وعن (الحلّ) في سوريا، اي على من يقع عبء انجاز النصر في الثورة السورية؟ حقيقة ان النصر قد حصل في الثورة السورية، لكن ما يؤخر النصر هو الرّدّة، بقوة السلطة التي تمتلك ادوات القتل بعقلية الابادة، ابادة الشعب طبعا، أن ترك القاتل يتصرف بحرية غير رادعة فانه سيستمر بالقتل حتى يسكن روعه، أي حتى يفني خصمه هذا حال كل سلطة فاسدة تتعرض لخطر القضاء عليها بما يعنيه هذا القضاء حرمانها من كل شروط الثروة والجاه والتميز بالتفكير الجنوني بالسيادة والالوهية.
لن يستطيع الشعب وحده سلميا ان يخلص هكذا سلطة ادوات قتلها، طالما هي محاطة بحلفاء دوليين (ايران روسيا) تربطهم مصالح دنيئة تفتقد لأدنى شروط العقل والقيم الانسانية وثقافة شرعة الحقوق والاحتكام لقوانين الاجتماع البشري.
لا يعني هذا ان نترك القاتل يستخدم ادواته كما تسمح له شهوته وغرائز شركائه، وطالما ان الشعب ليس هو من يستطيع بسرعة تجريد قاتل من نوع بشار الاسد اسلحة الدمار الجماعي، اذا اما أن يقوم المجتمع الدولي المتوافق بقيم وشرعية حقوق الانسان لحماية ورعاية الامن والسلم الدوليين أن يقوم بهذه المهمة، مهمة تخليص المجرم ادوات قتله اي تجريده من القوة الحيوانية . او ان يقوم الشعب، شعب الثورة بجيشه الحر ومنظوماته المسلحة (وهنا يجب ان لا نغفى عن ان هناك اكثر من لاعب دولي واقليمي يمكنه المرور خلل هذه المنظومات لمصالحه) بإنجاز مهمته في صنع الحل الذي ينتقل بسوريا الوطن من حالة الاستبداد والفساد وتحكم الفوضى والنزعات ما قبل المواطنة الى حالة يتم بها تحويل الانسان من كائن مفتَرَس بفتح التاء والراء، الى حالة مواطن يعي حقوقه وواجباته تجاه نفسه وتجاه الآخرين.
علينا ان نعترف اذا لم يستكمل شعب الثورة ونشطاؤها والحريصين عليها، المهمة التاريخية، الشراكة الوطنية والمصالحة التاريخية (اسقاط السلطة برؤية سياسية جامعة لسوريا المستقبل) التي هي قبض اليدين، فلن يكمّلها له آخر من خارج الحدود، واذا حدث، لا سمح الله، ان قام هذا الآخر بهذه المهمة فهو سيكملها لنفسه وليس للشعب السوري فالأوطان تبنى من اساساتها، ومن يعمّر عنّا يعمرها على مقاسه وحاجاته ومصالحه، لكننا حين نقوم نحن بمهمة استرداد وطننا فإننا سنعيد بناءه حسب مصالحنا ووقتها سيقوم الآخر بالاستثمار في مشروعنا الرابح عن احترام وثقة ورضا لن نخسر معه بل سنربح معا في عملية التنظيم الاقليمي والدولي.
لن يبني سوريا المستقبل غير "قيادة سياسية" تستمد شرعيتها من شعب الثورة في الشارع، قيادة تستوعب دروس الداخل الوطني وكيانية الوطن السوري برؤى معرفية وقناعة وطنية تقوم على الشراكة والتوافق في الانتماء الوطني، توافق يقوم على مصالح مشتركة ومطمئنة وليس على مستوردات لفظية او صياغات فهلوية لم تعد تنطلي على الشعب السوري بعد جلجلة الاستعباد الطويل..
أن ما تحتاجه الثورة السورية لإعلان الانتصار هو " قيادة ميدان" سياسية عسكرية، اي " زعامة وطنية شعبية " وفي ظرف مثل ظروف بلدنا تكتسب الزعامة الوطنية الجامعة، اهمية كبيرة ليس لاستعادة الوطن من الاحتلال بل والاضاءة على مستقبل هذا الوطن وأي دولة بأية مواطنة؟.
مطلوب من "قوى الحراك الداخلي" دون غيرهم، انجاز هذه الزعامة السياسة "التاريخية" في صيغة "مرجعيات ميدان" تحظى بالثقة والقدرة على تحمّل المسؤولية بقوة نكران الذات و الرّهان على الشعب. ولنا في نشطاء حمص وطلبة جامعة حلب وعلماء حمص وعلماء حوران(على سبيل المثال لا الحصر) خير مثال وأهلّية، فضلا عن شخصيات وطنية، (نساء ورجالا، مناضلون سياسيون، ومثقفون متنورون ونشطاء عاملون في منظومات الاغاثة الميدانية وليست تلك الفاسدة عبر الحدود) ظلّت على مدار الشهور في صفوف الثورة في الظّل تعمل ما باستطاعتها البقاء في شارع الثورة وفي خدمتها. بعضهم مازال وبعضهم أسرى المعتقلات وبعضهم قضى شهيدا ينير الدرب.

خارطة طريق: من أجل المستقبل

تتفق غالبية السوريين على: أن روح ومبادئ الثورة الشعبية السورية أصبحت مصدراً للشرعية السياسية ومرجعية فكرية لحاضر ومستقبل الوطن السوري ، يهتدى بها إلى حين تحقيق أهداف الشعب السوري في الحرية، والمساواة، والكرامة، هدفت ثورة شعبنا الى التغيير السلمي للانتقال من الاستبداد الى الديمقراطية، لقد حدث في لحظة تاريخية من حياة الشعب السوري توافق وطني على التحرر بكرامة وبناء دولة شعب حرّ بتوافقات وطنية يغدو فيها بضرورة انهار الدم السوري، " الجيش السوري الحرّ" مع ما سيتبقى من القطعات المغلوبة على امرها ممن لم تدخل معارك السلطة الدموية ضد الشعب، المؤسسة الوطنية للجيش السوري التي ستحمي البلاد وتصون استقلالها وسيادتها على كامل أراضيها، تحرص وتحمي امن الوطن وحدوده ولا تتدخّل في الحياة السياسية بل تصونها وتحمي الدستور.

تهدف رؤيتنا السياسية الى اقامة دولة بمسمى "الجمهورية السورية" ، دولة ديمقراطية تحلُّ محلّ دولة الاستبداد والقهر والظلم، دولة مواطنة يتساوى فيها الجميع، دولة مكونات الشعب السوري، يتساوى فيها العربي بالكردي والمسلم بالمسيحي، وبغير الدخول في متاهات التفاصيل التي يترك امرها لهيئة تأسيسية لصياغة الدستور ومبادئ المصالحة الوطنية بردّ المظالم وتثبيت قيم ومبادئ الجمهورية الوليدة باحترام حقوق الجماعات المكونة للمجتمع السوري بغير اكراه او استبداد او استئثار، مبادئ ينطق بها وجدان السوريين جميعا، تستقيم والعهود والمواثيق الدولية ولوائح حقوق الانسان وروح القوانين والشرائع التي سيؤتمن عليها ممثلون حكماء للشعب السوري بكل مكوناته وثقافاته العرقية والدينية المنتخبين في دولة توحدها قيم الحرية والعدالة والمساواة، لقد جَبّت روح وثقافة الحرية والكرامة الانسانية للثورة الشعبية السورية وتضحيات شعبنا فلسفة الاكراه، ولن تكون اليها عودة الّا في عقول المتآمرين على الثورة والمتضررين منها.

اهداف الثورة: من أجل عقد اجتماعي ينتفى منه الاكراه والفساد

▪ بناء دولة تعددية يصونها دستور، تصيغه هيئة تأسيسية بتوافقات وطنية لا تتعارض ولا تنقض قيم الثورة الشعبية السورية، بمعايير حقوق الانسان وشرعة الامم، ينعدم فيها القهر والتمييز على اساس قومي او ديني او مذهبي ، دولة بمسمى "الجمهورية السورية" اسماً، وعلم دولة الاستقلال، رمزاً لدولة دفع اجدادنا الدماء من اجل بناءها بقيم العصر والمدنية والمساواة. في سوريا الاستقلال الثاني، (ما بعد انتصار الثورة) لكل مواطنيها الحق بمنصبي: القاضي والحاكم، ولكلّ مكوّنات الوطن السوري (عربا وكردا مسلمين ومسيحيين نساء ورجالا)، الحقّ المتساوي من السيادة والانتماء بغير استثناء او تمييز في كامل مؤسسات وتشريعات الجمهورية السورية.

▪ يحتفظ في دولة المواطنة في " الجمهورية السورية" للكرد بنفس حقوق وواجبات العرب. يعترف لهم بهويتهم وحقوقهم القومية المشروعة وفق العهود والمواثيق الدولية وشرعة حقوق الانسان: لهم الحق بتعلم لغتهم في مناطقهم، حيث وجدوا كجماعة مكونة للوطن السوري، الى جانب اللغة العربية والكتابة بها ونشر ثقافتهم واغناء وتطوير آدابهم وتراثهم الذي يغني التراث والثقافة السورية الحاضنة التاريخية لثقافات الشعوب التي اغتنت بها الحضارة السورية على مرّ التاريخ.

▪ في دولة الجمهورية السورية، تنظر "هيئة خاصة" مختلطة من حكماء وحقوقيين، في المظالم التي لحقت بالكرد المجردين من الجنسية والذين استملكت اراضيهم بقوانين عرفية بإنصافهم بإعادة جنسيتهم والاعتذار اليهم واعادة اراضيهم اليهم وبالتعويض العادل عن ما لحقهم من غبن وخسائر، بما ينزع فتيل التوتر والتأزيم والقهر التي زرعتها سياسات الاستبداد. يترك تفاصيل هذه الحقوق لممثلين منتخبين شرعيين والهيئة الخاصة.

▪ دولة "الجمهورية السورية"، يكون فيها السوريون شعبا واحدا في اطار وحدة أراضيه بالحدود الدستورية المعترف بها دوليا في دولة الاستقلال، ولا يجوز التنازل عن اي جزء منها تحت أية ذريعة كانت او مبرر.

▪ دولة الجمهورية السورية، دولة لها مكانها ومسؤولياتها تجاه السلم والاستقرار الدولي والاقليمي بشرعة الامم المتحدة ومواثيقها العامة والخاصة.

▪ دولة الجمهورية السورية، تلغي بالقانون على اساس دستوري كل قوانين ومراسيم دولة الاستبداد، التي انتهكت عرفياً حقوق الافراد والجماعات والطبقات التي نتج عنها حيف او ظلم او ضرر بحقّ السوريين على مدى السنين منذ انقلاب البعث سنة 1963، والتأسيس بالقانون الدستوري لواقع لن يتكرر فيه الظلم مرة أخرى. دولة مكونات تاريخية وثقافية، تشارك فيها المسلم والمسيحي والكردي والعربي أربعة اركان بشراكة وطنية تصون الوحدة الوطنية وتشكل الاساس المستقبلي لصيانة الدولة والمجتمع من الخلل والتمييز.

▪ تعتمد الدولة في ادارة شؤونها مبدأ اللامركزية الادارية بمؤسسات تمثيلية تغني اللامركزية السياسية في المناطق ذات خصوصية معينة الهدف منها: تمتين الوحدة الوطنية، شعبا، وارضا، لمنع سياسات التمييز والاستئثار ولإطلاق تنمية مستدامة تلغي مفاعيل سنوات الاستبداد القهرية بالإهمال والتهميش.

▪ في دولة الجمهورية السورية، يحاسب المجرم على اساس "العدالة الانتقالية" لتحقيق المصالحة التاريخية، يؤخذ فيها المجرم الفرد بجريمته، بعدالة يصون شروطها قانون دستوري بإشراف قضاة عادلين ومناضلين حقوقيين، في منظومة الفصل بين السلطات، يحكمون لصحة المجتمع ووحدته لا للانتقام او التمييز او القصاص ، يؤخذ المجرم بجرمه وتصاغ العدالة للحصانة المدنية في الزمان والمكان، فالمجرم لا ينتمي لأسرة ولا لعائلة ولا لعشيرة ولا لقوم. فالمجرم منبوذ خارج عن الجماعة يحاكم على ما فعلت يداه لعزله واصلاحه وشفاء المجتمع من امثاله.

دولة الجمهورية السورية ينتفى منها حكم الاعدام

▪ في دولة الجمهورية السورية الملكية الخاصة مقدسة لا يجوز مصادرتها الا للمصلحة العامة بالحدود القانونية وعلى أساس التراضي بالمحكمين المختصين.

▪ في دولة الجمهورية السورية لا يحق للمسؤولين والمنتخبين وموظفي الدرجة الاولى الانتفاع من وظائفهم بشكل غير مبرر قانونا تحت طائلة المسؤولية. كما انه يعاد النظر بعمليات استملاك للأراضي والثروة الوطنية بقوانين واوامر عرفية لأفراد وجماعات من المؤسستين الحزبية والأمنية وأسرة الاسد وشركاء لهم من الأسر العربية الملكية والاميرية.

▪ في دولة الجمهورية السورية تسود قوانين تكافل اجتماعي لحماية المستهلكين من سطوة وجشع رأس المال المستشري بغير قيم التراكم الاقتصادي الطبيعي في زمن الفساد وملاحقة الذين نهبوا الثروة الوطنية بالمنفعة والغش والمحسوبية واعادة الثروات المنهوبة الى الخزينة

القومية.

- في دولة الجمهورية السورية يعاد التشريع للحياة النقابية بالتعددية السياسية والحق بالإضراب والتظاهر ومنع الاحتكار والربح بغير رقابة وطنية ولا تخضع النقابات باي شكل كان للسلطة التنفيذية.
- في دولة الجمهورية يُحرّر الدين من السياسة بمؤسسات تقطع مع ما كان للاستبداد وتعيد اليها وجهها الحضاري الانساني، ويبقى في حاضنته المجتمعية يؤدي دوره الاخلاقي بغير احتكار او استئثار او تمييز مذهبي أو طائفي.
- تلتزم الدولة في الجمهورية السورية ازالة كافة اشكال التمييز التي ادّت الى افقار الارياف وتدمير البيئة ومكافحة البطالة لوقف الهجرة من الريف الى المدن ومن المدن الصغيرة الى الكبيرة بوقف التدمير البيئي والملوحة في التربة واعادة الحياة الى الدورات الزراعية واراحة التربة.
- في دولة الجمهورية السورية يُحارَب الفقر على أسس عصرية ببرامج باعتباره من مورثات الاستبداد ومنتجه مع الجريمة والفوضى التي تستهدف انسانية الانسان وتفرخ سياسات الاستعباد.
- إطلاق ورشة اعادة الانماء وتحقيق العدالة في توزيع الثروة والمؤسسات التعليمية المهنية والجامعية على اساس لامركزية فاعلة وراشدة تزيد من الاحساس بالمواطنة بالمساواة وتخلق فرص متكافئة على اساس الاهلّية والحاجة المناطقية.
- في دولة الجمهورية السورية يلغى التمييز بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات تسودها قوانين دستورية لحماية الامومة والطفولة والشيخوخة وتأمين الطبابة الصحية المجانية لفئة للأمراض المستعصية طويلة الامد، وسن قوانين مرعية لتوفير معالجة صحية للشريحة الاجتماعية التي لا تملك دخلا كافيا كشكل من الامان الصحي الوطني بالتكافل الاجتماعي ■

زياد ماجد

الثورة السورية في استثنائيّتها وفي بعض تأثيراتها على لبنان

لم تشهد المنطقة العربية منذ نكبة فلسطين عام 1948 حدثاً مزلزلاً بحجم الحدث السوري المستمر منذ قرابة العامين. ليس لأن الحدث هذا ثورة بكل ما تحمله الكلمة من جذرية معانٍ ودلالات فحسب، بل لأنه أيضاً هدمٌ لسياسات ومفاهيم "وطنية" وإقليمية ولمنظومة ثقافية شوّهت عقولاً ولغة وسلوكاً سياسياً في سوريا ومحيطها منذ نصف قرن.

الثورة إذ تهدم الإستبداد ومفاهيمه قبل هدم نظامه

أدهش اندلاع الثورة في سوريا أكثر السوريين، ومعهم أكثر العرب. فالتوقّعات بوصول "الربيع العربي" الى "بلاد البعث" كانت شبه معدومة، على افتراض أن جدران الخوف التي شيّدها نظام الأسدين كانت شديدة السماكة، وأن القمع لم يكن افتراضاً أو احتمالاً فحسب في سوريا، بل ذاكرة ملؤها الأشلاء والدماء.

على أن شهر آذار 2011 أظهر تهافت التوقّعات هذه، وصدّع جدران الخوف التي راحت تتهاوى شهراً بعد شهر مسقطة الاستبداد في سطوته الرمزية وفي طغيانه واحتلاله البلاد بطولها وعرضها. ورغم العنف الهمجي والقتل والاعتقال الذي قابلت به السلطات المتظاهرين وتلامذة المدارس والكتّاب والفنانين، فإن الثورة استمرّت وحطّمت تماثيل المستبدّ، ثم حرّرت اللغة من الرعب الذي سكن مفرداتها لعقود طويلة. وكان للفن وللسخرية التي رافقت المتظاهرين وصرخات الحرية التي هتفوا بها أن سمحت للإبداع المكبوت بالتفجّر، وأتاحت للناس المهمّشين و"المسحوقين" سياسياً واجتماعياً التنكيل بشخص المستبدّ وبنسَبه العائلي الذي سعى القمع على الدوام لإضفاء هالة قدسية عليه (وهذا في ذاته تحرّر من المنظومة غير المرئية التي يغلّف الاستبداد المجتمع بها)...

ثم كانت العسكرة الاضطرارية للثورة وتحوّلت الأمور تدريجياً ابتداءً من مطلع العام 2012 الى النضال المسلّح الذي، كما في الحالات الثورية تاريخياً، يُخرج كل ما في المجتمع من كفاحية وإقدام وتعاضد، وكل ما فيه أيضاً من عنف وكبت وكراهية وأنانيّات. وبذلك، انتقلت الثورة السورية في صراعها مع نظام الاستبداد الى طور تجاور فيه القتال والتظاهر، وتقدّم الثوار على



الأرض محرّرين مساحات واسعة من سوريا، وأصبحت البلاد كلّها باستثناء ساحلها في حالة مواجهة مع النظام، سلمياً أو عنفياً أو تضامناً مع ضحاياه واستقبالاً لهم.

في المقابل، اعتمد نظام الأسد الإبن الفاقد قدراته "التدجينية" على القتل ومشهديّته الوحشية، وعلى التمثيل بالجثث والتدمير المنهجي للمناطق المنتفضة عليه أو المحرّرة من احتلاله العسكري والأمني. واعتمد كذلك على نيران مدافعه وطائراته ودبّاباته للانتقام من المجتمع الثائر، معمّماً عنفه المفرط على نحو لا يبدو من خلاله أنه يسعى لإعادة بناء الخوف والسطوة الاستبدادية المتداعية، بل ينتقم من الثورة ويحاول إبادة القائمين بها وأمكنتهم وناسهم وعمرانهم وأرزاقهم، علّه في ذلك يُطيل عمره أو يُغرق ما يعدّه "مُلكه" معه.

ورغم هول المصائب التي أنزلها النظام مدعوماً من روسيا وإيران بالسوريين، ورغم انفلات العنف وبروز مشاكل سياسية واجتماعية وطائفية وقومية، بعضها قديم كامن، وبعضها نشأ في كنف الاستبداد وظلّ حضوره مكبوتاً مغطّى بادّعاءات نقيضه، ورغم محاولات أطراف إقليمية ودولية الاستفادة من الظرف السوري لصالحها لتحسين مواقعها في منظومة العلاقات الدولية، أو في التنافس والتناحر الشرق أوسطيّين، إلا أن الثورة السورية فتحت الباب أمام السوريين لإعادة بناء السياسة انطلاقاً من أولوية الحرية، وانطلاقاً من اعتبار الكرامة الانسانية شرطاً لكل تعاقد. وهذا يعني في ما يعنيه القضاء على الفلسفة التأسيسية للنظام السوري، الذي تشاركه فيها قوى قومية ويسارية وإسلامية عربية، القائمة على التذرّع بالصراع مع إسرائيل والامبريالية تارة والسعي للوحدة العربية تارة أخرى، لمنع الحرّيات وفرض قانون الطوارئ على المجتمع واستحداث الأجهزة الأمنية والحزبية (الفاشية) لمراقبة الحياة العامة (وأحياناً الخاصة) للمواطنين. كما يعني أيضاً رفض الابتزاز بالاستقرار الأمني لمنع التنوّع الفكري، ورفض مبدأ السجن السياسي والرقابة بالمطلق، وتعرية زيف ما اصطُلح على تسميته "ممانعة"، خاصة حين يُستخدم شعاراً للتعمية على التفاوض مع الأطراف الدولية بهدف تأمين استمرار السلطة، أو حين يُستخدم لتوظيفه في أدوار إقليمية على حساب الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين أنفسهم، وبعيداً عن الجولان المحتل وعن الردّ المُفترض على الانتهاكات الاسرائيلية للسيادة السورية...

الثورة السورية ولبنان

وبقدر ما يعقّد موقع سوريا الاستراتيجي في المنطقة أوضاعها الداخلية وتعامل القوى الدولية معها، ويزيد من تعرّجات مسارات ثورتها، بقدر ما يضاعف من عمق أثر هذه الثورة في محيطها المباشر. ولما كان لبنان الجار الأصغر الذي أمضى 29 عاماً تحت الهيمنة الجزئية أو الكاملة للنظام السوري، هو منذ أواخر الخمسينات الأكثر عرضة لتأثيرات المحيط نتيجة هشاشة إجماعاته الوطنية، فإنه مرشّح للتأثّر أكثر من غيره بالحدث السوري، لسببين: أوّلهما تحرّره المفترض من الضغطين الأمني والسياسي اللذين مثّلهما نظام الأسد على تركيبة السلطة وتوازنات القوى فيها. وثانيهما ما سيترتّب على ذلك من أوهام وهواجس لدى العديد من الأطراف اللبنانية قد لا توفّر البلاد من تجدّد التأزّم والاحتقان.

بهذا المعنى، فإن طي صفحة حكم الأسد في سوريا سيترافق مع تغيير لشكل العلاقات الرسمية السورية اللبنانية وللتحالفات المعقودة في إطارها، وسيعدّل على الأرجح موازين القوى المذهبية اللبنانية وثقل حضور رعاتها الإقليميين (إيران والسعودية بخاصة). غير أن عمق التغيير وآليات حدوثه وسرعتها سترتبط بالطريقة التي ستُطوى فيها صفحة الأسد، وبخصائص الوضع الذي سيواكب انهيار ما تبقّى من حكمه، وبطبيعة المرحلة سورياً التي ستلي هذا الإنهيار. وفي جميع الأحوال، فإن البحث اللاحق في كل هذا لن يستطيع أن يغفل مؤدّيات ما يبدو صعوداً سياسياً "سنّياً" في المنطقة وتأثير الأمر على حزب الله حليف إيران ونظام الأسد الوثيق، والمحرّض الأول ضد الثورة بوصفها مؤامرة و"مشروعاً أميركياً".

أما في ما خصّ الأوهام التي يمكن أن تحرّك بعض القوى اللبنانية بناء على ما تعتقده حاصلاً نتيجة لانتصار الثورة السورية والتقدّم "السنّي"، فالأمر لن يكون جديداً في السياق اللبناني، ولو أنه سيفاقم ككل مرّة التشنّج السياسي والطائفي في البلد. ذلك أن أكثر من قوة لبنانية تقرأ المنطقة انطلاقاً من حساباتها المحلية، وتبحث في تموضعها عما تظنّه تحصيناً مستقبلياً لها في مواجهة خصومها. وهذا يُنتج في ظل الانقسامات العامودية المجتمعية توتّراً ومشاحنات دورية يصعب في الكثير من الأحيان لجمها.

وإن تركنا التبعات السياسية "الرسمية" والطائفية للحدث السوري لبنانياً، يمكننا التوقّف عند أمرين يكتشفهما اللبنانيون (كما السوريون) على نحو مستمر منذ قرابة العامين. والأمران عبارة عن ظاهرتين متناقضتين: الأولى متّصلة بتفاقم الحالة العنصرية لدى قسم من اللبنانيين لأسباب يمتزج فيها الطائفي بالشوفيني والتوجّس بالاستعلاء؛ والثانية مرتبطة بالانخراط المضاد في أنشطة إنسانية وإعلامية وكتابية وطلابية دعماً للثورة السورية وانبهاراً بها، ولأسباب لا علاقة لها في أكثر الأحيان بالقضايا الداخلية اللبنانية. وفي الظاهرتين ما يحيلنا الى القول إن الثورة السورية تُخرج في لبنان - كما فعلت وتفعل في سوريا - أبشع ما في مجتمعه وأبهى ما فيه في الوقت نفسه...

الثورة السورية المستمرّة تتخطّى، إذن، في تأثيراتها الكبيرة حدود سوريا. وسيكون لاكتمال حدثها أن يؤسّس لمرحلة جديدة في المنطقة، ليس من السهل توقّع ملامحها. لكن ما يمكن تسجيله واعتباره منذ الآن حاصلاً يتّصل بما أنجزته الثورة في الأشهر الطويلة الماضية من ضرب لمرة و"الى الأبد" لركائز الاستبداد البعثي العسكري الأسدي وثقافته، وتقليص الرصيد الأخلاقي الإقليمي والدولي لجميع المدافعين عنه وإعادة بعضهم - كما حزب الله - الى حجمه الطبيعي كقوة مذهبية محلية، بعد أن كان الفراغ السياسي السابق للثورات العربية، والسورية خصوصاً، جعله في قتاله ضد إسرائيل "بدلاً عن ضائع" وقوة إقليمية.

والثورة السورية المستمرّة تعيد السياسة في سوريا ولبنان، كما في كل المنطقة، الى الأسئلة التي قفزت عقود من الحكم الشمولي فوقها: ماذا نفعل بهويّاتنا وكيف نركّبها؟ وماذا نفعل بمواطنيّتنا وكيف نبينها؟ وماذا نفعل باختلافاتنا وكيف نديرها من دون قتل وزنازين؟
وليست الإجابة عن الأسئلة هذه الى الآن يسيرة أو على الأقل كافية للحدّ من الصعوبات الجمّة التي نكتشفها يوماً بعد يوم، والمرشّحة للتفاقم في المقبل من الأيام ■

في العدد القادم

ملف:

الإقليمي والدولي

وأدوارهما في تحولات الثورة السورية

بأقلام نخبة من الكُتاب السوريين والعرب

نجيب جورج عوض

الثورات العربية: مجتمعات مدنية معلمَنة بين الحلم والواقع

١- القراءة التقليدية للعالم العربي

حتى بضعة أسابيع قليلة سبقت شهر كانون الثاني من عام 2011، حين اندلعت شرارة الانتفاضات في العالم العربي، كان يمكن للمرء أن يلاحظ أنَّ النظرة الطاغية عند جميع الباحثين والمهتمين بالسياق السياسي والمجتمعي في العالم العربي تنطلق من فهم هذا السياق المذكور من خلال وضعه على تضاد حاد مع المكونات المجتمعية والسياسية والثقافية والمدنية الموجودة في البلاد الغربية. لقد سيطرت منهجية القراءة التضادية والتعاكسية، ذات الجذور الكولونيالية والاستشراقية تاريخياً، على آليات وسياسات تحليل وتفسير المجتمعات والثقافة العربيتين في أوساط البحث العلمي المحلي والعالمي. إذ لطالما درج الباحثون الأوروبيون والأمريكيون حتى العقد الأخير من القرن العشرين على استخدام كل المناهج العلمية والجدالات العقلانية التي يعرفونها ويعتبرونها علمياً ومنهجياً في عملية اختذال، مقصود أو غير مقصود، للعرب إلى "قومٍ كسالى أو متهاونون، مهوسون بالجنس، عنفيون وعاجزون عن إدارة أنفسهم بأنفسهم." أضف إلى هذا، لطالما شكَّك العديد من أنصار نظرية "غرب-ضد-شرق" بشكل جدّي بإمكانية تبدُّل العرب جذرياً أو بإمكانية أن يشهد العالم يوماً ما في العالم العربي ميلاد ساحات حراك عامة (public-squares) مدنية وعلمانية وديمقراطية وليبرالية يمكن للمرء أن يلمح فيها مكونات وعناصر مشابهة في طبيعتها ونوعيتها لما يراه في سياقات المجتمعات المدنية في البلدان الغربية. وحتى حين يجد، أحياناً قليلة، الإيمان بإمكانية ولادة مثل تلك الديمقراطيات المدنية والدول التعددية الحديثة في العالم العربي طريقه إلى المشهد الثقافي العام ودوائر صنع النظريات والقراءات العلمية، فإنه من الصعب جداً على مثل هذا الإيمان أن يحظى بالشعبية وأن ينال القبول والاهتمام المطلوبين في الأوساط الثقافية والسياسية بصورة عامة. حتى فترة ليست بالبعيدة، كانت القناعة الشعبية والأكاديمية والثقافية العامة في الغرب، بل وحتى في الشرق، تفيد بأنَّ مفاهيم مثل "حر" و"حرية" بمعناهما السياسي والمدني لن تجدا طريقهما أبداً

إلى منظومة القيم والثقافة الناظمة للحياة العامة في الشرق العربي، حتى ولو كانت أدبيات النخب المثقفة والمفكرة التي تصدر في العالم العربي تذخر بتلك المصطلحات وتكرر تردادها بلا انقطاع.

يرى المخيال الغربي التقليدي، إذاً، أنَّ فكرة مجتمع مدني عربي تكاد تكون حلم ليلة صيف لأنَّ العرب أبعد ما يكون بطبيعتهم عن الليبرالية كفكرة أو كممارسة وأقرب ما يكون للفكر المحافظ وللتمسك بالتقليد والعُرف في قيمهم ونظرتهم للوجود. ولطالما اعتقد هذا المخيال الغربي أنَّ المجتمعات العربية "لطالما تأسست على مبدأ الحقوق الجمعية، لا الحقوق الفردية، والذي ينتج عنه حماية ضئيلة جداً لقيمة الفرد في ذاته، إذ لطالما تم إدراج حقوق الفرد تحت خانة قوة القبيلة أو العشيرة أو العائلة التي ينتمي إليها." لذلك، وعوضاً عن توفر بنيان مدني يدحض أي تهديد لديمقراطية المجتمع ولحرية الأفراد من قبل أي مصدرٍ حاكم أو قوة مهيمنة، نجد أنَّ المجتمعات في العالم العربي تلعب دور أدواتٍ في قبضة السلطات الحاكمة (والتي تحكم بجريرة علاقاتها القبلية أو العشائرية أو العائلية أو الطائفية) لخدمة غرَض فرض سيطرة جمعية على الناس وضمان ديمومة حكمها ونجاتها من الزوال حين تتعرض لأي احتمال معارضة أو تمرُّد. زد على ذلك، وحتى لو تمكنت مثل تلك المعارضات المذكورة من النهوض ضد السلطات المهيمنة وانتصرت عليها بنجاح، فإن الاعتقاد السائد هو أنَّ تلك المعارضات لن تقدم بدائل دولتية ومدنية وليبرالية وتعددية وديمقراطية عامة في الواقع، بل ستعيد بدورها إنتاج انماط سلطة مماثلة لما انتصرت عليه وستسير على نفس المسار الجمعي المحافظ الذي سار عليه أسلافها. لا بل ولسوف تعمل تلك المعارضات، كما يعتقد الطرح التقليدي المذكور، على تسويق "دافع تحديثٍ باعثٍ بالاستعانة برمزيات وتعاليم دينية الطبيعة،" الأمر الذي يعني في المحصلة أنَّ البديل الطاغي الجديد سيكون إسلاموياً بطبيعته، كما يؤكد أصحاب هذا الرأي، ولسوف يقترح بشكل رئيسي نفس الإجراءات الشرائكية الماضوية، وإن على أسس ورؤى ايديولوجية مختلفة.

II – ملامح مشهدٍ وقراءة بديلتين

لا يسع الباحث إلا أن يعترف بأنَّ قسمٌ معتبَرٌ من الطرح المذكور في الأعلى ليس بالبعيد أو الغريب عن حالة العالم العربي. واحدة من الأمور التي تدعم النظرة التشاؤمية الآنفة الذكر حول مستقبل العالم العربي والممكنات المدنية والديمقراطية فيه هو حقيقة أنه حتى كانون الثاني من عام 2011 كان مشهد العالم العربي يوحي بالسكينة والركود والهدوء المريب الذي يشبه حالة المستنقع. كانت كافة الأنظمة السلطوية العربية قادرة بصورة مدهشة على الإيحاء للمراقب الخارجي بسواد الاستقرار وبمتانة ديمومتها بشكل بدا للعالم قابلاً للتصديق، بالرغم من معرفة القاصي والداني اليقينية بأداء تلك الانظمة الفاسد لدرجة كارثية وأساليب حكمها غير الشعبية بشكل واضح. وكما يقول ليث كبّة ببلاغة "أثارت استمرارية واستقرار ولامرونة تلك الأنظمة المتعجرفة أسئلة تشكيكية كثيرة حول آفاق الديمقراطية المحتملة في العالم العربي،" إلا أنَّ المشهد العربي العام الذي بدا راكداً وغير قابل للتبدل دفع المراقب الخارجي لتطويرأجوبة سلبية وتشائمية لأسئلة مثل "هل الديمقراطية قابلة للتحقُّق حقاً في البلاد العربية؟ وهل هي منسجمة مع الثقافة السياسية العربية؟ وهل من الممكن أنَّ العرب يفضلون في الحقيقة الاستبداد والحكم المطلق؟"

بالرغم من ما تم عرضه في السطور السابقة، أستطيع القول بارتياح أنَّ النظرة للعالم العربي والقناعات التشاؤمية حيال نشوء الديمقراطية والمدنية في بلدانه قد بدأت تنحسر وباتت تتنازل تدريجياً عن موقعها لرؤى جديدة نشأت بعد كانون الثاني من عام 2011. منذ تلك اللحظة التاريخية بدأ الاعتقاد التفاؤلي المؤمن بنشوء ساحات عامة ديمقراطية ومدنية حقيقية في المنطقة (والذي برغم هامشيته الماضية ما انفك يحاول أن يقول للعالم أنَّ تلك الإمكانية موجودة أكثر مما يعتقد الجميع دون أن يصغي له أحد وقتها) بالفوز بموقع قدم أكبر وصار يحظى بالانتباه والاهتمام أكثر بكثير من الماضي. بدأ المراقبون حول العالم، وبشيءٍ من الدهشة والرغبة بتصحيح الذات، بقلب موازين أسئلتهم ومعادلاتها السابقة. فراحوا هذه المرة يتساءلون، كما يبين نيكولاس كريستوف في مقالته "غير مؤهلين للديمقراطية حقاً؟": "هل العالم العربي غير جاهز فعلاً للديمقراطية؟" هل صحيح القول بأنه حين يمسك الشعب في العالم العربي بزمام السلطة فإنَّ النتيجة الحتمية الوحيدة لهذا ستكون "فوضى على الطريقة الصومالية، أو حرب أهلية على الطريقة العراقية، أو اضطهاد على الطريقة الإيرانية؟" "هل هذا ما سيكون عليه فعلاً مستقبل الشرق الأوسط حين تحكمه الساحة العامة؟" "هل العرب فعلاً مراهقون سياسيون غير قادرين على التعامل مع الديمقراطية أو على صنع تغيير سلمي ومدني حقيقيين في بلدانهم؟" يناقش نيكولاس كريستوف قائلاً أنَّ العرب الذين ملأوا الشوارع في المظاهرات العارمة الأخيرة على امتداد العالم العربي يثبتون بالدليل القاطع أنَّ العرب أبطلوا كل الشكوك الغربية التقليدية حول استعدادهم للديمقراطية والحرية. يدعم بنيامين دورر بدوره في مقاله "وداعاً لعالم أبيض-أسود" كريستوف، مجادلاً بأنَّ عقلية "أبيض-ضد-أسود" (والتي ازدهرت بعد الحادي عشر من أيلول وشطرت العالم إلى "نحن" و"هم"، الغرب والمسلمون، ديمقراطية وحرية (غرب) وجهاد وقمع (إسلام)) قد تم تعطيلها وإسكاتها نهائياً بالثورات الأخيرة في قلب العالم الإسلامي والمشرق العربي. يمضي دورر في تحليله إلى درجة الادعاء بأنَّ على المرء أن لا يعكس المفهوم التقليدي البالي عن العداء والتضاد بين الإسلام والغرب، بأن يتحدث عن "غرب-ضد-إسلام" بعد أن كان الحديث في الماضي عن "إسلام-ضد-غرب". ما يجب أن يفعله المراقبون اليوم هو الاعتراف بأن المسألة اليوم هي أنَّ "المسلمين ينهضون للحرية والديمقراطية والاوتوقراطيون المدعومون من الغرب يحاولون منعهم عن ذلك." يستنتج دورر من هذا قائلاً "يبدو أنَّ المسلمين يصبحون ديمقراطيين والأوروبيون يدعمون الاستبداد. على منتقدي الإسلام أن يجدوا جواباً لم يقدموه بعد لتلك المعضلة."



تقف الثورات العربية الأخيرة وقفة المنتصر في وجه كل الرؤى المسبقة الصنع والتوقعات المعلّبة عن فرص الديمقراطية والمجتمع المدني، لا بل والعلمنة، في العالم العربي. فالناظر لسياق وطبيعة ثورات الشباب العربي الأخيرة يمكنه أن يتلمس ملامح هامة عن البدائل السياسية والمنظومات المدنية التي يصبوا الشباب العربي الجديد إليها ويعمل على دعم تحققها كي تحل محل الأنظمة العربية القديمة المعروفة. علينا هنا أن نعترف، بطبيعة الحال، أنَّ ساحة الثورات العربية تحتضن في داخلها، وعلى التوازي، أصوات ثائرة أخرى تذكرنا بخطابات معارضات قديمة تقليدية مازالت تحاول بكل الوسائل تسويق أفكارها الإيديولوجية وأجنداتها (الإسلاموية واليسارية واليمينية) الكلاسيكية، لا بل وفرضها على المشهد واختذال الساحة بها. لا يجب على الباحث المتمحص إنكار هذا الواقع أو التقليل من إرهاصات حضوره. ولكن، علينا أيضاً أن نلاحظ أن تلك الأصوات التقليدية (ومهما كانت ناجحة لحظياً في جعلنا نعتقد إعلامياً بأنها تمثل صوت الشارع) لا تصرخ في الحقيقة بشكل جمعي اشتمالي أو مهيمن باسم الشباب الثائر، وهي لم تلعب في الواقع أي دور ملموس فعلي في تأجيج ثورة الجيل الجديد ولا اختيار توقيتها.

لهذا، وبمعزلٍ عن تلك الأصوات المعارضة الايديولوجية القديمة، ما يجب أن نصغي إليه ونقرأه عن البديل المدني والمجتمعي المرجو الذي يطلبه الشباب العربي المعاصر يقول لنا بأنَّ لا أحد من تلك الجموع الشابة الثائرة يدعو في الواقع إلى تأسيس نظام حكم ديني (كبديل إسلاموي أصولي، مثلاً، الأمر الذي عبّر العالم عن تخوفه منه) كي يحل محل الأنظمة المنهارة. بل يمكن للمراقب أن يمضي أبعد من ذلك ليستخلص من مطالب وأصوات الشباب بأنهم يحملون تصورات لبدائل دولتية ومجتمعية تحمل كافة مواصفات ومكونات الأنظمة المدنية العلمانية، مثل حقوق الإنسان والديمقراطية والتعددية واللا-طائفية والمواطنة والحداثة.

III- أية مدنية وعلمانية؟

يبقى السؤال المحوري هنا: أية علمانية تتناغم وتتناسب مع السياق الثقافي والسوسيولوجي في العالم العربي؟ يدعونا هذا السؤال كي نتأمل لبرهة في مفهوم "العلمنة" وأنماط العلمنة المتعددة كما يمكن للباحث أن يلحظها في السياقات المجتمعية الناظمة لحياة الشعوب الأخرى حول العالم. واحد من الباحثين الجادين في ظاهرة العلمنة والمراقبين المتابعين لتطورها وانماطها المختلفة في السياقات المجتمعية في العالم الغربي، الفيلسوف الكندي تشارلس تايلر. في كتابه الضخم والثمين، عصر معلمَن، يسرد تايلر تحليلياً تاريخ علاقة الدين بالعلمنة. وبدلاً عن الركون إلى التفسير الشعبي الشائع والقائل بوجود هوة سحيقة غير قابلة للجَسر بين الدين (المسيحية في حالة الغرب) والحضارة الحديثة العلمانية في أوروبا، يناقش تايلر بأنَّ القراءة الدقيقة والمتمحصة لتاريخ الغرب خلال القرون الثلاث الماضية تفيد بأنَّه، وخلال عدة محطات من عصر الحداثة، "تم تجسير الهوة وغاب التوتر [بين الدين والعلمنة] عن النظر." لابل ويلحظ تايلر أنَّ هذا التقريب لطرفي النزاع بلغ بعض الأوقات درجة من النجاح أمكن معها القول أنَّ الغرب شهد في تاريخه "ميلاً طويل الأمد للانزياح نحو المماهاة بين الاعتقاد الديني والنظام الحضاري." بدلاً عن اختذال العلمنة في الغرب المعاصر إلى مجرد اختبار لحالة غياب المقدس، يعمل تايلر على الإشارة إلى اختبارات إنسانية غربية مديدة موجودة في المجتمعات الغربية العلمانية المعاصرة والتي تبين لنا "مواطنوا أمة [أوروبية] يعرفُّون هويتهم السياسية بدلالات دينية أو طوائفية...أو أخرون تقترن قدرتهم على تمثُّل مبادئ وقيم الحياة المعاصرة بتجدُّدٍ وتحوُّلٍ (conversion) ديني بحيث باتت الأخلاقيات السائدة مقترنة وملتصقة بعروة وثقى بإيمان ديني معيّن." في ضوء هذا، يقترح تايلر أن نستعيض عن الحديث عن العلمنة كتعبير عن "نهاية الدين" بحديث آخر أكثر دقة وبعداً عن أي قراءة أحادية الجانب لتاريخ الحداثة الغربية، الأمر الذي سيجعلنا، تايلر يقول، نرى في العلمنة تعبير عن رحلة الغرب للتخلص من الأوهام والسحر (disenchantment) وليس للتخلي عن الدين، ومحاولته إعادة الدين إلى طبيعته وموقعه الحقيقيين كعامل واحد من بين عوامل عديدة أخرى معادلة له في القيمة والأهمية (بدلاً عن جعله المرجع العلوي المنزَّه لها جميعاً) وكلها إلى جانب الدين مهمة وفاعلة في شؤون الساحة العامة وتخليص الإنسان من الأوهام والسحر. بدلاً، إذاً، من منطق "إما نزع الدين- أو فرض الدين" على حياة الناس، يجب أن نقرأ تاريخ العلمنة على أنه يدور حول منطق القيام بسيرورة تغيير وتطور وانعتاق من الوهم والسحر يتم في قلب الحياة الدينية عينها.

يقدم تايلر في كتابه عرضاً تفصيلياً لثلاث أنماط من العلمنة في علاقتها بدور الدين في المجتمع. أود في السطور القادمة أن أشير إلى تلك الأنماط الثلاثة. أول نمط علمنة يشير إليه تايلر يتحدث عن علمنة ذات طبيعة سياسية. تتبدى تلك العلمنة في المجتمعات المدنية التي ترفض فيها الأنظمة الحاكمة أي اتكال على مرجعية دينية لتشرعن وجودها وسلطتها. وفي أفضل الأحوال، يمكن لهذه الأنظمة أن تعود أحياناً للدين لتستعين به في نواحٍ طفيفة تخدم عملية تطوير دساتيرها ونظمها. إلا أنَّ هذه الاستعانة بالدين غالباً ما تكون نادرة وعند الضرورة القصوى. مثل هذه العلمنة تزدهر في المجتمعات التي تنحي الدين عن فضاءات السياسة والدولة تحديداً، انطلاقاً من اعتقاد قاعدي بالفصل التام بين الشؤون الدينية والشؤون المدنية العامة، والتي تفضل أن لا تستعين بأي استقاء حرفي أو نصوصي من مبادئ وتشاريع دينية، بل أن تعتمد على التشاريع والقوانين الوضعية الأخلاقية المدنية. في هذا السياق العلماني، لا يتم فقط تطبيق مبدأ عدم تدخل الدين في شؤون الدولة والسلطة، ولكن لا يحق للسلطة أو الدولة بدورها أن تتدخل في الشؤون الداخلية لأي جماعة دينية في المجتمع. هذا يعني أن تاريخ تبادل المصالح والدعم المتبادل القديم بين المؤسسة الدينية والدولة، والذي شهدته السياقات الثيوقراطية، لا مكان له أبداً ولا مشروعية هنا. واحدة من إيجابيات مثل تلك العلمانية السياسية هو تعزيزها لناحية التعدد ولقيمة التنوع الديني، بحيث تتمتع كل الأديان في المجتمع بشرعية متكافئة ولا يهيمن

أحدها على الأديان الأخرى أو يتمتع بميزات تفتقدها الأديان الأخرى.

النمط الثاني من أنماط العلمانية الذي يطرحه تايلر هو ذاك الذي يتصف بماهية سوسيولوجية. تمثل العلمنة هنا فضاءاً مجتمعياً (وليس سياسياً بالضرورة) وهَنَ فيه دور الدين لا على المستوى السياسي فقط، بل على مستوى تفاصيل الحياة العامة اليومية والاجتماعية لأفراد المجتمع. في تلك المجتمعات، لا يلجأ المواطن دوماً أو شرطياً لآليات التفكير والرؤى التدينية ولا يبدي التزاماً متزمتاً ومتشدداً بالواجبات والأوامر الدينية في سلوكه المعاش ولا تراه يستشهد بالكتب المقدسة ويعتبرها نصوص مرشدة حرفية تستوجب الطاعة في ما يتعلق بقيم وسلوكيات العيش. عندنا هنا سياق مجتمعي فقد فيه الناس الاهتمام الضيق بالتدين ولم يعد الالتزام الديني يحتل موقع المركز والرأس بين الناس، بل وتضاءل عدد الملتزمين دينياً بشكل واضح بشكل يترافق أحياناً إما مع ضعف الإيمان الديني الشخصي، أو نبذ التدين عموماً. أما أولئك الذين مازالوا يعتبرون أنفسهم أفراداً ملتزمين في جماعات دينية أو طوائف محددة، فهم أيضاً لا يبدون أي رغبة بممارسة نشاطهم الديني في العلن وفرضه على الآخرين، أو أن يعلنوا أو يعمموا فهماً للمواطنة أو للعضوية في المجتمع من زاوية معتقدهم الديني، وإن كانوا هم شخصياً يلتزمون بهذه الزاوية. يمكن لهذا العلمنة أن تسمى أيضاً "علمنة شخصية" كونها تعبّر عن قرار شخصي وفردي بوضع الدين جانباً بعيداً عن الصلة المباشرة والقسرية مع السياقات الأخلاقية والعملانية للحياة العامة، وبمعزل عن الرغبة بالتأثير على تلك السياقات بقوة القناعات الدينية الشخصية الخاصة. لا يجب أن يُفسَّر هذا الموقف، كما يؤكد تايلر، على أنه ركون مباشر إلى الإلحاد أو على أنه خيار عداء مبين مع الدين. بالعكس، يجب أن نفهم هذا الموقف على أنه "موقف لامبالاة عام يرى أنَّ الدين لا يمكنه أن يتواصل بشكل عصري وذو معنى وجدوى مع حاجات الناس المباشرة والآنية. الناس اللامبالين لا يناقشون الدين ولا يجادلون ضده، ولكنهم ينحونه جانباً. كما أنَّ العديد من المنخرطين في الشأن الديني يقررون فردياً أن ينتقوا العقائد والتعاليم السلوكية التي يريدون أن يتبنوا وأيها يريدون أن ينحوه جانباً."

أما نمط العلمنة الثالث الذي يعرضه تايلر فيدعى "العلمنة الثقافية". تتبدى تلك العلمنة في المجتمعات التي انتقل أفرادها ثقافياً وأخلاقياً من حالة اعتبار الدين والإيمان بالله مبدءاً بديهياً مطلقاً ومرجعياً فوقياً معصوم عن النقد والتساؤل إلى اعتبار الدين والتدين خيار من بين خيارات شخصية وفردية وخاصة عديدة مماثلة لا تقل حضوراً وتأثيراً وقيمة عن خيار التدين. تعبر تلك العلمانية عن "غياب الدور المرجعي للدين عن فضاء المحاكمة العقلانية العامة،" دون أن يعني هذا غياب الدين نفسه كخيار عن الساحة العامة. في مثل هذه العلمانية الثقافية، تقف كافة المعتقدات والأديان والاعتقادات والقيم جنباً إلى جنب، ويُنظَرُ لها على أنها خيارات وجودية وابستمولوجية متعادلة ومتكافئة، تتواجد معاً بشكل متزامن في فضاء العيش المجتمعي وتخضع جميعها دون استثناء لمشروطات الحرية والرأي والقناعات الخاصة بالفرد؛ تلك الأمور التي يضمنها لجميع الناس ويكفلها القانون وحقوق الإنسان الأساسية. تحتضن العلمنة الثقافية بين طياتها كل أطياف التدين واللاتدين والإلحاد واللاادرية واللامبالاة وسواها. وهي تحتضن كل تلك الأهواء جنباً إلى جنب ولا تكفل لأحدها في ذاته أي دور فوقي أو مرجعي أو سلطوي في حياة الدولة المدنية، بل إنها تُخضِع كل تلك الأهواء إلى النقد والتحقق والتقييم والمحاسبة في إطار معرفي علمي، لدرجة يمكن معها للمرء أن يصف هذه العلمانية الثقافية بالعلمنة العقلانية.

١٧- المدنية والعلمانية والإسلام السياسي في العالم العربي

لنعد الآن إلى الثورات العربية وبدائل الأنظمة المتهاوية في العالم العربي ونسأل: أي نوعٍ من أنواع العلمانية يتخيل الشباب العربي وأيها سيختار إذا ما أعطي السلطة ليختار مستقبله؟ وأيضاً، أية علمانية تتناسب مع وتنطبق على المجتمعات العربية الجديدة: سياسية، سوسيولوجية أم ثقافية؟

أعتقد جازماً أنَّ الإجابة على هذين التساؤلين هي من أصعب المهمات وأكثرها تحدياً أمام الجيل الثائر الجديد. لست متأكداً أنَّ الشباب العربي عنده أجوبة جاهزة للسؤال الأول، فهم قد أطلقوا ثورتهم انطلاقاً من اهتمامات عملانية براغماتية صرفة بعيدة عن التنظير والتحليل العقلي والمعرفي. بالإضافة إلى هذا، لا يحمل صوت الشباب أجندة مسبقة الصنع بل هو صرخة رفض ضد النظام الحاكم المهيمن الحالي ونتائجه الكارثية على أوضاع العالم العربي. هم لم يقولوا في صرختهم ما الذي يريدونه بالتحديد كبديل في المستقبل، بل أعلنوا فقط الشيء الذي يقفون ضده والذين لا يمكن أن يحتملوا استمراره في الحاضر. لا تعيدنا صرخة الشباب العربي بلهجتها النافية (appophetic) إلى بديل واضح المعطيات والتفاصيل، ولكنها تطرح أمامنا أمنيات وقيم مبادئية لم تتبلور بعد ولم تتم برمجتها وتحويلها إلى طرح متكامل.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، فيجب القول أنه من الصعب العثور على وصفة علمنة واحدة وحيدة جامعة كي تستجيب لجميع احتياجات وظروف وتضاعيف السياقات المجتمعية المتشعبة والمتعددة والمعقدة في البلاد العربية. كل دولة عربية هي كيان متعدد الأوجه في ذاته، إن لم يكن على المستوى الديني والطائفي أو العرقي، فهو حتماً كذلك على المستوى الانثروبولوجي والتثاقفي والديمغرافي. لطالما تعرضت كل تلك المكونات المتعددة للطمس والكبت على يد الأنظمة الاستبدادية والمهيمنة التقليدية في العالم العربي؛ والتي لطالما استهانت بتأثيرها أو حاولت توظيف هذا التأثير في خدمة أجندات الهيمنة والتحكم والسلطة التي فرضتها على الجميع. بالرغم من إقراري لما سبق، ومع تهاوي الأنظمة الأحادية الاستبدادية، يعود سؤال "أية علمانية ومدنية؟" محمولاً على أكتاف الجماهير العربية بكل تشعباتها وأطيافها وتحدي تنوعها. وإلى أن يتمكن كل بلد عربي من تطوير فهمه الشعبي وممارسته العامة الخاصة للعلمانية



والمدنية، يمكن للمرء أن يتأمل على الأقل بأن تبقى أنماط العلمانية الثلاث الآنفة الذكر ماثلة في أذهان الناس.

السؤال الآن هو: كيف يمكن لعملية تطوير جواب لمسألة المدنية والعلمانية في العالم العربي أن تنجح؟ أحد شروط نجاح هذه العملية، برأيي، يتطلب حتماً تحليلاً صارماً ودقيقاً لتأثير ولدور الإسلام السياسي في ساحات البلاد العربية مابعد-الثورة. يمكن للباحث في إرهاصات الثورات العربية الأخيرة أن يسجل شكوك ومخاوف وهواجس حقيقية من مثل هذا الدور الإسلاموي بين ظهرانية الشارع العربي، المسيحي والمسلم واللاديني، المدني والعلماني على حد سواء. حتى أنه يمكن القول أنَّ هذه الهواجس هي علامات تتبدى في الشارع المسلم قبل المسيحي، في الساحة المعتدلة قبل الساحة الليبرالية، في المعسكر اليميني قبل اليساري. من جهة أخرى، واحدة من الدلائل المبدأية التي تستحق التوقف عندها على التوازي مع المخاوف المذكورة هو قبول الشارع العربي العام بمجمله باحترام إمكانية وصول الإسلام السياسي إلى السلطة إذا ما كان هذا الوصول سيتم عبر اللعبة الديمقراطية الانتخابية وصناديق الاقتراع. لابل إنَّ الغالبية العامة العربية تشجع الإسلام السياسي على حصر طموحه بالوصول إلى السلطة عبر هذا المسار الديمقراطي الانتخابي دون سواه، لأنَّ هذا الأمر كفيل بأن يقول بأنَّ الديمقراطية قد وجدت طريقها إلى حياة العالم العربي السياسية وأنَّ الربيع العربي قد بدأ بتحقيق مهمته. بالمقابل، وبالرغم من هذا الموقف الإيجابي المبدأي تجاه جعل اللعبة الديمقراطية تقرر مصير الدولة السياسي، يمكن للمرء أن يكشف تخوف وتشكيك عام من نتائج فوز الإسلامويين بالسلطة على البنيان المجتمعي والمدني والسوسيولوجي والثقافي في العالم العربي. والسؤال هنا هو ما الذي يمكن أن يكون السبب الجوهري للقلق والتشكيك بأن الإسلام السياسي قد يكون عائق ضد المدنية والعلمنة في المجتمع العربي؟

يدعونا أحد التعاريف المبدأية للإسلام السياسي للمضي أبعد من اختذال تلك الظاهرة إلى مجرد تسمية لمجموعة من السياسيين المنتمين حصرياً للدين الإسلامي، أومجرد تسمية لحزب سياسي يتألف من، ويدار من قبل، شخصيات متدينة ورجال دين مسلمون. تتأرجح النظرة الشعبية في العالم العربي للإسلام السياسي بين أحد هذين الطرحين الشائعين. إلا أنَّ المضي أبعد من ذينك الطرحين التبسيطيين يدعونا لنأخذ بعين الاعتبار تعريف مثير للاهتمام وأكثر أهمية للإسلام السياسي يقترحه بروفسور القانون السوداني في جامعة إيموري، أتلانتا، عبدالله النعيم. يقول النعيم أنَّ مصطلح "إسلام سياسي" يعبر عن محاولة لتجييش الهوية الإسلامية في عملية تحقيق أهداف محددة تتعلق بالسياسة المدنية الشعبية، سواء في سياق العلاقات الداخلية بين مكونات المجتمع المختلفة أوفي سياق العلاقات الخارجية لذلك المجتمع مع المجتمعات الأخرى حول العالم. لا تدل "الهوية الإسلامية" هنا على الانتماء الديني فقط، بل تشير بشكل أوسع إلى هوية سوسيولوجية محددة تعبر عن حوامل ثقافية وسلوكية ودينية وعقائدية معينة. بكلام آخر، ليس الإسلام السياسي بالدرجة الأولى، أو في الجوهر، حركة دينية تسعى لمشروع سياسي هدفه التحكم المهيمن بالشأن العام بواسطة عقيدة دينية. على الأقل، "إسلام سياسي" لا تعني أتوماتيكياً هذا ولا تخلقه بشكل بديهي. تشير "إسلام سياسي" إلى فريق من الأشخاص يسعى للتعاطي بالشأن العام والتعامل معه، موظفاً هذا التعاطي بالدرجة الأولى في عملية إعادة تأسيس وتشكيل المحيط المدني وفق افتراضات مسبقة لطبيعة الوجود البشري الجماعي الذي يُفترَض فيه، بحسب أفراد هذا الفريق، أن يعكس ويصور في خواصه البنيان السوسيولوجي الناظم لهذا الفريق الإسلاموي. يعني هذا أنَّ الإسلاموية السياسية ليست مجرد ظاهرة سياسية أوقوة دوغمائية تتفاعل بإيجابية أوسلبية مع قوى سياسية أخرى في إطار سباق وتنافس قانوني ديمقراطي للفوز بامتيازات صنع القرار. في معناها الأساسي، "إسلام سياسي" تدل على مشروع سوسيولوجي؛ تعبر عن فكر مدني-ثقافي، وليس مجرد شكل من أشكال الحكم وطموح تحكم بالدولة. يقول أوليفييه روي عن الإسلام السياسي محقاً بأنَّ الامتثال لرموزٍ ودلالات اجتماعية وأخلاقية وجماعية معينة، وليس بالضرورة انتساب لإيمان معين، هو ما يشكل قاعدة وجود المجتمع، برأي أتباع الإسلام السياسي.

السؤال هنا هو: ما هو الأمر المثير للشكوك والقلق في مثل هذا النوع من الفكر الإسلاموي ولماذا يسبب الريبة والخوف في أوساط العرب المعاصرين الداعمين للعلمنة والمدنية والذين لا يؤيدون طروحات الإسلاموية السياسية؟ يعيدني هذا التساؤل إلى دعوة كل من عبدالله النعيم وأوليفييه روي المشروعة لمقاربة محاولات وطموحات الإسلام السياسي من زاوية كونه ظاهرة جمعية سوسيولوجية قائمة بذاتها تسعى لإعادة إنتاج نفسها في الآخر المختلف ولجعل نفسها الراعي والحامي لقيم المجتمع وفضائله. من طبيعة تلك الحركات السوسيولوجية أن تنتظر من أعضاءها أن يقاربوا سياق حياتهم وحالات عيشهم المعاصرة من زاوية جمعية ونقطة مراقبة مرجعية علوية. لهذا فإن أفراد تلك الجماعات المسماة بالإسلاموية السياسية ينظرون للجمهور العام على أنه كيان واحد أحادي اللون والبنيان في هويته الجمعية المجتمعية، وهم يتبعون توجهاً شمولياً تجاه السلوك والقيم المجتمعية. لا يُنظَر للمجتمع على أنه اجتماع أفراد متمايزين ومختلفين، بل على أنه كتلة بشرية واحدة صلدة (بنيان مرصوص) يتم اعتبارها تجسيداً حياً للشعار البطولي "الواحد للكل والكل للواحد". كما أنَّ أفراد جماعات الإسلام السياسي يعتبرون أنَّ أي تحدٍ تتعرض له جماعتهم هو تهديد نوعي ضد كل عضو ينتمي لهذه الجماعة دون استثناء ومصدر خطر على وجود كل فردٍ منهم بشكل مؤثر ومتساوٍ، والذي يجسد بدوره الشعار القائل "إما نغرق معاً أو ننجو معاً". أضف إلى هذا، وباسم الحفاظ على الطهارة الجماعية للمجتمع، يعامل أتباع مثل تلك الجمعية السوسيولوجية أي طرفٍ خارجي (ذاك الذي لا ينتسب للفريق) بنفس الموقف التمييزي والإقصائي، معتبرين إياه، بشكل مسبق بعيد عن الموضوعية، عدواً للفريق برمته. مثل تلك الحراكات السوسيولوجية الجمعية، أخيراً، تعتمد على استراتيجية تجييش "المتعدد" بجريرة

هدف اسمى أحادي شمولي، جاعلة من هذا الهدف بوتقة تذوب فيها تمايزات وفرادات الأعضاء واختلافاتهم وتتحول فيه وحدة المجموعة ورقة الدفاع الأولى عن الفريق في وجه الفروقات الناجمة عن اهتمامات الأعضاء الشخصية ومعتقداتهم وأولوياتهم.

دعونا الآن نتخيل مثل هذا النظام السوسيولوجي الجمعي البديل يستولي على عصى القيادة من يد الديكتاتوريات المنهارة في العالم العربي، ما الذي سينتج عن هذا في الساحات العامة مابعد-الثورة؟ بالنسبة لأولئك المشككون بالإسلام السياسي والمتخوفين منه، سيكون هذا عملية تبديل ديكتاتورية سياسية جمعية بديكتاتورية أخرى لا تقل عنها جمعية وهيمنة وإن كانت سوسيولوجية هذه المرة. يؤمن أصحاب الصوت التشكيكي بأنّ مثل تلك الإمكانية تبرر الشكوك والقلق الشديد، حتى ولو أقر المرء حق الإسلام السياسي الكامل بالمشاركة في صنع القرار والمشاركة في لعبة الفوز بالسلطة الديمقراطية. في إطار محاولة الإسلام السياسي تشكيل المجتمع على صورة منظومتهم القيمية الجوهرية، لا يعود هناك مكان للاعتراف بأن المكونات اللاإسلاموية الموجودة في المجتمع، والمختلفة عن أولويات الإسلام السياسي وما يمثله، هي أيضاً جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة المجتمعية. وعوضاً عن اعتبار تلك القيم المختلفة جزء من عملية بناء المجتمع، يعمل الإسلام السياسي على اعتبار تلك العناصر مصدر تهديد ويخضعها لمحاولات تقييد، بل وكبت منظم. وفي حالة العالم العربي اليوم، سيعني هذا أنّ جميع اللا-إسلامويين من علمانيين وليبراليين ولادينيين ويساريين، الخ، سيتحولون إلى مناهضين ومارقين وليس إلى مصادر غنى أو شركاء أصلاء في المجتمع. وعوضاً عن جعل التنوع والآخرية مصادر إسهام وإغناء وتأسيس للمواطنة، تصبح وطنية المواطنين وانتماءهم للمجتمع مرهونة ومقاسة بدرجة استعدادهم للرضوخ إلى قواعد الامتثال ولإطاعة متطلبات حماس قهري معيّن لتشكيل هوية إسلاموية محضة ومقاومة هدفها التصدي لبدائل محتملة لا-إسلامية وعلمانوية وثقافية مجتمعية قد تنشأ في الساحة.

من جهة أخرى، يعتقد المشككون بالإسلام السياسي في العالم العربي أنّ العقلية السوسيولوجية الجمعية الآنفة الذكر ستمنع الإسلامويين من قبول أي فلسفات وضعية علمانية أو السماح لها في المشاركة في عملية التشريع المدني وصياغة الدساتير. سيترتب عن ذلك أنّ شرائع مبادئية علمية مثل شرعة حقوق الإنسان لن يتم العودة إليها أوأخذها بعين الاعتبار من قبل الإسلامويين كمصدر من المصادر المفيدة لإصلاح وتأليف الدستور المدني للدولة، حتى وإن كانت تلك الشرعة تدافع عن قيم أساسية يدعو لها الإسلام، مثل الحرية والحق والعدالة والمساواة والرحمة. يعتبر الإسلامويون تلك الشرعة الوضعية لا مجرد نقيض للمبادئ الإسلاموية الإيديولوجية التي يبنون عليها وجودهم، بل ومناهض لمكونات وجودهم ككيان سوسيولوجي في ذاته، خاصة المكونات الإسلاموية الجمعية التي تكرّس قيم "الامتثال للميل العام للجماعة"، "إظهار الولاء لقيم المجموع" و"الرضوخ للمبدأ الإيديولوجي الذي يعزز تجذر المجتمع في التمظهرات الثقافية لدين واحد بعينه (الإسلام)". لا يستطيع الإسلامويون تبني شرعة حقوق الإنسان دون تحفظات، فهم لا يثقون في الدرجة الأولى، بالادعاء القائل أنّ "العلمنة لا تفترض بالضرورة صراع مع الدين أو حتى قطيعة معه"، ولا هم يستطيعون أن يستوعبوا كيف يمكن "لمجتمع معلمن أن يبقى على تماس مع الثقافة والقيم الدينية." يتخوف الإسلامويون بشكل غير واقعي ومزيف من أنّ يقطع تطبيق شرعة حقوق الإنسان في المجتمع، والاعتماد على بنودها في التشريع، بينهم وبين فهمهم للمجتمع "الإسلامي" ويمنعهم، كأتباع نظرة للوجود تنبع من دين محدد، من التماهي مع الثقافة المحيطة بهم.

حين يدرك المشككون بالإسلام السياسي ما أشرت إليه في الأعلى، يتصور لهم أنّ أي نظام إسلاموي بديل في المجتمعات العربية مابعد-الثورات سيفرض السياسة التالية بالقوة على مواطنيه: "لكم كل الحق بأن تتمتعوا كمواطنين بكل حقوق البشر. مع ذلك، وبغية مراعاة "الخير العام" والمصلحة العليا للمجتمع بأكمله (والذي ستتقرر هويته وحدوده وماهيته في هذه الحالة وفق مشروطات ومفاهيم الأغلبية السوسيولوجية الحاكمة)، ينبغي عليكم الرضوخ لضرورة إذابة تنويعاتكم الثقافية والمعرفية والثقافية (ليس بالضرورة الدينية) في بوتقة الوحدة الجماعية والوحدانية المتراصة وأن يمتثل تفسيركم المتعدد للحرية والرحمة والعدل والمساواة والحق لكل ما يخدم الموقع السوسيولوجي الطاغي للأغلبية العددية الثقافية أوالسلطوية أوالدينية أوالايديولوجية أوالاقتصادية في المجتمع.

في ضوء مثل هذا الاحتمال المفترَض، يجد العديد من المواطنين العرب اللاإسلامويين أنفسهم مدفوعين نحو الشك والريبة والحذر الجاد من مثل تلك الحركة السوسيولوجية الجمعية كحركة الإسلاموية السياسية. وهم لا يجدون أنفسهم في وضع أفضل وأكثر أماناً للتعامل معها لمجرد أنّ الإسلام السياسي يعلّي من شأن قيم الحرية والحق والعدالة والمساواة والرحمة ويعد بتطبيقها في عهد حكمه.

7- خاتمة

عودٌ على بدء. يتطلب اكتناه طبيعة طموح المدنية والعلمنة الذي قد يصارع ويكافح الشباب العربي الثائر، الذي ملأ الساحات العامة في "الربيع العربي"، كي يطبقه في المجتمعات العربية مابعد-الثورات ملاحظة ومراقبة جادة للقلق الآنف الذكر المتنامي في الساحات العامة العربية من نجاحات الإسلام السياسي في ملء فراغ السلطة في المراحل الانتقالية الحالية في العالم العربي. سيظهر لنا المستقبل القريب في العالم العربي أنّ هناك تنافس طاحن بين طموح المدنية والعلمنة وطموح الأسلمة السياسية في العالم العربي. واحد من أهم مهمات الفريق المؤيد للمدنية والعلمنة هو أن يتمعن في الطبيعة السوسيولوجية والأداء الجمعي للإسلام السياسي. عليه أن

يأخذ على محمل الجد الشديد الطبيعة المحورية السوسيولوجية للإسلاموية السياسية وليس مجرد أداءها السياسي والسلطوي. حين يستوعب المرء أنَّ الإسلام السياسي هو حركة جمعية شمولية وليس مجرد خطاب سياسي قائم على مبادئ دينية، يمكن للمرء عندها أن يفهم بشكل صحيح جذور شكوك مؤيدي المدنية والعلمانية حول وصول الإسلامويين للسلطة وخوفهم منه. لا ينبع هذا الخوف من أجندة الإسلام السياسي السياسية فقط أو خلفيته الدينية بالدرجةالأولى، بل ينبع أولاً وقبل كل شيء من تأثيراته وتداعياته المجتمعية والثقافية والانثروبولوجية.

قد يفاجئ المستقبل البعيد كل الفرق المؤيدة للمدنية والعلمانية في الجمهور العربي بإسلام سياسي منفتح جداً ومستعد للمضي أبعد من حدوده التقليدية والتي اعتاد الحفاظ عليها بصرامة. قد نشهد إسلاماً سياسياً عصرياً وتقدمياً وإصلاحياً حقيقي يمسك بالسلطة عبر تنافس انتخابي ديمقراطي قانوني شفاف ونزيه ومن ثم يرحب بكافة الأحزاب والحراكات السياسية الأخرى المختلفة معه ويدعوها للمشاركة الفعلية في عملية صنع القرار ويكشف عن استعداد جاد وملموس لتغيير رؤيته الجمعية الشمولية وماهيته السوسيولوجية.

أما حالياً وفي المستقبل القريب فلا أحد يستطيع أن يقدم وعداً مؤكداً أو دلائل ملموسة لباقي العرب غير الإسلامويين والمدنيين بإن مثل هذا الإسلام السياسي المستقبلي سيظهر يوماً ما. لا أحد يملك اليوم أي معطاً فعلي يعوِّل عليه كي يقول بأنَّ الإسلام السياسي على استعداد للإقرار بانَّ الفوز بثقة العلمانيين واللاإسلامويين من الشعب العربي يتطلب جعل التعددية والفرادة والتمايز وفكرة "الآخر" مؤسسات بنيوية وقواعد ناظمة للوجود والهوية وليس مجرد أدوات براغماتية يتم استخدامها في خدمة تسهيل إجراءات صنع القرار والسيطرة على الحكم وابتلاع الدولة والأمة على حد سواء ■

هوامش

هذه الدراسة هي تلخيص باللغة العربية للتحليل المستفيض الذي قدمته في أحد فصول كتابي الذي صدر باللغة الانكليزية في شهر تشرين الأول الماضي:

Najib George Awad, And Freedom Became a Public-Square: Political, Sociological and Religious Overviews on the Arab Christians and the .39-Arabic Spring, (Münster & London: LIT Verlag, 2012), pp. 19

على حد تعبير أدوار يعسد في دراسته الكلاسيكية المثيرة للجدل:

.(Edward Said, Orientalism, (London: penguin Books, 1978

ترد نفس الصفات في كل من:

Rana Qabbāni, Europe's Myths of Orient, (Bloomington: Indiana University Press, 1986), p. 6; and Nicola Pratt, Democracy and Authoritarianism .in the Arab World, (Boulder & London: Lynne Rienner Publishers, 2007), p. 34

Bernard Lewis, What Went Wrong? the Clash between Islam and Modernity in the Middle East, (New York: Perrenial/Harper Collins Books, .2003), p. 55

Francesco Cavatorta and Vincent Durac, Civil Society and Democratization in the Arab World: the Dynamics of Activism, (London & New York: .Routledge/Taylor & Francis Group, 2011), p. 21

المصدر السابق نفسه، ص. 22.. انظر كذلك:

.N. Pratt, Democracy and Authoritarianism in the Arab World, p. 189

Cavatorta and Durac, Civil Society and Democratization in the Arab World, p. 22

أنظر أيضاً

.1143-R. Woltering, "The Roots of Islamist Popularity," in Third World Quarterly, 23, 2002, pp. 1133

Laith Kubba, "The Awakening of Civil Society," in Islam and Democracy in the Middle East, Larry Diamond; Marc F. Plattner and Daniel .p. 28 ,34-Brumberg (eds.), (Baltimore and London: The Johns Hopkins University Press, 2003), pp. 28

للاطلاع على وجهتي نظر متشائمتين حيال إمكانية الديمقراطية في العالم العربي، انظر في نفس الكتاب المذكور النقاش في

.27-and Emmanuel Sivan, "Illusions of Change," pp. 13 12-Mohammad Talbi, "A Record of Failure," pp. 3

هذا ما يدافع عنه ليث كبّة مثلاً:

.34-L. Kubba, "The Awakening of Civil Society," pp. 29, 33

.Nicholas D. Kristof, "Unfit for Democracy?" in HYPERLINK "http://www.nytimes.com" www.nytimes.com, 26, February, 2011

المصدر السابق نفسه.

Benjamin Dürr, "Farewell to A World of Black and White," in HYPERLINK "http://www.theeuropean-magazine.com" www.theeuropean-.magazine.com , 1. March. 2011

المصدر السابق نفسه.

حول الشباب الثائر الذي نزل الساحات في العالم العربي واختلافه عن جيل المعارضات القديم التقليدية، أنظر

.18-N. Awad, And Freedom Became a Public Square, pp. 1

.(Charles Taylor, A Secular Age, (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 2007

نفس المصدر السابق، ص. 737.

نفسه، ص. 743.

نفسه، ص. 552-553.

هكذا يتحدث عن العملنة، مثلاً،

A.N. Wilson, God's Funeral: A Biography of Faith and Doubts in Western Civilization, (New York: Ballantine Books, 1999); and Eaman Duffy, The .503-Stripping of the Altars: Traditional Religion in England, C. 1400-C. 1580, (New Haven and London: Yale University Press, 1992), pp. 277

يعتبر تايلر مصيباً المماهاة بين الدين وبين السحر والأوهام مجرد "زيف وخداع" يقود إلى اعتبار عملية التخلص من الوهم والسحر وكأنها محاولة للتخلص من الدين، الأمر غير الصحيح على الإطلاق: المصدر نفسه، ص. 553.

نفسه، ص. 554.

اعتمد في عرضي لانماط العلمنة الثلاث التي يقدمها تايلر على العرض المتبصر لها في

Philip L. Wickeri, "The End of Missio Dei- Secularization, Religions and the Theology of Mission," in Mission Revisited: between Mission .34-pp. 31 ,44-Theology and Intercultural Theology, Volker Küster (ed.), (Berlin: LIT Verlag, 2010), pp. 27

Alister McGrath (ed.), The Balckwell Encyclopedia of Modern Christian Thought, (Oxford: Blackwell Publishers, 1995), "Secularization", pp. .p. 594 ,598-593

المصدر السابق نفسه، ص. 594.

نفسه، ص. 595.

نفسه، ص. 594.

Abdullah A. an-Na'im, "Political Islam in National Politics and International Relations," in The Desecularization of the World: Resurgent Religions and World Politics, Peter L. Berger, et. al. (ed.), (Washington, DC: Ethics and Public Policy/ Grand Rapids, Mich: W.B. Eerdmans .121-Publishing Company, 1999), pp. 103

.Olivier Roy, Holy Ignorance: When Religion and Culture Part Ways, Ros Schwartz (trans.), (London: Hurst & Company, 2010), p. 109

يناقش روي في مكان آخر بأنَّ هذه المحاولة لإعطاء الإيديولوجية الدينية طبيعة سوسيولوجية هي في الواقع أحد أسباب فشل الإسلام في تحويل نفسه من إيمان ديني لجماعة إلى مجتمع حقيقي. أنظر

.74-O. Roy, The Failure of Political Islam, Carol Volk (trans.), (London & New York: I.B. Tauris, 2007), pp. 48

.and Roy, Holy Ignorance, p. 110 ;111-An-Na'im, "Political Islam in National Politics and International Relations," pp. 106

.111-Roy, Holy Ignorance, pp. 110

المصدر السابق نفسه، ص. 113.

ماجد كيالي

معنى فلسطين في الثورات الشعبية العربية

منذ اندلاع ثورات الربيع العربي، قبل عامين، ونزول الشعب الى شوارع وميادين مدن عديد من الدول العربية، بدا واضحاً من الشعارات التي رفعتها هذه الثورات، والهتافات التي رددتها حناجر المتظاهرين، أن ثمة تحول أساسي ونوعي في الادراكات السياسية للشعوب العربية، من القضايا العامة، أو من القضايا "القومية" إلى القضايا الخاصة، أي القضايا التي تهم المواطنين في بلدانهم، وتضعهم على سكة التطور.

في حقيقة الأمر فإن هذا التحول لم يكن شيئا عرضياً، ومفاجئاً، إذا أردنا ان نؤرّخ للإدراكات السياسية التي وسمت التحركات السياسية للجماهير العربية في بلدان هذه المنطقة، حيث كات قضايا فلسطين والوحدة العربية والاشتراكية ومقاومة الأمبريالية تحتل المكانة المركزية في سلم اولويات القوى المحركة للأحداث السياسية التي عصفت في البلدان العربية، لاسيما في المشرق العربي، طوال النصف الثاني من القرن العشرين.

فمن تفحّص أحوال المجتمعات العربية، طوال الفترة الماضية، يمكننا ملاحظة أن هذا التحول حصل نتيجة اختبارات عديدة، ومتوالية، للنظم السياسية القائمة، إن في مجال عمليات التنمية وبناء الدولة، أي دولة لمؤسسات والقانون، او بالنسبة لتحقيق الاندماجات الوطنية والتحول الى مجتمع مواطنين أحرار ومتساوين، وأيضا بما يخص مواجهة التحدي الذي يفرضه وجود اسرائيل على النظام الرسمي العربي، لاسيما بالنسبة للدول العربية المجاورة لها.

لم تنجح الوحدات السياسية المشكلة للنظام الرسمي العربي في تلك الاختبارات، بل انها بدت مع اخفاقها في كل الاختبارات التي تعرضت لها، بمثابة عقبة كأداء امام امكان تطور البلدان والمجتمعات العربية، باتجاهات الدولة والمواطنة والديمقراطية والحداثة ومحاكاة العالم. وفوق هذا وذاك، فقد ظهرت النظم السياسية المهيمنة في تلك الوحدات باعتبارها مجرد سلطات شمولية، يقع في مركز اهتماماتها ترسيخ هيمنتها على البلاد والعباد، والتحكم في مواردهما، أكثر من أي شيء، وعلى حساب أي شيء، أخر.

انكشاف التغطية بإسرائيل

هكذا انكشف النظام السياسي العربي على حقيقته، ولم تعد تنفع محاولات بعض الأنظمة التغطية



على واقع الاستبداد والإفساد، بقضية فلسطين، أو بدعوى مواجهة التحديات الخارجية.
ومعلوم ان تلك النظم ظلت، طوال العقود الماضية، تبرر اخفاقها في عمليات التنمية أو حجبها الديمقراطية وانتهاكاتها حقوق الانسان، كما مبالغتها في العسكرة وتغوّل الأجهزة الأمنية، بدعوى مواجهة اسرائيل، ملوحة بشعار: "لاشيء يعلو فوق صوت المعركة". وفي غضون كل ذلك، اكتشفت الشعوب العربية، وبثمن باهظ، دفعته من عمرها ومعاناتها، وقهرها، بأن إسرائيل هذه إنما استقرت وتطورت، وواصلت تحديها للواقع العربي في مختلف المجالات، بالذات في ظل هذه النظم التي تحكمت في بلدانها، وهمشت مجتمعاتها، لاسيما أن ذلك لم يقتصر على الجانب العسكري وإنما شمل نظام الحكم والإدارة والتنمية البشرية والاقتصاد.
مثلاً، وعلى رغم أن الدول العربية تقوم على مساحات واسعة، وتحوز موارد طبيعية هائلة، وثمة فيها كتل بشرية كبيرة، فإن إسرائيل المحدودة والصغيرة، والتي تضاعف سكانها اليهود بعد 64 عاماً 9 مرات (1948 ـ 2012)، من 700 ألف إلى ستة ملايين، تضاعفت قدرتها التصديرية أكثر من 11 ألف مرّة من 6 ملايين دولار فقط (1948) إلى 69 بليون دولار (2011). وقد تضاعف الناتج المحلي السنوي لها حوالي 60 مرة من 4 بلايين دولار (1950)، مع حصّة للفرد قدرها 3100 دولار، إلى 242 بليون دولار (2011)، مع حصّة للفرد قدرها 31 ألف دولار، ما جعل إسرائيل بين الدول الخمس عشرة الأولى في العالم على صعيد دخل الفرد. فوق ذلك فإن إسرائيل لا تعاني من البطالة (6.5 بالمئة)، بل إنها تستقبل عمالة من الخارج، وتنفق حوالى 5 بالمئة من ناتجها السنوي على البحث العلمي (الأول على مستوى العالم)، وتخصّص 8 بالمئة من ناتجها للنفقات العسكرية، وقد بلغت نسبة العلماء فيها 135 عالما لكل 10 آلاف إسرائيلي.
وكما قدمنا فإن إسرائيل هذه لم تتفوق على العالم العربي بقدراتها الاقتصادية والتكنولوجية فقط، فهي إضافة إلى ذلك تفوقت أساسا في مجال التنمية البشرية وادارة المجتمع ونظام الحكم. فقد نشأ النظام السياسي الإسرائيلي على قواعد ديمقراطية وليبرالية، وعلى أساس النظام الحزبي، وفصل السلطات، وضمان الحريات الشخصية، وتداول السلطة، والانتخابات وفق القائمة النسبية على الصعيد "الوطني"، ما يتيح لكل فرد التعبير عن رأيه، والمشاركة في السياسة، وما يمكن كل قوة سياسية، مهما كان شأنها، من التمثل في الكنيست، إذا استطاعت تأمين الحد الأدنى اللازم للعضوية فيه.
ومعلوم أن النظام السياسي في اسرائيل يعمل على رغم التناقضات في المجتمع الاسرائيلي بين المتدينين والعلمانيين، والشرقيين والغربيين، والمهاجرين الجدد والقدامى، واليسار واليمين، على اساس ضمان استمرار التوافق والاجماع بشأن القضايا الاستراتيجية والمستقبلية، التي تمس وجود اسرائيل ومستقبلها وامن الاسرائيليين؛ بحيث تختفي او تتراجع التناقضات الجانبية، لصالح الأولويات العامة. وسبب ذلك يعود إلى حقيقة بسيطة مفادها أن اسرائيل هذه، المصطنعة وغير الشرعية، أثبتت نجاحا في ما يتعلق بتحقيق ما تسميه بمصطلحاتها "بوتقة الصهر" إذ أنها نجحت في تحويل اليهود المهاجرين اليها من كل انحاء الدنيا، على اختلاف لغاتهم وخلفياتهم الثقافية والحضارية إلى "شعب"، على رغم كل التحفظات حول هذا المصطلح أو هذه العملية، وكلمة السر هنا هي دولة المؤسسات والقانون والمواطنين والنظام السياسي المتأسس على قواعد الديمقراطية الليبرالية.
أما في ما يخصّ الحديث عن الحروب العربية -الإسرائيلية، وادعاء أنها شغلت البلدان العربية عن التنمية والتحديث، واستنزفت قواها ومواردها، فقد بينت التطورات الأخيرة بأن الإنفاق العسكري للنظم العربية لم يكن له علاقة بالحروب مع إسرائيل، فحتى الجيوش لم تؤهّل لذلك، لا من حيث التدريب والأهلية ولا من حيث العقيدة العسكرية، فضلاً عن أن التاريخ يفيد بأن حرب 1973، التي مضى عليها أربعة عقود، كانت آخر حروب الجيوش العربية مع إسرائيل. وهذا يبيّن بأن قضية فلسطين، بالنسبة للنظام الرسمي العربي، لم تكن حقاً على رأس الأجندة، بالقدر الذي يتناسب مع ادعاءات الأنظمة المعنية بذلك، بقدر ماكانت قضية استخدامية، او كوسيلة للمزايدة والابتزاز.
الأنكى أن النظم التي ادعت بأنها انظمة "قومية"، ومقاومة وممانعة، لم تستطع تحقيق الاندماجات المجتمعية في بلدانها، بتحويل شعبها الى شعب حقاً، إذ ظلت الانتماءات القبلية، أي الدينية والمذهبية والاثنية والعشائرية والمناطقية هي السائدة، والسبب في ذلك مصادرتها للدولة، أي دولة المؤسسات والقانون والمواطنين، وتغوّلها كسلطة، وحرصها على التلاعب بالمكونات المجتمعية وتوظيفها لصالحها، ضمن لعبة الهيمنة والسيطرة. وقد نتج عن ذلك أن إسرائيل نجحت في تحويل ذاتها إلى "بوتقة صهر" لليهود المهاجرين إليها من اصقاع الدنيا، وبينما كان المجتمع الإسرائيلي حاضرا مع دولته في معادلات الصراع العربي ـ الإسرائيلي، كانت المجتمعات العربية غائبة، وعلى الهامش، في تلك المعادلات، بل إنها كانت خارج كل الحسابات، ما يكشف الخداع والتلاعب والمواربة في الادعاءات المتضمنة في خطابات نظم الممانعة.
بالمحصلة فقد تبيّن بكل جلاء بأن النظم السائدة اخفقت، ليس فقط في معركة استعادة الأراضي المحتلة من اسرائيل، ومواجهتها على الصعيد العسكري، والحدّ من غطرستها، وانما هي، أيضا، اخفقت إزاءها في مختلف المجالات: السياسية والاقتصادية والتكنولوجية، كما في بناء الدولة والمجتمع والمواطن.

غياب فلسطين وحضورها

على أية حال فإن مجرد اندلاع الثورات الشعبية العربية، التي تركزت شعاراتها على حاجات المواطنين، أثار التساؤلات بشأن مكانة قضية فلسطين في الواقع العربي الجديد الذي يتشكل، وانعكاس هذه الثورات على معادلات الصراع العربي الإسرائيلي، كما بشأن كيفية تمثل الفلسطينيين لمعاني هذه الثورات الديمقراطية في كفاحهم ضد عدوهم، وفي شكل وجودهم



في تلك البلدان.

معلوم أنّ البعض كان قد أخذ على هذه الثورات استغراقَها في الشأن الوطنيّ (الداخليّ)، بتركيزها على تغيير النُّظُم التسلّطيّة السائدة، وعدم التفاتها إلى ما وراء حدود مواطنها الجغرافيّة، وعدمِ رفعها شعاراتٍ تخصّ قضيّة فلسطين ومعاداة إسرائيل.

***

وفي الواقع فإن هكذا نظرة متسرعة تنم عن تعسف، ومصادرة على المستقبل، لأن الثورات الشعبية التي اندلعت مازالت لم تعبر عن ذاتها بما يتعلق بالشؤون الخارجية، هذا فضلا عن أن هذا السؤال، الذي ينطوي على تشكك بالثورات، يغفل، أو يغطي على النظم التي تمت الثورة عليها، والتي كانت تتعايش مع وجود إسرائيل، وتتلاعب بقضية الفلسطينيين.

وعلى العموم فإن الثورة التي اندلعت من أجل تمكين المواطنين، في البلدان المعنيّة، من وعي ذاتهم، واستعادةِ حقّوقهم المسلوبة في الحريّة والكرامة والعدالة، لا بدّ أن تنجم عنها سياساتٌ خارجيّةٌ تنافح، أيضًا، عن هذه القيم، كتحصيل حاصل، وإن اقترن ذلك في المراحل الانتقالية ببعض الثغرات او التقصيرات والمشكلات، لأن هذا من طبيعة أي مرحلة تاريخية انتقالية.

على ذلك، فإنّ عدمَ رفع شعاراتٍ وأعلامٍ فلسطينيّة، والتركيزَ على رفع العلم الوطنيّ والشعارات التي تهمّ المواطنين في كلّ بلد، لا ينبغي النظر إليه على أنه يقلّل من شأن الثورات الحاصلة، من تونس إلى مصر وليبيا وصولاً إلى اليمن وسوريا، ولا من تأثيراتها في محيطها، ولا من أبعادها في المجال العربيّ.

وفي الواقع يجب ان تفهم هذه الثورات باعتبارها تعيد الأمور إلى نصابها، إذ لا تستقيم ادّعاءاتُ التحرير (أي تحرير فلسطين) من دون مواطنين أحرار، ولا تمْكن مواجهةُ التحدّي الذي تمثّله إسرائيلُ في ظلّ أنظمةٍ تكبّل شعوبها، وتمتهنهم، وتنهب ثرواتهم، وتبدّد إمكانيّاتهم، وتهدر طاقاتهم.

ولعله بات من المطلوب القطْعُ مع تلك النظرة الخاطئة التي لا تربط بين تمكين المواطنين من الحريّة والكرامة والعدالة في الداخل، وبين القدرة على تحقيق كلّ ذلك إزاء الخارج، لاسيما ان التجارب المعاشة بيّنت، وبثمن باهظ، أنّ حرمان المواطنين من حقوقهم الأساسية، وامتهان كراماتهم، يؤدي بداهة إلى إ ضعاف المجتمع والدولة وانكشافهما إزاء التحدّيات الخارجيّة.

قصارى القول فإننا هنا لا نتقصّد من كلّ هذا الكلام المبالغةَ في انعكاس الثورات الحاصلة على قضيّة فلسطين ـ فما زال ثمّة شوط طويل ينبغي قطعه للتأكد من مآلات ما يحصل، وما زالت موازينُ القوى العسكريّة مختلّة لغير صالح العرب. وإذا كان صحيحًا أنّ هذه الثورات لابد ان تنتصر لقضيّة فلسطين في نواحٍ عدّة، فإنّ ما ينبغي إدراكُه جيّدًا هنا هو أنّ هذه الثورات ينبغي أن تنتصر أساسًا لتصوّرها الجديد عن ذاتها، أيْ عن كرامة دولها ومواطنيها.

معنى الثورات فلسطينياً

على صعيد الفلسطينيين فإن هذه الثورات تفيد بضرورة تعزيز ادراكاتهم لحقيقة أساسية مفادها أن هذا الزمن هو زمن الثورات الوطنيّة التي تتوخّى إعادةَ الاعتبار إلى المواطنين بوصفهم ذواتًا حرّة، وإعادةَ صوغ هويّتهم الوطنيّة وتعزيز وحدتهم المجتمعيّة بوصفهم شعبًا (لا عشائر وإثنيّات وطوائف ومذاهب)، والتركيز على استعادة حقوقهم المسلوبة، في الحريّة والعدالة والكرامة والتغيير الديمقراطيّ وبناء الدولة الحديثة ـ دولةِ المؤسّسات والقانون والمواطنين.

وربما آن الأوان بالنسبة الى الفلسطينيين، وهم شعب ضعيف الإمكانيّات، ومشتّتٌ، ويخضع لسلطات متعددة، أن يدركوا حدودَ دورهم في المجال العربيّ، بعيدًا عن العواطف والشعارات والإنشاءات، التي جعلتهم مجالا للتلاعب والتوظيف، طوال المرحلة السابقة، وأن يدركوا أيضًا أنّ مساهمتهم الخاصّة في الثورات تكمن في تمثّلهم قيمَها، وهذا يتضمّن، حكمًا، تطويرَ كياناتهم السياسيّة، واستعادةَ حركتهم طابعَها بوصفها حركة تحرر وطنيّ لشعبٍ يخضع للاستعمار والعنصريّة والقهر.

على أية حال فإنّ الثورات التي تتوخّى إقامة وضع عربيّ جديد، قوامُه صعودُ دور المجتمعات في تقرير مصيرها، لابد أن يساهم في تحرير الفلسطينيّين، أيضا، من إملاءات النظام الرسمي العربي، ومن وصاية الفصائل القائمة، ولابد أن يحثهم على توليد المبادرات لتطوير نظامهم السياسي.

كذلك فإنّ الثورات الشعبيّة العربيّة، التي رفعت شعار "سلميّة... سلميّة" سيكون لها تداعياتها في البيئة الشعبيّة الفلسطينيّة التي كانت تنزع إلى تقديس المقاومة المسلّحة، وتضعها خارج المساءلة. صحيح أنّ الفلسطينيين سبق لهم أن انتهجوا العصيانَ المدنيّ والمقاومةَ الشعبيّة في الانتفاضة الأولى (1987ـ1993)، لكنّ ذلك لم يَنفذْ تمامًا إلى وعيهم الجمعيّ، ولم يترسّخْ في إدراكاتهم السياسيّة الجمعيّة، بدليل تحوّلهم نحو الانتفاضة المسلّحة والعمليّات التفجيريّة في الانتفاضة الثانية (2000ـ2004). فعلى رغم الحسم بالوسائل العسكرية في ثورة ليبيا، وبعدها في سورية، فإن الثورات الشعبية العربية عموما أسهمت في طرح تساؤلات بشأن جدوى ثقافة الثورة المسلّحة، التي مفادُها أنّ "العنف مولّد التاريخ،" والتي استمدّت شرعيّتها من الثورتين الفرنسية والروسية (في القرنين التاسع عشر والعشرين)، لمصلحة الاقتراب من تجربة "اللاعنف" في الهند، وتجربة النضال الشعبيّ والعصيان المدنيّ في جنوب إفريقيا (وهي التجربة عينها التي اعتمدتها الثورةُ الإسلاميّة في إيران وقطعت معها في ما بعد).

أيضًا يمكن تلمّس أثر الثورات العربيّة في ما يمكن ان تسهم به في إعادة صوغ ثقافة الفلسطينيين السياسية، وثقافة حركة التحرر الوطني خاصتهم، عبر اضفاء مضامين ومعايير انسانية وعصرية وديمقراطية عن مفهومهم للتحرير، بحيث لا يقتصر فقط على تحرير الأرض/الاقليم، وبحيث يشمل قيم العدالة والمساواة والديمقراطية ونوعية الحياة وشكل النظام السياسي. صحيح أنّ المفاهيم المتعلقة بهذه القيم لم تغبْ تمامًا عن خطاباتهم، خصوصًا تلك المتمثلة في خيار حلّ

"الدولة الواحدة الديمقراطيّة العلمانيّة،" لكنها يبدو اليوم كأنها باتت أرسخ وأقوى، بعد أن تحوّلث إلى خطاباتٍ شبهِ شعبيّة، يتمّ تداولُها عبر شبكات التواصل الاجتماعيّ، بين أجيال الشباب، بدفع من الثورات الحاصلة.

***

وفي الواقع فإن المفهوم الإقليميّ (الأرض) للتحرّر الوطنيّ، أي المفهوم الذي يتمحور حول مجرّد الصراع على الأرض، أو على الاستقلال في دولةٍ على جزء من أرض (جزء من الشعب)، ما عاد كافياً ولا مقنعاً، وربما ما عاد متاحاً على ضوء الواقع الإسرائيلي المفروض في الضفة. فوق ذلك فإن تجربة الاستقلالات العربيّة لا تشجّع على ذلك، فضلاً عن أن ذلك لا يحل كل الأمور، ولا يلبّي مطالب كل الفلسطينيين المتعلّقة بالحقيقة والعدالة والتحرّر والديموقراطيّة والمواطنة.
وفي الواقع فإن الثورات الشعبية العربية فتحت نافذة فرص جديدة أمام الفلسطينيين، ما يمكنهم من توسيع خياراتهم، والتحرر من الانحصار في خيار واحد ووحيد، وهو خيار الدولة المستقلة في الضفة والقطاع، إن بخلقها واقعا سياسيا جديدا في المنطقة، أو بانهائها اسطورة إسرائيل كالديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، ذلك ان قيام دول المواطنين الديمقراطية، في البلدان العربية، يسهم بدوره في اضفاء مشروعية على طرح خيار «الدولة الواحدة الديموقراطية العلمانية» للفلسطينيين والإسرائيليين، أمام العالم وإزاء الإسرائيليين ذاتهم.
وربما من البديهي التنويه هنا إلى أنّ هذا المشروع لا يُطرح للتطبيق دفعةً واحدة، إذ أنه سيحتاج، على الأرجح، إلى تدرّجات وتوسّطات؛ وهو لا يُطرح للتفاوض، وإنّما للنضال الشعبيّ اليوميّ، لاسيما أنه يتناسب مع القيم العالميّة، أيّ قيم الحريّة والديمقراطيّة والعدالة والسلام والمساواة.
أما على الصعيد الداخلي فإن أي تغيير في البيئة السياسية العربية باتجاه الدولة والديموقراطية لا بد أن يفضي إلى تغيير نوعي في النظام الفلسطيني وخريطته الفصائلية، ما يفيد بالتخلّص من هيمنة الفصائل على المجتمع ومن عديد من الاستطالات الفصائلية التي لم يعد لها أية فاعلية في مواجهة العدو ولا تحظى بأي تمثيل في المجتمع، ما يفتح على استنهاض الوضع الفلسطيني على قاعدة الوحدة وعلى أسس وطنية ومؤسساتية وديموقراطية وتمثيلية.
وبالنسبة إلى حال الفلسطينيين اللاجئين، في بعض البلدان العربية، فإن قيام دولة المواطنين الديمقراطية في تلك البلدان، لا بد سينصفهم بحيث لا يعودا مجرد حالة أمنية أو سياسية أو استخدامية يجري التلاعب بها، او استهدافها لهذا لصالح هذا النظام او ذاك.
ومن جهة إسرائيل فإن مجرد قيام دولة المواطنين الديموقراطية ـ المدنية/العلمانية، في عديد البلدان العربية، سيضعها في زاوية جدّ حرجة، إزاء نفسها والعالم، إذ سينهي تبجّحها باعتبارها بمثابة «واحة» للديموقراطية ويظهرها على حقيقتها كظاهرة رجعية في هذه المنطقة، وباعتبارها مجرد دولة استعمارية وعنصرية ودينية، بخاصة مع تمسّكها بتعريف ذاتها كدولة يهودية.

الحرية لاتتجزأ

يستنتج من ذلك أن قضية فلسطين تجد تمثلاتها الحقيقية فعلا لا قولا فقط، وبعيدا عن سياسات وخطابات التلاعب والتوظيف والمزايدة والابتزاز، في سيادة قيم الحرية والكرامة والعدالة، في النظم السياسية في البلدان العربية، لا في التسلط والاستبداد والافساد وقهر الشعوب.
ولعله بعد كل هذه التجارب والخيبات والهزائم بات من الضروري إدراك حقيقة مفادها أن لا أوطان حرّة من دون شعوب حرّة ومواطنين أحرار، وأن الشعوب الحرة هي التي تعرف معنى الحرية وتنافح عنها، وهي التي تصمد وتقاوم، بالأفعال وليس بالأقوال فقط.
أيضاً، فقد بات واضحاً ومحسوماً بأن وضع المقاومة أو فلسطين في وجه الثورات ما عاد مقبولاً ولا مقنعاً البتة، ففلسطين ليست مجرد قطعة أرض، وإنما هي أيضا معنى للحرية والكرامة والعدالة. ثم ماهي هذه المقاومة حقا؟ وماهي هذه الوطنية، التي الاستبداد والظلم؟!
وباختصار فإن قيام الشعب في هذه المنطقة لأول مرة في التاريخ ربما هو الذي يفتح على خلق عامل جديد في العالم العربي بإزاء إسرائيل، وهو الذي يغيّر معادلات الصراع العربي ـ الإسرائيلي بصورة جوهرية، وهذا أكثر ما يقلق إسرائيل ■



إبراهيم الجبين

الخيال السياسي المعارض وواقعية الاستبداد
الوظائف الصريحة للنظام في دمشق

لم تتوقف عجلة الحياة في سوريا إبان حكم البعث وحافظ الأسد ثم بشار الأسد، واستمرت تنتج أشكالاً لا نهائية من التوافق مع المعطيات الجديدة التي ظهرت فجأة ثم أخذت تتطور وتتعقد أمام السوريين، ولم يستطع أي من مؤرخي الستينيات الجهر بحقيقة أن هناك مؤامرة ما، أو خطة ما، أو ترتيباً ما لتلك الرقعة من الشطرنج المسماة سوريا، والتي كانت تسير إلى منعرجٍ لا يعلم به إلا الله، وهو أصل معضلة إقليم بلاد الشام وسر تميزه، أنه يمضي خارجاً من لحظة معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة العربية اللادينية الأولى بلا منازع، وصولاً إلى تفتيته بعد انتزاعه من رعوية وتبعية دينية أكثر منها سياسية جعلت من دمشق عاصمة روحية لطالما طاب للباب العالي وصفها بـ «شام شريف».

فُكّك الإقليم وقُسم وشاعت له طبائع نفوس من خرجوا من بين حواريه وضيعه ومدنه أن ترنو أنظارهم إلى الأفق، فهو تارة أفق أممي إسلامي يمتد من إندونيسيا إلى واحدة من بدائع الصنيع الدمشقي التي تعلم الغرب منها درساً لم ينسه يوماً..«الأندلس»، وتارةً هو منبع إشعاع لفكرة جديدة قديمة، أحيت النبض القومي الذي لم يهدأ ضجيج أجنحته على امتداد الأرض من شواطئ الخليج إلى شواطيء الغرب، فاستمرت الشام مشكلة المشاكل لكل من أراد أو احتاج إلى السيطرة على المنطقة، أو على الأقل حماية مصالحه فيها، أو افتتاح بوابات مصالح أخرى جديدة.

ولم تجد اتفاقية سلام واستقلال وقعتها الحكومة الفرنسية مع ممثلي الكلتة الوطنية، نصت على استقلال تدريجي لسوريا، نفعاً، فقد وقف ضدها وخطب في كل المدن والاصقاع السورية منددأ باتفاقية الاستسلام، صاحب أكثر الكاريزمات حضوراً في المنطقة، وموجّه التفكير القومي العلماني الاصيل طيلة العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، فكان لابد من التخلص من الزعيم . كما كان يطلق عليه الإعلام والأوساط السياسية في سوريا والعالم العربي . الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، في عملية ظهرت وكأنها انتقام بضعة إسلاميين من مفكر انتقدهم أكثر من مرة، وفي جانب منها مؤامرة داخلية لم يكن أطرافها سوى الجابري والقوتلي ومردم بيك، ولكن الخافي الأكبر كان دور سلطة الاحتلال التي تسيطر تماماً على سوريا في العام 1940 ودور أحد أقارب أسرة الجميل الذي عمل في تلك الفترة نقيباً في الاستخبارات الفرنسية، وتم الاغتيال في العيادة



الدمشقية كما تم اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في أحد منعطفات بيروت في العام 2005 ، وكأن اللحظة تحتاج إلى إزاحة زعامة ما عن المنطقة يشكّل وجودها تهديداً كبيراً لما هو مرسوم وما هو متفق عليه.

لكن الخطر كان قد بدأ بالتشكل أصلاً بقدوم مصطفى السباعي من مصر وتأسيسه لأولى خلايا تنظيم الإخوان المسلمين في سوريا، في الوقت الذي تشكّل فيه تيار قومي وريث مثله البعث العربي الاشتراكي قبل دمج جناحيه الأسياسيين وبعده، وصعود خالد بكداش والحزب الشيوعي في سوريا، واعترافه السريع بما اعترف به ستالين في العام 1948 ، قرار تأسيس دولة دولة إسرائيل، والإرباك الكبير الذي دخلت فيه المنطقة منزلقةً متعجلة، ليكون نواةً لما سيخلق الصراع في سوريا فيما بعد بين تيارات لم تكن قد بدأت بعد في التنافس على الساحة الشعبية والرأي العام، ولكن كيف سيغامر العالم ببلاد الشام في مقامرة لن تكون نتائجها محسوبة؟! فكان القرار أن تبدأ الانقلابات وتعزّز، ويبدأ عصر العسكر، ولن ينتهي بعصر سميناه طويلاً عصر الديمقراطية الذهبي في الخمسينيات، ولكنه تكرّس أكثر بمشروع الوحدة الذي أجبرت عليه الطبقة السياسية انسجاماً مع رغبات الجماهير والمد القومي الثائر الذي مثلته حنجرة جمال عبدالناصر أكثر من بندقيته.

سحقت سوريا التي كانت قبل الوحدة، طيلة سنوات الوحدة، ودمرت العلاقات الاجتماعية المدينية الراسخة في أنحائها وطبقاتها، وتم تبديل المليكات، وتأميم المصانع والأراضي وأزيحت البرجوازية التي حملت مشروع الاستقلال والنهضة والفكر القومي وكانت حاضنته أصلاً في بلاد الشام، وصعد الريف، والمزيد من العسكر، حتى ضج أهل المدن أو من سموهم وقتها (الضباط الشوام) واتخذوا قراراً بتصحيح مسار الوحدة، فصمها أو تقويمها، ولم تقبل سلطة عبدالناصر أن يملي عليه أحدٌ من رعاياه ما يجب أن يفعل أو كيف ينبغي أن يتصرف، فقرر تنفيذ إنزال عسكري في اللاذقية مني بالفشل وسرعان ما جاءته الإشارة الأميركية بعدم التدخل في سوريا بعد الآن.

ولكن هناك من كان ينتظر الفرصة كي يضيعها، بينما ترقّب آخرون فرصاً قلما سنحت، في عهد الانفصال، فابتعدت القيادات التاريخية للحراك السياسي عن المشاركة، وظنت أنها تعبر في غيمة سريعاً ما تنجلي، في الوقت الذي استقبلت فيه دمشق ضيفاً لم يكن ثقيل الظل على كثيرين، بينما أرخى ما فعله بظلاله المريعة على سوريا كلها والمنطقة طيلة خمسين سنة مضت..إنه كامل أمين ثابت أو الياهو كوهين.

إلياهو كوهين وتأسيس نظام المقاومة في دمشق

الياهو بن شاؤول كوهين يهودي من أصل سوري حلبي، ولد بالإسكندرية التى هاجر اليها أحد اجداده سنة 1924 وفي عام 1944 انضم ايلي كوهين الى منظمة الشباب اليهودي الصهيوني في الإسكندرية وبدا متحمسا للسياسة الصهيونية العدوانية على البلاد العربية، وبعد حرب 1948 اخذ يدعو مع غيره من اعضاء المنظمة لهجرة اليهود المصريين الى فلسطين وفي عام 1949 هاجر أبواه وثلاثة من أشقائه إلي إسرائيل بينما بقي هو في الإسكندرية.

كان كوهين يعمل تحت قيادة إبراهام دار وهو أحد كبار رجال الاستخبارات الإسرائيليين الذي وصل إلى مصر ليباشر دوره في التجسس ومساعدة اليهود علي الهجرة وتجنيد العملاء، وهو ذاته الشخصية الشهيرة (جون دارلينج) وشكل شبكة للمخابرات الإسرائيلية بمصر نفذت سلسلة من التفجيرات ببعض المنشأت الأمريكية في القاهرة والإسكندرية بهدف افساد العلاقة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية وفي عام 1954 تم إلقاء القبض على أفراد الشبكة في فضيحة كبرى عرفت حينها بفضيحة (لافون)، وبعد انتهاء عمليات التحقيق كان كوهين قد تمكن من إقناع المحققين ببراءة صفحته إلي أن خرج من مصر عام 1955 إلى إسرائيل حيث التحق فيها بالوحدة رقم 131 ضمن جهاز (أمان) لمخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي ثم أعيد إلي مصر فاعتقلته المخابرات المصرية مع بدء العدوان الثلاثي ضد مصر في أكتوبر 1956، ولكن وبظروف غامضة تم الإفراج عن إيلي كوهين في مصر ليعود إلى إسرائيل من جديد بعد سنة من الإقامة هناك، حيث عمل محاسبا في إحدى الشركات، وانقطعت صلته مع (أمان) لفترة من الوقت، ولكنها استؤنفت عندما طرد من عمله وعمل لفترة كمترجم في وزارة الدفاع الإسرائيلية ولما ضاق به الحال استقال وتزوج من يهودية من أصل مغربي عام 1959.

رتبت المخابرات الإسرائيلية لكوهين قصة سورية كثيراً ما توجد وتحكى في بيوت السوريين، عن مهاجرين غادروا سوريا في الماضي ويريدون العودة إليها بعد أن تحسنت أحوالهم، وقد تقرر أن يكون كوهين مسلما يحمل اسم (كامل أمين ثابت) هاجر وعائلته إلى الاسكندرية ثم سافر عمه إلى الارجنتين عام 1946 حيث لحق به كامل وعائلته عام 1947 وفي عام 1952 توفى والده في الارجنتين بالسكتة القلبية كما توفيت والدته بعد ستة أشهر وبقى كامل وحده هناك يعمل في تجارة الأقمشة.

وتم تدريبه على كيفية استخدام أجهزة الارسال والاستقبال اللاسلكي والكتابة بالحبر السري كما راح يدرس في الوقت نفسه كل أخبار سوريا ويحفظ أسماء رجالها السياسيين والبارزين في عالم الاقتصاد والتجارة مع تعليمه اصول الايات القرآنية وتعاليم الدين الإسلامي.

وفي 3 شباط ـ فبراير من العام 1961 غادر ايلي كوهين إسرائيل إلي زيوريخ، ومنها حجز تذكرة سفر إلي العاصمة التشيلية سنتياجو باسم كامل أمين ثابت.

وفي الارجنتين تعلم كوهين اللغة الاسبانية، وبمساعدة بعض العملاء تم تعيين كوهين في شركة للنقل وظل لمدة تقترب من العام يبني وجوده في العاصمة الأرجنتينية كرجل أعمال سوري ناجح، فكون لنفسه هوية لا يرقى إليها الشك، واكتسب وضعا متميزا لدى الجالية العربية في الأرجنتين، باعتباره قوميا سوريا شديد الحماسة لوطنه، وأصبح شخصية مرموقة في كل ندوات العرب واحتفالاتهم، وسهل له ذلك إقامة صداقات وطيدة مع الدبلوماسيين السوريين وبالذات

مع الملحق العسكري بالسفارة السورية، العقيد أمين الحافظ، خلال المآدب الفاخرة التي اعتاد كوهين أو كامل أمين ثابت إقامتها في كل مناسبة وغير مناسبة، ليكون الدبلوماسيون السوريون على رأس الضيوف، لم يكن يخفي حنينه إلي الوطن الحبيب، ورغبته في زيارة دمشق، لذلك لم يكن غريبا أن يرحل إليها بعد أن وصلته الاشارة من المخابرات الاسرائيلية، ووصل إليها بالفعل في كانون الثاني . يناير 1962 (ولا يجب التغافل عن توقيت الإنفصال ما بين سوريا مصر الذي يتزامن مع تطورات تحرك كوهين فقد وقع الإنفصال في 28 أيلول . سبتمبر 1961) أي قبل اربعة اشهر فقط من انطلاق مهمة كوهين على الأراضي السورية، الذي كان قد قام بجولة طيران واسعة للتمويه على عواصم أوروبية، قبل أن ينزل في مطار دمشق وسط هالة من الترحيب والاحتفال، بسبب سمعته التي نقلها العقيد أمين الحافظ عن وطنية هذا الرجل وشوقه إلى بلاده، حينها أعلن كامل أمين ثابت أنه قرر البقاء في سوريا ونقل أعماله التجارية إليها.

وبعد أقل من شهرين من استقراره في دمشق، تلقت أجهزة الاستقبال في أمان أولى رسائله التجسسية التي لم تنقطع علي مدي ما يقرب من ثلاث سنوات، بمعدل رسالتين على الأقل كل أسبوع. وفي الشهور الأولى تمكن كوهين من إقامة شبكة واسعة من العلاقات المهمة مع ضباط الجيش والمسئولين الحربيين، وكان من الأمور المعتادة أن يقوم بزيارة أصدقائه في مقار عملهم، ولم يكن مستهجنا أن يتحدثوا معه بحرية عن تكتيكاتهم في حال نشوب الحرب مع إسرائيل، وأن يجيبوا بدقة عن أي سؤال فني يتعلق بطائرات الميج، أو الغواصات التي وصلت حديثا من الاتحاد السوفيتي أو الفرق بين الدبابة تي 52 وتي 54.. الخ من أمور كانت محل اهتمامه كجاسوس.

أنقل هنا ما تتداوله الكتب والمقالات عن مهمة كوهين، ولكن هل كانت حقاً هذه هي مهمة رجل إسرائيل في دمشق؟! كان الكثير من المعلومات يصل من كوهين إلى إسرائيل، ومعها قوائم بأسماء وتحركات الضباط السوريين بين مختلف المواقع والوحدات، حيث تمكنت المخابرات الإسرائيلية من رسم خارطة كاملة للعسكرين السوريين، وصار بإمكانها تحديد أهدافها بدقة، وفي سبتمبر1962 صحبه أحد أصدقائه في جولة داخل التحصينات الدفاعية بمرتفعات الجولان. وقد تمكن من تصوير جميع التحصينات بواسطة آلة التصوير الدقيقة المثبتة في ساعة يده، وهي احدى ثمار التعاون الوثيق بين المخابرات الإسرائيلية والأمريكية.

وفي العام 1964، عقب ضم جهاز أمان إلى الموساد، زود كوهين قادته في تل أبيب بتفصيلات وافية للخطط الدفاعية السورية في منطقة القنيطرة، وفي تقرير آخر أبلغهم بوصول صفقة دبابات روسية من طراز تي 54، وأماكن توزيعها، وكذلك تفاصيل الخطة السورية التي أعدت بمعرفة الخبراء الروس لاجتياح الجزء الشمالي من إسرائيل في حالة نشوب الحرب.

وكان كوهين كما وصفه البعثيون في ذلك الوقت الراعي المالي لحزب البعث، الذي عاش في دمشق طيلة مراحل الانفصال وانقلاب البعث في الثامن من آذار 1963، وأغرق البعثيين بالأموال، ودعمهم كي يعيدوا بناء تنظيمهم الذي كان قد تم حلّه أيام الوحدة مع مصر.

تظل بقية القصة معروفة للجميع ودور الجاسوس المصري رفعت الجمال في اكتشاف شخصية كوهين، ولكن هذا لا يمنع أن من قام بتسريب معلومة تقول إن كامل أمين ثابت هو جاسوس إسرائيلي إنما هو جاسوس إسرائيلي آخر، أي أن مصدر المعلومة إسرائيل نفسها، التي خلقت كوهين ليبعث حزب البعث من جديد، ويسلمه السلطة في سوريا، ويهيء شبكته التي حكمت سوريا حتى اللحظة، وها هي تقرر الآن التخلص من الحلقة الأضعف وتبقي على الشبكة.

أوردت نشرة الاشتراكيين العرب وقتها ما نصه: (إننا نضم صوتنا الى أصوات طلاب الجامعة ونطالب بإجراء محاكمة نزيهة تكشف تآمر الاستعمار واسرائيل على بلادنا، ان الشعب يرقب بعين يقظة ما يدور على المسرح من أمور ظاهرة، وما يدور خلف الكواليس من أمور مستترة، والشعب لن يسكت على التلاعب بمصيره أبداً، مهما تفنن الحاكمون في إبعاده عن حلبة الأحداث).

لقد كانت محاكمة كوهين مهزلة من المهازل، وإهانة لذكاء الشعب في سورية، وفصلاً من فصول الكذب والتزوير الذي ما زال يعم عالمنا العربي حتى الآن، فلقد تجنب كوهين -ولا شك أن ذلك تم بتوصية من المحكمة العسكرية- ذكر أسماء من تعرف عليهم من المدنيين والعسكريين البعثيين، بينما ذكر أسماء بعض من كانوا يمدونه بالمعلومات من موظفي الإذاعة ودوائر الدولة، وذلك لأن الناس في سورية وكذلك وسائل الاعلام العربية كانت تتهم بعض أعضاء المحكمة العسكرية بعلاقاتهم المشبوهة معه، وكان أكيداً ومعروفاً في بعض الأوساط، أن إحدى فتيات كوهين، وهي مضيفة طائرة ورد اسمها في المحاكمة، كانت عشيقة لصلاح الضلي رئيس المحكمة الذي حاول بغباء نفي التهمة عن سليم حاطوم في الوقت الذي كان فيه متهماً هو بالذات، قال الضلي لكوهين:

هل تعرفت على سليم حاطوم في السابق؟

أجاب كوهين: ما بعرفو... ما شفتو...

فقال له الضلي: طلّع عليه، بلكي بتلاقيه هون!

فقال كوهين: بكون رائد على كل حال.. ليكون هذا؟ وأشار الى حاطوم.

قال الضلي: شو أعطاك معلومات؟ إذاعة بغداد بتقول إنك تعرف سليم حاطوم وإنك صديقه وصديق شخصيات كبيرة في البلد.

قال كوهين:

هي أول مرة بشوفو واسألوه إن كان رآني من قبل!

وعندما كال رئيس المحكمة الشتائم للإذاعات وأصحاب الصحف العربية واتهمهم بأنهم عملاء مأجورون، سأل كوهين عن رأيه فوافقه بأنهم عملاء مأجورون بالمصاري.

وكان أخطر ما جاء في أقوال كوهين لرئيس المحكمة عندما نهره قائلاً: اسكت جاسوس.

فأجابه كوهين: أنا مبعوث مو جاسوس.

فوافقه رئيس المحكمة على ذلك قائلاً: أنت مكلف وغيرك مأجور، أنت تقوم بواجبك بس هؤلاء ..

فقاطعه كوهين قائلاً: مأجورون بالمصاري.

في تلك الفترة أجرى الصحافي السوري زهير المارديني، وكان يعمل آنذاك مراسلاً في مجلة الأسبوع العربي التي تصدر في لبنان، مقابلة مع أحمد سويداني رئيس المخابرات في سورية، ولا بد أن تلك المقابلة كان موعزاً بها من سويداني الذي وضع تحت تصرف المارديني ملف التحقيق مع كوهين، وقد وردت في ذلك العدد، نقلاً عن ملف التحقيق، تفصيلات ومعلومات عن قضية كوهين أكثر مما ورد في المحاكمة، ومن المؤسف أنني فقدت ذلك العدد، وكانت النشرة الداخلية للاشتراكيين العرب قد لخصته كالآتي: صرح المقدم أحمد سويداني لمجلة الاسبوع العربي بأن المعلومات التي كان يرسلها كوهين إلى إسرائيل هي:

معلومات عن القوات المسلحة السورية بالتفاصيل

معلومات عن رجالات القطر السوري، وعن كل ما له علاقة بهم وبتصرفاتهم.

معلومات اقتصادية وزراعية وتجارية.

معلومات عن التحويل الاشتراكي.

معلومات عربية عامة.

وقد علقت النشرة على ذلك: إن الجاسوس لم يعترف أمام المحكمة إلا بمعلومات تافهة أرسلها لدولته، وقبلت منه المحكمة أقواله على علاتها، فهل هذا يعني أن المحكمة لم تنظر إلى تحقيقات المخابرات السورية بصورة جدية؟

كما أثبتت النشرة الداخلية للاشتراكيين العرب أوائل عام 1965 بعض أقوال الصحف في ما يتعلق بقضية كوهين:

«إن كوهين قد دخل سورية كمغترب مليونير باسم كامل أمين ثابت وأصبح صديقا مقرباً لقيادة البعثيين عن طريق تغطية النفقات المالية للحزب «المحرر اللبنانية».

»نفت السلطات السورية أن يصبح يهودي بعثياً قيادياً كبيراً، ولكنها أقرت بأن كوهين كان يرسل أسرار سورية، لسنوات، إلى اسرائيل، ووفقاً لإحدى الاشاعات كان كوهين على صلات وثيقة مع ثلاثة من أعضاء المحكمة« «مجلة التايم».

«كان لكوهين أكثر من بيت يستقبل في بعضها من وثق عرى الصداقة معهم، أو فتياته المقربات، وأفرد بيتا خاصا لشؤون التجسس وكانت كل أدوات المطبخ فيه عبارة عن أوعية تضم اللاسلكي الذي يخابر به، وكان يقصر مدة مخابرته إلى ثلاث دقائق على أبعد حد حتى لا تستطيع الدولة التقاط موجاتها» «مجلة الموقف العربي 65/3/4» وهي المجلة التي كانت السلطة تصدرها في سورية عن "مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع"، وقد نشرت في ذلك العدد أيضاً صوراً لما كان يستعمله كوهين من أدوات التجسس.

»قال ضابط سوري شاب: كنا نرى الهدايا الثمينة تخرج من البيت الأنيق متجهة إلى دور بعض النساء والرجال فنتبعها، إذ كان كوهين يرصد المناسبات، فلكل مناسبة هدية»«الاسبوع العربي».

ولقد جرى في الغرب، خلال الثمانينات، نظير هذه القضية عندما استطاع أحد جواسيس ألمانيا الشرقية أن يصبح مديراً لمكتب المستشار الألماني ويلي براندت. ولكن المستشار الألماني تحمل مسؤولية هذا الموضوع مما أدى إلى استقالته.

كتب أكرم الحوراني في مذكراته:

«بعد عشر سنوات تقريباً من اعدام كوهين، وكنت قد أصبحت لاجئاً في بغداد، دعاني رئيس المكتب السوري آنذاك السيد نزار حمدون إلى وليمة غداء في نادي المنصور وكان مدعوا إليها الفريق أمين الحافظ واللواء زياد الحريري والأمين المساعد للقيادة القومية شبيل العيسمي والسيد مصطفى حمدون وعدد آخر من اللاجئين السوريين الى العراق، وعندما قادنا الحديث إلى قضية كوهين روى لنا الضابط محمد وداد بشير، وهو أحد الضباط الذين اشتركوا بالقاء القبض على كوهين، أن عدداً من الضباط قدأشهروا مسدساتهم لينتزعوا كوهين من بين أيديهم بعد إلقاء القبض عليه، ومن الجدير بالإشارة إليه أن هذا الضابط قد اختطف فيما بعد في لبنان، من قبل المخابرات السورية ولا يزال هذا الضابط رهن الاعتقال حتى الآن «كتب هذا القسم من المذكرات عام 1990».

ويتابع الحوراني «لقد كان هدفه الأول الاطلاع على خفايا السياسة السورية من مصادر الحزب والحكم، والقيام بدراسات دقيقة عن تطور الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في سورية، والسعي لتوجيه حزب البعث بما يلائم سياسة اسرائيل في سورية والمنطقة العربية ولذلك لم تقتصر جولاته على الجبهة بل إنه تجول في انحاء سورية وألقى في إحدى جولاته محاضرة في مقر حزب البعث في مدينة إدلب عن أهمية استرداد الأحواز بالنسبة للوطن العربي، قاصداً من ذلك صرف أنظار العسكريين عن الاهتمام بقضية فلسطين وموضوع تحويل نهر الأردن، واعتقد انه لعب دوراً خبيثاً جداً بإثارة النعرات الطائفية والمطامع الشخصية بين فرقاء الحاكمين في حزب البعث».

بتاريخ 1965/5/8 صدر حكم الاعدام على كوهين، وجاء في حيثيات الحكم أن المتهم دخل سورية خلسة عام 1962 حاملاً جواز سفر أرجنتيني باسم كامل أمين ثابت، وأنه حصل على معلومات يجب أن تبقى سرية ونقلها إلى العدو لذلك استحق الاعدام. كما حكمت المحكمة بمدد مختلفة على عدد من المتهمين. وأمرت بإطلاق سراح ثلاثين متهماً بينهم تسع نساء.

إعدام كوهين

وفي فجر يوم الثلاثاء 65/5/18 تم اعدام كوهين شنقاً في ساحة المرجة بدمشق، وحضرت اعدامه هيئة المحكمة وعدد من كبار الضباط والمسؤولين، كما حضر الاعدام حاخام الطائفة اليهودية في دمشق نسيم أنديو يرافقه مختار حي اليهود لتلقين المحكوم الذي طلب قبل إعدامه كتابة رسالة

خطبة لزوجته فسمح له بذلك، ثم تولى الحاخام تلقينه باللغة العبرية، فلوحظ انه يتقن العبادة اليهودية حتى أنه صحح للحاخام بعض العبارات.

وفي صباح اليوم نفسه توافد إلى الساحة عشرات الألوف من سكان دمشق وضواحيها حيث كان معلقاً على صدر كوهين نص قرار المحكمة بالاعدام لارتكاب الجرائم التالية:

جناية دخوله متنكراً أحد "المحلات العسكرية".

جناية الحصول على معلومات يجب أن تبقى مكتومة حرصاً على سلامة الدولة وذلك لمصلحة العدو.

وذكر في نص القرار ان الحكم صدر وجاهياً، وصدق من قبل رئيس مجلس الرئاسة (أمين الحافظ) بتاريخ 1965/5/17، أي بعد عشرة أيام من صدور الحكم، (رغم النداءات الكثيرة التي وجهت في هذه الفترة من أفراد ومؤسسات كثيرة) كما ورد في البيان الذي أصدرته وزارة الخارجية الاسرائيلية التي أعربت عن ذهولها من هذا الحكم. (الحياة 1965/5/19).

نبقى مع أكرم الحوراني في سرده: (بعد أيام قلائل من اعدام كوهين أخبرني العقيد أدهم عكاش -وكان آنذاك مديراً للسجن المركزي في دمشق (سجن القلعة) بهذه الواقعة التي حدثت على الحدود بين سورية ولبنان في منطقة سرغايا، عندما وجد بعض الرعيان جثة مخبأة في كهف فأخبروا مدير المنطقة الذي أجرى تحقيقاً مع السلطات في دمشق حول الموضوع، فتبين ان الجثة هي جثة كوهين وكانت في طريقها إلى اسرائيل عبر لبنان، ولا بد أن الفجر قد فاجأ المهربين فتركوها إلى اليوم التالي، وكان تعليقي آنذاك: لا شك ان تهريب جثة يحتاج إلى عدد من المهربين مما يظهر أن سورية مخترقة بأعداد كبيرة من الجواسيس، بعد هزيمة الخامس من حزيران عام 1967 بعثت قضية كوهين من مرقدها واكتسبت أهمية خاصة فأشادت وسائل الاعلام الاسرائيلية التي وزع بعضها سراً في لبنان، مغفلاً من التوقيع والمصدر، بالدور الهام الذي قامت به الموساد في سورية ولا سيما بالدور الذي قام به كوهين، وقد ركز هذا الاعلام على الفريق أمين الحافظ، مغفلة من عداه من السوريين، وكان غرض الموساد من هذه الاتهامات الكاذبة الاساءة الى سمعة أمين الحافظ والانتقام منه لأنها اعتبرته المسؤول عن إعدام كوهين برفضه كل وساطة لإنقاذ حياته، لقد منحت الحكومة الاسرائيلية بعد هزيمة حزيران أعلى وسام لرئيس الموساد آنذاك وقدم رئيس دولتها لذلك بكلمة أشاد فيها بالدور الذي قامت به المخابرات الاسرائيلية التي كان لها الفضل في تحقيق الانتصار في حرب الأيام الستة، وكانت الحكومة الاسرائيلية قد منحت كوهين بعد موته وساماً مماثلاً وأطلقت اسمه على أحد شوارع تل أبيب، كما نقش اسمه تخليداً له على النصب التذكاري الذي أقامته اسرائيل لعظماء الرجال الذين قدموا لها خدمات كبرى، إن قضية كوهين قد دمغت حكم الثامن من آذار بنظر الرأي العام في سورية مما هدده بالسقوط، بالإضافة الى تناقضات فرقائه، فلم يبق من مجال لاستمراره إلا بقيام أحد الفرقاء الأقوياء بانقلاب عسكري، وهذا ما قام به بعد عام صلاح جديد.)

أنجزت مهمة كوهين الذي تم إعدامه وبدا غير نادم على ما فعله، ولكنه كان حزيناً جداً لأن إسرائيل تخلت عنه، تخلت إسرائيل عن اليهودي الشرقي الرخيص كي تتحق أهدافها في المنطقة وقد تحققت بالكامل بعد سنتين باحتلال الجولان (عدا عن الأراضي العربية الأخرى في فلسطين والأردن ومصر) وبتأخير التنمية والحياة في سوريا وتعطيلها لخمسين سنة قادمة.

النظام الوظيفي

واستمر العمل الحثيث على المزيد من هتك الأواصر المتطورة بين الناس، فبرزت الطائفية والعشائرية والتعصب القومي، على حساب المواطنة والهوية السورية التي كادت أن تستقر، واستبدلت سوريا جشع التجار بفساد الموظفين، وسطوة الأغنياء بسلطة المخبرين.

ويظهر مما سلف أنه لا حاجة لدليل على عملية الزراعة القصدية التي رمت إلى خلق نظام وطيفي في المنطقة، باركته القوى الكبرى، واعترفت به، وتوافقت فيما بعد على تكليفه بمهام معقدة، ليس أقلها تفكيك منظمة التحرير الفلسطينية، والحراك السياسي اللبناني، والقوى المدنية المتطورة في المنطقة العربية من العراق إلى موريتانيا.

أما الواقعية السياسية التي تقول بقراءة الحدث بعيداً عن نظرية المؤامرة، فترى أن البعث قام بالاستيلاء على السلطة في بلد حساس كسوريا، ونفذ المجزرة تلو المجزرة، وخسر حرباً في ستة ساعات دون أن يحرك ساكناً في العام 1967، في عهد وزير دفاع ما لبث أن صحح مسار حزب البعث نفسه واعتقل رفاقه وأبقاهم في السجون، ودخل لبنان كقوة احتلال غيرت المعادلات العسكرية والسياسية والديموغرافية على الأرض اللبنانية، وحارب المقاومة الفلسطينية في بيروت والمخيمات وساهم بشكل مباشر في طرد الفلسطينيين من لبنان إلى منافٍ جديدة، ونصب العمائم والملالي على رأس المقاومة الشعبية في لبنان وعلى حساب اليسار والوسط اللبناني، ودعم الثورة الدينية في طهران، ضد البعث العراقي، وسحق كل من يخالفه الرأي داخل سوريا، ورفض التوصل إلى سلام مع الإسرائيليين، مع وجود ما يسمى بوديعة رابين التي تنص على تعهد اسرائيلي بتوقيع اتفاق سلام إذا قبل الأسد، ولعب بالورقة الكردية ضد تركيا وضد العراق، ولعب بورقة الأقليات في كل الدول العربية التي استضاف معارضاتها بحجة نصرته للثورة المستمرة، ثم ورث الحكم من رئيس جاء بانقلاب إلى ابنه الذي جاء بتعديل دستوري عاجل، وتورط في الاغتيالات السياسية داخل وخارج سوريا من صلاح الدين البيطار إلى بنان الطنطاوي وعشرات السوريين والعرب الذين لم يكن أولهم ولا آخرهم كمال جنبلاط والشيخ صبحي الصالح والمفتي حسن خالد والرئيس رينيه معوض وسمير القصير وجبران تويني ورفيق الحريري...وقصف شعبه بالطائرات والبراميل والمدافع والفوسفور وصواريخ سكود....تقول تلك الواقعية إن هذا النظام نظام مقاوم ممانع عروبي جاء هكذا عفو الخاطر وأن وجوده ضرورة في المنطقة لحفظ التوازن لا سيما ما يتعلق منه بملف الأقليات، التي أيقظ نزعاتها، واستفز بدائية

هوياتها، الكثير من الملفات التي نعمل عليها، لتفكيك دور النظام طيلة خمسين سنة في المنطقة، في قبرص وأميركا اللاتينية وأفغانستان والخليج وغيرها وغيرها.
واقعية كتلك تسخر من عقول وذكاء الناس، وتستخف بالمعطيات التاريخية، ليست سوى واقعية الاستبداد ذاته ■

عصام العطار

انتصار القلوب

"إنّني أُعلِنُ لكم، ولِشَعْبنا كلِّه، بغايةِ الصراحةِ والوضوح، رفضيَ لهذا الانقلاب، ولأيّ حكم دكتاتوريّ عسكريّ أو مدنيّ ينشأ عنه، واستمساكي بالحكم الديمقراطي الدستوري.
وأقولُ لأصحابِ الانقلاب القائم ومَنْ وراءهم، ولكل مواطن عاقل شريف:
إنّ الذين يسلبون شعوبهم حريتَها وإرادتَها وقرارَها يسلبونَها روحَها وحياتَها وكرامتَها وقدرتَها على التحرُّرِ والتقدُّمِ وبناءِ أيِّ مستقبلٍ كريم، ويقتلونَها، ويقتلون حاضرَها ومستقبلَها، وإن ادّعَوْا - واهمينَ أو كاذبين مخادعين - أنهم يُريدون لها الحياة."

عصام العطار
مسجد جامعة دمشق-البرامكة
عقب الانقلاب البعثيّ في الثامن من آذار/ مارس 1963م.

ماذا أقولُ عن سورية؟!
ماذا أقولُ عن أهلنا في سورية؟!
ماذا أقولُ عن آبائِنا وأمّهاتِنا وأبنائِنا وأحفادِنا وكُلِّ مخلوقٍ في سورية؟!
ماذا أقولُ عن القصْفِ والهدْمِ والقتْلِ والجراحاتِ في النُّفوسِ والأجسام؟!
ماذا أقولُ عن ملايينِ المُشَرَّدين والمُهَجَّرين داخِلَ سورية وخارِجَها في أقسَى الظُّروف؟!
ماذا أقولُ عن الجوعِ والبردِ والأمطارِ والثّلوجِ والخيامِ البائسَةِ التي لا تحْمي من حَرٍّ ولا بردٍ ولا مطرٍ ولا سيلٍ يغمُرُ الأرض؟!
ماذا أقولُ ماذا أقول؟!!
ولماذا أقول؟!!
إنّ عُيونَ العالمِ كلِّهِ تَرى مباشَرَةً هذا الواقِعَ المفزعَ الرَّهيب الذي لا يُحيطُ بهِ وَصْف
إنّ آذانَ العالمِ كُلِّهِ تسمَعُ صُراخَ العَذابِ والآلامِ التي لا تَحُدُّها حُدود
ولكِنَّ هذا كُلَّهُ لا يصِلُ واحسْرَتاهُ إلى القُلوبِ والضّمائِرِ في هذا العالمِ العَجيب!
لقدْ تَحَجَّرَتِ القُلوب، وماتتِ الضَّمائِر!

ولكنْ أينَ أنتم أيُّها العربُ والمسلِمون؟!
أَيْنَ أنتم أيُّها العربُ والمسلِمون؟!
لَمْ أستَطِع أنْ أنام وملايينُ عُيونٍ في أهلِنا وبلادِنا لا تعرِفُ النّوم

***

- من خصائص الإنسان المسلم أنّه لا يحبّ الخير لنفسه فقط ، وإنما يحبّه لسائر الناس ؛ ولا يريد أن يَدْرَأَ الشرّ عن نفسه فقط ، وإنما يريد أن يدرأه عن سائر الناس ؛ وهذا ما يوفّر الأساس والمنطلَق النفسيّ والفكريّ للتعاون مع سائر الناس في كلّ ما يدرأ عن العالم كلّه الشرّ ، ويحقّق له الخير.

***

- انتصارُنا الأكبر أن نصل بالحقّ إلى قلوب من يتنكّرون للحقّ ، وأن نردّهم من داخل أنفسهم إلى سواء السبيل ، كما فعل الرسل والأنبياء ومن تبعهم بإحسان.

***

- صدّقوني : الحقُّ قويٌّ جدّاً عندما نجسِّمه بعلم وفهم ، وصدق وحبّ ، وعندما تَشِعُّ أنوارُه من قلوبنا وعقولنا ، وأقوالنا وأفعالنا ، في محيطنا الصغير ، وفي عالمنا وعصرنا ، في مختلف مجالات الحياة .

***

- إياكم وردودَ الفعل الجاهلة العمياء ، فهي قد تُهلكُ أصحابَها ولا تُنصفُهم ، وتميلُ بهم عن طريق الحقّ والشرع فيخسرون الآخرة مع الدنيا.

***

- إذا أردتَ أن تكون نجماً هادياً في هذه الظلمات ، فلا بدّ أن تحترق لِتُضيء ، وأن ترتفع لتكون في السماء ، وأن تتحمّلَ راضياً ما يكلّفك ذلك من الألم والتعب والصبر المرير.

***

- الذي لا يبصر ولا يفهم ولا يستوعب التطوّرات الكبرى والتغيّرات الكبرى في عالمنا وعصرنا على الصعيد العلميّ والتكنولوجيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والأخلاقيّ والسياسيّ والعسكريّ ... لا يعيش في عالمه وعصره ، ولا يستطيع أن يُؤدّي فيه رسالتَه الشاملة الخيّرة على أفضل وجه .

***

- لا تُخطئوا فَهمي ، فقد يكون لإنسان طَيّب بسيط بإخلاصه وصدقه ، واستقامته وخُلُقه ، من التأثير في محيطه الضيّق ، ما ليس لكثير من الثرثارين المتَفَيْهِقين من أدعياء العلم والفهم والإرشاد والإصلاح.

***

- رَذيلةُ الأقوياءِ الظلمُ ، ورذيلةُ الضعفاءِ الْخُنوع ، وهما خَصْلَتان متقابلتان متآزرتان من شرِّ خِصال الإنسان .

***

- لو كان للدول العظمى من قوة الأخلاق ما لها من قوّة السلاح لكان العالم بألف خير.

***

- كلّما عَظُمَ مجرمٌ قُوّةً وبطشاً ، ازدادَ صَغاراً وعاراً ، فأكبرُ المجرمين أحقرُهم وأبغضُهم عند اللّه وعند الناس .

***

- القوّة الحقيقيّةُ أن تحملَ نفسَك على الحقّ وأنتَ قادرٌ على الباطل ، وعلى العدل وأنتَ قادر على الظلم ، وعلى العفو والإحسان وأنتَ قادر على الإساءة والانتقام.

***

- إن لم تعرف هدفك كيف تجدُ طريقك إليه ؟
وإن لم تؤمن به كيف تسعى - ولو عرفتَ طريقَه - إليه ؟
وإن لم يكن عندك العزمُ والإصرارُ كيف تتخطّى العقبات ؟ والفكرُ والإبداعُ كيف تواجه المتغيّرات ؟ والمثابرةُ والصبرُ كيف تتابع المسير ؟ والاجتهادُ والدأبُ كيف تصل إلى المطلوب ؟ والإخلاصُ والتجرُّدُ ، والاستقامةُ والشجاعةُ .. كيف لا تنحرفُ بك المخاوفُ والشدائد ، والأهواءُ والمغرياتُ عن سَواءِ السبيل ؟
أمّا إذا فقدتَ ثقتك بنفسك فإنك لن تقدر بعد ذلك على شيء ، ولن تصلح بعد ذلك لشيء ، فحاذر أن تفقد الثقة بالنفس على أيّ حال من الأحوال.

***

- قلت له :
هل سمعتَ ما قاله فلان ؟ فقد أجبتَه وكأنك لم تَسمعه
- قال لي :
أنا لم أسمعه بالفعل ، ولم أكن مَعْنِيّاً بسماعه ، فقد كنت أُدير في نفسي أمْراً آخر أريد الكلام فيه
تُرى كيف يمكن أن يتفاهم الناس ، وأن يتحاوروا ، إذا كانوا لا يُصْغي بعضُهم لبعض ، ولا يحرصون على فَهْم بعضِهم بعضاً ولو جلسوا للحوار والنقاش.

***

- إن الذين يتكلّمون ويتكلّمون ولا يستمعون ، لا يتعلّمون من الناس ، ولا يعرفون الناس ، ولا يكتسبون محبّتهم واحترامهم ، فلا تَفُتْكُم مَزِيّةُ السماع والإصغاء .

***

- شتان بين حوار منهجّي مخلص يهدف إلى التعارفِ والمعرفة والكشف ، واستبانةِ ما اختُلِفَ فيه من الحقّ ، وبين حوار لا يطلب إلاّ الغَلَبَةَ والنصر بأيّ طريق.

•••

- لا أحدَ أكبرُ من أن يتعلّم ، ولا أحدَ أصغرُ من أن يُعَلِّم .

•••

- إننا نحن المسلمين في خير أحوالنا يخاطب بعضُنا بعضاً فيما بيننا ، ولا نخاطب العالم من حولنا ، ولا نملك بالقدر الكافي ، والمستوى الكافي ، أسبابَ ذلك ووسائلَه الضرورية: من المعرفة والإرادة والبذل ، والتواصل والتفاعل والحوار ، والاختصاصات واللغات المختلفة.

يجب علينا أن نَفْهَم العالم وأن نُفْهِم العالم ، وأن نصل إلى إنسانِه ومجتمعاته - ما قَدَرْنا - بحقائقنا وأفكارنا ومشاعرنا ، وأن نكون - إن قَدَرْنا - قلبَ العالم النابض ، وعقلَه المفكر ، ولسانَه الناطق بالحق والعدل والإحسان والرحمة والخير ؛ فمصائر البشر في هذا العالم قد اتصلت وارتبطت فلا يمكن فصلُ بعضِها عن بعض.

•••

- المسلمُ مَدين في هذا العالم والعصر لِدِينه ، ولنفسه ، ولأمته ، وللبشر جميعاً ، بأن يكشف لهم عن حقائق الإسلام التي طمسها الطامسون ، وغَطّاها المغطّون ، وشوّهها المشوّهون ، وبأن يجتهد بكلّ أمانة وإخلاص ، كُلٌّ حَسَبَ اختصاصه وقدرته في أداء هذا الدَّيْن .

•••

- ما أشدَّ امتزاجَ الخير بالشرّ ، والشرّ بالخير في هذا الدنيا !

المطرُ الذي ينزل من السماء فيه الغيثُ المُحْيي والصواعقُ المهلكة ، ومنه النباتُ والحياة والسيولُ المدمّرة ؛ فلا تنتظر في هذا الدنيا - وهي دارُ ابتلاء - صفواً بلا كَدَر ، ولا خيراً بلا شرّ ، وَوَطِّن نفسَك على هذا وذاك فتلك هي طبيعة الحياة .

مَنْ لَكَ بالْمَحْضِ ولَيْسَ مَحْضُ   يَخْبُثُ بَعْضٌ ويَطِيبُ بَعْضُ ()

•••

- لماذا نُفاجَأُ بأخطاء الناس وأوزارهم وهم ليسوا بالملائكة الذين لا يعصون اللّهَ ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟

ولماذا نُفاجَأُ أحياناً باستقامة الناس وأفضالهم وهم ليسوا بالشياطين الذين يستعيذ من همزاتهم ووساوسهم المستعيذون ؟

مهمّتنا في هذه الدنيا أن نجاهد لِيَغْلِب الحقّ والخير في أنفسنا ، ولِيَغْلِب الحقّ والخير في محيطنا وعالمنا وعصرنا ، وأن نتعاون في ذلك مع سائر الأبرار الأخيار في هذه الدنيا .

•••

- إذا تصورتَ الدنيا خيراً خالصاً صدمك فيها كل شرّ

وإذا تصورت الدنيا شرّاً خالصاً يئستَ فيها من كلّ خير ، أو اتهمتَ فيها كلّ خير

يجب أن نعرف الدنيا كما هي بخيرها وشرّها ، وجمالها وقُبحها ، حتى لا نُصْدَمَ فيها أو نيأس ؛ ولو لم تكن الدنيا كما هي عليه لما كان لنا فيها ِرسالةٌ نؤدّيها ، ولما كانت لنا دار ابتلاء.

•••

- إذا لم تُؤَدِّ دَوْرك في إشاعة الخير ومكافحة الشرّ في مجتمعك وعالمك وعصرك ، فالشرّ سينفذ إليك في بيتك وغرفة نومك ، وسيغالبك ويغلبك في نفوس أبنائك وبناتك وسائر أفراد أسرتك ، ولو اعتزلت العالم والدنيا.

•••

- في نفس كلّ واحد منا - كما يقول الغربيون - الدكتور « جيكل » الطيب ، ومستر « هايد » الشرّير الخبيث ؛ ولكن يبدو أن الهيمنة في الأنفس والعالم هذه الأيام إنما هي للشرير الخبيث مستر « هايد » وليست للطبيب الطيّب الدكتور « جيكل » .

•••

- مسكين هذا العالم ! ما تزال تجتاحُه الحينَ بعدَ الحين عواصفُ البربرية القديمة المتوحشة ؛ ولكنْ بقدرة أكبر على الإبادةِ والتدمير ، والخداع ِ والتمويه ، والكذبِ والتزوير.

•••

- كم سحقَ الطغيانُ تحت أعيننا ، على امتداد حياتنا ، من حقيقةٍ من الحقائق ، وفضيلةٍ من الفضائل ، وشعبٍ من الشعوب، وجماعةٍ من الجماعات ، أو فردٍ من الأفراد !! ..

ويْلٌ للإنسانِ من الإنسان !

•••

- أيُّ صَغارٍ للإنسان أَخزى من أن يُلَوّثَ البيئة ، ويزيدَ حرارة الجوّ ، ويسهم في تغيير المناخ ، ويَسْتنفِدَ ثرواتِ البرّ والبحر ، ويهدّدَ الحياةَ والأحياءَ ومستقبلَ الأجيال .. ليملأَ جيوبه بمال أوفر ، ويصل إلى مُتَع ٍ أكثر ، ومَلَذّاتٍ أغْرَبَ وأَفْجَر ، وهو غارق إلى أذنيه في المتع والملذات ؟!

•••

- لقد مَزّقْتُ في الشهور الأخيرة صفحات وصفحات مما كتبت ، ومزّقتُ معها شيئاً من قلبي .. فقد كان فيها بعضُ قلبي ؛ ولكنني أشفقتُ أن تزدادَ القلوبُ بها حُزْناً إلى حزن ، والآفاقُ ظلاماً إلى ظلام.

•••

- لا سلاحَ أمضى من سلاح العلم ِ والفكر.

ولا كلمةَ أقوى من كلمة الحقِّ والصدق.

ولا ملاذَ آمَنَ من ملاذِ الإيمان ِ والصبر.

ولا واحةَ أندى من واحة الأُخُوّةِ والحب.

ولا مَطْلَبَ أسَنَى من رضا اللّه وثوابه عزَّ وجلّ.

...

- أنا لا أحلُم بأجيال تقتفي أثرنا وتتبعنا ؛ ولكن بأجيال تتجاوزُنا ، وتحلّقُ فوقنا ، وتبلغُ ما لم نبلغ من القِمَمِ والآماد.

...

- حرّك جَناحَيْكَ يا أخي وحلِّق ؛ فالرغبةُ ، والعزيمة ، والمحاولة الصادقة ، والتجربة العملية ، هي التي تعرّفُك بنفسك وإمكاناتك ، وترتفع بطاقتك وقدرتك إلى أبعد مدىً ممكن ، وتكشف لك ما تستطيعُ وما لا تستطيع .

...

- ما لا تستطيعُه اليومَ قد تستطيعُه غداً أو بعدَ غدٍ بالإرادة والجهد والصبر ، والأخذِ بالوسائل والأسباب .. وعونِ اللّه عزَّ وجلَّ إذا أخلصتَ وصدقت ، وقدّمتَ كلّ ما تطيق.

...

- عندما توجَدُ الإرادةُ الواعية الصادقة يوجَدُ الطريق الموصل
وعندما يوجدُ العملُ الخالصُ الدائبُ البصيرُ توجَدُ الثمرةُ الطيبة المنتظرة .. مهما كانت العوائقُ والمصاعبُ ، ومهما امتدَّ أو اشتدَّ الزمان ؛ فلا تفقدوا الأمل أبداً في مستقبل أفضل.

...

- قال لي مُبَرِّراً انصرافَه عن العمل الإسلاميّ إلى شؤونه الخاصّة وحدها :
لا فائدة من متابعة العمل والجهد .. إنّنا لن نستطيع أن ننهض بأعبائنا ومسؤوليّاتنا الإسلامية في عالمنا وعصرنا بحال من الأحوال ، فهي أعباء كثيرة كثيرة ، ثقيلة ثقيلة ، خطيرة خطيرة .. لا يقوى على حملها أحد
- قلت له :
احملْ أنت يا أخي من الأعباء والمسؤوليات ما تُطيق ، ودع الباقي لسواك ؛ ولو حمل كلُّ واحد منا من الأعباء ما يُطيق لخفَّ العِبْءُ على الجميع ، وتَفَتَّتَتْ هذه الجبالُ التي تجثِمُ على الكواهِلِ والصدور ، وتخنُق العزائمَ والآمال ، وتقتُلُنا باليأس والإحباط

...

- أرأيتَ لو مرض - لا سمح اللّه - ولدٌ من أولادك ، أو حبيبٌ من أحبابك ، مرضاً طويلاً عسيراً خطيراً لا أملَ في شفائه .. أكنتَ تتخلّى عنه ، وتنفض يدَك منه ؛ أم تستمرّ تبذلُ له - رغم يأسك من حالته - ما تستطيع وما لا تستطيع من مالٍ وجهد ؟
لو كان حبّك لدينك وأمتك كمحبّتك لِصَفِيِّك وولدك، لما تخلّيتَ عنهما، أو قصّرتَ في العمل لهما ، والبذل فيهما ، ولو حلّ بجسمك التعب ، وخالط نفسَك اليأس .. وإن كان اليأس والإيمان لا يجتمعان

...

- لا يسأل مؤمنٌ صادقٌ واعٍ نفسَه أبداً هذا السؤال :
هل أعمل أو لا أعمل ؛ ولكنه يسأل نفسه بإلحاح واستمرار :
كيف أعمل بشكل أصوب وأفضل وأنجع ، وكيف أرفع نفسي وعملي إلى مستوى إسلامي ومهمتي ، وعالمي وعصري ، وحاجات الإسلام والمسلمين ، والإنسانية والإنسان ، في هذا العالم والعصر

...

- كلّما اشتدّ الظلامُ ازدادتْ مناراتُ الهداية ضِياءً وتألّقاً
وكلما عمَّ الفسادُ ازدادَ الإصلاحُ ضرورةً وقِيمةً
وكلّما عَظُمَ الخطر ، وعظُمت المشقّة ، عَظُمَ العملُ فضلاً وثَواباً في الدنيا والآخرة ، وانكشفتْ به حقائقُ الرجال ، ومزايا الرجال

...

- عندما تنغلق أبوابُ الأرض تنفتحُ أبوابُ السماء ، ويتطلّع الإنسان بقلبه ونظره وأمله إلى خالق السماء والأرض ، فيأتيه - إذا صَدَقَ غايةَ الصدق ، وبذل غايةَ الجهد - عونُ ربِّهِ عزَّ وجلّ ، ويَنْشَقُّ له طريقُ الفرج والخلاص والفوز .. من حيث يحتسب ولا يحتسب

...

- عندما أرى وأسمع على شاشة التلفزيون صرخاتِ الأمهاتِ الثكالَى ، والأزواجِ الأيامَى ، والأطفالِ اليتامَى .. واستغاثَتَهُنَّ بحكّام العرب والمسلمين .. وأرى أحوالَهُنَّ البائسات ، ودموعهنَّ النازِفات ، وآمالهنّ الكاذبات .. أتذكّرُ الشهيدة العظيمةَ أمَّ أيمن رحمها اللّه تعالى ، وكلمتَها التي وجّهتْها من أعماق قلبِها وخِبْرَتِها وآلامها .. إلى الأخوات الفلسطينيات في « تَلّ الزعتر » أيامَ مذبحة تلّ الزعتر سنة 1976م ، وقالت لهنّ فيها :
- « لماذا تَسْتَنْزِفْنَ دموعَكُنَّ ، وتُمَزِّقْنَ حَناجِرَكُنَّ - أيّتها الأخوات الفلسطينيات - بنداءِ حكّامِ العرب والمسلمين ؟! .. أما علمتُنَّ بَعْدُ أنَّ « المعتصم » لم يَعُدْ له وجود ، وأنّ نَخْوَةَ « المعتصم » قد ماتتْ من زمن بعيد ؟! »
وأسأل نفسي :
- ما عساها أمُّ أيمن كانت تقول الآن لو امتدتْ بها الحياة ، ولم تُستَشْهَد على يد الظلم والبغي والإجرام في هذه المدينة « آخن » .. ما عساها كانت تقول ، وما عساها كانت تكابد وتعاني ، وهي ترى ما نرى ، وتسمع ما نسمع ، من المآسي ومن الصرخات ، ومن ضروب القتل والتنكيل والتعذيب ، الذي لا يرعى حُرمَةَ كبير أو صغير .. رجل أو امرأة .. مُقاوِمٍ أو مُسالِم .. والذي يصل إلى الأطفال في دروبهم ومدارسِهم، وفي بيوتِهم ، وغُرَفِ نومهم، وأحضانِ أمهاتِهم .. كيف كان يمكن أن تصبر على ذلك كله ، وأن تسكت عن ذلك كله ، وهي التي كانت تقول - صادقةً فيما تقول - :
- « ما سمعت بطفل من أطفالنا أو شابٍّ من شبابنا استشهد في سبيل اللّه إلاّ تصورتُ أنّني أمّه وأنّه

ولدي ، وأحسستُ لفقده بمثل إحساس الأمِّ الرؤومِ لفقد ولدها البار »

وتقول :

- « يا إلهي ! كيف يستطيع إنسان أن يقتل إنساناً آخَرَ بغير حقّ ؟! وكيف يستطيع إنسان أن يُعذِّبَ إنساناً مهما كانت الأسباب ؟! »

رحم اللّه « بنان » ، فقلَّ أن يجود بمثلها الزمان ، وبعث نَخوةَ العروبة والإسلام الميتّةَ في نفوس الشعوب والحكام من جديد ، وفرّج عن إخوتنا وأخواتنا في فلسطين وفي كلّ مكان ، ونصر بقدرته الحقّ على القوة ، والخير على الشرّ ، وهدانا وهدى البشر جميعاً سَبيلَ الرشاد والعدالة والسلام

* * *

- قال لي أحد القراء :

هل تختلفون مع الولايات المتحدة الأمريكية في شعاراتها وقيمها ، وهي ترفع شعارات الحرية والمساواة وحقوق الإنسان .. ؟

- قلت :

إننا لا نختلف مع هذه الشعارات وإن اختلفنا في بعض مضامينها

أما خلافُنا الأساس مع الولايات المتحدة الأمريكية فهو في ممارساتها العملية ، وتطبيقاتها الفعلية المباينة لهذه الشعارات .. وماذا تفيد الشعارات الجميلة ، والعناوين الجميلة ، والأسماءُ الجميلة .. إذا ناقضتْها أو خالفتْها المسمّياتُ والمحتويات ؟ .. وهل يبدّل في حقائق الأمور شيئاً أن تضع على كأس العَلْقَم بطاقةَ السُّكّر ، وعلى السمِّ القاتل اسمَ البَلْسَم ؟ .. وكذلك هي شعارات الولايات المتحدة الأمريكية وممارساتها ؛ فكم انتهكت من حقوق الإنسان باسم حقوق الإنسان ، ومن الحريات باسم الدفاع عن الحريات ! .. وكم تعدَّدَتْ في مواقفها وتصرفاتها الموازينُ والمقاييس ، وكابرتْ في الحقائق البيّنة أو الملموسة أظْهرَ ما تكون ! .. وكم أسكرتْها نَشْوَةُ القوّة وكبرياؤها ، فعاملتْ غيرَها من الدول والشعوب باستكبار واستعلاء واستهتار ، وألحقتْ بها ضروبَ الأذى وألوانَ الهوان

- يا قارئي العزيز :

نحن لا نختلف مع الولايات المتحدة الأمريكية في شعاراتها وقيمها ، وإن اختلفنا في بعض المضامين ، إنّما خلافُنا الأساسُ معها .. إنما هو - غالباً - في الممارسات والتطبيقات ، ولو أن الولايات المتحدة الأمريكية وفَتْ لشعاراتها وقيمها التي تعلنها ، وجَسَّمتْها بأمانةٍ وصدق ، لما كان لها عند أكثر الأمم والشعوب إلاّ المحبة والتقدير.

* * *

- عالَمُنا اليوم عالَم عجيب غريب .. أتصوّره أحياناً مخلوقاً أُسطورياً عجيباً نَمَتْ غرائزُه وأطرافُه وقُواه الماديةُ الهائلة ، وتَقَلَّصَ قلبُه وإيمانُه وضميرُه ومشاعرُه الإنسانية السامية ، وصار عقلُه المدهش في خدمة غرائزه وشهواته وأهوائه الهابطة .. بدل أن يكون هو الدليل والقائد والموجّه

لقد امتدّ بصرُ الإنسان بعيداً بعيداً في كل مجال ؛ ولكن طُمِسَتْ بصيرتُه ، وعظُمتْ معرفتُه وإمكاناتُه على كلّ صعيد ؛ ولكن تضاءلتْ حكمتُه ، واعْتَلَّتْ إنسانيّتُه ، وخَبَثَ روحُه ، وفَسَدَ خُلُقُه

هذا المخلوقُ الأسطوريّ الفظيع الذي يزدادُ كلَّ ساعة معرفةً وقدرةً ، وشرّاً وخطراً .. سيقضي في النهاية على نفسه وعلى غيره من المخلوقات ، ما لَمْ يتدارَكْه اللّهُ برحمته وهدايته وعونه ، وما لم يتمكنْ أصحابُ القلوبِ والضمائر والعقول الراجحة ، والرُّؤَى الإنسانيةِ والأخلاقيةِ السامية ، والإيمانِ والإخلاصِ والشجاعةِ والتضحيةِ .. من أن يَرُدّوه بتكاتفهم وتعاونهم ، وعملهم الدائب البصير .. إلى سواء السبيل

* * *

- نحن لا نحارب الإنسانَ في أيّ مكان ؛ ولكننا نحارب من أجل الإنسان ، وهداية الإنسان ، وحرية الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وخيره في دنياه وآخرته على كل صعيد .. عربيّاً كان أو عَجَمِيّاً ، شرقيّاً كان أو غربيّاً .. وكلُّ إنسان يشعر بإنسانيتهِ بصدق ، وبمسؤوليته الخطيرة عن نفسه ، وعن سواه من البشر وسائر المخلوقات .. هو شريكُنا في العمل ، وحليفنا في الكفاح

* * *

- إذا لم يكن للإنسان في حياته هدف عظيم يتجاوز عُمُرَهُ المحدود .. فهو حَشَرةٌ تافهة ؛ فالحشراتُ أيضاً تأكل ، وتشرب ، وتمارس الجنس ، وتتناسل وتتكاثر ، وتُغنّي وتطرب كالبشر .. ألم تسمعْ مرَّة غناءَ الذباب والصراصير ؟!

* * *

- عندما يتعلّق الأمر بمصير الإنسانية والإنسان .. ترخصُ كلُّ تضحية ، ويَهون كلُّ جهد لإنقاذ الإنسانية والإنسان .. وهما الآن في أشدّ خطر

* * *

- أَحْسِنْ إليَّ أو أَسِئْ إليّ .. فأنا أعبد اللّه عزَّ وجلَّ بالشكر على الإحسان ، وبالعفو عن الإساءة .. إلاّ أن يتعلّق الأمر بحقّ من حقوق اللّه عزَّ وجلَّ -كما علّمنا رسولُ اللّه (ص) - أو بمصلحة مشروعة ظاهرة من مصالح الناس

* * *

- كم مرّ بنا - نحن الشيوخ - في ماضيات أيامنا ، على امتداد تجاربنا وأعمارِنا .. من خيرٍ وشرّ ، وعُسْرٍ ويُسر ، وفرحٍ وحزن ، ووفاءٍ وغدر ، وأمن وخوف ، وهزيمة ونصر ، وقوة وضعف ، وصحة ومرض ، ولذّة وألم ، وإقامة وسفر ، وفقدِ أحبابٍ واستقبالِ أحباب ، وتقلُّبٍ بين الصبا والشباب ، والكهولةِ والشيخوخة ، والشهرةِ والعزلة ، والمدحِ والذم .. كل ذلك مضى كأنّه لم يَكُنْ قطُّ .. لم يبقَ منه إلاّ صِلَةٌ صادقةٌ باللّه يَأْنَسُ بها القلب ، أو عملٌ صالح يُرْجَى به مرضاةُ اللّه عزَّ وجلَّ .. أو ذنوبٌ تُؤَرِّق أيامَ المذنبينَ الأخيرة ، وتُفْسِدُ آخرتَهم .. إن لم يشملهم اللّه برحمته ، ويَتَغمّدْهُم

بعفوه ومغفرته .. فيا أخواتي وإخوتي : لا يَشْغَلَكُمُ الزائلُ عن الخالد ، ولا تُلْهِكُم الدنيا عن الآخرة ، فما أسرعَ ما تتصرّمُ الحياة الدنيا ، وتجدون أنفسَكم أمامَ آخرتِكم ومصيرِكم وجهاً لوجه

•••

- لقد مات إخوةٌ لي وأصدقاء وأحباب ، ما وَفَّيْتُهُمْ في حياتهم ما أَسْدَوْهُ إليَّ من جميل ، وما أَدَّيْتُ إليهم حَقَّهم من الشكر ، وكم ندمتُ بعدَ رحيلهم - حيثُ لا ينفع الندم - أنّني لم أُفْصِح لهم وهم أحياء عمّا لهم في قلبي من المحبّة والتقدير والعِرفان .. وسأموتُ - كما يموتُ كلُّ حيّ - وهناك إخوة وأصدقاء وأحباب .. أعطوْني من محبّتهم ، وَأَسْدَوْا إليَّ من عَوْنِهِمُ الكثيرَ الكثير ، ولم يعرفوا ما لهم في نفسي من الحبّ ، ولم أستطع أن أردّ لهم بعض ديونهم عندي

فيا إخوتي الذين باعد بيني وبينهم المكان ، وحالتْ بيني وبين لقائهم أو الحديث إليهم الظروف .. ويا إخوتي الذين أعيش معهم ويعيشون معي في هذه البلاد .. إنّ قلبي ليفيضُ لكم جميعاً على البعد وعلى القرب بالمحبّة والشكر والدعاء

ويا أيها القراء الأعزاء .. بادروا إلى إظهار ما في قلوبكم من المحبّة الصادقة ، التي لا رياءَ فيها ولا نفاق ، لبعضكم بعضاً ، وإلى شُكر كلِّ من أسدَى إليكم يداً ، أو قام بعمل صالح لخدمة المجتمع والناس ؛ فليس في هذه الحياة ما هو أَنْدَى على القلوبِ من صادقِ الحبّ ، وليس في الأخلاق ما يسمو على إسداءِ الجميل ، والاعترافِ بالجميل ، والشكرِ الخالص على الجميل .. ولا تُؤَجِّلوا ولا تتردّدوا ، فأنتم لا تدرون متى تنتهي بكم أو بمن تحبّونهم الأعمار ، ومتى يرحل عنكم الآباءُ والأمهات ، والإخوةُ والأخوات ، والأصدقاءُ والأحباب

•••

- إن لم يكن هناك تخلّف يؤلمنا فنثور عليه ، وظلم يُرْمِضُنا فنثور عليه ، وفساد يُؤَرِّقنا فنثور عليه ، وفُرقة تُمزِّقنا فنثور عليها ، وهزيمة تُذلنا وتُعذّبنا فنثور عليها وعلى أنفسنا .. كيف يمكن أن يكون هناك تحوّل وتقدّم وإصلاح وصلاح ووحدة وانتصار ؟!

•••

- التحدّيات الكبرى تهوي بناس إلى الحضيض ، وترتفع بناس إلى السماء ؛ فمن أيّ الصنفين نحبّ لأنفسنا أن نكون ؟!

•••

- هل تشعر عندما يُظْلَم أيُّ بريء أنّك أنت المظلوم ، وعندما يستغيث أيُّ مُسْتغيث أنك أنت المقصود ، وعندما تغرق البلاد في البؤس والفساد ، ويهرب الناس من حمل المسؤوليات والتبعات ، أنّك أنت المسؤول ؟

إن كنت تشعر بذلك حقّاً وصدقاً ، فأنت مرْجُوٌّ لقيادة البلاد والعباد ، أو الإسهام في قيادة البلاد والعباد ، إلى الخلاص والنجاة ، والعدالة والإصلاح ، والنهضة الحقيقية المأمولة ، إذا استكملت ما ينقصك من الصفات والمؤهّلات والوسائل ، وأخذتَ الأمور بقوّة وجدّ ووعي وصدق وإخلاص

•••

- كم هي موجعةٌ مفزعةٌ مخزيةٌ هذه الحقيقة :

كثير من الناس الذين تتبايَنُ ظواهرُهم وشعاراتُهم وانتماءاتُهم ، يتفقون في دخائلهم ومقاصدهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فكلّهم يطلب في دخيلتة الدنيا ، وإن اختلفت الأشكال والألوان والأقوال

•••

- ما أحوجنا إلى الصدق في القول والعمل ، واستواء الظاهر والباطن ، أمامَ أنفسنا ، وأمام ربنا ، وأمام الناس ؛ وما أقلّ الصادقين الصادقين!

•••

- كيف توقِدُ شُعْلَةَ الحماسة في النفوس إذا كانت جوانحُك لا تنطوي إلاّ على رماد ؟!

•••

- القُدْوَةُ الصالحة تخاطب الناس بلا حروف ، وتنفذ إلى قلوبهم بلا وسيط ، وتَحفِزُهم من داخل أنفسهم إلى أَقْوم الأخلاق ، وأفضل الأعمال

•••

- لسانُ الصدقِ والإخلاصِ والأسوةِ الحسنةِ أبلغُ لسانٍ وإنْ لم ينطق بكلمة واحدة

•••

- ليست القضيّةُ قضيّةَ معرفةٍ وبيانٍ فحسب

إذا لم تسبق إلى العمل بما تدعو إليه ، فلن يكون لكلامك المنفصل عن القدوةِ الصالحة ، والعملِ البصير ، أيُّ تأثير

•••

- ما أصعبَ السَّيْرَ في طريق الحقّ والواجب ، والصبرَ على آلامه ومآسيه وتَبِعاتِهِ الثِّقال ، لمن كان لا يرجو اللّهَ واليومَ الآخِرَ ، ولا يذكرُ اللّهَ كثيراً

•••

- إذا تَحوَّلت العاطفةُ من دافع إلى قائد ، فانتظر في مثل ظروفنا الراهنة ألوان الضياع والضلال والبلاء

•••

- إننا لا نطلب الحريةَ لأنفسنا فقط ؛ ولكننا نطلبها أيضاً لسائر الناس ، ولا نخاف مُقارَعَةَ الرأْيِ بالرأْي ، فنحن لا نَنْشُدُ الْغَلَبَةَ ، وإنما ننشد الحقّ والصواب

•••

- الحقُّ نور ، والباطلُ ظلام ، ولا يمكن أن ينتصر الظلامُ على النور . ومهما طالت جَوْلَةُ الباطل ، وطَغَىٰ وبَغَىٰ ، فلا بدَّ أن يضمحلّ : ﴿ ... وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : 24]

• • •

- ما أكثر من يَحْدُو بك إلى الغاية البعيدة ، ولا يدلّك على الطريق ، أو لا يعرف الطريق
وما أكثر من يحدو بك إلى الغاية البعيدة ، وهو قاعدٌ لا يشاركك السَّعْيَ ، ولا يكون لك أو معك القدوةَ الصالحة ، والدليلَ البصير

• • •

- إذا لم تجاهد في اللّه حقّ الجهاد ، لترتفع إلى مستوى رسالتك التي تَزْعُم ، فأنت منافق كذاب ، وكيف تكون صادقاً إذا رضيتَ مكانَك في الحضيض ، وكانت رسالتك المزعومة في السماء

• • •

- يتوهَّمُ بعضُ الناس أنَّ الواقع العربيّ والإسلاميّ الراهن يحتاج بعضَ الضِّمادات والعلاجات ، وبعض العكاكيز ليقف على قدميه ويستأنف المسير! ..
ولكن ما فائدة هذا الوقوف المُتَرَنِّح ، والمسير المتعثِّر البطيء ، الذي تُلفظ معه أو بعدَه الأنفاس ، في عالم ينطلق إلى أبعد الكواكب ، ويتحرّك بسرعة الضوء ؟!
إننا نحتاج روحاً جديداً ، وفكراً جديداً ، وعزماً جديداً ، وأجيالاً جديدة تَرُدُّ على الإنسانية كلِّها إيمانَها وكرامتَها ، وقِيَمَها الجديرة بها ، وطاقتَها وقدرتَها على أداء رسالتها التي خُلِقت من أجلها ، وعلى التقدّم والسموّ المستمرّ المتجدِّد على كل صعيد

• • •

- كم ذا أضيق ببعض الزواحِف البشرية التي لا ترفع عيونها ورُؤاها أبداً إلى السماء ، ولا تنظر إلاّ إلى التراب وديدان التراب

• • •

- كيف يمكن أن يكون في العالم الإسلاميّ تطوّر وتجدّد وتقدّم إذا خلا من الأعلام المجتهدين المجدّدين في مختلف جوانب الحياة .
- الاجتهادُ والتجديد والتطوير الحقيقيّ يحتاج إخلاصاً وعلماً وفكراً وإبداعاً ، وسائرَ ما ذكره الأقدمون من الشروط ، ويحتاج أيضاً شجاعةً وصبراً وتضحيةً لا تعرف الحدود.

• • •

- المجتهد المجدّد العظيم لا تصنعه الأيدي الخارجية بمقدار ما يصنعه إيمانُه وغيرتُه وشجاعتُه ، وشعورُه بالمسؤولية الدينية والاجتماعية والإنسانية ، ورؤيتُه الواضحة لحاجات أمته وبلاده وعالمه ، وحاجات الحاضر والمستقبل ، وجهودُه الدائبةُ الصادقة في طلب الحقّ والصواب

• • •

- كم عانى المجتهدون المجدّدون - وكم يعانون - من أصحاب النظرات المحدودة الضيّقة ، والعقول الجامدة القاصرة ، والنفوس المريضة الحاسدة ، وكم كان بينهم من ضحايا!

• • •

- ما أكثر المقلِّدين في ثياب مجدِّدين ، والجهلاء المجتهدين على غير أساس من الأمانة والكفاية والرؤية الصحيحة للأمور .. وما أشدّ البلاء بهؤلاء في هذه المرحلة الخطيرة من حياة المسلمين!

• • •

- المجدِّدون الزائفون .. يكذبون وهم يدَّعون أنّهم يصدقون ، ويُضِلّون وهم يدّعون أنّهم يَهْدون ، ويَهْدمون وهم يدّعون أنّهم يبنون ، ويقودون إلى الهلاك المادّيّ والمعنويّ وهم يدّعون أنّهم يقودون إلى الحياة الكريمة والمستقبل الكريم .

• • •

- أكبر الخطأ أن تقعد عن الحركة والعمل مخافةَ الخطأ ، أو أن تتحرّك وتعمل وأنت لا تبصر الهدف ، ولا السُّبُل الموصلة إلى الهدف ، ولا تملك لذلك القدر الضروريّ من المؤهّلات .

• • •

- كيف تصل إلى هدفك المنشود - مهما اجتهدت وتعبت - إذا أخطأت الطريق الصحيح الموصل ، أو عجزت عن مواجهة عقباته ، ومتابعة المسير ؟!

• • •

- ما أكثر الذين باعدتهم خطواتُهم الخاطئة عن أهدافهم ، وأوردتهم موارد الضياع والهلاك

• • •

- شَتَّانَ بين حَذَرٍ يحمي العمل ، وحذر يُقْعِدُ عن العمل ، الأوّلُ فضيلةٌ نافعة، والثاني رذيلة ضارة من أقبح الرذائل

• • •

- كم ذا أرثي لرجال كبار ، جَمَدَت حياتُهم عند نقطة مضيئة في سالف أيامهم ، وقفوا عندها واستوقفوا غيرهم ، وقد تخطّاها الزمان ، ولم يعد يهتمُّ بها أكثر الناس!
وكم أُعْجَبُ بالذين ينظرون بقلوبهم وعقولهم ، وآمالهم وجهودهم ، إلى المستقبل ، ولا يحبسون أنفسهم في ماضيهم ، وإنْ جلَّ هذا الماضي ؛ بل يتجاوزونه باستبشار واستمرار ، ولا يأخذون منه إلاّ الدروس والعبر ، لصنع ما هو أسمى وأبقى ، وأجملُ وأكملُ من الأعمال

• • •

- ما أعظم أن يموت الإنسان من أجل مبادئه ، وأعظمُ وأصعبُ وأجدى ، أن يعيش من أجل هذه المبادئ ، وأن يهبها حياتَه كلَّها .

• • •

- عندما تتجسّدُ المبادئ في ناس على مستواها يكون التغيير والتطوير والتحسين
- أمّا المبادئُ التي لا تتجسّدُ في شُخوص حيّة فاعلة ، فلن يكون لها في ذلك أثر

• • •

- إذا لم تتحرّر من هذا السؤال :
- ماذا يقول عني الناس ؟
غدوتَ عبداً رقيقاً للناس ، ولما يقولونه ، أو يمكن أن يقولوه ..
- إسأل نفسك :
ما هو أرضى لله ، وأنفع للعباد ، في المعاش والمعاد؟
فإذا استبان لك وجه الحقّ والمصلحة ، فامْضِ ولا تُبالِ بما يقوله عنك الجهلاء ، أو تقوله الأهواء

• • •

- أصلحْ ما بينك وبين نفسك ، تكُنْ أقدر على إصلاح ما بينك وبين الناس

• • •

- ما أسهلَ الإصلاح بين الناس إذا كان بينهم الحبّ ، وما أصعبه إذا كان بينهم البغضاء

• • •

- عظماؤنا الغابرون لهم أخطاؤهم وجوانب ضعفهم الإنسانية أيضاً ، فالعصمةُ المطلقةُ ليست لمخلوق ، ونحن لا نأخذ منهم إلا ما وافق الحقّ والصواب ، وطابق الشرع والعقل

• • •

- صوابُ العالم المؤتمن يهتدي به أُلوف ، وغلطُه - والغلط من طبيعة البشر - قد يضلُّ به أُلوف ؛ فلا بدّ من العلم والوعي والحذر فيما نأخذه أو ندعه في مهمات الأُمور

• • •

- عندما يتّحدُ في نفس الإنسان الإيمانُ الصادق ، والعلمُ والفكرُ والإرادةُ والشجاعةُ والعمل .. تتفجّرُ في نفسه طاقات وإمكانات كبيرة جديدة ، ويترك فيمن حولَه ، وفيما حولَه أبلغ الآثار ، وأنفع الآثار

• • •

- أنا لا أيأس أبداً
إنّ أيامَ الشدّة هي التي تولد فيها إرادةُ الكفاح ، وأيامَ الهزيمة هي التي تولد فيها إرادة النصر ، وأيام اليأس هي التي يولد فيها نورُ الأمل .. وليس أشَدَّ من شِدَّتِنا ، ولا أَمَرَّ من هزيمتنا ، ولا أكثرَ من دواعي اليأس في حياتنا ؛ فلا بدّ بعد هذه المعاناة الطويلة الأليمة ، والليل المظلم المظلم ، من أن يبزغ لنا وبنا - إن شعرنا بمسؤوليتنا ، ونهضنا بواجبنا - فجرٌ جديد لنا وللإنسانية والإنسان

• • •

- لا تيأسْ أبداً ؛ فالدنيا كلُّها قد تظلم بسحابة يأس ، وقد تضيء بومضة أمل
فَكَمْ أَشْرَقَتْ دُنْيا لِمُقْلَةِ آمِلٍ   وَكَمْ أَظلمتْ دُنيا لمقلةِ يائِسِ

• • •

- إبتسمْ .. إبتسم ؛ فالدنيا كلُّها قد تُضيء ببسمة حبّ ، وقد تُظلم بعَبْسَةِ كراهية

• • •

- يُعْرَفُ الصادقُ من الكاذب ، عندما تتعارضُ دنيا الْمرْءِ مع آخرته ، وتفترقُ منفعتُه عن عقيدته ، ويختلفُ هواه عن واجبه : هل يُؤْثِرُ العقيدة والواجب ، أم يؤثر المنفعة والهوى؟.. وما أكثرَ من يؤثرون المنفعة والهوى بواقعهم ؛ وإن بَقُوا ، أو بقيَ بعضهم ، مع العقيدة والواجب بالدعوى والكلام

• • •

- ينزل بالمؤمن أحياناً من البلاء ما ينتظر وما لا ينتظر ، وما يحتمل وما لا يحتمل ، بما جنت يداه ، وبما لم تجن يداه ، فعليه أن يصبر ويحتسب ، ثمّ يصبر ويحتسب ، وأن يتابع خُطاه ، مهما ثَقُلَتْ خطاه ، على طريق الحقّ والواجب ، راضياً بقضاء اللّه ، مؤمناً بعدالة اللّه وحكمة اللّه ، فأمرُ المؤمن كلُّه له خير ، كما أخبر رسولُ اللّه
() من أُرْجوزة لأبي العتاهية ، والمحض : الخالص الذي لا يشوبه شيء يخالطه ■

* هذا المقال من كتاب قيد النشر

صادق جلال العظم

"الربيع العربي" والانتفاضة الشعبية السورية على نظام الاستبداد

الديمقراطية والعلمانية، الإسلام والحداثة والمثقفون والثورة

اسمح لنفسي أن أبدأ بالكلام قليلاً عن نفسي. كثيراً ما سُئلت ما إذا كانت الانتفاضة الشعبية في سوريا على نظام الاستبداد وحكمه وفساده قد فاجأتني أم لم تفاجئني؟ جوابي هو نعم ولا في وقت واحد. نعم، فوجئت بتوقيت اندلاع الانتفاضة مع تخوف كبير في البداية من احتمالات قمعها بسرعة بسبب مما أعرفه عن صلابة المنظومة الأمنية السورية وشراستها القمعية وتغلغلها في مسامات الجسم السوري وتحكمها اليومي بجميع حركاته وسكناته تقريباً. شكّل هذا الواقع عندي (وعند غيري) نوعاً من عقدة النقص الراسخة بالعجز أمام النظام العسكري الأمني الكلي وسطوته، كما أدى إلى استبعاد أية فكرة أو حتى احتمال لقول لا (فردية أو جماعية) كبيرة له. داريت عقدة النقص في داخلي بالتكيف اليومي البطيء مع هذا الواقع الأمني-الاستبدادي المرير والضاغط دوماً، كما داريتها بالاستبطان الجيد لقواعد وأصول التعامل معه بكل ما تتطلبه من نفاق وتظاهر بالتصديق والقبول والتكتم والتقية والتلاعب بالكلمات والتحايل في مواجهة القوة العارية. لولا ذلك لما تمكنت من الاستمرار في حياتي العادية والقيام بالأعمال الروتينية والمهام اليومية، أو من المحافظة على صحتي النفسية والعقلية.

كيف لي إذن أن لا أنحاز لهذه الثورة الشعبية العارمة ضد هذا النوع من الاستبداد والظلم والقهر بغض النظر عن طبيعة القناعات التي أحملها إن كانت يسارية أو ماركسية أو وسطية، أو حتى يمينية؟ مع ذلك، أعتقد أن المنهج الماركسي في البحث والتحليل والتفسير هو الذي يعطينا القدرة الأفضل والأرقى على فهم قيام الثورة وتحديد أسبابها الأعمق والبحث في خلفياتها التاريخية والاجتماعية وإلى جانبها والدفاع عنها.

***

كلّا، لم أتفاجأ بالثورة على نظام الاستبداد - كما تفاجأ هو- بسبب من بعض التجارب والملاحظات الدالة والمستمدة من المعايشة والتفاعل الحي مع الحياة اليومية في سوريا وبخاصة في دمشق،



وهي دلالات وملاحظات وتجارب أثبت النظام عجزه عن التقاطها أو حتى الاقتراب من معناها ومغزاها، لأن طبائع الاستبداد لا تسمح بذلك على ما يبدو. أعود لأقول بأني لم أتفاجأ بالثورة لأنه انتابني (كما انتاب غيري) إحساس مبهم بالتوجس والقلق والخوف على سوريا عموماً بعد القضاء على ما سمي في مطلع الألفية الثالثة بـ«ربيع دمشق»، حيث بدت لي سوريا عالقة على حافة هوة سحيقة ما، وأن السقوط آت لا ريب فيه. كانت الحياة في دمشق، على سبيل المثال، تبدو هادئة وعادية ورتيبة على السطح، مع ذلك كنت ألمس وأتأكد أن حمماً بركانية كانت تتفاعل تحت السطح بقليل والجميع يحاول التعامي عنها، قدر الامكان، على أمل أن تبقى تحت السطح لأطول مدة ممكنة ولا تطفو بسرعة على وجه الحياة في البلد. لما قامت الثورة، انفضّ هذا التناقض بين مظهر سطح الحياة الهادئ والطبيعي بزيفه وافتعاله، من ناحية أولى، وبين البركان الحقيقي الذي كان يعتمل تحت السطح، من ناحية ثانية، وكان لا بد لي أن أنحاز إلى الحقيقي والأعمق وأقف إلى جانبه وأترك لغيري مهمة تبرير السطح المزوّر والدفاع عن المزيف والوقوف إلى جانب التافه. استمعت إلى ناس عاديين جداً وبسطاء جداً يعبرون عن الاحساس بهذا التناقض بأقوال عاميّة عفوية مثل : «بدها كبريتة لتولّع»، «بدها شرارة لتهب»، «بدها ولعة لتشتعل»، «بدها فتيشة لتنفجر».

الإصلاح أو الطوفان

أما في الأوساط الثقافية فقد كان لكل واحد من المثقفين أسلوبه وتشبيهاته واستعاراته الخاصة لقول الحقيقة ذاتها. في مقابلة مع مجلة «نيوز ويك» الأمريكية سنة 2007، عبّر علي فرزات عن الوضع بقوله «إما الاصلاح أو الطوفان»، كان تشبيهي المفضّل في تلك الفترة هو أن سوريا الآن مثل طنجرة بخار ترتفع حرارتها بسرعة ويرتفع ضغطها ساعة بعد ساعة، علماً بأنه جرى تعطيل صمامات الأمان كلها. أما أحمد برقاوي فقد كان يقول في مجالسه الخاصة «إن الشرخ في سوريا قد وقع وقضي الأمر». وكان هناك من يموه على نفسه بالقول «الجميع يعرف حقيقة الوضع في البلد وما يجري فيه، ولكن ماشي الحال..». البعض الآخر توصل إلى قناعة «بأنه لم يبق من النظام سوى وظيفته كصمام أمان أخير حتى لا يقتتل السوريون فيما بينهم»، مع ذلك فوجئ النظام أكثر من غيره باندلاع الانتفاضة والثورة.

***

أنا أدرك أيضاً أن الثورة السورية هي تصفية حسابات لسورية مع نفسها ودفع فواتير متأخرة عن ما سبق لنا من تقاعس وتخاذل وصمت وجبن سوري في لحظات مثل لحظة حصار مدينة حماة سنة 1982، وتدميرها والفتك بأهلها، ولم تحرك سوريا ساكناً يومها على الرغم من أننا جميعاً كنا نعرف تماماً ما الذي كان يحدث في حماة في ذلك الوقت. كما تقبّلت سوريا لفترة طويلة جرائم حكامها في القتل والتعذيب وارتكاب المذابح والحبس التعسفي والاختفاء القسري وعشرات آلاف المفقودين بهدوء، وكأنّ ذلك كله ممارسة عادية ومسألة طبيعية.

ثم جاءت لحظة توريث السلطة والحكم الجمهوري في سوريا سنة 2000، وبلعت سوريا الإهانة بهدوء ورصانة لا تحسد نفسها عليها في هذه الأيام، وتبذل الدماء الآن لمحو آثارها. وفي اللحظة التي حاول فيها «ربيع دمشق» إشعال شمعة عند نهاية النفق المظلم، تم القضاء عليه وعلى شمعته بشراسة مشهودة، ومرة ثانية سكتت سوريا وتقبلت قمع ربيع دمشقها بروتينية عجيبة. أعود لأقول، بثورتها اليوم تبذل سوريا هذا الكم الهائل من الدماء تكفيرا عن خطاياها هذه كلها ومحواً لعارها، ولذا أنا معها.

اليسار والثورة

أولاً، معروف أنّ اليسار كان يجمع ملتزمين ونشطاء وأنصار وكوادر ومؤيدين من الخلفيات والانتماءات الدينية والطائفية والمذهبية والجهوية والأثنية والعشائرية كلها باتجاه مستقبل يتجاوز الانتماءات والولاءات الأولية شبه الطبيعية هذه، باتجاه حالة مدنية وعصرية أرقى. بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار اليسار وتشتته في كل مكان تقريباً (بخاصة الأحزاب الشيوعية بتعددها وتنوعها)، ارتدّ الكثير من هؤلاء اليساريين إلى ولاءاتهم الأولى والأولية والأكثر بدائية، وبخاصة الطائفية والمذهبية والدينية منها، وأخذوا يحددون مواقفهم من الثورة استناداً إلى الولاءات والالتزامات التي عادوا إليها واحتموا بها وليس استناداً إلى يساريتهم المكتسبة والضائعة لاحقاً.

***

ثانياً، بعد انتهاء الحرب الباردة أيضاً على النحو الذي انتهت عليه، انقسم اليسار إلى كتلة كبيرة تبنت ما يمكن تسميته «ببرنامج المجتمع المدني» والدفاع عنه، وهو البرنامج الذي يؤكد مسائل مثل: احترام شرعة حقوق الإنسان (حتى لو قولاً وبالحد الأدنى فعلاً)، أولوية فكرة المواطنة وممارساتها بالاضافة إلى الحقوق المدنية والحريات العامة، المساواة أمام القانون، فصل السلطات، علمانية الدولة وأجهزتها، القضاء المستقل، الديمقراطية وتداول السلطة والحكم فعلياً، وليس تداولهما بين الآباء والأبناء والأحفاد والأقرباء كما هو حاصل في سوريا اليوم. بعبارة أخرى، الكتلة الأكبر من اليسار تراجعت إلى خط الدفاع الثاني المتمثل «ببرنامج المجتمع المدني» والدفاع عنه في وجه الاستبداد العسكري- الأمني- العائلي القائم من جهة أولى، والظلامية الدينية القروسطية الزاحفة من جهة ثانية. أعتقد أن هذه الكتلة من اليسار على العموم متعاطفة مع الثورة في سوريا، وبالتأكيد ليس لها موقف عدائي منها أو حاد ضدها، علماً بأن لهذه الكتلة دور كبير في صناعة الربيع العربي عموماً. كما أن معظم اليساريين المؤيدين للثورة ينتمون إليها بصورة أو أخرى.

***

أما الكلتة الأصغر من اليسار فقد تعصّبت لمواقفها السابقة، وكأن شيئاً لم يكن مع انتهاء الحرب

الباردة وأخذت تميل مع الوقت إلى المواقف وأساليب العمل ذات الطابع الطالباني-الجهادي أو الطائفي المذهبي المنغلق على نفسه، أو حتى على الإرهاب «البن لاديني» بعنفه الأعمى نكاية بالغرب والرأسمالية العالمية (التي انضمت روسيا والصين إلى عالميتها) والامبريالية. هذه الكتلة من اليسار، عربياً وعالمياً، هي الآن الأكثر عدائية للثورة السورية والأقرب إلى دعم نظام الاستبداد العسكري والأمني والعائلي فيها بحجج كثيرة ليس أقلها تآمر الكون بأسره، فيما يبدو، على هذا النظام المحب للسلام والاستقرار وإن كانت سلامته واستقراره هما من قبيل سلام القبور واستقرارها. يطرب هذا النوع من اليسار بإشغال نفسه «بلعبة الأمم» و«بالتحليلات الجيوسياسية» الكبرى وبحكايات تصادم مصالح الدول العظمى ومشاريعها في الهيمنة في منطقتنا، ولا يريد أن يرى الثورة في سوريا إلاّ من خلال «طربه» هذا، مهملاً كل ما يمت بصلة إلى سوريا والسوريين الأحياء الثائرين اليوم، ومتغاضياً عن الأسباب التي دفعت شعبها إلى الثورة سلمياً وثم إلى حمل السلاح في وجه الطغيان «الوطني» الذي يتحالف معه هذا النوع من اليسار ويتعصّب له. بعبارة أخرى، لا مانع لدى هذا اليسار من التضحية بسوريا إن كان في ذلك انتصاراً موعوداً للجهة الدولية و«الجيوسياسية» التي يريد لها النصر العالمي في «لعبة الأمم»، أي أن الهم الأول عنده ليس سوريا وشعبها الثائر لاستعادة جمهوريته وحريته وكرامته، بل لعبة الأمم على مستوى الكون كله والطرف الذي يراد له الفوز فيها.

حال اليسار

قلنا إن اليسار بعد نهاية الحرب الباردة، تشظّى اليسار كثيرًا، وبات من غير المفيد الكلامُ عنه وكأنّه جبهةٌ واحدة. ولكنْ بقي قسمٌ صغيرٌ منه على حاله قبل الحرب الباردة، وذهب باتجاهٍ شبيهٍ باتجاهات "القاعدة،" على طريقة "الألوية الحمراء" في إيطاليا، و"العمل المباشر" في فرنسا، و"بادر ماينهوف" في ألمانيا في الربع الأخير من القرن الماضي. صحيحٌ أنّ تطرف هذا القسم كان في بعض الحالات نظريًّا، ولكنه في أحيانٍ كثيرةٍ تحوّل إلى برامج عملٍ، فانضمَّ العديد من عناصره إلى تكتّلاتٍ مقاتلةٍ على أساس أنّها تقاتل الإمبرياليّة. وهذا النوع من اليسار "الأرثوذكسي" هو الذي لم يقف مع الثورة في سوريا، وهو موجودٌ في أوروبا كما في العالم العربيّ.

***

أعتقدُ أنّ الكتلة الكبيرة من اليسار السوري تتضمّن من هو أكثرُ اعتدالًا، ومن هو أكثر تشدّدًا. لكنْ علينا ألّا ننسى أنّ الانتماء الطائفيّ داخل سوريا أدّى دورًا مهمًّا في الوقوف إلى جانب النظام أو ضدّه؛ وأنّ جميع المناطق التي دُمّرتْ تقريبًا كانت مناطقَ سنيّةً!
ما أريدُ قوله بكلامي هو أنّنا نتجنّب العاملَ الطائفيَّ في خطابنا الرسميّ، ولكنْ بلحظةِ صراحةٍ علينا أن نعترف بأنّ هناك عنصرًا طائفيًّا قويًّا يؤدّي دورًا مهمًّا في الثورة السوريّة. قضيّة الاتجاهات الإسلامويّة للثورة باتت جزءًا من اللعبة الطائفيّة: لعبها النظامُ أولًا، ثم بدأتْ تلقى ردودَ فعلٍ في

أوساط الثورة ذاتِها وأوساط الشعب. فالتركيزُ على ضرب المناطق السنيّة بهذا الشكل سيجلبُ ردود فعلٍ، والبادئُ أظلم!

***

ما بعد الثورة، إذا أصبحتْ هناك ديمقراطيّةٌ، سيكون في المجتمع كما أظنّ ما يسمّى بالإنكليزيّة checks and balances أيْ توازنات يكبح بعضُها بعضًا، وتمنع حدوثَ طغيان طرفٍ أو مؤسّسة، مثل المؤسّسة العسكريّة. وهنا أعتقد أنّ القوى اليساريّة ستؤدّي دورًا ضمنَ هذه التوازنات. كما أتوقّع أن تدخل الرأسماليّةُ السوريّة والبرجوازيّة السوريّة على الخطّ بقوةٍ عندما تنتهي الثورةُ وتبدأ عمليّة إعادة الإعمار. ودورُ اليسار هنا قد يكون في الدفاع عن حقوق العمّال والشغّيلة الذين قد يُستغلّون في ظروف كهذه، إذ من الجائز أن تجدَ "رفيق حريري" أو اثنين أو ثلاثة في سوريا. ولكنّي أظنُّ أنّ معظم البرجوازيّة التي ستأتي ستكون سنيّةً. فمعظم أصحاب الرأسمال الكبير هم سنّةٌ في حلب ودمشق، ولكنّهم سنّةٌ معتدلون؛ إسلامهم هو إسلام "البيزنس" لا إسلامٌ محاربٌ أو يريد اضطهادَ الأقليّات. إنه إسلامٌ يريد وضعًا مستقرًّا لكي "تمشي" شؤونهم ومصالحهم.
وفي هذا السياق لا أرى أيّ دورٍ قياديّ، لا لليسار التقليديّ ولا غير التقليديّ. وحتى يعود لهم هذا الدور القياديُّ قد يطولُ الأمر كثيرًا.

ثورة المساجد

كانت هناك إشارة إلى أنني وأنا صاحب كتاب "نقد الفكر الديني" اقف اليوم مع ثورة تخرج من المساجد. والواقع ان لا جديد في ذلك، وللتذكير كنت في أواخر السبعينات من القرن الماضي قد وقف مع ثورة الشعب الإيراني على الحكم الشاهنشاهي واستبداده وفساده وأجهزة مخابراته الشهيرة بشراستها هي الأخرى (السافاك) على الرغم من أن الدور القيادي لرجال الدين وآيات الله كان جلياً فيها منذ البداية، وعلى ما أذكر فإن اليسار في تلك الأيام كان برمته تقريباً مؤيداً لثورة الشعب الإيراني وداعماً لها ومهلّلاً لخطابها، على الرغم من خروج المظاهرات يومها من المساجد والحوزات والجنازات. الأمر المهم هنا هو الوقوف مع ثورة الشعب على الطغيان والعسف بغض النظر عن طبيعة الأماكن والمراكز التي ينطلق منها الحراك الشعبي الثوري أو يتجمع عندها.

***

ووقفت كذلك مع لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم، لأن لاهوت التحرير دعم الحراكات الشعبية التحررية في تلك البلدان ضد أشكال مثل طاغية مرزول على شاكلة سوموزا في نيكاراغوا وانقلابي مجرم مثل بينوشيه (Pinochet) في التشيلي، وحكم الجنرالات الدموي في الأرجنتين. بعد هذا كله، هل يمكن لمؤلف الكتاب المذكور أن يتقاعس أو يتخاذل في مسألة الوقوف مع ثورة الشعب السوري على حكم تفوق في طغيانه وقتله وتدميره على سوموزا وبينوشيه وجنرالات الأرجنتين وشاه إيران مجموعين كلهم معاً. التناقض هنا ليس

عندي، بل عند الذين انتصروا في يوم ما لثورة الشعب الإيراني ول لاهوت التحرير وكنائسه ولحركات التحرر الوطني في كل مكان تقريباً ولكنهم يرفضون الانتصار لثورة الشعب السوري بذريعة أن مظاهراتها واحتجاجاتها تخرج من الجامع وليس من دار الأوبرا أو المسرح الوطني على حد تبرير السيد أدونيس.

***

نعم، أخشى الإسلام السياسي بعد سقوط النظام وقبله. أخشاه لأسباب أبعد من الوجه الإسلامي الزائد الذي أخذت تظهر به الثورة السورية أمام نفسها وأمام العالم كله. أخشى ذلك لأنه في ثقافتنا ومجتمعاتنا ما يكفي من العناصر السلطوية والتسلطية والسلبطجية والأبوية والأبوية المحدثة والثأرية، بما يجعل إعادة إنتاج نظام الاستبداد مجدداً، بصورة أو أخرى، احتمالاً وارداً ومخيفاً مما يتطلب الحذر الشديد واليقظة التامة. في أحوالنا الراهنة لا يجوز الاستسهال باحتمالات نشوء استبداد عسكري ما، مثلاً، مغلفاً هذه المرة بالعقيدة الدينية والأحكام الشرعية والتعصب المذهبي. لذا أحاول أن أتابع جيداً ما يجري في مصر اليوم، إذ عندما أعطى الرئيس المنتخب هناك محمد مرسي نفسه، فجأة، سلطات وحصانات استبدادية من نوع «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» (وهذا هو تعريف الطاغية)، هبّ نصف المجتمع المصري تقريباً، هبة شعبية عارمة لمنع الرئيس من السير في طريق إعادة إنتاج الاستبداد في مصر حتى لو كان ذلك لفترة معلومة على حد زعمه، وحتى لو كان خطابه خطاباً إسلامياً وشرعياً، حتى مشايخ الأزهر وقفوا إلى جانب الهبة الشعبية كما صوتت القاهرة بـ «لا» مدوية على دستور مرسي المسلوق سلقاً من جانب الإسلاميين (كما يقول المصريون). ولا أعتقد أن سوريا ستكون أقل من مصر في هذا الشأن أو أقل حرصاً على حماية نفسها من عودة الاستبداد بأي صفة كانت. طبعاً، تبقى خيارات المستقبل وأشكاله التاريخية القادمة مفتوحة، ولا توجد ضمانات مسبقة لأحد خاصة عندما نكون أمام أحداث تاريخية كبرى مثل الثورات ونتائجها القريبة والبعيدة.

توقعاتي بالنسبة لهذه المسألة تتلخص في أنه بعد رحيل النظام، وعودة أهل حماة إلى حماه، وأهل حمص إلى حمصهم، وأهل حوارن إلى ما تبقى من بيوتهم، وبعد تجاوز مرحلة قلقة محتملة من الفوضى والانتقامات الثأرية وتصفية الحسابات بين عدد من الأفراد والمجموعات، سيسود مجدداً في البلاد والمجتمع مزاج التدين الشعبي السوري البسيط والسمح والذي عرفت به سوريا المعاصرة، وعرف به شعب سوريا منذ عهد الملك فيصل.

***

من ناحية ثانية، عندما تبدأ عملية إعادة الإعمار والبناء، أعتقد أن رأس المال السوري والبرجوازية السورية عموماً ستتقدمان بقوة لقيادة مسيرة الإعمار والبناء هذه والاستثمار فيها والهيمنة عليها. وسترى سوريا على الأرجح بروز شخصيات ورجالات وقيادات جديدة طالعة من هذه الأوساط بحكم استمرار العملية وتصاعدها. لذا، أعتقد أن الإسلام الذي سوف يطفو على السطح سيكون إسلام "البزنس" وإسلام رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والشرائح التجارية، وهو غير الاسلام السياسي الذي نتخوف منه بسبب تصلبه وتشدده في أتون المعركة الجارية. في مثل هذا المناخ المتوقع سيجري استيعاب تيارات الاسلام السياسي الأكثر تعنتاً وتخفيفها في بحر الاسلام الشعبي التقليدي ونموذج الاسلام التجاري-البزنسي السوري المعتاد. أي أن سوريا غير مرشحة لسيادة ذلك النوع من الاسلام الذي يمنع التعليم ويحرق المدارس ويغلق الجامعات ويعطّل المعاهد ويحرم المرأة من التعليم والعمل المنتج. إذا أوصلتنا الثورة إلى صناديق الاقتراع بأمان نسبي، لا أعتقد أن أياً من تيارات الاسلام السياسي في سوريا سيتمكن من اكتساح نتائج الانتخابات على الطريقة المصرية أو التونسية.

التجربتان التونسية والمصرية في ما بعد إسقاط النظام مهمتان في دروسهما بالنسبة للتجربة السورية، وربما نستفيد من مصرَ أكثر لأنّ العلاقات معها، تاريخيًّا، كانت قويّةً ومتشابكةً. وأرجو أن يتعلّم الإخوانُ المسلمون والجماعاتُ الإسلاميّة (في سوريا) درسًا ممّا يحصل في مصر، لأنّ محاولتهم احتكارَ السلطةِ أو القفزَ على مراكز الدولة ستؤدّي إلى ردود أفعالٍ شبيهة (بما يحصل ضد الإخوان هناك). إنّ جوعهم إلى السلطة هو الذي جعل شخصًا كمحمد مرسي يعلنَ ذاته "معصومًا" لا أحدَ يسائله أو يناقش قراراته!

النموذج السوري

وإذا أردنا أن نشكّلَ مجلسًا نيابيًّا أو وزارةً، فيجب أن يكونَ هناك علويٌّ وإسماعيليٌّ ومسيحيٌّ وكرديٌّ وتركمانيّ وو... ولذلك لا بدّ أن تكون شيئًا من المحاصصة إلى أن نصلَ إلى وضعٍ نتحوّل فيه كلّنا إلى مواطنين (citizen) بغضِّ النظر عن تلك الخلفيّات. إنّ تجاوز المحاصصة بالمطلق مسألةٌ غير مفيدة. يمكن طبعًا أن تكون محاصصةً بطريقةٍ فجّةٍ على الطريقة اللبنانيّة؛ ولكن يمكن أن تكون أكثرَ رهافةً، وهذا ما أرجو أن تقدّم سوريا نموذجًا عنه.

عندما ينظر إلينا الغربُ يرانا "موزاييك،" ونظرتهم هذه ليست من دون أساسٍ واقعيّ. الآن نعترفُ ونقول "مكونات الشعب السوريّ أو العراقيّ،" و"الشعب العراقيّ أو السوريّ بكلّ أطيافه." أمّا هم فيرونه "موزاييك" ولا بدَّ من ترتيبه بطرقٍ معيّنة. وعندما يكون أصحابُ الموزاييك أنفسهم لا يعرفون كيف يرتّبون أحوالهم، فكيف نتوقّع من الغرب أن يرى عكس ما يراه؟

الطبقي والطائفي

واضح لي ان للثورة في سوريا بعدها الطبقي الصراعي دون الاستهتار ببعدها الديني-المذهبي الصراعي أيضاً، لكن علينا ألاّ نأخذ المسألة الطبقية هنا بمعناها الماركسي-الأوروبي الكلاسيكي، حيث تتواجه بروليتاريا صناعية وطبقة عاملة عموماً من جهة، مع طبقة برجوازية مالكة لوسائل الانتاج ومحتكرة لفضل القيمة، من جهة ثانية. الأقرب إلى واقعنا هو صراع طبقي كما



شخصه وبيّنه فرانز فانون في كتابه الأشهر «معذبو الأرض» ومن المفيد العودة إليه اليوم في أية محاولة لتشخيص الثورة السورية وفهم طبيعتها، بخاصة أن فانون كان رائداً حقاً في وصف آليات ومراحل تحول قوى سياسية وأحزاب وتنظيمات بدأت كأحزاب وحركات تحرر وطني في مجتمعات عالم ثالثية مقهورة، إلى طغم حاكمة انفصلت تماماً عن بداياتها وقواعدها الشعبية الأولى وعن البرامج التحررية التي تبنتها بداية وعن الأغراض التي جاءت من أجلها لتقوم بقمع جماهير بلادها الشعبية من معذبي أرضها وتدوس على رقابهم، ثم تتجه بالضرورة إلى تمجيد القائد الأوحد الذي يخرج من صفوفها إلى رفع شخصه فوق مستوى البشر والأرض والوطن، وصولاً إلى درجة التأليه، وحتى تجاوز حدودها. هذا كله دفاعاً عن احتكار الثروة والسلطة معاً مع ما يرافقها من امتيازات ومغانم ومصالح طبقية وفئوية ضيقة على حساب البقية الباقية من البلاد وأهل البلاد وشعب البلاد. فالصراع الطبقي موجود في الثورة السورية بهذا المعنى، حيث يقوم معذبو الأرض السورية بثورة على حكم وحزب وطغمة عسكرية- مالية أمنية متسلطة وعلى قيادة وزعامة «وطنية» أبديتها من أبدية الآلهة. المفارقة الملفتة هنا هي أن عمال وفلاحي وحرفيي وطلبة وصغار كسبة سوريا (والجيش الحر منهم وفيهم) هم الذين يشكلون القاعدة الطبقية للثورة على حزب كان يقدم نفسه في يوم من الأيام على أنه حزب العمال والفلاحين وعلى قيادة «وطنية» كانت تدعي أنها بالفعل منهم وفيهم وجاءت أصلاً لتخلصهم من مظالم إقطاعية وبورجوازية واستعمارية سابقة. هذه الكتلة من معذبي الأرض السورية لا تتحرك بوعي طبقي-مصلحي واضح وحيد، بل تتحرك أيضاً بفعل انتماءاتها الدينية وعواطفها الطائفية وولاءاتها المذهبية، وبنوازع الثأر والانتقام لكرامتها المهدورة وحرياتها المسلوبة، وواقع القهر الشديد الذي عاشته وتعيشه، بالإضافة إلى تهميشها الدائم وخيباتها المتراكمة والمستمرة.

الانتقال الديمقراطي

لا أعتقد أن سورياً واحداً اليوم يملك رؤية واضحة حقاً أو تصورا متماسكا لكيفية الانتقال الديمقراطي وألياته في بلده بعد رحيل النظام الأسدي. إذا أوصلتنا الثورة، بصورة ما، إلى صناديق الاقتراع، سأعتبر أن حقي قد وصلني كمواطن. من الطبيعي، كذلك، أن يتطلع شعب سوريا الثائر إلى يُسر الديمقراطية بعد عُسر الاستبداد والطغيان والقهر والحرمان. تفرض الديمقراطية نفسها هنا كخيار بديل لأسباب كثيرة على رأسها طاقتها الاستيعابية لعناصر الموزاييك السوري الغني الذي هو شعب سوريا بتنوعه وتلاوينه. يعني هذا أن الديمقراطية في سوريا ستحتوي على مقدار معين من «المحاصصة» التي لا مفر منها في الظرف الحالي، إلى أن نصل إلى ديمقراطية المواطن الحر بعيداً عن الاعتبارات الأخرى كلياً، أما الآليات الفعلية للانتقال إلى الحالة الديمقراطية، فلا يمكن الجزم أو حتى التنبؤ بها لأنها تعتمد على صيرورة الثورة ومسارها الذي مازال مفتوحاً على المفاجآت والاحتمالات كلها. الواقعية تدعوني إلى أن لا أتوسع في خيالي وتوقعاتي حول هذا الموضوع، بل النظر إلى الواقع كما جرى ويجري حولي، أي في بلدان مثل مصر وتونس وليبيا ولبنان والعراق حيث وصلت تلك المجتمعات إلى حالة ديمقراطية ما قلقة ومضطربة عبر مرحلة انتقالية كان فيها الكثير من العنف والقلاقل والغموض والالتباس، على أثر أحداث جسام زلزلت مجتمعاتها وأطاحت بأنظمة حكمها. وقياساً على هذا الواقع المُشاهد، أتوقع شيئاً شبيهاً لسوريا، ربما أكثر فوضوية واضطراباً وعنفاً من النماذج الأخرى لأسباب تخص الثورة السورية وتخص الوحشية الفائقة التي لجأ إليها النظام في محاولة قمعها وإيقافها.

المثقفون والثورة

تفاعل المثقفين مع الثورة شكل واحدة من قضاياها الأساسية. وهذا التفاعل أقيمه تقييماً إيجابياً على العموم. ولابد أن أذكّر هنا أنه قبل اندلاع الثورة بزمان بعيد، كان مثقفو سوريا (وما زالوا) من مالئي الدنيا وشاغلي الناس، وانطباعي هو أن أعداداً لا تحصى منهم تقف اليوم مع الثورة وتعبر عنها، كل على طريقته، وتعمل ما في وسعها على مساعدتها على الاستمرار والانتصار.
أما الحفنة الصغيرة من المثقفين والفنانين السوريين الذين ناصبوا الثورة العداء أو وقفوا ضدها بحياء أو بنوع من الحياد الإيجابي أحياناً والحياد السلبي في أحيان أخرى، فهم معروفون ومعدودون جيداً ولا يشكلون إلاّ قلة قليلة، ولا ينطبق عليهم، بالتأكيد، القول العربي الشهير «إن الكرام قليل»، في الوقت الذي تمر عليهم الثورة مرور الكرام.

***

يعيدني السؤال عن علاقة المثقف بالثورة إلى سبعينيات القرن الماضي، حيث احتدم الجدل والخلاف والنقاش والفعل ورد الفعل داخل الثورة الفلسطينية نفسها حول هذه المسألة بالذات، وأسهم في ذلك كله وشارك عدد لا بأس به من مثقفي العالم العربي من كل مكان تقريباً. أثناء احتدام هذا الجدل، كنت أعمل في مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير في بيروت وكنت عضواً مؤسساً لمجلة «شؤون فلسطينية» وعضواً في هيئة تحريرها. لذا تسنى لي أن أتابع عن كثب الضجة الكبيرة المثارة وقتها حول علاقة المثقف بالثورة. أما الرموز الملخّصة للشرر المتطاير وقتها فكانت: نموذج المثقف العامل في أجهزة منظمة التحرير، مثل مركز الأبحاث ومركز التخطيط وفي صحافة المنظمة وإعلامها، وحتى في مؤسسة الدراسات الفلسطينية المستقلة عن منظمة التحرير، يقابله نموذج الفدائي أو المقاتل في الخطوط الأمامية للثورة. أما الرمز الثاني فكان «الكلمة» في مقابل «الرصاصة»، وهل تفعل الكلمة فعل الرصاصة؛ وما صلة الرصاصة بالكلمة وأصحابها وما إلى ذلك من كلام سخيف. في التحليل الأخير، ظل هذا الخصام الثقافي عقيماً ولم يسفر عن نتيجة مفيدة لأحد، ووصلتُ إلى قناعة بأن السؤال بالأساس غلط بغلط، وبأن المشكلة الأولية زائفة ولا طائل منها، لأن المضمر في السؤال الأساسي هو افتراض شائع بأنه لا بد أن تكون للمثقف علاقة استثنائية بالثورة هي غير علاقة الطبيب أو الصيدلي أو المحامي

أو الموظف أو الانسان العادي في الشارع، مثلاً في نظري، يُحمّل هذا الافتراض الثقافة والمثقف أكثر بكثير مما يحتملانه من الأدوار والأعباء، فالمثقفون لا يصنعون الثورات أو يقودونها، قد يمهدون لها ويحرضون عليها ويصوغون بياناتها وبرامجها وينشرون دعايتها ويكتبون أدبها وينشدون شعرها وينتجون تحليلاتها ويموتون في سبيلها...، كما حدث مع غسان كنفاني وكمال ناصر ولوركا، وغيرهم كثير. لا أريد للثورة في سوريا أن تقع في مطب إعادة إنتاج هذا النوع من الخلاف والجدال والخصام، كما في كلام ظهر عن «الخنادق» و«الفنادق»، الذي أثبت عقمه عبر مسيرة الثورة الفلسطينية.

***

بالنسبة لسوريا الجديدة، فإن أهم ما يمكن للمثقفين أن يفعلوه بداية، هو التخلص من شيء اسمه وزارة الثقافة، ومن شيء آخر اسمه وزارة الإعلام، ثم تشكيل هيئاتهم الثقافية ومنتدياتهم الأدبية وحلقاتهم الفكرية واتحاداتهم المهنية المستقلة ذاتياً كلها وإدارتها جميعاً بغير تبعية لأحد أو هيمنة لطرف. بعد ذلك، هناك ما هو متعارف عليه من قيم الدفاع عن حرية الفكر والضمير والتعبير والإعلام وتداول المعلومات التي يجب الحرص عليها بشدة والتي عانينا معاناة فظيعة بسبب سلبها واحتكارها وغيابها. بعدها، على المثقفين أن يجودوا بأفضل ما عندهم ولديهم ويقدموه للناس في كل مكان، حتى يبقى المثقف في سوريا الجديدة مالئاً للدنيا وشاغلاً للناس. وبالفعل، ملأ المثقفون السوريون الدنيا وشغلوا الناس أثناء «ربيع دمشق» على قصره. فعلى الرغم من عقود سورية- بعثية- مخابراتية طويلة من الرقابة والحظر والمنع والمصادرة للمطبوعات والكتب والمجلات وتمزيق الصحف والجرائد وطمس كلمات في المعاجم والقواميس وسيطرة وسائل إعلام وثقافة رسمية واحدة موحدة في سوريا ذلك الزمان، أثبت المثقفون، عبر ما أنتجوه من كتابات ووثائق وتحليلات وتعليقات وانتقادات ومقالات، في فترة «ربيع دمشق»، أنهم أبناء الحاضر بكل معنى الكلمة أسلوباً ومعنى ومحتوى، وأنهم لم يتأخروا لحظة واحدة عن عصرهم وزمنهم وعالمهم الأوسع بتطوراته ومتغيراته كلها. كما أثبتوا أن هذه السنوات الطويلة من سياسة الرقابة والمنع لم تؤثر فيهم بشيء أو تمنع عنهم شيئاً له علاقة بثقافة العالم وفكره وفلسفاته وسياساته وأخباره الأخرى. وليتبين، في التحليل الأخير، أن السنوات المشؤومة إياها ذهبت هدراً وسدى وكأنها لم تكن بالنسبة لسلطات الرقابة الحاكمة.

ولأكون واقعياً، أقول أنه إذا تحقق 25-30 بالمئة فقط من هذا كله في سوريا الجديدة، تكون سوريا، عندئذ، قد حققت تقدماً هائلاً وقفزة كبيرة إلى الأمام.

ازدواجية المثقف

بعيداً عن الاستعارات والتشبيهات بالأفاعي والحرباءات التي بدأها أدونيس، أقول: لا يوجد جواب جامع مانع وشافي عن كثير من الاسئلة المتصلة بتعقيدات الصراع الدائر بين المقاتلين لأجل الحرية وأهل الطغيان، لا سيّما بغياب أية معطيات موثوقة أو معلومات ميدانية أو عمليات سبر للرأي العام عموماً ولدى المثقفين تحديداً. لذلك لا بد لي من الاستناد في كلامي حول الواقع والمستقبل السوريين إلى الحدس والعموميات والانطباعات لا أكثر. فالاختلاف في توجهات المثقفين، كأفراد وكمجموعات، والتنوع في أمزجتهم وطبيعة اهتماماتهم، لا تسمح بأجوبة شافية ودقيقة في هذه المسألة.

بالنسبة لي شخصياً، مطلوب من المثقف أن يأخذ دوماً المستجدات التي يأتي بها الواقع المتغّير في الاعتبار، واستيعابها بصورة أو أخرى، بعقلية نقدية منفتحة، أي نقدية بالنسبة للواقع المتغير نفسه ولاتجاهات تغيره، من ناحية أولى، بالنسبة لذات المثقف نفسه، وللمقولات والمسلمات والافتراضات التي يحملها أصلاً ويقارب بها الواقع المتغير، من ناحية ثانية. أفترض أن المثقف الجاد والمثابر يمتحن جهازه الثقافي والمعرفي والفكري بما يحمله من التزامات ومسؤوليات على الواقع المتحرك كما أنه يعيد النظر في جهازه المعرفي والثقافي هذا على ضوء تجربته مع الواقع ومتغيراته ومستجداته. كما أنه يستخدم جهازه في نقد الواقع حين يرى لزوماً لذلك. أصلاً، الثقافة الحية حقاً لا تتوقف عن نقد وإعادة نقد نفسها وعن إعادة النظر في افتراضاتها الأولية وفي منطلقاتها الأساسية، وإلاّ لما تمكنت من تجاوز حاضرها وصنع مستقبلها. أعرف أن هذا كلام في العموميات، وإذا أردت التحديد أذكر، مثلاً، أن مثقفاً وشاعراً كبيراً مثل محمد الماغوط انتهى إلى حالة من اليأس العميق والتشاؤم الذي لا يرحم والسوداوية المفجعة في مواجهة الواقع العربي المتغير وتعامله معه. فضّل أدونيس الإنكار والتهرّب والتبرير في تعامله مع الواقع المتغير الذي اسمه الربيع العربي وبخاصة الثورة الشعبية في سوريا. كان أدونيس قد رفع شعار «مواقف من أجل التغيير والحرية والإبداع» في مجلته المعروفة «مواقف»، لكن عندما بدأ التغيير الجدي في سوريا واقتربت الحرية من سوريا، تراجع أدونيس أكثر من خطوتين إلى الوراء، بدل الاستيعاب النقدي الجاد لمستجدات الواقع العربي المتغير، وبدل إعادة النظر النقدية في مسلّمات جهازه الثقافي والمعرفي على ضوء الواقع العربي والسوري المتحرك والجديد. تفترض الشعارات إياها أن مثقفاً مثل أدونيس سيكون في طليعة المنحازين للتغيير والحرية في سوريا، مثلاً، والدفاع عنهما، ولكنه فضّل النأي بنفسه عن هذا كله ورمى بشعاره في مزبلة التاريخ.

***

وفي وقت سابق من العام الماضي حاولت كغيري العثور على تفسير منطقي، او موضوعي للموقف الغريب الذي اتخذه هذا الشاعر من قضية الحرية ومواجهة الطغيان في بلاده سوريا. وخلصت إلى التالي: في هذه اللحظات المفصلية من تاريخ سوريا استفاقت (شيعية) أدونيس وأرجع ذلك إلى مرحلته الخمينية مع اندلاع الثورة الإسلامية في إيران، واستمرار موقفه حتى فترة تسعينات القرن الماضي كما ظهر في قضية سلمان رشدي الذي حكم عليه الخميني بالإعدام (تلفزيونيا) وحينها لم ينطق أدونيس ببنت شفة دفاعا عن حرية الكاتب وحقه في الحياة

والاستمرار في الكتابة على الرغم من أن قضية رشدي سيطرت ثقافيا على عقد التسعينات.
عندما بدأت الحرية تقترب من سوريا، وسوريا تقترب من الحرية وعندما اقتربت سوريا من التغيير، والتغيير اقترب من سوريا، أخذ خطاب أدونيس يتلعثم ويتأتئ ويفأفئ، وبدلا من أن يكون خطابا واضحا وصريحا، أخذ شكل: نعم ولكن أو نعم وإنما.. وكان يوزع نصائحه على الطرفين في سوريا، وكأن طرف الشعب الثائر يساوي الطرف العسكري المضطهد.. أي المساواة بين الجلاد والضحية»

***

من جهة أخرى، نحن نعرف أن الواقع المتغير يتغيّر أحياناً ببطء شديد، مما يؤدي إلى الإحباط والقنوط، وفي أحيان أخرى يتغير بصورة فجائية زلزالية وكوارثية تؤدي إلى الذهول والضياع لدى المثقف وغير المثقف على حد سواء. ولا توجد طريقة حتى الآن لتحديد مسبق لطبيعة تعامل أي مثقف أو مجموعة من المثقفين مع هذا النوع من التغير الفجائي الزلزالي الذي اسمه الثورة في سوريا اليوم وكيفية تعامل المثقفين السوريين وغير السوريين معه.
مثال آخر، شكل كل من هزيمة العرب أمام اسرائيل في حرب 1967، وانهيار الاتحاد السوفيتي والفكرة الشيوعية بأكملها معه، تغيّراً تاريخياً من النوع الفجائي الزلزالي الكوارثي في الواقع القائم. وليس هنا المكان المناسب لمحاولة رصد تعامل المثقفين العرب، مثلاً، مع هذين المتغيرين، فهناك من استوعب المستجدات وفهم المغزى، وهناك من نقد الواقع والذات في الوقت نفسه، وهناك من رفض وكابر، وهناك من أنكر وبرّر، وهناك من يئس وترك، وهناك من طار عقله كما بيّن ممدوح عدوان في كراسه الجميل «دفاعاً عن الجنون»، وهناك من .. وهناك من .. السؤال صعب ومتغيرات الحياة العربية بخاصة، تجعل الإجابة عنه أكثر صعوبة من السؤال نفسه.

ملاحظة جانبية:
عندما نتكلم عن الفعل الثقافي وفاعلية الثقافة، لا بد من أن نأخذ الأمر على الموجة الطويلة، وليس بمناسبة حدث ما بعينه حتى لو كان ثورة عارمة، لأن الفعل الثقافي تراكمي اجتماعياً وبطيء تاريخياً، ولا تظهر نتائجه النوعية إلاّ متأخرة. عندما تابعت ما كان يجري في ميدان التحرير في القاهرة وفي الميادين العربية الأخرى الشبيهة به، ودققت في الشعارات المرفوعة والمطالب المطروحة والأهداف المطلوبة والأشواق الفائضة، وسمعت كلمات وعبارات صادرة عن هذه الجموع الشابة مثل: الكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية والدستور والتسامح الديني والمجتمع المدني وحقوق الانسان، فكرت فوراً بالفعل الثقافي التراكمي الذي فعلته سلسلة طويلة من المثقفين والأدباء والمفكرين وأساتذة الجامعات تمتد، لربما، من أحمد أمين إلى عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري، مروراً بـ طه حسين وفؤاد زكريا وزكريا ابراهيم ولويس عوض وزكي نجيب محمود ونصر حامد أبو زيد، وفي سوريا تحديداً بـ جميل صليبا وأنطون مقدسي وأديب اللجمي وعادل العوا وياسين الحافظ والطيب تيزيني، إلى آخر اللائحة الطويلة جداً.

المثقفون ومواقفهم
ولو كنت سأستطرد في التساؤل حول المثقفين ومواقفهم من القضايا الكبرى، وبينها الثورة، فلابد من استبيان ذلك عبر مسح للآراء، لا أعرف أحدا قام بمسح لآراء المثقفين واطّلع على المواقف التي اتخذوها أو أجرى مقابلات معهم. هذه المسائل ضعيفة في بلادنا ونعتمد غالبا على الحدس والانطباع وقراءة يومية للوضع. إذا أخذنا مثقفا مصريا كمثال وهذا ينطبق على عدد من الدول الأخرى، التي تشهد تحركات وانتفاضات، فسنجد أنه قد عاش ضمن نظام له طابع شمولي ديكتاتوري يحد من الحريات والتعبير عن الرأي وهو مضطر كمصري بشكل أو بآخر أن يتعامل مع هذا النظام.

***

أنا لا أعتقد أن هذا الشخص مثلا جنّد نفسه لخدمة النظام. أنا أعتقد وأعرف من تجارب كثير من المثقفين، أنه لكي يستطيع المرء أن يستمر ويقوم بعمله كأستاذ جامعة مثلا أو ككاتب يقدم عددا من التنازلات، حلول وسط ضمن حدود، بتقديره هو لا تحرجه، يعني لا "تسوّد صفحته".
عندما تحدث ثورة يصبح دور المثقف مثل أي مواطن آخر. من الممكن أن يخاف أو أن يشارك بقوة. وبعد نجاح الثورة كل هذه الكوابيس ترتفع ويشعر أنه تحرر من الاضطرار إلى تقديم هذه التنازلات، ويستطيع أن يتحرك بحرية. هذا النوع من المثقفين لا أظن أنهم مضطرون لأن يقوموا بنقد ذاتي، من الممكن أن يفسروا أو يشرحوا. ولكن هناك مجموعات أخرى كانت أبواقا للسلطة، عملت في الإعلام أو لعبت أدوارا تبريرية للنظام، مجدت القائد أو الرئيس. هؤلاء بلحظة يقظة ضمير من الممكن أن يعتذروا. ولكن مهما عملوا لن تصدقهم الناس ولن يستطيعوا تبيض صفحتهم، الكثير منهم ينسحبوا، يتراجعوا.

***

ما زال الوقت مبكرا على فتح نقاش جدي حول المواقف المختلفة التي اتخذها المثقفون من السلطة والمجتمع. لا بد أن تصدر عدد من الأصوات أو المواقف، التي تدعو إلى هذه المراجعة. أنا لا أريد أن أقسو على المثقفين، إلا إذا كان واضحا مثلا كما هو في حالة جابر عصفور، المدير السابق للهيئة العليا للثقافة والذي أصبح وزيرا للثقافة في آخر أيام الرئيس مبارك ، الذي كان إلى حد ما محافظا على مسافة بينه وبين نظام مبارك وبعد ذلك سقطت هذه المسافة. هؤلاء لا يمكن أن نحترمهم بعد الذي حصل. والآن تظهر قوائم مع الأشخاص والمؤسسات التي قبضت من القذافي. بعد أن ترسو هذه الثورات ويتشكل نظام مدني ديموقراطي، عندئذ من الضروري فتح هذا النوع من النقاش. لكن أنا أعتقد أن دور المثقفين كان مهما من ناحية التحضير للثورات.



وزن المثقف

لامناص من الإقرار بأن تأثير المثقف في المجتمعات العربية ضعيف بشكل عام هناك ضعف ولكن هناك جانب آخر أيضا. نحن متأثرون بنموذج المثقف الفرنسي، كمثقف عام، له رأي في كل القضايا المهمة والكبيرة. من ناحية أخرى في المجتمعات التي مستوى الأمية فيها عال يكتسب المثقف دورا أكبر وأهم. ولكن ليس بسبب أهمية المثقف أو بسبب عمق أفكاره ولكن نسبة إلى مستوى التعليم أو الثقافة السائدة في هذا البلد. أحيانا المثقف الحديث عندنا ورث دور الرجل الفقيه، رجل الدين في السابق. هناك شيئ باقي، لمسة، نظرة، شيئ من الاحترام الذي يُكنّ لرجل الدين انتقلت لمسة منها إلى المثقف.

ولكن إذا أردنا أن نتحدث عن الفاعلية المباشرة طبعا ضعيفة. الأمر كان سيختلف إذا كانت الحريات متاحة كمواطن أيضا ليس فقط كمثقف، عندما يدّرس في الجامعة مثلا تكون هناك حصانة لأرائه. إذا فكرنا بالدور الذي قام به المثقفون في دول أوربا الشرقية مثل تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي في إنهاء الحكم الاستبدادي، نرى أنهم لعبوا دور تحضير وبلورة الأفكار. مقارنة بأوربا الشرقية دور المثقف العربي أضعف ولكن هناك شيئ شبيه.

وعن تجربتي كمثقف علماني لا أدعي أن المجهود الذي قمت به مع مثقفين سوريين وعربا أدى إلى الثورات، ولكن من دون شك هناك تراكم، ليس فقط تراكم نشاط المثقفين، أيضا تراكم الواقع، والمثقفون يواكبون هذا الواقع، يعبّرون عنه ويصفوه. عبروا عن انسداد الأفق أمام التجارب الأخرى مثلا التجربة الاشتراكية العربية أو التجربة الناصرية. بدؤوا يتكلمون عن البدائل وأن البديل الوحيد عن الاستبداد هو الديموقراطية ، في نفس الوقت تم طرح فكرة المواطنة. دارت نقاشات كثيرة وأنا أحد المشاركين في هذه المناقشات عن موضوع أهمية المواطنة، إذا أردنا نتجنب حرب أهلية طائفية.

نموذج مدني

منذ مدة طويلة وقف عدد كبير من المثقفين بشكل واضح وصريح وأحيانا بشكل غير مباشر عبر الأدب، عبر الرمز مثلا مع قضية المجتمع المدني ودور المجتمع المدني، وقفوا مع قضايا حقوق الإنسان، أكدوا على المواطنة والحريات العامة. إذا رجعنا إلى "بيان الـ 99" سنة 2000مثلا ، وهو بيان وقعه مثقفون، جميع الشعارات تقريبا التي رفعت خصوصا في تونس ومصر موجودة فيه: رفع حالة الطوارئ أو المطالبة بالحريات موجودة هناك. كل الشعارات والآمال والتوجهات المطلوبة موجودة. لعب المثقفون دورا من هذه الناحية، خصوصا العلمانيون والمستنيرون لدرجة أن الأحزاب الدينية الرئيسة على طريقة "الأخوان المسلمون " تأثرت بأطروحاتهم.

وهناك أيضا دور كبير للنموذج التركي، أقصد بذلك نموذج الإسلام التركي، أي وجود حزب مرجعيته إسلامية في بلد يعتبر نفسه مسلما، بلد مهم، له تراث إمبراطوري، ويصل هذا الحزب إلى السلطة بطريقة سلمية ديموقراطية سلسة بدون أن يشك أحد في نزاهة الانتخابات ولا يؤدي إلى خراب مثل ما صار في أمكنة أخرى حيث حاول الإسلاميون الوصول إلى السلطة مثل مصر، سوريا، الجزائر أو السودان. ناقش المثقفون هذا النموذج وأهميته بالنسبة إلى التداعيات وتطبيقاته والتشبه به.

المولود الديمقراطي

وصف مثقّفون عرب انتخابات رابطة الكتّاب السوريين بأنها "المولود الديموقراطي الأول للثورة السورية" على اعتبار أنها وللمرة الأولى تجري انتخابات حرة على هذا المستوى. ولم يبتعدوا عن الحقيقة في ذلك. فرابطة الكتّاب السوريين هي أول نشاط مدني وثقافي وإجتماعي حر. وتكمن أهمية هذه الرابطة في أنها عبّرت عن الانفتاح الديموقراطي الذي تَولّد عن الثورة السورية، وكشفت مدى حاجة السوريين لمناخ حر بعدما كسروا جدار الخوف. وهذا ما يفسر تداعي الكتاب والمثقفين لتجاوز ما أسميه العطالة أو القصور الذاتي السابق والمساهمة بالحراك الثوري وتقديم شيء ما للثورة. ولا شك في أن الانتخابات التي اجريت في القاهرة لانتخاب الأمانة العامة للرابطة عبر الاقتراع الالكتروني تشكل أول تجربة للمجتمع المدني من الناحية الثقافية.

ليست الرابطة هيئة تمثيلية ولا تعكس بالضرورة كل مكوّنات الاجتماع السوري بل هي تمثل فئة من الكتّاب الذين تطوّعوا وأرادوا الانتماء اليها بهدف مساندة الثورة ووضع إطار ديموقراطي مستقل لعموم الكتاب. وكما ذكرت الرابطة في بيانها التأسيسي، فهي تعمل على إستعادة دور الثقافة من الناحية التغييرية.

***

ولعل انضمام عدد كبير من الكتّاب العرب الى الرابطة هو فعل تضامني رمزي وفخري أكثر منه فعلي، ولا نريد المزايدة على موقفنا من العروبة مقارنةً بإتحاد الكتّاب العرب، وهذه الرابطة تمثل الكتّاب السوريين من جهة وتريد تأكيد البعد العروبي من جهة اخرى.

ولابد لي ان اعترف، هنا، أن نيلي أعلى الاصوات في الانتخابات التي اجرتها الرابطة، هذه المسألة خلقت لديّ شعوراً بالكآبة والاحراج، خصوصاً أن الثورة السورية يقودها الشباب، وأنا قطعتُ خريف العمر ودخلت في شتاء العمر، إنما بعد هذه النتيجة المفاجئة لي، تَشكل عندي نوع من التحدي الكبير. ولا أعلم إذا كانت عندي القدرة على مساعدة الرابطة كما أتمنى وأريد. حصولي على رقم 99 صوتاً سبّب لي حساسية لأسباب ترتبط بالاستفتاءات التي أجرتها الأنظمة العربية ولا سيما نظام صدام حسين، وهذا الرقم شكل لي شعورا بالكآبة والحرج. مع أنني فخور بهذا الفعل الديمقراطي وأتشرف بأن أكون في عداد أعضاء الرابطة، رغم أنني لم أرشح نفسي بل تمّ ترشيحي من الأعضاء.



أهي فعلاً ثورة؟

في سنة 1952، نفّذ الضباط الأحرار في مصر انقلاباً عسكرياً أطاح بالحكم الملكي هناك، وسميَ الانقلاب «ثورة 23 يوليو». في سنة 1958، نفّذ ضباط في الجيش العراقي انقلاباً عسكرياً بقيادة الجنرال عبد الكريم قاسم، أطاح بالحكم الملكي هناك أيضاً، وأصبح اسم الانقلاب «ثورة 14 تموز». وتوالت الانقلابات العسكرية في العراق: انقلاب عسكري في 8 شباط 1963 تحول إلى «ثورة 14 رمضان»، انقلاب إضافي سنة 1968 أصبح «ثورة 17 تموز». وفي سنة 1963، نفذّت مجموعة الضباط الريفيين في سوريا انقلاباً عسكرياً استولوا فيه على السلطة المدنية في البلاد وقتها، وأخذ انقلابهم اسم «ثورة 8 آذار» وظهر شيء جديد عربياً اسمه مجلس قيادة الثورة. بعد هزيمة الجيوش العربية أمام اسرائيل في حرب «الأيام الستة» في حزيران 1967، صعدت المقاومة الفلسطينية المسلحة (الكفاح المسلح) لمقارعة الاحتلال الاسرائيلي الجديد، وسميَ ذلك كله «بالثورة الفلسطينية»، وشعارها «إنها لثورة حتى النصر». وفي سنة 1978-1979، قامت هبة شعبية هائلة في إيران أطاحت بحكم الشاه- بقيادة رجال الدين الشيعة- وسميت الحركة كلها «بالثورة الاسلامية في إيران». فإذا جرى العرف العربي، لأكثر من نصف قرن، على تسمية هذه الانقلابات العسكرية كلها، ومعها الكفاح الفلسطيني المسلح والهبة الشعبية الايرانية بالثورات، فلماذا يبخلون على ما يجترحه الشعب السوري من ملحمة بطولية اليوم في مقارعة الاستبداد والطغيان بلقب «ثورة»؟ علماً بأن معظم هؤلاء البخلاء كانوا قد جاروا التيار العام في وصف الأحداث المذكورة «بالثورات». الآن، إلى ماذا يستند هؤلاء البخلاء في بخلهم هذا؟ تقديري أن معظمهم يحمل بيده مسطرة خاصة يقيس بها مجريات التاريخ والأحداث المصيرية الجسام، ثم يطلق على كل واحدة منها الأوصاف والتسميات والتصنيفات التي تمليها عليه مسطرته الصغيرة المتحجرة. ينطبق هذا على القوميين بالنسبة لانقلاب عبد الناصر في مصر، مثلاً، وعلى اليسار والكثير من الشيوعيين بالنسبة لانقلاب عبد الكريم قاسم في العراق، وعلى الإسلاميين بالنسبة لثورة آية الله الخميني في إيران، وعلى قدامى الشيوعيين الذين يفتقدون في الثورة السورية الحزب الطليعي والقائد الكاريزماتيكي الملهم والنظرية الثورية الجاهزة، إلى آخر عناصر المسطرة مسبقة الصنع. أضف إلى ذلك ما كنت قد ذكرته سابقاً من أثر انحلال الأطر والجوامع السياسية والثقافية السابقة، وما رافق ذلك من عودة الكثيرين من هؤلاء البخلاء إلى عصبياتهم الطائفية والمذهبية والجهوية والإثنية الأولى، وإلى ولاءاتها الأكثر بدائية، مما ضاعف عدد المساطر الذاتية الجديدة التي تقاس بها ثورة الشعب السوري وتصنف على أساسها.

...

مع ذلك، إذا أراد بعض هؤلاء البخلاء وصل النظريات الثورية الجاهزة بالثورة في سوريا، فهذا موجود أيضاً، فالثورة السورية مارست بعفوية وتلقائية النظرية الثورية القائلة «بالبؤر الثورية» أو «الفوكو» (Foco) كما شرحها المنظر الفرنسي الشاب يومها ريجيس دوبريه في كتابه ذائع الصيت وقتها «ثورة في الثورة». كما تمارس الثورة عفوياً، وبلا الكثير من التنظير، ما كان قد تم التنظير له مطولاً في مرحلة سابقة، حول اتباع حروب التحرير الشعبية تكتيكات تُشتت القوة العسكرية المتفوقة بقوتها النارية وتبعثرها في كل مكان ممكن، مما يؤدي إلى شللها وإلى تحييد تفوقها الناري والعددي والعتادي. تمارس الثورة السورية كذلك وبشكل عفوي وحتى دون أن تدري، على الأرجح، النظرية الثورية الصينية-الماوية القديمة (والتي قيل الكثير فيها عربياً وبخاصة من جانب بعض هؤلاء البخلاء) القائلة بتقدم الأرياف الثائرة إلى محاصرة المدن وإسقاطها الواحدة بعد الأخرى، باعتبارها الحصون الأخيرة للسلطة التي يطالب الشعب بإزاحتها. تعيش التنسيقيات هي أيضاً في البحر الشعبي السوري الواسع «كما يعيش السمك في الماء» على حد تعبير شهير قدمته النظرية الثورية الصينية للعالم.

انتفاضة شعبية

أعتقد أن ما يجري في سوريا الآن هو، أولاً، انتفاضة شعبية عارمة بالمعنى الكلاسيكي للانتفاضة كما ابتدعها الشعب الفلسطيني، وثم اضطر إلى عسكرتها، أي انتفاضة على طغيان عسكري تحولت قوات جيشه الضاربة إلى جيش احتلال كامل الأوصاف، يدّمر الحجر والبلد ويقتل البشر دون حساب. وهو، ثانياً، ثورة بمعنى أن الانتفاضة الشعبية السورية تسعى لاستعادة الجمهورية عبر الإطاحة بنظام وراثي قديم مفروض ومهترئ بأجهزته كلها، وإحلال نظام حكم جديد ومغاير محله. ألا يكفي هذا كله للاعتراف بأن في سوريا ثورة حقيقية اليوم؟.

الانتفاضات وفلسطين

ثار مؤخرا السؤال حول الانتفاضات العربية وأثرها على قضية فلسطين هنا يمكنني العودة إلى اتفاق أوسلو، لأقول إن قيادة ياسر عرفات التي أنجزت الاتفاق الذي تلاه التفسخ الفلسطيني على ما شهدنا، فنشأت "إمارة" في غزة وسلطة في الضفة الغربية، مما أدى إلى وصول القضية الفلسطينية إلى ما وصلت إليه. لذا أخذ الإنسان العربي الملتزم بهذه القضية يقول لنفسه: لا يمكنني أن أكون ملكاً أكثر من الملك، ما دامت القيادة الفلسطينية اختارت ذاك الخيار. أما التأثير الراهن والمقبل للانتفاضات العربية على الشعب الفلسطيني، فأرى أنها ستدفعه في اتجاه نضال مدني سلمي غير عنفي، وضد التمييز العنصري الإسرائيلي غير المعلن. فالتمييز العنصري مسألة مدانة عالمياً. وهذا ما سيمنح النضال الفلسطيني المدني والسلمي تعاطفاً عالمياً كبيراً في الداخل الفلسطيني، حيث تقوم دولة التمييز العنصري التي صنعتها إسرائيل ضد الفلسطينيين.

الثورات والعروبة

من مفارقات الانتفاضات والثورات الراهنة التي بدأت في تونس، رأينا أن كل نظام عربي أخذ



يقول إنه ليس تونس. وهذا ما بدأت مصر في قوله. وهنا يمكن التساؤل: أين أواصر العروبة، أين الثقافة المشتركة، أين الدين؟! ثم سارع النظام السوري إلى القول إنه ليس تونس ولا مصر. أما المواطنون العرب على اختلاف بلدانهم - وأنا واحد منهم - فلم يشعروا منذ زمن بعيد بالتقارب في ما بينهم، مثلما شعروا في هذه الحقبة. فمشاكل العالم العربي، آماله وانسداداته ومعضلاته، متقاربة. وهذا ما بينته الثورات الراهنة التي تشبه تسونامي مفاجئاً ومتسارعاً. هذا يؤكد التشابه بين البلدان العربية في ما يتعلق باستبداد أنظمة الحكم فيها، ومطلب الحرية والعدالة. أنا منذ زمن بعيد لم يستفق لديّ إحساس عربي جامع، مثلما استفاق اليوم، مع أن وعيي عروبي منذ حرب السويس في العام 1956.

المثال أعلاه يجب عن السؤال الشاغل: ألا تتضمن هذه الانتفاضات والثورات عنصراً أساسياً ضد العروبة في معناها القديم، وخصوصاً الناصري؟ وفي ظني أن هذه الثورات لم تقم ضد فكرة العروبة، ولا هي تقيم قطيعة معها قد يكون باعثها اليأس. هنالك قطيعة في الشعارات وأشكال التظاهر. لم نتعود على تظاهرات عربية تحضر فيها النساء، كما شاهدنا في التظاهرات الراهنة التي حضر فيها الأطفال والفتيات والعائلات والأفراد، كما حضرت الموسيقى والفنون والأغاني. ثم إننا لم نشهد مظاهر عنف، كحرق الأعلام، ولا توحيد للشعارات. وهنالك أيضا ظاهرة الفرح في التظاهر، على خلاف التظاهرات السابقة التي يغلب عليها العبوس. فالذي كان العبوس بادياً على وجهه هو الناطق الرسمي باسم الجيش المصري في أثناء قراءته البيانات العسكرية، على خلاف وجوه الجموع المصرية في الشوارع.

الديمقراطية والعلمانية

حيثما نظرنا شرقاً أو غرباً، في عالمنا المعاصر، نجد أن الديمقراطية عادة مكتسبة، كما أن العلمانية حالة مكتسبة أيضاً وليس بهذه السهولة على الإطلاق، فالموانع كانت دوماً كبيرة والعقبات كثيرة داخلياً وخارجياً عند الجميع. كما أني لا أعتقد أن النخب التنويرية العلمانية العربية كان هدفها أصلاً مجرد تحضير وإعداد مجتمعاتها لتصبح مؤهلة لتقبل الديمقراطية. كان هدفها وطموحها ومطلبها هو نهضة شاملة من مفرداتها الديمقراطية والعلمانية. الإحساس الواقعي جداً بالقصور العميق والعجز المزمن كان عامّاً وطاماً لكل مجتمعات وثقافات الكرة الأرضية منذ الطفرة التي طرأت على أوروبا الغربية عبر الثورة العلمية في القرن السابع عشر، ومن ثم الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، وما ترتب عليهما من نتائج وتحولات تاريخية عظمى. بسبب من واقع هذا القصور العميق والعجز المستمر والانكشاف الكامل، دخلت مصطلحات الاصلاح والتجديد والتحديث والتنوير والمعاصرة والنهضة مجال التداول والأخذ والرد والفعل ورد الفعل ليس عندنا فقط، بل عند الحضارات والثقافات والشعوب التاريخية الحية الأخرى أيضاً. عند البحث في التنوير والنهضة عندنا، نحن نعود دوماً إلى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، لكن قليلاً من التدقيق سيبين أنه كان هناك ما يشبه الأفغاني ومحمد عبده وما يمثلانه في إيران وروسيا والهند والصين واليابان، وفي إفريقيا أيضاً. لذلك أرى أن مسألة التنوير أكبر بكثير من مجموعات من النخب المثقفة والعلمانية التي تحاول تأهيل شعوبها لتقبل الديمقراطية عبر التوعية بضرورة العلمانية والعلمنة لتجاوز مشاكل القصور والعجز القائمين. ولا أعتقد أن ثورات الربيع العربي الراهنة قادرة على نقض فكرة التنوير بمعناها التاريخي الأوسع، هذا لو أرادت، فهي أيضاً تقول بالإصلاح والديمقراطية والتجديد والحرية والكرامة والنهضة والدستور وما إليه. وتريد، إن استطاعت، الاستجابة إلى رغبة دفينة عميقة وشبه جارفة في فاعليتها لدى هذه الشعوب كلها لتجاوز القصور المقيم في مجتمعاتها والتغلب على العجز الذي تشعر به دوماً في أعماقها. تبقى شروط واحتمالات النجاح أو الاخفاق في ذلك كله، مسألة أخرى.

***

أخيراً، أهم ما في العلمانية والديمقراطية هو طاقتهما الاستيعابية، بخاصة في المجتمعات المتعددة والمتنوعة الإثنيات والأعراق والأديان والمذاهب والملل والنحل واللغات واللهجات... الخ. بالإضافة إلى مقدرة هذه الطاقة الاستيعابية على توفير مناخ جيد وإيجابي لاستتباب السلم الأهلي، ليس قهراً وبالقوة العارية، وعلى توفير آليات مجرّبة جيداً (لدى الكثير من البلدان والشعوب والمجتمعات والثقافات الراهنة) لتداول السلطة سلمياً على أوسع نطاق في المجتمع. أضف إلى ذلك أن من ميزات العلمانية والديمقراطية أيضاً أنهما توفران أرضية محايدة لتلتقي عليها المذاهب والعقائد الدينية المتنافرة والاقصائية بطبيعتها، وبحيث تتمكن من التعامل مع الفضاء العام والشأن الوطني والساحة السياسية الجامعة استناداً إلى قواسم مشتركة عظمى وتوافقات طوعية حرة يستحيل على أي من هذه المذاهب والعقائد توفيره بنفسه أو لوحده. وأنا أخاف من عبارات مثل «علمانية بمضامين جديدة» و«ديمقراطية متلائمة مع قيمنا وتراثنا»، وما إلى ذلك من تحايل على العلمانية والديمقراطية، برعت فيه أنظمة الاستبداد في كل مكان من أجل تجميل استبدادها وتأبيده.

***

بالنسبة لمسألة حاجتنا إلى علمانية بمضامين جديدة، فالمضمون الجديد الذي أسمع به الآن يتلخص (على ما يبدو) بإحلال فكرة «مدنية الدولة» في بلدان مثل العراق وسوريا ومصر، محل علمانيتها الناقصة أصلاً. في التحليل الأخير، هذه ليست سوى عبارة مهذبة للكلام عن العلمانية في الدول المذكورة. هذا في الشكل، أما في المضمون: معروف أن أحد مضامين العلمانية يمنع منعاً باتاً، على سبيل المثال، أن يكون المواطن المسيحي العراقي أو السوري أو المصري ذمياً. هل توجد أية مضامين جديدة يمكن إدخالها على العلمانية كما نعرفها، بحيث تعالج مضمونها الأول المانع هذا بشكل آخر أو مختلف، أو بحيث تؤكده أو ربما تلغيه وتحل محله؟ إذا أردنا المواطنة والمساواة حقاً، فلا بد من العلمانية بمضامينها المعروفة، وإن جاءت تحت أسماء أخرى.

كذلك تعني العلمانية في عراق اليوم، إبعاد الشرع الإسلامي بصيغته الشيعية الراهنة (ولاية الفقيه) والشرع الإسلامي بصيغته السنية الحالية (الحاكمية)، إبعادهما عن السلطة وعن الدولة وأجهزتها وعدم السماح لأي منهما بالسيطرة على الحياة العامة للبلد ومرافقها، تجنباً لحرب أهلية مرجحة، ومنعاً لحرب طائفية مجربة.
أتساءل الآن ترى هل هناك مضامين جديدة يمكن إدخالها على معنى العلمانية في العراق اليوم، قادرة على معالجة هذه المشكلة بصورة مختلفة أو على إخراج البلد من المأزق الخطير الذي يهدده؟ بعبارة أخرى، إذا أردنا للعراق الحفاظ على نفسه وعلى سلمه الاجتماعي والأهلي، لا بد من العلمانية بالمعنى المذكور أعلاه مهما كانت التسميات والمصطلحات.

الإسلام والعلمانيّة

سبق لي ان تحدّثت مطوّلًا عن "نعم" تاريخيّة تجعل الإسلام قابلًا للعلمانيّة، وعن "لا" صراطيّة وغير تاريخيّةٍ تجعله غيرَ قابلٍ لها. والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم هو: ما الذي ينتصر اليوم في الثورة السوريّة؟ وهل بمقدور العنف الذي يمارسه النظامُ ضدَّ المجتمع ذي الغالبيّة السنّيّة أن يقلبَ معادلة "النعم" التاريخيّة نحو "اللا" الصراطيّة؟
أولًا: إن ما قلتُه يجب أن يؤخذَ على موجةٍ تاريخيّةٍ أطول. فأردوغان مثلًا هو انتصارٌ "للنعم" التاريخيّة ولكنْ على مدى ثمانين عامًا. ولذلك لا يصحُّ التطبيقُ السريعُ على حدثٍ مفردٍ كالثورة السوريّة لمعرفة ما إذا كانت "النعم" التاريخيّةُ هي التي ستسود أم "اللا" الصراطيّة. في ذلك المقال ذكرتُ أنّ "النعم" التاريخيّة هي التي سادت عبر التاريخ العربيّ الإسلاميّ على الرغم من بعض النكساتِ والصراعات. ولا تنسَ أنّ تركيا باتت نموذجًا، وأنّ الإسلاميّين في العالم العربيّ يحاولون تقليد تركيا. انظرْ إلى الأحزاب التي يشكّلونها (حزب العدالة والحريّة في مصر اليوم). ثم ألا يشكّل تخلّي الإخوان علنًا عن خطابهم التقليديّ، حول "استعادة الخلافة" و"القرآن دستورنا" و"التطبيق الفوريّ للشريعة،" تأكيدًا لفاعليّة النعم التاريخيّة وتأثيرها المستمرّ؟ ألم يعلن حزبُ النهضة في تونس أنّ إسلامه سيكون معتدلًا على طريقة الإسلام التركيّ؟ صحيح أنه من المبكّر الحكم على هذا الخطاب الذي قد يطبَّق أو لا يطبَّق، ولكنْ دعنا نرَ مصر التي بدأت تتّضح فيها الأمورُ أكثر. فمن كان يرى أنّ مصر لا يوجد فيها سوى سلفيّين وإخوان مسلمين وأصوليّين، تبيّن له أنّها مصرٌ أخرى. إنّ مصر الآن هي "مصرُ النعم التاريخيّة،" وهي ترفض الدكتاتوريّة التي بدأ مرسي يخلقها لنفسه.
العلمانيّةُ هي ضرورةٌ لتجنّب الأسوإ. لنأخذِ العراق نموذجًا: ما الذي يمنع نوري المالكي من أن يعلنَ العراق ولاية الفقيه؟ أظنُّ أنّ ما يمنعه هو معرفته بأنّ إقدامه على خطوةٍ كهذه سيدفع البلادَ إلى حرب أهليّة. معنى "علمانيّة الدولة" هنا هو أنّه لا يصحُّ أن يسيطرَ التشريع الشيعيُّ أو السنيُّ عليها. العلمانيّةُ في ما يخصُّ العراق تعرَّف على الأقلّ بسالبين، "لا أنتم ولا نحن." وهذه العمليّة ستكون أفضل في سوريا: فهنا، خلافًا للعراق الذي تعدُّ الأقليّةُ السنّيّةُ فيه كبيرةً جدًّا، يوجد تنوّعٌ أقلويٌّ واسعٌ. ومعنى العلمانيّة هنا هو ألّا تستطيعَ فئةٌ من فئات المجتمع، أقليّةً كانت أو أكثريّةً، أن تفرضَ برنامجها أو شرعها على أطياف المجتمع كافّةً.

أشباح ومخاوف

عندما وقعت الحربُ اللبنانيّة، جرى حديثٌ طويلٌ عن التقسيم. ويبدو أنّ في منطقتنا عقدةً حول هذا الموضوع. الحقيقة أنّ هناك انقسامات داخل هذه البلدان وداخل مجتمعاتها، لكنْ أن يحدث تقسيمٌ على نمطِ ونموذج سايكس ـ بيكو فهذا خطابُ النظام السوريّ. أنا لا أرى أننا نمشي باتجاه التقسيم، ولا أعرفُ لماذا يطرح هذا الافتراض!
مع ذلك فإن سوريا كما عرفناها سابقًا، ولاسيّما في جيلي، أو كما نعرفها الآن، لن تبقى كما هي. سيكون هناك شيءٌ جديدٌ. أمّا ما شكله وما طابعه، فهذا متروكٌ لما يقرّره الشعبُ السوريُّ بعد الثورة. وقد تكون لدينا تصوّراتٌ أو توهّماتٌ حول الموضوع، ولكنّ ذلك لا علاقة له بالتقسيم.
أمّا بخصوص التخوفات المطروحة حول الثورة واهدافها والمستقبل السوري ومن ان الثورة ستخسر أهدافَها الأساسيّة، فأظنُّ أنّ بناء دولةٍ حرّةٍ، مدنيّةٍ وديمقراطيّة، لكلِّ السوريّين، يعدُّ جزءًا مهمًّا من مطالب الثورة. وإذا كانت الثورةُ ستوصلنا إلى صناديق الانتخاب، فأنا أعتبر أنّها نجحت. أمّا ما ينتج من صناديق الاقتراع فهنا يصعبُ التنبُّؤ، ولكني لا أتوقّع أن يحدثَ في سوريا ما حدث في تونس ومصر من اكتساحٍ انتخابيٍّ للتيّارات الإسلاميّة.
من المتوقع بطبيعة الحال بعد عامين من القتل والدمار حدوث شيءٍ من الفوضى، واحتمال أن تجري تصفياتٌ وانتقاماتٌ. ثقافة الانتقام في مجتمعنا، كما تعلم، قويّةٌ جدًّا، ولن أفاجأ إنْ مررنا بمرحلةٍ قلقةٍ من هذا النوع لفترةٍ من الزمن، ريثما تستقرُّ الأحوالُ في سوريا وتجري انتخاباتٌ جديّةٌ وحرةٌ.

داخل وخارج

. لننظرْ إلى تاريخ الصراعاتِ والحروب في المنطقة: الحرب العراقيّة ـ الإيرانيّة، احتلال الكويت ثمّ تحرير الكويت، الحرب اللبنانيّة، احتلال العراق وإطاحة صدّام. كلُّ هذه الصراعات كانت تُحصر في مكانها. أعتقد أنّ الوضع في سوريا لا يختلف عن جملة الحروب والصراعات التي مرّت بها المنطقةُ في الخمس والعشرين سنةً الأخيرة ولم يُسمح لها بأنْ تتمدّدَ نحو الخارج. ومجيءُ الباتريوت على الحدود التركيّة مؤشّرٌ في هذا الاتجاه: فحتى لو سعى النظامُ السوريُّ إلى أن يمدَّ الأزمة نحو الخارج أو يورّطَ الخارج، فلا أعتقدُ أنه سيُسمح له بذلك.
في تاريخ الشعوبِ لا يستطيع الشعبُ وحده دائمًا إطاحةَ الطغيان. بول بوت مثلًا كان مجرمًا كبيرًا، ويُضرب المثلُ بما فعله بالشعب الكمبوديّ، ومَن أطاحه هو الجيشُ الفيتناميّ. وكذلك في

اليمن؛ فلو لم يرسل عبد الناصر الجيشَ المصريَّ إلى اليمن لما كان للجمهوريّة اليمنيّة على الأرجح أن تعيش، ولاستمرّ الوضعُ المهلهلُ السابقُ على حاله. كذلك الأمر في ما يخصُّ عيدي أمين، وهو أيضًا طاغيةٌ مرذول: لم يستطع الشعبُ الأوغنديّ أن يطيحه، فأطاحه زعيمٌ إفريقيٌّ من زعماء النضال ضدَّ الاستعمار والاستيطان اسمُه نايريري، رئيسُ تانزانيا، وقد دخل بجيشه ليزيحَ الطاغية عيدي أمين.

ولذلك فإنّ سوريا، من هذه الناحية، ربّما كانت محظوظةً بإرادة شعبها لأنّها وصلتْ إلى هذه المرحلةِ بقواها ومواردها الداخليّة، مع شيءٍ من المساعدة الخارجيّة؛ في حين أنّ ثمّة حالاتٍ كثيرةً في العصر الحديث لم يستطع الشعبُ فيها أن يتخلّص من الطغيان إلّا بمساعدةٍ خارجيّةٍ مباشرةٍ على طريقة ليبيا.

حماية الأقليات

عندما يتكلّم الغربُ عن حقوق الأقليّات وحمايتها، فأنا أراه شيئًا مزعجًا لأنّه أ) يذكّرنا بالقرن التاسع عشر وما سُمّي وقتها "المسألة الشرقيّة،" حيث كانت كلُّ دولةٍ هناك تجد لها أقليّةً أو طائفةً هنا وتتعامل معها على أنها حاميتها. ب) وهو يُظهر وكأنّ الأكثريّة، التي هي سنيّةٌ في حالنا، تنتظر فقط اللحظةَ المناسبة لكي تفتكَ بأقليّات سوريا ـ وهذا غيرُ صحيح. كما أنّ سوريا كلّها، في الوضع الحاليّ، تحتاج إلى حماية، وسوريا كلّها ـ الأكثريّة كما الأقليّة ـ تريد حقوقًا. وعلينا ألّا ننسى أنّ المناطق التي دُمِّرتْ هي مناطق الأكثريّة، وأنّ الذين تشرّدوا جميعُهم تقريبًا من الأكثريّة، والذين هاموا على وجوههم خوفًا من الدمار والقنابل والمدافع هم من الأكثريّة. وهنا لا بدَّ من الخوف على حقوق الأكثريّة أيضًا، لا على حقوق الأقليّات فقط. ومرّةً أخرى، سوريا كلّها يلزمها حقوقٌ ويلزمها حمايةٌ. ونحن لا نريد في سوريا الجديدة أيَّ امتيازٍ، أكان لأكثريّةٍ أمْ لأقليّةٍ أمْ لطائفة. وما نطمح إليه هو أن نصبحَ جميعنا مواطنين متساوين في المواطنة. ولو حقّقنا ثلاثين في المئة من هذا الأمر، فسنكون قد خطونا خطوةً كبيرةً إلى الأمام.

الاستشراق ليس هو من يصنعُ السياسة. السياسةُ مصالحُ حيويّةٌ وعلاقاتُ قوةٍ، والاستشراق يخدم هذه السياسةَ ويخدم هذه المصالح وليس هو من يصنعها. الاستشراق قد يكونُ خادمًا لها أو يساعدها أو ينقدها أو يصوّبها، ولكنه لا يصنعها. ولذلك لا أعتقد أنّ توجيه خطاباتٍ مختلفةٍ إلى النخبة السياسيّة الأمريكيّة قد يغيّر في سياساتها.

دينَ رئيس الجمهوريّة

مسألة دين رئيس الجمهوريّةِ هي في الأصل حلٌّ وسطٌ. أما في ما يخصُّ قانونَ الأحوال الشخصيّة، فمن الصعب جدًّا التطرّق إليه لسببٍ تاريخيّ معيّن. فالعاملون في المؤسّسة الدينيّة ووزارة الأوقاف كانوا في السابق يسيطرون على التعليم والقضاء وعقيدة الجيش، وعلى الإعلام بأشكاله القديمة عبر خطبةِ الجمعة وغيرها. وهذا كلُّه فقدوه، ولم يتبقَّ لهم إلّا قانون الأحوال الشخصيّة، أي الزواج والطلاق والإرث الخ. فتشبّثوا به إلى أبعد حدّ، وراحوا يدافعون عنها بمنتهى الشراسة، ولسانُ حالهم الضمنيُّ يقول: "أخذتم منّا كلَّ شيء، فاتركوا لنا هذه المسألة على الأقلّ."

الانشقاقات عن النظام

في مناشبة الحديث حول أهمية انشقاق رئيس الوزراء السوري رياض حجاب عن النظام أريد الاشارة الى مسألة مهمة تتعلق باستهزاء البعض بهذه الانشقاقات. ولم أكن أتوقع مثلا من رئيس تحرير جريدة معتبرة هي «القدس العربي» عبد الباري عطوان أن يصف ما جرى بالانشقاقات الإعلامية الصرفة التي لا تؤثر في شكل جدي على النظام، وأنا عاتب وغاضب بسبب مقاربته الباردة باسم الموضوعية، لثورة الشعب السوري، علماً أن عبد الباري إبن الثورة الفلسطينية وداعم لكل ثورات الشعوب في العالم، باستثناء الثورة السورية، وحياده البائس هذا يصبّ بالضرورة في خانة النظام والمخابرات.

وفي رأيي ان هناك سوء فهم وعدم تقدير للخلفية الأساسية التي أدت الى مثل هذا الانشقاق الذي قام به حجاب، ويجب ألا ننسى الخلفية الأمنية للدولة في سورية، فهي دولة أمنية بامتياز، والمؤسسة الأمنية معتدة بنفسها الى أقصى الحدود، وهي عبارة عن بنيان حديدي لا تهزه ريح ولا يصيبه زلزال، ووصلت المؤسسة الأمنية في اعتدادها هذا وفي تعاملها الإستعبادي مع الناس، الى درجة تقول إنه ممنوع الهرب من ساحات القتل والتدمير حتى بالنسبة للنساء والأطفال والعجزة، ومن يحاول الفرار نطلق عليه النار.

أريد إعطاء مثال آخر، ميشال كيلو حين كان يخرج من السجن هو ورفاقه من المعارضين، كان ضباط الأمن والمخابرات يقولون لهم، لا تُتعِبوا أنفسكم في المعارضة. المؤسسة الأمنية الحاكمة غير قابلة للاهتزاز، وهي استخدمت تعريفاً دينياً تحت عنوان «الأسد الى الأبد» و«بشار الى الأبد».

وإذا أخذنا هذه الخلفية، فإن إنشقاق رياض حجاب الذي قدمه الأسد نفسه على أنه رجل المرحلة، مسألة شديدة الأهمية، فقد تمكن مع أخوته وعائلته من الخروج من سورية بمساعدة الجيش السوري الحر، وهذا الانشقاق أحدث وقعاً هائلاً لدى المؤسسة الأمنية الحديدية.

وفي تامل امكانات الانشقاق المقبلة، لا أعتقد أن شخصية كالشرع يمكن أن تنشق عن النظام، وأقول الشيء نفسه بالنسبة الى وليد المعلم الذي سببت له الثورة معاناة لا تتعدى إدراك الموظف العادي في الدولة أو الموظف الأمني. وليس معروفاً عن المعلم والشرع أن لديهما اجتهاداً في الأمور السياسية أو المسائل الديبلوماسية، وحتى الإدلاء بوجهة نظر متميزة. لذلك لا أجد أي مؤشرات قد تدفع الشرع او المعلم باتجاه الانشقاق عن النظام لأنهما لا يملكان شخصية قيادية أو مهارات ريادية. وأعتقد أن الصدفة قد تضع واحداً منهما في موقع ما خلال المرحلة الانتقالية.

الجيش والانشقاق

الجيش السوري مؤلف من 13 فرقة بالمعنى العسكري. القوات المسلحة حتى الآن تقوم بتدمير المدن والقرى والأحياء، وهذه المهمة تنفذها أربع أو ثلاث فرق من ضمنها الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة. وإذا تمردت الفرق الأخرى التي لم تُستخدم بعد في عمليات القمع وانضمت الى الثورة، ستكون هذه العملية بمثابة العملية الإنقاذية للثورة. ولا أعتقد أن مثل هذا التطور قد يحدث ولا استبعده بالمطلق، ولا أتصور أن مصير باقي الفرق العاطلة عن العمل حتى الآن سيكون مثل مصير الجيش العراقي الذي دمرته الولايات المتحدة. أما إذا حدث أي تدخل عسكري خارجي، فيمكن أن يتعرض الجيش السوري للمصير نفسه الذي تعرض له الجيش العراقي.

أدوار المنشقين

انطلاقا من انشقاق مناف طلاس، أشير غلى أنني أعرف مناف طلاس معرفة لا بأس بها، وجرت بيننا نقاشات حول سورية. طلاس كان مقتنعاً بالبنيان الحديدي المرصوص للمؤسسة الأمنية، وكان من أكثر الذين يدافعون عنه وعن الوضع القائم في البلد على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وعندما كنا نقدم له آراء نقدية لا ترضيه، كان اعتذارياً ودفاعياً وتبريرياً. وبعد ربيع دمشق وكما بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري شعرتُ بان مناف أصبح أقل تقبلاً للنقاش وطرح الأفكار وبات أشد دفاعاً عن كل ما له علاقة بالنظام، وشعرنا أكثر بان نبرته الدفاعية والتبريرية صارت أقوى.

أعتقد أن الثورة السورية أحدثت عند مناف طلاس انقساماً في وجدانه، وقد راهن على أن بشار الأسد سيتجه الى الاصلاح بعد فشل الحل الأمني، لكن هذا لم يحدث، لأن الثورة السورية استمرت. والشيء الأهم الذي زاد من معاناته وشقائه هو تدمير بلدته الرستن. وبعدما خسر الرهان لم يعد أمامه إلاّ الانشقاق أو الوقوع في محظور تلطيخ اليد في دماء السوريين.

بعض أطراف المعارضة اعتمدوا على الرهان نفسه، ميشال كيلو في مكان ما راهن على ما يسمى الحل السياسي، وكان يقول ان الأزمة السورية لا تحل إلاّ بالخيار السياسي ويقصد بذلك الحل مع بشار الأسد، وقد دافع أيضاً عن مهمة كوفي أنان وقال في إحدى مداخلاته، إن المهمة جاءت بقرار دولي وهي التي ستتكفل بإجبار النظام على التغيير، وهذا لم يحدث. كما أنه نشر مقالاً هاجم فيه من يسميهم «بـ ثوار آخر زمن» وقام بمهاجمة التنسيقيات وشباب الثورة، وفعل ذلك بكثير من الأبوية ومنطق الوصاية، وهنا سؤالي: ماذا فعل ثوريو الزمن الأول؟

أعتقد أن سيرورة الثورة السورية ستحقق نوعاً من الانتخاب الطبيعي، وفي تصوري أن بعض الشخصيات التي انشقت عن النظام لن يكون لها دور في سورية الجديدة لأن الثورة ستمارس ما أسميته الانتخاب الطبيعي.

طمأنة العلويين: لزوم ما لا يلزم

تحدث البعض في ضرورة إصدار وثيقة من جانب المجلس الوطني السوري من أجل طمأنة الطائفة العلوية، وفي نظري ان هذا ليس ضرورياً، فلماذا تحتاج الطائفة العلوية الى من يطمئنها على مستقبلها؟ لم ترتكب الطائفة جرماً كبيراً يستدعي مثل هذه الوثيقة التي يمكن أن تصدر عن المجلس الوطني السوري، بدليل أن خلية الأزمة التي تم استهدافها مكوّنة من الطوائف كافة، العلوية والسنية والمسيحية. وإذا أخذنا في الاعتبار المدن والقرى والأحياء المدمرة فإن كل هذه المناطق ذات غالبية سنية، وأرى أن الأكثرية السنية في الوقت الحاضر هي التي تحتاج الى وثيقة طمأنة. ورداً على الخطاب البائس في شأن المخاوف على الأقليات في سورية الجديدة، من قال لكم ان الأكثرية ستنتظر اللحظة المناسبة حتى تنتقم من الأقليات الدينية والإثنية؟

لا أتخوف من أي مضاعفات محتملة لسقوط النظام كما يروج البعض. لقد قامت الثورة السورية من أجل إسقاط النظام الأمني، وليس لاسقاط طائفة، وليذهب هذا النظام الأمني كما هو الى الجحيم. الشيء الذي أتخوف منه بعد هذه المرحلة الطويلة من السيطرة الأمنية على حياة الناس وترسيخ الشيء الأمني في حياتنا ونظرتنا الى بعضنا البعض، أن يتحول هذا الخوف في مرحلة إزدهار الحرية الى نوع من التسلط والبلطجة والأبوية والبطركية، ما يؤدي الى تكرار التجربة الأمنية نفسها التي طغت على سورية على امتداد خمسين عاماً. المرحلة الانتقالية تتطلب مستوى عالٍ من الوعي لإبعاد هذه العناصر التي أشرتُ اليها والتي قد تشكل تربة خصبة لنشوء ستار سلطوي وأمني حارب السوريون جميعاً ضده.

روسيا ومصالحها

. ثمة تضخيم لمصالح روسيا في سورية. لا تدافع موسكو عن النظام السوري إنطلاقاً من الحفاظ على مصالحها، وإنما من محاولات لاستعادة دورها كدولة عظمى، ومن أجل مناكفة الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي. وأيّ مصالح لروسيا في سورية مقارنة بالمصالح الاستراتيجية لايران، بما تعنيه هذه المصالح على مستوى العلاقات الايرانية ـ السورية؟ ولا شك في أن سقوط النظام السوري سيؤدي الى سقوط هذه الاستراتيجية في كل المنطقة. أما سقوط النظام بالنسبة لروسيا فلا يعني الشيء الكثير. والأغرب أن ممثل روسيا في الأمم المتحدة نفى تدمير النظام للمدن، وحين استمعتُ الى هذا الخطاب فهمت لماذا إنهار الاتحاد السوفياتي.

مفاجآت مبكرة

من ابرز مفاجأت الثورتين التونسية والمصرية لي ما لاحظناه من ابتعاد كلي ونبذ كامل تقريبا لنمط الحركات الاجتماعية التي نعرفها في السابق. الهتافات التي كانت تهتف والشعارات التي كانت ترفع فيها تقريبا كلها اختفت. لم أحس أنها اختفت بشكل تدريجي، لكن يبدو أن هناك



قطيعة حدثت.
في السابق كانت حركات الاحتجاج ترفع شعار "الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل" أو "لا حرية لإعداء الشعب"، والتحركات تبقى دائما متجهمة، وجوهها عابسة، هناك جو تأزم شديد. هذا كله لم نحس به، بالعكس لأول مرة في العالم العربي نرى حركة احتجاج تطيح برئيس جمهورية فيها موسيقى وشعر ورقص وبالونات. هذا أقرب من الذي نشهده في أوربا أو الولايات المتحدة الأمريكية مما الذي اعتدنا عليه في السابق. والسابق ليس بعيدا. لنتذكر مثلا الاحتجاجات على الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية أو قضية سلمان رشدي، أو المظاهرات الداعمة لفلسطين.
الآن نرى روحا وممارسة جديدتين وأكبر مفاجأة هو القطيعة التي صارت مع النمط القديم لطريقة الاحتجاج والتظاهر المدني. هذا فيه نوع من النضج العالي. حتى الأمور الدينية التي ظهرت كانت تمثل تدينا فرديا، الذي يريد أن يصلي يصلي، الذي لا يريد لا يصلي. الذي يريد الوقوف تحت الصليب يقف، والذي يريد سماع القرضاوي يستمع.

صناعة الخوف

تعتمد القراءة اليومية للوضع السوري على ذكائنا كمراقبين، إذ نجد اليوم أن التيارات الدينية في سوريا هي تيارات قوية ومنظمة جيدا. زد على ذلك أن النظام السوري عمل في السابق على إفساح المجال أمام تلك التيارات، بل واستفاد منها أكثر مما استفادت هي منه. فظهر النظام بمظهر المراقب والضابط لهذه التيارات وبنفس الوقت كسب مشروعيته من خلالها. كما وقف النظام في وجه العلمانيين وكان أكثر قسوة عليهم، خصوصا في محاولاتهم لمناقشة مسألة التيارات الدينية مع رموز السلطة، أو حتى الرد على الأطروحات الإسلامية لخلق سجال عام بين العلمانيين وبين التيارات الإسلامية. لقد كانت مطالب العلمانيين أحياناً تزعج النظام بالفعل أكثر من مطالب الإسلاميين.
وبرأي أن التيارات الإسلامية مجتمعة لا تشكل أكثر من 40 بالمائة، وهذا بناء على التقديرات في ظل غياب الدراسات المتخصصة في هذا المجال. وبناءً على طبيعة المجتمع السوري المتنوع بمكوناته، أجد أنه من الصعوبة بمكان أن تأخذ التيارات السلفية والأصولية موقعا رئيسيا في سوريا. في الجهة المقابلة يوازن علمانيو سوريا المشهد، ولهم أيضاً وجهات نظرهم الخاصة، حيث تتسع قاعدتهم في أوساط الأقليات، بالإضافة إلى العلمانيين من السنة.
وفي سوريا يوجد أيضاً المتدينون من الطبقة الوسطى التجارية في المدن، أي الإسلام المتوازن والمعتدل. وهذا ما يفسر جاذبية النموذج التركي في بعض الدول العربية، وخاصة الأحزاب السياسية الإسلامية المعتدلة، بل حتى إن التسميات متقاربة كحزب النهضة في تونس الذي أعلن صراحة نهجه على النموذج التركي. وقد سبق لي ان أطلقت على هذا الشكل الجديد من الإسلام السياسي بالإنكليزية "Good for business Islam" أي "الإسلام الجيد للأعمال".

الثورة صيرورة، والمعارضة صامدة ومستمرة بتقديم تطمينات للأقلية، لكن هل تطمئن الأقليات؟. أعتقد أن الأقليات، في هذه المرحلة أي قبل الانتقال لمرحلة تطبيقية، أي مرحلة وضع الدستور مثلاً، لن تطمئن لأن ما تحصل عليه هو كلام فقط. من هنا أجد أن أهم عناصر الاطمئنان هو مشاركة أكبر للأقليات في الثورة. فكلما زادت مشاركتها كلما زادت أهمية دورها في المرحلة القادمة وهي الأهم للبلد. وتبقى المحاولات التي يقدمها الأفراد من الأقليات مكان احترام وتقدير بدون شك، وخاصة أنهم يتعرضون لأشكال عديدة من التخوين على المستوى الطائفي والوطني من أبناء طوائفهم.
إن الإصرار على طرح الموضوع في الإعلام الغربي وكأن هاجس السنة هو الاعتداء على الأقليات المسيحية والعلوية والدرزية والإسماعيلية، وحتى الأكراد وغيرهم، لا تدعمه الأدلة. بالطبع قد تتطور الأمور وتزيد احتمالية وقوع صراع طائفي في البلد. لكن لنكن أكثر واقعية، هنا لابد من الإشارة إلى أنه قد تحدث حالات انتقام على أساس طائفي. والمبالغة في القول إن الشعب السوري كله محب بشكل مطلق لبعضه البعض، ما هي إلا رومانسية زائدة عن حدها.

أهو الخريف العربي؟

هذا السؤال بات مطوحا اليوم. مع اننا لم نزل بعد في بداية الربيع العربي، الربيع بالنسبة إلي هو عودة السياسة للناس وعودة الناس إلى السياسة بعد عهود من المصادرة للعمل والقرار السياسي من قلب نخب عسكرية وبيزنسية، لنرى ما سيحدث بعد عودة السياسة للناس، هذه الصيرورة من الصعب الحكم عليها من الآن، ثمة رواية لإميل حبيبي، اخترع فيها مصطلحاً جديدًا وهو «متشائل»، لذا أنا متشائل عربي ينتظر ربيعاً، طال انتظاره، إننا في انتظار ربيعنا .
والواقع ان الربيع العربي دهمنا ونحن مازلنا في مرحلة «هاملت» مازال التأرجح قائما بين الماضي والحاضر، الثورات العربية لها حسنات لا تنكر، فقد أعادت السياسة للناس والناس للسياسة، وقضت على مبدأ التوريث، في مصر كانت هذه مشكلة كبرى، وكذلك الأمر في اليمن قضت عليها نهائيا، وحل محله الربيع العربي، تداول السلطة انتخابيا، وديموقراطيا، لذا أنا لست يائسا كليا من ظهور حداثة عربية، لكنني بالطبع حذر ومتخوف وأقدّر ما قدمه الربيع العربي ■

إشارة:

يتكون هذا النص الفكري اليومي حول الثورة السورية والثورات العربية من جملة نصوص حوارية شارك في طرح أسئلتها كل من ماهر مسعود، ريتا فرج، رحاب عبد العظيم، منى نجار، ومركز الجمهورية. وقد جمعه وبوبه قلم التحرير في مجلة "دمشق" وراجعه المفكر صاحب التوقيع ■

صبحي حديدي

المثقف السوري والانتفاضة: مواقف لا تنفكّ عن الوظائف

١. مدخل: خمسة أنماط وخيانة واحدة

هُم صاروا أكثر من طابور. أوّل أو خامس، إذْ لم تعد ثمة فروقات تميّز. أولئك الذين يتباكون على مستقبل سورية، وتنهمر دموعهم مدرارة لأنّ البلد عرضة لمخاطر خطوب وحروب شتى، من كلّ الضروب: الأهلية، والطائفية، والإثنية، والمناطقية؛ بين المدينة والريف، أو بين الشباب والشيوخ، أو بين جيش نظامي كلاسيكي وجيش فئوي موالٍ، أو بين طبقات فقيرة محدودة الدخل وأخرى متوسطة أو متبرجزة، أو بين دعاة التدخل الخارجي ورافضيه، وصفّ "العسكرة" مقابل صفّ "السلمية"؛ وكذلك، طبعاً، بين "الإسلاميين" و"العلمانيين"، و... "المحافظين" ضدّ "الحداثيين"!

طبائع البكاء تتفاوت، إلى هذا، فنعثر أوّلاً على مثقف سكت دهر الانتفاضة كلّه، وليس بعضه أو قليله؛ ثمّ ارتأى أن يكسر قرابة تسعة أشهر من الصمت، لكي يهتف من سويداء قلبه: أواه يا سورية، يا بلدي الحبيب، إلى أين يسير بك أبناؤك الجهلة السفهاء المغامرون! صاحب هذا الخطاب يلوذ بالميلودراما، دون أن يقرّ بأنها هكذا بالطبع، مع حرص شديد (لكنه مفضوح تماماً) على عدم الإيحاء بنبرة عاطفية فاقعة، او أخرى شعبوية رخيصة. شعاره هو إنقاذ سورية من مصير أسود ينتظرها، عواقبه وخيمة لا عدّ لها ولا حصر؛ وقراءته تقول إنّ ما يشهده البلد ليس انتفاضة من أجل الديمقراطية والحرية، بل هو سلسلة مؤامرات خارجية، تقودها قوى غربية وأطلسية وعثمانية وعربية، وتهدف إلى تقسيم البلد وإعادة إنتاج سايكس. بيكو، على نحو أسوأ وأدهى.

في صياغة أخرى، يقول هذا المثقف إنّ الانتفاضة هي مصدر الخطر، واستمرارها هو الذي يغري القوى الكبرى بزيادة المؤامرات، وبالتالي يستدرج التدخل الخارجي، ويعرّض سورية إلى ما تعرّضت له بلدان مثل ليبيا والعراق وأفغانستان. وإذا كان لا يتجاسر على القول بأنّ الانتفاضة لم تكن ضرورية أصلاً، لكي يتجاسر استطراداً على المطالبة بوقفها فوراً؛ فإنّ المثقف من هذا النمط لا ينتهي عملياً إلا إلى هذا الطلب، خاصة حين يتكشف برنامجه البسيط للغاية: دحر المؤامرات عن طريق تكاتف الشعب مع السلطة، والنزوع إلى العقل وليس الجهل، ونبذ الفرقة بين مكونات



المجتمع؛ و، أخيراً... قيام الحاكم ببعض الإصلاحات السياسية والإدارية التي يطالب بها المحكوم، فلا خلاف على هذا التفصيل!

نعثر، كذلك، على مَنْ عدّ ذاته في صفّ الانتفاضة، فكتب عنها، ونظّر لها، وسمّى نفسه ناطقاً باسمها، فوضع الكرة في ملعب النظام وحده، وعلى عاتق السلطة ألقى مسؤولية المسير بسورية إلى برّ الأمان، أو دفعها إلى هاوية المجهول. وحين يتسامح قليلاً مع السلطة، فإنّ ذلك المثقف يشرط التسامح بسؤال قاطع: هل "النخب الحاكمة والمالكة" قادرة على اجتياز الاختبار الذي يطرحه عليها الحراك الشعبي؟ هل ستتعاون مع الشعب، وخاصة شبابه، فتصلح ما أفسدته ممارساتها الأمنية خلال عقود طويلة؟ وهو، كذلك، اعتاد الكتابة عن الإصلاح بوصفه ردماً للهوة بين الواقع والفكر، أي بين "واقع البؤس" الذي تمثله الأنظمة القائمة، وفكر المستقبل الذي تطمح إليه الاجيال الشابة وتسعى إلى خلقه.

لم نقرأ له فزعاً من هؤلاء الشباب، أو قدحاً بقدراتهم على ممارسة السياسة كـ"فنّ"، أو إعراضاً عن شعارات يرفعونها دون أن يدركوا محتواها (مثل "الشعب يريد إسقاط النظام"، مثلاً)، أو سخرية من انجرارهم إلى برامج غير قابلة للتطبيق، أو تخوّفاً من انزلاقهم إلى العسكرة والعنف المضادّ والنزوعات الطائفية. وما دام قد فعل لاحقاً، وليس سابقاً، فإنّ من المنطقي محاسبته . بوصفه المثقف الطليعي الرائد والرائي . على أنه لم يبصر في الوقت المناسب، ولم يتبصّر فينذر ويحذّر؛ وهو، استطراداً، مسؤول بدوره عن قسط من "الأمراض" التي يشخصها اليوم، في غمرة ضجيج وعجيج، وكان قبلئذ عاجزاً عن إدراكها والتوعية إزاء مخاطرها، أو ساكتاً عنها لغاية في نفسه. لقد بلغ اليوم مرحلة انهيار مقادير كبيرة من التطابق بين ما كتب ونظّر ونطق، وبين ما قاله ويقوله الشارع الشعبي، وما فعله ويفعله، قبلئذ وبعدئذ؛ فكان طبيعياً أن تنهار تعاقداته القديمة، فينضوي في صفّ العويل والرثاء والوقوف على أطلال، أو تكاد، هي في نظره كلّ ما تبقى من الانتفاضة!

نمط ثالث ما يزال مؤمناً بأنّ نصر الشعب قادم لا محالة، لأنّ الميزان بين الأمل والقنوط لم يختلّ عنده تماماً لصالح الشعور الأخير، ولأنّ ما يركن إليه من عتاد فكري وعدّة تحليلة وانحيازات أخلاقية تقوده، متضافرة متكاملة، إلى المآل الوحيد المنظور منطقياً: سقوط النظام. إنه ليس في قلب الحراك الشعبي تماماً، ولكنه ليس على هوامشه أيضاً؛ ونجده تارة يدافع عن طروحات "المجلس الوطني السوري"، فيرى أنها تمثّل أفكاره مثلما تمثّل قطاعات واسعة من المعارضة وأبناء الشعب، دون أن نفتقده تماماً في ملتقيات "هيئة التنسيق" أو مجموعات المعارضة الأخرى التي تنادي بأفكار مرحلية أو ستراتيجية تجعلها على مبعدة من المجلس. خطابه عن السلطة ليس قاطعاً، بمعنى الإعراب عن معارضة جذرية لا تترك هامشاً ملموساً لتأويلها على غير وجهتها؛ لكنه، من جانب آخر، ليس البتة محابياً للنظام، على الأقلّ في مستوى ما توفّره القرائن من حصيلة عن مواقفه.

تلك خصال لا تعيبه، غنيّ عن القول، بل تبدو أقرب إلى ترسيخ التكامل منها إلى إثارة التناقض؛ إلا... إذا صار صاحبنا هذا أسير الفزع من "كوابيس" شتى، هي تنويعات أخرى على ضروب الخطوب والحروب، فانقلبت الخصال ذاتها عليه، بعد أن كانت له! الخطر، هنا، أنّ ديناميات ارتباطه بالمعارضة، وصورته في ناظر الحراك الشعبي، خاصة لدى أولئك الذين يتماهون مباشرة مع شخصيته الفكرية والسياسية أو حتى الإنسانية، سوف تصاب بالعطالة، لكي لا يخشى المرء من تحوّلها إلى عبء وعالة (كما يحدث في المشاهد المحزنة، حين ترفع بعض التظاهرات لافتات ضدّ شخصيات معارضة، بالاسم). وليس الأمر أنّ الصمت ستار حاجب، وهو بالفعل قد يكون هكذا، بل في أنه قد يفضي إلى سوء فهم، وإلى إساءة تفسير أيضاً.

النمط الرابع يعتلي برج عاج، على غرار مشهد خيانة المثقف الأكثر رسوخاً في التاريخ والتعريفات الكلاسيكية، فيضع النظام والمعارضة على قدم المساواة في الزلل، ويخضعها لسيرورات تخطئةٍ تكاد تنهض على ركائز متشابهة لا تفرّق بين شبيح ومتظاهر، وبين قاتل وقتيل. فإذا كبّر بعض الناس، في هذا الحيّ الشعبي المحافظ أو ذاك، عندما ينتهي عدنان العرعور من أحاديثه الليلية النارية، أو إذا هتف المتظاهرون بأنه لا معين لهم إلا اللّه، فاستجاروا بالذات الإلهية وحدها؛ فإنّ الذنب مشترَك بالمناصفة، تقريباً، بين نظام يحابي أمثال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، ومعارضة تحابي أمثال محمد رياض الشقفة؛ أمّا إذا أعلن المرء إدانته المطلقة لـ"ديمقراطية قصّ الألسن" كما ينادي بها العرعور، فإنّ هذا السلوك لا يكفي، والمرء مطالَب بعدها باستكمال شهادة حسن السلوك، وتأثيم كلّ وأيّ متظاهر يكبّر عند سماع العرعور!

ولا يستكمل هذا النمط إلا نموذج خامس لمثقف يُلصق تهمة خيانة سورية (وبعضهم لا يتورع عن الذهاب أبعد، فيتحدّث عن "خيانة الأمة"!) بكلّ مَنْ لا يدين ما صار يُعرف باسم "عسكرة الانتفاضة"، إدانة جازمة قاطعة حاسمة، لا هامش فيها للأخذ أو الردّ أو الجدل أو تقليب الرأي. العسكرة هي نهاية الانتفاضة، والانتفاضة هي اللاعسكرة بالضرورة، وهذا حكم باتّ لا استئناف فيه هنا أيضاً، حتى إذا كانت غالبية المرابطين في هذا الصفّ توافق على إقرار مزدوج، ثمّ تعمد بعد الموافقة إلى وأده في المهد: انّ عنف النظام المتزايد، المستشرس أكثر والمتغوّل أشدّ، هو الذي يدفع المتظاهرين إلى التسلّح، دفاعاً عن النفس والعرض والرزق، غالباً؛ وأنّ هذا الحقّ مشروع، وتعترف به شرائع الكون منذ بدء الخليقة. الجانب الأخطر في هذا النموذج هو ذلك الافتراض الضمني الذي يقول إنّ الشعب، وليس النظام، هو المتهَم بالعسكرة، وبالتالي فإنّ لجوء بعض المواطنين إلى حمل السلاح ليس نتيجة للسياسات الأمنية والعسكرية الهمجية التي ينتهجها النظام لكسر الانتفاضة، بل هو ردّ فعل غير صحي، وغير ثوري، وغير سلمي.

والحال أنّ التسلّح، مثل العسكرة والتخندقات الدينية والطائفية والإثنية، تطورات كفيلة بإلحاق الأذى الشديد بثقافة الاحتجاج والمقاومة السلمية والتعبئة الجماهيرية وروح الاجتماع الشعبي، وسواها كثير من الخصال العبقرية التي اجترحتها الانتفاضة السورية طيلة الأشهر الثمانية

الماضية. لكنّ النقاش فيها ليس أحادياً سكونياً، أو مانوياً جامداً لا مساحة فيه إلا لـ"نعم" أو "لا"، أسود أو أبيض، سلمية مطلقة أو عسكرة لا تقلّ إطلاقاً، واقعية "فنّ" السياسة أو ميتافيزيقا "فنّ" التخوين. صحيح، بالفعل، أنّ على الانتفاضة أن لا تسقط في أحابيل العسكرة، ولا فخاخ التسليح والتسلّح أياً كانت مصادرها؛ ولكن هل يمكن حمل مسطرة قياس لا يأتيها الباطل أبداً، تُرفع مثل سيف بتار في وجه كلّ من حمل السلاح، دون تمحيص في الأسباب التي دفعته إلى هذا، كيف، متى، وأين...؟

ولو كان ممثّلو هذه الأنماط الخمسة من أهل النظام وأنصاره، على أي نحو، لهان الأمر واتضحت الدوافع الخافية دون كبير عناء، إذْ لن تكون مواقفهم أكثر من زخرف متكلف يميّزهم عن تلك الدفاعات التي يلهج بها الموالون عادة، مراراً وتكراراً، حتى صارت أشبه بعلامة فارقة، ديماغوجية ودعاوية صرفة. لكنّ المتباكين أولئك يتوزعون على فئات متباينة، سياسياً واجتماعياً وفكرياً وثقافياً، احتُسبت على الدوام في رصيد "المعارضة"، بالمعنى الواسع الفضفاض للمصطلح؛ والغالبية بينهم تعرّضوا لأفانين قمع النظام، بين ملاحقة واعتقال وأحكام قضائية تعسفية واضطهاد مدني، فضلاً عن طراز خاصّ من التنكيل تعرّضوا له على يد محيط اجتماعي أو طائفي موالٍ للنظام، اعتبرهم مارقين على الجماعة، منشقّين عن الإجماع الأهلي.

هي، بذلك، تنويعات سورية على خيانة عتيقة أدمن المثقف ارتكابها على مدار التاريخ، في كلّ المجتمعات، خاصة خلال أطوار التأزم والثورة، حين تتطب الحياة موقفاً بالغ الوضوح من حيث الانحياز إلى صفّ الحرّية، أو الالتحاق بالطغيان. الموقف الثالث، حتى حين يسمّونه "توسطات" من باب التجميل، هو في نهاية المطاف انضواء ضدّ الحقّ، مقنّع كثيراً أو قليلاً، لكنه يخون رسالة المثقف. يخونها كثيراً هذه المرّة، وليس قليلاً!

٢. أدونيس: انحياز مطلوب في توقيت محسوب

شاع الكثيرون القول إنّ أدونيس تأخر في توجيه رسالته الى بشار الأسد، وأنّ زمن المناشدة قد فات، بعد دخول الانتفاضة السورية شهرها الرابع، وسقوط أكثر من 1500 شهيد، وإصابة أكثر من 6000 جريح، ونزوح 11 ألف مواطن إلى تركيا أو لبنان، واعتقال الآلاف. وهو قول يفترض حسن نيّة مزدوجاً: من جهة أدونيس، الذي توجّب أن يناشد الأسد في مرحلة أبكر، عند الشهيد رقم 500 على سبيل المثال؛ ومن جهة الآملين خيراً في الأسد نفسه، إذْ لعلّه كان سيستجيب للمناشدة الأدونيسية، فيتحقق ما يصبو إليه الشاعر، الذي يؤمن أنّ هذه رغبة الأسد نفسه في نهاية المطاف (يخاطبه هكذا: ألستَ "قبل كل شيء رئيس بلاد وشعب"؟ و"بوصفك خصوصاً رئيساً منتَخَباً"، أليس "قدرك هو أن تفتدي أخطاء" التجربة التي "يمثلها حزب البعث العربي الاشتراكي، نظراً وعملاً، ثقافةً وسياسة"؟).

وإذا صحّ، بالفعل، أنّ أوان المناشدة كان قد انطوى، ولم يعد هنالك شك، حتى لدى أدونيس نفسه، في استقرار النظام على حلول العنف القصوى؛ فإنّ توقيت توجيه رسالة الشاعر إلى الطاغية كان دقيقاً وذا وظيفة حيوية بالنسبة إلى المرسِل، وكان نافعاً وذا مغزى إنحيازي بالنسبة إلى المستقبِل. لقد حاقت الأهوال بشرائح واسعة من أبناء الشعب السوري لأنهم تظاهروا من أجل الحرية والكرامة والمستقبل الأفضل. وفي المقابل لجأ النظام إلى أبشع أنساق العنف، وبدأ باستخدام الرصاص الحيّ، وانتقل إلى حصار المدن بالدبابات وقصفها بالمدفعية وراجمات الصواريخ والحوّامات، ولم ينته عند العقاب الجماعي وتعذيب الأطفال وقتلهم والتمثيل بجثثهم، والدوس بالنعال على جباه البشر. وفي هذا، ورغم أنه يساوي بين الجلاد والضحية في المسؤولية عن "الانهيار" في سورية، وعن "تشويه صورتها الحضارية بأوحال الطائفية والعشائرية والمذهبية"، فضلاً عن "وحل التدخل الخارجي"... لا يملك أدونيس إلا الإشارة إلى أوحال أخرى يصعب أن تكون للضحية يد فيها: "التعذيب والقتل والتمثيل بجثث القتلى".

طراز آخر من الوحل، تفادى أدونيس التوقف عنده، هو ذاك الذي تلطخت به سمعة النظام السوري في المحافل الثقافية والفكرية والسياسية، العربية والعالمية، فتوالت بيانات ذات حسّ إنساني وأخلاقي شجاع، وقّع عليها الآلاف، وامتزجت فيها مواقف تأييد الانتفاضة مع مشاعر إدانة النظام وشجب ممارساته الأخلاقية. لم يوقّع أدونيس على أيّ من هذه البيانات، بالطبع، ولكنّ السؤال المنطقي اللاحق هو التالي: هل يعقل أنه - هو الذي يتمتع بدرجة وافية، وكافية، من الذكاء وحسن تقدير الموقف، وانتهاز الفرصة المناسبة في التوقيت المناسب - لم يدرك أنّ توجيه مثل هذا النصّ الاستعطافي، إلى مثل هذا "الرئيس المنتخَب"، الآن إذْ تنفلت أجهزته الأمنية من كلّ عقال ضدّ الشعب، بأمر مباشر منه... هو مقامرة خاسرة، لا محالة؟ كيف فاته مقدار الضرر الأخلاقي الذي سيلحق بسمعته كشاعر سوري، له صيت حسن في أوساط عالمية لا يجمعها جامع مع الاستبداد والمستبدين، فضلاً عن كونه أحد أبرز المرشحين العرب لجائزة نوبل للآداب؟

باختصار، كيف لم يتنبه أدونيس إلى أنّ نظام بشار الأسد آخذ في الإنهيار التدريجي، بدليل ازدياد جرائمه وضحاياه؛ واتساع الهوة بينه وبين الشعب، حتى صارت شاسعة فاغرة لا تقبل الردم؛ وأنّ حلفاءه لا يتناقصون فحسب، بل ينقلب بعضهم إلى خصم صريح، أو خصم صامت؛ وأنّ خلاصة المعادلات هذه تقول إنّ النظام آيل إلى سقوط؟ الجواب الأبسط هو أنّ توقيت رسالة أدونيس لم يكن اعتباطياً، بل كان مطلوباً ومنتظَراً، لهذا السبب تحديداً: أنّ النظام، في هذه الساعات الحرجة التي تعصف بركائزه، بحاجة إلى كلّ أصدقائه، وينتظر منهم انحيازات واضحة صريحة لا تقبل الغمغمة أو التأتأة، وتقتضي الاصطفاف داخل خندق الصراع من أجل البقاء، وتأبى التفرّج من التخوم أو المشارف، فما بالك بالوقوف على الأطلال!

في عبارة أخرى، لم يعد مجدياً أن يتابع أدونيس ما دأب عليه منذ انطلاقة الانتفاضة السورية (التذرّع بالدفاع عن العلمانية بغية التشكيك في تظاهرات تخرج من الجوامع، أو التباكي على

الوطن الجميل الذي يتشوّه، أو التحذير من مخاطر الانقسامات الطائفية... وتلك كانت موضوعات مقالاته السابقة). المطلوب الآن لا يقلّ عن الوقوف خلف رأس النظام، بشار الأسد شخصياً، واعتباره صمّام الأمان المنقذ والمخلّص، بعد تنزيهه من الموبقات جمعاء: أخطاء التجربة البعثية، مثل أوحال القتل والتعذيب والتمثيل بالجثث. لكنّ أدونيس ليس فقير العقل، أو ضعيف الاطلاع، لكي يجهل أنّ الأسد نفسه، وليس سواه، هو الأمين العام لهذا الحزب الذي تُلصق به كلّ هذه الموبقات، وبالتالي إذا كان ربّ البيت بالطبل ضارباً، فهل من شيمة أخرى لأهل البيت سوى الرقص؟

وأدونيس ليس ساذج الحجة أو ركيك المحاججة لكي يعلّق الحراك الشعبي السوري، الذي كان قد دخل شهره الرابع أكثر عمقاً وتجذراً، على مشجب حزب البعث تارة، ومشجب الجوامع التي ينطلق منها المتظاهرون تارة أخرى؟ ألا يعلم، حقّ العلم في الواقع، أنّ حزب البعث صار جثة شبه هامدة منذ عقود، وأنه ليس البتة حاكم سورية بل محض استطالة للأجهزة الأمنية، وغالبية أعضائه خدم عند تلك الأجهزة قبل أن يكونوا حملة عقيدة أو فكر سياسي؟ كذلك، ألا يعلم أدونيس أن التظاهرات خرجت من الجوامع في الأسابيع الأولى من الانتفاضة لأنّ المسجد، مثل ملعب كرة القدم، هو الفضاء الوحيد الذي لا يُمنع المواطنون من الاحتشاد فيه؛ كما يعلم أنّ التظاهرات لم تعد تنطلق من الجوامع وحدها، ولم تعد تقتصر على أيام الجُمَع أيضاً؟

وليس بجديد التذكير بأنّ أدونيس كان صديقاً لآل الأسد، منذ استيلاء حافظ الأسد على السلطة سنة 1970 وحتى الساعة، وأنّ صداقاته مع رجالات النظام لم تقتصر على الشخصيات الثقافية (إذْ كان هؤلاء الأتعس حظاً معه، كما في مثال رئيس اتحاد الكتاب السابق علي عقلة عرسان)، بل ضمّت أمثال اللواء المتقاعد علي حيدر (القائد الأسبق للوحدات الخاصة، وأحد كبار ضبّاط مجزرة مدينة حماة، خريف 1982)؛ والضابط المتقاعد السفير سليمان حداد، رئيس لجنة الشؤون العربية والخارجية في مجلس الشعب، والمقرّب من الأسد الأب؛ واللواء المتقاعد محمد ناصيف، أحد كبار ضباط جهاز المخابرات العامة؛ فضلاً عن السيدة أنيسة مخلوف (والدة بشار الأسد، التي يجمعها مع أدونيس انتماء سابق إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي). وحين توفي الأسد الأب، أرسل أدونيس برقية تعزية (وقد يكون الواجب إنسانياً صرفاً، هنا، لولا أنّ المرء ليس مضطراً للتعزية في رحيل الطغاة)؛ كما أرسل برقية تهنئة حين تمّ توريث الأسد الابن، بعد تعديل الدستور خلال دقائق، ليتناسب مع عمر الوريث (وهنا أيضاً، لا يصفّق المرء لجمهورية وراثية دون أن يكون صديقاً وفياً لطغمتها الحاكمة).

ولم يتخلّف أدونيس عن هذه المهمة، والحقّ يُقال، فأثبت أنه صديق صدوق للنظام، وهنا الفحوى الأهمّ في رسالته. لقد امتدح رأس النظام واعتبره القادر على إعادة "الكلمة والقرار إلى الشعب"، ومحو "صورة الرئاسات السابقة في سورية". وقال في ذمّ المعارضة السورية ما لم تتجاسر أجهزة النظام ذاتها على التفوّه به (هنا بعض صفاتها، عنده: "لحمة ضدّية عنفية، تغلب عليها نبرة التهييج والثأرية والدينية الطائفية أو السلفية). وأمّا ما تبقى من كلام حول الديمقراطية الممتنعة عن العرب، و"زمن السماء، الجمعي والإلهيّ"، مقابل "زمن الأرض، الفرديّ والإنسانيّ"، و"ثقافة المساومات، والترضيات، والابتزازات، والاحتكارات، والإقصاءات والتكفيرات، والتخوينات، إضافة إلى ثقافة القبليات والطائفيات والعشائريات والمذهبيات"... فهو محض اجترار أدونيسي عتيق باهت، لم يعد مكروراً فحسب، بل صار سفسطة جوفاء.

ويخطر لي أنّ أفضل الردود على رسالة أدونيس جاءت من بشار الأسد شخصياً، في خطابه الثالث قبل أيام. وليس لأدونيس عذر في القول إنه، وهو الرائي البصير، لم ير أي وليد أعطى ذاك المخاض!

3. نزيه أبو عفش: صراع على مفاتيح البيت؟

اتخذ الشاعر السوري نزيه أبو عفش موقفاً من الانتفاضة السورية، لخّصه (وأرجو أنني لا أختزل تفكيره هنا، ولا أنتقص من عناصره) في هذه العبارة: "لماذا تطلبون منّي أن أكون سعيداً؟ البيت كلّه يوشك أن يتهدّم فوق رؤوس ساكنيه، وأنتم تختصمون على مَنْ يحق له أن يحمل المفاتيح". وليس غبناً لمعنى هذه الجملة، أو لواحد من أبرز معانيها، أن يفهم المرء هذا المدلول البسيط: هو صراع حول ملكية البيت وهوية حاملي المفاتيح، أكثر ممّا هي انتفاضة حول ماضي البيت وحاضره ومستقبله؛ وحول نمطين، على الأقلّ، من ساكنيه: واحد يراه بيتاً للجميع تتساوى فيه حقوق المواطنين وواجباتهم، وآخر يراه مزرعة للنهب والفساد والاستعباد.

ليس غبناً، كذلك، أن يشكّل الموقف مفاجأة صاعقة، ومحزنة تماماً، ومثيرة للأسى، وبعض السخط، والكثير من العتب؛ إذْ يصدر عن شاعر لم نعرف عنه ممالأة لاستبداد، أو استهانة بالكرامة الإنسانية، أو تسليماً بالأمر الواقع الذي يفرضه طاغية وتشرّعه طغمة وتسنده عصابة. وحتى حين اتخذ أبو عفش موقفاً سابقاً، مدهشاً بدوره، إزاء انسحاب قوّات النظام السوري من لبنان، ربيع 2005، وتمثّل في مقالته الشهيرة "يوميات العار"؛ فإنّ حوافزه لم تكن تدافع عن النظام السوري، رغم أنها كانت تنقل المياه إلى طواحينه بذرائع يكتنفها الالتباس والإبهام، ولا تتفادى تماماً الوقوع في قسط من المثلبة ذاتها (الفخار القومي، أو القومجي بالأحرى)، التي تنتطح لمساجلتها. كان صديقنا ينتصر لـ"العرق السوري"، و"عظام يوسف الخال ودماء كمال خير بك"، و"أشلاء وغصّات ودماء الجنود السوريين الذين ماتوا" دفاعاً عن لبنان، ضدّ "عنصرية الضمير والعقل"، و"أبلغ الصيحات العنصرية وأشدّها دموية وسفاهة وسعار عقل"، لدى عدد من كتّاب ومثقفي لبنان.

شخصياً، ومن موقع تثميني لمكانة أبو عفش في المشهد الشعري العربي، وليس السوري وحده، لم يصدمني موقفه من الانتفاضة (رغم أنني كنت، وأظلّ، في عداد المندهشين من، والعاتبين على، والمخالفين تماماً لذلك، الموقف الركيك والاختزالي)، فهذا حقّ مشروع له؛ بقدر ما راعني

تصريف الموقف ذاته إلى قصائد وشذرات شعرية، كانت تضيف الإهانة إلى الجرح، كما أجيز لنفسي القول. وكنت، وأظلّ أظنّ، أنّ على طراز الشعر الذي يكتبه أمثال أبو عفش أن يتأنى طويلاً، وأن يحفر ويتشرّب ويختزن ويختمر أطول فأطول، قبل أن تولد قصيدة تخصّ انتفاضة شعبية عارمة، في أسابيعها الأولى، تنفتح على مآلات معقدة ليست البتة مرشحة لاستيلاد خواتيم سريعة، مرئية، مبسطة، أو قابلة لأي تبسيط.

وهكذا قرأت، ليس دون مرارة وتوجس، قصيدة أبو عفش "ربيع المآتم"، التي نشرها أواسط نيسان (أبريل) 2011، وفي مطلعها: "نعم، أعرفُ أنّ نيسان أقسى الشهور/ لكنْ، يا اللهُ/ إنْ كنتَ تعرف ذلك أيضاً/ فلماذا أوفدتَ كلّ هذه الأزهار إلى وليمته؟". جرعة إضافية من التشاؤم يحملها المقطع الثاني: "نطلّ على الربيع/ كمنْ يطلّ على سرادق مأتم/ كأنما لا أحد يعرف طريقاً إلى عرس!/ الأزهار كلّها محمولة إلى مقابر موتى:/ حمراءُ موتى. صفراءُ موتى. بيضاءُ موتى. ذبائحُ موتى/ الحياة كلّها ماشية خلف نعوش موتى/ يا إلهي! خلف جنازة مَنْ/ يهرول هذا الربيع كلّه؟". أمّا المقطع الأخير فهو ذروة دراماتيكية، في يقيني، تنقل قصيدة أبو عفش إلى مصافّ اللافتة التي ترفع شعاراً مثلما تعلن نعوة: "افرحوا!/ افرحوا واطمئنوا!/ عمّا قريب/ كلّ هذه الأزهار/ ستغدو عتيقة وفاسدة/ تُرى، كم يتوجّب علينا أنْ ننتظر/ لنشهد ولادة ربيعٍ آخر؟".

طرائق التأويل، وتلك التي تخصّ القارىء العريض بصفة خاصة، جبارة ومتجبرة في آن، ولعلّ سواي لا يرى في هذه القصيدة ما رأيته من تشاؤم إزاء ربيع (الثورات العربية، والانتفاضة السورية... أليس هو ذاك؟) مكتظ بالمآتم والمقابر والنعوش والجنازات، ولكن دون بصيص أمل واحد من جهة؛ وضمن مساواة صاعقة، لا تتمسّح حتى بالتسامح الميتافيزيقي المعتاد الذي يطبع مزاج أبو عفش، بين القتيل والقاتل، والضحية والجلاد، والمواطن الثائر والطاغية المستبدّ، من جهة ثانية. فإذا أجزتُ لنفسي تنزيه الشاعر عن ممالأة جرائم الفريق الثاني، فكيف أجيز له صمته عن عذابات الفريق الأوّل؟ وكيف، في مبتدأ الأمر ومنتهاه، يمكن لانتفاضة يتقابل فيها الصدر المفتوح مع سبطانة الدبابة، أن تكون محض صراع على مفاتيح البيت؟

نتذكر ذلك السجال الكبير، والخطير، الذي دشّنه الفيلسوف الألماني اليهودي تيودور أدورنو ذات يوم، حين أطلق عبارته الرهيبة، "كتابة الشعر بعد أوشفتز أمر بربري"، حول ما إذا كان الشرّ المطلق يفرض قيوداً على الفنّ المسلّح بالوجدان، أو المتكيء على الضمير. فهل كان ربيع الانتفاضة قاسياً في نظر أبو عفش، إلى درجة التسبب في احتباس القصيدة، وعزوف الشاعر عن كتابتها، كما يشير صمته المطبق طيلة أسابيع؟ أم، كما يساورني الأمل شخصياً، كان جزّ حنجرة الزجّال الحموي إبراهيم القاشوش، أو تكسير أصابع رسام الكاريكاتير علي فرزات، أو الاعتداء الوحشي على والدة ووالد الموسيقي مالك جندلي... كفيلاً بإقناع أبو عفش أنّ "الخصومة" لا تدور حول امتلاك المفاتيح، بل هي انتفاضة من أجل استرداد الحقّ في الصوت، والتعبير، والإبداع، والكرامة؟

4. سامي مبيض: لا فولاذ ولا حرير

في 26 نيسان (أبريل) 2011، كتب أنّ "العلمانيين في أرجاء العالم العربي، وخاصة أنصار النظام في سورية"، لا ينظرون بعين الرضا إلى ما يجري في مصر، من حيث احتمال أن تصبح "إسلامية"، لأنّ ذلك قد يكون له مفعول الدومينو. وأضاف، مقتصراً هذه المرّة على الشريحة الثانية من العلمانيين كما يُفهم، أنهم "يستخدمون مصر لإفزاع السوريين المسيحيين، مثلاً، من جرّاء ما سيحدث في دمشق إذا وقع تغيّر النظام في سورية". حسناً، ماذا عن أفكاره اليوم، بعد إقرار انتخاب محمد مرسي، الإخواني، رئيساً شرعياً لجميع المصريين؟ إنه، بعد أن يعتبر ذلك اليوم "مجيداً في التاريخ العربي"، يطالب بالتالي (عنوان مقاله الأحدث): "فليقفِ الجميع احتراماً لشعب مصر"!

هذا هو طراز "التاريخ" الذي اقترحه "المؤرّخ" السوري سامي مبيض، صاحب أربعة مؤلفات بالإنكليزية عن سورية، بينها سيرة للرئيس الراحل شكري القوتلي؛ ورئيس تحرير موقع إلكتروني يُدعى Forward، زائره يجد أنّ أحدث أخباره ذاك الذي يعلن تشكيل لجنة لإعداد دستور سوري جديد، يُصوّت عليه في شباط (فبراير)... 2012 (والافتتاحية تعود إلى شهر آذار/ مارس، من العام ذاته!). وقبل الوقوف على عيّنات من وفاء هذا المؤرّخ لتاريخ بلده، تجدر الإشارة إلى أنه يكتب من دمشق، ولم يكن في أيّ يوم ناقداً للنظام، بل العكس (آخر ما يتباهى به مقابلة مع برباره والترز، دون سواها، تعود إلى سنة 2008، وتمتدح بشار الأسد وعقيلته!).

كذلك فإنّ مقالاته عن الانتفاضة السورية، كما ينشرها باستمرار في المجلة التايلاندية Asia Times، لا تقوم إلا على التأتأة والغمغمة، كأن يكتب: "في سورية، لا أحد توقّع أنه سيأتي يوم يخرج فيه المتظاهرون إلى الشوارع، مطالبين بتغيير النظام، من وحي الربيع العربي في تونس، وليبيا، ومصر"؛ أو: "لا أحد تخيّل أنّ الدولة سوف تُجبَر، تحت ضغط المتظاهرين الغاضبين أنفسهم، إلى تغيير الدستور". ثمة، هنا، حرص شديد (وبراعة خاصة، بالفعل، تستدعي المشقّة أغلب الظنّ!)، على عدم إفلات جملة واحدة مفيدة قد تؤخذ عليه، سواء من أهل السلطة أو حلفاء النظام، خاصة أرباب المال والأعمال، ممّن يحترف "المؤرّخ" تغطية أخبارهم.

فإذا تصفّح المرء أحد مؤلفاته في "التاريخ". كتابه "فولاذ وحرير: رجال ونساء صنعوا سورية 1900 ـ 2000"، الذي صدر بالإنكليزية سنة 2006 عن دار النشر الأمريكية Cune Press، في 624 صفحة. فسيجد معلومات من هذا النوع، تُنقل هنا بالحرف تقريباً:

ـ زكريا تامر روائي سوري، له 75 رواية، أشهرها "دمشق الحرائق"، وأكثرها شعبية روايته "نداء نوح"، وهو يُعتبر أبرز كتّاب أدب الأطفال في العالم العربي؛

ـ محمد الماغوط كاتب مسرحي، أبرز إنجازاته مسرحية "ضيعة تشرين" بالتعاون مع دريد لحام ونهاد قلعي، والتي تنتقد عهد الوحدة وجمال عبد الناصر؛ وله مع ذلك مجموعة شعرية بعنوان "حزن في ضوء القمر"؛

ـ رياض الترك صاحب خطّ ماويّ (نسبة إلى ماو تسي تونغ) اختلف فيه مع خالد بكداش؛ واعتُقل سنة 1980 وأفرج عنه سنة 1998 بعد أن تعهّد بـ "ترك السياسة وقضاء ما تبقى من حياته في سلام وأمان"؛ و"خلال السنوات الثلاث التالية تجنّب الترك الحياة العامة فلم تضايقه السلطات الحكومية"، حتى ظهر في برنامج على "الجزيرة" وتحدّث "بسلبيّة بالغة عن الحكومة السورية"، ولهذا فقد اعتُقل مجدداً، ثم أطلق سراحه بأوامر من الرئيس بشار الأسد في تشرين الثاني 2002؛ ومنذئذ "أقلع نهائياً عن كلّ نشاط سياسي".

هذه، إذاً، ثلاث عيّنات من مجلد يتنطح لتقديم تعريفات، أو تراجم كما يقول المصطلح الفصيح، عن 341 من نساء ورجال سورية في القرن العشرين، هم "أبطال وأنذال السياسة والثقافة والطموح الوطني" كما جاء في كلمة الغلاف الأخير. لا نعرف حكمة استخدام صفة "أنذال" Villains هنا، ولكن من الجلي أنّ العشرات آنفة الذكر جديرة بأن تقلب التوصيفات رأساً على عقب، فلا يستبين المرء أيّ فوارق بين البطولة والنذالة. الركون إلى معلومات مبيّض يصبح مجازفة مفتوحة، بالتالي، لأنّ صواب المعلومة هو المقتضى الأوّل في أيّ تأليف من هذا القبيل. الخطأ هنا قاتل ولا استئناف فيه، ليس في ناظر القارىء السوري مبدئياً، بل عند القارىء الأجنبي الذي سوف يعتمد معلومات الكتاب دونما مساءلة.

"المؤرّخ"، من جانب آخر، أدرج بثينة شعبان في عداد كتّاب وفنّاني سورية، ولكنه تجاهل عشرات الأسماء اللامعة التي لا يصحّ أن تغيب عن عمل موسوعي من هذا الطراز، مثل عبد الباسط الصوفي وسعيد حورانية وهاني الراهب وممدوح عدوان وسليم بركات، في الأدب؛ ونذير نبعة ومروان قصاب باشي وسعيد مخلوف، في الفنون التشكيلية؛ وأبو خليل القباني وفايزة أحمد وسعاد حسني ونجاة الصغيرة (ما دام قد أدرج أسمهان وفريد الأطرش)، في فنون المسرح والغناء. ولأنّ كلا الفولاذ والحرير غائب عن "التاريخ" الذي يزعم تسطيره، فإنّ المرء لن يستغرب من مبيّض دعوة مماثلة للوقوف احتراماً للشعب السوري، ساعة انتصار الانتفاضة، وكأنّ "المؤرّخ" كان كلّ الوقت يؤرّخ من قلب بابا عمرو أو دير الزور أو دوما أو زملكا!

5. خاتمة: "خوش صموتيم"

كان يحلو للفنّان الفلسطيني الراحل ناجي العلي أن يعقد جناساً لفظياً طريفاً، ومريراً قاتماً في الآن ذاته، بين حركة "غوش إيمونيم" الإسرائيلية المتطرّفة، وما أسماه حركة "خوش صموتيم" العربية التي ينتسب إليها الحكّام العرب كافة، والتي لا تمارس إلا الصمت في أفضل (أي: خوش) أنماطه! وفي الوسع استخدام ذلك الجناس اليوم أيضاً، لوصف صمت عشرات المثقفين العرب عن قبائح أنظمة الاستبداد العربية، أو انخراطهم في تجميلها تحت ذرائع فاضحة ومفتضَحة؛ وذلك رغم أنّ "خيانة المثقف"، في المفهوم الذي أشاعه الفيلسوف الفرنسي جوليان بيندا منذ عشرينيات القرن الماضي، ليست طارئة في التاريخ، قديمه وحديثه، وليست البتة مفاجئة، بسبب من طبيعة موقع المثقف الإيديولوجي والوظيفي والاجتماعي.

وأبقى في بلدي، سورية، ليس لأنني أدرى بشعاب مثقفيها، كما أرجو، فحسب؛ بل لأنّ الانتفاضة السورية صارت أمّ انتفاضات العرب، ولا فخر، إذْ تدخل شهرها السابع أكثر عزيمة وصموداً، وأشدّ مضياً في بذل التضحيات وتطوير ثقافة المقاومة، ومعها تذهب أجهزة نظام الاستبداد والفساد إلى المدى الأقصى في البربرية والهمجية، وفي اليأس والسلوك الانتحاري. وأبقى في سورية لأنّ العشرات من مثقفيها المشاهير يواصلون الانضواء في "حركة صموتيم"، مخجلة تماماً حين تُقارَن بمواقف زملاء لهم، سوريين وعرب وأجانب؛ كما أنها مخزية حين تضع ضمير الصامت أمام تفاصيل الأهوال التي يتعرّض لها بنات وأبناء بلده، وحين تُخرج صمته من نطاق الرأي الشخصي أو الموقف من الانتفاضة، لتنتهي به إلى المشاركة في المجزرة والاغتيال والاعتقال وجلسة التعذيب وكسر التظاهرة، فضلاً عن حصار الحيّ والقرية والبلدة والمدينة، ودكّ البشر والحجر والزرع والضرع بأكثر الأسلحة فتكاً وتدميراً.

ولعلّي أعود إلى برهة مفصلية في تاريخ علاقة المثقف السوري بـ"الحركة التصحيحية"، نظام الأب ووريثه، هي "بيان الـ99"، الذي صدر بتاريخ 2000/9/27، أي بعد قرابة ثلاثة أشهر على توريث الابن. لم يكن مألوفاً، آنذاك، أن يصدر بيان يحمل تواقيع 99 من أبرز مثقفي سورية، يطالب بثلاثة: 1) إلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية المطبقة في سورية منذ 1963؛ و2) إصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير والملاحقين لأسباب سياسية، والسماح بعودة المشردين والمنفيين؛ و3) إرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية وحرية الاجتماع والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة المفروضة عليها، بما يسمح للمواطنين التعبير عن مصالحهم المختلفة في إطار توافق جماعي وتنافس سلمي وبناء مؤسساتي...

فأين يتموضع اليوم الموقّعون على البيان، وما موقفهم من الانتفاضة تحديداً؟ ثمة أولئك الذين رحلوا عن عالمنا، ومن الوفاء البسيط أن نستذكرهم (أنطون مقدسي، عبد المعين ملوحي، عبد الرحمن منيف، علي الجندي، ممدوح عدوان، عمر أميرالاي)، وأن نعتبر مساهماتهم في نقد الاستبداد معيناً أساسياً يرفد تراث الانتفاضة الإجمالي. ثمة، في المقام الثاني، أناس يواصلون روحية ذلك البيان، بوسائل وتعبيرات شتى، وعلى نحو أوضح انحيازاً إلى الشعب والانتفاضة وسورية المستقبل؛ وكان طبيعياً أن ينالهم من عسف السلطة الكثير، وبعضهم يعيش شرط الحياة السرية أو غادر إلى المنفى. وثمة، ثالثاً، مَن اختاروا تعليق الآمال على النظام ذاته، واعتبروا أنّ إسقاطه شعار "مغامر" أو "غير سياسي" أو "غير ممكن"، ومن الخير حثّ رجالات السلطة أنفسهم على القيام بإصلاحات تكفل انتقال سورية إلى نظام ديمقراطي مدني، وتضمن في الآن ذاته عدم تفكيك مؤسسات الدولة.

فئة رابعة اختارت الوقوف في صفّ السلطة، ظاهراً أو باطناً، بذرائع تتراوح بين "الشفقة" على سورية من أخطار المستقبل، أو ازدراء الحراك الشعبي بوصفه محض مظاهرات تخرج من الجوامع، تتألف من "إسلاميين" أو "رعاع" أو "دهماء". مثقفو هذه الفئة لا يتورعون عن الكتابة في إعلام السلطة، أو العمل لدى المؤسسات الحليفة لها، دون رادع أو حرج. وأمّا الفئة الخامسة، والأكبر للأسف، فهي تنتمي إلى جماعة الـ"خوش صموتيم"، حيث لا يُكسر الصمت إلا في المجالس المغلقة، رغم أنّ تهديم جدران الخوف، واحداً تلو الآخر، صار عادة مفضّلة لدى السوريين منذ انطلاق الانتفاضة. وبالطبع، لا يُدهَش المرء إزاء صمت مثقفين ينتسبون إلى أحزاب متحالفة مع النظام، وبينها حزبان ما يزالان يزعمان هوية شيوعية (جماعة بكداش، وجماعة يوسف فيصل)؛ أو مثقفين ينتابهم الخواف على مصير الأقليات، طائفية كانت أم دينية أم إثنية، وذاك ترحيل مقنّع لرغبة دفينة في اللوذ بحياض النظام القائم.

هذا هو "خوش الصمت"، كما قد يقول أخوتنا العراقيون، لإنه ذروة في النطق ضدّ الانتفاضة عن طريق الإحجام الإرادي عن النطق لأجلها، وليس في الأمر مفارقة إذا تذكّر المرء فلسفة النظام الأمنية الراهنة: مَنْ ليس معهم، فهو معنا نظرياً و... عملياً في المحصلة؛ وإذا كان انقسام شرائح المثقفين السوريين إلى فئات خمس هو مصيبة، في حدّ ذاته؛ فإنّ انخراط البعض في التراشق بالبيانات وشنّ حملات التخوين، بالنيابة عن أجهزة النظام، ليس المصيبة الأعظم فحسب، بل هو صمت القبور الأعلى صخباً، وجعجعة! ■



رفيق شامي

مثقفون ومرتزقة

خواطر في الثورة السورية

كان إبني في فترة من الفترات مولعا بقصص الرعب وأفلامها، وكان أكثر مايثير إشمئزازي والرعب في أوصالي هم الأموات في أجساد الأحياء. يبدون أول الأمر كبشر عاديين وفجأة يتفسخ جلدهم الذي يستر حقيقتهم ليظهروا كمسخ، كغول أو كوحش ضاري يعيث في المدينة والمدنية فسادا ويلتهم الأحياء.

كلما شاهدت عبد الحليم خدام النووي وتقاسيم وجهه تذكرت تلك الصور المرعبة في الكتب والأفلام. ويقشعر بدني عندما يتكلم وكأن كلماته آتية من جثة محنطة مجهزة بإسطوانة.

وهو كتلك القصص المرعبة لا يشبع. بعد أكثر من ثلاثين عام من الإجرام والنهب المتواصل هرب بملايينه التي سرقها. لكنه لم يشبع، يريد الأكثر ويقدم على حساب الشعب السوري كشقيقه الروحي رامي مخلوف وإبن جلدته عميل المخابرات الأمريكية الغادري تبرعات لإسرائيل على حساب الوطن.

غباء هذا الثلاثي الغير مرح يصل لحدود رهيبة، حتى أنهم فقدوا القدرة على الخجل، فالخجل عاطفة إنسانية تحتاج لقلب نابض ولا يتقنها الأموات. فهم لا يسألون أنفسهم عن الجديد في عرضهم الذليل هذا الذي يتسولون به عطف الغرب؟ وكل سياسي في الغرب وإسرائيل يعرف أن أمثال خدام يحرصون منذ أربعين عاما على إسرائيل وسلامتها أكثر من حرصهم على ابناء وطنهم.

الوطني بيني وبينه

لي زميل سوري له وجهان، وجه عندما أقابله لوحدي ووجهه اليومي الضحوك أبدا الذي يذكرني بمختار القرية في تمثيلية سورية من الدرجة الثانية (حيث يرتدي الممثلون ثياب البدو كما تعلمها المخرج السوري من الأفلام الأمريكية) وبسميرة توفيق وأغانيها البالية عن شرب القهوة على ظهور الخيل. هكذا يظهر الزميل لكل ضيوفه الألمان والعرب. يرفض الكلام عن السياسة ويعيد بكل هبل كل شيء لمؤامرات تحاك عالميا ثم يذهب كل صيف ليكمل بناء بيت في قريته لن يسكنه... إنما هكذا يبنيه ليدل أبناء قريته على أنه ميسور الحال.

لكن عندما نلتقي لوحدنا يسر إلي بأن النظام السوري مافياوي متآمر ومجرم ويبالغ إلى الحد الذي يجبرني، لأن ضميري يمنعني من المبالغة، من الدفاع عن النظام.
هلل الرجل بوجهيه للثورة التونسية والمصرية ولم يصعب عليه ذلك ولا كلفه شجاعة او طاقة لإقناع الأخر، فالثورتين أدهشتا الألمان وحازتا تعاطف جماهيري عريض. لكنه إختفى فجأه بوجهيه منذ إندلاع الثورة السورية.. أبدا كأنه ذرة ملح سقطت في بحيرة ماء...
اليوم عاد، عاد وبراءة الأطفال في عينيه، ليقول لي أنه يريد زيارتي والكلام معي بيني وبينه (بالعامية الدمشقية بمعنى ألا يكون ثالث معنا وأن أحفظ سر ما يفضيه إلي). ضحكت ضحكة مختارية كادت تخرب السماعة وصرخت به لا مقابلة بعد اليوم إلا بحضور شهود وكاتب عدل يثبت كل ما تقوله وعلى الهواء المباشر، ثم أغلقت الخط.

المتفائل والمتشائم

تكثر المفاضلات بين المتشائم والمتفائل. وتنزع أغلب الأقوال والحكم العربية لمدح المتفائل وذم المتشائم. ومن البداية أريد أن أسجل إعجابي بكل متشائم ونقد المتفائلين عن طيبة سريرة. لماذا؟
لأن كل ديكتاتور متفائل من الدرجة الفوق عادية. لم اسمع ولا سجل التاريخ خطابا واحدا لديكتاتور يقر فيه بشيء من التشاؤم. أبدا، البلد تصل إلى حد الخراب وهو متفائل، الاقتصاد منهار وهو يعرض بكل تفاؤل خطته للسنوات الخمسة القادمة. ليس هتلر أو موسوليني وحدهما كانا حتى اللحظة الأخيرة متفائلين. كل ديكتاتور من أمثال حسني مبارك والقذافي وبن علي لم يفقدوا حتى اللحظة الأخيرة تفاؤلهم. البلد تحترق والدبابات والقناصة تهاجم ليس إسرائيل بل مدن سورية وديعة مسالمة وبشار الأسد يلوح مبتسما ومتفائلا أن كل شيء يسير على ما يرام. الناس تدفع حياتها ثمنا لحريتها وهو لا يزال يعد بإصلاحات وبمستقبل زاهر. الشعب يثور وهو يصدق فعلا أنه حاكم للأبد. لا داعي للترفع الشعري بالضحك على من نظم الهتاف وفرح ببدائية تشابه قافية أسد مع أبد، فأتباع الديكتاتورية هتفوا نفس المحتوى دون أن تصلح اسماء الديكتاتوريين للوزن الشعري فلا ستالين ولا هونيكر ولا بينوشيت ولا سالازار أو فرانكو إشتكوا من قلة تفائلهم بالأبد الذي أرادوا أن يحكموا طيلته.
الديكتاتور مجبر على التفاؤل، فالتفاؤل مهمته اختزال هزائم وبؤس حاضره بوعود مستقبلية. 40 سنة من الديكتاتورية القاتمة ولا يخجل الرئيس عن التفائل بما ... سيفعله ... وسيطوره ... وسيسمح به ... وس وس إلى آخر الوعود. بينما المتشائم يظل عالقا بالحاضر (واحيانا بالماضي) باحثا عن نقاط الضعف لكي لا يبقى ثغرة لكوارث قادمة لا محالة ولكن بإمكان المجتمع أن يصدها. "وإن بصعوبة" يضيف المتشائم.
والديمقراطي هو أكثر الناس تشاؤما فهو يعرف تقلبات الدهر وأزمات السياسة والإقتصاد كما وضعف الإنسان أمام المال والسلطة.. ولذلك يرافق كل تخمين وتقدير منه للوضع رشة بهارات تشاؤمية.
التاريخ سجل بإستمرار تأكيدا لصحة وجهة نظر المتشائمين وبطلان كل ما قاله المتفائلين.
منذ اليوم سأسقي نبتة تشاؤمي لكي لا تذبل في لحظات فرح تغمرني بتفائلها.

شجاعة الجبناء

دريد لحام ممثل كان من الممكن له أن يجتاز حدود سوريا وحتى حدود الوطن العربي، لكنه تساقط إلى التهريج بأفلام ومسرحيات مبتذلة، لم يبق من الشام فيها سوى قبقابه الخشبي الذي مللنا منه ومن قرقعته.
كان الماغوط لفترة حبل نجاة في آخر لحظة لكن دريد لحام إنكفأ إلى المسخرة التي درت أرباحا مادية بسهولة بدل نصوص الماغوط االتي كانت تثير جدلا، وإن بحدود. دريد لحام باع كل شيء مقابل المال وحده وسقط إلى قعر هاوية لا خلاص له منها يرافقه تصفيق مسؤولي الثقافة من وزن المهرجة نجاح العطار وفرع مخابرات الثقافة البالية. لكن هذا كان لن يثير سوى شفقة تجاهه كالشفقة تجاه كتاب وشعراء وعدوا في البداية بالكثير وإنهاروا ثقافيا وأدبيا.
لكن ما يدعو للإشمئزاز فعلا هو جبن دريد لحام وقذاعته بثوب الشجعان، سألت نفسي كيف يستقبل هذا الرجل القذافي ويحيطه بالفنانانين والفنانات وكأن منزله أصبح بيت دعارة. هل أجبره احد على ذلك؟ بالطبع لا.
وهل أجبره أحد ان يصدر بيانات تلو البيانات تحتقر ضحايا درعا وبانياس والبيضة وحمص واللاذقية و القامشلي ودوما و الزبداني وغيرها من المدن الشجاعة واقفا وعلى المكشوف مع الجلادين والقناصة والشبيحة والمخابرات؟ لا، أبدا. دريد لحام قام بذلك بمنتهى الحرية. وهو عندما يخترع جدارا بين سينمائيي الداخل والخارج ليبرر بلؤم موقفه مع الجلاد فإنما يضع من يصنفهم "غير الداخل" كعملاء أو على أفضل الأحوال أغبياء مغرر بهم.
عندما كنت أشاهد هذه الوجوه الجبانة للفنانين الذين باعوا أنفسهم بالجملة والمفرق للنظام كنت أسأل نفسي من أين تأتيهم الشجاعة وهم يعلمون أن هذا النظام ساقط لا محالة؟
الجواب: هؤلاء تعلموا بسرعة أن الحكم الديمقراطي لا ينتقم وانهم لا يغامرون بأي شيء وانهم سيصبحون بين ليلة وضحاها "ضحية النظام الذي إبتزهم". بعد سقوط صدام حسين تحول الكثيرون من رجاله ونسائه إلى مناضلين للحرية في الخفاء حتى رجال مخابراته...
وهذا أخو دريد لحام بالرضاعة عادل إمام عاد بعد بهدلة صغيرة ليصول ويجول. لذلك لا يخشى هؤلاء الشعب خشيتهم من ديكتاتور قادم ليحل محل الديكتاتور المنهار...لو كان الأمر كذلك لصمت فنانونا إلى أن ينجلي غبار المعركة ويهللوا للمنتصر كما فعلوا مع كل الديكتاتوريات التي مرت على سوريا. وبالتالي ليس من المستغرب أن يحتقر السلطان وكل نظام شمولي الفنانين

ويعتبرهم طبالين لسلطته.
واراهن انهم يوما سيدعون أنهم كلهم كانوا في مقاومة سرية لم يشعر بها أحد. لكن في حالة دريد لحام وأمثاله أتمنى أن يأتي اليوم الذي يقدم فيه هؤلاء لمحكمة نزيهة وعادلة بتهمة التحريض على قطع أرزاق الزملاء الأحرار لا بل التحريض على قتلهم وتهمة الشماتة بشهداء الوطن وتأييد المجازر الدموية للنظام. بالطبع على المحكمة العادلة أن تعطي هؤلاء الفرصة الكاملة للدفاع عن نفسهم تجاه التهم الموجهة إليهم.

برقية لم أرسلها لأدونيس

قررت الجماهير تلبية لطلبكم الغالي أن تتظاهر في كل أيام الأسبوع (وليس فقط يوم الجمعة) وفي كل الأمكنة (وليس فقط إنطلاقا من الجوامع كما إنتقدتم) وأن تقدم الغالي والرخيص فقط لتسمع صوتكم العندليبي. فهلا تكرمتم بموال؟!
الإخوان المصريون يساعدون النظام السوري مجانا
لم أر أنذل من السلفيين الذين يحرقون الناس وبيوت عبادتهم في مصر العزيزة. ولا داعي للتأكيد ان الأقباط كانوا وسيظلوا يعيشون في تآخي كمصريين وطنيين أصلاء. الجريمة التي يرتكبها السلفيون بشقين أولا إنسانية بتعريض مواطنين للخطر والموت وتخريب ممتلكاتهم وإذلالهم بإهانة وحرق كنائسهم. ثانيا سياسية لأنهم يقدمون أجمل مساعدة مجانا لنظام دمشق فكل إبن أقلية سورية يسهل إقناعه أكثر بأن النظام الطائفي الحاكم في دمشق قد حماه طيلة الوقت على الأقل جسديا ومن حرب أهلية وأنه لا بديل له سوى هؤلاء السلفيين الذين سيحرقون كل ما هو ليس من السنيين.
فهل يتجرأ الإخوان المسلمون السوريون على ممارسة نقد عديم الرأفة ضد هذه الأعمال البربرية والمؤيدة لنظام الحكم السوري؟

العشيرة

كثر إستعمال تعبير "العشيرة العربية" في مفردات السياسة ونقدها اليساري. حتى أصبحت مفردة "العشائرية" مجرد شتيمة توجه لأي تكتل لا يروقنا موقفه.
العشيرة العربية نظام إجتماعي سياسي تطور تاريخيا كرد حيوي على ظروف الحياة القاسية في الصحراء. لكن نظام العشيرة التي أنقذ العرب من الموت جوعا تحول لسلاسل تقيد العرب في نهضتهم. وهذا مصير أي نظام إنتهت مهمته التاريخية. يتحول لعبء، لقيد وفيما بعد لقبر إن لم يتحرر أتباعه منه...
لن أسهب الحديث عن العشيرة وخصائصها بل سآخذ الخاصة التي تهمنا بشأن الثورة السورية. العشيرة في إحدى صفاتها تحتقر الفرد. فهي توفر له الحماية والإطمئنان على أن يظل عديم الوجه لا يقوم إلا بما تحتاجه العشيرة لديمومتها. فإذا صح تشبيه العشيرة بجسم الإنسان فرأسه هو شيخ القبيلة الذي قد يقود عشيرته لبر الأمان أو أن يكون أهبلا أو مجرما يؤدي بالعشيرة عبر تهوره و"أم معاركه" للهاوية فتتبعه كالقطيع إلى الهلاك. أما باقي الأعضاء فهم رعية لا رأي لها. هكذا وضع لا يسمح بطرح الأسئلة ولا بالمعارضة. فالسؤال النقدي "يوهن" عزم القبيلة والمعارضة خيانة... وكل من ينتقد الشيخ ينتقد القبيلة وجواميسها وجمالها وحتى مراعيها ومراحيضها... هكذا يرد اتباع الديكتاتور العربي على أي نقد لزعيمهم وشيخ لقمتهم... وبالمناسبة نستخدم نحن العرب تعبير الخيانة بشكل كثيف قلما عرفه شعب آخر. لأن البدوي القابع داخلنا يشتم رائحة الخيانة في أي تصرف لا يعجبه. إذا عشق رجل أو إمرأة المانية غير زوجهما سمي ذلك بالألمانية "كسر للزواج" فالزواج الألماني عقد يبرمه إنسانان يريدان العيش بحب أو على الأقل بهدوء مع بعضهما... فإذا عشق أحدهما شخص ثالث كسر عقد الزواج. العرب يعتبرون معاشرة شخص ثالث خارج خلية القبيلة الصغرى (العائلة) خيانة...
النظام العشائري لا يسمح للفرد بالإبداع والخروج عن المسموح فهو يحتقر الفردية التي تهدد كيانه. ومن إحتقار النظام القبلي العشائري للفرد، تتضح عدائية العشائرية للنهضة الحديثة لأن التطور البورجوازي الأوروبي، الذي صبغ المدنية الحديثة بطابعه، يبني على تقديس الفرد. والجمهورية تحققت بثورة جمهور من الأفراد لا منحة و لا إرثا.
وتتقارب صورة أي نظام شمولي من صورة العشيرة، لا بل ينصهران لهجين يحمل صفاتهما معا. النظام القهري العشائري يضع مثلا المفكر العربي دوما تحت ضغطين: ضغط الديكتاتورية الحمقاء وضغط العشيرة الأحمق. فأنت كعربي تحاسب من العشيرة قبل أن يصل حساب النظام لرقبتك. العشيرة تربض فوق كتفيك وبداخلك. وقد فند علماء النفس والإجتماع العربي بتفصيل وذكاء نتائج هذه الضغوط القبلية على نشأة الطفل العربي وتربيته على الشك بكل غريب ودفاعه عن عشيرته مهما كلف ذلك.
ما يهمني في هذا الصدد أن العشيرة قد تثور لكنها أبدا ليست ثورية، إنما تثور لتحصل على مصلحة لعشيرتها دون أن تعنى بالإنسان الذي قام بهذه الثورة. ولهذا يكفي أحيانا شراء شيخ القبيلة لإسكات كل القبيلة... يقال أن المجرم رفعت الأسد وبتوجيه من أخيه الأذكى حافظ ورط قبائل سنية من حوض الفرات في الهجوم على حماة. وكافئهم بمعطيات مادية وأسلحة. هذه صفات الثورة المضادة. أما الثورة الحقيقية فيصنعها أفراد، وفي مثالنا العربي الفريد في تاريخ البشرية خرجت جماهير تونس ومصر كأفراد لا كعشائر وأطاحت بحكامها بشكل لم يسبق له مثيل.
فجأة تحتل العشيرة في الثورة السورية مركزا أكبر من أي مركز ظهر لها في تونس ومصر. كيف كان لهذا أن يحدث؟ ليس فقط بتسمية جمعة بإسمها بل بظهورها في أي مؤتمر أو تجمع كوحدة مستقلة وكأنها تجمع إثني أو ديني خاص. أي أن فرد من أفراد عشيرة تقطن بجوار حلب مثلا



ينتمي أولا للعشيرة وثانيا لحلب وثالثا لسوريا. وهذا تساقط فظيع للوعي بالمواطنة. فما هو الموقف من تبجيل العشيرة هذا؟

العجيب في الأمر أن سوريا كانت حتى مطلع السبعينيات أبعد الدول العربية عن العشائرية. لكن حكم الأسد الذي بنى على العشيرة روج وشجع كقريبه صدام حسين في بغداد على إنعاش العشائر وصار كل "فصعون" لا يذكر إسمه إلا ويتبعه بنسب وهو على الأغلب مزور. فهذا يوصلنا بذريته للنبي العربي وذاك لعلي بن أبي طالب...وآخر لقبائل يمنية...وناهيك عن التأكيد اننا في سوريا جمهورية منذ الإستقلال في عام 1946...

نظام حافظ الأسد تجسيد لسلطة عشيرة، كانت مجبرة على الإستعانة بكل شيء، حتى بالرضوخ لإسرائيل والتعاون مع الكتائب الفاشية اللبنانية، للحفاظ على سلطتها التي أتت بشكل إنقلاب على رفاق دربه، لم يضمن الأسد إستمراريته بسهولة، ولا كان يقتنع باجهزة مخابراته العديدة... كان الأسد الأب على عكس إبنه بشار يعرف السوريين ويخشاهم، فبذل كل جهده لمشاركة عشائر أخرى بالغنيمة على ان تبقى حصة الأسد له. وهكذا إلتف حوله عدد كبير من المنتفعين من كل الطوائف والعشائر...

العشيرة هي التي تصف حكم الأسد بدقة وليس الطائفية. فالطائفة في عقلية شيخ القبيلة ليست إلا أداة من أدوات تثبيت سلطة عشيرته. ولم يخطر ببال حافظ الأسد ولا لثانية واحدة أن يعين أي مسؤول علوي قادر وصاحب خبرة كخلف له بل أصر أن يكون إبنه خليفة له. ومات باسل بحادث سيارة فأجبر الأب إبنا لا علاقة له إطلاقا بالموضوع بأن يرث سلطته. وإنصاع بشار الأسد، الذي عاش في لندن هنيا مرتاحا، لأمر العشيرة واتى لينتقل عبر فصول مسرحية مضحكة سيئة الإخراج لقائد عسكري تضحك إسرائيل على مقدراته الفذة حتى تطق خواصرها (يمكن ان يكون ذلك إحدى المخططات الأسدية- الطلاسية لقهر إسرائيل ودحرها عن الجولان). وما حدث في ما يسمى "مجلس الشعب" ليس إلا تكملة لهذه المهزلة العشائرية فلقد هلل هذا المجلس الغبي للتوريث وراحت أرملة بكداش التي ورثت الحزب وقيادته حسب النظام العشائري نفسه تزايد حتى على النظام... بأن شعبنا يحب التوريث... وتفشت العشائرية ليس فقط في إعتقال ذوي القربى عند فرار أحد اعداء النظام بل حتى في وراثة مناصب في الدولة أو البعثات العلمية. وكنت ترى ليس فقط في المانيا الغربية أقرباء من هم في سدة الحكم مبعوثين بل أقرباء وأبناء عشائر المعارضة في بلدان المعسكر الشرقي آنذاك...

نحن إذا في مواجهة مرض إستعر منذ أربعين سنة في سوريا وعلينا ان نعرف أن إستئصاله مؤلم لكن دون هذه العملية الجراحية لا يتعافى المجتمع. دون الإنتصار على القبيلة ودحرها، لن يتحرر الفرد السوري أيا كانت ثقافته ولغته ودينه. الثورة السورية المجيدة من أجل الحرية والديمقراطية لا يقوم بها إلا أفراد يواجهون بشجاعة اذهلت العالم بصدورهم العارية سفاحي ماهر وبشار الأسد ولذلك عليهم اليوم قبل غد ان ينزعوا كل علاقتهم بالعشيرة وما ترتأيه. وكل من يغني على وتر العشيرة يقصد بخبث تحويل الثورة الرائعة لسلم يرتقي به إلى السلطة.

الثورة تقدم ليس فقط البديل السياسي لحكم ظالم فهذا يقدمه أي إنتخاب أو إنقلاب بل هي تقدم في أول ما تقدم البديل الأخلاقي الحضاري للنظام السائد. بهذا تختلف الثورة عن الإنقلاب بأن هذا الأخير يحتاج فقط لحنكة وسرية ولا يضع شروطا على من يقوم به تتطلب تحرير شخصيته وأخلاقية اهدافه... ونحن نعلم ان الإنقلابات منذ عرابها الأول حسني الزعيم قام بها اوسخ الناس على وجه الأرض أما الثورة فهي وإن قام بها أناس عاديين وحتى بدون اي تخطيط مسبق ستحرر أنفس هؤلاء من كل شوائب القرون وأولها العشيرة وتجعل من كل منهم إنسانا برأي حر وشجاع دفع ثمنه بالمجازفة بحياته. وهذا الإنسان هو حفار قبور العشيرة. فإما أن تقوض الثورة العشائر فوق رؤوس شيوخها أو لا تكون.

نقطتا ضعف وقوة للثورة السورية

تتميز الثورة السورية بصعوبة ووعورة مسالكها، فهي أولا في بلد تمرس نظامه أكثر من اي نظام في فنون قهر الشعب وفي الحروب الأهلية وبكون سوريا حجر زاوية مهم في صرح البلاد العربية يتعلق بمصير نظامها العديد من ثوابت المنطقة ومحركات مصيرها.

هناك مميزتان للثورة السورية هما نقطتا قوتها وضعفها في آن واحد:

1. الشعب السوري أظهر مدنية فريدة من نوعها في تاريخ البشرية، فهو يتظاهر بشجاعة بطولية أعزلا من أي سلاح ضد أكثر الأنظمة وحشية وحركية في المنطقة. الخندق في هذا الكفاح يفصل بين طرفين غير متكافئين، إذ أن الصدور والأيدي العارية تتمتع بشجاعة بطولية لكنها لا تنتصر على دبابات وفرق النظام العالية التدريب وعديمة الأخلاق، مما قد يدفع البعض لليأس ويسهل مقولة أن السلاح لا يرده إلا سلاح. لكن الشعب السوري وصل إلى قناعة عبقرية في أن الطريق السلمي هو الوحيد الكفيل بدق عنق النظام، فلم يأبه لا لتحريض النظام وإستفزازه حتى بقتل الأطفال وقنص المسالمين، وظل مسالما يهتف "سلمية سلمية" وفضح بذلك لعبة النظام. لكن الأهم من ذلك أن الشعب إختار بكفاحه السلمي الطريق الذي لا يمكن لخمسة عشر جهاز مخابرات أن يقضي عليها. نعم عدد الضحايا عالي وسأبكي على كل شهيد ما دمت حيا، لكن ليس هناك خيار آخر لهذا الطريق فالنظام زاد وحشيته إلى أعلى حد ممكن وأدخل كل آليات حروبه العسكرية والنفسية من إعلام إلى أحزاب سلطة إلى مثقفين مرتزقة إلى أعوانه اصحاب اللحى رجال الدين الرسميين من كل الطوائف. ولم يترك حتى أقذر الوسائل مثل تعذيب وتشويه متعمد للأطفال وإعادتها أو إعادة جثمانها الطاهر لأهاليها لإرهابهم ولا كل من دس أفراد مرتزقة يظهرون بلحى وبدونها فجأة ليشتموا الأقليات المسيحية والدرزية والعلوية بإسم الثورة إلى من ينادي بحمل السلاح. كل هذا لم يقدم رغم تطبيل إعلام السلطة وتزميرها للنظام سوى أن زاده بشاعة أمام أعين العالم. وكل من يدعو لحمل السلاح هو واحد من إثنين: إما غبي أو عميل للسلطة لأن السلطة



تشتهي منذ إندلاع الثورة أن تجرف الثوار لمنازلة مسلحة ستنتصر وهي الخبيرة المدججة بالسلاح على كل خصوما وسيسقط عشرات إن لم يكن مئات أضعاف الشهداء.
2. تتقدم الثورة السورية حتى بعد مئة يوم دون قيادة كادر أو حزب مركزي أو محترفي ثورات. يحمل عبء الثورة ويشترك فيها كل شجاع وشجاعة وكل من يناضل لمستقبل أفضل لبلدنا الحبيب. هذه الصفة تميزت بها الثورتان التونسية والمصرية وقهرت كل مخابراتهما. لأن ثورة أو إنتفاضة بقيادة محددة قد تكون أكثر تنظيما لكنها تصاب بضربة قوية لمجرد إعتقال كوادرها و"رؤوسها". هذا نعرفه بالتأكيد وهذا تدربت عليه الأنظمة العربية بكفاية. ما شل أجهزة القمع العربية هو الجديد في هذه الثورة أنها قامت دون أحزاب أو قيادة معروفة وصغيرة العدد. والثورة السورية تتصف بنفس الصفات لكن طريقها الأطول يطرح أسئلة ملحة: هل يمكن الإستمرار دون تنظيم؟ أنا واثق أن أجهزة وأدوات الإتصال الحديثة من فيسبوك إلى تويتر إلى الجوال إلى الإنترنت والكاميرات الإلكترونية التي توصل صورة دقيقة للأحداث إلى اليوتوب بعد فترة وجيزة إلى الصحف الإلكترونية النشيطة للمعارضة ..كل هذه الوسائل والوسائط شكلت ما يشبه الجهاز العصبي لجسد الثورة والذي يصعب على النظام شله، لكنها لن تكفي لقيادة الثورة إلى النصر الذي تستحقة. الواجب الملح هو إنشاء شبكة عصرية من اللجان يصعب إختراقها وحتى ولو حدث الإختراق لا يصيب الضرر من ذلك إلا قطاعا محدودا من لجانها. هذه اللجان بإمكانها عبر التنسيق تطوير النشاطات وتحويلها إلى حزمة فعالة أكثر والعمل بشكل أفضل لربط المواطنين بالثورة ليس فقط عبر إحتجاجات في الشارع والتي تتطلب بطولة نادرة بل بكل ما في وسع المواطنين تقديمه.
اللجان هذه هي مقدمة أولى للمجتمع الديمقراطي الحر ولذلك عليها ايضا أن تكافح دون كلل ضد الطائفية، المرض الأكثر خطرا على الثورة السورية، لتقطع الطريق في وجه الحرب الأهلية التي لا يزال النظام يسعى لتفجيرها.

التكرار يفضح

أقرأ بنهم كل ما يكتب عن الثورة السورية ويفاجئني الكثير مما أقرأه ويحزنني بتكرار محتواه، وحتى لهجته وتعابيره أحيانا. فإذا دل هذا على شيء فإنما أن كتابنا لم يتعلموا حتى اليوم ان الثورة فرصة تاريخية للقضاء على أعدائها داخل أنفسنا. أهم هؤلاء الأعداء هو إحتقار رأي وملكية الآخر الفكرية وإبداعه، وثانيها هو الكسل "في عامية دمشق تنبلة وهو لفظ أجمل من الكسل لأن لفظه يتدحرج على الشفاه بكسل لا يقابله لفظ الكسل الحاد - رحمك الله يا هادي العلوي". هذان العدوان يظهران لي برأسيهما البشعين كلما قرأت المطولات عن الثورة وعن أعدائها. فمتى ينفض المثقفون قرارة أنفسهم ليحرروها من هذين العدوين اللدودين؟ هناك مثل عامي يقول: "التكرار يعلم الحمار"، وفعلا الحمار أذكي بكثير مما تعتقده غالبية العرب، فهو بذاكرة قوية، وقد راقبته كطفل في عطلة الصيف التي كنا نقضيها في معلولا، قريتنا الآرامية في جبال القلمون، رأيت حمار جدي يتحاشى ليس فقط الحفر، بل بعض بقع الطريق التي كانت فيما مضى حفرة وردمت وأصلحت. يقف حائرا، يدقق نظره بالبقعة ومحيطها ويذهب حذرا وببطء حولها. فهل يفهم مثقفونا أنهم بتكرارهم يهينون أنفسهم وليس كاتبا يسرقوه بتكرار ما كتبه قبلهم. وكيف نتحاشى ذلك؟ بالقراءة النشيطة وإحترام الآخر.

أدونيس

لن أكتب أكثر مما كتبت، قبيل نشره لرسالته، لن أكتب رغم مطالبة الكثيرين لي بالكتابة ضد موقفه من الثورة ورسالته الذليلة للأسد والذي ساوى فيها الضحية بالجلاد وأصر على وقوفه إلى جانب النظام.
لقد كتب زملاء اذكياء عن أدونيس ولست حتى ولو أجهدت نفسي قادرا على إيجاد أكثر مما كتبه هؤلاء، والذي نشر بإسهاب في "صفحات سورية" - الملف الاول، الملف الثاني.
وأريد ان أعترف أني قرأت وبكل إهتمام شعر أدونيس وأطروحاته في "الثابت والمتحول" في طبعته الثالثة عام 1982 (دار العودة - بيروت). وظللت أقرأه رغم نقد زملاء يعرفون أدونيس ويقرأون ما يكتبه بدقة أكثر مني… خاصة لإنهماكي في البحث عن دقائق وأحداث رواياتي… أدهشتني قساوة هادي العلوي وصادق جلال العظم تجاه أدونيس، لكني توقفت عن قراءة هذا الشاعر والكاتب منذ مطالعتي لكتاب كاظم جهاد المدمر: "أدونيس منتحلا" عام 1993 (دار مدبولي - القاهرة).
مقارنة رسالته للأسد برسالة جان بول سارتر الجارحة للرئيس الفرنسي ديغول، عندما منع الأخير إنعقاد "محكمة" برتراند رسل في باريس لنقاش وفضح جرائم أمريكا في فيتنام… وكان ديغول آنذاك بطلا شعبيا بتاريخ حافل بالنضال من أجل حرية فرنسا، تبين لي أن أدونيس حتى في رسالته هذه كان منتحلا…وهو ككل منتحل يحط ما إنتحله ولا يرفعه… ألا تصدقون بعد كل أطنان المطبوعات البعثية التي كانت برمتها ومن أول جذورها الفكرية إنتحالا وسرقة لأيدليوجيات غربية… لذلك أقترح ان يقرأ كتابنا ما نشره كاظم جهاد بدل شتيمة أدونيس مجددا.

مرض المثقفين الأكثر خطرا: الإرتزاق النرجسي

قرأت قبل سنين (2007) مقالا في جريدة "فرانكفورترالغمانية تسايتونغ FAZ" لشاعر الماني يدعى يواخيم سارتوريوس (وهو من إقترح أدونيس لجائزة غوته هذا العام 2011) يتقيأ فيه بشعرية ركيكة عن زيارته لدمشق وقد زار هذا الكاتب سوريا عدة مرات وحل ضيفا على فرع المخابرات الثقافية (التي تدعى خطأ وزارة الثقافة) وعاد دون أن يرى سجينا واحدا سياسيا ولا سرقات ولا سيطرة عشيرة على كل مراكز السلطة… ولما سال نفط الخليج بإتجاه المانيا بكرم مدمر كان

سارتوريوس أول المهللين له مع زميلته العراقية التي أنشدت لصدام حسين وأتت لبرلين لتقوم بـ"أم معاركها" الثقافية وتعلن على الملأ بفمها الواسع أنها وبفضل اموال الشيخ مكتوم ستثور حركة الترجمة و تصدر 1000 كتاب في ثلاث سنوات..لم يصدر سوى عدد من الكتب الهزيلة التي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة بينها كتاب شعري للشاعر المكتوم... صاحب الدولارات..الذي توقف نتيجة تأزم اوضاعه المادية عن مساندة أم معارك الترجمة..وبهذا قبر البترول منشديه في مقبرة النسيان.

سألت نفسي حتى مللت كيف يمكن لمثقف ألماني ان ينهار إلى هذا الحد؟ هل يغري المال حتى ميسوري الحال كسارتوريوس هذا؟ ام انه ذاك المرض الذي ظل هادي العلوي يجلد ظهور مثقفي بني يعرب ليذكرهم به، لعل الذكرى تنفع المؤمنين وغير المؤمنين؟ إنه إرضاء النرجسية والعنهجية التي تدغدغ أوصال الكتاب ما أن يروا ما نطقوه مكتوبا.

لم اصل لجواب مقنع إلا قبل أسابيع. في مطلع حزيران نشر سياسي الماني يدعى يورغن توتينهوفر صفحة كاملة في المجلة الأسبوعية المحترمة دي تسايت (« DIE ZEIT الوقت او الزمن) عن زيارته لدمشق ودرعا. وتوتينهوفر سياسي محافظ وشهير سابق لحزب "الإتحاد المسيحي الألماني CDU" وصديق للديكتاتور بينوشيه وللجيش الأمريكي (عين برتبة عميد فخري) ومدير سابق لأضخم مجموعة دور للنشر الألمانية المحافظة...

وكان هذا السياسي وهو ثري جدا قد ألف كتابا سخيفا عن أفغانستان يظهر فيه مرتديا الزي الأفغاني... وبفضل علاقاته السياسية الثقافية هنا في المانيا فقد تيسر لدار نشره التي يمتلكها صديق له دفع هذا الكتاب الهش إلى مرتبة عالية في قائمة المبيعات، مما زاد في تأزم نرجسيته فذهب إلى ليبيا ومصر ليقدم لنا عبر زيارته تقاريرا سطحية لسائح لا يفهم كلمة عربية... لكن مركزه السابق في السياسة والإقتصاد سمح له ان ينشر ما يريده في أكبر الصحف والمجلات. وفجأة تخصص له مجلة دي تسايت المذكورة أعلاه صفحة كاملة لزيارته لدرعا بعنوان " كرز درعا" والمقال تفوح رائحة الجيف والرشوة منه. فهو يتغابى بشكل يصعب على القارئ هضمه... يصل السيد إلى دمشق ويقرر زيارة درعا برفقة مصورة المانية ولا يقابل في دمشق إلا مؤيدي الأسد و"يبيع" القارئ الألماني قصة لا أول لها ولا آخر..انه قرر المغامرة والمخاطرة وأنه يريد ان يرى كل شيء بعينيه، فجلب له مدير الفندق مرافق يبدو كمصارع عملاق وسافر إلى درعا وكانت مراكز المراقبة للمخابرات بما فيها حواجزها تلوح له بكل أدب وتربية أن يكمل سفرته الميمونة بإتجاه درعا، ويصل غراب البين هذا إلى درعا دون ان يسأل نفسه لماذا يسمحون لي بالمرور ويمنعون كل صحفي آخر حتى من الإقتراب لدرعا... يصل إلى سوق فيه بائع كرز ويصف للقراء الألمان رخص الكرز في درعا لأن هذا هو شغل الشاغل للشعوب التي تتكلم الألمانية والذي وقع أكثر من 850 من مثقفيها بما فيهم حاملتي جائزة نوبل للأدب على بيان يدين إجرام النظام الأسدي. ثم يلتقي بقائد المخابرات في درعا ويصف لقاؤه بشكل سينمائي رخيص يذكر بهمفري بوغارت في الخمسينيات: "ركز الرجل نظرته إلى عيني... وحدقت طويلا في عينيه" ثم ينتهي للنتيجة أن درعا هادئة جدا وأنه ينصح الأسد بالإسراع بالإصلاح ويغادر درعا... وقد مسحت مع مثقفين ألمان الأرض بهذا الكاتب السخيف لأنه عقب صدور المجلة بساعتين أطلقت قوات الأمن والشبيحة التابعة للنظام النيران على المتظاهرين من طائرات الهيلوكوبتر ولم تسألهم إن أكلوا في ذاك النهار كرز من درعا. هنا أيقنت أن ما اصاب سارتوريوس وتوتينهوفر هو نوع خبيث من الإرتزاق: الإرتزاق النرجسي ■

الملف الأدبي

شعر
يوميات/سرد/قص
ترجمة



نوري الجرّاح

الأيامُ السَّبعة



إلى رامي ورفاقه في الثورة السورية

1

دمُ مَنْ هذا الذي يجري في قصيدتكَ أيها الشاعر؟
عمياءُ قصيدتُك
وصوتُكَ أعمى
لكنَّ الهواءَ يُهَدْهِدُ السَّهلَ والعشبَ يهمسُ للقتيل.

القمحُ يتطاولُ
ليرى
ارتجافَ الهضبةِ.

عُنُقُ الحاصدِ جرحُ المحراثِ.. من خاصرةِ الفراتِ إلى مغارةِ الدَّمِ في كتف قاسيون
المَرْكَباتُ تفحُّ، وتعبُرُ
المَرْكَباتُ تعوي
الجنازيرُ الضخمةُ تتركُ بصماتِها على إسفلتِ القرى،
المَرْكَباتُ العمياءُ تُرسِلُ الحِمَمَ إلى صورِ العائلة،
الأمهاتُ يُهرعن بالصِّبْيَةِ من حائطٍ إلى حائطٍ، ويخبِّئن العذراءَ في ركامِ الستائرِ
جدرانُ الطِّينِ تتهاوى وسنابلُ الصيفِ تَتَقَصَّفُ...

صيفٌ مضى وصيفٌ تهيأ،

وصيفٌ وسيمٌ بياقةٍ داميةٍ حَمَلَتْهُ إلى البيتِ رياحٌ عاتية.

السلكُ في يد المراهق لم يَطُل
والجَدُّ المَقْنُوصُ
في عرضِ الطريقِ
يَنْتَفِضُ
لا مزيدَ منَ الشُّبانِ هنا،
ضِرْسُ الموتِ مَضَغَهم وتَفَلهم إلى ما وراءَ الهضبةِ.

أنا لا أكتبُ قصيدةً لكنني أمزِّقُ يدي في الورق.

II

دَمُ من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
من بقيَ هنا،
لينزُفَ
من بقيَ هنا
ليقرأَ ما كَتَبَ الأُفُقُ في الصحائِفِ
وما تَرَكَ شاعرٌ في القصيدةْ.

غيومُ الأطفالِ تسافِرُ
والهَضَبَةُ تُلَوِّحُ.

الصُّوَرُ تَرْتَجُّ وتَغْرُبُ في العَين، والفتى الذي شَقَّتِ القِيعانُ طولَهُ، مستلقياً، دامياً ينتظرُ يَدَ أبيهِ.
الصُّورُ تَغْرُبُ في الصُّور، ابتسامة من مضى ليقطف التوت في صيف مضى..
لكن الخَدَرَ يحتضنُ الفتى، الآن، الخدرُ يعيدُ الفتى الضاحك إلى يد أبيه.

الأفقُ هشيمٌ،

والمطرُ يلاعبُ صحونَ الأطفال.

قال الممثِّلُ كنتُ قبل اليوم بلا صوت
ومَسرحي معلق في ستارة؛
ملابسي سرقها الموتى
وصوتي
غاب
في
البئر.

قالتْ طفلةٌ: كنتُ بلا عينين
والآنَ
صِرتُ فراشةً.

الرياضيُّ صَرَخَ: دمي صوتي..
ودحرج في ممر الموت عربةَ الهتاف
والصَّبي بادلَ النهارَ بابتسامته.

وفي البستانِ حيثُ سقطَ كوكبٌ
وتشقَّقتْ تحت خطى دامية أرضُ المسرّات،
قال فلاحٌ لصبيٍّ كُسِرَتْ رأسُهُ على صخرةٍ:
إنني أسمعُ رَجْفةَ الشتاءِ في رُكبتي.

والآنَ،
جسدُه مستريحٌ في طلقة الجندي.

وصلتْ شاحنةٌ كانت بالأمس تحمل البطّيخ والآن: عائلاتٌ نائمةٌ في أكفانٍ حمراءَ

وفلاحونَ صاروا حفارينَ، وقبورٌ قبورٌ قبور..

كانتْ وجوه الرجالِ في الأرياف البعيدة مكشوفةً عن ابتساماتٍ لرجالٍ
والآنَ،
الأطفالُ يقفون في الصُّور
مُقَنَّعينَ
والموتُ يطوفُ بجرابه على الأطفال.

III

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر
وفي المتبقي من الزمن، شقيقي الذي شقَّ الغروبُ رأسه،
دمُه يقطرُ في ملابسي
دمُ مَن هذا؟
وظهره الذي تقصَّفَ جهةَ الغربِ يقطرُ حمرةً وغروباً.

دَمُ مَنْ هذا؟
دَمُ مَنْ هذا؟

قُلْ للرصاصِ أنْ يهدأَ قليلا
ريثما يكتب الشاعرُ قصيدَتَه ويفتح نوافذَها
ويحمل الآسَ إلى جسدِه المسجَّى.

ريثما تجمعُ امرأةٌ غسيلَها،
ريثما يعودُ طائرٌ من غابةٍ
وتنزِّهُ العينُ نظرتَها في جسدِ النَّهار الحي.

IV

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
دَمُ من هذا الذي ينِزُّ من جثمان النهار
دَمُ من هذا؟ دم من؟
وركبةُ الوقتِ مشطورةٌ،
والهواءُ
عصفٌ وراء عصفٍ وراء عصفٍ
والصُّور شِفارٌ تأكلُ الواقفينَ في الصُّور
الجنود ينحنون على البنادق والموت يتلفت.

قال شهيدٌ أسْلَمَ الترابَ شهيداً
كُنْ دليلي في الطريق إليه
ولا تتأخر كثيراً
وكُنْ سندي في الروايةِ يوم يكذبُ المؤرخون
كُنْ صاحبَ البيتِ
وارْوِ الروايةَ كاملة:
اللصوصُ أضرموا النار في بيت أبي
اللصوصُ سرقوا وجنةَ أختي ويدَي أخي
اللصوصُ قتلوا أبقاري وقادوا حميري إلى بركةِ الدم
اللصوصُ انتهبوا قمرَ الصَّيفِ
وفؤادَ المسافرِ
اللصوصُ ربطوا الأخوات الصغيرات بأمراس الحقل
وكسروا على حجرِ البئرِ جمجمةَ المراهق.

اللصوصُ هتكوا ستارةَ الحلمِ،
ومشّحوا بدمِ الفجرِ قمصانَ نومِ البنات.

ولما تساقطتِ الحجبُ، رأيتُ ما رأيتُ كان وجهكَ القاتلُ يملأُ وجهي

أهذا أنا
أم عدوي؟

في الحقل صرختُ فيكَ، ونَظَرْنا الأيامَ تُبَدِّلُ ثيابَها
والزمنَ
يتسرَّبُ من الأيدي
في الحقل صرختُ فيكَ وفي الجبلِ صرختُ

وفي المدينة لمَّا نزلنا
عيناكَ رأيتُهما زائغتين.

ها إن يدَك التي كبُرتْ واخشوشنت
تتلطَّخُ بدمي.

أخرجُ من بابٍ وتَخرجُ من بابٍ
لا أكون صورتَكَ ولا تكون صورتي
وأناديكَ:
تعالَ وخذْ ما أخذتَ
وباليد البلهاءِ، أودع البلطةَ في الظهرِ والعتمةَ في هاويةِ القلب.

تعال يا من تماديتَ حتى تكون ابن أمي
وأبي
وتكونَ أختي
وابنتي
وتكونَ ....

....
....
....
.......جنازتي.

يا صاحب اليد التي لهث
بالالوان
قرب يدي
ومعا رفعنا حجرَ الطفولةِ عن عقربِ الزمن.

٧

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الأعمى؟
ولماذا أخرجُ من حكايةٍ وأدخلُ في حكايةٍ؟

قالَ شاعرٌ رأى أمَّهُ في السرير
عاريةً
ومطحونةَ الوجهِ:
أهذه أمي غداً أم شجرةٌ عجفاءُ؟

ومن هؤلاء المشيعون يخرجونَ من بابٍ في مئذنةٍ
ولا يخرجونَ من حانةٍ أو مكتبة!

وشاعرٌ رأى نجمةَ الصبحِ دامية
قال:
لا أذكر إن كانتْ نجمتي!

وشاعرٌ ظلَّ ثلاثينَ حولا يجرُّ صليباً في كتابٍ

ويوهمُ إخوتَه أن المسيح الموجع يسكن رأسَه الموجع.

اللصوصُ الذين خرجوا من شِقٍّ في حائطِ العدمِ مزَّقوا صفحةَ الهواءِ وغمروا النوافذَ بالموت.

لمنْ آلتْ قصيدتي قالَ شاعرٌ
ولم يُبقِ الرصاصُ حياً سوى الصمت؟

تتقصَّفُ المئذنةُ الصائحةُ ويتلو الشهيدُ شهادَته
على أخٍ أَتَمّ شهادتَه
على أمٍّ طوتْ أبناءَها السبعةَ في كتابٍ.. وخبَّأته من العين.

ما من أحدٍ غيرِكَ
ما من أحدٍ غيرِكَ

في هذه الجمعةِ وفي كلِّ جمعةٍ حتى صارتِ الأيامُ السبعةُ للوقتِ
درجاتٍ في الترابِ ودرجاتٍ في الهواء
حصَّةُ الشهداءِ من الشهادة:
لا أحدَ غيرَك.

VI

دمُ من هذا الذي يجري في قصيدَتك أيها الشاعر؟
وهو دمٌ ريثما يكتبُ الأعمى وصيَّتَه ويفتحُ نوافذَها للمطر
ريثما يدخل الشهداءُ ويدخِّنون أمنياتهم الأخيرة
ريثما تخرجُ امرأةٌ من زقاقٍ وفي يديها صبيٌّ تَقَصّفَ كالسنبلة.

دَمٌ في المدينةِ، دَمٌ في البُليداتِ الصَغيراتِ في ريفِ الفقراءِ
دَمٌ على ثلم الفلاح، على سكَّةِ المحراث يشقُّ جمجمةَ الغيبِ، ويقرأُ طالعَ النَّهار.

دَمٌ يصرخ في حَنْجَرةٍ مشطورة والغرابُ بجناحين متعاظمين يلطمُ الشقيقَ بدمِ الشقيقِ.
دَمٌ على أمنيةِ العابر، على خيبةِ الهاربِ، على عارِ المتفرِّجِ،
على صمتِ المُفكِّرِ يقلِّب أفكاره ويبلل مقولاته بدم الصِبية،
وفي يوم غد آخر يقرأ الجثامين في ضوء الفلسفة.

دَمٌ على أمس القاتل ويومه وغده،
دَمٌ على سرير المضاجع زوجته غصبا عن فؤادها الكسير،
دَمٌ في موعد الحب، دم في اضطراب الخطوة المضطربة،
دَمٌ في صحون الطعام،
دَمٌ في بلاغة الصوت،
دَمٌ في التفاتة الغريب، في هواء النهار،
دَمٌ في كلمة الحب،
في حزن المسافر،
في هروب القرى وراء تلال أخرى،
في النوافذ مهجورة والشعاع منكسرا..

دمُ الشقيقِ في بلطة الشقيق.

VII

دم من هذا؟ دم من هذا أيها الشاعر؟
وهو دَمٌ في المسافة منظورةً عن قربٍ ومنظورةً عن بعد
دَمٌ في نظرة العين، وفي حسرة الناظر.

الأم تطبع قبلتها الصباحية في الجبين البارد..
ذهب يكتري العجلة ورجع بلا وجه.

دَمٌ في أسياخِ العجلة، دَمٌ في حليب الصباح،
في ماء الظهيرة، في خيول العربة،
وفي نشرةِ الطقسِ دَمٌ طوال النهار، والسماء التلفزة الجائعة.

VIII

دمُ من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
حبالُ الغسيل تَقْطُرُ والغروبُ يَسْفَحُ حمرَته على البيوتِ
الإخوةُ المولودون في الأوقات يملأون السماءَ بالهتاف:

ما من أحدٍ غيرِكَ
ما من أحدٍ غيرِكَ

على أيديهم الأصغرُ
عاليا
رفعوه
وكفَّنَهُ صَوْتُه
جسدُهُ الضَّاجُّ أشْعَلَ حنجرةَ المغني:

منكَ وإليكَ
منكَ وإليكَ

دمٌ في غفلةِ المنعطفِ، في نَمَشِ الصَّبي، في ابتسامتِه المدرسية،
في كتابِ المعلِّم، في سؤالِ الصباح،
دَمٌ في بُحَّةِ المراهِقةِ، دمٌ في هسيسِ الماء،
دمٌ على الأشجار نستْ من مرَّ ومن سقطَ ومن صاحَ من ألم...
دمٌ على رداءِ الشَّمسِ، وخيوطُ النهارِ ممزقةً كما لو كانت جرما تهتّك.

لسعُ دمٍ ولسعُ رصاصٍ لسعُ أصواتٍ جارحةٍ
والكلماتُ مقيدةً بسلاسلِ الكلمات.

العينُ الغريقةُ
في صورةٍ
اغرورقتْ بالدمِ
خذْ هذه الصورةَ من عيني وخذْ جرحَ العينِ.

المئذنةُ تتقصَّفُ وتهوي في سورةِ الفاتحة
وطوالَ النهارِ
طوالَ النهارِ
يداي مبلولتان وخبزي مبلَّلٌ بالدمِ
وكلماتي تنظرني.

دمُ من هذا الذي لطخ يديك وكلماتك أيها الأعمى؟
أنا لا أكتبُ قصيدةً لكنني أشمُّ القميصَ لأبصرَ ■

لندن ما بين ابريل -2011وابريل 2012

بول أيلوار

حريّة

ترجمة ودراسة: شاكر لعيبي

يبدو لنا أن الشعر العربي الحالي، ومزاجه الطاغي، قد وضع شعراء كباراً مثل أيلوار وأراغون ونيرودا خلف ظهره، واعتبر أن زمنهم قد آفل وانقضى.

في العالم العربي يمكن للمرء أن يلاحظ، دون عناء، سيادة مفاهيم شعرية تزعم "الانشقاق" عن الإرث الكلاسيكي والحديث قريب العهد كليهما، ويمكن للمرء أن يشهد يومياً احتفالات ضاجّة، لغوية وفعلية، عن شجون أدبية مستحدَثة، مستفحِلة، من قبيل قصيدة النثر العربية، الموضوعة بصفتها المثال الأعلى المناهِض طُرّاً للبلاغة العربية التي يقع هجرها بل السخرية منها، ثم، لكي يكون حاضراً في المشهد الاحتفاليّ، عليه التكوّم في شعرية اليوميّ حصرياً، والاكتفاء أسلوبياً بالاقتضاب والسرعة وبِقِصَر النفس التي يُقال لنا إنه رديف لشعر الهايكو اليابانيّ، متجاهلين أن هذا الشعر البرقيّ السائد لا يمتلك القناعة الروحية، الصوفية الصافية لشعراء الهايكو. هنا أول التناقضات العميقة المحلولة بثمن تلفيق نظريّ عميق.

يصير هذا التناقض الباهر تعبيراً عن أزمة وجودية وسوسيولوجية وسياسية ضاربة منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كان من نتائجها خفوت الصوت الشعري المواظب الأصيل، وليس انعدامه كما يقع التعميم دائماً، وانحطاط التعليم الجامعيّ في العالم العربي، وافتراق الثقافات العربية إلى مفترقين: أصولية دينية من جهة، وعبثية مفرطة من جهة أخرى إذا لم نقل خفة ثقافية تُمارَس باسم الحداثة، وتتجلى في كل موضع: من الكتابة على نمط شعريّ موحَّد إلى أخطاء الإملاء في المفردات البسيطة (أحُبّكي، أنتي)، بينما بدا السيرُ، في عيون البعض، على نهج النمط الشعريّ الشائع و(الموظة)، النقطةَ الأبعد في التمرّد اللغويّ والتخيّليّ والمفهوميّ، من دون دلائل أكيدة دائماً على ذلك. رافق ذلك فسادٌ على كل صعيد، بما في ذلك الصعيد الأدبيّ والصحافة الثقافية. واستسهالُ عملية نشر دواوين الشعر على حساب المؤلف، وتوزيعها مجاناً على الأصدقاء والصحفيين، ثم حضور نوعٍ خاص من نقّاد الشعر وصحفييه ممّنْ يكتبون عن معارفهم ومجالسهم وصديقاتهم من النساء والمتنفذين في الصحافة الأدبية.

أزمة عميقة ثقافية وسياسية، كان من نتائجها كذلك انطلاق "ثورات الربيع" في كل مكان من العالم العربيّ، وعلى يدِ وبصراخِ ودمِ هذا الجيل الموصوف هنا. وهنا ثاني التناقضات العميقة.



إننا نشهد اللحظة جيلاً جديداً مختلفاً مهموماً بالسياسيّ والاجتماعيّ و"بالثورة"، هذه المفردة التي ابتذلث قليلاً وفقدث بريقها عندما غَرسث فينا الأجيال السابقة والأنظمة على حد سواء، يأساً مطلقاً تقريباً منها، حتى بدا أن وعي "التمرّد" و"الثورة" قد انطفأ، وغاب إلى الأبد في الأدب والشعر خاصةً، وهو ما لم تبرهن عليه الأحداث، وليس آخرها الانتفاضة السوريّة الكبيرة.
رَفَضَ هذا الجيل الأيديولوجيا مُسْبَقة الصنع من كل نوع، لكنه لم يكن مزوّداً دائماً بالعُدّة الثقافية والدِّرْبة والدراية، الأمر الذي قاد "سُرّاق الثورات" إلى تصدّر المشهد بعد سقوط الأنظمة القمعية التي كافح من أجل زوالها. يشهد الوضع الحالي إن النقد المحموم، لمفهوم الأيديولوجيا إنما هو ذمٌّ ذو طابع أيديولوجيّ هو نفسه في حالات كثيرة، خاصة عندما يتعلق باليقين الشعريّ الثابت و(قصيدة النثر الطاغية) التي تصير المرجعيّة شبه المقدّسة لكل شكل شعريّ اليوم. هنا نمط من أنماط (الأيديولوجيا) الذي طالما عانينا منه، وقد صار (أيديولوجيا أدبية) بكل بساطة.
ها هنا مفارَقة ثالثة: كيف يمكن أن تكون مهموماً بالسياسيّ العميق والانتفاض على وحش الاستبداد، والثبات في مواجهة أطروحات القمع ذي الأوجه المتحوِّلة، بينما لا تكون مهموماً بالمستوى والعمق نفسه بنصك الشعريّ بل تمتلك تصورات ثابتة ونهائية عن الفن الشعريّ؟.
يبدو نص أيلوار الشهير "حرية" مناسباً للحضور في هذه اللحظات بالذات، أحببنا معالجته ولغته أم لم نفعل، ولعله يقدّم بعض الإجابات عن الأسئلة الشائقة التي تخصّنا، خاصةً وأنّ تمرّد أيلوار، لا يُقارَن عمقاً وأصالةً، بعبثية و"صعلوكية" بعض الشعراء الذين يسعون لتثبيت صورة الشاعر الصعلوك وحدها بصفتها صورةً للشاعر بالمطلق، وهم في كلّ مكان من العالم العربي ومن الأجيال جميعاً.
جميع التظاهرات التشكيلية والموسيقية التي انبثقت من هذا النص، مهمّة بقدر أهميته يوم كتابته، لأنها تدلّ على أن المزاج العام السائد في فرنسا، لم يكن ليقوم بهذا الفصل الباتّ، كما لدى البعض منا، بين الشعر والحياة حتى وإنْ زعِم لفظياً خلاف ذلك، ولم يكن ليجد غضاضة أن تكون "الحرية" فضاءً للاشتغال الجماليّ الصافي. هنا مفردة أخرى استخدمتها أنظمة القمع شعاراً محورياً في بلدين عربيين معروفين، العراق وسوريا، من أجل توطين القمع، عبر "وحدة" كرَّست الشقاق في العالم العربي، و"حرية" مفرغة المعاني، و"اشتراكية" فضَّلت القطط السمان.
التظاهرات الجمالية التصويرية لقصيدة أيلوار "حرية" التي كان فرنان ليجيه أبرز ممثليها، وبيكاسو أيضاً في قصائد أخرى عن الحرية لإيلوار، وأعمال خوان ميرو اللصيقة بأشعار "الحرية الداخلية" لأيلوار سوريالياً يومها، تشير من جديد إلى سلسلة المفارقات العميقة في ثقافتنا العربية التي لم تستطع بعد أن تُنتج فناً بلاستيكياً عميقاً، وليس شعارياً مباشراً، يرافق ربيعها السياسيّ. لن نتحدّث عن مقطوعة الموسيقي الفرنسي فرانسيس بولينك Francis Poulenc عام 1943 "حرية" المستوحاة من قصيدة أيلوار. ويمكننا الاستماع إليها، بخشوع، عبر وسائط الميديا الحديثة: النيت. ما زلنا بعيدين عن ذلك.

يسعى هذا العمل الذي أُنجِزَ بفضل اقتراح من نوري الجراح بتقديم ترجمةٍ جديدةٍ للقصيدة، وقد تطور الاقتراح إلى تقديم مرافقاتها التشكيليّة والفوتوغرافيّة (وكنتُ أتمنى وضع سي دي للمقطوعة الموسيقيّة)، وهو مهدىً إلى الشعب السوريّ المنتفض، الجريح، الملوّح براية الثورة الهفهافة، ولجميع الشعوب العربية التوّاقة إلى الحرية والكرامة. لعلها تساهم بمنحنا المشاطرة العميقة مع لحظة تاريخية تمُسّنا، اليوم، بعمقٍ، لأننا في زمن الإمساك بالحريّة الحقيقية التي طالما حلمنا بها.

قابس، جنوب تونس 27-11-2012

نص القصيدة

حرية	Liberté
على كُرّاستي المدرسيّة	Sur mes cahiers d'écolier
على رَحْلَتي وعلى الأشجار	Sur mon pupitre et les arbres
على رمال الثلج	Sur le sable de neige
أكتب اسمكِ	J'écris ton nom
على جميع الصفحات المقروءة	Sur toutes les pages lues
على جميع صفحات البيضاء	Sur toutes les pages blanches
على الحجر والدم والورقة والرماد	Pierre sang papier ou cendre
أكتب اسمكِ	J'écris ton nom
على الصور الذهبية	Sur les images dorées
على أسلحة المحاربين	Sur les armes des guerriers
على تيجان الملوك	Sur la couronne des rois
أكتب اسمكِ	J'écris ton nom
في الغابة والصحراء	Sur la jungle et le désert
على الأعشاش وعلى الوزّال	Sur les nids sur les genêts

على صدى طفولتي
أكتب اسمكِ

Sur l'écho de mon enfance
J'écris ton nom

على أعاجيب الليالي
على خبز النهارات الأبيض
على الفصول المخطوبة [لبعضها]
أكتب اسمكِ

Sur les merveilles des nuits
Sur le pain blanc des journées
Sur les saisons fiancées
J'écris ton nom

على جميع قماشي السماويّ [القديم الأزرق]
على حوض الشمس المتعفنة
على بحيرة القمر الحيّ
أكتب اسمكِ

Sur tous mes chiffons d' azur
Sur l ' étang soleil moisi
Sur le lac lune vivante
J'écris ton nom

على الحقول، على الأفق
على أجنحة الطيور
وعلى طاحونة الظلال
أكتب اسمكِ

Sur les champs sur l'horizon
Sur les ailes des oiseaux
Et sur le moulin des ombres
J'écris ton nom

على كل نفحة [من نفحات] الفجر
على البحر، على القوارب
على الجبل الممسوس
أكتب اسمكِ

Sur chaque bouffées d'aurore
Sur la mer sur les bateaux
Sur la montagne démente
J'écris ton nom

على رغوة السحاب
على [قطرات] عرق العاصفة
على المطر الكثيف [الخالي من الطَّعم]
أكتب اسمكِ

Sur la mousse des nuages
Sur les sueurs de l'orage
Sur la pluie épaisse et fade
J'écris ton nom

على الأشكال الوامضة
على نواقيس الألوان
على الحقيقة الملموسة
أكتب اسمكِ

Sur les formes scintillantes
Sur les cloches des couleurs
Sur la vérité physique
J'écris ton nom

على الممرّات المستيقظة
على الطرق المنبسِطة
على الساحات التي تحتشد
أكتب اسمكِ

Sur les sentiers éveillés
Sur les routes déployées
Sur les places qui débordent
J'écris ton nom

على المصباح الذي يضيء
على المصباح الذي ينطفئ
على أسبابي المتجمعة
أكتب اسمكِ

Sur la lampe qui s'allume
Sur la lampe qui s'éteint
Sur mes raisons réunies
J'écris ton nom

على الثمرة المقطوعة نصفين
بالمرآة وبغرفتي
على سريري [هذه] القوقعة الفارغة
أكتب اسمكِ

Sur le fruit coupé en deux
Du miroir et de ma chambre
Sur mon lit coquille vide
J'écris ton nom

على كلبي النهم والرقيق
على آذنيه المنتصبتين
على أقدامه المرتبكة
أكتب اسمكِ

Sur mon chien gourmand et tendre
Sur ses oreilles dressées
Sur sa patte maladroite
J'écris ton nom

على عتبة بابي [التي أقفز منها]
على الحاجيات البسيطة
على دفق النار المبارَكة

Sur le tremplin de ma porte
Sur les objets familiers
Sur le flot du feu béni

أكتب اسمكِ
J'écris ton nom

على كل فلذة ممنوحة
على جبين أصدقائي
على كل يدٍ مبسوطة
أكتب اسمكِ

Sur toute chair accordée
Sur le front de mes amis
Sur chaque main qui se tend
J'écris ton nom

على واجهة المفاجآت
على الشفاه الطريّة
أعلى من الصمت
أكتب اسمكِ

Sur la vitre des surprises
Sur les lèvres attendries
Bien au-dessus du silence
J'écris ton nom

على ملاذاتي المدمَّرة
على فناراتي المنهارة
على جدران سأمي
أكتب اسمكِ

Sur mes refuges détruits
Sur mes phares écroulés
Sur les murs de mon ennui
J'écris ton nom

على الغياب دون رغبة
على العزلة العارية
على مماشي الموت
أكتب اسمكِ

Sur l'absence sans désir
Sur la solitude nue
Sur les marches de la mort
J'écris ton nom

على الصحة المُستعادَة
على المخاطرة المختفية
على الأمل دون ذكرى
أكتب اسمكِ

Sur la santé revenue
Sur le risque disparu
Sur l'espoir sans souvenir
J'écris ton nom

وعبر سلطة كلمة
Et par le pouvoir d'un mot

أبتدئ حياتي
ولدتُ لأعرفكِ
لكي أسمّيكِ (1)

Je recommence ma vie
Je suis né pour te connaître
Pour te nommer

حريةً.
Liberté.

ملاحظات عن الترجمة الحالية

للوهلة الأولى يبدو النص سهلاً للترجمة العربية، وقد تُرجم بالفعل مراتٍ عديدة، مع اختلافاتٍ واضحة هنا وهناك. خاصة عند الأبيات الإشكالية.

العنوان في البدء: لقد تُرجم غالباً "الحرية" بأداة التعريف الألف واللام، في حين أنه من دون ذلك في الأصل. وأظن أن شحنة شعرية عالية تكتنفه بالتنكير. لقد أراد أيلوار بالطبع الحرية، لكنه، في تقديري، كان يطلق صرخة أمل وفرح بمطلق الحريّة: حرية، حرية، حرية، ولأسباب أخرى تتعلق بسياق كتابة النص كما سنرى.

كانت الخيارات المعجمية أيضا متباينة في جميع ترجمات النص العربية، التي نقدّرها ونثمّنها هنا، وإذا ما استشهدنا بترجمتين منها فمن أجل تبيان مواطن الصعوبة فقط، وليس سوى ذلك. إن خيارات الترجمة عليها أخذ مستوى وتوقعات القراءة في لحظة ما بالحسبان. خذْ مثلاً البيتين الافتتاحيين:

على كرّاستي المدرسية
على رَحْلتي وعلى الأشجار
Sur mes cahiers d'écolier
Sur mon pupitre et les arbres

ممكن أن نستبدل الكرّاسة بالدفتر، المفردة الأخيرة مستخدَمة في شرق العالم العربيّ على نطاق واسع بينما الكرّاس ففي المغرب العربيّ. الأولى أقرب إلى المزاج العربيّ الكلاسيكيّ، ولعل الثانية، دفتر المعرَّبة من اليونانية، ترنّ بطعمٍ ومذاقٍ يوميّ في آذان المشارقة. أما (رَحْلتي pupitre

في سياقنا، بفتح الرَّاء فهي تعني بالعادة موبيليا خشبية تستخدم لتدعم الكتب أو النوتات الموسيقية، وأيضاً التي يجلس عليها الطلبة، وتُستخدم لدى مترجمي النصوص العربية إلى الفرنسية للتعبير عن الحوامل الخشبية المنفرجة التي تحمل القرآن. أن نترك (الرَحْلة) بفتح الرَّاء كما هي، مع تشكيلها، قد يختلطها لدى القارئ مع الرِّحْلة بكسر الرَّاء، السفرة والانتقال وجمعها رِحلات. أنْ نسندها بين مزدوجين حادين [...] بمفردة أخرى كالمدرسية: رَحْلتي المدرسية، فإننا سنعيد كلمة استخدمناها للتو في البيت السابق. فضّلنا الرَّحْلة رغم مخاطر الالتباس لسبب جماليّ محض.

محمد حجي محمد ترجمها "قمطر طاولتي". نجاة محمد علي ترجمتها "على درجي"، آخرون "طاولتي" فحسب وهو ما يضعنا في أفق دلاليّ عريض للغاية.

الترجمة بصفتها خياراً شخصياً وذائقة فردية يُوْجب بالأحرى أن يضع القراء بعين الاعتبار في المقام الأول، فلو أننا ترجمنا الصفة (attendrie) بالطرية في البيت (على الشفاه الطريّة Sur les lèvres attendries) فلأننا نتقيد بهذا المبدأ الصعب. كان خياري الأول هو (المُطرّاة) لأنه يستجيب مباشرة لمدلول الفعل الفرنسيّ الذي يعني الترطيب والتطرية والتليين: المليَّنة إذنْ، لكني سارعتُ إلى استخدام الصفة الشائعة (الطريّة) لأني وجدتُ ذاك الخيار ثقيلاً ومتقعراً. وهكذا تكون، في نهاية المطاف، خيارات ترجمة الشعر شخصية وليست تطابقية.

الانطباع الأوّل أن النصّ سهل، انطباع مخادِع. هنا بعض المشكلات المعجمية والتخيّلية في نص أيلوار الحالي:

1- على الأعشاش وعلى الوزال Sur les nids sur les genêts

الوزال شُجيرة بريّة ذات أزهار صفراء. قد لا يعني هذا التعريف شيئاً اليوم بغياب العالم النباتيّ الكثيف من الوعي والشعر العربيين. ولعلنا مرغمين على رؤية صورة فوتوغرافية للشجيرة من أجل تخيُّل بيت أيلوار. المترجمة نجاة محمد على ترجمث هذه الرباعية هكذا:

على الأحراشِ والصحراء
على أعشاشِ العصافير
على ظهرِ الخيول
على صدى طفولتي
أكتبُ اسْمَكِ

وقد أضافت "على ظهور الخيل" التي جعلتني أفتش في كلّ مكان لعلي أخطأتُ في القراءة أو المصدر، لأن العبارة ببساطة غير موجودة في الأصل.

2- على الفصول المخطوبة (لبعضها) Sur les saisons fiancées

المفردة المخطوبة fiancées قد لا تستقيم وحدها في العربية من دون إضافة (لبعضها) بين هذين المزدوجين المعقوفين [...] الذين يعنيان أن الكلمة من وضع المترجِم وليست في النص الأصليّ، وهو أمر دأبنا على القيام به في جميع النصوص التي حاولنا ترجمتها سابقاً.

3- على جميع قماشي (القديم الأزرق) السماويّ Sur tous mes chiffons d'azur

المفردة chiffons تثير إشكالية صغيرة. في العامية العراقية تُستخدم، كما أعرف، المفردة عينها: شيفون، لكن للقماش الخفيف المستخدم للمسح والتنظيف. وهي تعني بالفرنسية قطعة قماش قديمة. وفي عاميات الفرنسية تعني صبياً، طفلاً، شقياً.

يبدو أن ثمة تجديفاً من نوع ما، مخلوطاً بمخيال سورياليّ، في بيت أيلوار بصفته رجلاً علمانياً معادياً لمفاهيم الكنيسة: إنه يكتب كلمة الحرية على صفحة السماء.

ترجم محمد حجي محمد البيت: فوق كل قصاصاتي اللازوردية. وترجمته نجاة محمد علي: على كل قطعي البالية اللازوردية. وكلها اجتهادات ممتدَحَة لا تستجيب للمفردة المذكورة إلا من بعيد.

4- على حوض الشمس المتعفنة
على بحيرة القمر الحي
Sur l' étang soleil moisi
Sur le lac lune vivante

تُرجم البيتان بصيغ مختلفة، وأحياناً بعدم انتباه إلى جنس الصفات (مذكر- مؤنث) أواخر البيتين. لننتبه إلى أن أيلوار يخلق عبر تعابير مثل (étang soleil) و(lac lune) مفردات مركبة، كأن نقول في العربية، الشمس-السيد أو الرجل-الأفعى. ولو أضفتُ صفة للأولى مثل العالي لقلت الشمس- السيد العالي لكي أشير إلى أنني أصِفُ السيدَ وليس الشمس. هكذا يفعل أيلوار تقريباً.

نجاة محمد علي:
على بركةِ الشمسِ الراكدة
على بحيرةِ القمرِ الحيّة

وهنا لا نعرف فيما إذا كانت الشمس هي الراكدة أم البركة، بينما في الثاني فالصفة بالفرنسية بالمؤنث مما يعني أنها تعود للقمر، المؤنث، وليس إلى البحيرة المذكرة بالفرنسية. أما محمد حجي محمد: فوق بركة الشمس العفنة - فوق بحيرة القمر الحي.

فهو منتبه للبيت الثاني، ملتبس في الأول.

5- على كل نفحة [من نفحات] الفجر Sur chaque bouffées d'aurore

المفردة (bouffées) تعني إطلاق الهواء بالشهيق والزفير، والهواء المنطلق عَرَضَاً، وبمعنى مجازي سَوْرَة: سورة الغضب مثلاً. أي أنها تعني بكل بساطة نفخة، نفخات (بالخاء) التي استعضنا عنها بما يشابهها، ولعله أكثر شعرية منها نفحة، نفحات، بعد أن ترجمناها بادئ الأمر: على كل نَفَس [من أنفاس] الفجر التي وجدناها لينة سهلة، أقل تعبيراً عن المحمول الفيزيقيّ الأصليّ الصلب وإنْ كانت أكثر شاعرية.

محمد حجي محمد: فوق كل نسمة فجرٍ. نجاة محمد علي: على كلِ نفحةِ فجرٍ

6- على المطر الكثيف [الخالي من الطَّعْم] Sur la pluie épaisse et fade

المفردة (fade)، تعني ما يفتقر إلى النكهة، لا طعم له، قليل المذاق، ويُقال أيضاً للطعام الخالي من الملح، ماسخ. وبمعنى مجازيّ يُقال لمن ولما لا شخصية ولا ذائقة له. يستجلبها أيلوار إلى المطر ليخلق صورة شعرية شخصية بالأحرى. إذا ما وضعنا [الخالي من الطَّعْم] كلها بين هذين المعقوفين فلأننا لم نجد مفردة واحدة وحيدة يمكنها التعبير عن المعنى.

محمد حجي محمد: فوق المطر الكثيف والبارد. نجاة محمد علي: على الأمطارِ الكثيفةِ الباهتة

7- على الحقيقة الملموسة Sur la vérité physique

الصفة (physique): فيزيقي، فيزيائي، أو ما يتعلق بالطبيعة المادية للأشياء، والإحساس والمحسوس والجسد البشريّ. هنا إحالة من طرف الشاعر للتعبير عن الحقائق الأكثر بداهة، المحسوسة، الملموسة، العيانية.

محمد حجي محمد: على الحقيقة الطبيعية. نجاة محمد علي: على الحقيقةِ الواضحة.

8- على أسبابي (raisons) المتجمّعة Sur mes raisons réunies

المفردة (raisons) تعني: القدرة على الحكم، العقل، السبب والسببية، وفي الرياضيات العلاقة بين كميتين. بينما (réunies) فهي تذهب إلى معنى التجمُّع والاجتماع وتجميع العديد من الأشياء سوية، واستدعاء للتجمّع وتضمين أو شمل عدة أشياء. هنا إذنْ استعادة للسببية والعقل التي يستدعيها الشاعر كلها مجتمِعَة ويضع عليها كلمته الأثيرة: حرية.

محمد حجي محمد: "فوق بيوتي المجتمعة"، وقد قرأ بشكل مؤسف (maisons) بدلاً من الكلمة الأصلية (raisons). نجاة محمد علي: على كلِ حججي وبراهيني

.

9- على الثمرة المقطوعة نصفين
بالمرآة وبغرفتي

Sur le fruit coupé en deux

Du miroir et de ma chambre

هذه الصورة الشعرية مربكة قليلاً في البيت الثاني، حتى بالنسبة لشرّاح قصيدة أيلوار من الفرنسيين. يذكر أحدهم عن هذه الرباعية عينها أن "موضوعة المرآة قد فتنتْ دائماً أيلوار. إنه يرى، في الحقيقة، انعكاسات متماثلة عديدة مع الحلم. لعلّ الحياة الحقيقية توجد وراء المرآة. لكن في حياة اليوم الفعلية، كل شيء مقطوع [إلى نصفين] وليس ثمة من شيء كامل".
أما ميشيل أنسول Michel Esnault فيقول في شرحه للنص إن: "أيلوار يستعيد كذلك مع الثمرة المقطوعة بالمرآة، الصورة، وبالغرفة موضوعته المفضّلة عن المرآة-المرآة".
وأظن الأمر يتعلق بصورة معكوسة للثمرة لتظهر نصفين في المرآة ثم في غرفة الشاعر. الصورة الشعرية هذه مستلهمة، دون شك، من التأثر بفن الرسم السورياليّ الذي عاصرَ أيلوار وزاملَ كبار رساميه. نتذكر هنا لوحات بيكاسو الكثيرة، ومنها لنوش زوجة أيلوار، التي تظهر فيها المرآةُ أمام مرآتها بأسلوب يذكّر بهذه الصورة الشعرية. نقاد فرنسيون كثيرون يضعون هذه القصيدة بثقة في إطار الشعر السورياليّ.

محمد حجي محمد: فوق الفاكهة المشطورة إلى شطرين - من مرآة، ومن غرفتي. نجاة محمد علي حلّت المشكلة هكذا: على الفاكهةِ المشطورةِ إلى اثنين - على مرآةِ غرفتي.

10- على عتبة بابي [التي أقفز منها] Sur le tremplin de ma porte

المفردة (tremplin) تعني لوحاً مائلاً بلاستيكياً يساعد في زيادة اتساع مدى القفزة، ومثله ما نراه في أحواض السباحة. ومجازياً ما يفيد بتحقيق هدف ما، أو هو منصّة plate-forme. هذه بالأحرى صورة شعرية لا تقتنع بالترجمة الحرفية ولا بالتأويل الزائد. فهو يربط منصّة القفز المجازية هذه بالباب لتشير إلى عتبة المنزل، لكنه يتخيّلها منصّة قفزٍ نحو العالم.

محمد حجي محمد: فوق عتبة بابي. نجاة محمد علي: على مزلاجِ بابي.

11- على كل فلذّة ممنوحة Sur toute chair accordée

المفردة (chair) تعني أشياء عدّة، وفي يقيني هي واحدة من المفردات المستعصية رغم سهولتها الظاهرية، فهي تعني نسيج الجسد الإنسانيّ أو الحيوانيّ، المرادِف للبيدو، الرغبة الجسدية. وتعني اللحم المفروم للطبخ، ولُبّ الفاكهة، واللبّ عموماً التي تأخذ مجازيا مفهومَ (المعنى sens). الغريب أن لُبّ في اللغات السامية كالأكدية تعني المعنى والعقل أيضاً كما هي في العربية: ذوي الألباب.

وتعني المفردةُ هذه الجسدَ البشريّ مقارَنة بالروح، وفي اللاهوت أن "الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا" (يوحنا 1.14)، وبالفرنسية la Parole devint chair وأن الخبز قد اهتدى وصار جسد المسيح chair

du Christ، وهذا منح جسده، لبّه للبشرية.
وفي ظني أن أيلوار يستخدم المفردة لاعباً على كل هذه الدلالات، لكن بإشارة مسيحية ضمنيّة خفيّة عبر الصفة (الممنوح) accordée التي هي المنح بالرضا والقبول، أو الاستعداد للعطاء، ثم معنى الانسجام والمطابقة وغيره. ولا أظن أن الأمر يتعلق بالاستباحة ولا الانسجام، إنما بالمنح والعطاء الإنسانيين. أنْ يكون (الجسد) ترجمة للمفردة يوطّنها في (الجسديّ) الصرف ويقتلعها من الظلال الأخرى التي تعمل بها. وستكون الجسدي بديلاً معقولاً لو أن الأمر تعلق بقصيدة حبٍّ بين رجل وامرأة، وهو أصل القصيدة كذلك، لكن تعالق النص في النهاية بمفهوم الحرية العريض يجعلني أختار مفردة الفلذّة التي تقع في آن واحد في منطقة وسط بين الجسديّ واللوعة الروحية.
محمد حجي محمد: فوق كل لحم مستباح. نجاة محمد علي: على كلِ جسمٍ مموسقٍ.

12- على واجهة المفاجآت Sur la vitre des surprises
المفردة (vitre) تعني لوحاً زجاجياً كبيراً وعريضاً يسمح بوجود فتحة، مثل مربع أو مستطيل زجاج النافذة المعروفة. وهو يطلُّ في المحلات التجارية على المارة لذا يُطلق عليه في العربية مفردة الواجهة التي تنسينا غالباً طابعها الزجاجي. هنا أيضاً استعادة لموضوعة المرآة المذكورة أعلاه. لعل وَصْلها بمفردة المفاجآت يودّ استعادة تلك اللحظات العابرة التي تداهمنا فيها فجأة الأشياء الغريبة والجميلة والمثيرة، غير المتوقعة المعروضة خلف تلك الواجهات الزجاجية. هنا تصير الجملة صورة شعرية، وليس محض تعبير عاديّ.
محمد حجي محمد: فوق واجهة المفاجآت. نجاة محمد علي: على واجهة الدهشاتِ

13- على جدران سأمي Sur les murs de mon ennui
السأم مفردة كانت شائعة في القاموس الفلسفيّ والأدبيّ الوجودي. وهناك رواية لألبرتو مورافيا بعنوان "السأم" نشرها عام 1960. وهي تختلف بالدرجات والظلال عن مفردة الملل التي قد تثير في المعجم العربيّ شجوناً أقلّ عمقاً. ترجمتها نجاة محمد علي: على جدران مللي. بينما يترجمها محمد حجي محمد "على حيطان أعدائي وهو يخلط بين المفردين (ennui و ennemi).

القصيدة وظروف كتابتها

كان أيلوار مشتبكاً مع قضايا وقته، وقد انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1927 مع لويس أراغون وأندريه بروتون وبنجامين بيريه وبيير أونيك Pierre Unik. وسوية كتبوا بياناً جماعياً عنوانه "في رابعة النهار Au Grand Jour " يشرحون فيه موقفهم. كان أيلوار فاعلاً في المقاومة في بلده، إضافة إلى احتجاجه الشديد على الفرانكوية في إسبانيا (كما تشهد على ذلك قصيدته " انتصار غورنيكا"). نشر عام 1943 "شرف الشعراء" مع كتاب مقاومين مثل بيير سيغيرس Seghers وجان ليكور Lescure.
كتب بول أيلوار القصيدة في عام 1942 بمثابة نشيد للحرية، ضد احتلال فرنسا من قبل ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية. وفيها يسمّى جميع الأماكن، الحقيقية أو الوهمية، التي يمكن أن تُكتب عليها مفردة "حرية" عنوان القصيدة.
يتكون النص من 21 رباعية تستند جميعها، باستثناء الأخيرة، على البنية الموحّدة ذاتها: الأبيات الثلاثة الأولى تبدأ مع مجاز التكرار الفرنسي المُسمّى l'anaphore والمتجلي في المفردة "على ... " متبوعاً بإضافة مكانية، بينما البيت الأخير فهو لازمة: "أكتب اسمكِ"، في إشارة إلى الحرية.
يعني مجاز الإعادة anaphore الفرنسيّ استئناف كلمة أو سلسلة من الكلمات عند بداية الجمل المتعاقبة، وهو لا يعني الشيء نفسه الذي يعنيه مجاز التكرار وإنْ تشابها ظاهرياً.
كان العنوان الأصليّ للقصيدة هو "فكرة واحدة Une seule pensée"، وحول ذلك يقول أيلوار: "كنت أفكّر أن أكشف عن اسم المرأة التي كنت أحبها والتي كانت هذه القصيدة تتوجه لها. لكن سرعان ما أدركت أن كلمة واحدة فقط كان تدور في خلدي هي الحرية. وهكذا، فإن المرأة التي أحببتها كانت تجسّد رغبة أكبر منها. كنت أخلط بينها وبين استلهامي الأكثر سمواً، ولم تكن كلمة حرية نفسها في قصيدتي كلها إلا لتأبيد إرادة بسيطة جداً، جد يومية، جد عملية إلا وهي التحرّر من المحتل".
طبعت القصيدة في نيسان 1942، دون تأشيرة الرقابة في مجموعته "شعر وحقيقة" المنشورة ذاك العام. وقد عاودت المجلة فونتين Fontaine في حزيران 1942 نشرها بعنوان "فكرة واحدة" للسماح بالتعريف بها في منطقة الجنوب الفرنسي (البعض يقول إن العكس هو الذي حدث وأنها طبعت أولاً في الجزائر). تأسست هذه المجلة الأدبية والشعرية عام 1939 في الجزائر من قبل ماكس-بول فوشيه Max-Pol Fouchet. وكانت من المجلات الأساسية للمقاومة الثقافية ضدّ النازية خلال الحرب العالمية الثانية.
ثم استعيد نشر القصيدة في لندن، في الجريدة الرسمية الديغولية "لا فرانس"، وألقيتْ من الطائرات البريطانية العام نفسه بآلاف النسخ على الأراضي الفرنسية بصفتها رمزاً أدبياً للمقاومة، وكانت قد طُبعت في لندن بالحجم المُسمّى (format in-32) وهو يقلّ عن عشرة سنتمترات.
أعيد إصدار المجموعة في سويسرا في يناير - كانون الثاني عام 1943.
عام 1945، تم دمج هذه المجموعة في كتابه "الموعد الألمانيّ" الذي يضم قصائد أيلوار المكتوبة بين الأعوام (1895-1952).
إذا ما نُشرت القصيدة في مدينة الجزائر في حزيران عام 1942 تحت عنوان "فكرة واحدة" ثم بعنوان "حرية" في مجموعة "شعر وحقيقة" 1942، فإن العنوان الشهير الثاني "حرية" قد مرّرها إلى الأجيال اللاحقة. كان للعنوان الأول بالتأكيد كبير الصدى، سواءً في فرنسا أو في خارجها، بفضل الترجمة التي قدّمها وليام بلانر William Planer في بداية عام 1943 وظهورها الجديد في نيسان من

العام نفسه في "مجلة العالم الحر la Revue du monde libre".
كانت القصيدة مصدر إلهام للموسيقي فرانسيس بولينك ولمنسوجتين فنيتين للنسّاج جان لورسا ولكتاب-مطوية لفرناند ليجيه، وهو ما سنأتي إليه .
من الغريب والمثير أن نذكر أن الشاعر لم يهتدِ لمفهوم الحرية، عند تفكيره بالأصل الأول للقصيدة، إلا عبر نوش Nusch زوجته. في محاضرة في كانون الثاني عام 1952، اعترف أيلوار أنه أثناء الكتابة، تغلب في داخله (المثاليّ) على مفهوم (المرأة) والحب الفرديّ الذي طالما كرّس له الكثير من القصائد. وهنا يقدِّم أيلوار تعريفا ضمنياً وتبريراً "لشعر الظروف Poésie de circonstance" أو ما قد نسميه نحن بالعربية شعر المناسبات. لقد شطب الشاعر اسم نوش واستعاض عنه بكلمة "حرية"، وذلك بعد مشادة مع المرأة المعشوقة أثناء حفلة عند عائلة زيرفوس Zervos، وبحضور المفكّر جورج باتاي.
إنه لأمر نادر في تاريخ الشعر أن يتحوّل إعلان شخصيّ للحب، عبر قصيدة، إعلان صار بسبب قطيعة بسيطة، حقيقية أو أسطورية، ترنيمة عالية للمقاومة ■



يا حرية

شعر فارسي معاصر

ترجمة وتقديم مريم سمرقندي

فالشعر جزء مهم في بلاد فارس. هذا ما لا يرفضه أحد. كثيرا ما ترى الشعب يتداول أبياتا كثيرة من الشعراء الكبار. إنهم يحفظون الشعر ويستمتعون بقراءته والأمر لا يختلف كثيرا عما هو عليه لدى العرب. ومع أن الشعر منذ بدايته في إيران كان يصف الطبيعة والحبيب والشجاعة والحمية والحكمة وامتلأ بعد ذلك بالتصوف والعشق الإلهي، إلا أنه ومع تقدم الزمن، واكب الأحداث التي كانت تحدث في مجتمع اللغة الفارسية، سيما في عهد ثورة المشروطة التي حدثت خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ضد حكم القاجار وأدت إلى وضع القانون الأساسي في إيران، فظهر آنذاك شعراء كثيرون بذلوا جهدهم الشعري من أجل الشعب ومطالباته وكان لهم دور أساسي في نجاح الثورة؛ أهمهم أربعة شعراء اعتُبروا شعراء الحرية في عهد المشروطة هم: "محمد تقي بهار"، و"ميرزاده عشقي"، و"فرخي يزدي" و"عارف القزويني".
وهكذا وبشكل بارز دخل الشعر مجال السياسة والاعتراض في إيران، واستمر ذلك وصولا إلى عصر "نيما يوشيج" وهو الذي لم يلبث أن ظهر بعد المشروطة إلا أنه أنجز في شعره تحرراً كبيرا من الأطر والقوالب الكلاسيكية للشعر والمفاهيم الشعرية. وقد كتب نيما شعرا عن هموم الشعب لا يشبه شعر من سبقه، فأصبح رائد الشعر الحديث في إيران. ومشى على نهجه كوكبة من الشعراء الحديثين الكبار من إيران من أمثال "مهدي أخوان ثالث"، و"فروغ فرخ زاد" و"شاملو". فكتب الأخير قصائد كثيرة ضد الاضطهاد السياسي في عهد الشاه، كما كتب لشهداء التيار اليساري وما كان يرومه الشعب من حرية، فأخذ يتداول الشعب قصائده.
وقد ظهرت نبرة الاعتراض والاستياء الشعر في إيران إلى أن نجحت الثورة عام 1979. وبعد ذلك ظهر جيل ما بعد الثورة من الشعراء الذين عبر شعرهم عن قضايا اجتماعية وسياسية حادة وسجلوا اعتراضهم بجرأة كبيرة، سببت لهم في كثير من الأحيان عقوبات شتى.
أما في أفغانستان، البلاد التي لا تعرف الهدوء، فقد ظهر هناك، أيضا، كثير من الشعراء الذين نشدوا في شعرهم الحرية والسلام سواء خلال الحروب الأهلية في بلادهم أو بعد التدخل العسكري والسياسي الأميركي والغربي. ويتمتع شعرهم الاعتراضي ببساطة في التعبير عكست بساطة الشعب الأفغاني وشفافيته. كتب الشعراء الأفاغنة كثيرا من الشعر الكلاسيكي، قوالب

ومضموناً، حتى في السنوات الأخيرة، إلا أن الحياة الشعرية هناك أظهرت شعراء شبابا خاضوا تجارب حديثة جداً في الشعر وعبروا عن اعتراضهم، من خلال جديدهم الفني هذا، كما هو الحال في فنون الموسيقى والغناء الذي شاع عندهم.

هذا الملف يقدم باقة من شعر هؤلاء واولئك من شعراء الفارسية الجدد، ممن أنشدوا بجماع ارواحهم وخيالاتهم وأشواقهم لتلك الكلمة السحرية: الحرية ■

الأيدي

گروس عبد الملكيان - إيران

كنا أشخاصاً
جالسين في مقهى
بشعر محترق
وصدور مزدحمة بشوارع هذه المدينة
بجلود نهارية
أصبحت، بين حين وآخر، ليلا!

كنا أحصنة
بلا أجنحة
ولا أعراف
ولا مروج...
كنا الركض فقط
وخرجنا من حناجر الأزقة المبحوحة
بأحذية رياضية مغبرة بالتراب.
الأشجار تحولت إلى هراوات
كنا نملك قدرا كبيرا من الدموع
وكنا نستطيع أن نذرف دموعا طبيعية

كنا الانكسار
وفي النهاية
ضربنا بها على الطاولة
قبضاتنا التي كنا نلوح بها في الهواء
وخبأنا قبضاتنا تحت الطاولة
وخبأنا قبضاتنا في السرير
وفي دولاب المطبخ،
وخبأناها في جيوبنا...

افتحي قبضتي!
أينما ألمس بيدي هذه المدينة
هناك ألم
أينما أجلس في النهار
في أي مكان على التربة...
أجده ليلا

لم يسمح لي قلبي أن أقول

هذه القصيدة
أصيبت بالرصاص منذ السطور الأولى
وإلا
فما كانت لتنتهي ■

الحرية

گلنور بهمن - أفغانستان

أيتها الشمس المكبدة دوما بالأغلال
أيتها المسجونة

المنفية الكبرى
من قائمة الأشياء المعترف بها
أيتها الحرية!
هل سترفعين علما
على برج هذه الليلة الدامية
قبل أن تكف ساعة العالم عن الدوران؟ ■

أفكر بك أيتها الحرية!

قهار عاصي - أفغانستان

كما طائر الإوز الذي يفكر بأنثاه
كما عطشان يفكر بالماء
أفكر بك!

عندما ينادي أحد من جهة الجبال
أفكر بك

لما يأتي أحد من جهة الحديقة
أفكر بك

حين تحدث أم طفلها
من النافذة
عن الأشجار العالية
أفكر بك
بك يا وصيفتي المكبلة بالأغلال
أيتها الحرية

في النهار أفكر بك
وفي الليل
أبكي معك وأرقد
وحينما يخيم الحب
على هذه الديار القديمة
ويطبل
ويرقص
ويزين الربيع
بالأرجوان
أفكر بك



عل المهجر
يهرب عينيك مني
أفكر بك
الرياح آتية
الأحجار تحدث الجبال والأعشاب والصحاري
عن العنف والصبر
أما الرياح فستهب
وتنمو الأعشاب في الهضاب
السواقي المضطربة
ستجد السكون
لكنني
أفكر بك
يا فراش ألف شهيد
أيتها الأم!
عندما أمتلئ همسات
ولا أحد هناك لينثر الأزهار
على هدوء دمي
ويشوشه
أفكر بك
أيتها الفتاة!
أيتها الحرية
ربما
... حين تزينين جدائلك
بزهرة من الأقاصي
من فصل لم يمسسه أحد
أو تغرسين وشاحك
في أغرب قبر
لأغرب رجل
لن تصل غزالة الذكريات الهمجية
(يا حبي)
من بين مروج الضوء والأعشاب
إلى شبابي
ولن تصنع لي حديقة
لكني
أفكر بك
من الصحراء إلى الحديقة
بك
أيتها السهول المفعمة بالأزهار والضوء
أفكر بك
أيتها الحرية! ■

قصائد

آيدا عميدي - إيران

1

كان قلبي قبضة خافقة
أما الآن فقد أصبح بقعة دم سالت على الأرض
فتشونا حتى العظام
نحن نأكل خبز قلوبنا
ولا يمكنكم أن تمتلكوا أي قلب
بالرصاص.

3

أصدر الحكم
أصدر الحكم
قل لهم أن ينقذوني برصاصة
أصبحتَ خنجرا يشق صدري لحظة بعد لحظة
وجرحا لا يمكن التيامه
ماذا ستفعل بكل هذه الجثث التي أنجبتها؟

أعود إلى المقهى



برأس منحن على فنجان القهوة
سأصنع وطنا لأحلامي
أشعل سيجارة
لأنظر إليك
من خلف الدموع والدخان
أنت الذي
لم تعد وطني.

3

لقد افترسوا كل لحظة ليصلوا إلى لحظة أخرى
وما هو نصيبنا
غير تاريخ دام ممزق
لا يتوقف عن الحركة
ويكرر نفسه
كل مرة
في ساحة
أو شارع
أو بيت
اليوم تجاوزنا مرور الرصاصات في الشارع
الصباح يبدأ بشاي مر وسجائر
وباب السجن فتحوه
لا مفر هنا
وهذا التعذيب المؤلم
دائما يؤدي إلى نتيجة ■

السقوط الحر

شبنم آذر - إيران

إلى ندا آقا سلطان ولحظة قبل صعودها الحر

كانت تركض
على خطوات مني
وحسب
قبل أن تسقط
على شارع "آزادي"
الحرية
جميلة
حتى عندما تسقط على الموت حراً
وحتى
عندما
تبرد
في دمك.

أيتها الرصاصات
أيتها الرصاصات العزيزة
أرجو
أن تعدن إلى خراطيشكن
حتى نعود نحن
إلى بيوتنا ■

مصير

مريم حيدري - إيران

من فرط ما لطمت الهراوات فمي
حنجرتي صارت رصاصة
وقبلتي كدمة كبيرة على وجنتك

ارمني من البيت
لأهيم في الشوارع
إنهم يحبّذون ذلك:
أن أصير قصة لم يرووها لي في طفولتي.
رائحة جنونية تهوّم في خصلات شعرك
نهداي ورقتان منكمشتان
الغربان تنقر في عروقي
والقطط الفظة تغرس أظافرها في أحشائي
ارمني خارج البيت
أو اخرج أنت منه
لنرحل إلى قرية أخرى
أو لنبق
الله أكبر
أرمي الطوس
والكوز
من فوق السطح
ولا تنكسر
أسكبُ كأس ماء على عروقي
-قد تصدق الآن أني كنت تعودت بارودك وحسب-
صدغاي يترنحان
أطفئه
قضيب من النار يلهب ظهري
أطفئه.

الليلة
ستنام إلى جانبك أرض بائرة ■

قصائد

علي رضا روشن - إيران

1
مكان الدم في العروق
ليس على الزجاج
ولا على سطح الشارع
2
يخيفون الريح من الحبل
ويخيفونني من الوحدة
ولكن
لا معنى للزنزانة
الإنفرادية
معك
3
نكتب الشعر
نحن الذين
لا نستطيع أن نعيش
نكتب الشعر
4
فُتح
باب السجن
يستقبل نزيلا آخر.

خطاب

إلهام إسلامي - إيران

أيها الجندي!
لا تقتل زوجي
هو شاعر، لا تفرغ العالم من الشعر

أيها الجندي!
لا تقتل طفلي
الأطفال يعتقدون أن الموت شيء مفجع
نحن لم نشأ الحرب
كنا ندمنا على الصمت فقط ■

قصائد

غلام رضا بروسان - إيران

1
أربط حلمي بظهري
ومأساتي أربطها
بفرسين تركمانيين
لأحرث أرضي

الأغصان تتدلى في الريح
والحرية في مفردتها
لا أحد يأتي من الأمام
والموت
يصل دائما من الخلف.

وطني
يفتح فمه كل ليلة
بصوت باب قديم.

2
الرصاصات
تتحرك بغلاف نحاسي
والطيور بأجنحة
أما الإنسان
فلم يعد يتحرك.

2
هل هناك شيء
أشد حزنا من توقف قطار في المطر؟
هل
سبق لأحد أن سمع شكاوي سيارة مسروقة؟
هل
حدث لرئيس جمهورية ما أن يموت في زلزال؟
أشعر بالحزن من الحرب
ومن القطار الذي يحمل المعدات
أريد أن أضرم النار في الدنيا ■

قصائد

علي أسد اللهي - إيران

1
لا تخش بياض الورق
والشوارع الخالية كصحراء مقفرة.
بدمي الأحمر



تستطيع أن تحرق غابات كثيرة
إرفع أصابعك
وابرِ قلمك.

2
نركض
نصرخ
نقف
نهرب
نضحك
ونذرف الدموع

والموت
كل مرة
يقتل واحدا منا... ■

جروح

آزاده بشارتي - إيران

أصنع منك إوزة
دون أن أتوقع أي تعويض
من سرب الحمائم البيضاء

لا يعرف الحدود
إلا الصياد الذي
يسقط طائره الجريح على الأرض
وراء الخط البارز
الصياد الذي
يسقط طائره الجريح على الأرض
وراء الخط البارز
يرى الجرح.

اكتب اسمك على جروحي
دماء كثيرة ينبغي أن تسيل
لكي يخفق علم صغير
في السماء
بين يدين هائمتين ■

كتابة الأبجدية

محسن بوالحسني - إيران

فوحي في عطر يدي
يا رفيقة الماضي
اخفضي صوت هذه الأغنية
وشمي
رائحتي المتعبة
يا أرض الماضي
وامرأة الماضي
تعالي إلى الرصيف
تعالي إلى مستودع الجثث
امسكي يدي
اجلبي بيتي
ارسمي جدارا حولي
ارسمي نوما حولي
نادي إخوتي
نادي أخواتي
أنا أضحك

إذن أنا أموت.

انقليني من مكان إلى آخر
هذا الأنين يواريني
اتركيني أيتها الأغنية المكسيكية
اتركيني أيتها الأغنية الإسبانية
يا تكاثر الشتيمة
يا عصابة العينين الجدارية

فوري في دمي
يا شبيهة الماضي
يا ذائقة كتابة الأبجدية
اتصلي برقم واحد
وقولي
إن النساء عقدن عباءاتهن
وبدأن بالصراخ
الرجال يصابون بالجلطات
وأنا أسقط أرضا
لأشهد على ذلك ■

الضياع ليس مهما

رسول رخشا - إيران

لا يهم
كلامي فوق مبيعات الجرائد
بين جرائد الربيع
و"اعتماد" وهذه الأيام الشتوية التي
تمر دون أي شيء

لقد ضعت
وكلامي أيضا
سيجارة مهدئة لساعات
وصيدلية مفتوحة ليل نهار
لثلوج مكررة لا تهطل
ودخان يضاجع طهران
كبكر
لا يهم أن تكون امرأة
ولا يهم أن بيتنا لا رونق فيه
إذ نسقط في الأحداث الهشة
بدلا من الرحيل الدائم
وفي مقهى صغير
بقهوة مستنقعة في الفنجان
لا يهم
العناوين الكبيرة في جرائد المساء
أملا في الجنة
والصمت
ونؤاسة بين شفاهنا
وثورة لم تولد من أمها بعد.

ضائع أنا
بين كلام كان بحرا في رأسي
ولم يعد مهما الآن
كما مساء اليوم، إذ أنسى قصيدة
خلف الضوء الأحمر الطويل الطويل في "ميرداماد"
حيث نبيذ وشهد شهي لنهدين من عسل
لا أعرف إن كان هذا مهما أو لا.
لشلال النبيذ على نهديك طعم آخر
لا
النبيذ على نهديك يصير عقيقا فوق يدي
وربما

كانوا قطعوا نهدي امرأة في الإضرابات المكررة
لكي لا يبقى الذئب جوعانا في ليلة المصباح البارد
كل هذا لا يهم
فما زلت
عندما أنظر من نافذة غرفتي
إلى الشارع
أرى مدينة
لفت ساقا على الأخرى
وتفلت في فنجانها بقايا البن ■

الدبابات

إلياس علوي - أفغانستان

الدبابات أتت من ذلك الجانب
الدبابات ذهبت من هذا الجانب
الدبابات
كانت تفوح منها رائحة ليلى.

دع يدي تشد حولك عقد الأخوة
وشفاهي يغمى عليها
هذا هو الحضن الذي
كان يريده "عاصف"
وربما "أمان الله" أيضا
دع القصيدة هذه تتلوث
أنا في حضنك الليلة

في أفغانستان
الطيور تطير في ارتفاع عميق
الألغام تحب الاطفال
والأطفال يحبون الألغام
في أفغانستان
تطير الطيور على علو شاهق

اخرس، اخرس
لا يعنيك هذا!
"لا بيت للفلسطيني
والدبابات تفوح منها رائحة ليلى"
أنت قصيدة فقط
يصفقون لك
عندما تنتهي ■

دائما في الخامسة مساء

خالدة فروغ - أفغانستان

عبثا
تشطب الخطوط البنفسجية نظرتي
هناك من يكسر مفرداتي
هجاء هجاء
بقلم سحابي
لكي لا أقرا بيتا من الحب
قطعوا صوتي
فبت أسجل الحب على شريط القلب
بالرغم من أنه دام
ومجروح
لكن اليأس أقوى
خطواتي لا تألف التقدم أماما

والحركة هي ذنب العمر الذي لا يغفر
دوما ما نصحوا مرآتي
بالجلوس والانكسار والصمت
وساعتنا دائما الخامسة مساء
لم تكن الخامسة فجرا يوما ما
لم ينمح عن غدير ذاكرتي
أن الحركة ذنب العمر الذي لا يغفر
رائحة الغروب تحزنني دائما
يتجسد فيّ تمثال لجبل
ينهار كل ليلة إثر بكاء طويل
المدينة صراخ صدئ
ومتعبة
وحديث بيتنا كئيب
إنه يبوح للجدار
يقظته التي لم ينلها.
هذه المرة
يهب المطر حول الريح
ويرمي أيدي الأشجار على الأرض
دون اكتراث...
ناي
ينبغي أن نعزف ناي الوحدة ■

قصائد قصيرة

هدية يزدان ولي - افغانستان

1
تنطلق عيناي
من النافذة
وأبقى في الأسر
عمياء

2
بتروا
الأيدي
وتركوا لنا
الصخور
تعال نتلمس ذواتنا!

3
جعلوني حلقة
وشنقوني
كلٌ يصل إلى مكان بعد وطأي
إلا أنا ■

- آزادي في الفارسية: الحرية. وهو اسم لشارع كبير في طهران.
- جريدة إيرانية.
- اسم منطقة في طهران.

گروس عبد الملكيان

ولد گروس عبد الملكيان عام 1980 في طهران وبدأ كتابة الشعر منذ سني المراهقة. أصدر عبد الملكيان أولى مجاميعه الشعرية تحت عنوان "الطاشر الخفي" عام 2001 وحصلت هذه المجموعة في العام نفسه على "جائزة كتاب العام للشعر الإيراني المعاصر".
دواوينه الأخرى هي "الالوان الحائلة للعالم" و"السطور تغير أماكنها في الظلام". "الحُفَر" هو الكتاب الرابع والأخير لگروس عبد الملكيان والذي صدر عام 2011 وأعيد طبعه سبع مرات حتى الآن.

آيدا عميدي

ولدت آيدا عميدي عام 1982 في طهران. صدر لها "أضع جمالي خلف الباب" عام 2005 واعيد طبعه عام 2008 وقد ترجم هذا الديوان إلى الكردية. ولها تحت الطبع ديوان تحت عنوان "جيش الكلمات المهزوم".

شبنم آذر

ولدت عام 1977 في محافظة مازندران. عملت في الصحافة إلى جانب كونها شاعرة بدأت كتابة الشعر منذ الطفولة. صدر لها "أحلم بكل لغات العالم" و"لا مطر يغسل كل هذا". تسكن شبنم آذر ألمانيا منذ سنتين. وتعمل آذر حاليا على بحث يركز على "معجم مفردات العنف" من أجل دراسة كمية المفردات الفارسية التي تتضمن العنف وكيفية استعمالها.

مريم حيدري

ولدت مريم حيدري عام 1984 في الأهواز. تكتب الشعر بالفارسية والعربية وتترجم من الفارسية إلى العربية والعكس. صدر لها ترجمة "أثر الفراشة" لمحمود درويش إلى الفارسية و"طيور بلا أجنحة" وهو ترجمة مختارات للشاعر الإيراني "احمد رضا أحمدي" ولها تحت الطبع عدة كتب منها ترجمة مختارات شعرية للشاعر نوري الجراح إلى الفارسية وترجمة قصائد حب لمحمود درويش.

الهام اسلامي

ولدت إلهام إسلامي في شمال إيران ثم انتقلت إلى طهران برفقة زوجها الشاعر "غلام رضا بروسان". صدر لها "الدنيا لا تكف عن النظر نحونا" ورشح ديوانها لجوائز أدبية في إيران. توفيت إلهام إسلامي وزوجها وابنتهما إثر حادث في العام الماضي.

غلام رضا بروسان

ولد عام 1973 في مدينة مشهد. صدر له: "الاحتمال يدوّخ الطائر"، "علبة سجائر في المنفى"، "نحو نهر ستوكس"، "قصائد حب جندي ما" و"رثاء شجرة سقطت على جانبها". توفي بروسان عام 2011.

علي أسد اللهي

يعمل أسد اللهي في مجال الصحافة في إيران وقد رشح للجائزة الرابعة لشعر الصحفيين إلى جانب الشاعرين "سارة دستاران" و"مصطفى غضنفري".

آزاده بشارتي

ولدت عام 1990 في مدينة رشت في شمال إيران. صدر لها عام 2010 ديوان "الأجفان المطبقة" والذي يشتمل على قصائد عمودية للشاعرة كتبتها خلال عام 2005 إلى 2009. ومنذ صدور مجموعتها الشعرية بدأت بكتابة قصيدة النثر.

محسن بوالحسني

يعمل الشاعر الشاب، محسن بوالحسني في مجال الشعر والترجمة. صدر له حتى الآن أربع مجاميع شعرية، كانت الأخيرة تحت عنوان "هي التي قتلتني". كما ترجم لريتشارد براتيغان كتابا عنوانه "بيت جديد في أميركا".

رسول رخشا

يعتبر رخشا من الصحفيين الناشطين في مجال الأدب والثقافة فكتب في النقد حاور كثيرا من الأدباء الإيرانيين البارزين. صدرت مجموعته الشعرية: "من خلف نظارتي" عام 2010 وهي تتضمن قصائد غالبيتها غزلية، لكنه كتب بعد ذلك كثيرا من الشعر الذي ينظر إلى المجتمع بعين ثاقبة.

إلياس علوي

ولد إلياس علوي في أفغانستان. سكن إيران لسنوات ونشر أولى مجاميعه الشعرية في إيران عام 2007 تحت عنوان "أنا ذئب حلوم". أما مجموعته الشعرية الثانية فصدت في كابل عام 2011. يقيم إلياس علوي حاليا في إستراليا.

قهار عاصي

ولد قهار عاصي عام 1956 في أفغانستان وتوفي عام 1994 خلال الحرب الأهلية في أفغانستان. صدر لعاصي دواوين كثيرة خلال حياته. يعتبر عاصي "شاعر آلام الشعب" في أفغانستان نظرا لإبداعاته والعاطفة الجياشة في شعره. يخرج شعره عادة من الأطر التي التزم بها شعراء جيله.

خالدة فروغ

ولدت خالدة فروغ عام 1972 في كابل. تعتبر خالدة فروغ من أهم الشاعرات الأفغانيات. صدر لها: "قيام ميترا"

و"نافذة نحو فصل الصاعقة" و"عبور من قرن قابيل". تشتغل خالدة فروغ حاليا كأستاذة في اللغة والأدب الفارسيين في جامعة كابل.

گلنور بهمن

ولد گلنور بهمن عام 1967 في أفغانستان وهو من أهم مؤسسي المجلات الأدبية الثرية في أفغانستان كمجلة "سبيده" و"افرند" واشتغل أيضا كمؤسس ومدير تحرير لمجلة "روزنه" الحقوقية في بيشاور. يقيم بهمن حاليا في كابل.

هدية يزدان ولي

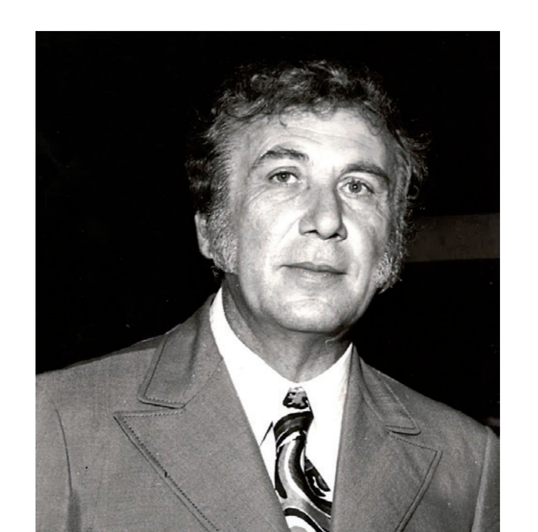
ولدت الشاعرة هدية يزدان ولي في أفغانستان وهي إلى جانب كتابتها للشعر الفارسي، تترجم الشعر من اللغة الإنكليزية إلى الفارسية، فترجمت لشعراء كسيلفيا بلات ورابرت دينوس. تقيم يزدان ولي حاليا في كندا.

في العدد القادم

ملف:

هذا الشاعر

نزار قباني



أحمد عدي الأتاسي

أعطني الساعة التي بيدك!

على الحدود بين جحيمين

هي تهريب تهريب، يستقبلك فوجٌ من صيادي الغريب، أتراك اللواء السليب، عندما تترجل من سيارة ما، نقلتك من جحيم سوريٍّ، سفليٍّ، أو علويٍّ لافرق، على معبر باب الهوى الحدودي.

كنت و"مؤيد" و"لمى" عائدين ليلاً من مخيم أطمة الزيتون، في الداخل السوري المحرر، عند الساعة الثامنة مساءاً تقريباً، بعد جولةٍ تسليم مواد إغاثيةٍ، إلى ذلك المعبر "البرزخ"، وكالعادة، بعد أن تعلمت كيفية التعامل مع أولئك الصيادين المتمرسين على اصطيادك، كيما يدخلونك إلى تركيا بشكل غير نظامي وذلك عبر الإلتفاف حول المعبر، عبر طريق زراعية طينيةٍ مليئة بأشجار الزيتون، وبعد بازار وأخذٍ وردْ، وافق المهرب على أن يهربنا بمبلغ 700 ليرة سورية، كانت هي المبلغ المتبقي معي ليلتها، لأني كنت المسؤول عن توزيع المساعدات العينية والمادية، داخل المخيم، ولم يتبق معي سوى ذلك المبلغ ليلتها، وكنت أعرف بأني حين سأعبر إلى تركيا، سأتصل بأحد الاصدقاء، كي ينقلنا بسيارته، أو على الأقل، سيبعث لنا بتكسي تقلنا إلى بلدة الريحانية الحدودية المجاورة للمعبر.

***

وفيما نحن على البازار "كما يقال بالعامية" مع المهرب، إذ بسيارة سوريةٍ صغيرة، بيضاء اللون بمقعدين أماميين، تتسع للسائق وبجانبه شخص آخر، ولها صندوق صغير مغلق، مقبلة علينا تماما، توقفت، ونزل منها السائق، وأنزل زوجته التي كانت بدورها تحمل طفلا رضيعا، تلفّه بغطاءٍ سميك لتقيه صقيع تلك الليلة التي انحدرت فيها درجة الحرارة إلى ما دون الصفر حتما. كان ضباب كثيف يلف الأنحاء بغلالةٍ بيضاء باهتة، والأبخرة التي تخرج مع أنفاسنا تدلُّ على برودة تلك الليلة القاسية، وبعدها ذهب ليفتح مؤخرة العربة، ليتناثر منها على الارض كمٌّ من الحاجيات التي بدت وكأنها جمعت على عجلٍ، ومعها وقع على الأرض أربعة أطفال، نعم وقعوا كما لو كانوا حملا زائدا في السيارة، لايتجاوز أكبرهم العاشرة من العمر، اثنان منهما، بديا بملامح مرعبة وكأنهما خرجا لتوهما من جحيم لايعرف كنهه إلا من عاش لحيظاته، والآخران كانا بلا حذاء ولا

حتى جوارب، بوجوهٍ متعبة، وملامح اللامبالاة بادية عليها. كان الأطفال مكدسين فوق بعضهم بعضا كعلب كرتونية، وتحتهم، عدد هائل من الأغطية والثياب وحاجيات منزلٍ جمعت على عجلٍ، هرباً من قصفٍ لايفرّق بين بيت وبيت، بين كبير وصغير، بين امرأة أو رجل أو طفل. كانو يرتجفون من الخوف والبردْ.

هجم عليهم، كما هجم علينا من قبل، صيادوا الفرص، مهربو البرزخ إياه، وابتدأو بالبازار، لكن رب العائلة لم يكن يملك مالاً ولا الأم أيضاً، فقد كان هروبهما للنجاة بحياتهم، غير آبهين بالمال "لو كان موجودا أصلا"، ولا بأي شيءٍ آخر سوى النجاة من قصف طائرات الأسد الغادرة.

***

رأيت المهربين يتكالبون على تلك العائلة النازحة الهاربة من الجحيم، وسمعت أحدهم يقول: أعطني الساعة التي بيدك، والآخر رمى نظرة على مسجلة السيارة، مقابل تهريب عائلتك، فتوجهت إلى قلب تلك المعمعة، محاولا فك أسر تلك العائلة، من براثن المهربين، مازحا أحياناً ولابسا ثوب الجد أحياناً، وكأني خبير تهريب وتربطني صداقةٌ مصلحةٍ باؤلئك المهربين. قلت للمهرب: إنها عائلة أختي الهاربةْ، وسأدفع لك ماشئت حين نعبر إلى الجانب التركي، وافق المهرب على مبلغ ألفي ليرة سورية، لتهريبنا جميعاً، عائلة أختي المفترضة، أختي وخمسة أطفال، أصغرهم بعمر أربعة أشهر، اسمه "أحمد"، و زينب، وخالد وعبد الله وفرج، وقال لي الزوج "أخي هدول أمانة برقبتكون، وأنا رح فوت بالسيارة نظامي، ورح لاقيكن بالجانب التركي"، كان الرجل يحمل جواز سفر سوري نظامي يؤهله للدخول بسيارته عبر المعبر النظامي لباب الهوى.

توليتُ حمل أحمد الرضيع، وعلى ظهري شنطة كبيرة بها كل معداتي، من كاميرا وفيديو، وبعض الماء، والكثير من بوح الخاطر ونبض التجارب، التي كنت أدونها يوما بيوم، حتى لايداهمني الألزهايمر مبكراً وأفقد بعضا منها. تولت لمى حمل زينب، وتولى مؤيد حمل خالد، وبقي عبد الله وفرج يمشيان بجانبنا كانا يلبسان حذائيهما المفترضين!

في أطمة، تعزفُ السماءُ أمطارها بشغفٍ،
تفرغ الغيمات أثداءها، دفعة واحدة،
على عُراتكَ يا الله.
في أطمة،
يعربد الطين،
الزيتون،
والصقيع، في حانةِ الفقراء ذاتها،
تلك الـ..من تنك وقصدير عتيقٍ كالفقر،
ويسبغ الموت أسداله، بلا رأفة،
على الخيماتِ،
حارقاً جسد الصبية،
المرتجفة من خوفٍ وبرْدْ.
أطمة
المسورة بأسلاكٍ
كي لايعبر الفرح،
لكن زينب كانت تضحك،
وأحمد كان يعبئ النجمات في عبه،
وليلى الصغيرة،
صنعتْ فرحاً من بقايا الزجاجاتِ
ولبنى الـ..من حمص،
كانت تلوك بقايا غصن زيتونٍ
وتبتسم للغريب الذي مرَّ.

***

معبر باب الهوى، هو مبنىً مسور بأسوارٍ عالية على جوانبه، يبلغ طوله حوالي الثمانمائة متر، له بوابتان حديديتان، أحداهما للقادمين والأخرى للمغادرين. كان الوقت قد تجاوز الثامنة والنصف ليلاً، وقد خلا الجانب السوري من صخب الباعة وسائقي التاكسي، وفوضى تبادل البضائع واستلام المصابين في معارك الداخل السوري، وباعة القهوة والسجائر، الذين يشتغلون في كل شي وبأي شئ إلا الثورة، يعيشون على هامش كل شيئ، على هامش القرى والبلدات والحدود، وعلى هامش الثورة أيضاً.

المعبر مضاءٌ جيدا بكشافات كبيرة تتيح للجنود الأتراك رؤية كل شيئ يعبر أمامهم وعن بعد. وهم مخولون بإطلاق النار فوق رؤوس الهاربين في حال عثروا على أحدهم.

على جانبي المعبر، هنالك طريقان، أحدهما ترابي زراعي، والآخر اسفلتي، وكان حظنا سيئا تلك الليلة، فالمعبر الأسفلتي كان مغلقا لسببٍ ما، فما كان من المهرب إلا أن أشار علينا بعبور المعبر الآخر، الطيني اللزج كالصابون بسبب المطر والضباب، وابتدأنا رحلة العبور.

***

ابتدأنا بالنزول من على الطريق الأسفلتي، باتجاه الشرق، لنعبر فوق حجارة كبيرةٍ تفصلنا عن الحاجز السلكي المثقوب بفعل مقصات المهربين، والذي يبدو بأن السلطات التركية تركته كما هو بدون إصلاح، كرسالةٍ لنا نحن السوريين بأننا نراكم، لكننا نغضُّ الطرف عن هروبكم، وكم كانت الحجارة زلقةً ليلتها، كانت المسافة بين الطريق إلى تلك الفجوة في الشريط تبلغ العشرين إلى ثلاثين متراً تتخللها مفاجئات غير متوقعة، مثل بروز قضبان حديدية غير مرئية، مزقت لي بنطالي، وكان أحدنا كلما واجه مفاجأة ما يصرخ منبها الآخرين وراءه، كي لا يمروا فوقها، نسيت

وأنا أحمل أحمد الذي كان يداعب وجهي بيديه الصغيرتين الباردتين، آلام ظهري، وآلام الجرح الذي خلفته عملية استئصال سرطانٍ كاد يفتك بي، لكنه فتك بكليتي اليسرى، منبها إياي لما هو أعظم. نسيت الحمل الثقيل على ظهري وكنت أنظر إلى أحمد وأقول في نفسي، وله " لك الحياة يا أحمد" ولأن إسمينا، متطابقان، كنت كمن يناجي ذاته.
كانت خطواتي صغيرة جداً كي لا أنزلق، ويقع أحمد من يدي، فأحمد هو مستقبلي ومستقبل البلد، كنت حريصا على حفظ توازني، وكانت حواسيَ كلها تعمل بشكلٍ متناغم على وقع الخطر المحدق بنا جميعاً، وقلبي كان يخفق بشدةٍ كيما يوفر الدم لدماغي الذي كانت تتناهبه لحظتها آلاف الأفكار.
انتهينا من المرحلة الآولى بسلام، وعبرنا الشريط الحدودي عبر الثقب، لنبدأ رحلة الألف ميل الزلقة تلك.
الأرض طينية مزروعة بأشجار الزيتون، وهناك على يسار الطريق، ولكثرة عبور المشاة الهاربين، صارت الأرض ممهدةً نوعا ما، لكنها زلقة لدرجة مرعبة، تواجهك حفر غير مرئيةٍ، والليلة شديدة الظلمة، كنا نعتمد على أضواء هواتفنا المحمولة كي نتبين معالم الطريق.

***

ما إن وضعت قدمي على أول الطريق، حتى رحت، فجاة، أنزلق وكدت أن أفقد توازني، لولا أن حائط المعبر كان إلى يساري، فاستندت عليه، لكن صرخة الأم التي انطلقت خوفا، أرعبتني وأرعبت الطفل أحمد الذي شرع بالبكاء، بعدما كان يضحك ويداعب وجهي بيديه، وعندما رأتني أستند إلى الجدار، هدأت قليلاً، وقال لنا المهرب التزموا الهدوء أرجوكم، الجنود الأتراك موجودون في مكان ما، ولو سمعوا شيئاً سيغلقون المعبر، وسنضطر للرجوع إلى الخلف. فما كان من الأم إلا أن هدأت وهدأ بكاء أحمد معها.
إلهي، إلة الهاربين في هذا الصقيع العظيم؛ امددني بدفء لحظتين، ريثما يعبر أحمد الرضيع هذا الجحيم الثلجي إلى الضفة الأخرى لطينك الأزلي، امددني بشمسٍ تشرق من قلبي وتدفيء الأقدام العارية لأخويه، امددني بجلد الصخر وصبر الجِمال، لأعبر هذا الحاجز غير أبه ببندقية الجندي التركي فوق رأسي، إلهي، إلة العاجزين.. أتسمعني؟

***

كان مؤيد ولمى، يحملان طفلا على كتف ويسندانه باليد الأخرى، ومؤيد ينير الطريق بهاتفه المحمول، كان يمشي أمامنا مباشرة، وكنا نمشي وراء بعضنا البعض بخطٍّ طولي، كنت أنا ورائه مباشرةً، قلت له ابق قريبا مني، وقلت لأم الطفل إبقي ورائي مباشرةً، اسندي لي ظهري وتمسكي بي بذات الوقت، كي أحافظ على توازني، وفي حال انزلاقي يكون مؤيد أمامي، والأم خلفي، كجدارٍ يمنعني من الوقوع أرضاً.
كانت أطول مسافة مشيتها بحياتي، رغم أنها لاتتجاوز الميل، لان روح أحمد، وجسده الصغير، كانت بين يدي، كنا نرى بعض الهاربين من تركيا إلى سوريا وبالعكس يمرون بجانبنا، نتبادل السلام، كأننا نمشي في شارع ما في سوريا، ونرد التحية بأحسن منها، تعبتُ قليلا، فطلبت من المجموعة التوقف، كي أستردّ أنفاسي، لعن اللّه التدخين وساعته، في تلك اللحظات تعرف ماهي مساوئه.
جلست على صخرة بجانب الطريق لبعض الوقت، ونهضت، بعد أن استعدت بعض قواي، وكأن يداً الهية كانت تدفعني، وتترفق بأحمدين؛ الكبير الصغير.

***

تابعنا المسير رويدا، على صابون الأرض الطينية التي تشبعت بمطر الليلة وبضبابها، كان همنا الوصول، وعدم الإنزلاق، وبنفس الوقت، التخفي عن أعين الجند، المتربصة، بطرائد الليل وعابريه الى بر أمانٍ مرتجى، الى أن وصلنا الى المرحلة الأصعب من الطريق.
هنا تصبح الأرض صخرية تنتهي بنهيرٍ صغير, بطول مائتي متر تقريباً، ولا مجال لأحدنا بالعبور، وهو يحمل أي شيئ بيديه، لأننا وببساطة نحتاج لكلتا اليدين، لتسلق الصخور والنزول عنها.
التمعت في رأسي فكرة، كما البرق، خلقتها الحاجة، لأن الحاجة أمّ الاختراعات كلها، قلت: لنعمل جسراً نستطيع من خلاله تمرير الأطفال واحدا واحداً، وهو أن يقف أحدنا تحت الصخرة، والآخر فوقها ليتلقف الطفل من تحت إلى فوق، ومن فوق إلى تحت، وطلبنا من المهرب أن يساعد الأم بالعبور أولا، إلى برِّ الأمان لكي تتلقف الأطفال من يدينا، حال الانتهاء من حملهم واحدا تلو آخر. ابتدأنا بالرضيع أحمد، وقف مؤيد فوق الصخرة، ليتلقف أحمد من يدي، ووقفت لمى أسفل الصخرة لتتلقفه من يدي مؤيد، ومن ثمة أتحرك أنا واتسلق الصخرة وأنزلها، لأتلقف أحمد من يدي لمى، وهلم جرا، استمرت العملية مايقارب الأربعين دقيقة،
عبر أحمد الصغير بسلام وتلقفته يد الأم المرتجفة من الخوف والبرد والجوع والعطش، كانت نظرات الامتنان والفرح بادية على وجهها الذي كان يحمل آلاف التعابير المرئية وغير المرئية، كانت الظلمة تخفي بعضها، ونور الهاتف يبدي بعضها الآخر، من قلقٍ وخوفٍ وحزنٍ ورعبٍ وامتنان، إلى أن انتهينا من حمل كل الأطفال إلى صدر أمهم التي احتضنهم بشغفٍ، وكأنها لم ترهم منذ أمد الخلق إلى الآن.
عبرنا الفجوة في اسلاك المعبر التركي واحدا تلو الآخر، والتهم الضباب أجسادنا، فما عدنا نرى شيئا، ولا نسمع سوى نبض قلوبنا ولهاثنا المتعب، وبعض همهمات خافتةٍ كان يحجبها الضباب الثقيل. وها إن يد أحمد الصغير مازالت تلاعب وجه أحمد العابر في هذا البرزخ الممتد.
معبر باب الهوى الحدودي ■

2013-1-12



عبدالله غباش

ربطة خبز مهربة إلى الثوار وعليها صورة السفاح
طرطوس محمية لعائلة الأسد

طرطوس تلك المدينة التاريخية العظيمة, أنترادوس مدينة الفينيقيين القديمة تحوّلت منذ أربعة عقود إلى محمية ومزرعة لعائلة الأسد, التي حوّلت سوريا العظيمة إلى ملكية خاصة, ومرتعاً لمرتزقة النظام "الشبيحة", فمازالوا يمارسون طقوسهم الهمجية اللإنسانية, بحرية مطلقة, وما زالوا يعتقدون أنها ملكهم. يحتكرون الجمال والسحر, ويعتقلون التاريخ, ويقتلون الجغرافية, ويسرقون الثروات وينتهكون أنوثة البحر, وعظمة الجبال, وعنفوان الهواء السوري الأصيل.

قد يكون لفظ محمية هو الأنسب والأدق في هذه المرحلة المفصلية من عمر سوريا الجديدة التي تنمو من جديد في تراب الثورة وهواءها وماءها، فالأنباء تتكاثر عن إحتمالية أن تكون هي ملجأ الأسد الأخير ومحميته الأخيرة التي سيجد فيها فعلاً ملاذاً آمناً لفترة معينة, هرباً من قبضة الثوار في دمشق، وقد تبقى في إطار التخيل والتكهن ولكن السؤال الأهم :

هل فعلاً طرطوس يمكن أن تكون محمية للأسد الهارب؟

تجربة قاسية عشتها في طرطوس لمدة أربعة أشهر مضت, كانت الأقسى في حياتي على الصعيد الإنساني والإجتماعي , فالمدينة هربت من الجغرافية الثورية السورية، أو أنها بالأساس لم تكن على خارطة الحراك الثوري, ولم تشهد إلا بعض التظاهرات القليلة والتي قوبلت بوحشية النظام, وإعتقال المتظاهرين كما حدث في باقي المدن السورية التي ثارت على النظام .

الهدوء يخيم على المكان والحياة الطبيعية تفرض نفسها على حياة الناس في المدينة, دخلتُ من بيروت إلى طرطوس براً, أوقفني حاجز للجيش النظامي, طلب الهوية, أخذ هويتي فقط, هوية السائق كانت لهجته التي تدل على انه من أبناء طرطوس فلا حاجة للتدقيق بهويته, أو ربما هناك سبب آخر لذلك , كأن يكون معروفاً لدى الحواجز الأمنية والعسكرية, أخرجت هويتي, و قبل أن أعطيها للعسكري من الشباك مد يده وانتزعها من يدي بسرعة ولم يعر أي إنتباه للإسم, بل قلبها إلى الخلف لأن ما كان يشغله هو من أي مدينة أنا.

نظر مطوّلاً إلى مكان القيد وعنوان السكن .



وقال بلهجة أمنية معهودة: لما جئت إلى هنا؟ وماذا معك؟ وطلب من السائق أن يفتح صندوق السيارة، بينما كان يتابع طرح الأسئلة، بما في ذلك عن عنوان قريتي المسجل في الهوية وأين تقع؟ وماذا يحدّها؟

وانهال علي بالأسئلة، وحين حاولت أن أفتح الحقيبة، أبعدني وحاول فتحها بنفسه، كان لحقيبة ملابسي قفل رقمي، طلب مني أن أضع الرقم، وبالطبع سألني لما أضع قفلا للحقيبة؟ قلت له كل الحقائب فيها هذه الميزة، وتابع الأسئلة التي لم أكن أستطيع الإجابة عنها كلها بسبب سرعته في طرحها..

أفرغ الحقيبة من كل شيء ... كل شيء: ملابس على جانب الطريق، ملابس على ظهر السيارة وبعضها تناثر على الأرض .

تحقيق دام لمدة ربع ساعة وبواسطة من السائق مشينا.

ها قد دخلنا إلى محمية آل الأسد، دخلنا إلى معبد البعث الوثني المكتظ بالصور والتماثيل. لأول مرة أشعر بأني أدخل إلى بلد آخر، على بعد كيلو مترات هناك موت ودم و دمار، ومجازر و مآسي في وقت تعيش فيه هذه المدينة حالة غريبة ومقيتة من الهدوء. شعرت بغربة مخيفة، هناك كلمات مؤحده كان يرددها أي شخص تقابله هنا وخاصة حين يعرفك أنك من مدينة أخرى:

إرهابيون , مخربون، خونة، جواسيس، عملاء، مؤامرة.

هذا شريط مسجل في دماغ كل إنسان قابلته من سكان طرطوس.

ربما يكون النقد صريحا وجارحا، لكن هذه هي الحقيقة، مدينة تعيش خارج مفاهيم الإنسانية، حتى الذين يرفضون أعمال النظام يسيطر عليهم خوف ورعب، ترى في بعض الوجوه الرفض والإعتراض، لكن الخوف يتلبس تلك المشاعر ويحجبها تماماً..

أينما ذهبت تسمع أغاني المديح لبشار الأسد، تسمع عبارات الألوهية، والصور تنتشر بكثافة، تشاهد بعض الأطوار الغريبة، وخاصة على نوافذ بعض البيوت، فأحياناً يخرج لك من الشرفة بوتين، و أحيانا لافروف، وتشاهد ابتكارات غريبة على أبواب بعض المحلات:

باب عليه صور الأسد والخميني ونصر الله ولافروف وبوتين وأعلام الصين وروسيا وحزب الله وإيران .. تساءلت مرة كيف أمكن لذلك الباب أن يحمل كل هذه القذارة الإنسانية؟

كيف استطاع أن يحوي كل تلك الصور التي قد لا تستطيع جبال حملها من ثقل وحشيتها وإجرامها وقذارتها ..

لا وجود أبداً لكلمة ثورة، وغير مسموح النطق بها .. فهي مؤامرة.

ولا وجود لعبارة جيش حر، ممنوع استخدامها تحت طائلة التحقيق

هم إرهابيون فقط!

وتتسائل أحياناً لما تثور هذه المدينة أصلاً. مدينة تعيش جغرافياً وفكرياً واقتصادياً و اجتماعياً خارج ضغوط الثورة.

حتى في عز الأزمات يتأقلم المواطن هناك لا بل يشعر بالخجل كونه يحمل الدولة أكثر مما تحتمل، في حالات إنقطاع الاتصالات والغلاء ونقص بعض المواد فلديه مبررات جاهزة يعفي النظام بها من مسؤولية انقطاع المواد والغلاء سمعت عبارات ساذجة جداً في تلك المواقف مثل:

"الله يعين هالدولة وهالرئيس شو بدهم يتحملو ليتحملو"

وهم مقتنعون جداً بأن الإرهابيين هم وراء انقطاع كل شيء ونقص أي شيء والغلاء في الاسواق. وكأن الإرهابيين كانوا هناك منذ اول الخليقة يقطعون المواد ويتسببون بالغلاء، وكأن سورية كانت جنة النعيم اقتصادياً والآن جاء الإرهابيون وتسببوا بكل شيء.

فعلياً وجهة نظرهم صحيحة فالإرهابيون هم آل الأسد الذين يقطعون الاتصالات ويسرقون وينهبون ثروات البلد وخيراته. مأساة فكرية فعلاً، وإذا أخذنا المدينة من الناحية الاقتصادية فهي لم تتأثر أبداً كباقي المدن فأسعار المواد لم ترتفع إلا بنسبة ضئيلة جداً لا تتعدى الـ5 بالمائة مقارنة مع حلب مثلا التي ارتفعت أسعار المواد فيها إلى نسبة 300 بالمائة، أي ثلاثة أضعاف وربما أربعة وخمسة أضعاف في أحيان كثيرة.

ومن الناحية الإجتماعية هناك تأقلم واعتياد لحياة العبودية، فبشار الأسد ليس فقط رئيس، هو الزعيم والقائد والأب الروحي حتى ولو قادهم إلى التهلكة يجدون في ذلك تضحية للوطن. وعبادة بشار جزء من الشخصية الوطنية التي يشعر بها المواطن هناك. أشخاص يبررون الأزمات والفقر وكل شيء بأنه تضحية من أجل الوطن.

ولم يتساءلوا أبداً أين هي ثروات البلد، ولماذا الاقتصاد في يد العائلة الحاكمة فقط. ولماذا تحولت سوريا إلى مزرعة لآل الأسد .. هذه أسئلة بعيدة جداً عن أشخاص يعتبرون أنفسهم عبيداً لبشار الأسد. فلماذا يثورون عليه؟.

هناك مبادرات فقيرة وتبقى في إطار إنساني، لكنها على أية حال أفضل من لا شيء:

في أحدى المرات نزلث صباحاً ووجدت عدداً من الأشخاص يقفون بباب مخبز الدولة، ينتظرون الحصول على الخبز، وبعد ذلك يجمعون ربطات الخبز ويرسلونها في باص إلى الشام أو حلب، يرسلونها إلى المناطق التي تعاني من أزمة نقص الخبز أو بالأحرى انعدامه. مبادرة إنسانية من بعض شباب وشابات طرطوس، تأملت المشهد بسعادة بالغة، وفي تلك اللحظة عبرت امرأة مسنة من أمام الفرن وسألت أحد الشباب لماذا تضعون الخبز بالسيارة؟

فقال لها: نرسله إلى الشام، لأنهم هناك يعانون من نقص الخبز.

فردت عليه بلهجة حادة: الناس هنا أحق في هذا الخبز من أن ترسلوه إلى الشام!

ربما يرى البعض في هذه الأنانية حالة شاذة أو فردية. لا يا أصدقائي تلك حالة متكررة ويومية. يريد البعض أن تعاقب تلك المدن التي ثارت على النظام. والكارثة الأكبر أن الأمن استغل تلك المبادرة وقام بطبع صورة بشار الأسد على كل ربطة الخبز وبجانبها كلمة (منحبك)!!

تخيل معي أنهم يريدون إرسال معونات من الخبز وإذلال الناس بأن بشار هو المخلص. حتى حين

تصلكم ربطات الخبز ستجدون عليها صورته وكلمة "منحبك". وهذه بمثابة رسالة بأنكم إذا كنتم تريدون الخبز والحياة فهي في ظل سلطة بشار الأسد فقط

حاولت كثيراً توصيف ما أراه, أحياناً كنت أبحث عن وصف لتلك الحالة التي يعيشها الشارع، تلك الحالة الغارقة في الجهل الإنساني, دهشت حين عرفت أنه لا دمار في سوريا برأيهم. لا وجود لقصف بالطائرات, كلها مجسمات, كلها فبركات, كلها مؤامرات.

إنما، حتى ولو كانوا يأخذون أخبارهم من قناتي "الدنيا" و"الإخبارية" لن يستطيعوا العيش في حلم بقاء النظام مثلما يعيشونه, فبنظرهم أنها حرب على سوريا والجيش منتصر والنظام باقٍ ولا سيطرة للجيش الحر كما يزعم الإعلام , أوهام ستختفي ربما حين يجدون عرابهم وزعيم محميتهم هارباً إليهم أو إلى خارج البلاد تاركا إياهم يواجهون حربهم الوهمية وحدهم.

سكنت في منطقة من ريف طرطوس, وكانت فكرة النزول إلى طرطوس البلد كارثة، فعلا، فلديك أكثر من عشرة حواجز أمنية وعسكرية على الطريق, في كل مرة النظرات نفسها والإتهامات نفسها، كونك من غير ابناء المدينة.

تُؤخذ هويتك, وكلما كنت من قرية ساخنة ومسيطر عليها من قبل الجيش الحر انتظرت أكثر, وأهنت أكثر, و شتمت أكثر في بعض الأحيان.

تنتظر على الحواجز لوقت طويل حتى ينتهي التحقيق اليومي السخيف معك، وتحاول جاهداً ألا تصطحب معك شيئاً من الأجهزة الإلكترونية كالكمبيوتر المحمول. في إحدى المرات أوقفني حاجز أمني وسألني إن كنت أحمل معي فيسبوك في حقيبتي!

فقلت له بأن الفيس بوك موقع على الإنترنت وبطبيعة الحال لم يفهم. طال (اللاب توب) جهازي المحمول وقال لي:

أهذا هو الجهاز الذي سوف تتصل به مع "العربية" و"الجزيرة"؟

والكثير من هذه الأسئلة اليومية الغبية, والتخيلات المصابين بها. في كل مرة كنت أتنفس الصعداء حين أصل إلى مركز المدينة أو حين أعود منه. تصعد مع سائق التاكسي ومجرد أن يعرف أنك من مدينة أخرى يبدأ باستفزازك، إذ يبدأ بشتم المدينة التي تنتمي إليها، ودائما بين قوسين يبرر شتيمته ويستثنيك منها. ويقول لك: أقصد الإرهابيين طبعاً!

كيف تشتم مدينتي العريقة أيها الجاهل ومن ثم تنعت أهلها بالإرهابيين؟ وبعدها تقول مؤامرة خارجية؟!

تصعد مع سائق أخر يقول لك: أرسلت كل أولادي إلى الجيش, (خللي يموتو فدا صرماية بشار الأسد). هنا تشعر بألم يعتصر قلبك. كيف يفكر شخص بهذه العبودية تجاه شخص مجرم سافل؟

تسمع رجلاً في الباص يقول لصاحبه:

(ليش ما بيضربهم بالكيماوي وبخلصنا منهم؟!)

كدت للحظات أن أسأله: عم تتحدث؟ كيف تتمنى لأبناء بلدك وإخوتك الموت بالكيماوي؟

وتصاب بالكارثة الأكبر حين تشاهد النازحين الهاربين من القصف , اللاجئين في طرطوس خوفاً من طائرات بشار الأسد وإجرامه. تراهم مؤيدين له. هؤلاء هم الكارثة الأكبر، هربوا من إجرامه ووحشيته وجاؤوا إلى هنا ليشاركوا في طقوس العبادة والتأييد الأعمى لشخص الأسد المجرم.

لا ينتهي الحديث أبداً عن المهزلة الإنسانية المتفاقمة في تلك المدينة

يتناقل الناس قصص الغرائب والعجائب عن المؤامرة وعن الجيش الحر الذي ينزل تارة بمنطاد أمريكي فوق المدينة في الليل ويزعم الناس انهم شاهدوا ذلك وتارة أخرى يقسم أحدهم بأنه شاهد شهبا أحمر يهبط من السماء، ويقول: مؤامرة !

كنت أضحك في بادئ الأمر لظني أنها نكتة أو مزحة، حتى تبين لي بأن قناة "الدنيا" كانت تستمد موادها الإخبارية الخيالية من إبداعات هؤلاء البسطاء و تخيلاتهم. وتبين لي أنها مثل تلك الشائعات تستدعي البكاء لا الضحك. تلك المأساة وذلك الجهل, شيء محزن فعلاً. لديهم قناعة مطلقة بأن بشار الأسد مقاوم وممانع ويحارب إسرائيل. لديهم قناعة بأن سوريا معبد لعائلة الأسد، والشعب السوري عبيد عندهم. كنت أتجول في شوارع طرطوس وأنتظر في أي لحظة أن أعتقل دون سبب، أن أشتم دون سبب, شعرت بغربة وأنا داخل سوريا, في أعظم مدينة تاريخية تحولت إلى محمية ومزرعة خاصة لعائلة الأسد.

عزائي الوحيد بأني قابلت عدداً قليلاً جداً من السوريين من أبناء طرطوس على اختلاف إنتماءاتهم وطوائفهم يرفضون سياسة النظام ويعارضونه، لكن للأسف: في الخفاء، وكأن الثورة السورية لم تبدأ بعد ■

وداد لملحاف

لاجئون فروا من البطش
ونظام يكتب بلاغاته بالرصاص الحي

رحلة شباب مغاربة من حركة 20 فبراير إلى مخيمات السوريين في انطاكية

سيطر الهاجس الأمني على الزيارة التضامنية التي قام بها مجموعة من الشباب المغاربة لمخيمات النازحين السوريين الهاربين من بطش «سفاح» سوري «يُبشّر» مواطنيه، مع مطلع كل يوم جديد، بغد أكثر سفكا للدماء.

على الحدود السورية -التركية «نبتت» خيام اللاجئين السوريين. تعهَّدَ «الهلال الأحمر» برعايتها والدرك التركي بحراستها والمخبرون، الظاهرون والمستترون، بتعقُّب زوارها.

بدأت الفكرة بشرارة حماس ونظرة تأمل إلى يوميات مواطن سوري تشبَّع بأدبيات الجنائز، من فرط سيره خلف مواكب الشهداء، قبل أن تختمر فكرة رحلة تضامنية من الدار البيضاء إلى. أنطاكية.. وبأقل الترتيبات الممكنة، تحولت النظرة إلى ابتسامة، فموعد ثم لقاء مع لاجئين فروا من بطش نظام يكتب بلاغاته بالرصاص الحي.

قد يتساءل البعض عن سبب التأخر في نشر تفاصيل زيارة شباب مغاربة مخيمات السوريين في العمق التركي، لكنْ، للأمانة، فإن الإرجاء جاء نزولا عند رغبة شبان سوريين في المخيمات التمسوا منا عدم الكشف عن تفاصيل الزيارة فور الوصول إلى المغرب، لأسباب أمنية.

وقد يتساءل البعض أيضا عن «أسباب النزول»، وعن هوية البعثة التضامنية. لهؤلاء نقول إن الزيارة، التي شارك فيها كل من خالد كدار وأحمد المدياني وأسامة الخليفي وعبد الله أبلاغ ووداد الملحاف، لم تحركها نوايا حركية ولم يشارك من قاموا بها في «عيادة» إخواننا اللاجئين، بصفتهم ناطقين رسميين باسم حركة 20 فبراير، بل باعتبارهم شبابا متعاطفين مع القضية السورية أبوا إلا أن يقتسموا مع الفارين من زئير «الأسد» كسرة خبز مبللة بالخوف والقهر.

الروبورطاج التالي يُقرّبنا من تفاصيل رحلة مثيرة، تستحق أن تُصنَّف في خانة المغامرة التضامنية، ويروي لنا جزءا من المعيش اليومي لإخوان لنا يعيشون على الحدود حياة لا تختلف كثيرا عما قدمه الفنان السوري دريد لحام في فيلمه الشهير «الحدود»، مع اختلاف في الزمان والمكان والشخوص.



شكرا لمن تَحمّلوا إصرارنا على دخول المخيمات، رغم كل الإكراهات الأمنية، وشكرا، أيضا، لمن اتّهمونا بالعمالة لتركيا ولكل من شككوا في براءة التضامن مع شعب سوري يعيش على هامش وطنه.

أنطاكية: هوية ضائعة بين العرب والأتراك

الساعة تشير إلى التاسعة صباحا. استيقظت مدينة أنطاكية باكرا. طردت عنها التثاؤب واستمتعت بسحر الموسيقى التركية الجذابة. بالقرب من الفندق، تفتح المقاهي والمحلات التجارية ذراعها لاستقبال الضيوف المُتيَّمين بعشق مدينة يُستنشَق في دروبها عبق التاريخ والجغرافيا. تقول كتب التاريخ إن المدينة سورية الأصول، قبل أن تصبح تركية الانتماء، بالتّبنّي، ويؤكد المؤرخون أن المستعمر الفرنسي الذي كان يبسط حمايته على سوريا قد سلّم أنطاكية للأتراك، في إطار صفقة سياسية، مر عليها التاريخ «مرور اللئام». لكن المعالم التاريخية للمدينة وعمارتها تمنح زائرها انطباعا عربيا خاصا، بل تحوله إلى كومبارس في أحد المسلسلات السورية.
باستثناء سيارات الأمن التركي وعلامات المرور التي كُتِبت بالتركية، تحافظ اللغة العربية على مكانتها في الخطاب السائد، وهو ما أعفانا من البحث عن كلمات من القاموس التركي نُدبِّر بها الوضع: «يتحدث أغلب سكان هذه المدينة اللغة العربية».. بهذه العبارة، حاول أحمد وهو نادل في أحد المطاعم أنطاكية، شامي الملامح، تبديد الخوف التواصلي الذي يسكن كل زائر جديد للمدينة، التي ما زالت وفيّة، رغم التحولات التي شهدتها، لمؤسس الدولة التركية، مصطفى كمال أتاتورك، الذي ما زالت صوره حاضرة إلى جانب العلم التركي. «إحنا ما بنحب أردوغان، بس بشار وأتاتورك على راسنا... الله وعلي وبشار».. بنبرة كلها حماس، يتحدث عصمت، بائع التحف في أحد الأسواق العتيقة في المدينة، عن مواقفه السياسية وعن رأيه في الثورة السورية، وهو يفخر بانتمائه إلى نفس الطائفة السلالية لبشار: «الله يُخلّي إلنا بشار، هو أخونا وعلوي مثلنا».

محاولة أولى لدخول المخيم

أثناء تناولنا أول وجبة غذاء داخل مطعم شعبي وسط أنطاكية، سألنا النادلَ أحمد عن أقرب مخيم لإيواء السوريين على الحدود. توقفنا عن الأكل في ما يشبه الوقت المستقطع، ونحن نستعجل الرد. رفع أحمد رأسه إلى السماء كصحن هوائي مقعّر وراح يبحث عن جواب، قبل أن يجد الملاذ السهل/ الممتنع ويحيلنا على سائق سيارة أجرة: «أنصحكم بتاكسي، سيأخذكم إلى مخيمات «عين الحلوة»، التي تبعد بحوالي 60 كيلومترا عن المدينة»، قبل أن يستدرك، حين ظهرت على أسارينا علامات الارتياح: «لكنّ الثمن سيكون مرتفعا بعض الشيء».
نظرا إلى عدم معرفتنا بخرائط المدينة ولا بأسعار العملات، وافقنا على الفور، دون الحاجة إلى مفاوضات قد لا تجدي نفعا. على الفور، أجرى النادل اتصالا هاتفيا مع سائق سيارة الأجرة، والتفت إلينا قائلا: «السعر هو 150 ليرة تركية»، وحين اكتشف انشغالنا بعمليات التحويل إلى الأورو، أعفانا من الحساب الشفوي: «ما يعادل 60 أورو وسيكون هنا بعد نصف ساعة».
أمامنا ثلاثون دقيقة لنعد العدة للسفر إلى مخيمات اللاجئين، أو بتعبير أصح، مخابئ الهاربين. عدنا إلى الفندق من أجل إنهاء التحضيرات، بعد أن ضربنا موعدا مع السائق بعد نصف ساعة أمام المطعم.
استقبلَنا السائق بابتسامة مهنية، وهو يعيد على مسامعنا عبارة «مرحبا». انفرجت أساريري لأول وهلة، ظنا مني أن السائق يجيد التحدث بلغة الضاد، لكن رصيده من «التعبئة» العربية سرعان ما انتهى والتجأ إلى التركية، التي لا أفهمها. توقفت لغة الكلام.. وعلى الفور، تدخّلَ النادل ليشرح الوضع المستعصي: «عمو يحكي تركي وبسّ». استنجدنا بلغة الإشارات لتأمين التواصل في أدنى حدوده الممكنة. وفي الطريق، طلبنا منه أن يتوقف أمام وكالة لصرف العملات، لكنه لم يفهم بطبيعة الحال قصدنا، فاستعان بهاتفه النقال لفهم مطلبنا، واتصل بالنادل الذي أرشده إلى مقصدنا وظل يردد بصوت جهور «تمام .. تمام». كلف فك لغز وكالة الصرف سائق سيارة الأجرة بضعة ليرات وتَبيَّن أن أصحاب الطاكسيات في خدمة السياحة.
بعد أن التهمت سيارة الأجرة مسافات، انتابني شعور بالعطش. أخبرت «عمو» برغبتي في شراء قنينة ماء تُطفئ ظمأ الرحلة. فهم السائق على الفور لغة الإشارة وتوقف أمام أول محل بقالة وعاد وهو يحمل قنينات المياه، بعد أن تكفل هو بدفع ثمن الماء. استغربتُ كرم سائق التاكسي، الذي بدا وكأنه لا يبالي بحديثنا وبانخراطنا في تأريخ الرحلة عبر الصور الشاهدة على المبادرة.
بعد مرور حوالي نصف ساعة، بدأت تظهر معالم مُخيَّم محاط بسور لا تبدو فيه أي مظاهر للحياة، وكأنه فضاء للأموات. دخلنا عبر البوابة الرئيسية. لكنْ بمجرد ترجُّل أحمد المدياني من السيارة حاملا آلة تصوير، فوجئنا برجل في مقتبل العمر، بزي مدني، يطلب منا مغادرة المخيم فورا... حاولنا أن نثنيه عن قراره وأكدنا له أننا ثلة من الشباب المغربي جئنا لزيارة السوريين في مخيماتهم، في إطار تضامني. بعد أن صم الحارس أذنيه في وجه مرافعتنا، توجه «عمو» إلى مخيم آخر غير بعيد عن الأول. وجدنا رجل درك أمام البوابة، وهو في حالة استنفار قصوى. سألنا الرجل عن الهوية وعن سبب تواجدنا في مخيم «الحلوة»، فسمح لنا بالمرور، بعد أن تأكد، من خلال مراقبة جوازات السفر، من سلامة القصد وصحة المقصود.

المخيم الأول/ اتجاه ممنوع

أمام البوابة الرئيسة، استوقفَنا ثلاثة أفراد من الدرك التركي يرتدون زيا رسميا كتبت عليه بخط عريض كلمة «jandarma»، الأشبه بعلامة «قف».. تأكد الدركيون من أن العربية هي اللغة الوحيدة للتواصل وتبيَّن لهم أنه لن يتم إلا بوجود فتاة اسمها سلمى، استهلّت لقاءنا بها بترديد عبارة الترحيب: «مرحبا... من أنتم؟ وشو سبب الزيارة؟».. طلبت منا الإدلاء بجوازات سفرنا، أمام أنظار

الدركيين. مسحت سلمى الجوازات بعينيها الواسعتين، وعلى الفور طلبت منا تدوين بياناتنا في لائحة مخصصة للزائرين والتوقيع عليها بالإقرار.

جلسنا في خيمة الانتظار نسبح بأنظارنا وراء الحواجز الأمنية ونحاول التخلص من علامات الاستفهام التي انتصبت في الأذهان، بينما حملت سلمى همومنا وجوازات سفرنا إلى مدير المخيم، أملا في الحصول على تأشيرة عبور.

ونحن في جلسة انتظار «فيزا» دخول المخيم، حلّت شاحنة تابعة ل«الهلال الأحمر» التركي، وعلى الفور، شرع رجال الدرك في تفريغ الشحنة، وهي عبارة عن علب كرتونية مختلفة الأحجام تم وضعها داخل خيمة دون أن نعرف محتوياتها. في الوقت ذاته، كان مجموعة من الأطفال يركضون خلف كرة صغيرة دون اتجاه. بدا لي أن المشهد أقرب إلى الحقيقة، لأنهم يطاردون مصيرا مجهولا في مكان منعزل... بعد عشر دقائق من الانتظار الرتيب، جاء ثلاثة شبان من داخل المخيم. تعارفْنا وتجاذبْنا أطراف الحديث عن أحوال المغرب وتضامن الشعوب مع القضية السورية. قال أحدهم، بنبرة فيها لوم وعتاب: «اعتقدنا أننا ما عدنا موجودين على خريطة العالم، فلا أحد يسأل عن أحوالنا».. قبل أن يتدخل الشيخ حسين، إمام مسجد المخيّم، ليسهب في الحديث عن الحياد السلبي في مواقف الحكومات وألقى باللوم على الدول العربية، مُرحِّباً بزيارتنا، التي اعتبرها تأكيدا على تعارض المواقف بين الشعوب وقادتها: «والله زيارتكم لا تقدر بثمن.. أهلا وسهلا بكم». بعد ذلك، وجه إلينا المحامي غزوان حاج عيسى، رئيس تنسيقية اللاجئين السوريين في تركيا، مجموعة من الأسئلة، تتعلق بسبب الزيارة ومجالات اشتغالنا، قبل أن يجذبنا الحديث إلى موضوع الحراك السياسي في المغرب وإلى أسئلة أخرى عديدة، الغاية منها جس نبض مهمتنا والتأكد من هويتنا. بعد اجتيازنا «الاختبارات الشفوية»، طلب منا تدوين عناويننا الإلكترونية وكذا أرقام هواتفنا. وحين شعر مخاطبنا بقلق دفين من جراء حوار أشبه باستنطاق، شرح لي سبب هذه الإجراءات: «هذه الإجراءات ضرورية، لأن المخيم مُستهدَف من طرف النظام السوري، وقد سبق أن وقعت مشاكل بسبب تساهلنا مع بعض الزوار». وأضاف: «بعض الأشخاص -سامحهم الله- يروجون إشاعات مُغرّضة الغاية منها نشر ثقافة الفساد والترويج لوجود حالات اغتصاب لنساء المخيم من طرف الأتراك، وهو أمر غير صحيح».. ولم يفت مُحدّثَنا التنويهُ بتركيا وبدورها في التخفيف من معاناة النازحين: «الحمد لله، لا ينقصنا شيء هنا، بس نرجع لوطنا... الحكومة التركية لا تعتبرنا لاجئين. نحن ضيوف، لأن وضع الضيف أحسن ويتم إكرامه على أتم وجه، فقد وفّروا لنا التطبيب وتعليم الأطفال وكذلك الأكل والشرب، إضافة إلى مرافق أخرى للتسلية، لذلك نحن نرفض المساعدة من الجمعيات لكي لا يتم الاسترزاق باسمنا». قبل أن يُنهيَ غزوان سرد موقفه من القضية، جاء الطبيب رضوان، بوزرة خضراء. بدون مقدمات، شرع في التعريف بنفسه: «أنا مواطن سوري قاطن في ولاية سان فرانسيسكو، جئت منذ مدة إلى هنا مع فريق طبي من الولايات المتحدة الأمريكية، لمساعدة إخواني في المخيمات». وبعد جلسة حديث مطول مع شباب المخيم، اقتحمت سلمى، المترجمة، خيمة النقاش لتخبرنا بقرار المنع، دون أن تقدم مزيدا من التفاصيل حول منعنا من دخول ملجأ الفارين من نيران النظام السوري. سلّمتْنا جوازات سفرنا بيد متثاقلة، وسط حالة من الصمت، وأيقنّا أن ولوج المخيم ليس بالأمر السهل، فهو لا يختلف كثيرا عن دخول تراب كثير من الدول العربية.

حاول الشباب الاتصال بأحد أعضاء المجلس الوطني السوري وكذا ما يصطلح عليه ب«قائم المقام»، لكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام انتصاب علامة «المخيم اتجاه ممنوع» وقوبل طلبهم بالرفض، تحت ذريعة وجود حالة استنفار في المخيم استعدادا لزيارة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان المخيمات الحدودية، لذلك بدأت الجهات المشرفة سلسلة من التدابير الأمنية «لكي لا يتم التشويش على هذه الزيارة». لدى خروجنا من المخيم، عرّفني الشباب بأم محمد، الملقبة ب«أم الشهيدين»: «أولادي الاثنين استشهدوا، الله يرضى عليهم، والثالث معتقل».. بهذه العبارات، المختلطة بدموع مصادرة، صافحتني المرأة الثكلى، التي تُصرّ على أن صمودها «فداء للوطن».

غادرنا المخيم بمشاعر تتأرجح بين الفرحة بلقاء شباب سوري مثقلين بالهواجس، والاطمئنان على أحوال إخوان لنا رمت بهم الأقدار في مخيم على الحدود، وبين الحزن لسماع كلمات «أم الشهيدين» وقرار منعنا من دخول المخيم، رغم نبل القضية.

ليلة بيضاء في أنطاكية

بمجرد وصولنا إلى أنطاكية، تلقيتُ اتصالات كثيرة من المحامي غزوان حاج عيسى، حاول من خلالها أن يبث فينا بعض الأمل: «نحن نجري اتصالات عديدة من أجل السماح لكم بدخول هذا المخيم غدا»، مؤكدا أنه اتصل بغزوان، وهو أحد مستشاري الرئيس أردوغان: «أنتظر رده، وقد يأتي في أي لحظة. كونوا على أهبة للعودة إلى المخيم».

نقلتُ مضمون المكالمة حرفيا إلى أصدقائي، الذين كانوا يبحثون عن حلول تُقرّبنا من لقاء النازحين السوريين، لكنْ بعد طول انتظار، رنّ هاتفي وتبادلْنا النظرات، قبل أن يُشعِرني مخاطبي بقرار يجدد منعنا من دخول المخيمات: «قرار صادر عن جهة عليا». انقطع الخط فجأة وانقطع معه حبل الأمل، لكن المحامي جدد الاتصال بي ليقول لي، بنبرة الواثق: «هناك إمكانية لدخول مخيم ألطنوس، لأن الإجراءات الأمنية هناك غير مشددة»، مضيفا «سيتم استقبالكم من طرف ابن عمي مدين حاج عيسى وبعض أصدقائه».

أمل محطم على صخرة "ألطنوس"

كانت ساعة واحدة من النوم كافية للتخلص من عناء المحاولات الفاشلة. بنفس الحماس، بدأ البحث عن وسيلة تُقلُّنا إلى مدينة ألطنوس. لم يكن هناك خيار آخر سوى اللجوء إلى سائق سيارة الأجرة «عمو». طلبنا من النادل الاتصال به من جديد، فكان الرد سريعا: «سيتأخر عمو حوالي

ساعتين، وسيكون السعر هذه المرة أقل، أي 60 ليرة فقط، لأن المسافة إلى ألطنوس أقرب».
تحولت ساعتا الانتظار إلى ثلاث. كنا نفرك أيدينا ونجول ببصرنا بعيدا، قبل أن تتوقف السيارة التي أقلتنا، دون كلمة اعتذار، إلى وجهتنا. لاحظنا أن عمو كان أكثر «كرما» من السابق، فلم يكتف بشراء الماء فقط بل حمل علبا لمختلف أنواع العصير. كان ذهني شاردا، يرسم السيناريوهات المُحتمَلة عند بوابة المخيم. وعند اقتراب السيارة من المدينة الحدودية، اتصلتُ بغزوان حاج عيسى واستفسرتُه عن الأوضاع فكان الرد مخيبا للآمال: «لا أستطيع الاتصال بابن عمي، لكنْ سيكون صديق لي في انتظارك. يجب أن تذهبي لوحدك في البداية، لتسهيل دخول بقية المرافقين».
أمام البوابة الرئيسية للمخيم، وجدتُ فراس جركس، وهو عضو في تنسيقية المخيمات في انتظارنا. لكنْ، رغم ذلك، تم توقيفنا من طرف رجال الدرك. طلب مني جوازي، الذي تفحصه بسرعة، ثم استدعى مدير المخيم، الذي سألني عن بلدي ومهنتي: «شو بتدرسي؟».. بعد معرفته تخصصي، تَجهَّم وجهه وقال بنبرة حادة: «ممنوع دخول المخيم». خرجتُ رفقة فراس ومدين حاج عيسى وبعض السوريين من المخيم، وأنا أجرّ أذيال الخيبة. توجهنا جميعا إلى أقرب مقهى. كان فراس منشغلا بتحليل الوضع السياسي، بينما انشغلتُ بحل لغز الدخول: «المقاومة السورية لإسرائيل هي أكبر أكذوبة عرفها التاريخ». ويضيف فراس، الذي كان يشغل مهمة مدير التحرير في إحدى المجلات البيروتية: «لو أن الجيش السوري وجّه ضرباته لإسرائيل لتحرير الجولان عوض قتله المتظاهرين لصدّقنا عبارة المقاومة».. يُنهي حديثه برشفة من فنجان قهوة سوداء: «كان مخيم ألطنوس مخزنا قديما لمواد صناعية، لكنْ عند وصولنا، تم تحويله إلى فضاء لإيواء اللاجئين السوريين». قررنا العودة من حيث أتينا واخترنا ركوب حافلة النقل المزدوج في رحلتنا نحو أنطاكية. احتلت أجسادنا المرهقة كراسيّ حافلة تسير ببطء لكنها على الأقل أخف ضررا من سعر تاكسي شريف وهبي، الملقب ب«عمو».

لا يأس مع.. التضامن

بعد عودتنا إلى الفندق، حاولنا التخلص من عناء «لانافيت» بين أنطاكية والمخيمات، التي نبتت كالفطريات على الحدود السورية - التركية، جدّدتُ الاتصالات بغزوان حاج عيسى، للترتيب لدخول المخيم، الذي يقطن به، لكنْ بقدر ما كانت رغبة دخول المخيم تنتابني، كان صوت مخاطبي يُقرّبني من خط الإحباط: «للأسف، لن يستطيع كل الشباب دخول المخيم، يمكن أن تدخلي أنت مع شابين فقط».. على الفور، شرعنا في إجراء عملية القرعة بين الشباب لاختيار مرافقين، فاللعبة الديمقراطية حاضرة حتى في أصعب المواقف. بعد دقائق، أخبرت غزوان، عبر الهاتف، بقرار اختيار كل من أسامة الخليفي وخالد كدار لمرافقتي، فكان الرد مطمئنا: «غدا، سنلتقي قرب صيدلية ألطنوس، القريبة من السوق، لتدخلوا عبر سيارة السوق إلى المخيم»..

رغم بعث عبارات حاج عيسى الأمل في النفوس، فإن الحزن ظل جاثما على قلوبنا، بسبب فشل محاولات سابقة بدأت بالأمل وانكسرت على صخرة الإحباط.

الثالثة ثابتة

في الصباح الباكر، توجّهْنا إلى ألطنوس على متن حافلة النقل المزدوج، بسعر زهيد جدا لا يتجاوز ثلاث ليرات للشخص الواحد. فهمتُ، حينها، سر الكرم الحاتمي ل«عمو» ولحالة الاستنفار التي تنتاب النادل أحمد كلما طلبنا منه دعوة سائق تاكسي لترحيلنا إلى الحدود!
لدى وصولنا إلى المكان الذي حددناه للقائنا قرب الصيدلية، وجدنا حاج عيسى في انتظارنا. صافحَنا بسرعة، وكأن الزمن لا يسمح بتبادل التحيات والسؤال عن الأحوال: «اتبعوني. بهدوء سندخل عبر الصيدلية إلى مستودع الأدوية، لنتحدث عن خطة الدخول إلى المخيم». في مستودع تنبعث منه رائحة الدواء، وجدنا ابن عم غزوان وعددا من أصدقائه الأتراك في انتظارنا. وعلى الفور، بدأ وضع مخطط الانسلال إلى المخيم: «البسي ها العباية والحجاب لتبدي سورية الملامح، وكأنك من سكان المخيم وانزعي النظارة كمان». وأضاف مرتبكا: «إذا سألوك، قولي لهم إنك قريبتي وتقطنين بمخيم ألطنوس». في الطريق إلى المخيم، كلما حاول غزوان أن يهمس في أذن أحدنا، يرد عليه أحد الركاب: «نحن نسمع كل شيء.. لا داعي للهمس»! انتابني شعور غريب وساد الاعتقاد أن ركاب الحافلة يقاسموننا نفس الهواجس.
اقتربت الحافلة من المُخيَّم. التفت إليّ غزوان ليزودني بآخر التعليمات: «لو سألك الدرك عند البوابة عن هويتك قولي لهم اسمك سحر أيوب». واقترح أسماء مستعارة على كل من كدار والخليفي، تم التوافق في شأنها.

مفتاح الدخول المستعار

كما كان متوقعا، سألني عند البوابة رجل الدرك بتقاسيم حادة: «شو اسمك؟».. وعندما أجبتُه، بدأ البحث عن اسم سحر أيوب في قائمة الخارجين من المخيم، ليتدخل غزوان على الفور: «آخر سيارة طلعت عالسوق ما سجلوا أسماؤهم»، فتم السماح بدخولنا إلى المخيم. توجهنا مباشرة إلى خيمة حاج عيسى. «ادخلوا، لأن هناك أشغالا لتعبيد الشوارع في المخيم، استعدادا لزيارة الرئيس أردوغان لهذا المخيم». تبيَّنَ لي أن الأشغال مرتبطة دوما بالزيارات الرسمية في كل مكان من العالم...
عرّفَنا مضيفنا بوالدته، التي رحبت بنا: «أهلا وسهلا فيكم وسامحونا. لولا هالظروف، كنا عملنا لكم أحسن استقبال». بعد ذلك، تعرفتُ على أميرة، وهي فتاة لا يتجاوز عمرها 14 سنة. سألتني عن اسمي وقالت: «وجهك أبيض مش مثلنا. إحنا حرقتنا الشمس فتغيّر لون بشرتي.. بتعرفي إني صرت أتكلم تركي لأنهم يعلموننا التركية بالمدرسة».. وبعد أن استوت في جلستها، قالت: «الأتراك

حذروا صديقتي من تقديم شكاوى لأردوغان، لا تقولوا له عندكم مشاكل بالمخيم.. سنقطع الماء عنكم». خفضت من صوتها كي لا يمنعها عمها غزوان من محاولة الحديث. بعد ذلك، تعرفت على أم أميرة: «أنا اسمي سحر أيوب»، أخبرتُها أني استعملت اسمها لدخول المخيم فردت «مافي مشكل، إنشا الله تجي عندنا لسوريا وتشوفينا كيف عايشين، الله ينتقم من الظالم بشار اللي شرّدْنا». ثم دعتنا إلى تناول وجبة غذاء تم طهيها خصيصا لنا من طرف أم غزوان: «طبخت لكم كبسة سورية لأنه إحنا بناكل بس الأكل اللي بيوزّعو الهلال الأحمر التركي». في لحظة استرخاء، حدثنا الشيخ حسين، إمام مسجد المخيم، عن كيفية تعامل النظام السوري مع المظاهرات المطالبة بإسقاط النظام: «بشار يستعمل أبشع وسائله، على سبيل المثال، قام أحد الأصدقاء بإعطاء مداخلة لقناة «الجزيرة» في بيتي، لكنْ عندما عاد إلى منزله وجده محروقا بالكامل، وهذا أقل ما يفعلونه مع كل من له علاقة بالمطالبة بالحرية».. ويضيف بنبرة ساخرة: «ما أرّق النظام في مدينة جسر الشغور هو «الرجل البخّاخ»، الذي يكتب عبارات تُطالب بإسقاط النظام على الجدران بل وصل به الأمر إلى الكتابة على دبّابات الجيش ليلا»..

قضينا فترة ما بعد الظهر في التعرف على بعض سكان المخيم، لكنْ بين الفينة والأخرى، يدعوني غزوان حاج عيسى إلى الحذر من الكشف عن هويتي: «عليك أن تتوخي الحذر، هناك مخبرون في المخيم. إذا علموا بوجودكم سيخبرون الأتراك»، مؤكدا كذلك: «هناك أيضا مخبرون للنظام السوري، وكل يوم نكتشفهم».

قبر الإجماع العربي

في حدود الساعة الثامنة صباحا، تناولنا وجبة الفطور ثم ودعنا سكان المخيم وقررنا زيارة «قبر» رمزي أقامه سكان المخيم لهيأة العلماء المسلمين ولجامعة الدول العربية، يترحم فيه النازحون على الإجماع العربي ويقرؤون الفاتحة على حكام عجزوا عن اتخاذ قرار حاسم تجاه العنف في سوريا.. بعد لحظة تأمل ذات مغاز عميقة، توجهنا، رفقة غزوان، إلى السيارة التي ستُقلنا إلى السوق، وقبل مغادرة بوابة المخيم، قال حاج عيسى: «إذا سألك رجل الدرك عن اسمك لتسجيله ضمن قائمة الخارجين من المخيم، قولي له اسمي كوثر حاج عيسى»، مقترحا اسمين جديدين على كل من خالد كدار وأسامة الخليفي.

ركبنا سيارة النقل المزدوج للتوجه إلى ألطنوس. في الطريق، أوصانا غزوان بتبليغ التحية إلى كل المتعاطفين مع القضية السورية، ومباشرة بعد الوصول إلى ألطنوس، نزعتُ العباءة والحجاب وتخليتُ عن الاسمين المستعارين اللذين مكّناني من تجاوز الحاجز الأمني لمخيم بنيوغن. ودعْنا غزوان حاج عيسى، لنركب سيارة أخرى، أقلّتْنا إلى.أنطاكية. في الطريق، رأينا أحمد المدياني وعبد الله أبلاغ يتوجهان إلى سوق ألطنوس. أوقفنا السيارة على الفور لنبحث عنهما وسط حشود الباعة. أعربا عن قلقهما عن مصيرنا لعدم تلقيهما اتصالا منا. حكينا لهما سيناريو دخولنا إلى المخيم، لنعود جميعا إلى.أنطاكية، استعدادا للرجوع إلى المغرب، وقد طردنا القلق الذي سكننا بعد فشل محاولتين لدخول المخيم. وعلى امتداد الرحلة، ظلت صورة قاطني المخيم تحتل جزءا كبيرا من وجداني وتحذيرات غزوان تجعلني أعد خطواتي وأرتّب أفكاري كلما اقتربت من حرس بوابات مخيمات حاول بعض أذناب النظام السوري أن يحولوها إلى سجون في الهواء الطلق. غادرنا.أنطاكية دون أن تغادرنا صورة المخيمات وقصص الحزن، التي يتعدد رواتها فيما يظل الهمّ واحدا... ليست مخيمات هذا الشريط الحدودي مجرد مراقد على شكل خيام، ففي كل خيمة ألف نكبة، بل أيضا فضاء للاحتجاج والتنديد ضد كل ما يمس أوضاع اللاجئين الإنسانية.

قصص تخفّف قسوة الزلة والتشرد

طلبت لقاء «أم الشهيدين»، المرأة الخمسينية التي قدمت على الفور برفقة زوجها، لتحكي لي قصة وفاة ولديها: «كان باسل المصري أول شهيد في جسر الشغور، وهو من بيت الهلال وقدم من لبنان»، وتضيف وهي تتناول سيجارة محلية بين أناملها المرتجفة: «يشتغل زوجي في تربية السمك، أما ولداي -رحمهما الله- فكانا يشتغلان في الحدادة». ثم شرعت في سرد تراجيديا القتل بنبرة حزينة: «عند رجوع ولدي أيهم (32 سنة) وهيثم (34 سنة) من مراسيم تشييع جنازة باسل المصري، ذهبا لشرب الشاي في مقهى يوجد في ساحة وسط المدينة، ليفاجأ الكل بطلقات الرصاص من «الشبيحة» على كل القادمين من الجنازة، فاستشهد 36 شخصا، من بينهم ولداي»..

ساد الصمت للحظات، إلى أن اختار أب محمد كسر السكون: «أغلب الشبيحة إما مجرمون تم إطلاق سراحهم مقابل استهداف المتظاهرين أو ينتمون إلى الطائفة العلوية أو يتحدثون باللغة الفارسية»، مضيفا: « تعامل بشار مع الشعب بطريقة وحشية، وهذا طبيعي، لأن كنيته الأصلية ليست من بيت «الأسد»، بل من بيت «الوحش» وتم تغييرُها، وهو من ضيعة القرادحة، لكن مسقط رأس أجداده كان مدينة سمندق، التركية».. بعد انتهاء السرد التاريخي لشجرة «الأسد»، التقيتُ أم داوود، التي حدثتني عن موت ابنها وأخيها: «استشهد أخي وابني في مظاهرة في جبل الزاوية، وعندما رفضتُ أن أتسلم الجثث دون تشييعهما في جنازة، بدأت المضايقات، فاخترنا النزوح إلى الحدود التركية -السورية في يوم ممطر، وبقينا على الحدود في الجانب السوري خلال فترة الانتخابات الرئاسية التركية إلى غاية فوز أردوغان، الذي أمر بالسماح لنا بدخول تركيا».

بعد لقائي بأم داوود، حدثتني سحر أيوب عن أجواء المخيم: «منذ قدومنا، نحس بألفة غير طبيعية، وكأننا عائلة واحدة، لكنْ للأسف هناك أسر عديدة تفككت في هذا المخيم، فأغلب الزوجات لا يتحملن قسوة العيش داخل المخيم فيؤدي ذلك غالبا إلى الطلاق».

بعد تناول وجبة العشاء، جاء الشيخ حسين ليقوم بإصلاح الكهرباء داخل خيمة غزوان: «من المهم أن تمتلك مهارة حرفية، فقد صرتُ كهربائيا في المخيم، إلى جانب دوري كإمام للمسجد»..

ذكر بعض الإحصائيات عن اللاجئين السوريين: «كان عدد اللاجئين في البداية 19 ألفا، لكن صعوبة

ظروف العيش جعلت العديد منهم يفضلون العودة إلى سوريا، والآن أصبح عددهم 7500 لاجئ، يتوزعون على خمسة مخيمات: ألطنوس والريحانية ويلدة 1 ويلدة 2 وبنيوغون، وهذا الأخير هو اسم المخيم الذي نتواجد فيه، والذي يوجد قرب قرية بخشين، التركية ويضم 1500 لاجئ و450 خيمة، ويتحدر غالبية النازحين من مدن جسر الشغور واللاذقية وجبل الزاوية»..
بعد ذلك، أجريتُ حوارا مع غزوان حاج عيسى على شكل فيديو، لكشف حقائق جديدة حول الثورة السورية، قبل أن يسدل الليل ستائره على المخيم ■

2011 - 11 - 24
الحدود السورية التركية

الإعلان عن الفائز بجائزة

مجلة دمشق

لكتابة اليوميات

في 15 أيار/مايو



نائل بلعاوي

الشام
بين غواية الأمس في دمشق
وفتنة اليوم في الثورة

أحب دمشق، ليس لي من الذكريات الحميمة، شخصية المعنى هناك سوى القليل مما يجرح القلب أو يوترّ الحنين. لم أقطن بيتاً من الحجر القديم وأحواض الياسمين في القصاع ولا الشاغور ولم أترك في قلب دمشقية آثراً لحبٍ قد تجود به المسافة بين ركن الدين وأول السفح الجميل لقاسيون. لم اكن يوما دمشقياً الا بذلك القدر العظيم من الرغبات والمجازات، وما تجترحه الروح من أمنيات وهوى. كنت جار المكان القريب: أطل على دمشق كما يطل الجار على جاره في الحديقة، فيلقي عليه السلام، ويسأله، بعد قهوة الصباح، عن سرّ النضوج المبكر للثمار الموسمية: كيف تبدو اليوم كاملة النضارة قبل موعدها؟ من أين يأتي التين الشامي بهذا المذاق الرفيع. كيف تحمل أشجار الليمون أكثر مما تحتمل؟ فيضحك الجار، لا يوضحً أو يجيب، بل يغني، كما كان يفعل، منذ ما قبل الحروف والتاريخ، لفتنة الشام.
لم أكن سوى المسافر الموسمي في دروب الشام، يحملني الهوس الغريب ببيت الجيران إليها. يحملني النداء الخفي العصيّ على التفسير، الى صدرها البهي، فأذهب فيها، هنا قرب الجامع الأموي، أرى التناغم الفطري بين بيت الله والحيوات على الطريق، أفتش المكتبات القديمة، تحت سوره الشرقي، عن كتبٍ قد أجدها. أحاول من هناك، الوصول، عبر شارع ضيق بلا اسم، إلى شارع كبير الاسم والمعنى في دمشق، وأفشل، أحاول مرة أخرى، وأفشل، لأعرف، بعد أقل من نصف ساعة من المشي الفضولي البطيء، بأني وصلت إلى شارع المتنبي. إلى حيث لا أعرف عما كنت أبحث وماذا أريد، عن فوضى الشارع الطويل وما تقدمه محاله التي لا تُعدّ، عن مقهى على الرصيف أم عن أي شيءٍ يُذكرّ بالاسم الشهير ويبتغيه. (كأني من الوجناء في ظهر موجة... رمت بي بحاراً ما لهن سواحل). أردد بيت الأبدية ذاك، وأواصل البحث عن الشاعر الأبدي في المكان. لا شيء يحيل عليه في هذا الشارع العادي سوى اليافطات: شارع المتنبي، مقهى المتنبي، مكتبة المتنبي، أو لعلني، أنا الذي عجزت، عن التقاط تلك الاحالات. لعلها، في كل زاوية هناك ولم أجدها، فكيف يمكن للمدينة أن تكف عن الذهاب العذب في روح شاعرها؟ كيف تترك وصفه البديع لها في هذا البيت وتستريح: (لها ثمرٌ يشير اليك منه بأشربة وقفن بلا أوانِ). يستحيل، لن تكف دمشق

يوماً عن استحضار نفسها، لن تفاضل بين ثمارها التي تشير إليك، وهذا الأبد المُعلق، على شكل صورة قبيحة للاب القائد، في كل زاوية وشارع. لن تكف دمشق عن نفسها، ولن أكف أنا عن متعة التجوال في نفسها التي أحب، فأرجع من جديد للمرور بدكاكين الحميدية العتيقة، أدور من حول الجامع الأموي، وأتابع من هناك إلى ضريح الشيخ محي الدين في الحي الشهير.

كتاب (الجلال والجمال) هو المكان، استعارة قصوى لعشق إلهي لا تخمد ناره، ولا يكشف للعابر مثلي، بيسرٍ، عن أسراره الدفينة، تلك التي فتشهًا الشيخ، فكرة تلو الاخرى، وأودعها دمشق؛ دمشقه العالية مثل لحظة الوصل الأخاذة بالمعشوق. دمشق آلمأخوذة بجلال أسمها الطويل الطويل؛ دمشق محي الدين بن عربي، انصهار المخلوق جمالياً بخالقه الوحيد. دمشق المتنبي، نزق القصائد والحياة ولا نهائية الرغبات. ودمشق هذا الضريح الفقير، الوجوه تحج صوب الأمنيات، تقاسم الشيخ أسرارها، تبوح له، وتستغيث. دمشق. ما أود أن أكونه أنا فيها قرب الضريح، على الطرقات، أمام القهوة العربية شبه الساخنة. في ظفائر البنات اللواتي تحلَّقن، مثل الحمام، على الرصيف أمام هذا الليل.

لا أعرف الكثير عن ليل دمشق. لا لأن الأماكن تخلق ليلها الشخصي وتملي، دائماً، شروطها عليه، أو تغيب هي في اقتراحاته التي لا تُردّ. ليصير ليل المكان، والحال هذه، هو المكان، حالة قصوى من التوحد الفطري بعيد المنال. ذاك الذي لا يمكن للغريب سبر أغواره في ليلة أو ليلتين. لا، ليس لهذا السبب المقبول لم أعرف، كما أحب، ليل دمشق. ولا لأني تمنعت عن مواصلة السير واكتشاف المزيد من مشاهدها الليلية الكثيرة، فقد فعلت وحاولت، بل لأن الليالي التي قضيتها فيها لم تكن، في كل مرة أتيت فيها دمشق، لم تكن تكفي لاشباع ما أريده، عادة، من الليل في الامكنة التي أجيء. كنت الجار القريب كما أسلفت، أعود إلى الشام حين أعود من فيينا إلى عمان، حين تحملني المواسم والحنين إلى بقايا الأهل في الزرقاء أو الضواحي الجديدة للعاصمة الأردنية، إذ لا بد لي، حينها، من عبور الحدود الرديئة والبليدة الفاصلة بين البلدين، وكأني لا أقوم، روحياً، مع احتساب الوقت الاضافي للطريق وسخف الحدود، سوى بالتنقل المعتاد بين مختلف المدن الأردنية، فالشام هي الامتداد الطبيعي، هي مركز ذلك الامتداد الطبيعي للجغرافيا والبلاد التي تحمل اسمها، الى كونها حاضنتها الثقافية الأهم أيضاً. لهذا، أعود في كل مرة من عمان إلى دمشق، ولهذا لا أعرف عن ليلها ما آعرفه عن الليل في المدن التي عشت فيها طويلا، أو تلك التي أزورها لمرة واحدة وأقتنص، بلهفة الغريب الذي قد لا يعود مرة أخرى إليها، أقتنص، أو أحاول، ما يقدمه الليل، دفعة واحدة، من أسراره هناك. ولكن دمشق ليست مدينة لزيارة واحدة، وهي ليست مدينتي الأولى أو الثانية ولا الأخيرة، انها المكان الذي ترجع في كل مرة اليه وتقول: سأرجع بعد عام أو ربما أقل. سأفتش ليلها عنها في المرة القادمة، قد أشاهد ما لم أشاهده اليوم. قد، وقد. فأرجع مرات أخرى إليها وأكرر الأمنيات عينها، ولا أفتش ليلها عما أريد، بل أتابع التجوال من حيٍ هنا، الى أخر هناك، لأدخل، بعد العاشرة ليلاً... دائماً بعد العاشرة، بيت الصديق الدمشقي في قلب حي الميدان، وأكمل الليل هناك حول مائدة شامية الأصل والمذاق، أمام الكثير من العرق المحلي الصنع، في استحضار طقسي للحكايات والرغبات واللعنات والبوح الحزين:

- تعال الى النافذة. يقول الصديق، فأذهب خلفه، خلف أصابعه التي تمتد، بحذر غريب، عبر النافذة:

- أترى البيت هناك، بيت جيراننا. جاء العديد من رجال الأمن إليه، قبل عام ونصف تقريباً، واعتقلوا سمير، ولا تعلم عنه العائلة أي شيء يذكر، لعله في سجن تدمر الآن، أو ربما في حفرة جماعية ما قرب السجن، لا أعرف، المهم أنهم أخذوه.

- أخوان؟

- لا، يسار، من جماعة رياض الترك كما أظن، ليس مهماً، المهم هو فكرة الاعتقال بحد ذاتها، أن تُسجن أو تموت لأنك لا تفكر أو تعيش بحسب اللوائح المقدسة التي أعدها الحزب القائد والأب القائد والعائلة القائدة.

- سمعت الكثير عن مرض الرئيس، قد يختفي من المشهد السوري قريباً، وقد..

- وقد ماذا؟ سيخلفه ماهر أو بشار، أمر الخلافة محسوم تماماً عندهم، ولن يتبدل الكثير، قد يجيء الوريث الجديد ببعض الوعود، وقد يحدثنا عن الحريات ونوايا الانفتاح على العصر، لكن الامور على الارض ستبقى على حالها، بلا شك، فالمشكلة هي في ثبات هذا النظام الأمني وغياب قدرته على التغيير، وليست في الاسم القادم للرئيس.

لا تنام دمشق، ولا أنام أنا، هي الغارقة، بلا انقطاع، في انشغالاتها العادية وهمومها الخفية، وأنا الغارق، إلى ما بعد شروق الشمس، في الحكايات الحزينة التي يقصها الصديق الدمشقي عليّ... حكاية تجر حكاية أخرى وتبعد النوم عنا. كيف يمكن للزائر الموسمي مثلي أن ينام في دمشق، في الميدان، في بيت هذا الصديق المكلل بالمتاعب والامنيات:

- كأني، منذ معجزة الخروج من السجن قبل وقت قصير.

كأني، يضيف سميح نشواناً:

- لا انتظر شيئاً سوى المعجزات، وحدها المعجزات كفيلة بإخراج سوريا من كهف الظلام الذي ترزح في جوفه. من أين ستأتي المعجزات، لا أعرف، ولا تعرف أنت.

لم نكن نعرف حقاً من أين ستأتي المعجزات، كيف يمكن للدمشقي الذي اعتقلته مفرزة أمنية خاصة بعد حوار عادي في مقهى، بتهمة التحريض، أن يحلم بمعجزة ما، لا تعيده إلى السجن من جديد؟ كيف يمكن لسميح، هو الشاعر الأنيق، أن يكتب عن الغد الأجمل، أو الشمس، عن مدينة بلا أسوار، أن يغازل الافق؟ كيف سيكتب عن رغبة الآدمي بالحب وانعتاق الروح والجسد، ولا تأتي المفارز مرة أخرى وتأخذه إلى المجهول بتهمة الحلم؟ وكيف لي، أنا عابر المكان من حين لآخر، أن أرصد الغيب وهدير المعجزات؟

لم نكن نعرف، في تلك الليلة الباردة من ديسمبر 1999، شيئاً عن اليوم، سنتابع احتساء المزيد من كؤوس العرق المحلي، ننام لساعات قليلة فوق أرائك الصالون البسيط، ثم نصحو على النداء الأثير لقهوة الزوجة الشامية اللطيفة، تحملها وتسأل، هي الخبيرة بطقوس زوجها، عن أوجاع



محتملة يتركها عرق الليل الكثير في أعلى الرأس، وتذهب.. تعد مائدة من حواضر البيت الدمشقي الشهيرة، وتسأل مرة أخرى عن الأوجاع: لا شيء سوى وجع الوقت، أقول لها: لا شيء سوى رغبتي بالبقاء لأيام أخرى في دمشق، وجع السفر: هو ما أحس به الآن، وعليّ أن أسافر، لكني سأرجع، هكذا هو أمر العلاقة مع دمشق، أجيء وأذهب، أفتشها في كل مرة عن نفسها، أنجح مرة وأفشل مرات، وأحبها في الحالتين.

- 2 -

مات الأب القائد في العام 2000 وجاء الوريث محمولا على عرش الأكاذيب الكبيرة إلى سدة حكمه، لم يدخر، بداية، وهماً إلا وأطرب شعبه به، ولم يترك في فضاء الشام حلماً إلا وداعبه:

- إصلاح ما خربته الأيام في البلاد، الانفتاح، حرية التفكير، تخفيف قبضة الدولة عن الحياة، إلى اخر الوعود التي قد تعيد الأمور إلى نصابها المفقود، وربما تردُّ للآدمي آدميته، ربيعه وربيع مدينته، وما هي إلا أشهر قليلة، فعلاً، على وراثة الوريث لعرشه، وصارت وعوده العظيمة تحمل صفة الربيع، وصارت دمشق قلب المكان البديع، هي الرافعة المركزية للفكرة الصارخة، فهو ربيعها الاول رديف الأمل ولا حدود الأمنيات. صارت دمشق هي الأمل، تغازله بالقليل من الرغبات والكثير من الحذر وتهتف باسمه بعذوبة العيش الذي سيحمله إلى أرواحها، إلى يومها، أمسها، والقادم من أيامها.

في دمشق نهايات العام 2000، وعلى امتداد الاشهر الأولى من العام 2001 حلّ الأمل، سار مثل فكرة شبقية الايحاء في مجرى الجسد، في عروق المكان والأحياء، في بيوت الناس حيث سيلتقون ويعلنون، للمرة الاولى، عن حقهم باكتشاف الحلم وإعادة ترتيب البقاء، تسلل الربيع الدمشقي إلى الأزقة والساحات تلك التي لم تعرفه أو يعرفها من قبل، كما تسلل إلى القصائد والأغنيات واخبار الصحف الرسمية، صار الربيع مفردة جديدة المعنى وغير محايدة بتاتاً في نصوص الشعراء والكتاب، وعلى الكثير الكثير من الألسنة صار الربيع مجازاً للامل.. وهو الذي سيحمل في دمشق، آنذاك مهمة رفع المكان وأهله إلى مراتب ثقافية واقتصادية، كما هي سياسية واجتماعية نادرة وعصية، من قبل على التحقيق، مراتب الحرية المحمولة على كفي الوريث الجديد، المبشرّ، محرر الزمن السوري من عسف أبيه، من شتاء المكان الطويل؛ فصل السنة الوحيد في البلاد.

حل ربيع دمشق، حراك دمشق، أحلام دمشق، أمسيات البحث عن أفق يبشر بالنجاة، وحلت الضحكات والنكات، القليلة عادة، في الكلام الكثير المتدفق هاتفياً بصوت سميح نشوان:

- لا اراهن عليه، لكني لا املك سوى الرغبة بالفرح. عليّ أن افرح وأن أصدق هذا الوريث وهذا الربيع.

- وآنا ايضاً لا أراهن كثيراً عليه، لكن حضور الأمنيات القليلة المتواضعة أفضل من غيابها الكلي.

- لهذا سأفرح، وهاأنذا أشارك القوم ما يعملون على تحقيقه وأكتب، أسمع هذا المقطع أمسك المفردات واحدة تلو أخرى: الربيع، الليل، الغناء، الغياب، الامل، أعلقها فوق باب البيت وأنتظر، قد يمر الربيع من هنا أو يدلف الباب، قد يحط الليل، الظلام الذي ألفت، قد يزين الغناء صباحات المكان، أو يعود الغياب. اخشى الغياب. وأرتل، بصوت العليل: تعاويذ الامل. ها هو الربيع، أاو قلق انتظاره في القصيدة قلت لسميح:

- في القصيدة وفيّ، فينا جميعاً الآن. أشد سماعة الهاتف لأذني اليسرى بقوة أكثر، وأطلب من سميح أن يعيد قراءة المقطع الجميل مرة أخرى، فيفعل. نتجادل لوقت ما حوله، حول هذا وذاك من أمور الشام، نضحك مرة ونصمت مرات، ثم ننهي المكالمة التي دامت طويلا في ذلك المساء البارد يوم الثالث من يناير 2001. أذكر تلك الليلة جيداً، عليّ أن أذكرها وسأبقى، لا لأن ربيع دمشق هو السبب، ولا لندرة المكالمات مع سميح، فهي كثيرة، بل لمكالمة هاتفية أخرى وفي الوقت الصارم من الليل، حين تنذر رنات الهاتف بالمزيد من الهواجس وأسباب القلق حين لا تعرف حينها ماذا عليك فعله؟

ماتت أمي تلك الليلة. هكذا فجأة ماتت، وهكذا صار عليّ أن اشدّ الرحال مسرعاً إلى بيتها العتيق في الزرقاء، فرحلت، ومكثت لأشهر ثلاثة متواصلة هناك. كانت الرغبة بالبقاء في الاردن، لا أعرف لماذا، اكبر بكثير من ضرورات العودة للبيت في فيينا. وبقيت، لأعود، كما أعود دائماً من هناك، إلى دمشق.

لا جديد على الحدود البليدة بين الدولتين، الجنود يتابعون طقوس التحديق عديم اللباقة في الوجوه، ويفتشون، كالباحث عن فريسة في جوازات السفر، وعلينا، نحن المتهمين بشيء ما، أن ننتظر ونعدّ احتمالات التورط في المصائب التي قد تجيء بلا سبب منطقي، أو لا تجيء!

لا شيء في الغرف القبيحة للحدود يدل على الربيع.

لا شيء في درعا يدل عليه،

لا شيء على الطريق إلى دمشق،

ولا شيء في دمشق.

كان الشيء الوحيد الجديد الذي يقترحه المكان بعنف عليك، هو الصور الأنيقة للوريث، صور بأحجام عديدة تتسيد المشهد، صور القائد الشاب تجاورها، بحكم الوراثة والولاء الأسطوري الكثير من صور الأب القائد، الكثير من صور الابن الذي ردّ ربيعه المفترض، وبسرعة ضوئية، إلى مكانه المعهود في سوريا؛ إلى شتاء الحزب والعائلة، إلى عكس الحياة وعكس منطقها؛ إلى أمسها.

لا ربيع في دمشق فالنظام، قال سميح الذي زارني معزّياً قبل أسابيع في الزرقاء، هو النظام، لا يستطيع القفز خارج جلده، فهو يعرف جيداً أن خروجه يعني نهايته. لم يكن الربيع سوى فسحة للتأمل، أو الكتابة عن الأمل وليس تحقيقه، وها هي الأمور وقد عادت إلى نصابها، وعدنا نحن إلى ما كنا عليه: مديح المعجزات وانتظارها.

أدور مجدداً في شوراع المدينة التي أحب، أبحث عن اللاشيء، أو ربما عن كل شيء يثير شهوة اللقاء المستعاد بأمكنة لا تغيب إلا لتحضر من جديد، وأتابع ما اعتدت القيام به حين أحط الرحال

في جنباتها: أمر بالمتنبي، شارعه الكبير، بالشيخ محي الدين: الهية التكوين هي الروح يقول الشيخ، إلهية الاحزان أكرر من خلفه، إلهية المواجع، تبدو المدينة الخارجة، لحظات مؤقتة، من كهوف الأمس إلى متاهة الحاضر. هي دائماً حزينة. كانت كذلك حين مررت بها في المرة السابقة، وهي اليوم حزينة أيضاً، لعلها تترقب أمرا ما، ربما تبكي ربيعها الخاطف، ذلك البرقي، وقد تعود إلى التماثل القسري مع سياقها المعتاد وتستكين لفكرة المعجزات؟

لا ربيع في دمشق، كان الربيع مجرد فكرة خبيثة تكلل درب الوريث إلى عرشه، مجرد غيمة تمطر، حين يشاء أصحابها، على الارض اليباب، وها هو الوريث فوق عرشه، والغيمة في مكانها صعب المنال، فلماذا الربيع أو المطر؟

لا ربيع في الشام التي أحببت، أردد العبارة القاسية مرات ومرات، ولا أكف عن المشي، التجوال بلا هدف او مبتغى الى المساء، ما قبل العاشرة ليلا بقليل، لادخل حينها الميدان وأدق على الباب الخشبي القديم.

- تفضل، قالت الزوجة اللطيفة، ثم غابت بعد القليل من الأسئلة المعتادة، لتعود بدلّة القهوة العربية الاثيرة، حيث اخذت انا مكاني الاليف في الصالون، وحيث من المنتظر ان تصدح ام كلثوم الان في مثل هذا الوقت من الليل، او تتهادى موسيقى الجاز التي يحبها الشاعر، ولكن، وقبل أن أبدأ انا بالسؤال عن الصديق، قالت هي:

- سميح في السجن.. منذ عشرة ايام.. اخذوه من هذا الصالون بعد ان فتشوا البيت بالكامل وصادروا اوراقه والكثير من الكتب.

- وأين هو الان؟

- لا نعرف، ولا يُسمح لنا بالسؤال اصلا، ولكن المرور بفرع فلسطين ومكاتب المخابرات الجوية، هو الشيء الوحيد المؤكد الآن، لا بد من المرور بتلك الفروع الأمنية قبل الذهاب الى السجن أو الموت.

بكت قليلا. لم تمسح دموعها أو تغرق في صمت ما بعد البكاء، بل واصلت الحديث عن الأيام الدمشقية القليلة الفاصلة بين لحظة الإعلان عن الربيع الموعود ولحظة الانقضاض السريع عليه.

-ممتعة كانت تلك اللحظات. صدقنا الحكاية ولم نصدقها، وها هي النتيجة أمامك الان. سيان بين من صدق أو من لم يصدق، الكل في السجن أو خارج البلاد!

شربت المزيد من القهوة مع زوجة الصديق الذي عاد إلى السجن، وانصرفت. ها هو الليل خلف الباب في دمشق، اعرفه ولا أعرف عنه الكثير، أحبه ولكنني لا أرغب بالتسكع الآن تحت ظله. عليّ أن أسافر، لم يعد لي ما أريد العثور عليه في دمشق، وسميح نشوان في السجن؛ القصيدة وكأس العرق المحلي في السجن، أم كلثوم وموسيقى الجاز والرغبات البسيطة في السجن، دمشق في السجن، فلا بد لي من السفر، وسافرت، في ظهيرة اليوم التالي فعلا.

لم أنتظر شيئا جديدا في دمشق. لم أفكر بالحدود وانتظار حواجز التفتيش، ولم ألتفت حين دخلت الجوار الأردني. إلى الوراء، ولم أذهب في أناي، على امتداد الطريق من دمشق إلى الزرقاء، خلف فكرة بعينها. لم أحاورها، أو أفتش الرغبات عنها، وربما فعلت؟

- 3 -

تتسارع الأيام. تمر كما تمر، ونعتاد نحن، أو نظن، على انتظار متوالياتها الأثيرة، ترويض رتابتها، كما يتعلم السجين فن ترويض ساعاته القاتلة. كما كان دوماً عليّ أن أروض الحنين أطويه مثل صفحة في كتاب غريب ولا أفكر بالعودة إليه، لكنني لا أوفق، أفشل، فأسرع من جديد نحو مرابع القلب، أقتنص الاقتراحات القليلة للحياة وأرجع من منفاي إلى منفاي، من فيينا إلى الزرقاء، وأمر بالشام، ببيت سميح، بكؤوس الليل وقهوة الصباح، بالحكايات التي لا يكف الشاعر المهووس بالمعجزات عن سردها.

أحكي، حين أحكي عن دمشق، عن نفسي. لا فرق بين الشام وبيني. هي تنتظر غدها وما سيحمله من متاعب أو مسرات. وأنا الآخر أنتظر، هي تسكر من لذة الايحاء في كأس تاريخها وجنون حاضرها، وأنا أسكر ليلة تلو أخرى من هذا العرق المقطر مرات ثلاث وأثمل، افرح حين أثمل، أحس حينها بالصعود العظيم إلى مراتب الثمالة التي وصلتها دمشق.

ثملا تماماً كان سميح في تلك الليلة من إبريل 2007. ليلتي الأخيرة في دمشق، ليلة باح الصديق بما لم أسمعه منه قبل ذاك اليوم، وما لم انتظر

لا يمثل ما نكتبه عن المكان الشامي، عن حيواتنا فيه، ولا ذاك الذي نود ان نكتبه ولا نستطيع، لا يمثلان القدر البسيط من الحقيقة، هي أكثر عنفاً مما نعتقد ونتصور، هي أكثر مدعاة للبؤس واليأس بأشواط لا نعرف كيف نفسرها ونحوّلها إلى مفردات في القصائد والقصص أو البيانات السياسية وجداول أعمال المنتديات والاحزاب. لقد دمروا كل شيء فينا ومن حولنا.

المدينة واللغة وحتى الجرأة الذاتية/السرية على الحلم والتخييل. هذا الحزب القائد هو التمثيل الأقصى لفكرة إلغاء الكائن والمكان.

ليلتي الأخيرة في دمشق هي: ليلة سميح نشوان بامتياز. هي اختصار المكان وما يود ان يقوله عن نفسه ومعناه. هل ستحكي دمشق بمفردات دافئة وعالية عن نفسها، اكثر مما قاله وليدها وظلها عنها؟ سميح هو الظل الآسر للمكان. هو اللغة التي تحكي بها الأزقة والشوارع والساحات عن روحهان روحه، هو الدمشقي الذي لم يترك لحظة مدينته الا مرغماً خلف قضبان سجونها:

- لا اعرف الفرق بين هذا السجن، حيث انا الآن معك، وبين ذاك الذي اعود مراراً إليه. يغلقون علينا الابواب هناك، وهي مغلقة هنا. يصادرون طاقتنا على التحليق إلى أو حيث نحب هناك، وهي مصادرة هنا. ما الفرق؟

لا فرق يجيب سميح.

ما الفرق، حقا، بين هذا السجن أو ذاك، بين غرفة صغيرة في المكان، أو في المكان بأسره، بين الخسارة والخسارة.. بين ان تُلغى وتُقصى حيث أنت الان: في البيت، في المقهى، على الرصيف، وفي متن القصيدة التي تكتب. أو ان تُلغى وتُقصى في التعاليم البغيضة للطغاة، في سجونهم وفروع أمنهم، وفي الرؤية ما قبل البدائية التي يفرضون. لا فرق يؤكد سميح وأكرّر أنا، لا فرق على الاطلاق.

ليلة سميح الدمشقي بامتياز، ليلتي الدمشقية الاخيرة، إذ لن تحملني، بعدها، الصدف، ولا

اقتراحات الحنين أو دوافع السفر إلى الشام والزرقاء، لكني سأبقى قريبا من دمشق. أعرف أحوالها وأقرأ احلامها في القصائد التي يرسلها أو ينشرها سميح، او تلك التي يرددها على مسامعي عبر الهاتف، فهو شاعرها وظلها، نبض قلبها، وهو الذي سيحمل صوته أحوالها، فاسمع، في كل مرة، صوت المكان عبر صوته هو.

لا يكف سميح عن الاتصال بي من دمشق، ولا أكف أنا. سنبقى في حوار دائم عن كل شيء وأي شيء، إلى مساء الثاني من ابريل 2011 بعد أيام قليلة على اكتشاف الخربشات البريئة للأطفال على جدران درعا الكئيبة، وما ستحركه تلك الخربشات من رغبات كامنة بالانعتاق المُشتهى في عموم البلاد. يومها، في المساء الإبريلي ذاك، سيحمل الهواء ايقاعا ساحر الاشارات في صوت سميح:

- المعجزات تطل برأسها في الشام. المعجزات التي انتظرت ولم أنتظر، تطل من حولي، وهناك من حولنا.

هي المعجزات إذاً. ما انتظره سميح ولم ينتظر. هي استعادة الأمل، وعليه أن يصدق سحرها، أن يغازلها، يراقصها ويجثم، كما كان يحلم، عند صدرها الشبقي ويعترف بلا حدود أسرارها، عليه ان يصدق وأن يعترف. وعليّ أنا الآخر أن أصدق وأن أعترف وعليّ أن أنتظر، فقد يحل الربيع الحقيقي في دمشق. قد تستعيد المدينة نفسها. وقد يحمل لي الهواءُ مجدداً صوت سميح الذي غاب عني منذ نهاية أيلول 2011 ولا أعلم عنه، ولا عن زوجته اللطيفة ما يمكن قوله الآن؟

غاب سميح. أخذته المعجزات إلى دروبها التي أحب. قد يعود.

لعله يكتب الآن شيئاً جديداً عن ولادة الأمل،

أو يثمل من كأس المعجزات وحدها.

لعله هنا، في هذه المفردات، في الحنين الشديد إليه، إلى دمشق. إلى ليلها الذي لا أعرف عنه الكثير، لكنني سأرجع يوما للبحث في أسراره، فلا بد من ليل دمشق،

لا بد من بردى وقاسيون، من الشاغور والقصاع،

لا بد من ضريح الشيخ محي الدين وآثار المتنبي في المكان،

لا بد من الميدان، قلب الصديق الدمشقي، قلب المدينة التي أحبها سميح وأحببت أنا وأحب قلبها الذي سيحملني، في لحظة قادمة إليه، لحظة تستعيد الشام سحرها وسرها الأبدي،

لحظة يصعد فيك المكان إلى حدوده القصوى وتذهب أنت فيه، وتقول: أعرف ما تقوله الازقة والشوارع عن نفسها، ما توحي به وما تخزنه روحها. أعرف هذي الأمكنة، هذا الليل، هذا النداء الخفي، نداء دمشق، تلك التي أحب ■

عائشة أرناؤوط

القصبة والريح

بورتريه غير مكتمل لجورج صبرة

في حديث لنا عن صديقنا المشترك جورج صبرة، طلب مني نوري الجراح كتابة بورتريه عنه، وكان آخر ما تبادلناه من كلمات:

- أريده من أجل العدد الأول، لأني أوضِّب العدد وسيطبع في عشرة أيام.

- يعني الثلاثاء القادم مساء أو بعد الظهر؟

-لو امكن...

- يااااه.. هذا موعد قريب..

أيام تلت، أحسست معها كما لو أني تورطت بقبول ما هو فوق طاقتي. أخذت أؤخر الكتابة وأنشغل بأمور أخرى. لم أكن أعرف كيف أبدأ بوضع النقطة الأولى من هاء الإحاطة بجورج. فحين تعرف شخصا ينبسط السهل الممتنع أمامك ويمتد إلى آفاق تبدو لك نائية وعليك أن تصلها بسرعة الضوء.

ها أنذا اليوم وراء شاشتي. الساعة العاشرة وأربع دقائق ليلاً من ثلاثاء الوعد. ولم أبدأ بعد. تختلط في تلك اللحظة بدايات متناثرة ومغرية. سأبدأ، أجل، ولكن من أين؟ من ذلك الفضاء ذي الظلال الرطبة في مكتب أرضي شبه معتم بمديرية التربية، أم من ألبوم صور رتبته عند وصولي إلى باريس باسم "هؤلاء الذين أحبهم"، أم من قوس قزح اليد التي أرسلتها لنوري، والتي اكتشفت بعدها أن قوس قزح جمعنا أيضاً أنا وجورج؟ خليط الذكريات يتناوس مابين تلك الصور الثلاثة... بالإضافة إلى صور أخرى. لا أميل إلى السرد الكرونولوجي، أريده سرداً حراً كما هي الحياة، تقفز من قطب إلى آخر، من روح إلى روح كحديث عار حر بين صديقين، وكم ، وكم من المرات في كل لقاء لي مع جورج يخطر لي أن أسأله بعض الأسئلة وأن أخوض معه في موضوعات معينة. نقضي سهرة كاملة، وتبقى الموضوعات جانباً، بسبب طغيان غيرها عليها. أحاديث تتناسل عفويا، ونجهل ترابطها والتمفصلات التي تتبع حدسا قد لا يبدو منطقيا أثناء استرسالها. حسناً، طلب مني نوري بورتريه، فبأي أسلوب أرسمه؟ المدرسة الواقعية؟ بإمكان الرفاق أن يرسموها. التعبيرية؟ بإمكان الشباب المعجب به القيام بها. ربما عليّ أن أتبع المدرسة التكعيبية. حيث على السطح الإقليديّ للورقة ترتسم مساحات تُرى من زوايا بصرية متعددة. مساحات تتراكب بتناغم

تركيبها مع الفضاء الذي يحيط بها ويحضنها.
أفتح الألبوم ذا الغلاف الأحمر، لأول مرة منذ سنوات، الصفحة الثانية مباشرة التي تلي صفحة التمهيد. عنوان الصفحة "الثلاثي التعيس الضاحك" وتحت كل صورة تعليق انتشلته من ذاكرة سمعية لصدى صوتهم وهم يكررونه. إحسان: "أيوه ياشاطرة!"، أنا: بدون تعليق لسبب بسيط هو أني لا أسمع صوتي. وإلى اليمين من صورتي أثر لصمغ قديم كان ذات يوم يُلصق صورة نُزعت... كتب تحتها، جورج : "متل العريس!".
هذا الفراغ المليء لم تحل محله أي صورة أخرى لجورج... أنتظر الصورة الأصلية التي كانت هنا والتي عمرها رافق تعبيراً غالباً ما سمعته منه حين يتحدث عن آخر في مجال وحدث محددين.

II

بيت صغير في السماء السادسة من شارع كلير بباريس، يقبل زوجي صخر مسرعاً: هل لديك صورة شمسية لجورج؟ الزمن 8 أيلول/سبتمبر 1987، الساعة الرابعة بعد الظهر. أفتح الألبوم وأنتزع صورة منه. كمن ينتزع عضواً من جسده ليزرعه في جسد آخر. يتناول صخر الصورة ويخرج على عجل متوجهاً إلى منظمة العفو الدولية التي تبنت حملة الدفاع عن جورج مباشرة بعد اعتقاله. هكذا غابت صورته، غاب عنا جورج، غاب صوته وراء الجدران. أخذنا نحاول أن نتشرب أخباره قطرة قطرة.
تلك الأخبار سمعت تفاصيلها فيما بعد في شرفة بيته الواسعة المحاطة بحديقة أشجار الليمون والزيتون والعنب. كنت في زيارة صيفية لدمشق عام 1996 وكانت أول مرة ألتقيه بعد خروجه من السجن في 23 أيلول 1995، إن لم تخني ذاكرتي. البياض قد غطى شعره لكن روحه مازالت وضاءة تشرق على كل من حوله بالأمل والفرح، رغم أسنان التعذيب، وهواجس الزنزانة المنفردة، ونضاله بينه وبين نفسه ضد فقدان ذاكرة كانت تهدده بنسيان أقرب الأقربين إليه.
قبل هذا اللقاء كانت المرة الأخيرة التي قابلته فيها خلال فترة تخفيه، رتب اللقاء لنا صديق مشترك في بيته بدمشق، مازلت أذكر حزمة من شعاع صباحي تنسكب على وجهه ممغنطة بتعابير تتابع تنوعها مع أحاديثه، رأيته كما عهدته دائماً فيّاضاً بإصرار واثق، صلباً كرخام، حاداً كبرق عابر، رقيقاً كخملة جناح فراشة. ثلاث سنوات من الحياة السرية متنقلاً من مكان إلى مكان، أجدر إنسان يمكن أن يسفح تفاصيلها هو "بديعة" زوجته. ذاكرة حياتهما المشتركة لا تسكن رأسها فقط، إنما جسدها بكامله. وهي من جهة أخرى ذاكرة مضاعفة، ذاكرتها وذاكرة جورج حتى الآن. قبل يومين كنت عندهم، خلال حديثه نسي تفصيلاً صغيراً، وحين ينسى يلتفت إلى بديعة وبابتسامة واحدة منه تفهم ما يريد، فتجيبه بحرارة من يخبر الآخر لأول مرة ثم تنهي بضحكة. لهذا حين يكون عند جورج ما يزيد عن سعة الذاكرة البشرية، فإنه يودع زوجته ما قد يكون بحاجة إليه ذات يوم.

لأتحدث عن برج جورج. لابد سيضحك الآن حين يقرأ هذه المقاربة الفلكية، بل قد يسخر مني، حسناً! هو من برج السرطان، برج مائي بامتياز. فلا غرابة أن يكون جورج ماءً دافقاً وفيّاً لنبعه، يروي كل أرض يمرّ فيها، يسقي العطشى ويعكس صورة من يتمرى بهدف اكتشاف وجهه الحالم، الوجه المشتاق له صاحبه. يشير البرج أيضاً إلى "أحسّ" ونظن أننا نجد دائماً عنده ما يروينا لأننا نحس بالعطش، بينما العكس أكثر صحة، فهو الذي يحس بعطشنا ويقدم لنا من فيض مائه. وحين تختلط وجوهنا بمفارقات التشكل أو ضبابية الملامح، يصقل سطح مياهه لنسترجع ملامحنا الأصلية. مقاربة متجذرة بالواقع. ما من أحد تعرّف إلى جورج إلا وأحس بصداقته، ما من أحد احتاج إلى نصيحة أو رأي إلا وعثر على ما يريد دون "أستذة" فوقية تمارس عليه. حتى الذين لم يلتقوا به إلا عن طريق شاشة التلفزيون يشعرون بهذا. أضيف إليها خواص جورج التي استعارها برجه منه: الحدس، الحماية، النصرة، الكرم، الأبوة، الإخلاص، الصدق الذي حتى وإن كان جارحاً يكمن فيه الشفاء.

III

حين وصل إلى باريس في الشهر الأخير من العام 2011، كنتُ عند أسفل نقطة من موجة الخط البياني النفسيّ. فجأة أشرق جورج أمامي، وفي كنفه حين احتضنني عند وصوله شعرت بجناح الحماية وحنان الأبوة رغم أني أكبره بعام. أجل انتشلني جورج يوم وصوله إلى باريس، قضينا السهرة معاً وكان حديثه عن الثورة والشباب في الداخل معجوناً بكل تلك الصفات. منذ تلك اللحظة ما فارقتهما هو وبديعة التي أسميها "انتظار" بسبب حالة انتظارها الدائم لجورج طيلة حياتهما المشتركة نتيجة انشغاله بالعمل الحزبي النضاليّ. وسأحول اسمها "انتظار" إلى "انتصار" قريباً، هكذا قلت لها قبل شهر.
ولست الوحيدة. كثيرون حولي يشعرون بما أشعر. حين ذهب إلى ألمانيا، مؤخرا، أخبرنا صديق يعيش هناك أن حماته المسنة وبسبب تقدمها في العمر لا تشارك في أي نشاط عن الثورة ولو أنها قلباً وقالباً معها. لكنها حين علمت أن جورج سيكون حاضراً انتفضت كما لو صارت بنت عشرين قائلة سأرافقكم. فمن أين لها هذا الشباب المفاجئ؟ أليس لأنها خلال ثورتنا تشربت الاكسير من تلك الشاشة الصغيرة، ملمس ضوئي فيه مسام لامرئية ينسل منها أثير الروح، أثير يدفئه الصوت بحرارته وصدقه وإخلاصه لتطلبات الوضع الطارئة من غضب أو مرارة أو تأمل أواستنكار، أثير يصل الروح بالروح. أثير مُحمّل بصوت الثورة في الداخل.
لم يتغير جورج مذ عرفته، لم تتأكسد أيّ ذرة فيه، كان جميلاً وكلما كبر به العمر وازاد شيبه صار أجمل. جمال مستمد من طاقة نادرة متجددة فيه. أراه كأكمة من القصب المُعَمَّر لا تكسره الرياح بل يتناولها إلى جوفه ويحنيها ليصدر أنغاماً تكاد تشبه السحر، يسمعها من يمر بجانبها. فطوبى لمن استأرض الأكمة بين عيدان القصب الشامخة.

١٧

لم يتغير جورج مذ عرفته، كان شهر أيلول دمشقي عام 1969. مكتب أرضي في مديرية التربية في الطرف الشرقي من البناء. فيه أربع طاولات وكنا ثلاث سيدات نقلنا حديثاً من سلك التعليم إلى البرامج التعليمية التي كانت آنذاك مشروعاً، وبسرعة تشكلت صداقة مهنية فيما بيننا. ذات يوم يدخل مديرنا إلى مكتبنا برفقة شاب نحيل نوعاً ما، أسود الشعر وكثيفه، متحفظ في حركته، خجول تقريباً، ويقدمه لنا: "جورج صبرة سوف ينضم إلى مجموعتكم اعتباراً من اليوم". وحين انتهى المدير من سرد مآثر جورج وإبداعه في التعليم غادر المكتب. هرعنا حول جورج، جلست على طرف مكتبه، سحبت إحدانا كرسيها وجلست مقابل طاولته. أما الثالثة فقد وقفت أمام حافة المكتب المقابلة لي. ارتفعت نظرات جورج إلينا بخفر وارتباك من هجومنا العفوي المباشر. فضول النساء! لا أظن، كنا نريد حرق مراحل المعرفة بسرعة، معرفة هذا الذي سيشاركنا مغامرة التعليم في التلفزيون. هذا هو اللقاء الأول الذي جمعني بجورج. لم يمض أسبوع حتى تحولنا إلى عائلة واحدة وانطلقنا في مغامرتنا المشتركة، التفاني في العمل، النقد الذاتي دون مواربة، النقاشات التربوية، التعاون المخلص لتجاوز الصعوبات التي كانت تعترضنا، والعمل على شحذ الخيال لتدارك ما ينقصنا، أستطيع ودون أدنى حرج أن أسمي هذه المرحلة بمرحلة الكرم الروحي الذي ساد مجموعتنا. أما الكرم "الغذائي" فقد كان من نصيب جورج حصراً. كان كل منا يحضر سندويشاً للغداء أو للفطور، حسب مواعيد وجباته. سندويشات جورج كانت متميزة. خبز مشروح ملوح اللون رقيق يكاد يكون شفافاً من صنع أمه التي اكتشفنا عظمتها فيما بعد. لون ذهبيّ محمر كان يخفي داخله أغلب الأحيان بياض "لبنة القريشة" الناصع من صنع يديها المباركتين. في المرة الأولى أعطانا جورج لقمة لتذوقها، ومع مرور الزمن صار يتقاسمها معنا فلا يبق له إلا الربع. بعدها صار يحضر أربع سندويشات لنا. لم نخجل منه، كان طعمها اللذيذ يمنعنا من أي خجل محتمل. هكذا قضينا سبع سنوات معاً في استنفار دائم يوميّ تحول بسبب تزايد تخصصنا أنا وجورج في إعداد البرامج وتقديمها وإخراجها إلى قضاء نهار كامل معاً من الثامنة صباحاً وحتى السابعة مساء بمعدل ثلاث مرات في الأسبوع. وكنا قد انتقلنا إلى مكتب أوسع في وزارة التربية، بالقرب من ساحة الشهبندر. بعدها غادرت إلى باريس.

٧

هذه السنوات السبع تعيدني إلى قوس قزح، الذي يشير رمزه إلى درب يربط الأرض بالسماء. يسميه اليابانيون "جسر السماء العائم" و "سلم الدرجات السبع". أكانت صدفة أني أرسلت غيمة قوس قزح إلى "نوري" للموافقة على كتابة ما أكتب الآن؟ لا أستطيع أن أجزم، بيد أن قوس قزح عامل مشترك خفيّ بيني وبين جورج، عامل مشترك ومضاعف. سنوات سبع، وكم تعلمت منه يوماً بعد يوم خلال فترات العمل الطويلة وغداءاتنا في سناك دمشقي أو مطعم متواضع لنتابع العمل بعدها في استديوهات التسجيل والبث، أو من زياراتي له ولعائلته أو زياراتهم لنا أنا وصخر. كم تعلمت منه كيف أضيف إلى حدسي المباشر الأثيري مسحوق جذور تربطني بالأرض. سأتناول كمثال واحد الجانب السياسي، لم أكن أهتم بالسياسة ولا أفهم فيها، كنت أمارس حسيّ الإنساني في حكمي على الأشياء والأحداث، حس ورثته عن أمي يدفعني لاتخاذ المواقف الصحيحة لكن دون فهم منطقيّ وبالتالي دون فعل. وجاء جورج لأفتح عيني على عالم أجهله، نقاشاتنا الدائمة وحرارة إيمانه بعدالة قضايانا جعلتني أدرك الوجه الآخر للأشياء، وكان أوجها التدخل السوري في لبنان ثم أحداث تل الزعتر. كانت توجهاتي أقرب ما يكون /وما زالت أظن/ من المكتب السياسي حينها وحين شعرت بالخجل من عدم انتسابي، قال لي جورج: على العكس بقاؤك صديقة لنا يخدمنا أكثر. عام 1976 كان عاماً مفصلياً بالنسبة لي، عرفت أين أقف وكيف عليّ أن أكون أنا دون خوف. كنت أريه كتاباتي وأعتمد على رأيه، وبفضله أتابع دون وجل النهوض بأفكاري وموقفي عبر كلمات معراة من الصراخ مشحونة بالغضب. وبفضل جورج كانت تنشر بشكل سري وتبث من إذاعة خاصة متنقلة. باسم مستعار انتقاه لي جورج "قوس قزح". وكان حظي كبيراً بمعرفة جورج إذ وجدت بسببه الباب مفتوحاً أمامي على مصراعيه لأدخل إلى نفسي وأدخل العالم والبشرية معي.

هناك دروس متنوعة ومختلفة تلقيتها على يديه، أظن أنها بحاجة إلى كتاب أكثر من مقال عابر. أذكر منها الآن ما رواه لي جورج ذات صباح. استقل الباص من قطنا حيث يقطن إلى دمشق في طريقه إلى العمل، وكان مرتدياً بذلة جديدة من أجل مناسبة خاصة في المساء، جلس في الباص وما هي إلا هنيهة حتى صعد رجل مسن رث الثياب مغبر من الرأس إلى القدم وجلس إلى جانبه، كانت رائحة الجص والدهان تفوح منه. خشي جورج على بذلته من التلوث، فحاول التلملم على نفسه كي يترك مسافة بينهما. برهة قصيرة، ثانية وربما أقل، شعر بعدها بخجل مريع، وإذ به يلتصق أكثر فأكثر بالرجل، محاولاً أن يحك به كتفه وذراعه ليختلس من ثياب الأخر آثار جص وبقع دهان. أترك هذا المقطع دون تعليق، لكن أضيف أنني عند نهاية سرد ما حدث معه اغرورقت عيناي بالدموع تأثراً انفعالياً بسموّ البشري مع البشري. هذا هو جورج، وأظن أن تلك الحادثة تمثل معدنه الأصيل، الذي يتابع صقله للانتقال به من لمعان إلى آخر.

أقول هذا وأبتسم حين أتذكّر من جانب آخر سخرية جورج مني، سخرية محببة كانت تجعلني / ومازلت/ أتمادى كي أحصل على أكبر قدر منها. جورج الواقعي المتجذرة أفكاره في أرض الإنسان، وأنا المهوّمة في مجاهل المفارقات والغيبيات والعلوم والتصوف واللاهوت والبوذية، كان يسخر مني ويسايرني في الوقت ذاته وبعيداً عن المجاملة. أذكر حادثة طريفة، عند وصولي إلى باريس قضينا فترة أنا وزوجي دون عمل، رسائلي إلى جورج لم تنقطع، مرة ذكرت له في رسالة ـ نسيت إن كان مزاحاً أو جدّاً ـ أني أفكر أن أفتح مكتباً أقرأ فيه الفنجان وأصنع أحجبة لأبيعها حسب الرغبة، وطلبت منه زعفراناً يشتريه حصراً من محل "دركل" في سوق مدحت باشا، وهو محلّ

متخصص بمواد غريبة تستخدم للسحر والطبابة الشعبية. ولم أكن أتصور أن جورج سيذهب من أجلي إلى مكان لا يخطر له ارتياده إطلاقاً إلا أن حفنة الزعفران التي وصلتني بلونها الخمري جعلتني أدرك أن الصداقة عنده مقدسة. لكني الآن أعتقد أنه فعل ذلك معي مزاحاً. يا إلهي! كم الفرق كبير بيننا وكم هي حميمة صداقتنا. إيمان واحدنا بجوهر الآخر هو الذي جمعنا ويجمعنا على الدوام، والثقة بأن كلاً منا مخلص لوجوده ومن خلال وجوده يجعلان التباين بيننا هزيلاً لا يُذكر.

صداقتي بعائلته وحبي لكل أفرادها شجعني أن أعطي ابني عنوانهم قبل مغادرته إلى دمشق لدراسة اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، وهكذا بدأ يتردد على بيت جورج بشكل دائم حتى صار كواحد من أفراده وتحول جورج مع الزمن إلى خاله الفعليّ. فأيّ سحرّ دفع ابني لهذا الاختيار؟ أليس هو ذاك العبير الإنسانيّ الفيّاض واستقامة المبادئ الأساسية لاحترام الآخر وخصوصيته؟ أليس هو الحب المفعم بالحنان لكل بشري ولكل ذي حياة؟ أليس هو النضال المستميت من أجل غدٍ مشرق؟ أليس هو مفهوم جوهر الحرية الذي يفيض مع الكلمات والأفعال والتصرفات؟

هذا هو جورج، بوتقة الخيمياء البشرية، تتمازج فيها العناصر النبيلة للوصول إلى حجر الفلاسفة الذي هو مفتاح باب السعادة الإنسانية.

VI

قبل بدء الثورة بأشهر اتصلت بشادي، بكر أولاد جورج، وخلال حديثنا سألته: متى سيحصل جورج على جواز سفر ليقضي إجازة هنا مع بديعة؟ ضحك شادي بمرارة قائلاً: لا أمل... أجبته: ليحاول، ما حدا بيعرف. كنت مشتاقة إليهما وأرغب في أن يقضيا فترة من الاستجمام هنا وفي جنوب فرنسا.

بعد شهر تقريباً من حديثي هذا، انطلقت ثورة الشعب السوري، وأخذت أتابع صوت جورج من قناة إلى قناة، أتشرب في كلماته صوت شعبنا الرائع، أستعير مما يقوله مرتكزات أكثر صلابة لتجذير موقفي الذي اتخذته منذ البداية. ثم بدأت الفيديوهات تنتشر مع "الله أكبر على الظلم" "الله أكبر على الطغيان" يتبعهما ارتجال في ساحة قطنا وفي خيم التعازي بالشهداء في قرى ريف دمشق، التي تحولت تسميتها فيما بعد مع تصعيد عنف النظام إلى "أعراس الشهداء"، مظاهرات جنائزية مخلوطة بالموت والرصاص والدم والنار.

تابعت الاعتقال الأول لجورج بعد أقل من شهر من بدء الثورة والإفراج عنه بعد شهر، وجاء اعتقاله الثاني لمدة شهرين في العام نفسه،

صدف أن روى لي صديق عن مشهد تراكب في ذاكرتي ليصير لصيقاً كما لو شاهدته وعشته. خرجت الجموع الغفيرة للتوّ بعد سقوط أول ثلاثة شهداء في قطنا، ووسط هذا المدّ إذ بجورج يُحمل بغتة فوق الأكتاف ويأخذ صوته بالانطلاق حتى عنان السماء الملتهبة، بينما بعض الشباب يرشون عليه الماء، دائرة من جموع غفيرة هو مركزها، تطوف حولها ثلاث سلالم تحمل الشهداء بثيابهم بينما الدماء تتابع سيلانها من أطراف السلالم. الطواف الدائري المدوّم للأجساد حول الأجساد، للشهداء حول الأجساد، وبينها، بدأ يتحول إلى طواف لولبي ترسمه معادلة لوغارتمية جديدة من الغضب والصمود والاستبسال. سألت جورج حين التقيته عن تلك الحادثة، قال لي: لا أعرف ما حدث كنت مع الآخرين، بغته وجدت نفسي محمولاً على الأكتاف، وأخذوا يرشون علي الماء، كان الجو حاراً، ولا أعرف ماذا قلت أنذاك، كانت حالة شبيهة بالوجد.

هنا دمعت عيانيّ، كلماته كشفت لي الحجاب عن الوجد الثاني، رأيته وأدركت أن هناك وجدين اثنين، وجد الوجود ووجد الحلول في الجسد البشري لحظة التحامه ليكون واحداً.

"ما حدا بيعرف" وكان يوم جمعة من آخر شهور العام الفائت، تتسقط أنا وبديعة التي وصلت قبله إلى باريس أخبار تسلله من سوريا إلى الأردن، كنا نعرف المخاطر التي يواجهها جورج مع ابنه الشاب المنشق عن الجيش الذي التحق به منذ فترة قصيرة، وكنا ندرك خطورة المجازفة بالحياة في ظروف يطلق فيها النار بلا حساب. فمن سبقهما قتل... بديعة لم تنم ليلتها. وعند الفجر رأيت ظلها واقفاً أمام النافذة المطلة على باريس، لمحت حركة ذراعها وهي ترسم إشارة الصليب منهية ابتهالاتها لرب الكون ولمريم العذراء. إذا كان وراء كل عظيم امرأة، فوراء جورج امرأتان، والدته وزوجته. والدته التي زرعت فيه بذرة الثقة بالنفس والإقدام الشجاع، وزوجته التي رعت تلك النبتة حين أنتشت منذ أربعين عاماً حتى تحولت إلى شجرة راسخة تحمل أغصانها الثمار وتنشر الظلال الوارفة.

بعد يومين وصل جورج وابنه إلى باريس. لم يكن مجيئه هروباً من حياة التخفي التي أجبر عليها أوخوفاً من اعتقال، إنما مهمة كلفه بها الداخل.

"ماحدا بيعرف" وجاء جورج إلى باريس في ظروف لم يكن لأحد منا أن يتكهنها مسبقاً. في الفترة الأولى لم أفارقهما تقريباً، ورغم هذا لم نجد الوقت لنتحدث مطولاً، فمنذ اليوم الأول انهالت الاتصالات الهاتفية والمداخلات التلفزيونية والإذاعية والمقابلات الصحفية، التحق بنا في باريس شادي وزوجته وابناهما التوأمان الرائعان اللذان ينادياني بـ "تاتي آشيلا" لقضاء عطلة نهاية العام معنا.

VII

أتأمل الصفحة في ألبوم الصور أمامي، حتى الفراغ الذي تركته الصورة مازال مليئاً. أغلق الألبوم ... وأنهي كلماتي هنا، في تمام الساعة الرابعة والنصف فجرا.

أستميحك عذراً يا نوري، فما كتبته لم يكن "بورتريه" كما طلبت مني، إنما استرسال حرّ عن جورج، مازال ناقصاً. فأنا لم أتطرق إلى الجانب الأدبي عنده ولم اقرب جوانب أخرى في شخصيته الثرية■

سُرى علّوش

أنا زوجة الشهيد

أنا زوجة الشهيد. لا أشعر بالفخر، ولا أرفع رأسي عالياً بين أصدقائه، ولا أقبل عزاء الناس به، ولا أقول لأطفالي كم من الرائع أن صعد إلى السماء على درج من الورد الأحمر، وإنه مازال ينظر نحونا من هناك. لن أصدق شيئاً عن البطولة في الحرب، ولن أقنعهم بذلك كي يكفوا عن البكاء وينسوا.

أنا زوجة الشهيد التي مزقها الوطن، وأغلق باب بيتها عليها وتركها وحيدة. أكره الحرب. لا تعنيني انتصاراتكم وهزائمكم، ولا أصدق خرافة المنافي والأعداء. لا تكذبوا عليّ بعد الآن، أنا البنت التي جعلتم منها أرملة بموافقة الله لتتوجوا آخَرها بطلاً بأوهامكم وترفعوه إلى السماء دون أن يقول لها شيئاً أو يطلب الغفران منها بدلاً من أن يطلبه من غيرها.

كنت أحبه قبل الآن؛ قبل أن يفضل الجنة عليّ، و يعرف أنني قد أمضي أعواماً طويلة دون أن أستطيع فهم غيابه أو تفسيره، أو أتصالح مع الحياة دونه؛ ورغم ذلك ذهب. أنا زوجة الشهيد وإثمه الأزلي. لا يصلح ندمه ما أفسده الألم، ولا يضمد موتُ القاتل قلباً لن ينام أبداً. لم يحبني يوماً كفاية كي يكتفي بي، أو كي لا يرسل قلبه إلى الحرب ويلحق به. لم يقايض بي شيئاً، فأنا لم أعن له أكثر من امرأة وضعها في بيته ليصبح أباً ويتباهى بمجده العاطفي.

أنا أم أطفاله الذين أحب نفسه أكثر منهم، فغادرهم يتامى مكلومين ومضى إلى حتفه المحتمل ليصبح واحداً من أحباب الله. لم يجيئوا به إليّ لأقبّله مرة أخيرة، أو لأسكب الماء فوق قبره وأتلمس اسمه المحفور سكيناً في الخاصرة؛ فأنا مجرد امرأة قضت عمرها بانتظاره، وقدر النساء أن يأتين القبور بعد مضي الرجال. دفنوه تحت أحذيتهم واستداروا عائدين. لم يغنوا له كي لا تأكله الوحشة، ولم يفركوا ترابه الجاف بدموعهم ليصبح أكثر راحة فوق جسده. مضوا يصرخون بأسماء الله الحسنى ويحسدون الشهيد. زغردن لي أيتها النساء الباليات، وتعلمن كيف ترتق امرأة حكايتها في حضرة الموت، وكيف تغلق جرحها وتهزأ منكن ومن رجالكن العائدين للتو بنعوة حبيبها، فلكل منكن موت منتظر سيفضح إيمانها، ولكل منهم بيت يحلم به في الجنة سيخرج لأجله ولن يعود.

لن أفكر به من الان وصاعداً، ولن أتمنى لو أنه لم يمت. لن أرتدي الأسود لحداد أبدي؛ فالوطن الذي قضى من أجله بلون داكن كان يعرف كل الألوان الفاتحة، ويحبها أيضاً، والأطفال الذين يتّمهم



ليصبحوا رجالاً مازالوا يشترون الحلوى الوردية ويحلمون بالصيف ويرسمون الأشجار خضراء والشمس ذهبية والبحر أزرق على دفاتر الرسم، والمرأة التي يريد لها كل من يعرفه أن تهرم تحت قداسة اسمه ووطأة ذكراه مازالت صبية لا تفهم الفراق ولا تنظر في أسبابه السماوية.

كان باهتاً كأغلبكم، ومحارباً على جبهة واحدة. أتذرع بالحب ويتذرع بالمشيئة. أكتب عنه ويكتب عن الجبال وعن الإله الواحد وعن رفاق السلاح. أحدثه عن الذكريات التي بيننا فينشغل بحقيبته الوحيدة التي يحزمها للرحيل ويغلقها بالنسيان. أصنع له قوس قزح بثيابي فيحدثني عن الطغاة والمعتقلات. أفرد له روحي المنكوبة به وبمن مثله، فيفرد لي صور الأصدقاء الذين انقطع عنهم منذ انقطع عن الوطن.

لا تحدثوني عن العفة والصبر والإيمان. لا تفقؤوا عينيّ بترهاتكم ولا تتهموني بالكفر.

أنا زوجة الشهيد وفكرته الخاطئة عن الحياة الدنيا. لم أكن يوماً سجاناً أو محققاً، ولم أنتسب لحزب أو تنظيم أو جماعة، ولم أردد شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية. لم أرفع علماً ولم أكتب قدراً. لا أفهم نشرة الأخبار ولا أصدقها. لم أسرق ولم أقتل ولم أكذب إلا على والديّ. لم أخن ولم أصفق ولم أحن رأسي ولم أقف في صف أحد دون غيره؛ فلماذا سن سيفه في وجهي وقتل روحي انتقاماً من عذابات الأرض وعار أهلها؟

أنا أرملة الشهيد وحظه العاثر. لم أعد أؤمن بالحب ولا أنتظر الرحمة، وطني ضحكة طفل من أطفالي قتلتها عتمة القبور، وصرخة طفل لا أعرفه تمسك يدي الجلاد وتشق الجدران ليسمعها الرجال مثلكم ويصفقوا له. وطني قطعة خبز يلهث وراءها جار أخوتي ليرجع بها إلى البيت وحجر صغير يلقيه على رأسه طفل مشرد حزين.

أنا رفيقة الشهيد الأعزل من وهج الحياة، وصخب جنونه الأبدي على أرصفة الشحاذين، والطرقات المسدودة في وجه الحب.

أنا من أحمل رسالته من بعده ولذا سأقول لأولادي: لعنة الله على بلاد تنجب خيبات العشاق ولا تنجب أحلامهم. لعنة الله على بلاد يخشى الصغار فيها أمهاتهم ولا يخشون الرصاص. لعنة الله على بلاد تربي أبطالها لتأكلهم. لعنة الله على بلاد تزف الموتى بالزغاريد ولا تبكي عليهم. لعنة الله على بلاد يحكم الثأر قلبها وتمنح جسدها لمن يدفع ثمنه. لعنة الله على بلاد نمهر تفاصيل مدنها بقصائدنا وتتزوج اللصوص . بلغوا عني وصيتي قلبي الذي عطبه الوطن معلق على حبال الغسيل مع قمصان الشهداء مسحوق تحت أحذية العسكر

مجروح برماح الفرس والعرب غارق بالخطايا التي ليس من شأن أحدكم أن يغفرها جالس على عتبات البيوت عالق في أسلاك الحصار الشائكة مبتور كساق وحيدة تحت الأنقاض من رآه منكم فليصوب بندقيته نحوي وليقتلني قبله ■

أحمد علي الزين

الساعة الأولى في كتابة التاريخ

ثلاث صرخات

I

بأي يد أكتب يا أمي؟

بأي يد أكتب يا أمي؟ اليد التي كنت أكتب بها اقتلعوا أجزاء من أصابعها، والأصابع يا أمي، لاتعار ولا ترد، كما الأقلام! ليت أحداً يا أمي يردُّ لي ما اقتلعوا من أصابعي، وأعيره كلَّ أقلامي...

لا أعلم ماذا قال الولد لأمه عندما اقتلعوا أصابعه، لا أدري، ربما أكون أعتدي عليه في السماح لنفسي أن أتخيل حواراً دار بينه وبين أمه بعدما عاد إليها بيد ناقصة، وألم فائض، ودموع كثيرة تستقبل هذا الجسد الطري.

ماذا يمكن ان يُكتب بعد؟ ماذا يمكن ان نكتب، بعد ان اقتلعوا اصابع اطفال كتبوا على الجدار ما كتبوا، ربما كتبوا أنهم غير سعداء في هذا العالم، أو في هذا الزمن الجائر، كلام يردده الكبار عن جَوْر الحكّام كتبه الصغار على جدار... ماذا يمكن ان نكتب أيها الحِبْر؟ ايها القلم، يا يد!! من اين يبدأ الكلام؟ من أي هامش؟ اذا كان المتن لا ابيض فيه. لعلني اذا استعنت بهذا المطلع من نص للطاهر لبيب في استنباط معنى من النارالتي أكلت جسد البوعزيزي الشاب، الذي أحرق نفسه احتجاجاً على الظلم، قد أجد معنى ان أكتب عن يد عادت ناقصة إلى أقلامها! يقول الطاهر: «إلهي، إذا كان في سابق علمك ان يوجد الجحيم، فعَظِّمْ خَلْقي فيه حتى لا يَسَعَ معي غيري». قال البسطامي فيضَ مناجاة فاستجاب البوعزيزي فعلَ معاناة. ما شيَّعَ الصوفيُّ نحو السماء ردَّه البوعزيزي إلى الأرض. لم يقبل التأجيلَ إلى يوم القيامة. كان يعلم علم المعيش، ان الجحيم في الأرض، غطاه بجسده، احترق، فأخمد النار بالنار، كان هذا مُضْمَرَ فعله، لا جحيم أزلياً».

لا أدري ما الذي جرَّني الى هذا النص، ولا أدري إلى أين أصل، انما الواضح أمامي انني ابحث عن معنى، فعداني الطاهر لبيب بلغته، وكأن مفردات اللغة ينادي بعضها بعضاً، كما الطير في الشجر، لتتلقح. أو أنه اصابني بلهب ما، فاحترق العقل شوقاً للتحليق عالياً، أبعد من السموات وأقرب إلى

الأرض، لملامسة رماد جسد، أو قطرة دم تيبست على رصيف سقطت من إصبع ولد ما، توقَّع أن التأنيب على ما كتبه يكون باقتلاع أجزاء من الأصابع، لأن هذا لم يحدث، ولم يَرِدْ مرة في تاريخ التأنيب المدرسي، حسب علمه، والولد ما كان يعلم ان هناك مدرسة أخرى تخرِّج نوعاً من صنف البشر لهذه الغايات الهمجية، يظنون ان الكلام يمحوه ويبطل مفاعيله بترالأصابع.

ما قرأته، وما سمعته، وما شاهدته كأنه شيء وقع في اللغة نفسِها فبعثرها وبدَّدها، لشدة ما كان صاعقاً وقوياً. تخيلْ فقط، نقطةَ دم نزفت مما تبقى من إصبعِ ولدٍ كَتب على الجدار شيئاً لم يعنه مباشرة، وظن ان هذا يأتي في باب اللعب، او هو شغب طفيف لا عقاب عليه، وبالتالي لم يكن بمقدور الصبي الإدراك أن الزمن الذي يعيش فيه ترقَّتْ فيه الهمجية لتعاقب الأطفال!! هذا لم يكن في علمه، ولم يكن في سابق علمه أيضاً ان أصابعه التي اقتُلعت أجزاءُ منها ستبدأ، بما تبقى فيها، بكتابة التاريخ!

تلك الصورة في قسوتها المريعة، تشبه إلى حد ما هذا الشيء الغامض الذي وقع في وعاء اللغة، فتشظت ولم يعد هناك من كلام، لم يعد هناك من مخزون كاف لوصف ذلك الذي حدث، لوصف رجل أحرق جسده لأن جحيم الارض يحتاج إلى حريق مضاد لإطفائه، أو لوصف يد تتهجى الأصابع لتعيد اليها القلم، لوصف طفل عاد إلى أمه من دون اصابع، وليس من دون أقلام...

صديقي عمر. ماذا اقول في هذا الربيع العربي؟

شيء وقع هنا وهناك، في اللغة وخارجها، لكأن له صدى في أودية البلاد، يستدعي للوهلة الأولى صراخاً جريحاً في ليل لا قمر فيه...

شيء يرسم ملامح، أو ظلالاً، وكان خروجاً عظيماً وهائلاً، تم باتجاه الضوء، ودفعة واحدة، بعد مكوث طويل في العتمة. وفي هذا الوهج، ظن الولد أنه إذا كتب على الجدار في هذا الخروج العظيم من العتمة والسكون والخوف، سيكافَأ بعلامات إضافية على درس الحساب ودرس القراءة، وليس له من العمر والتجربة ما يخوله القراءة في أحوال الحكام، وفي أمزجتهم وهم على حافة الهاوية، يمارسون كل شيء ما عدا الحكم بالعدل، ولو قليل، وتتفنن عصاباتهم في القتل والتنكيل... هو خرج في التوهج، في الربيع، كما فعل الكبار، ولو بحذر، وظن ان الورد كثير، وإنْ كان شوكُه دامياً، وما حسب ان العودة إلى البيت ستكون بأصابع ناقصة وبألم كثير.

ولعل البوعزيزي على الضفة المقابلة، حين خرج بجسده وأحرقه تحت قبة السماء، أراد ان يبعث برسالة الى الله أيضاً، وليس الى الحكام فقط، وربما إلى ما تبقى في اللغة، ليشحنها بغير معنى، وهذا أيضاً مضمرُ فعْلِه، لكنه ما ظنَّ، او توقع ان هناك متحدثاً سيفتي في تفسير قدومه على إحراق نفسه أنه حرام، ثم يسرع هذا المتحدث في الوقت نفسِه لاستثمار نتائج هذا الحرام، بالتحاقه بالثورة التي اشعلتها نار جسد البوعزيزي، اي «الفعل الحرام»، فراح يؤم المصلين في ساحات الحرية، التي ما كانت لتتسع لأحد لولا احتجاجه المطلق على الجحيم الأرضي! فكان البوعزيزي بإحراق نفسه، يطفئ النار بالنار، ومن دون سابق علمه، كما وجد الطاهر لبيب في تفسيره لذلك، اما الولد الذي اقتُلعت أجزاءُ من اصابعه بعد ان كتب على الجدار كلاماً ضد الحاكم، فسيشير - ولو بعد حين - بيده الناقصة إلى لغتنا الناقصة! أو أنه اشار وما انتبه أحد منا...

لا أظن أن هذا الولد ولا ذاك الشاب، يعلمان ان على هذا الكوكب كائنات لديها استثناء في القدرة على مزاولة العيش بهناءة وطمأنينة بعد أن تفتي بالحرام وتأكله، وتقطع اصابع الأطفال باعتبارها أصابع متآمرة!! هذه الهمجية ارتُكبت مراراً، ولكن في حق الكبار، مِن كتّاب وصحافيين ورجال فكر، وهم كثر، وتفننوا في تقطيع اطرافهم، ولكن ان تمارَس هذه الهمجية على ولد كتب اللعب على جدار عربي في ربيع عربي، فلا أعرف ما إذا كان كافياً ان نسمي هذا بـ «العار والهمجية»، أو أن شيئاً ما يتخطى هذا الكلام يجب ان يتألف...

أما العار، أو الذي يمكن ان نضعه في خانة العار، فهو ذلك الحِبر الغزير الذي يُهدر لتبرير هدر الدماء، ولوصف ما يحدث في هذه البلاد بأنه «مؤامرة».

وأما تلك الإطلالات على شاشات التلفزة لتزوير الواقع، فتستدعي الإشفاق أكثر من سواه، كيف لهذه الرؤوس ان تضع عقولها في التصرف أو في إجازات طويلة الأمد...

لا أدري إذا كان هؤلاء قرأوا أصابع الولد حين كانت تتهجأ الحروف الأولى لاسم البلاد، لا أدري إذا كانوا شاهدوا يداً اقتُلعت أجزاءُ من أصابعها وظلوا قادرين على حمل القلم والكتابة في وصف ما يحدث بالـ «مؤامرة»، او إذا كان ذلك المتحدث باسم الله يعلم أنه إذا سرق الثورة أو ركبها فهو كالذي يأكل مالاً حراماً، وهذا - وفق قاموسه وفتواه - باعتباره فعل البوعزيزي فعل حرام...

صديقي عمر أميرلاي.

هو الربيع العربي، إنما لا احد يعلم كم سيطول ليكتنز الزهر ويثمر، لإنه كما تعلم، هناك اختصاصيون في تقطيع الشجر وتجفيف المياه عن النبت. هذا الربيع ورده كثير، وشوكه نبال تُدْمِي، وهذا في الترميز، أما في الواقع، فهناك شراسة في القتل على هذه الجغرافيا العربية، التي تحكمها عقول عصابات هي في تماديها وشراستها لا توصف، وكأنها تظن أنها تؤبِّد نفسَها حين تباشر من دون تردد، قتْل كل من يحتج على تماديها في الفساد والاستبداد، فتراها تطارد الناس حتى غرف نومهم، ومن لا يُقتل يُساق الى أقبية التعذيب...

ماذا يمكن أن نكتب يا عمر، بعد ان اقتلعوا اصابع أطفال كتبوا على الجدار أنهم غير سعداء بحاكم جائر...؟

ماذا يمكن أن يَكتب الحبر، إذا لم تصبح اللغة في فعلها، أحياناً، متوهجةً كما النار التي أطفأت الجحيم الأرضية في فعل البوعزيزي؟ أو إذا لم تلامس تلك الأصابع الطرية، التي تحتاج لألف ربيع عربي كي ينبت وردها؟ ماذا يمكن ان نكتب اذا لم نخلِّص اللغة نفسَها من الاستبداد التراثي والغيبي، الذي يتكاثر المتحدثون به، يجرِّدون الأفعال من معانيها الإنسانية، ويطلقون اللصوص الذين يختبئون تحت عباءتهم للسطو على انجازات العقل.

ماذا يمكن ان نكتب أيها الحبر؟



بأي يد أكتب دروسي يا أمي؟ عاد الولد وسأل أمه، وحين هَمَّ إلى القلم سقطت قطرة دم من سبابته التي بترت، على هذه الصفحة من التاريخ العربي.

II
شهيد الصبح يشيع شهيد المساء

سوريون.
حملوا حجارة على ظهورهم عند الظهيرة،
بنوا سلما طويلا طويلا نحو الله،
صعدوا اليه واحدا واحدا،
مثلما قتلوا واحدا واحدا،
وسألوه بعتب:
إلهي،
كيف تركتنا وحدنا نهبا للوحش في الغابة؟
وكنا عراة ننشد لهاء اسمك،
نرفع على أكفنا طفلا قتيلا وسحابة
إلهي، وكنا ذهبنا الى معرة النعمان، إلى قبر سيدنا إبي العلاء لندفن في جواره قتلانا، وفي الدرب كنا نقرأ من سورك سورة الرحمن وردّدنا:
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحب   فأين القبور من عهد عاد
رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحكا من تزاحم الأضداد
خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد.
ثم بكينا من وجد حين وقع الصمت علينا، مشينا إلى ليل البيوت نستدل بنجم في قبتك، نجم غارب كالروح.

***

إلهي،
كيف تركت أطفالا كتبوا اللعب على الجدار، أن تسحب أصابعهم من الرسغ وينتشي من صراخهم الجلاد،
وأنت الذي أشرت بسبابتك للكون كن فكان!
وكان، قد رسموا ظلالهم على الضحى، تسلقوا الظهيرة ليصلوا إلى البيت، شاغبوا وهربوا من صف النشيد.
إلهي،
كيف تركت منشدا، اقتلعوا منه الحنجرة، كوتر يقطع عن صدر الكمان
أرأيت إلهي قوسا ينشج دون وتر؟
من أين تخرج هاء اسمك، إن أراد مناجاتك القتيل على آخر الروح؟
من أين تخرج هاء اسمك كي تعلو نحوك في السماء؟
وأنت في سابق علمك، إنها صرّة الحروف وسرّ الغناء،
هاؤ (ه) تشبه قطرة ماء، أو دمعة كرجت على خد ملوح بشمسك
قالوا: إن المطر الذي بلل خدّ أمه يوم قتلوا صبي درعا ليس مطرا بل دمعك
وقالوا، بكيت وأجلت العقاب إلى يوم القيامة! هكذا قالوا عن تلك السحابة التي حامت فوق النعش، وعندما انتحبت الأم على التراب وارتمت على القبر، قرأوا في السحابة اسمك.
أما ذاك الصوت الذبيح الذي شج الليل، فهو آخر من أهلي كان عائدا بقطيعه على المساء... تسلوا بالبهائم، قتلوها قتلوها، فبكاها الراعي، وظل ينشج حتى جف ماء النهر.
إلهي،
كيف تركت البهائم تقتل في عرائك؟
وهي، لا سبب لها
ولا نسب
ولا حسب
حسبي أنت، كيف تركت وجهي يداس بالنعل؟ وأنا عمري كله حاف... حاف... حاف من عتبة بيت أهلي حتى آخر الدرب.
حاف كالخبز الذي أقتات به تحت سمائك،
يابس حلقي كقش الدغل وجسدي إناء.
كيف تركت وجهي يداس بالنعل؟
وملامح وجهي هي رسمك.

***

سوريون حملوا قتلاهم على ظهورهم عند الظهيرة،
مشوا إلى العواصم سألوا أهلها، ألديكم مقبرة كي نخبئ قتلانا؟
فالبلاد حيث ولدنا وقتلنا صادرها الحزب، كلما دفنا واحدا منا على الصبح يعيدون قتله على المساء، فصار،
شهيد المساء يشيع شهيد الصبح، وشهيد الصبح يشيع شهيد المساء.
سوريون،
جاؤوا بيروت، لفوا بخبزهم الحاف ما حملوه في زادهم من سهل حوران،
خبأوا تحت رموشهم، شيئا يشبه الحزن،
رأيتهم يرسمون بجبينهم حدود الصبح، وفي ظهيرة التعب يبردون بعرقهم قرص الشمس.

وفي العشية يشعلون جمر الحنين،

بين حمص وحماه نعى غراب البين   يمي العمر غفلي متل رمشة العين
يا طير سلم عهلي حملهـن دمعتين   دمعة عخدك حماه ودمعة لبعدين.

III
امرأة من داريا

امرأة من داريا. وقفت بسوادها الكامل، كأنها قادمة من ليل طويل، أو أنها قامة كاملة من ليل، نجت من التلاشي ووقفت في عزِّ النهار، لا أبيض فيها سوى يد تلوح بالوداع.
هي امرأة من هناك، من داريا ربما أو من حولة. هي أم حلبية من المعرة، أو من غزة الفلسطينية، وقفت بحزنها الكامل.
وقفت في عتبة البيت الذي كان، كأنها تقف على نهايات العالم، على نهايات الزمان، كأنها على صفحة الهواء، لا شيء تحت قدميها، لا أرض، لا تراب، لا ماء، كأنها معلقة بخيط، بشيء شفيف لا يرى، بصدى صوت نشج طويلاً، صوت ذبيح أطلق عند الفجر وتلاشى حتى الإنطفاء.
وقفت في عتبة البيت الذي كان، كالأنين، كحورة وحيدة نجت من العاصفة التي اقتلعت عمراً كاملاً. حورة عارية من فصولها، حورة ليست فيها سوى قامة منكسرة كاليتم.
كأن أمامها قاعاً سحيقاً نحو اللانهاية، وخلفها ركام البلاد، فلا هي قادرة على خطوة في الفراغ ولا على خطوة في الحطام. هي هناك على هذا الحد الفاصل بين روح وجسد.
كأنها على البرزخ بين عدمين، بين مجهولين.
وقفت بسوادها الكامل، بحزنها الكامل، لم ير من وجهها سوى العينين، فيهما بقايا دمع وفجيعة كاملة، ويد بيضاء في هذيانها تعيد تأليف اللغة من أولها حتى سيمياء التراب.
وقفت هناك، في إطار باب لا بيت له، لا يفضي الى داخل ولا إلى خارج، ورفعت يدّيها نحو السماء، كان سرب من الطير المهاجر يعبر على برزخ غروب ذلك اليوم من نهايات أيلول، ومالت كراية سوداء، نصف وجهها نحو السماء والنصف الاخر نحو الحطام، وبلّغت: لم يبق لي أحد سواك، لم يبق أحد من أولادي، لم يبق أحد من أهلي، لم يبق لي أحد سواك، ثم جثت وناحت، حملت كمشة من تراب ونثرتها في الفراغ كأنها تنثرها على العالم، صارت الدمعتان العالقتان في عينيها مرآتين، في واحدة رأيت جنازات تعبر الفجر، وفي الدمعة الثانية رأيت وجهي مغموراً بالتراب.
وقفت في عتبة البيت، بكامل وحدتها، لتقول غياب العالم، وغياب العدل وغياب الرحمة.
وقفت بكلام قليل لتقول الفقدان الكامل، وحين لوحت بيدها في الهواء بأصابعها المنحنية كجناح، بدت كأنها تزيح الزرقة عن السماء بحثاً عن الخالق، ثم تعيدها وترميها على التراب كطائر ميت. لم أعد أسمع ما تقول، كانت تصل كلماتها ناقصة، لكنّ المعنى كامل وواضح كحزنها.
بقيت وحد... لم يبق في الرئة هواء لدفع بقية الحروف لتكمل كلمة وحدي، لكن وحدتها كاملة، كاملة كنقصان تام في الأخلاق لدى العالم، كالعار في تصريح مندوب دولي في تفسير القتل وانتهاك الجسد الآدمي في مذبحة داريا، كاملة كيد نقصت منها الأصابع بعد أن كتبت على الجدار، يد طرية كانت تتمرن على الكلام، على الكتابة الأولى، كانت تشاغب في ساعة التاريخ ولا تدري أنها وضعت السطر الأول في كتابة التاريخ هناك في مدينة إسمها درعا.
وقفت في عتبة البيت وحدها، ووحدتها في بيانها الكامل، لا داعي للغة كي تصف ما تبقى لها ومنها، أو كي تبلغ ما صارت عليه، أما التراب الذي رمته عالياً فهو الكلام، كل الكلام الباقي من عمر وأحبة وأهل وبيت، هو هذا التراب، هذا ما بقي لي، ونثرت كمشة منه على العالم، كأن العالم هو الذي مات وأرادت أن تذكره بما سيكون عليه، تراب، تراب... كل حي إلى تراب.
كانت تلوّح بيدها للذي في الضفة المقابلة، لا لتبلغه بنجاتها بل لإنقاذه من الموت. لإنه كان يرى ولا يرى، يسمع ولا يسمع، هو ايضاً على برزخ بين الحضور والغياب، هو أيضاً ناقص ما يعطيه معنى الحضور، ناقص العدل، العدل وحده يؤكد الحضور ويشهد لمعناه. وأعني العالم، نعم العالم كله فادح في نقصانه.
وقفت في عتبة البيت الذي كان هناك، انطوت على نفسها كحورة مكسورة، عين على السماء وعين على التراب، وكررت ما أرادت أن يصل كاملا ويسمعه الله، من دون نقصان:
بقيت وح... كانت شفتاها تتحركان بلا صوت، لا أظن أن أحداً على هذه الفانية تمكّن من سماع ما لم تقل، كأنّ ما لا نسمعه من الكلمة كان تلك الإستغاثات في ليل مذبحة طويل، تصرف فيه القاتل بتماد مطلق في النحر، كان صوت النصل على أعناق طرية، كان آخر الأنين لم نسمعه، كان فوق إحتمال السمع.
وقفت في عتبة البيت الركام الذي كان هناك، في الحارة التي كانت، هناك في المدينة التي كانت، هناك والبلاد التي كانت هناك، زاحت بيدها الناحلة زرقة السماء، فسقطت العتمة على العالم.

IV
شهر آخر من القتل

لا أعرف ماذا سيحدث غداً أو بعد لحظة من انتهائي من هذا المقال الذي بدأته الساعة الخامسة بعد ظهر يوم السبت السادس من آب (أغسطس) 2011، لعلني كسائر الناس المعنيين بما يحدث في عالمهم أتابع على شاشات التلفزة آخر العواجل. مجزرة في حماة ومليون ونصف مليون جائع في الصومال يتناقص بفعل الموت، ويزيد بفعل تمادي الجوع في عالم ترمى أطنان من موائده الباذخة في مكبات النفايات في الأشهر الحرم، ولعلها تتضاعف على مدار الشهور الأخرى لانتفاء الرادع، ومن العاجل أيضاً: مصير حزين ينتظر الأسد كلام منسوب إلى الرئيس الروسي وبيانات شجب هنا متأخرة ولغو وتردد... أما الصور التي يلتقطها بعض الناس في غفلة من القاتل فهي وصمة عار على هذه الصفحة من كتاب التاريخ وعلى جبين العالم. القتلة يقطعون الأوكسيجين

عن أجنة في المحاضن فيقضون اختناقا، يا إلهي. كيف يعود القاتل إلى مائدته والصامت إلى إفطاره وحليف القاتل إلى صلاته وتراويحه؟

***

لا أعرف. ربما يطلع الجيش في سورية ببلاغ رقم واحد، ويتحول من قاتل تديره عصابة إلى منقذ مثل شقيقه المصري والتونسي. هذا ممكن في الواقع وحدث في التاريخ، أما أن تمطر في الصومال ذهباً وخبزاً، وتنبت بمعجزة بساتين مثمرة وتتحول الأسرة الدولية إلى أسرة متحابة عادلة أصيبت بالرحمة فجأة ونبذت العنف واستأصلت أسبابه، واتفقت على توزيع ثروة الكوكب بالعدل على الناس، بالطبع هذا يأتي في باب الأمل، أمل إبليس بالجنة كما يقول المثل الشعبي، وهذا الإبليس لا يشبه إبليس صادق جلال العظم في كتابه «نقد الفكر الديني». وبالتالي هو أمل مَن مثلي أيضاً، أمل العاجز عن فعل شيء عملي في مواجهة القتل الذي يمارسه بشري له اسم رحيم لا يعكس فعل القتل، وآخر له اسم مرعب، الجوع، لذلك الجأ لأسباب العجز فقط إلى الكتابة كنوع رديء من المواجهة الشخصية مع من أذلني.

***

لا أدري ولست في الموقع الذي تتسرب إلي فيه معلومات من الذين بيدهم مصير العالم ومصيري، والذين بغالبيتهم على ما يبدو لا يقيمون وزناً للموت الناجم عن القتل أو عن الجوع إلا في سياق حسابات تعني مصائر دولهم وشركاتهم. أنا شخصياً استطيع توصيفهم بما يليق بموقفهم، استطيع القول انهم فاقدو الأخلاق وبعضهم عراب للقتلة وبعضهم قاتل. أما هم في التداول اللفظي والكتابي فرؤساء وحكام ودول على هوامشها منظمات تجميلية لسلوكها، كمنظمة حقوق الإنسان وسواها. ليس هذا ما أريد الوصول إليه، الذي أريد قوله إن أشياء كثيرة قد تحدث وتتبدل وأنا بصدد هذه الكتابة: قتل إضافي ومجازر إضافية وكلام شجب إضافي وضغوط إضافية، لعل الأمور تذهب إلى حيث يرغب القاتل في أن تصير، اقتتال الطوائف ليبرر أسلوبه في القمع مراهناً على وقت يكسبه للمزيد من الفتك، ما يضمن احتمال بقائه لانتقاء البديل. أشياء كثيرة لم تكن في الحسبان ممكن حدوثها ومواقف كثيرة قد تتبدل، ما عدا قناعتي بأن السجون التي بناها المستبد المدني بكل أشكالها، سيعيد بناءها مستبد ديني تسرب مع الثورات والذي بشكل ما هو من نتاج سلفه، أو على الأقل تعاظم شأنه في زمن سلفه كضحية من جملة الضحايا، أو جعله بمكر، نموذجاً معلباً ومضبوطاً كان يهدد به حين تلوح في الأفق بوادر تغيير يهدد بقاءه. وكان يظهره في مواجهات يفتعلها بخاصة في الحروب اللبنانية. إذاً هذه السجون سيعيد بناءها مستبد ديني إذا لم يتم الخروج من السجن القديم الذي لا نوافذ له سوى على الخرافة والغيب. هو سجن العقل الذي سجانه غير مرئي، وإن تجلى بملتح هنا أو بعمم هناك. لذا التعامل معه يستدعي جرأة مضاعفة بالقياس إلى جرأة المنتفضين الذين يواجهون بلحمهم الحي الدبابات، هي جرأة العقل في التمرد على سجانه.

***

وعد العاملون في الكهنوت الناس بالجنة تعويضاً عن العوز المهين في الدنيا، وارتضى بعضهم هذا الوعد إرضاء للرب في امتحانه لعبده. وحين جاء حزب البعث وعد الناس أو الجماهير في المصطلح الحزبي، بالجنة على الأرض مع مفعول رجعي لمن ينتسب. تأجل قيامها بفعل الانصراف القسري للقضية الكبرى تحرير فلسطين، وما يتبعها من منازلات مع الإمبريالية العالمية، وما يمليه ذلك من الانخراط في جبهات كجبهة الصمود والتصدي وصولاً إلى دول الممانعة، وكلها تسميات تشبه الصفة المشبهة بالأفعال، لا فعل فيها سوى الاجترار، وارتضى الناس هذا التأجيل ليس إرضاء للحزب، بل لأن كل معارض لأولوياته يصبح نزيلاً في أول صرح بناه في جنته الأرضية وهي أقبية التعذيب.

***

ولزمن طويل كان الناس ضحايا هذه الوعود، السماوي منها والأرضي، سلبوا أدنى حقوقهم في العيش، حتى في حدودها الدنيا. وهذا الصبر الذي بدوا عليه لنصف قرن، لم يكن سوى صمت من لا يجرؤ على الصراخ لإدراكه أن ثمن صراخه سيكون أكثر ألماً من الآم القهر، لكن هذا القهر الضاغط يومياً حتى الاختناق أدى إلى هذا الانفجار. ما حدث هو أشبه بجمر مدفون تحت الرماد توهج في العاصفة وأشعل الحرائق، وهذا يعني أن الخروج بدأ ولم يعد من خيار سوى مواصلة هذا الخروج من نفق طال المكوث به. وأيضاً لهذا الخروج أثمان باهظة، فالذي مكث في السجن خمسين سنة سيتعثر كثيراً في طريقه إلى الحرية، وقد يخسر الكثير في رحلته هذه، ما عدا كرامته وأمله وانتصاره على الخوف.

كل هذا في باب الكلام الذي يسعى لمواكبة هذا الخروج العظيم من «الألكتراز» الذي سيكون ثمنه باهظاً لأن السجان سيذهب إلى آخر الاحتمالات الدموية كي لا يصبح هو السجين.

بيروت ■

ريم مجاهد

سأذهب للغداء في بيت صديقتي

يوميات في الثورة اليمنية

في أواخر ديسمبر 2011 كنت في قريتي الواقعة في الجنوب، وبينما كنت أعد طعام الافطار، سمعت من المذياع خبر حرق البوعزيزي لنفسه، وكيف أن هناك مجموعه من الشباب اتخذوا موقفا بسبب هذا وثاروا غضبا، تجاوزت الخبر إلى النشرة الرياضية، ما الجديد في أن يحرق شاب نفسه بسبب البطالة والذل؟ إن هذا يحدث دوما في وطني.

لا توجد كهرباء في قريتي وبالتالي لا يوجد تلفاز، لذا فقد فاتتني أولى الصور، لكن في صبيحة اليوم التالي سمعت أن سيدى بوزيد كلها تنتفض، هنا لم يعد يهمني ماذا فعل المانشستر، أحسست ببعث ما. بعد هذا بأيام قليله انتقلت إلى صنعاء في رحلة البحث عن عمل، وفكرت بأنى يمكن أيضا أن أحرق نفسى ذات يوم، فما الفرق بيني وبين البوعزيزي؟ أنا أيضا عاطلة عن العمل!

بدأ أن البوعزيزي لم يشعل تلك النار في جسده، بل في قلوب الملايين وكنت أقف متحمسة متقده أمام شاشة التلفاز، وأدير النقاشات مع هذا وذاك، هل بإمكاننا أن نضع ثوره؟ لم تكن بعد معالم ثوره تونس قد أتضحت تماما، إلا عندما أعلنت االمذيعة ليلى الشيخلى من قناة الجزيرة أن زين العابدين قد هرب!

كان بن علي متأخرا جدا حين فهم البطال والمحتاج، لكن تأخره ذاك جاء في مصلحة الملايين، سرت نار البوعزيزي عبر البحار وعبرت من أفريقيا إلى آسيا، وباستطاعتها الأن أن تجوب العالم. فر بن على. واحتفاء بهذا الحدث خرجنا في اليوم التالي صوب السفارة التونيسة، كنا طلاب وناشطين وكتابا وأناسا عاديين مثلي، لم نكن نتجاوز العشرين، وصلنا إلى حيث السفارة التونيسة، وهناك كانت أول مواجهه لنا مع الأمن، لا أتذكر بالضبط سبب المواجهة ، فجأه بدأ الصراخ ووقفت "توكل كرمان" التي حازت بعدها على نوبل، أمام بوكس العسكر صارخه إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر، كنا كثيرين لكني أتذكر ثلاثة من الأسماء، دخلت في اشتباك مباشر: توكل كرمان، عبد روس، النقيب عضو البرلمان، والناشطة بلقيس اللهبي.

تردد بيت أبو القاسم الشابي طويلا، مستفزأ رجال الأمن الذين عرفوا بالتأكيد ماذا حل بزين العابدين بن على، وبالطبع كانوا فائقين.

سألتهم بلقيس يومها إن دخلكم الشهري لا يتعدي المائة دولار ومهانون فلماذا تستعدون للقتل



في سبيل من جعلكم بائسين هكذا؟ كانت ردودهم فظة جدا وقاسيه، وكانت مصر، مصر أم الدنيا، مصر التي نتبعها نحن تاريخيا وعاطفيا، في ثورة مصر كان كل شيء مبهرا وأخاذا بالنسبة لي ميدان التحرير يجب أن يكون قبلة الحرية بعد يناير2011

نزول الشارع

مع نهاية يناير بدأ نزول الشباب إلى الشوارع وتم اعتقال عدد من الناشطين. انتهى يناير وبدأ فبراير وقد أرخ لثورتنا في الثاني من فبراير حين أحتشد الآلاف في المدن اليمنية المختلفة، وفي 16 يناير سقط أول شهيد في الثورة اليمنية السلمية: محمد علي شاعن وكان ذلك في المنصورة عدن!

أعتقد أن الدم يصنع ثورة مثلما يصنع خوفا وألما بعد سقوط أول الشهداء أصبحت مسؤولية الجميع أن يخرج انتصارا لدم الشهيد.

كنت قد نزلت ساحة التغيير منذ بداية فبراير حين كانت الحشود عبارة عن طلاب وشباب ولم يكن الكثير قد آمن بهم، إذ كان الشارع يسخر منهم ويصفهم بالمقلدين والمجانين..

هل تقلد الثورات؟

نعم لكن ليس بتفاصيلها القصوى!

كان هناك رعب منتشر من حرب طاحنة، في بلد قطع السلاح فيه ضعف عدد السكان والمدنية فيه شبه غائبة تحضر عوضا عنها القبيلة بثقل كبير ومسيطر، وحيث هناك تطرف ديني وطائفي، ودعوات لانفصال الجنوب عن الشمال، وفقر مدقع، وفساد مستشر، وأسوأ من ذلك: جهل شبه تام! كان لديهم الحق في الرعب والرفض فاحتمال أن تنشب حرب أهلية وارد، إذ ذاك سوف تمحى البلد في أيام. وهنا تفرد ثورتنا!

كانت الدعوات والتأكيدات على سلمية الثورة وخلوها من السلاح تحاول طمأنة المتخوفين وفي العالمين الافتراضي والواقعي كانت هناك بداية ثورة حقيقية، حلمنا معها أن تنتهي هذه المرحلة وأن تبدأ مرحلة جيلنا: دولة مدنية. هذا المطلب الذي أصرينا عليه من البداية حتى النهاية.

في ساحة التغيير الواقعة أمام بوابة جامعة صنعاء مباشرة يوما بعد يوم ازدادت الحشود: هذه الوجوه الهزيلة وهذا الأمل الطافح وتلك الشعارات والنقاشات كانت تقول أن لنا ثورتنا الخاصة وأننا لسنا مقلدين بالكامل: في مقهى إنترنت بجانب الساحة كتبت أول منشور في حياتي تحدثت فيه عن: لماذا يجب أن تكون هناك ثورة؟ الأرقام عن الفساد والبطالة والأمية والوفيات والفقر كانت مرعبة ولا مثيل لها لا في مصر ولا تونس. كان يجب أن تكون هناك ثورة تمسح كل هذا تلغي ليعود بلدنا يمناً سعيداً كما كان.

بعد سقوط أول شهيد كانت لدينا أول جمعة: جمعة البداية في 2011/2/18 في مجتمع كمجتمعنا تخرج الفتاة إلى الجامعة مع كتاب من المحاذير هل يمكن أن تخرج الفتاة إلى ثورة؟

كان هذا تحديا رهيبا. في أول جمعة كذبت عليهم في المنزل وأخبرتهم أني سأذهب للغداء في منزل صديقتي لم يكن ليسمح لي أحد بأن أنزل إلى ساحة ثورة، ليس خشية أن أموت، فحسب، بل خشية ما سيقوله الجيران والأهل والمجتمع، لقد حاربنا لأجل هذا طويلا!

جلبنا معنا غداء للمعتصمين ليس من شعور أجمل من هذا: هؤلاء الذين يواجهون جميع المخاطر نحن معهم وسنقتسم معهم رغيف العيش!

ما أن تدخل حدود الساحة حتى يتغير كل شيء حتى الهواء: لدى الوجوه بريق غريب وكائن من كنت سيبتسم لك الجميع وسيرحب بك، ما من كلمة بذيئة وما من معاكسة أو تحرش يتلقفك الشباب ببهجة ويرفعون من روحك المعنوية، وفي كل الاتجاهات كان المصلون وبينهم المصورون والداورون لتقديم أي مساعدة، الموزعون للماء المبتسمون، وفي لحظة انحنى الجميع في سجودهم وهييء لي أنني أقف في مركز الأرض.

أيا كانت جنسيتك ستنساها وستحس بالفخر والتماهي الإنساني، وأجزم أنه لوكان هناك كائن فضائي يشاهدنا من على كوكب ما كان ليتمنى أن يكون بيننا.

بعدها تتالت أيام الجمع وتوالى سقوط الشهداء، وكانت ساحة التغيير في صنعاء رمزا لكن الأخبار كانت تأتينا من تعز بوقائع تشعل الحماسة وتزيد الفخر: تعز الحالمة، كما تسمى، معقل الثقافة اليمنية ومعقل الطبقة الوسطى المثقفة، أسست ساحة الحرية بشباب ناشطين حالمين لا يوقفهم المدى.

أما عدن التي كانت تسعى نحو الانفصال فقد أكدت أنها مع الثورة السلمية وأن عدوها هو عدو الشباب.

مارس

18 مارس أو جمعة الكرامة، كل شيء كان يسير في مجراه الاعتيادي جمعة وصلاة وهتافا مضادا في طرف آخر من المدينة، والكل يترقب أخبارا جديدة. وأمام شاشة التلفاز كنا نتناول الغداء حين بدأ إطلاق النار وكنا نسمعه بوضوح، وبدأ النقل المباشر لمجزرة مروعة، كان مرعبا ما يحدث وأكثر إرعابا أن ينقل إليك ذلك مباشرة، وفي الصور الوجوه الدامية والرؤوس المثقوبة والصدور الممزقة، رقم يرتفع ويتزايد كأنه في البورصة: ثلاثة قتلى ستة عشرة عشرون ثلاثون، بالطبع أنا لن أحكي عما شعرنا به ذلك اليوم ولا كيف نمنا تلك الليلة لكني سأستعيد تساؤلا ما زال يلازمني منذ ذلك النهار: هل ينظر القناص إلى عيني فريسته وعلى أي أساس اختار القتلة ضحاياهم في ذلك اليوم؟

في اليوم التالي انضم إلينا علي محسن الرجل الثاني القوي في البلاد وقائد الفرقة الأولى المدرعة في الجيش، وطرح السؤال: هل صار، الآن، هناك سلاح؟ نعم لكننا نرفض استخدامه! في الأيام التالية صار كل ما نسعى لأجله هو التأكيد على سلمية الثورة.

سلمية سلمية

أكثر ما أحبه من ذكريات الثورة هو اللحظات التي كان يصل فيها شباب القبائل إلى ساحة التغيير يرددون الأهازيج ويؤكدون التزامهم بالسلمية وتركهم السلاح، بل ويخبرونا: سنكون في الصفوف الأولى وسندافع عنكم، سنحميكم وسنتصدى للرصاص.

هؤلاء الشباب شبه أميين عاشوا مع السلاح ومع ثقافة القبيلة لم يتحدثوا إلى امرأة خارج عائلاتهم، كنا حين ندخل عليهم خيامهم يهبون لاستقبالنا ويؤكدون ثقتهم بنا وفخرهم بنا ورغبتهم في أن نعلمهم ما نعلم.

أحداث لا تنسى

بعد مجزرة الكرامة صار كل شيء متوقعا، وبعد أن كنا نعتقد أن الثورة لن تطول صار واضحا أنها ستطول كثيرا، وكنا نخشى في ما نخشاه أن نتحول إلى السيناريو الليبي، وكان يبدو أننا في طريقنا إليه.

أصبح في العاصمة صنعاء ساحتين وجمعتين في كل أسبوع: ساحة التغيير وشارع الستين للثوار، وشارع السبعين لمؤيدي النظام وهذه المئات من الآلاف تلتقي يوميا في الحافلات والشوارع وأمكنة العمل والأسواق ويمكن في أية لحظة أن يتشاجر اثنان فحسب وأن يؤدي ذلك إلى مجزرة أو بالأحرى مجازر.

في 27 أبريل كان هناك اليوم الدامي وما عرف بمجزرة ملعب الثورة. انطلقت مسيرة حاشدة وهناك ووجهت بالرصاص وبعصي البلاطجة. في ذلك اليوم استشهد صديقي ناصر فدعق ذو الثلاثة والعشرون عاما واستشهد معه العشرات. كيف بإمكانك أن تخبر عائلة شهيد بأن ابنها لن يعود أبدا؟ هذا ما كان عليه تلك الليلة أصدقاء ناصر.

في صنعاء كانت هناك ثورة ومبادرات وتحركات سياسية محتدمة واستقطاب والمزيد من الخداع والكذب وتمويه الحقائق، فما كان يبثه التلفزيون الرسمي كان يناقض ويكذب بشكل تام ما تقوله قناة سهيل التي عرفت آنذاك بـ"قناة الثورة" حتى أن مشاهد لجثث وقتل كان يتم أيضا التكذيب فيها من الطرفين: أي إذا قالت القناة الحكومية أن هناك جنودا قتلوا في مناطق صدام كذبتها قناة سهيل، وبالمقابل القنوات الحكومية ترفض الاعتراف بشهداء الثورة.

كانت المسيرات تجوب الشوارع ورسمت لها مناطق محددة درءا للاشتباكات، مسيرات من دون عصا من دون حجر، بل كان الشباب يأخذون بأيديهم الورود ويسلمونها لجنود الحرس الجمهوري المتمركزين في الشوارع المحيطة. كان هذا من أروع مشاهد ثورتنا، إذ ليس باستطاعة الجندي بعد ذاك شهر سلاحه وقتلك طالما في يديه وردتك!

أعتقد أن جنودنا لم يكونوا قتلة وكما في مصر كانت مشكلتنا هي البلاطجة، رجال ولدوا للعنف يستوردهم النظام ويدفع لهم كي يقتلوا ويفعلوا ذلك بكل بشاعة.

تلت مجزرة ملعب الثورة ما عرف بمجزرة رئاسة الوزراء: مسيرة حاشدة قوبلت بعنف كبير وسقط شهداؤنا شبابا بعمر الورد، صورهم، اليوم، بابتسامات لن تكبر أبدا في مواقع التواصل الاجتماعي، وفي الساحات، وعلى السيارات، كانوا هؤلاء طلابا في المدارس والجامعات وستظل دفاترهم وأزياء مدارسهمن فلن تبلى كما لن يكبروا.

كانت المدن اليمنية تتآزر وتصبح شعارا واحدا فشهداء صنعاء هم شهداء تعز وإب وعدن وحضرموت وكل الوطن وهذا ما حدث بعد حرق ساحة الحرية في تعز.

ساحة الحرية

تعز على الدوام شوكة في حلق النظام، كانت ساحة الحرية من أنشط ساحات الثورة وأكثرها عنفوانا واستقلالا وحضورا، في ليلة التاسع والعشرين من مايو بدا كأن الحقد أعمى النظام: في منتصف الليل اقتحمت الآلة العسكرية ساحة الحرية مبيدة كل ما في طريقها؛ اقتلعت الخيام وأشعلت النار فيها وفي ساكنيها، كان هناك نداءات تنطلق من مكبرات الصوت تنبه إلى أن هناك جرحى ومعاقون في الخيام، لكن العملية استمرت واحترق أولئك مع خيامهم. وأمام هذا ما من شيء ليقال، تسمرنا أمام شاشة التلفاز برعب وكنا نبلغ الأصدقاء بالخبر عبر الهواتف، فكالعادة كانت غالبية أحياء صنعاء ترزح تحت الظلام.

اليوم التالي للمذبحة بدا كما لو أن كل الشوارع تئن: تعز! هذه المدينة التي ترفد الوطن بأبنائها الخيرين العاملين في كل زاوية فيه كانت تستنجد من حقد رهيب سلط عليها ومازال مسلطا.

في كل المدن اليمنية هب الناس نصرة لتعز وفي صنعاء صرخنا في الطاغية حتى بحت أصواتنا: لن تنال من تعز أبدا فتعز أيضا هي الوطن كله!

تعز تعرضت بعد ذلك في نهاية سبتمبر وبداية نوفمبر لقصف عنيف حاول معها النظام إركاع المدينة التي لا تركع، وفي تعز سقطت أولى شهيدات ثورتنا السلمية: عزيزة. استشهدت برصاص قناص بينما كانت تشارك في مظاهرة.

الحصبة الأولى

على جانب آخر كانت العملية السياسية تسير بنمطها المعتاد: مبادرة خليجية برعاية أميركية، رفض للمبادرة من قبل النظام أو اللقاء المشترك. وعلى الأرض ما من أحد فينا كان ليفكر بمبادرة أو حل سياسي، في أعناقنا كانت دماء الشهداء طرية وعلى أيدينا.

بعد حرق ساحة الحرية بدأ ما عرف بحرب الحصبة الأولى، والحصبة منطقة في صنعاء يتمركز فيها رجال إحدى أكبر قبائل اليمن "قبيلة حاشد" ويتزعمها أولاد الشيخ الأحمر الذين كانوا على علاقة ودية ومصالح مشتركة مع النظام السابق ثم انقلبوا عليه معلنين تأييدهم للثورة السلمية وتخليهم عن السلاح وقبولهم بخيار الدولة المدنية.



انفجرت الأوضاع في الحصبة بين رجال هؤلاء المشايخ وبين الجيش النظامي ومعه رجال قبائل مواليين للنظام، كنا ننتقل إلى السيناريو الليبي وبرعب لا محدود.
الحرب لم تكن رصاصا فحسب، في المدن اليمنية وبالذات في صنعاء واجهنا عقابا جماعيا رهيبا عشنا شهورا طويلة على ساعة واحدة أو ساعتين من النور، وأحيانا بدون كهرباء بالمرة، وفي اللحظات التي كانت تنير فيه منازلنا كنا نتجمع في صمت مهيب أمام القنوات الإخبارية، حاول المقتدرون من الناس تعويض ذلك بشراء مولدات الكهرباء، لكن جاءت حرب المشتقات النفطية. كانت الحركة شبه منعدمة وطوابير السيارات تمتد لشوارع كاملة أمام محطات تعبئة البترول، ثم حرب الماء، كنا نجلب الماء إلى المنازل بأسعار خيالية، ثم اختفى الأمن من الشوارع وأغلقت الطرقات بفعل المتاريس وأصبحت صنعاء مدينة غريبة.
ورغم هذا أبت صنعاء إلا أن تكون مذهلة، فرغم الظلام الحالك ورغم الانفلات الأمني ورغم التوتر ورغم السلاح المنتشر لم تسجل قط حالات نهب وسلب أو قتل وسرقة ظل الناس يحاولون العيش كما كانوا ويأملون نهاية لكل هذا العذاب الذي يمرون به.
في الثالث من يونيو كانت صنعاء تغلي والرصاص يلعلع في سماء المدينة والأخبار يتناقلها الأفراد، من دون تأكيد، عن اعتداء على منزل الشيخ القبلي ورجل الأعمال حميد الأحمر، وعن اشتباكات في الشوارع. وعند الظهيرة كان كل شيء غير مفهوم مع أصوات الانفجارات الضخمة التي راحت اصواتها تهز العاصمة والتي لم يعد بالإمكان تمييز مصدرها، لكن وقتا قصيرا مر حتى أصبح شريط عاجل في القنوات الإخبارية يتحدث عن محاولة اغتيال للرئيس السابق، ثم أنباء عن مقتله، في ما عرف بحادثة قصر الرئاسة.

ماالذي يحدث؟

ماذا يحدث في صنعاء؟ من وكيف ولماذا ومتى وأين؟ الأخبار كانت متناقضة وغير منطقية: مات الرئيس لم يمت! انقلاب ليس انقلاب! أولاد الشيخ الأحمر هم الفاعلون كلا هو علي محسن! سيرد الآن أحمد علي عبدالله صالح قائد الحرس الجمهوري على ما حدث كلا لن يفعل!
قبله بيوم كانت الحصبة تشتعل ومبنى طيران اليمنية احترق بالكامل وصار رمادا مثله مثل مبان حكومية أخرى..
من الحصبة انتقلت المعركة إلى أرحب شمال العاصمة صنعاء كانت المواجهة عنيفة بين رجال القبائل الذي حاولوا الإستيلاء على أحد معسكرات الحرس الجمهوري وبين الحرس الجمهوري، استخدم الحرس الجمهوري الطيران فتشرد الناس وسكنوا الكهوف وسقط عشرات القتلى الذين لم ينتبه إليهم لأن الضوء كان مسلطا على العاصمة..
كان واضحا أننا في طريقنا لحرب طاحنة في ظل أوضاع اقتصادية في الحضيض وفي ظل غياب كامل لأي من مؤسسات الدولة، كنا نستعد لموت محتوم.

غادر الرئيس السابق إلى السعودية ومعه زمرته التي جرحت معه، وبينما احتفل البعض باعتباره انتصارا قرر البعض أن هذه كارثة وأن النهاية ما كان يجب أن تكون هكذا، لكنها لم تكن النهاية.
كنا في حالة من والوضع المأساوي لا سيما افتقارنا إلى الكهرباء ومشتقات النفط وقد ارتفعت أسعار المواد ضعفين وكذلك أجرة المواصلات ارتفعت بأكثر من الضعفين ونزح العديد من الناس عن المدينة.
في السابع من يوليو 2011 كان الجنوبيون في الوطن يحتفلون بذكرى انتصار الشمال عليهم في حرب الانفصال. بالنسبة لهم كانت تلك ذكرى مؤلمة وكان الغضب قد استشرى في أوساط الجنوبيين بسبب المعاناة التي جرعهم إياها النظام، والتهميش الذي لاقوه منه، كنا نحتفي بتلك الذكرى متسائلين عما سيكون عليه الوضع في الجنوب بعد انتصار الثورة، حتى فوجئنا في المساء بأصوات الرصاص والألعاب النارية وعلى شاشة التلفاز كان هناك وجه محروق بالكامل يتوعد!
انتظر علي عبدالله صالح تاريخ 7/7 لما له من دلالات وظهر ليؤكد أنه حي وأنه سيعود وسيحاسب من حاولوا قتله وسيحكم أيضا.
وبظهوره على الشاشة قتل عشرة أشخاص على الأقل، وأصيب المئات وذلك في احتفال بالرصاص الحي نفذه مؤيدوه ومعسكراته!
مضى يوليو وجاء سبتمبر الدامي، سبتمبر 2011 الشهر الأكثر دموية في تاريخ الثورة اليمنية في 18 سبتمبر خرجت مظاهرة حاشدة اتجهت إلى جوار جامعة صنعاء القديمة.
كنت أعرف عن المظاهرة، لكني لم أخرج وبينما كنت نائمة حوالي الساعة الرابعة والنصف عصرا أفقت مذعورة على أصوات الرصاص المنهمر، كنت أحاول معرفة من أين ولماذا لكن لا توجد كهرباء. اتصلت بي صديقتي صارخة أن الشباب يقتلون في منطقة قاع صنعاء المجاور.
استمرت المواجهة خلال الأيام التالية: في اليوم التالي حدثت مجزرة كنتاكي. كان الرصاص ينطلق من كل أرجاء المدينة وأصوات المتظاهرين المنددين بما حصل في الليلة الماضية تصل إلى المنازل، والكهرباء منقطعة أغلب الوقت، لكن حتى القابع في المنزل كان يمكنه أن يستشعر ما يحدث في الخارج، فلم تعد الأصوات ازيز رصاص وحسب، بل انفجارات ورشاشات وتكبيرات ونداءات استغاثة متواصلة. وحين عادت الكهرباء كان ما يبث عبر الشاشات مروعا: شبان بدون وجوه! أو بصدور ممزقة بالكامل وأحشاء قد اندفعت إلى الخارج!
أية قوانين تلك التي ستتناسى هذا وتمنح من فعل ذلك حصانة أو عفوا؟
والسؤال الأول الذي راح يتردد أي سبب يدفع بشري لأن يفعل بأخيه البشري هذا؟ كيف يمكن لأحد أن يصوب قذيفة الآر بي جي إلى صدر شاب هزيل؟ ألا يتذكرون قبلا أن لهؤلاء أحلاما وحياة يريدون أن يعيشوها؟ ألا يتذكر القتلة أمهاتهم ليتذكروا بالتالي أن لدى هؤلاء أمهات أيضا؟
في جمعة الكرامة نظر القتلة إلى عيون ضحاياهم وفي مجزرة كنتاكي بدا كأنهم يعبثون فحسب،

ظلت المواجهات طوال اليوم وكانت الصور تعبر عن وضع وحشي للغاية. كنا نبكي في نوع من الهستيريا وندعو بيأس وهلع، والأعداد تزداد، والأخبار تقول إن المستشفيات المعتادة استقبال جرحى الثورة، قد فاضت ولم تعد تستطيع استقبال المزيد، وأن المشافي الأخرى ترفض استقبالهم والجميع ينادي طلبا للمعونة والدعم.

عودة الطاغية

كنت أخشى شيئا واحدا: أن نعتاد مشاهد القتل! كانت مجزرة كنتاكي قد أعطت المشاهد جرعة من اللاإنسانية غير مسبوقة أبدا في مجتمع كمجتمعنا وبدا أن الناس ضاعوا، فبينما بثت قنوات العالم تلك الصور أصرت قناتنا الحكومية على أن تلك صور مفبركة وأن تلك الجثث لأناس قتلوا في أرحب قبل فترة! ما الذي يمكنك أن تقوله إذ ذاك؟ أنا بكيت، فقط. بكيت وأنا أشتم!
كانت الطائرات تحلق وأصوات الانفجارات والرصاص لا تتوقف، وأعداد الشهداء ترتفع في لحظات قصفت الأحياء السكنية، وقد دمرت الشوارع وأصبحت الحصبة منطقة منكوبة حيث كان الناس يفرون ويموتون أثناء فرارهم.
ويبدو أن كل شيء كان منظما ومخططا له، فبعد خمسة أيام أي في 23 سبتمبر عاد صالح منتصرا من السعودية، وفي صباح عودته راح الوضع يزداد سوءا. لم نكن نستطع النوم ولا الخروج، وفي الليل كنا نشاهد الأضواء على أسطح البنايات: كان القناصة ينتشرون في كل مكان.
استمرت المواجهات لأيام، وحين بدا أنها انتهت، خرجنا إلى الشوارع، لم أصدق عيني: المتاريس كانت تقسم العاصمة صنعاء إلى مناطق حرب وآليات الجيش تنتشر في الشوارع، وبين كل متراس وآخر أقل من كيلو متر واحد، والجنود بدوا متأهبين تماما: جنود الفرقة الأولى مدرع أو الجنود الحامين للثورة، وجنود الحرس الجمهوري جنود النظام لمرحلة جديدة من المواجهات.
كانت الدعوات إلى التسلح قائمة ومتواصلة ومن بعد جمعة الكرامة في مارس بدا أن ذلك الخيار سيطرح لا محالة، لكن إصرار الشباب على جعلها سلمية حال دون ذلك.
بعد هذا تم التوقيع على المبادرة الخليجية، وكتبت لي صديقتي: يرشون عرقنا ودماءنا على ورق. كتبنا كثيرا: لن ننسى لن نسامح، وتوعدنا بمحاكمة من سرق وجوه الشباب ومزق ملامحهم، لكن الذين لا يعيشون بيننا ولم يفقدوا أصدقاء كانوا يستغربون نقمتنا على الحل السياسي: من قتل ودمر ونهب وسرق وأعاد البلاد نصف قرن إلى الوراء أعطي حصانة وسيعيش سعيدا في قصره، بينما لن تعرف الأمهات من الذي قتل أبناءهن ولن يعرف الأطفال قاتلي آباءهم.

صور عظيمة

الشعب الذي لديه خمسين مليون قطعة سلاح ولم يستخدمها طيلة عام من الثورة شعب عظيم. والشعب الذي تحكمه القبيلة وارتضى بقيادة الشباب الثائر شعب عظيم. والشعب الذي ظل من دون مؤسسات ولم يتأثر شعب عظيم. والشعب الذي انقسم جيشه نصفين ولم يقتتل شعب عظيم. والشعب الذي عاش من دون كهرباء ولا ماء ولا بترول ولم ينهب أو يسرق شعب عظيم. الشعب الذي استقطبه السياسيون فقسموه مناطق وطوائف ومذاهب ولم يذبح بعضه في الحافلات شعب عظيم. إن خصوصية ثورتنا تنبع من خصوصية شعبنا، لقد نبذنا العالم ووضعنا في ذيل قوائمه، ولم يأبه لنا، لكنا عرفنا أنا لسنا بحاجة أحد، وأننا نستطيع تغيير أقدارنا بأنفسنا، ولقد حاولنا واستعدنا ثقتنا بمقدرتنا، الشاب الذي يخلع قميصه ويكتب على صدره سلمية ويرفع يديه بلوحة كتب عليها: أريد دولة مدنية! لن ينسى هذا وسيعلمه لأولاده، سيخبرهم كيف استنشق الغاز وحرقته الشمس، وكيف فقد أصدقاءه في سبيل أن يولد هو في ظل دولة القانون والمؤسسات، ولن يعانوا مثله، لن ينسى هذا الأب كم ضحى هو وسيكمل المسيرة من خلال ابنائه. والمرأة اليمنية التي نقلوا عنها الصورة النمطية، صورة المرأة في مجتمع قبلي محافظ لا يعرف الشارع وجهها قالت: أنا لست هذه! وأثبتت أنها تستطيع فعل ما تفعله أية امرأة أخرى في أي مكان، والثورة التي كسرت ذلك الحاجز ستكسر أيضا حواجز أخرى فالمرأة اليمنية الآن تسعى لنيل حقوقها في ظل تغير موازين القوى وصعوبة التحديات، وستنتزع حقوقها بالقوة السياسية كما بدأتها بالقوة الثورية.
تحية لكل الشعوب المناضلة، تحية لمن يسعى إلى الحرية والكرامة والعدالة الإنسانية والاجتماعية، تحية لشعوبنا العربية التي مازالت تناضل والتي ناضلت وتحية للتي لم تبدأ بعد: أفيقوا أيضا فقد سئمنا كوننا في ذيل العالم وسئمنا سيطرتنا على الأخبار في كل النشرات. ■

***

اقرأ باسم شهيدات مدينتنا الأنثى بين المدن اليمنيةْ، والمزروعة في فَلَكِ الثورة؛ مثلَ الشمس...
سيِّدةِ الدهر؛ وأعتقِ رحمٍ يَلِدُ الضوءَ وأصْبَى كوكبْ
تاءٌ: "تفاحةُ" فاكهةُ ربيع الرفض الأخصبْ..
عينٌ: في البدءِ؛ "عزيزةُ " فاتحةُ كتابِ الحرِّيَّةْ..
زايٌ: "زينبْ"...أنثى من دمها تتخضَّبْ..
تاءٌ؛ عينٌ؛ زايٌ..تعزُ أيقونتنا الأبهى وقبيلتنا العصريَّةْ..
تعزُ البحرُ ؛وتعزُ المرسى؛ تعزُ الدينُ وتعزُ المَذْهَبْ
تعزُ هُوِيَّةْ..
تعزُ الأرقى؛ تعزُ الأبقى؛ تعزُ الأصلبْ.

الشاعر صلاح الدكاك

* تفاحة وعزيزة وزينب: شهيدات الثورة في مدينة تعز.

أسماء الغول

في كره الربيع العربي وحبه

هم استمروا ونحن أقعدنا الهلع

هكذا بدأ يومي، فتحت التلفاز فوجدت اثنين يتشاجران ويتبادلان الشتائم في مصر، إعلامي من حزب الحرية والعدالة وقائدة ميدانية من المعارضة. غيّرت القناة لأجد اثنين يُخَوّن كل منهما الآخر ويكيل كل منهما السباب للآخر في تونس، أحدهما من حزب النهضة والآخر من المعارضة العمالية. غيّرت القناة فإذا بالموت والقصف وتصريحات تطمع بسلطة لم يأخذوها بعد في سوريا، وغيّرت القناة مرة أخرى فوجدت أحزاباً في غزة تحتفل برجوع قادتها وكأنه ليس لها شعب وتاريخ وعلم واحتلال واحد، و"بعدين" قررت أن أدخن سيجارة وألعن الربيع العربي، لكنني سرعان ما تراجعت عن هذه الخطيئة، ليس خطيئة التدخين بطبيعة الحال، بل خطيئة لعن الربيع العربي!

فكّرت كيف لي أن أفعل ذلك وأنا من أولى المؤمنات به، فأنا التي قرَضَت أظافرها ندماً لأنها لم تبقَ في مصر يوما واحدا، حين غادرتُها يوم 24-1-2011 إثر غلبة حسي العائلي على حسي الصحافي، فقد أوصلت شقيقاتي إلى غزة خوفاً عليهن ولم أستطع العودة إلى مصر، فبقيت منذ لحظة قيام الثورة ملتصقة بالتلفاز أراقب ما يحدث. وقبل ذلك، عند بزوغ تباشير الياسمين في تونس التي دفعتنا في غزة إلى أول مظاهرة علنية في الخامس من ديسمبر 2010، حين تشجعنا وخرجنا ضد إغلاق حكومة حماس منتدى شارك وهي مؤسسة شبابية. يومها قام رجال الأمن بالتنكيل بنا واعتقال ثمانية عشر شابا من بينهم شقيقي الذي هو الآن لاجئ سياسي في أوروبا.

كيف لي أن أفقد الإيمان بما ضحيت من أجله، إذ سرعان ما تم اعتقالي وضربي بعدها مرتين من قبل رجال الأمن والنساء العاملات في مباحث غزة لوقوفي إلى جانب الثورتين المصرية والسورية، إضافة إلى محاولتي مع الآخرين خلق ثورتنا الخاصة، ووقوفنا ضد الانقسام بين الضفة وغزة، رغم أن حجة الضابط أثناء اعتقالي الأول للوقوف بجانب ثورة مصر أنه قلق من إغلاق المعبر الحدودي مع مصر في حال لم تنتصر الثورة، وكان التاريخ يوم ذاك 31-1-2011 ولم يكن مبارك قد سقط بعد. أما أمام بطش النظام السوري بمواطنيه فلم نجد ما يبرر قمعنا حين انتظرّنا رجال الأمن في باحة الجندي المجهول ومنعوا تجمعنا، ولاحقونا في شوارع حي الرمال ذاك المساء، كما فعلت السلطة الوطنية في الضفة الغربية بقيادة الرئيس محمود عباس مع



الناشطين والناشطات حين قمعت المظاهرات الداعمة للثورة السورية، علماً أن حماس نظمت بعد سقوط مبارك أكبر مظاهرة على الإطلاق، ومن ثم سمحت لطلاب الجامعات القريبة منها بتنظيم مظاهرة أخرى موالية للثورة السورية، ولكن طبعا بعد استيضاح موقفها السياسي وخروجها من دمشق.

كيف لي أن افقد الإيمان بالربيع العربي وأنا التي بدأت التدوين واستقلَت من الصحافة وقتها، وحصدتُ الألقاب لأني كتبت عن الثورات العربية وأثرها على غزة، التي تنبه أهلها لاستخدام وسائل السوشيال ميديا أول مرة أثناء الاعتداء على سفينة مرمرة من قبل الاحتلال الإسرائيلي.

كيف لي أن أكره الربيع العربي وبسببه قابلت صدفة الشاب المصري تامر فتحي الذي لم يغادر الميدان لمدة ثمانية عشر يوماً، وأصيب في رأسه أثناء موقعة الجمل في أحد مقاهي وسط البلد في القاهرة وهناك تعارفنا وجمع بيننا حديث الثورة وبعدها الحب وليصبح لاحقا زوجي ووالد ابنتي زينة التي لم تكمل الخمسة شهور بعد.

الربيع العربي شكّل وعيي السياسي العربي الجديد بعيداً عن كل ما أصابه من الشيخوخة من مفاهيم فقدنا الإيمان بها، نحن الجيل الشاب كالقومية والدم الواحد، وأصبح ما يجمعنا الـ "جروب" الواحد، الذي يبدأ في العالم الافتراضي وينتهي في الميادين، ففي اللحظة التي تخرج فيها مظاهرة في سوريا تكون قد خرجت في برلين ولندن ومصر وغزة، ويكون رجل الأمن المتشابه الآخر بينها.

ورغم إيماني بأن الثورات العربية اختلفت عن بعضها البعض، إذ أن مدى حدتها وحسمها يتناسب طرديا مع قمع الحاكم، إلا أن هذه الثورات كانت الفاصل الحقيقي بين أن نفقد الأمل نحن الجيل الشاب بقدرتنا على التغيير للأبد وبين أن نقلب الموازين رأسا على عقب، وهذا ما حدث بالفعل فقد قلبنا الموازين، ليس لأننا قوميون وليس لأننا مسلمون، بل لأننا شرق المتوسط المقموع الذي صحت في شبابه فجأة ذات الشرارة التي أحرقت بوعزيزي، وكنا أقوياء بالحلم كي يتحقق، وهكذا كانت السوشيال ميديا الوسيلة التي أوصلتنا للميدان دون أن نتبادل كليشيهات الأخوة العربية و"الشعب العربي وين"، التي لا تزال تطل على لقاءات وزراء الخارجية العرب والقمم العربية، بل لقد جمعنا شعار التغيير.

كيف ألعن الربيع العربي وأنا التي كلما سافرت إلى بلد نتواعد نحن شباب الثورات كي نلتقي ونتبادل التجارب والهموم قبل أن نرى أفراد عائلاتنا، كيف ذلك ولنا أصدقاء من ثوار سوريا وليبيا ومصر وتونس أكثر مما لنا في بلداننا؟

إلا أن في نفسي ما ينازعها في بعض الأحيان كي يتسابق الحب والكره على هذا الربيع، فحين أجد أن الثورات تأتي بأنظمة تطالب بالشريعة قبل الحرية والإنسان والوطن الذي مات الثوار من أجله أشعر برغبتي في لعنه، حين أجد حكومات ثيوقراطية قمعية مثل حكومة حماس وحكومة مرسي في مصر تركب الثورات، ومن ثم تعطي محاضرات في أصول العمل الثوري فأنا ألعن الربيع العربي الذي بدأه عمال ويساريون وعلمانيون غير منضوين تحت راية حزبية، فلم يبدأه خالد مشعل الذي رفع علم الثورة السورية في زيارته الأولى لغزة منذ العام 1967 بعد أن قذف به أحد المواطنين إليه، وهو الذي ركن إلى حضن النظام الأسدي لعقود طويلة في وقت كان هذا النظام يعدم فيه كل من يثبت انتماؤه لحركة الإخوان المسلمين.

حين يدخل الربيع في حسابات دول ويغير المواقف بناء على مصالح لا تشبه في شيء نقاء هؤلاء الثوار الذين يتساقطون في سوريا ألعن الربيع العربي، حين تأتي بلد مثل قطر أقدم شارع فيها لم يكمل عامه الخمسين مقابل الشام التي تعبق بالأصالة والعراقة لتعلمنا الديمقراطية فأنا أكره الربيع العربي.

صديقي الذي يعمل في مؤسسة حقوقية في أوروبا يتصل بي وفي صوته آثار بكاء يخبرني بالفيديوهات الجديدة المليئة بالموت التي تصله من سوريا، ويسألني ما معنى حياتنا، وربما بالفعل تركت الثورة السورية فينا ذلك السؤال الوجودي القديم؛ ويزداد تأثر صديقي حين يكون الجاني في هذا الفيديو الجيش الحر، ولكن هل توجد ثورة بيضاء؟ لا أدري، هذا أحد أسئلتي للثورات العربية وسبب جديد لأكره الربيع العربي، فقد تعود إجابته لتذكرني بحبه!!.

حين أرى كل هذه المذابح والأطفال المدمين مقابل استمرار شخص واحد اسمه بشار لا يزال يفلسف الأشياء بكلمات أكاديمية لا تقل غباءً عن مبررات من لا يزال يدعمه من المثقفين والمفكرين فإني أكره الربيع العربي، وأكاد أفقد الأمل حتى مع صحة ما قاله لي والدي قبل حوالي العام: "ثورة سوريا أكثر ثورة حقيقية، لأنه رغم كل هذا القتل فإن الناس لا تزال تخرج بصدورها العارية مطالبة بإسقاط النظام". وأنا رددت يومها بأنه بمجرد أن يصبح في كل بيت في سوريا عزاء سيكون من الصعب إسكات الثورة، فـ"الثأر" يصبح جَمعياً من هذا النظام الفاسد الذي كان هزه من سابع المستحيلات.

ولا أنكر أنني حين رأيت بشائر الثورة السورية في تلك الأيام أصابني الغضب، لأن الهشتاج على تويتر الذي كان مقررا لثورتنا في الضفة وغزة هو ذاته الذي كان يستخدمه الثوار في سوريا #15MAR ، فقد خرجنا في يوم واحد الموافق 15-3-2011، لكن هم استمروا ونحن أقعدنا الهلع! ■

مُخْتَارَاتٌ مِن القِصَّةِ الكُرْدِيَّةِ القَصِيرَةِ

ترجمة: جان دوست
مراجعة وتقديم : مروان علي

انتعشت القصة الكردية على يد الشعراء الكلاسيكيين، وكان الشاعر الكردي فقي طيران (1590-1660) صاحب قصب السبق في هذا المضمار. فقد نظم قصة الشيخ الصنعاني شعراً منذ حوالي أربعمائة عام وهي تحكي مأساة أحد أقطاب التصوف وهو الشيخ الصنعاني الذي هام بحب أميرة أرمنية فهجر بلاده لأجلها وارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ثم عاد إلى الإسلام بعد رحلة معاناة طويلة. كما أن فقي طيران نظم قصة من الإسرائيليات تتعلق بأحد نساك بني إسرائيل وهو العابد برسيس أو برصيص ثم نظم حكاية شعبية اسمها الحصان الأسود في قالب شعري جميل يهدف إلى الوعظ والإرشاد. ولعل أشهر قصة كردية نظمت في شعر ملحمي هي قصة مم و زين وقد صاغها الشاعر والمفكر أحمد خاني (1651-1709) وأبدع فيها أيما إبداع حيث تعرف عليها القراء العرب عبر ترجمة أنيقة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. كما نظم الشاعر سليم الهيزاني من القرن الثامن عشر قصة النبي يوسف عليه السلام ومحنته مع زوجة عزيز مصر، ونظم الشاعر سوادي من القرن التاسع عشر قصة مجنون ليلى المعروفة. هذا بالإضافة إلى مئات بل آلاف القصائد الملحمية التي تغنى بها الشعراء الجوالون وحكوا فيها قصص الحب والبطولة مثل قصة العاشقين سيامند وخجى، وقصة ممى آلان التي يعتبرها الباحثون أساس قصة مم وزين، وكذلك قصة المولد النبوي التي نظمها الشاعر عبد الرحمن آختبي من القرن التاسع عشر وقصة لاس وغزال وقصة الأمير ذو الكف الذهبية إلخ..... لكن القصة الكردية بقيت سجينة القوافي والنظم ولم تعرف طريقها إلى النثر إلا على يد العالم الشهير محمود بايزيدي (1797-1867) الذي جمع أربعين حكاية كردية في كتاب نشره القنصل الروسي لدى الدولة العثمانية ألكسندر جابا في بطرسبورغ عام 1880 تحت عنوان (جامعى حكايه يان = جامع الحكايات).

أما القصة كجنس أدبي مستقل فلم تظهر إلى الوجود إلا بعد ظهور الصحافة الكردية واشتداد عودها في أوائل القرن العشرين. ويشير مؤرخو الأدب الكردي إلى أن أول قصة كردية مكتملة الشروط الفنية ظهرت على يد الكاتب الكردي فؤاد تمو ونشرت في العدد الأول من صحيفة "روزي كرد" في حزيران 1913. وبالموازاة مع انتعاش الصحافة كان لا بد من أن يزدهر النثر الكردي أيضاً وكذلك كان لا بد من انتعاش القصة اتكاء على الموروث الهائل من الحكايات والأغاني الملحمية



الفولكلورية والقصص الشعرية (الداستان) التي كانت تُغنى في مجالس الأمراء والآغوات الكرد كما كانت تغنى في المجالس العادية لعامة الناس. ويشير الباحث والأديب فرهاد بيربال إلى أن صحيفة "هاوار" وحدها ،التي كان يصدرها اللغوي والأديب الشهير الأمير جلادت بدرخان، قد نشرت تسعاً وستين قصة كردية بالإضافة إلى أربع قصص مترجمة. وفي جريدة "روناهي" التي صدرت بعد توقف مجلة هاوار عن الظهور بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، نشرت العشرات من القصص والحكايات الكردية.

وجدير بالذكر هنا أنه كان للباحثين الغربيين من المشتغلين في مجال الكردولوجيا دور هام في حفظ التراث القصصي الكردي، فقد دون العديد منهم حكايات كردية قديمة ونشروها في كتب مستقلة، وأهمهم أوسكار مان الألماني الذي نشر "تحفهء مظفري- التحفة المظفرية" في برلين عام 1906 وضم الكتاب ستة عشر ملحمة قصصية كردية. وكذلك فقد نشر الألماني هوغو ماكاس نصوصاً كردية ضمت حكايات وأقاصيص عديدة.

وكان لا بد أن يكون تطور النثر الكردي عموماً والقصة الكردية خصوصاً بطيئاً بسبب منع التحدث والكتابة باللغة الكردية بعد انهيار الخلافة العثمانية، فلم تنبت القصة الكردية على تربتها الأصلية بل نمت بعيدة في الحواضر العربية مثل بيروت ودمشق والقاهرة على صفحات المجلات والجرائد آنفة الذكر. ولكن وبرغم الحصار الذي عانته اللغة الكردية فقد شقت القصة طريقها إلى الأمام ووصلت خلال عقود من الزمن إلى ذروتها على يد رعيل من الكتاب المخضرمين الذين نهلوا من ثقافات الجوار والثقافة العالمية بشكل عام.

إن هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه خمساً وعشرين قصة مختارة لخمسة وعشرين كاتباً، يلقي الضوء على ما وصلت إليه حال القصة الكردية من تقدم في النواحي الفنية وطرق السرد الحكائي والملامح الأدبية واللغة ومعالجة موضوعات متنوعة تعكس تنوع البيئة والزمان والمكان الذي كتبت فيه كل قصة. وقد اخترنا هذه القصص للقارئ العربي بحيث تغطي كافة المناطق التي يعيش فيها الأكراد سواء في أوطانهم أو في المنفى. فمن كردستان- العراق اخترنا قصص فرهاد بيربال وفرهاد شاكلي، ومن سورية قصة جان دوست وبافي نازى، ومن إيران حسن قزلجي ونجيبة أحمد، ومن تركيا قصص فرات جوري و حسن مته ودلاور زراق وروكيا أوزمن ولورين. س. دوغان ومحمد دجلة وإبراهيم سيدو آيدوغان وعبد الله كوجر و جيا مازي ومحمد علي كوت ويعقوب تل أرمني وجوان باتو وأنور كاراهان وصلاح الدين بولوت وكاميران بدرخان، ومن الاتحاد السوفييتي السابق اخترنا قصصاً لكل من توسن رشيد وخليل جاجان وأمريك سردار وعسكر بوييك.

إن اختيار كتاب يضم قصصاً منتخبة أمر صعب للغاية ولا شك، وهو يتطلب مجهودا كبيراً فكان لا بد لنا من التنقيب في المجموعات القصصية العديدة واختيار الأفضل منها والأقرب إلى ذوق القارئ العربي، وكان لكتاب أنطولوجيا القصة الكردية ذي الألف وسبعين صفحة الذي نشره الأديب والروائي الكردي فرات جوري عام 2003 فضل كبير في إعداد هذا الكتاب إذ كان يضم خمساً وتسعين قصة غطت ما سطره الأدباء الأكراد في نصف قرن من الزمان. كما أننا من جهة أخرى توخينا الدقة في الترجمة والحفاظ قدر الإمكان على روح القصة ولغتها وتقريبها من بيئة اللغة العربية وحاولنا قدر الإمكان أن تكون الموضوعات التي تعالجها قصصنا المختارة مختلفة في الضمون والسرد والبنية القصصية والتقنيات الحكائية وكلنا أمل في أن يلعب هذا الكتاب دوره المنشود في تعريف القراء العرب بالأدب الكردي عامة والقصة الكردية القصيرة على وجه الخصوص.

مروان علي/ جان دوست

حالة ضجر

دلاور زراق

ولد دلاور زراق في بلدة فارقين / تركيا. درس الرياضيات في جامعة دجلة في دياربكر وتخرج منها عام 1985. له عدة مجموعات قصصية باللغة الكردية، منها: "ابتسامة خجولة". و" ليالٍ ضائعة وصور مجهولة". نالت مجموعته القصصية الأولى (Kakil) جائزة الأدب من دار نشر آبيك (APEC) في السويد عام 2002. ومن تلك المجموعة استللنا هذه القصة.

ما إن فتحت باب الحمام حتى فاحت رائحة عفونة حادة. وضعت مضطرة راحة يدها اليسرى على أنفها وفمها. لكن تلك الرائحة علقت في حلقها الجاف. احترق حلقها وبدأت تسعل بشكل متتابع حتى لكأنها ستلفظ أحشاءها. مترافقاً مع ذاك السعال، سال من فمها لعاب مر المذاق. أسرعت إلى فتح الصنبور وملأت كفها بالماء وأخذت تمضمض ثم بصقت الماء كأنها تريد طرح ما علق في جوفها من مرارة. ثم ملأت فمها ثانية بالماء ورفعت رأسها للأعلى وأصبحت تغرغر. حدقت لبرهة فيما حولها وفي السقف بعينين متسعتين جاحظتين وكأن بؤبؤاها سيخرجان من المحجرين.

وقعت عيناها على بقية السلك الذي لم يستطع تحمل ثقلها فانقطع. أصبح مساء ذلك اليوم ماثلاً أمام ناظريها من جديد. كان زوجها حكيمو قد أبعد كل الأسلاك والحبال عن البيت. حتى أنه لم يعد ثمة مصباح معلق إلى السقف، بل استقرت كل مصابيح البيت على الجدران في كل الغرف. بحزن يشبه لعبة في يد الظلام كان المصباح الذي علقه حكيمو على جدار الحمام يرسل أضواءه الشاحبة ويرسم خيالات أكبر للأشياء. كانت الظلال التي تتداخل على الجدران ترسم عتمة بلا نظام.

أرادت أن تخرج من هذه المتاهة، فوقفت أمام المرآة المكسورة ونظرت إلى نفسها. ظهر وجهها مثل قطع منفصلة. بقيت تحدق مدة في المرآة باحثة عن وجهها كأنها تبحث عن شيء مختف في الزوايا والخبايا. التقطت من الرف الخشبي مشط البلاستيك ذا الأسنان الكبيرة. مشطت شعرها الأشعث بنعومة كمن يمسح شعر حبيب. إنها الآن في كامل بهائها وحسنها.

عندما وضعت المشط ثانية على الرف، التقت نظراتها بموسى الحلاقة الصدئة التي كانت تعكس أشعة خافتة تبدد قليلاً من عتمة الحمام. مدت يدها إلى الموسى وتمتمت: "هيه! الله يعلم كيف حلق ذقنه بهذه الموسى؟ وكأن بشرته جلد حمار! أرجو من الله ألا يسعدك في حياتك."

ما إن أمسكت الموسى حتى انقلب ذراع يدها اليسرى تلقائياً مثل خروف معد للذبح. فحصت شريانها. فانتابت روحها رعشة لم تقدر على إيقافها. كان صدرها، صدرها الذي شبهه حكيمو في سنوات زواجهما الأولى بمصايف سرحدان، يعلو ويهبط. لم تستطع أن تجعل رأسها يستقر بين كتفيها. كأن خدراً طال دماغها. كانت أجفانها تنطبق كما أنها ستارة تسدل على آخر فصل في مسرحية، فتحرمها من رؤية النور. ثقل يذكرها بالموت سرى في ثنايا جسدها.

موت ابنها شيردين الذي لم يكمل أربعين يوماً نغص عليها الحياة. كان حكيمو يتهمها بالتسبب في موته ويقول دائماً: "كله بسببك ...! لم تهتمي به فمات قبل أن يعرف الحياة.." أصبحت وكأن أيادٍ كثيرة تمتد إلى عنقها فتخنقها. استشاطت غيظاً. ولم يترك لها حكيمو أي طريق للخلاص. ومع أنهما كانا يعيشان في المدينة وبالرغم من أنها أنهت الدراسة الإعدادية، إلا أن الحياة قد ضاقت بها. ما الذي كان ينقصها ويجعلها أقل من النساء الأخريات! كانت النسوة حولها يذهبن لوحدهن إلى الأسواق والمتاجر. حتى أن بعضهن كن منخرطات في النضال السياسي بين صفوف المجتمع بدعم من أزواجهن. كانت قد رغبت في السنة الماضية أن تذهب مع ظريفة إلى حفل النيروز كالأخريات وتدخل حلقة الرقص وتزغرد. لكن لا...! لم يأذن لها حكيمو بذلك. قال: "لستِ الأتانَ الصالحةَ لنقل هذه الأحمال!..." ولم يكتف بذلك، بل صفعها على وجهها صفعات أفقدتها الوعي ورسمت هالاتٍ زرقاء كالماكياج حول عينيها اللتين ذرفتا كثيراً من الدموع.

فتحت الصنبور وملأت راحة يدها اليسرى بالماء وشربته. تبلل حلقها قليلاً، لكن مع أول نفس - وكأن ذلك لم يكن من حقها - عاد حلقها إلى جفافه السابق. حانت منها التفاتة خاطفة إلى يدها اليسرى، بدت شرايين ذراعها وكأن كل دمها قد تجمع هناك. خوف لا يقاوم بدأ يتسرب على مهل إلى قلبها.

كانت كل لحظة تأتي وتروح، تذهب ببعض قوتها حتى أوشكت على الانهيار. أسرعت إلى الموسى ووضعتها بين أصابعها وأدنتها ببطء إلى يدها اليسرى. كان دمها يسري في العروق بنفس إيقاع توترها. سرت في بدنها حرارة طاغية. أصبح قلبها ينبض مثل مقاطع من سيمفونية يتعالى فيها الإيقاع آخر المطاف. امتلأ فمها باللعاب. وضعت الموسى على شريان الموت. أغمضت عينيها. خيم الصمت أكثر فأكثر. علا صوت نبضات قلبها وكسرت الصمت المحيط بها. أصبح صدرها يجيش وضاقت أنفاسها فارتعشت يدها. تناهى إلى سمعها صوت نبضات القلب. هنا وصلت السيمفونية إلى نغماتها الأخيرة. ملأت النغمات أسماعها فألقت فجأة موسى الحلاقة بعيداً صوب الزوايا البعيدة اللامرئية. جثت على ركبتيها. مالت برأسها ووضعته بين كفيها وانخرطت في بكاء مر. بصقت اللعاب وكأنها توشك على التقيؤ. أخذت نفساً عميقاً. حدة الرائحة في الحمام أحرقت حلقها ثانية. بدأت تسعل وسال لعاب مر من فمها وأنفها. هبت متجهة إلى الباب.

بعد مدة كانت في الإيوان ..... كانت المدينة بأكملها تغط في النوم. كان كل شيء مختفياً في غلافه بينما كانت أشعة الشمس بنورها الذهبي تضيء الآفاق البعيدة .... فاحت رائحة احتراق جوهرة الليل السوداء في كل مكان. أضواء الشوارع تحتضر ...... من جهة مجهولة يتعالى نعيب بومة.. البومة تنعب بصوت حزين يتفطر له القلب. شبهت نعيب تلك البومة بصرخة طفل رضيع يطلب النجدة من أمه. لاح أمامها وجه شيردين. مرضه ولون عينيه الشبيهتين بجوهرتين. آلام شيردين التي قاساها دون أن يعرف بأي لغة يشكوها. رحيله عن حضن والدته قبل أن يتعلم نداء: ماما. كل ذلك لاح أمام ناظريها سريعاً.

جلست على حافة النافذة وأصبحت تنظر شزراً إلى الأسفل. كان عرق بارد يتصبب من صدرها. نسمات الفجر تنشد أغنيتها الهادئة وكأنها تكمل هدهداتها التي لم تشبع منها إذ كانت تطلقها على مسامع وليدها. لكنها لم تكن تسمع كل ذلك. كانت أنفاسها بطيئة.

نعيب البومة التي شاركت الفجر في نسماته أصبح الآن يملأ تلك اللحظة بالحزن.

تلك اللحظة جرفتها و ...

صفقت البومة بجناحيها وطارت إلى الأعالي وكأنها تشق ضياء الفجر. سلمت هي أيضاً أمرها إلى جناحي البومة وألقت بنفسها من الطابق السابع صوب الفراغ الذي علقت حياتها في شراكه .... قامت الجاذبية الأرضية بوظيفتها خير قيام واحتضنت الأرض ذلك الجسم اللطيف الناعم.

القربان

بافى نازى

ولد في قرية / سوريا. حصل على شهادة الدكتوراه في المسرح من جامعة موسكو عام 1980. أشرف على القسم الثقافي في جريدة آخينا ولات التي صدرت في روسيا عام 1994. له روايات ومجموعات قصصية منها(دموع ومطر) التي ترجمت إلى العربية. عاش فترة في السويد ثم انتقل إلى إقليم كردستان العراق ليدرّس الأدب في جامعة صلاح الدين.

في كل مرة، حين كان حليم يأتي إلى مسقط رأسه في القرية قادماً من المدينة، كان يمر على

المقبرة قبل أن يذهب إلى بيت والديه. كانت المقبرة على حالها رغم ازدياد عدد القبور. نفس الأشجار العتيقة ما تزال هناك، حتى أن الغربان المتجولة بين القبور بدت كأنها هي نفسها تلك الغربان القديمة.

كل شيء كان على حاله، وحين تهب ريح الشمال تهب، كما في الأيام الخوالي، تنشر البرد في الأرجاء وتملأ القلوب بالرعب.

...هذه المرة أيضاً، توقف حليم بجانب قبر صغير بمستوى الأرض. فكر هنيهة وأخذه الخيال إلى أيام طفولته في المنزل. كانت طفولته شبيهة بطفولة جميع أترابه في القرية. كان مثل جميع القرويين محاصراً بالخوف والرهبة...

في تلك القرية، كان الخوف والإيمان يتداخلان، بل ويتبادلان الأدوار أحياناً. ما كان المرء ليعرف هل أن ذكر الله هناك، منشؤه الخوف أم الإيمان! وحتى حين كان القرويون يتحدثون عن الجن، كانوا يتحاشون نطق كلمة الجن، بل يسمونهم" أولئك الأفضل منا."

كانت هذه حال تلك البقعة من الدنيا. وبالأخص حال عائلة حسن.

عائلة حسن! حسن والد حليم. حليم الابن الوحيد! إذن الابن المدلل وأشياء أخرى كثيرة ...

ولماذا الابن الوحيد؟ كان المفروض أن تبدأ الحكاية من هذه النقطة. فالسر كامن هنا. فمن سبع حالات حمل وولادة أنجبت مريم، زوجة حسن، صبياً وحيداً. سبقته خمس أخوات وتلته في الولادة أخت سادسة.

كانت العائلة تربط عدم إنجاب الذكور بـ"الأفضل منا". قيل إنهم استولوا على "بذور" الذكور من صلب حسن. وكان بعضهم يتهامس: "لا بد من أصابع خفية تكمن وراء هذه المصيبة." أي أصابع؟ لم يكن أحد يسمي الأشياء باسمها من الخوف. ربما الإصابة بالعين؟ فليعم الله أبصار أولئك الذين يصيبون المرء بالعين. ربما بسبب الدعوات؟ وما أكثرها! قد يعود ذلك إلى الخطايا والآثام؟...من يدري!

هنا تتمازج مرة أخرى أمور كثيرة، الخوف، الدعوات، الحسد، الخطايا وأسباب عديدة.

لهذه الأسباب كانت آيات القرآن تزين جدران بيت حسن، وكان الصبي ينوء تحت أثقال التمائم المعلقة عليه.

كانت أمينة، أخته الأكبر منه صفراء اللون، ضعيفة البنية باهتة وتبدو دائماً وكأنها عليلة لأن أفراد العائلة أهملوها عقب ولادة حليم. كان حليم يضربها ويضرم ضدها أبداً نيران العداوة، العداوة التقليدية بين شقيقين تلا أحدهما الآخر في الولادة. مع ذلك، ومع كل الرعاية الممكنة والتربية في الدلال سقط حليم أسير المرض.

نعم، وقع حليم مريضاً، أصيب بعدوى أحد الأمراض السارية التي كانت منتشرة في القرية. وقعت العائلة في ما كانت تتخوف منه. كان والداه يتساءلان في البداية ويتهامسان فيما بينهما: "لماذا أصيب هو ولم تصب إحدى البنات؟" ثم تعالى همسهما حتى سمعتهما أخوات حليم. صارت البنات يتبادلن نظرات حائرة وكأنهن السبب في مرض أخيهن.

كان المرض يشتد على الصبي يوماً بعد يوم وأصبح الأهل يرفعون أصواتهم بالدعاء، بينما شيخ القرية يتردد يومياً على بيت حسن ليمسح على رأس المريض الصغير ويسقيه من الترياق لكن دون جدوى.

دخل سقوط المريض في براثن المرض يومه السادس. وحسب الاعتقادات السائدة في القرية فإن أحدهم إذا وقع مريضاً ولم يفتح عينيه حتى مساء اليوم السابع فإنه لا محالة سائر نحو الموت.

يا إلهي! أو يمكن هذا؟ الابن الوحيد يموت؟ هنا أيضاً اختلط الإيمان بالخوف. استجمعت الأم قواها وجمعت أفراد العائلة قبيل العصر حول سرير حليم المريض وقالت بصوت يلفه الرعب:

إنكم ترون بأعينكم ما حل بحليم. يجب أن يضحي أحدنا بروحه في سبيل إنقاذ حليم. على أحدنا أن يصبح قربان حليم.

وتلاقت النظرات. بحث كل واحد في الآخر عن القربان. لكن ذلك لم يدم طويلاً. فقد التقت جميع النظرات أخيراً عند أمينة الضعيفة الواهنة. سرى مرة أخرى قانون الغاب: "القوي يأكل الضعيف!" أما أمينة فقد طأطأت رأسها وكأنها خارج الموضوع!

هكذا نسج الجميع في منزل حسن خيوط مؤامرة صامتة، وكان يجب اتخاذ القرار. يجب ألا تضيع ثانية من الزمن. كانت الأم تدرك خطورة الموقف، فالوقت يمضي ويكاد المحذور أن يقع!

نادت الأم على ابنتها أمينة:

تعالي يا بنيتي.

فوجئت أمينة قليلاً ثم سارت نحو أمها بهدوء. أمسكت الأم بيدها، وأسرعت لتصنع دوائر وهمية فوق رأسها. ثم قالت بصوت مرتعش:

يا ابنتي! يجب أن تجعلي نفسك قرباناً لأخيك...

عقدت الدهشة لسان أمينة وفاجأها قرار الأم. نظرت إليها بخوف ورجاء. نظرات كان للمرء أن يقرأها بوضوح. نظرات كانت تقول: "لماذا أنا بالذات؟"

لم يأت أحد لنجدتها، لا الأخوات ولا الأب. كان الجميع صامتين وكأنهم يوافقون على هذا القرار.

قالت الأم مرة أخرى مخاطبة أمينة:

يا بنيتي! طوفي ثلاث مرات حول أخيك.

نظرت أمينة بعينين مليئتين بالدموع إلى أمها. رق لها قلب الأم. أدركتها الشفقة. لكنها ما إن نظرت ناحية ابنها الممدد بلا حراك على الفراش حتى تبدد ما تبقى من التردد لديها وصرخت:

يا بنت! يا بنتي، طوفي حول أخيك وقولي: "يا ربي! أنا أمينة. أدعو أن تجعل روحي فداء لروح أخي حليم...!"

طافت أمينة ودارت حول أخيها، ودعت بصوت كأنه الحشرجة:

أنـ...أنا..أمـ...أنا أمينة. يا رب! خذ روحي واجعلها قرباناً لروح أخي.

بصعوبة بالغة أكملت أمينة هذا الدعاء وطافت مرة حول أخيها المريض. هزت الأم ابنها بشكل هستيري وهي تصرخ:
يا ابني حليم. أسمعت صوت أختك؟ افتح عينيك فهي تفديك بروحها!
بقي حليم ساكناً. نظر الحاضرون بصمت إلى أمينة. فهمت أمينة مقصودهم فعادت لتدور حول أخيها وهي تجهش بالبكاء وتتمتم بدعاء القربان.
رفعت الأم صوتها أكثر وصرخت في ابنها المريض:
افتح يا بني عينيك. ها هي أختك أصبحت قرباناً لك.
تحرك حليم قليلاً لكنه لم يفتح عينيه.
مرة أخرى تلاقت النظرات. اختلط الخوف بالإيمان. لكن القرار كان يجب أن ينفذ حتى النهاية. على الولد أن يقوم معافى من سريره وعلى البنت أن تقدم قرباناً وأضحية.
الدورة الثالثة والأخيرة! بقيت الدورة الأخيرة. يا إلهي!
للمرة الثالثة عادت أمينة تلهج بالدعاء. وضعت الأم فمها على أذن مريضها الصغير وصاحت:
افتح عينيك يا صغيري.
وهزته هزاً عنيفاً.
كانت أمينة قد أنهت طوافها الأخير حين فتح حليم عينيه على مهل وأطبقهما عدة مرات ثم قال بصوت واهن:
ماء.....
فرحت الأم كثيراً، ابتهجت ورفعت عينيها إلى السماء:
الحمد لك يا إلهي لقد تقبلت قرباننا.
وعمت الفرحة تلك الدار.
بدأ حليم يتعافى يوماً بعد يوم. وظهرت عليه علامات الصحة. أما أمينة فقد كانت تزداد وهناً على وهن. ازداد لون وجهها اصفراراً. ذات يوم سمعت أمها تخاطب أخاها حليم: "يا بني! لا تؤذ أختك أمينة فهي قد جعلت نفسها قرباناً لك. لقد تقبل الله دعاءها. لم يبق سوى القليل لتموت."
مع أن أمينة كانت في الثامنة من العمر، إلا أنها ارتعبت كثيراً وأصبح قلبها يخفق بشدة. لقد أيقنت أنها ستموت عما قريب .

***

كلما كان حليم يزور قبر أخته أمينة، كان يتذكر كلمات أمه تلك. يتذكر وجه أخته أمينة وهي تعاني سكرة الموت. كانت الأم تقول لها: "بنيتي! لا تخافي! هنيئاً لك بالموت. ستصبحين من طيور الجنة!"
"طيور الجنة." لفظ حليم هذه العبارة بصوت مسموع ثم تأوه متحسراً ونظر فيما حوله. رأى بضعة غربان تطير من شجرة وتحط على أغصان شجرة أخرى. هبت نسمة ريح وسمع حفيف الأوراق من أشجار المقبرة.
غادر حليم المقبرة مسرعاً كمن أنزل حملاً عن ظهره. توجه إلى طريق القرية التي كان يعرفها جيداً دون أن يلتفت إلى الوراء.

كَمْبَروك

لورين. س. دوغان

ولدت عام 1975 في بلدة نصيبين / تركيا. تخرجت من جامعة دجلة قسم البيولوجيا. لها مجموعة قصصية بعنوان" الفستان الضيق" صدرت عن دار آفستا في اسطنبول 2007. تعتبر لورين. س. دوغان كاتبة كردية جريئة تتناول مواضيع حساسة وبجرأة نادرة. ومن مجموعتها آنفة الذكر اقتبسنا هذه القصة للترجمة.

خالة فنجة! هوزان في البيت؟
قبل أن تجيب فنجة بنعم أو لا، ينتصب هوزان واقفاً لدى الباب. حينما يلمح آزاد رفيقه هوزان، ينسى فنجة ويسأل:
هوزان! ألا ترافقني إلى اللعب؟
تقول فنجة محتدة:
ما تقومان به لا يطاق. بمجرد عودتكما من المدرسة ترميان حقائبكما في البيت وتلجأان إلى الشوارع. أليست لديكما واجبات مدرسية؟
يرد هوزان بلهجة رجاء:
لا يا أماه. والله ليست لدينا واجبات مدرسية.
إما أن معلمكما غير جدير بالتعليم أو أنكما تكذبان. سأذهب غداً إلى المدرسة وأفهم الموضوع.
لا تكاد فنجة تنهي جملتها حتى يرتدي هوزان حذاءه ويخرج من الباب.
تصرخ فنجة:
يا بني! إنك لم تتناول غداءك حتى! لقد أصبحت منذ الآونة الأخيرة تابعاً لآزاد.
يغادر الطفلان البيت لا يلويان على شيء. لا يصيخان السمع لأي كلام قد يحول بينهما وبين رغبتهما في الانطلاق. يغيبان عن الأنظار بسرعة البرق. لكن فورة غضب فنجة لم تهدأ بعد. إنها ما تزال تولول:
لا والله! هذا لا يجوز. لقد أفسد هذا الولد ابني أيضاً. فمذ تعرف إلى آزاد، لم يعد يقيم في البيت. لا، لا أنا لا أقدر عليه. سأخبر أباه حين يعود في المساء. الشقي! لم يلتفت إلي حتى! بل لحق

آزاد مثل جرو.
آزاد يتقدم هوزان مثل قائد رحلة ويقول:
هل تعرف؟ لقد اكتشفت أرضاً ينبت فيها الكمبروك بكثرة.
يسأل هوزان بلهفة شديدة:
أين؟
عند الحدود.
الحدود؟
نعم الحدود. قبل أيام حينما أخذت عنزاتي لترعى عند الحدود، شاهدت الكثير من الكمبروك.
وهل سنذهب الآن إلى هناك؟
نعم.
يقول هوزان بأسى ظاهر:
لكنني لم أحضر معي الكيس....
يبت آزاد على كتف رفيقه كما يفعل الكبار مع الأطفال ثم يضع يده على رقبته ويقول مزهواً:
لا يهمك ذلك....معي كيسان(يخرج آزاد كيسين من جيبه) أنظر!...أحدهما لي والآخر لك.
يلتقط هوزان أحد الكيسين، وقد غمره شعور بأنه أصبح مديناً لآزاد الذي يشترط عليه ويحذره:
إياك أن تفشي السر إلى دساسو!
لا لا. لن أخبره بالأمر.
لو علم دساسو بالموقع، فإنه سيخبر جميع الأطفال وسيجمعون هم لأنفسهم كل الكمبروك.
لا لا. لن أقول.
بمجرد أن يعرف دساسو، لن تبقى لنا ولا ثمرة.
لا لا. لن أخبره.
سنجمع اليوم كفايتنا!
سنقطف كثيراً من الثمار.
ستصبح لدينا نقود كثيرة.
سأشتري دراجة.
أنا أيضاً سأشتري.....
حينما يأتيان على ذكر" الدراجة" تتسع أحداقهما وتلمع، وتتسارع خطواتهما أكثر.
يصلان إلى الحدود. ويبدأان أولاً بالتقافز على العشب المرتفع. يقول هوزان في لهجة الناصح:
لن نذهب بعد الآن إلى كرنواس. الكمبروك هنا أكثر.
طبعاً لن نذهب بعد الآن إلى كرنواس.
في يد كل واحد منهما كيس. مطرقي الرأس كأنهما مشغولان بالحصاد. يجمعان ثمار الكمبروك. من الفرحة الغامرة وسرعة القطف لا يشعران بألم الأشواك التي تنغرز في أياديهما الطرية. لا يسمعان صوت الجندي المناوب في المحرس وهو يصرخ فيهما: "حذار من الاقتراب من الحدود!" ينادي هوزان رفيقه آزاد مستثاراً:
تعال يا آزاد. لقد اكتشفت شيئاً!
يرد آزاد على عجل:
ماذا رأيت؟
يريه هوزان اللغم الذي في يده:
أنظر!...
ناولني هذا الشيء لأرى ما هو!
يقول هوزان وهو يزم شفتيه:
هذا لي. أنا رأيته.
يقول آزاد بعصبية:
لكنني أنا الذي أرشدتك إلى مكان الكمبروك!
يناول هوزان آزاد اللغم الذي في يده على مضض. يتبادل الطفلان اللغم ويتفحصانه.
صوت الانفجار القادم من ناحية الأسلاك الشائكة يترافق بدخان يعلو البلدة. الجندي الذي يقضي مناوبته في حراسة الحدود، يضغط على زناد بندقيته الرشاشة ويمطر ما حوله بوابل من الرصاص.
يبدو حول كيسين مليئين بثمار الكمبروك، ثلاثة أيد،...قدم واحدة....وجثتان هامدتان.

زكاة الفطر

حسن قزلجي

ولد حسن قزلجي في قرية قزلجه القريبة من مدينة بوكان / إيران عام 1914. درس العربية والفارسية على يد عمه. انخرط في العمل السياسي وشارك في الفعاليات الثقافية لأول جمهورية كردية في العصر الحديث (جمهورية مهاباد1946). وأصبح رئيس تحرير مجلة "هه لاله". بعد انهيار الجمهورية هرب إلى كردستان العراق ومنها إلى بلدان أخرى مثل بلغاريا حيث عمل في الإذاعة الموجهة إلى إيران لإسقاط نظام الشاه. عاد قزلجي إلى إيران بعد سقوط الشاه. واعتقلته السلطات الإيرانية عام 1983 ولم يعرف عنه أي خبر بعد ذلك. وتقول بعض المصادر أنه قضى نحبه في السجن بعد سنة ونصف من الاعتقال وقد نيف على السبعين. له مجموعة قصصية نشرت في

حياته وهي "ضحكة المعدم". وهذه القصة المترجمة من مجموعته تلك.

كان الحاج علي رجلاً واسع الثراء. لكنه لا يجد الوقت لحك رأسه، بسبب مشاغله وتجارته الرائجة. لم يكن قادراً لوحده على إدارة أعماله التجارية فاضطر لتوظيف قريبه ميرزا صالح براتب قدره ثمانية دنانير ونصف لكي يجري له الحسابات ويذهب بدلاً منه إلى البنك ويجمع ديونه من عند البقالين وبائعي الأقمشة. والحق يقال فإنه بالرغم من مشاغله التجارية، كان مواظباً على أداء الصلاة ولم يترك فرضاً واحداً منها، دع عنك صوم رمضان. كان رجلاً نبيهاً يحسب جيداً حساب دنياه وآخرته. وكان يعتبر شهر رمضان فرصة سانحة للعبادة والتجارة. فهو من جهة يوفر غداء ثلاثين يوماً، ومن جهة أخرى يؤدي واجبه تجاه خالقه.

كان تاجراً. وفي التجارة لا بد من الحساب والكتاب. وليكن رأس المال ضخماً، فإنه لم يجتمع إلا فلساً وراء فلس. ولكل فلس من الفلوس مكان ما من القيد في دفتر الحسابات. وبحساب بسيط فإن عائلة الحاج علي، في شهر رمضان وحده كانت توفر على الأقل خمسة عشر ديناراً ثمن ثلاثين وجبة غداء. لم يكن ذلك مبلغاً هيناً. إنه أجرة شهرين من عمل ميرزا صالح. وعلى أضعف تقدير فقد كان ذلك يغطي نفقات خمس سفرات من سفراته إلى بغداد بغرض تسيير مصالحه التجارية. باختصار فقد كان رمضان خيراً في خير.

كان الحاج قد صام رمضان على أكمل وجه، وأدى صلوات التراويح في المسجد جماعة. سمع ذات مرة من الشيخ أن الله يزيد في نعمه مادام العبد يشكره. فدأب كل ليلة أثناء صلاة التراويح على التسبيح بحمد الله وشكره بكل ما أوتي من كلمات حمد وثناء. وبدا أن الله سمع شكره فأمطره في النعم.

في الثامن والعشرين من رمضان، كان الحاج علي في المسجد. صلى المغرب جماعة وعاد إلى بيته. في الطريق كان لسانه يلهج بالدعاء إلى أن وصل باب داره.

لم ينس البسملة حين بدأ طعام الإفطار، هنيئاً له فذلك من عرق جبينه. مال على البقلاوة والتهمها. شرب مع كل قطعة رشفة من العصير. غص بإحدى القطع ولم يسعفه سوى كأس من اللبن. تجشأ عقب ذلك وأفسح المكان لمزيد من الطعام. حمل قصعة الأرز والبامية باللحم وبدأ يلتهم منها. طاب له ذلك وبدأت اللقيمات تجد طريقها من بين لحيته وشاربيه إلى فمه نزولاً إلى المعدة.

كان يرشف بين الحين والآخر جرعات من اللبن ولا ينسى أن يمد يده إلى قطع البطيخ. كان الحاج علي يجيد اختيار الصحن الذي يشتهيه مثل عامل حصاد جائع.

أخيراً فرغ من الأكل، حمد الله وأثنى عليه، مسد لحيته، وتوجه إلى زوجته مخاطباً إياها:

هيا اصنعي لي كأساً من الشاي. سأذهب إلى صلاة التراويح.

كانت زوجته ما تزال مرتدية جلباب الصلاة منذ الفجر. نهضت وأحضرت الشاي. وضعته أمام زوجها وقالت:

هل أديت زكاة الفطر يا حاج؟

ألا فليشملك الله بالخير والرضا. حسناً فعلت إذ ذكرتني. تباً لي! لا شاغل للشيطان سوى العمل الحثيث، وبكل ما لديه من أساليب مكر وخداع، على أن يحيد بالمؤمنين عن طريق الهداية. كاد أن يذهب صومي وصلاتي سدى! سنعطي زكاة الفطر إلى ميرزا صالح. ما رأيك؟

ميرزا صالح من أقربائك وتدفع له فوق ذلك راتباً. إنه لا يستحق زكاة الفطر.

تباً لك. كيف لا يستحقها؟ في رقبته زوجة وأولاد. قبل عدة ليالٍ قال الملا في المسجد: "أحسنوا إلى عشيرتكم الأقربين." وهل أقرب إلينا من ميرزا صالح!

بإمكانك منحه دينارين إكرامية العيد. إنه حسنة من جهة وزيادة في المجد من جهة أخرى. أد زكاة الفطر إلى المحتاجين.

لو كنت مكاني بتبذيرك هذا، لما كنت زوجة الحاج ولا كنت أنا الحاج علي.

طيب. افعل ما بدا لك. لن أقف حجر عثرة في طريق حسناتك.

التفت الحاج إلى ابنه البكر وقال:

يا عبد الرحمن! أسرع يا ولدي وأحضر ميرزا صالح!...

حضر ميرزا صالح. ألقى التحية بهدوء وصوت يكاد لا يسمع، ثم جلس في مكانه.

كان الحاج علي يستعد للذهاب إلى الصلاة. توجه إلى ميرزا صالح وقال له:

سأعطيك زكاة الفطر لهذا العام.

ثم نادى زوجته وأمرها قائلاً:

هيا أسرعي يا فاطمة! أحضري أوقيتي قمح.

ردت زوجته:

لا قمح في البيت. بل يوجد أرز. هل يجوز؟

ما الفرق بينهما؟ الزاد زاد. هيا أحضري أوقيتي أرز.

قال ميرزا صالح بانكسار:

والله لولا الحاجة لما رضيت. لكن حين يضطر المرء يقبل بالصدقات.

لا يا ميرزا صالح! عن أي حاجة تتحدث؟ أنت رجل فهمان. تقبض شهرياً سبعة دنانير بالتمام والكمال. اشكر ربك يا رجل.

حضر الأرز. حمله الحاج علي وذهب ليقف أمام ميرزا صالح. قال له:

ها هي زكاة الفطر التي فرضها الله. أعطيك إياها عن هذه السنة.

رد ميرزا صالح:

ها قد قبلتها وأعطيك هذا الأرز بالدين.

تبادل الحاج علي وميرزا صالح أوقيتي الأرز سبع مرات بنية زكاة الفطر عن الحاج وزوجته وأبنائه الثلاثة وبنتيه.

وقبل أن يذهب الحاج إلى الصلاة، قال:

لا بأس في زيادة قيمة زكاة الفطر. ميرزا صالح رجل يستاهل. سنحسب ربع دينار عن كل رأس. هكذا تكون قيمة زكاة الفطر ديناران إلا ربعاً.
ومضى إلى المسجد.
نهض ميرزا صالح ليذهب هو أيضاً لكن زوجة الحاج ألحت عليه بالبقاء. وضعت أمامه كأس شاي وبدأت تسأله عن أحوال زوجته وأولاده. أجاب الرجل متلعثماً. كان يفكر في الدينارين إلا ربعاً وما هي أوجه صرفها، ماذا سيفعل بها؟ هل سيكفي ذلك ليشتري هدايا العيد لزوجته وأولاده أم...؟ شرب الشاي، ثم ودع زوجة الحاج وخرج.
في الصباح الباكر فتح ميرزا صالح المحل. كنس المدخل ثم أحضر دفاتر الحسابات وما يلزمه وجلس. بعد برهة لاح الحاج علي قادماً. وما إن اقترب من باب المحل قال:
يا ميرزا! بادر إلى قلم وورقة لكي نتحاسب قبل أن يأتي الزبائن.
عن أي حساب تتحدث؟
هل نسيت؟ لك علي ديناران إلا ربعاً.
وهل هذا يحتاج إلى ورقة وقلم وحساب؟
وكأنك جديد في السوق! كيف لا يحتاج إلى حساب؟ لكل شيء حسابه. حتى بين الأشقاء.
طيب. تفضل ... هذه ورقة وهذا قلم.
اكتب: ديناران إلا ربعاً ...
ها قد كتبت..
والآن ... كم تبلغ ديوني عليك؟
لا أعرف... لا أتذكر أن لك ديوناً في ذمتي.
أنت لا تتذكر. لكنني أنا أتذكر. كان ذلك في الشتاء وكان نعلاك متهرئين يوسخان المحل. أعطيتك زوج أحذية . تستاهل كل خير. سأحسبهما عليك بدينار واحد فقط. سجل: دينار واحد.
ولماذا؟ بكم اشتريت زوج الأحذية ذاك؟ على الأقل احسبهما بسعر المستعمل! كانا عتيقين.
يا أخي أنت ابن السوق! نحن تجار ولا يهمنا السعر في ذلك الوقت. نحن يهمنا سعر اليوم. لم يكونا لا عتيقين ولا بطيخ. استعملتهما شتاء واحداً فقط. كانا يلمعان.
طيب. سأسجل ديناراً.
قبل أيام اشترى الحاج فاضل بنجويني صندوقاً من الشاي من عندنا. وقتها سقط من يدك ربع الشاي المخصص كعينة للزبائن. أضف ثلاثمائة فلس.
جمعت ما وقع على الأرض من العينة ووضعته في الصندوق.
قال جمعت قال! لم تجمع سوى النزر اليسير. والباقي اختلط بالتراب والوسخ وكنسته بيدك. على كل حال. سجل مائتي فلس فقط.
طيب . المجموع دينار ومائتا فلس.

فصلت لوحي خشب من أحد الصناديق لتصنع كرسياً. كل لوح بنصف دينار. سجل ديناراً آخر. هذا بسعر الماضي. كم يبلغ سعر ألواح الصندوق في يومنا هذا؟
كان ذلك شتاء. وكان الخشب غالياً. طيب. سنحسب بسعر اليوم. سجل ثمانمائة فلس. المجموع ديناران كاملان.
طيب. تمام.
لك في ذمتي دينار وسبعمائة وخمسون فلساً عن زكاة الفطر. اطرحها من دينارين. تصبح مديناً لي بربع دينار. سأعتبرها هدية العيد. وينتهي الحساب.
انتزع ميرزا صالح نصف ابتسامة ورسمها على فمه وقال:
ولماذا لا تجعل ربع الدينار من حساب زكاة فطر السنة القادمة؟
دع حساب السنة القادمة للسنة القادمة. هل يعقل أن أتركك بدون عيدية وتغادر المحل خالي الوفاض!

ذات ليلة

نجيبة أحمد

ولدت في مدينة كركوك عام 1954. درست الآداب الكردية في جامعة السليمانية. تعتبر من أهم الكاتبات الكرديات. لها مجموعة شعرية وعدة مجموعات قصصية منها "الربيع الباكي" و "حكاية شجرة التفاح" و "فراشة الموت". تعيش حالياً في مدينة سقز / إيران.
"ألا فليحرمني الله مما تبقى من حياتي! ما من نهاية لهذا الطريق المجدب المهجور. في هذا القيظ يتحتم علي الذهاب أربع ساعات ليستغرق طريق العودة أربع ساعات أخرى!"
كان أفراد العائلة يسمعون هذه الشكوى من أمهم كل خمسة عشر يوماً دون أن يعقبوا عليها.
مسحت بطرف قفطانها العرق المتصبب من وجهها. قدموا لها كأس ماء فشربته ونثرت ما تبقى في قعر الكأس على وجهها وعنقها:
يا لطيف! ما أحر الصيف!
قدموا لها كأس شاي، عبته في جرعة واحدة ونحت الكأس جانباً. تنفست الصعداء.
أهلاً بك أيتها الأم العزيزة. كيف حال ليلى؟ هل رأيتها؟
نعم رأيتها. سألتني عنكم جميعاً. يعطيهم العافية فقد سمحوا لي هذه المرة بلقائها لمدة ساعتين. ليس كالمرات السابقة حيث كنا نلتقي على جانبي المتاريس. حدثتها عن كثير من الأشياء. إن شاء الله صفحتها بيضاء. لكن لا أعرف لم كانت حزينة ضعيفة. حاولت جهدي أن أبدد وساوسها

وأخفف عنها دون جدوى. لقد أعطتني هذا الكيس.
أخرجت بنطلوناً وبلوزة من الكيس. كانت تفوح منهما رائحة أشياء كثيرة. تفحصتهما هنا وهناك، بحثت في جيوب البنطلون وتحت الحزام فلم تعثر على شيء. ثم فحصت البلوزة. كانت ياقتها متفتقة قليلاً بحثت هناك فأحسست بخشخشة. عمدت إلى سكين و شقت الياقة من مكان الفتق وأخرجت بضعة أوراق.

...

"عزيزتي كلاويژ:
السماء هنا لا تغير لونها. لا شمس فيها لتشرق أو تغيب. عقارب الساعة مستمرة في الدوران. من الثانية عشرة وحتى الثانية عشرة، ومرة أخرى من الثانية عشرة وحتى الثانية عشرة. لكن من يدري أي ثانية عشرة تشير إليها عقارب الساعة! هل هو الظهر أم منتصف الليل؟ حتى مواعيد الطعام هلاك في هلاك.
حتى الموت هناك كذاب مخادع.
الموت هنا لوحة فنية أحياناً، وأحياناً نوم أو اضطجاع لأجل الراحة. أحياناً جرعة ماء وأحياناً أخرى يد تمتد لتعبث بالصدر والنهدين".
وضعت تلك الورقة جانباً وحملت واحدة أخرى كانت ملفوفة كالسيجارة، فتحتها وقرأت:
"كان ذلك في لحظة من اللحظات التي تمر هنا دون شمس. فتح السجان الباب. كان يحمل ورقة بيمناه. قرأها وهو يلقي نظرات حادة:
ليلى غفور و پروين غلام!
أجبنا سوية:
نعم؟!
معكما عشر دقائق لتكتب كل واحدة منكما وصيتها وما تريد قوله لأهلها، ثم تضع ما كتبته على فراشها. ابقيا على استعداد.
وسلم إلى كل واحدة منا ورقة وقلماً.
تبادلنا النظرات أنا ورفيقتي. جمدنا الرعب في مكاننا. كانت پروين أسوأ حالاً مني ومنهارة ترتعش.
نظرت سيران إلينا بحزن وهي تقول:
الله كريم.
قالت پروين باكية:
عزيزتي ليلى! هذا يعني نهاية المطاف. أهكذا سريعاً؟ ماذا سأكتب؟ ماذا سأقول؟
لم أستطع بدوري الإمساك بالقلم. ارتخت أصابعي. حاولت تذكر بعض الكلمات لكنها هربت مني في تلك اللحظة. كانت لحظة حساسة. زادني بكاء پروين ألماً. هززت كتفها وقلت:
لماذا تبكين؟ هل تظنين أنهم أتوا بنا إلى هذا المكان لتناول الأرز واللحم؟ إنك تضعين نفسك يومياً مائة مرة بين براثن الموت، خلال الطعام وشرب الماء وحتى أثناء الاستحمام. لا أحد يدري ما الذي يفعلونه بك حينما يأخذونك كل مرة. أليس هذا هو الموت بعينه؟ هيا اكتبي. اكتبي شيئاً لأحبابك.
أما أنا فقد بادرت إلى القلم وكتبت عفو الخاطر: "أعزائي! أرجو منكم العفو".
مرت عشر دقائق فودعنا سيران. عصبوا أعيننا بسرعة وأخذونا. أصبحت پروين تلهث. أحياناً كان الوقع الثقيل لخطوات السجان يعلو على لهاث پروين فلا أسمعه. وحين وصلنا إلى أحد الجسور انقطع لهاثها تماماً. أدركت أنهم فصلوها عني وأخذوها إلى مكان آخر.
أنزلني السجان بضع درجات وقال عند الدرج الأخير:
اخلعي حذاءك!
كان يبدو أننا دخلنا غرفة مفروشة يجلس فيها بعض الناس. سرت همهمة قصيرة سمعت بعدها صوت أحدهم يخاطبني قائلاً:
لأنك فتاة عذراء، يجب، حسب الشريعة الإسلامية، عقد نكاحك قبل تنفيذ حكم الإعدام. نحن هنا سنطبق الشريعة ونعقد قرانك على أحد ما.
أصبحت كلمة "عذراء" مسماراً يدق في قلبي.
صرخت:
ليس ضرورياً أن يعقد جنابكم قراني على أحد. أصلاً كل عذارى هذا السجن فقدن عذريتهن!
صفعة قوية على وجهي أفقدتني التوازن. أمسك السجان بيدي وجرني ثم قال بعد هنيهة:
انتبهي! نحن ننزل الدرج.
كنت أعد الدرجات في ذهني. واحد، اثنان، ثلاثة. دفعني السجان بقوة فسقطت على الأرض. أحسست أنهم أنزلوني إلى قبو. لكنها كانت غرفة أخرى. لم أعرف كم كانوا هناك، لكنني سمعت بوضوح لهاث پروين.
جاء أحد السجانين وقيد أيدينا خلف ظهورنا. لم تمض سوى لحظات حتى قرأ أحدهم قرار الإعدام:
لأنكن، أي هذه المجموعة، وقفتن في وجه النظام، يجب أن تنلن جزاءكن.
أي قرار عجيب كان ذاك القرار! أيكون الإعدام هكذا؟ لماذا لا يتلون الأسماء؟ ولماذا لا يحددون فقرات القوانين الجزائية التي سيعدموننا بموجبها؟
كانت هذه الهواجس تنهشني حين سمعت أصوات طلقات رشاشة ثم مزق الصمت صراخ رهيب. كنت أنتظر أن تتالني رصاصات من الرشاش، لكن لم أجد شيئاً من هذا القبيل. بعد ذلك أمسكني السجان من يدي ودفعني عبر درب متعرج ذي درجات إلى الأعلى. لم أكن أعرف إلى أين يأخذني. لكنه حين قال لي: "البسي حذاءك." ثم قال بعد لحظات: "اخلعيهما." وفتح عيني، عرفت أنني أصبحت في زنزانتي.

هبت إلي سيران وعانقتني بفرح وهي تقول:
آه يا عزيزتي ليلى! عدت؟ الحمد لله. لكن أين پروين؟
حدقت فيها ولم أعرف كيف أجيبها. قلت:
پروين؟ لست أدري.
لم تمض سوى دقائق معدودة حتى أعادوا پروين أيضاً. ثم انفتحت أبواب الزنازين باباً إثر باب وضجت المهاجع بأصوات السجينات العائدات من الموت.
سهرنا تلك الليلة حتى الفجر ونحن نضحك على هذه المسرحية. قلت:
صحيح يا پروين! مع صوت الرشاش سمعت صرخة رهيبة! ترى ماذا كانت تلك الصرخة؟
ردت پروين ضاحكة:
كان ذلك أيضاً جزءاً من المسرحيةَ!"
أخرجت أم ليلى ورقة ملفوفة أخرى. كان مكتوباً فيها:
"يعيدون هذه المسرحية أحياناً. لقد تعودنا عليها. يأتون ويقولون لإحدانا:
هيا اكتبي وصيتك.
فتقول التي يأخذونها لرفيقاتها:
إن لم أرجع اكتبوا عني الوصية.
تضحك الباقيات ويقلن لها:
ستعودين حتماً. سيعقدون قرانك ويعيدونك.
بعد تلك الزيارة بخمسة عشر يوماً، ذهبت أم ليلى لزيارتها مرة أخرى. ولما عادت في ساعة متأخرة من المساء، لم تكن صامتة كما في مرات عودتها السابقة. كانت آثار الأظافر بادية على وجهها. شعرها أشعث مغطى بالطين الذي سال حتى كتفيها. صراخها يبلغ عنان السماء. ارتعش الجيران خوفاً. كان في يدها كيس صغير كذكرى أخيرة من ابنتها ليلى.
"عزيزتي كلاويژ:
كانت الساعة الحادية عشرة حين فتح الباب. ناداني السجان فذهبت. لم يكن معه شيء ولم يعصب عيني. أخذني معه ومضى. دهشت للأمر. قبل ثلاثة أيام كانوا قد واجهوني مع آشنا محمود بيك. يبدو أنها لم تحتمل التعذيب واعترفت بالكثير من الأسرار. حتى أنها اعترفت لهم باسم أبي الحقيقي. كنت أضع اسم جدي إلى تلك اللحظة بدلاً من اسم أبي.
في غرفة كبيرة ومفروشة كانت أمي تنتظرني وقد أحضرت لي كيسين مليئين. قالوا لها: "بإمكانك البقاء هنا قدر ما تشائين". دعت أمي لهم بالخير.
آه يا أمي العزيزة، ترى بم كنت تفكرين خلال الساعات التي قضيتها في الطريق؟ كم مرة قلت في نفسك: "إنه لأمر يسير على الله أن تلين قلوبهم حين وصولي ويقولوا لي: "ابنتك بريئة مما نسب إليها! خذيها معك". سآخذ سيارة خصوصية وأتوجه دون توقف إلى البيت لأحتفل بإطلاق سراح ابنتي."
ترى كم كنت فرحة بتلك الخيالات وكم خطرت على بالك الوساوس وتوجست خيفة من الأمور السيئة!
روحي الغالية:
اليوم هو الثالث عشر من شهر حزيران. في هذا الشهر ينضج الشعير. أي أنه أصبح لي في السجن سبعة أشهر ونصف ... جلسنا لأكثر من ساعتين. ثم أعطيتها بلوزتي وبنطلوني لكي تأخذهما معها. تعانقنا ثم حملت كيسي وعدت حزينة مع السجان إلى رفيقاتي. استغربوا عودتي. ولما رأتني سيران أحمل أغراضي جرفتها موجة من الضحك وقالت:
تظن أمك أننا سنعمل مولداً هنا!
قلت لرفيقاتي:
يا بنات! لم أستوعب معاملتهم لي هذه المرة؟ لم يعصبوا عيني وتركوني أنا وأمي لمدة ساعتين. فوق ذلك قدموا لنا طعاماً فاخراً!
ردت پروين التي كانت تشاكسني على الدوام بصوت امرأة عجوز:
أي طعام؟ إياك أن يكونوا قد استدرجوك إلى جانبهم!
قلت غاضبة:
هش! لا تتفوهي بالسفاهات.
طيب طيب! لا تغضبي. والله كنت أمزح.
عزيزتي كلاويژ:
عند حلول العصر جاء السجان وأمرنا أن نتهيأ للاستحمام. بسرعة حملنا المناشف وألواح الصابون وثيابنا النظيفة وخرجنا. هنا لا يرتدي المرء ثياباً نظيفة إلا حين يمثل أمام المحكمة. وثيابي لم تكن نظيفة فحسب، بل كانت جديدة أيضاً. أما حمام السجن فهو حمام في المجاز وليس الحقيقة. لا يمكن فيه للمرء سوى أن يتبلل كالقط ويخرج. لأنهم سرعان ما ينادون ويقولون:" انتهى الوقت. خلاص."
في الليل اجتمعنا أنا ورفيقات السجن. وضعت أمامهن الفواكه والحلويات التي جلبتها أمي في زيارتها الأخيرة وبدأنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث. فجأة قالت پروين، التي تقضي حياتها في الهزل:
يا بنت! يبدو أن الليلة عرسك. وإلا فما مناسبة هذه الطيبات؟ والله لولا الخوف من الحراس الأشرار لطفنا حولك مزغردات مصفقات. من يدري! ربما عقدوا قراننا الليلة!
ثم قامت فجأة وعمدت إلى الجدار وكتبت عليه: "ذكرى ليلة 13 على 14 حزيران. ليلة رائعة. الساعة الحادية عشرة. التوقيع: سيران، پروين، ليلى." وضعنا نحن الثلاثة تواقيعنا تحت أسمائنا.
عزيزتي كلاويژ:

الآن بلغت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً. سمعنا قرقعة ثم صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب. تبادلنا نحن الثلاثة نظرات الحيرة، ظننا أنهم سيأمروننا بالكف عن الضوضاء.
كان ذلك السجان. جاء وقال لي: "هذه ورقة وهذا قلم. اكتبي وصيتك وضعيها على فراشك. في الثانية عشرة سيأتون ليأخذوك إلى منصة الإعدام". ثم أغلق الباب وراءه. بعد خروجه انخرطنا في الضحك وارتفعت قهقهاتنا. قالت سيران ساخرة: "لا تتعبي نفسك. أنا سأتكفل بكتابة وصيتك". ردت پروين: "لا فلتكتب هي وصيتها بيدها".
«أعزائي: ! أرجو منكم العفو، إنها ثالث مرة يأخذونني فيها إلى هذه المسرحية. لكن يا ترى كيف ستكون مسرحية هذه الليلة؟ هل ستكون نسخة عن المسرحيتين السابقتين أم أنها مختلفة؟ وعلى من سيعقدون قراني؟
أختك ليلى. ليلة 13 على 14 حزيران."

***

قيدوا يديها خلف ظهرها بإحكام وشدوا العصابة على عينيها. شنفت أذنيها وأرهفت السمع لعلها تهتدي إلى شيء. كان الصمت يلف الأنحاء. لكنها سمعت بعد قليل صوتاً أجش يتلو عقد قران سجينة على رجل ما. لم يكن ذلك مهماً. قالت لنفسها: "مسرحية أخرى". في تلك اللحظة شعرت بحكة في أخمص قدمها. أضحكها هذا الأمر. حكت بإحدى أصابع قدميها أخمص القدم الأخرى. شعرت بالدغدغة. تذكرت والدها عندما كان يعود من الوظيفة ظهر كل يوم حين كانت في الخامسة من العمر وكان يحلو لها أن تنط على صدره فيمازحها أبوها برهة من الزمن ويدغدغ أخمص قدمها فتضحك وتضحك حتى تكاد أنفاسها تنقطع. كانت أمها تتدخل وتمنعه من الاستمرار. حينها كان الأب يخرج من جيبه قطعاً من راحة الحلقوم ويقول: "وهذه لحلوتي". كانت تخطف راحة الحلقوم من يد والدها، تنزع غلافها وتلتهمها.
آه. يا لذلك الطعم الرائع.
أحست بطعم تلك الراحة في حلقها وعلى شفتيها، كانت إصبع قدمها ما تزال على أخمص القدم الأخرى حين ارتفع صوت ضابط يتلو هذا القرار: "قرار 117 من قانون العقوبات - بند الخارجين على النظام: حكمت المحكمة في اجتماعها الأخير ليلة 13 على 14 حزيران بإعدام ليلى غريب غفوري. ينفذ الحكم فور تلاوة القرار."
كانت ما تزال تصيخ السمع إلى جملة "ينفذ الحكم" حين امتزج طعم راحة الحلقوم على شفتيها المبتسمتين بوابل من زخات الرصاص.

الرِجل الهاربة

فرهاد بيربال

ولد عام1961 في مدينة أربيل. تخرج من كلية الآداب - قسم اللغة الكردية وآدابها في جامعة صلاح الدين. أكمل دراسته في جامعة السوربون بباريس. عاد إلى العراق بعد حرب الخليج الثانية. أنشأ "مؤسسة شرفخان البدليسي الثقافية". يعتبر كاتباً غزير الإنتاج يتسم أدبه بالسخرية وله عدد من المسرحيات والأبحاث والمجموعات الشعرية والقصصية. ترجمت بعض قصصه إلى العربية ومنها كتابه: " آكلو البطاطا" الذي نشرته دار الجمل في ألمانيا. من كتاب" أنطولوجيا القصة الكردية" اخترنا هذه القصة.
حين جلست في المقهى مستنداً بظهري إلى الكرسي، كنت أتوخى قليلاً من الراحة. لكنني أدركت على الفور أنني نسيت رجلي اليمنى في المعسكر.
على مدى سنين طويلة من حياتي لم أنس رجلي، ولو لمرة واحدة، في أي مكان. كانت تلك المرة الأولى. حين حاولت النهوض، تقدم إلي النادل الجنوبي الأسود وقال مستغرباً:
هاه! تريد مغادرة المقهى؟
طبعاً! ألا تلاحظ؟
ماذا؟
لقد نسيت رجلي اليمنى في المعسكر.
سألني وهو يضحك:
منذ كم سنة تخدم في الجيش؟
منذ شهرين فقط.
طبيعي أن تنسى! لم تتعود بعد.
وصلت بشق الأنفس وأنا أعرج إلى المعسكر. انتظرت مدة أمام مكتب الضابط إلى أن أذنوا لي بالدخول فدخلت. حييت الضابط تحية عسكرية وأنا ألهث وأقول:
عفواً سيدي. لقد نسيت رجلي اليمنى في ميدان العرض.
احتد الضابط وأخذ يوبخني قائلاً:
لا تدخل مكتبي لمثل هذه الأمور. هيا اذهب وأخبر الرقيب المسؤول عنك.
ذهبت إلى الرقيب وأخبرته بالقضية مكرراً ما قلته للضابط. رد علي الرقيب أيضاً بغضب:
عليك إخبار العريف بذلك.
عريفنا كان يسمى مجنون مجرم الحرامي. كانوا يسمونه "العريف مجنون". كان رجلاً طيباً جداً.

سار معي إلى مستودع كبير ومظلم يعج بالأيدي والأرجل والرؤوس والأنوف والآذان والأفخاذ وحتى الأصابع. قال العريف:
ابحث هنا.
لم أترك ركناً من أركان ذلك المستودع لم أبحث فيه. لكنني لم أعثر على رجلي المفقودة. كاد قلبي يتوقف من القهر. سألت العريف:
ماذا أفعل؟
لم تجد رجلك؟ إذاً أنت لم تضيعها في ميدان العرض.
بلى؛ قبل أن نبدأ العرض العسكري مساء، كانت رجلي معي.
أقول لك لم تضيعها في المعسكر أصلاً.
بلى.
أنت تكذب. لقد ضيعتها في مكان آخر.
أقفل العريف باب المستودع وقال:
اذهب إلى مهجعك اليوم. سنبحث عنها غداً.
بقيت هكذا دون رجل يمنى أذهب إلى ميدان العرض على مدى تسعة أيام. لم أكن راغباً في استعمال أرجل رفاقي. في اليوم العاشر قيل لي: "قواتنا ستدخل معركة مع العدو في جنوب العراق. سنرسلك إلى هناك!" قلت: "لا أقدر. تعوزني رجل يمنى!" فقالوا: "ولا يهمك؛ سنتدبر الأمر." رافقني العريف مجنون إلى المستودع المظلم، سحب رجلاً من بين كومة من الأرجل والأيدي والأفخاذ. ناولني إياها وقال:
خذ جرب هذه!
جربتها. كانت قصيرة جداً فقلت:
قصيرة جداً. ما تنفعني.
سحب رجلاً أخرى. رجلاً طويلة سوداء عليها شعر كثيف. سلمني إياها وقال:
جرب هذه الرجل!
أمعنت فيها النظر وقلت على الفور:
يا سيدي؛ وهذه طويلة جداً. لا تناسبني.
سحب هذه المرة رجلاً أخرى، رجلاً دامية ثقبتها عدة طلقات وقال:
خذ هذه إذاً!
كنت في الحقيقة سعيداً بضياع رجلي، وأردت أن أجعل فقدانها ذريعة كي لا أذهب إلى جبهة القتال، فقلت للعريف:
يا سيدي؛ هذه الرجل مثقوبة بالطلقات فضلاً عن أنها غير جميلة!
هنا، ثار العريف وغضب. عمد إلى رأسه فنزعها من بين كتفيه ووضعها على الطاولة وهو يقول:
انظر؛ هذه الرأس أيضاً ليست لي. لكن الواجب واجب. أنا أيضاً سأذهب إلى جبهة القتال.
ثم أعاد الرأس إلى مكانها وأردف بلهجة حادة:
أنت فقدت رجلك اليمنى فقط ومع ذلك تحاول التهرب من الذهاب إلى الجبهة.
حين شاهدت ذلك المنظر الرهيب، أشفقت على العريف واستغربت وبقيت حائرا لا أعرف سبيلاً للجواب. بعد لحظات سمعت صوته وهو يبث شكواه كصديق حميم: "أنتم الأكراد هكذا دائماً. تريدون أن تنفصلوا عنا نحن العرب". أثر في كلامه هذا كثيراً وجعلني أشعر بالخجل وأقول في قرارة نفسي: "عيب. يجب ألا يشعر العريف أنني أتذرع بفقدان رجلي للتهرب من القتال في الجبهة. يجب ألا يشعر بأن الأكراد جبناء". قلت له:
أرجو ألا تغضب يا سيدي.
ثم أشرت بيدي إلى كومة الأطراف المتراكمة وقلت:
هات؛ ناولني رجلاً.
أي رجل؟
على كيفك. حي الله!
حين عدت إلى البيت، سلمت أمري إلى الله وأخذت أرتب حقيبتي استعداداً للذهاب إلى الجبهة. فجأة وقعت عيناي على ورقة. كانت رسالة من رجلي المفقودة؛ كدت أطير من الفرح وأنا أفتح الرسالة. كانت رجلي قد كتبت لي أن الشرطة استوقفوها في سوق المدينة وطلبوا منها البطاقة الشخصية. لكنها لم تكن تحمل أي بطاقة فظنت الشرطة أنها فارة من الخدمة العسكرية. عرفوا أنها رجل كردية فقالوا: "ما دامت كردية وفارة، فسنرسلها إلى الجبهة!" لكن رجلي استطاعت الإفلات من قبضة الشرطة وولت هاربة حتى وصلت إلى بغداد. هناك حصلت على بطاقة مزورة وذهبت إلى كراج الكندي لتستقل حافلة نقل وتسافر إلى أربيل.
هزتني هذه الرسالة التي أرسلتها رجلي من الأعماق. تعجبت كيف استطاعت الهرب والوصول إلى أربيل؟ والأغرب أنها تدعوني للهرب مثلها إلى أربيل. كانت رجلي قد كتبت في تلك الرسالة بخط سيء:
"أرجوك عد. فأنا لا أستطيع العيش بدونك. اهرب في أقرب فرصة وتعال إلى أربيل. سنجد حلاً هنا. فإما أن نهرب إلى إيران أو إلى تركيا. ومن هناك سنواصل هروبنا إلى أوروبا حيث سنعيش في سعادة وهناء. عد في أقرب فرصة فأنا لا أستطيع الحياة بدونك."
قلبتني قراءة هذه الرسالة رأساً على عقب. تصبب مني عرق بارد. وتناهبتني عشرات الأفكار.
"عد في أقرب فرصة ممكنة. سنهرب إلى أوروبا!"
يا للهول!!
فكرت في نفسي: "أنا وشراييني ورأسي ودماغي، كنا أكثر تعباً من رجلي اليمنى. لكن كيف سأختار طريق العار إلى تركيا ومنها إلى أوروبا! مهما يكن فقد شعرت أنني بلغت تسعة وعشرين

عاماً، وحتى لو ذهبت حياتي ومستقبلي سدى في هذه الحرب المشؤومة، فهذا لا يبرر محاولتي البائسة في الهرب".

جلست على كرسي وحملت ورقة وقلماً وشرعت أكتب رسالة لرجلي اليمنى العزيزة. كتبت بقلب حزين ما أشعر به من ألم الفراق والبعد وبعيون دامعة:

"رجلي العزيزة:

اعذريني فأنا متعب كثيراً. ربما ستشعرين أنني أصبحت أمقت حياتي وأهرب منها. أهرب من نفسي. وأشعر أنني فقدت الحيلة ولست قادراً على أي شيء. لا أستطيع أن أهنأ بشبابي وملذاته لا في الوطن ولا في أوروبا. أنا ورفاقي، مجموعة من الشباب عاثري الحظ، محطمون منكسرون. أصبحنا ضحايا لزمن رديء. أصبحنا قرابين على مذبح الحروب القذرة التي يثيرها أولئك الوحوش الممسكين بمقاليد السلطة والمتحكمين في رقابنا. أنا مرهق جداً ومحبط.

إن كنت يا رجلي العزيزة مصرة على السفر إلى أوروبا فسافري والله معك. أرجو لك كل الخير والسعادة ..."

أنا والتمثال

محمد علي كوت

ولد عام 1964 في قرية تابعة لبلدة نصيبين / تركيا. هاجر عام 1983 إلى السويد واستقر هناك. له مجموعة قصصية بعنوان "المحكوم" صدرت عن دار ولات في السويد عام 1994 ومنها اخترنا هذه القصة.

كنا مجتمعين عند تمثال فوق مرتفع على حافة بحيرة. كنا عشرة أشخاص، خمس فتيات وخمسة من الذكور ما عدا التمثال.

كان يبدو لي ألا أحد يهتم بوجود التمثال سواي. ربما لأنني كنت الوحيد الغريب عن المنطقة بين ذلك الجمع! ما كان واضحاً ما الذي يمثله التمثال وإلام يرمز! فلم تكن ثمة كتابات توضيحية في قاعدته. ربما كان تمثال بطل ... لكن سحنته لم تكن سحنة أبطال. كان منتصباً مباعداً بين قدميه كأنه يوشك على الخطو. كان في يده عكاز لا يشير إلا إلى غابة منبسطة أمامنا وحاجباه الغليظان يبدوان كالنباتات المنسدلة من فوق سور، وأنفه الضخمة تزيد من عدم التناسق الظاهر في ملامح وجهه. لم تكن قامته فارعة ولا قصيرة. لكن مع ذلك فقد كانت قاعدته الرخامية تشي بأنه كان في زمنه رجلاً جليلاً معتبراً.

كنا قد فرشنا مائدتنا بجانب التمثال بحيث نتمكن من هناك من التفرج على مياه البحيرة وخضرة الغابة. كان اختيارنا لتلك البقعة صائباً بحيث كان بمقدور المرء أن يقضي سحابة يومه هناك وينظم القصائد.

كنت مستنداً بظهري إلى قاعدة التمثال أتأمل أعلاه. توهمت في بادئ الأمر أنه يهددني بعكازه فخفت. لكنني قلت لنفسي بعد مرور بعض من الوقت: "كيف للمرء أن يخاف من تمثال!"

كانت الشمس تغيب رويداً رويداً في الأفق وتفسح الأجواء للقمر كي ينشر أنواره. مضى زمن خيمت بعده علينا سماء بلا غيوم تلمع فيها نجوم كثيرة وامتد أمامنا منظر خلاب لا يمكن وصفه بالكلمات. كنت أمد يدي بين الفينة والأخرى إلى الفواكه المتنوعة على المائدة وأحتسي الشراب. لا أدري لم كنت أحتسي متوتراً!

أخيراً قطع أحدنا الصمت بعذب كلامه فتحدث عن مواضيع رومانسية وعن الطقس. في هذه اللحظات هبت نسمة عليلة زادت الأجواء رومانسية. واصل صاحبنا الحديث وانتقل إلى موضوع البرد. كان كلامه مؤثراً حتى شعرنا بالبرد يسري في أوصالنا. كان يرفع كأسه خلال حديثه، فنرفع كؤوسنا نحن أيضاً ونشرب. تحول صاحبنا إلى الحديث عن الكاتب هانس كريستيان أندرسن وكتابه "أميرة الثلج". حكى لنا باختصار موضوع تلك القصة: "صنع الساحر مرآة. كان كل من ينظر فيها لا يرى إلا الجانب التعيس من الحياة. بعد ذلك رغب الساحر في أن يرفع تلك المرآة إلى السماء حتى تنظر فيها الملائكة. لكن المرآة انكسرت في طريقها إلى السماء وتشظت إلى قطع صغيرة ناعمة تسقط على الأرض كالمطر. أصبح كل من أصابه قطعة من تلك المرآة لا ينظر إلى الحياة إلا بمنظار أسود".

ناقشنا نتاجات هذا الكاتب وقلت: "أنا معجب بقصته المسماة بائعة الكبريت أكثر من غيرها". لكنني سرعان ما ندمت على كلامي.

دارت الرؤوس كلها نحوي وحدقت في العيون وأصغت إلي الآذان. انتظر الجميع أن أكمل الحديث وأشرح الأسباب. لكن لم يكن لدي ما أقوله لهم. كنت راغباً تلك الليلة في الاستماع والاستماع فقط. ولما يئس الجمع مني وقطعوا كل أمل مضوا يتحادثون ويشير بعضهم لبعض إلى عناوين القصص والحكايات التي يحبونها ثم يدخلون في أحاديث أخرى كثيرة.

أصبح وجودي ووجود التمثال سواء فلم ينتبه إلينا أحد! استحسنت ذلك في البداية فصرت أرقب الجماعة فرداً فرداً وأحلل لنفسي شخصياتهم. لكن سرعان ما ضجرت من هذا العمل وأردت الإعلان عن وجودي. غلبتني إرادة التحدث إلى أحد ما ومباسطته في الكلام. وفي آخر نظرة تفحص لي اكتشفت فتاة على يساري. كانت لوحدها ولا تبعد عني سوى خطوتين. أما الآخرون فقد كانوا مثنى مثنى، ذكراً وأنثى!

بقينا، أنا والفتاة والتمثال. ولأن التمثال حجر لا روح فيه فقد أدركت أنني والفتاة نشكل زوجاً كالآخرين ولم أجد مانعاً من اقترابي منها والتحدث إليها. وحينما اكتشفت أنها تسترق النظر إلي زادت رغبتي في مشاركتها الحديث، أي حديث.

ودون أن أعرف ما الذي سأحكيه لها، نهضت لأذهب. مع نهوضي شعرت بركلة قوية على ظهري فجأة ... دارت بي الأرض وخارت ركبتاي ولم أعد أرى أمامي ... انكمشت على نفسي في مكاني وأطلقت صرخة عفوية.

هرع الجميع نحوي وسألوني بصوت واحد:"ماذا حدث." التفت ورائي. لم أجد سوى التمثال فقلت: "التمثال؛ لقد ركلني التمثال." ضحك الجميع وقالوا غير مصدقين: "ما ألطف مزاحك يا رجل!" بالفعل لم يكن ورائي أحد سوى التمثال. وعندما التفت إليه رأيت أن قدميه لم تكونا في موقعهما السابق؛ حتى العكاز الذي كان في يده بدا مرتفعاً قليلاً. كانت عيناه الحجريتان ترمقانني بنظرات حادة وكأنه يقول لي: "لو اقتربت من الفتاة أكثر، لضربتك على رأسك بهذا العكاز."

انفض أصحابي كما كانوا مثنى مثنى وأخذوا يتنزهون في الغابة؛ بقينا مرة أخرى، أنا والفتاة والتمثال من ورائنا. كنت جالساً لا أجرؤ على الحركة خوفاً وأفكر في طريقة تنقذني من هذا التمثال الغيور. كانت الفتاة مشغولة بعنقود عنب تتناول حباته وترمقني بين الفينة والأخرى مبتسمة.

بقينا على تلك الحال مدة من الزمن. قررت أخيراً القيام والذهاب نحوها. سكبت آخر كأس من الشراب في جوفي واستجمعت كل ما لدي من شجاعة ونهضت بعصبية. لكنني ما إن نهضت حتى تلقيت ركلة أخرى أكثر قوة من سابقتها بعشرات المرات. سقطت على وجهي وتمددت على الأرض. لم أغب عن الوعي لكن ألماً حاداً دب في كل عضو من أعضائي ولم أستطع الحركة ولم أصدر أي صوت وكأن أنفاسي قد تقطعت.

كان يظهر أن الفتاة لم تستوعب ما يجري فأخذت تضحك بدل أن تهب لمساعدتي. آلمني ضحكها كثيراً.

لا أدري كم بقيت ممدداً على الأرض، لكنني حين عدت إلى رشدي كان الآخرون يعودون من نزهتهم في الغابة. لم أرو لهم ما جرى لي. وحتى لو رويت الحادثة لما صدقني أحد. كما أن الفتاة لم تعقب على الحادث لكنها كانت تبتسم كلما وقع نظرها علي.

تأخر الليل وحان وقت العودة. جمعنا أغراضنا وعدنا إلى المدينة. انصرفنا بعد الوداع وذهب كل واحد إلى بيته لكنني عدت أدراجي إلى التمثال.

درت حوله بضع دورات وبدأت أمطره بآلاف الشتائم. لكنه لم يتأثر وبقي منتصباً بصمت ككل التماثيل. قلت في نفسي: "إنه لا يرد لأن الفتاة ليست هنا". لكنني لم أدعه وشأنه. ارتقيت قاعدته وحاولت إسقاطه لكن قوتي لم تكفني لذلك. تعلقت بعكازه وحاولت كسره فلم ينكسر. أدركت أنني غير قادر على الإضرار به على تلك الشاكلة فنزلت وذهبت إلى حافة البحيرة وحملت حجارة كثيرة وعدت أرجمه بها. لم ينفع ذلك أيضاً. كانت الحجارة ترتد عنه وتصيبني. عرفت أنني سألحق الأذى بنفسي لا به. ألقيت ما تبقى من الحجارة على الأرض وأزمعت على العودة خائباً كسيراً إلى البيت.

قبل أن ابتعد عنه خاطبته قائلاً: "لا تظن أنني سأتركك وشأنك هكذا؛ سأذهب الآن لكن ليكن في علمك أنني سأعود غداً. لن أدعك حتى أزيحك عن قاعدتك."

الحلم الأخير

جيا مازي

ولد عام 1960 في قرية تابعة لماردين / تركيا. تسنم منصباً في إدارة المعهد الكردي باسطنبول مدة من الزمن. له كتب مطبوعة كثيرة تتوزع على المجموعات الشعرية والقصصية وكتب البحث الأدبي. من مجموعته القصصية (مواضيع صغيرة) التي نشرتها دار نشر "دو" في اسطنبول، اخترنا هذه القصة.

كان يكتب القصة منحنياً على طاولة. يتأثر بأحوال أبطالها وتقلباتهم. تنفرج أسارير وجهه أحياناً ويتجهم أحياناً أخرى. يخرج من حلم ليدخل في آخر. يشير بيديه في الهواء ويقلب الصفحات هنا وهناك. كان قد وصل إلى الفقرة الأخيرة من آخر قصة في مجموعته ويستعد لحفظها في جهاز الكومبيوتر. لكنه كان مرهقاً من قضاء نهاره في العمل، فوضع رأسه على يديه المعقودتين فوق الطاولة وغفا.

كان جالساً في بيت قريب من المقبرة على طرف المدينة. ينظر إلى حفار القبور. كان حفار القبور وحيداً يحفر بالمعول قبراً دون أن يستريح. كانت ريح الخريف تسف الغبار وتذروه على الرجل فيمسح بين الفينة والأخرى عينيه مضطراً.

كان يدخن سيجارته وهو يحدق في ذلك المنظر بانتباه. هدرت الرعود ولمع البرق فجأة فهب واقفاً. نزل الدرج بهدوء وتوجه إلى المقبرة. ولما رأى كلبه وقطته تتبعانه قال في نفسه: "لا بد أن يحدث شيء اليوم."

حينما اقترب من حفار القبور سلم عليه وسأله: "لمن هذا القبر يا ترى؟". وضع الرجل معوله جانباً ومسح العرق بسبابته عن جبينه وقال: "قيل لي أن أحفر قبراً لطفل مقابل أجر. وأنا أحفره كما ترى."

سأله ثانية: "لماذا إذاً تحفر قبراً كبيراً؟" رد الرجل: "لم يمض سوى وقت قصير حتى قيل لي إن رجلاً قد انتحر وعليك توسيع القبر. والآن يقال أن أباً قتل ابنته؛ يبحثون عن قبر لها. ربما يكون هذا القبر من نصيبها. من يدري؟"

لم يطرح على حفار القبور أسئلة أخرى. كان يدور حوله غارقاً في التفكير سائلاً نفسه: "عجباً لم كثرت حالات الموت في هذا اليوم؟ ربما حلت كارثة بالبلد وأنا الوحيد الذي لم يشعر بها؟"

واصل الرجل حفر القبر وهو يقول: "كان في حينا رجل محترم. لكنه ضجر من حياته. يقولون إنه انتحر أيضاً." لم يسمع هذه الكلمات. جاء ووقف على رأس الرجل وسأله: "بكم تحفر القبر؟"

رد الرجل: "والله يا أخي المسألة ليست في الأجرة. المهم هو المكان. حجز مكان وحفر قبر فيه يكلف ألفي دولار. وهناك كثيرون يحجزون أماكن الدفن مسبقاً ويدفعون ثمن الأرض والأجرة

سلفاً وأنا أحفر لهم."
استغرب هذا الكلام وقال: "سبحان الله! إذا مات امرؤ الآن فلن يجد مكاناً يدفن فيه؟" رد الرجل: "لا والله يا سيدي. وصل سعر بقعة أرض صغيرة إلى ما لا يعرفه سوى ربك وحده. أصبح الناس في بلادنا يأكلون هم مكان دفنهم أكثر من هم معيشتهم اليومية."
أخرج من علبة دخانه سيجارة لنفسه ثم مد العلبة لحفار القبور أيضاً. مضت نصف ساعة من الصمت بدأ بعدها الكلام بصوت مرتفع مما جعل حفار القبور يتوقف عن العمل ويبادله الكلام.
قال: "لو طلبت منك الآن هذا القبر فبكم ستبيعني إياه؟" فرد عليه حفار القبور بسؤال: "لمن تريده؟" فأجابه: "وما دخلك أنت؟ فليكن لي مثلاً."
قال حفار القبور: "ناولني ألفي دولار والقبر لك. أصلاً كل ساعة يأتيني أحد ويشتري. لم تعد ثمة أمكنة شاغرة. يقال إن شابين انتحرا بسبب الديون المتراكمة عليهما وسيأتونني بجثمانيهما بعد قليل. رجل محترم آخر قد انتحر. أترى هذا القبر الصغير هناك؟ إنه قبر طفل صغير. بالكاد وجدت له مكاناً بين قبرين. المسكين! وجدوه جثة هامدة في ظل كرمة."
كلما أمعن الرجل في الحديث عن الموتى، زاد خوفه حتى لم يعد بمقدوره الإصغاء إليه أكثر. أخرج ألفي دولار بيد مرتعشة ومدها لحفار القبور. صمت الاثنان برهة من الزمن خيم فيها الصمت على المكان كله. حتى الكلب والقطة صمتا. وحينما عزم على العودة إلى البيت ومشى بضع خطوات، التفت وقال: "الله يخليك. لا تعط قبري لأحد."
حين بدأ يسير في الطريق ورأى المدينة خالية من البشر زاد خوفه واستغرابه. كان ينظر في كل اتجاه فلا يرى أحداً لكنه يسمع صوت العويل. اقترب من المصطبة في فناء داره وحاول أن يستند بظهره إلى جدار الإيوان لكن شيئاً ما سحب رجله فجأة ولم يجد نفسه إلا وهو معلق في سقف الغرفة بخطاف حديدي. تململ في البداية قليلاً لكنه سرعان ما استسلم وأسبل ذراعيه. بدأ ألم فظيع يسري من أصابع قدميه ويمتد نازلاً إلى رأسه. كان ثقل لا يطاق يمتزج بالظلمة وينحدر إلى عينيه. لم تمر سوى هنيهة حتى شعر بالألم واصلاً إلى حنجرته وأحس بالاختناق. كان قد أصبح شبه ميت حين سمع صوتاً يقول: "بالله عليك لماذا اشتريت ذلك القبر؟"، كان صاحب الصوت من أعز أصدقائه، واقفاً يطرح عليه ذاك السؤال. رد عليه وهو يتحشرج: "هكذا بلا سبب! أردت ألا أشغل أحداً عند موتي في البحث عن قبر لي. لم أجد أفضل من حجز مكان لي فالناس يتخاطفون الأمكنة." رد صديقه: "لا يا صاحبي لا. والله لن أدعك تمضي."
فقال المعلق بالسقف: "لماذا يا أخي؟ أتمنعونني من الموت براحتي؟" رد صديقه: "لا تمت! سنعيد قبرك إذا شئت." فرد يائساً: "والله لو أذنت لي لمت مرتاحاً. لكن...ليكن الأمر كما تراه مناسباً."
أسرع صديقة إلى المقبرة وأعاد الألفي دولار من عند حفار القبور ثم رجع على جناح السرعة إلى بيت صديقه. لم يكد يدخل الغرفة حتى انقطع به الحبل فسقط على الأرض بقوة.
كان قد سقط عن كرسيه. نهض وهو يفرك عينيه فرأى نفسه على الأرض. نظر مشدوهاً إلى أوراقه وجهاز الكومبيوتر على الطاولة. ضحك وهو يقول: "الحمد لله. بلغ هذا الكتاب أيضاً نهايته."

الوحدة

حسن مته

ولد عام 1957في قرية تابعة لمدينة ديار بكر / تركيا. غادر بلاده عام 1987 وتنقل كثيراً حتى استقر به المقام في السويد حيث يعيش إلى الآن. يعتبر من أعلام القصة الكردية القصيرة. اصدر عدة مجموعات قصصية منها: "سميرنوف 1991" و "آبيلوغ 1998" و "هذه الليلة 2009" صدرت له أيضاً روايتان هما "كلمات آثمة" و" متاهة الجن" التي ترجمت إلى العربية وتصدر عن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- مشروع كلمة. من مجموعته "هذه الليلة " اخترنا هذه القصة.

نحن وحيدون في الغرفة. أقول نحن وأقصد: أنا، الوحدة وثالثنا الصمت. أنا جالس على الكرسي الخشبي بجانب المنضدة. في الجهة المقابلة ينتصب كرسي مخصص للضيوف، لا أحد يجلس عليه. إنه فارغ مثل زجاجة الخمر التي أمامي، مثل غرفتي هذه.
غرفتي ساكنة صامتة. صامتة ليس لأن الوقت ليل والظلمة تعم الأرجاء! لا، بل الأمر كذلك دائماً. والآن أيضاً فإن غرفتي .... أصلاً ليس لي سوى هذه الغرفة،التي يلفها الصمت. أقبع فيها مثل أولئك النساك والشعراء والمجانين الذين ينتظرون الإلهام. أنا أيضا أنتظر.
أنتظر أن يأتي الليلة فأتحدث في أمور مختلفة، أعيش لحظة مغايرة. لا أريد أن تمضي ليلتي هذه ككل الليالي الرتيبة المعهودة. ومع أن غلالة سوداء تلف الدنيا في هذه اللحظة والأرض غارقة في بحر الصمت، فإنني أعيش على أمل أن تزورني الليلة. إنني أنتظر وأترقب.
الكرسي المواجه لي، كرسي الضيوف ما يزال فارغاً كما قلت وأنا أتقلب على جمر الانتظار، انتظار أن يطرق بابي في هذا الليل. إن لم يأت الليلة أيضاً، وهذا ما أخشاه، فإنني سأكتب .... سأكتب عن الذي يمنعه من المجيء. أما إذا أتى فلدي ما سأقوله له. سأكون واضحاً وصريحاً وأبوح له بكل شيء. لن أكتم شيئاً من مشاعري. سأطلب منه ... سأرجوه أن يأتي في المرة القادمة باكراً ... لا بأس فليأت لزيارتي على حين غرة.
لكنه لا يأتي. يبدو أنه لن يأتي الليلة أيضاً. يعلم الله أن مكروهاً حصل له. نعم كل شيء ممكن، قد يكون هناك أمل ما تحطم لديه في هذه الليلة الباردة الساكنة.
لماذا لا يتحرك شيء في هذه الليلة؟ لا أحد يعلم. ما زلت قابعاً في خيمة الصمت كالرهبان. الوحدة ضبع يحوم في غرفتي.
أنهض من الكرسي وأذهب إلى الجهة المقابلة لأجلس في مواجهة نفسي على الكرسي الفارغ. أجلس وكأنني هو في هذه اللحظة. أصبح ضيفاً على نفسي وأقول لضيفي:
أهلاً وسهلاً
أرد عليه، بكلمة أخرى أرد على نفسي. وهكذا ... وكما ترون أنتم أيضاً، فإنني أختلق صوتاً في هذه

الغرفة الصامتة وأتكلم مع نفسي. إنه اختراعي؛ ولكي أزيد على هذا الاختراع، أشعل سيجارة وأضعها على المنفضة فوق الطاولة بيني وبين نفسي. الآن، الشيء الوحيد الذي ينبض بالحركة في هذه الغرفة هو دخان السيجارة: الاختراع رقم اثنين.

أريد أن أستعمل صوتي الذي ابتدعته فأقول لذاتي التي على كرسي الضيوف:

طيب. لم تحدثني؛

بم أحدثك؟

ألا شيء تحدثني به؟

وهل بقي شيء لم نتحدث فيه؛

همممم؛ ربما لم يبق شيء نتحدث به في هذه الدنيا؛

يبقى هو صامتاً إلى أن يصبح جزء من السيجارة، بقدر سلامية أصبع، رماداً متطاولاً. أبقى أنا صامتاً أيضاً. نبقى صامتين. فقط يحدق أحدنا في الآخر، أنا أحدق في "أنا" الذي يقابلني دون أن يتحرك أحدنا عن موقعه؛ لا شيء يتحرك سوى دخان السيجارة الذي يتلوى في أجواء الغرفة. يتلوى بصمت.

أقول لنفسي الجالسة على الكرسي المقابل:

إذاً حدثني عن الأولاد. حدثني عن أمهم.

أقول غاضباً:

فلتــ ... أم الأولاد.

أرد على نفسي:

لا تغضب هكذا. لا ترتكب إثماً، لا تدعني أرتكبه، لا تدعنا نأثم.

ثم أقول:

ما هذا؟

فأرد:

هذه خطيئة.

لكن ما هي الخطيئة التي تعنيها؟ كيف تفسرها لي؟

أسأل نفسي على الكرسي المقابل وأجيب:

الخطيئة ... إنها شيء .. شعور وإحساس .. إنها قوة لذيذة ورغبة تجذب المرء إليها.

أهي لذيذة لهذه الدرجة؟

لذة الخطيئة فضول؛ لذلك لا يجاهر المرء بها بالرغم من حلاوتها. يحاول جهده أن يخفي خطاياه وآثامه. دائماً وأبداً.

مثل ماذا؟ مثلاً؟

مثل أن .. كيف أشرح لك؛ .. تخيل أنك تنام مع زوجة صديق لك في فراشه .. هكذا هي الخطيئة.

أثور وأقول لذاتي:

اغرب عن وجهي .. إنك تقصدني بذلك.

أرد:

طيب لن أتحدث بعد الآن.

وأبقى أنتظر. ودون أن يأتي تلك الليلة أيضاً، أنتظر وما زلت ■

فرات جوري. أنطولوجيا القصة الكردية. ص 39. منشورات نودم. اسطنبول 2003

مجلة نودم. العدد 2. ستوكهولم 1994.

تاريخ مهاباد. سيد محمد صمدي. طهران. 1990

Kurdische Texte und kurdische Studien. Hugo Makas. APA- Philo Press Amsterdam 1979

الكمبروك: نبات ينمو في البراري ويرتفع بقدر متر واحد عن الأرض. له ثمار تشبه ثمار الزيتون. يمكن حفظها كأحد أنواع المخللات.

مدارات

آراء
كتب
وثائق



خلدون الشمعة

بومة منيرفا

المركزية الأوروبية والصور النمطية للشرق

في الميثولوجيا الرومانية تمثل "منيرفا" إلهة الحكمة، بينما تمثل البومة رمز الحكمة. وعندما يقول هيغل في عبارته المأثورة إن: "بومة منيرفا لا تحلق إلا عند الغسق" فنه يحيل العقل بذلك الى مفهوم مركزي يحتكر العالم الجرماني أبرز تجلياته. فالتاريخ كما يراه قد انتقل من الشرق الى الغرب، وتحليق بومة منيرفا الذي لا يحدث إلا في الهزيع الأخير من الليل، معناه الوصول الى نهاية التاريخ. كانت آسيا هي البداية، ولكن أوروبا هي النهاية كما يقول. وأما الحضارات القديمة، وبخاصة الحضارات الشرقية القديمة كالصينية والهندية، فانها تمثل الشرق حيث اللاعقلانية والاستبداد الشرقي والتخلف والقسوة والبربرية». هذه الخارطة الحضارية التي تفوح منها رائحة العنصرية، فضلا عما تتسم به من تعميم مخل، ربما تصلح مدخلا للحديث عن النزعة المركزية الاوروبية msirtnecoruE التي تتحكم في صناعة الصورة المأساوية للعرب والمسلمين عموما، والسوريين خصوصا، الذين تركزا لمحنتهم عراة بلا سلاح في مواجهة وحش الموت والاستبداد والتهجر. ولا شك ان هذه الصورة في مثالها السوري تحديدا تذكرنا برواية 4891 للروائي البريطاني جورج أورديل، الذي تحدث عما يدعوه بجرائم السياسة التوتاليتارية، وهو يعني بها الاعلام الذي افرغ اللغة من مضامينها الاخلاقية بحيث تعني الشيء ونقيضه، كما فعل روبسبيير في حديثه عن"استبداد الحرية" أو كما كان لينين يردد في كلامه عن "المركزية الديمقراطية". وفي هذا المقال سأقتصر على تقصي بعض العوامل البنيوية التي أسهمت وما زالت تسهم في بلورة هذه الصورة المأساوية على مستوى الوعي واللاوعي، والبحث عن كيفية تشكلها وانعكاس ذلك على صياغة الآخر ضمن أطر معرفية محدودة سلفا، أطرٍ يطلق عليها علم الاجتماع مصطلح «التنميط السلبي». هذا النموذج الذي يؤكد وجود خصائص جوهرية أو طبائع ثابتة للآخر، لا بد أن يؤدي الى تعزيز التصورات المسبقة عنه بحيث يمكن الحط من شأنه عن طريق ما يدعى بـ«الأَبْلَسَة» noitazinomeD أي تحويل الآخر الى رمز للشر المطلق فتصدر التقارير الاعلامية المرفوعة الوتيرة والتي تطنب في الحديث عنه وعن حقوق الانسان التي سلب منها، وعن ارتفاع عدد القتلى (كما هو حال الشعب السوري) ثم تحجم عن تحويل القول الى فعل . ولا



شك في ان المركزية الاوروبية يمكن ادراجها ضمن نزعة أشمل منها هي المركزية الإثنية، ونعني بها الميل الى الحكم على خصائص الحضارات الاخرى من موقع المجموعة الاثنية التي ينتمي اليها المراقب. وغالبا ما تكون الاحكام الثقافية الحضارية التي يسفر عنها هذا التقييم للآخر سلبية الى حد الحط عمدا من شأن الثقافات المغايرة. أوروبا مركز العالم: وبهذا المعنى فإن المركزية الاوروبية تصبح شكلا من اشكال هذه المركزية الاثنية، تنطلق من فكرة تكريس أوروبا مركزا للعالم، وتعد ثقافتها متفوقة على الآخرين. ولعل من أبرز الامثلة على الفكر الذي تتحكم فيه النزعة المركزية الاوروبية زعم هيغل ان افريقيا لا تشكل جزءا من تاريخ العالم، وزعم ماركس بعده بسنوات أن الهند ليس لها تاريخ وأن من مآثر الاستعمار البريطاني انه بفعل ما اسماه هيغل «مكر التاريخ» سيدخل شبه القارة الهندية في التاريخي الاوروبي. بإلغاء التاريخ المغاير اذن، توفر النزعة المركزية الاوروبية للباحث والناقد والمؤرخ والفيلسوف الغربي (غير المستقل) فرصة اللجوء عن وعي أو لا وعي الى ما يراه من السبل لالغاء الآخر المغاير وترسيخ سلطته عليه. وبهذا الإلغاء الذي يبدأ بحق القوة ليتحول الى قوة الحق، يضفي المشروعية على تصوره له، ويظهر هذا التصور باعتباره حقيقة كونية لا يرقى اليها الشك. ولعل من أبرز مؤشرات المركزية الاوروبية كما يبين خوسيه راباسا (asabar) ان خارطة العالم التي رسمها الرحالة والجغرافيون الاوروبيون أكدت ان هذه القارة هي مركز ومصدر المعنى الحضاري الثقافي، فضلا عن المعنى المكاني للعالم بأسره. فهؤلاء الرحالة هم الذين يطلقون الاسماء التي تروق لهم على مختلف بقاعة. وبهذا الاعتبار يتحول العالم العربي «المكتشف» الى «شرق أدنى» و«شرق أوسط» يحدد اسمه الجغرافي الطابع مدى قرب أو بعد هذا الشرق عن أوروبا. وعلى رغم ان هذه المصطلحات لا يمكن ان تصمد لأي مراجعة مدققة فإن المناهج الدراسية الاوروبية والعربية ما زالت تتداولها بقوة الاستمرار ودون تمحيص أو اعادة نظر. ولنأخذ مصطلح «الشرق الأدنى» على سبيل المثال. ما المقصود منه؟ وما مدى اختلافه عن مصطلح «الشرق الاوسط» الذي يبدو للوهلة الاولى وكأنه مرادف له؟ ولماذا يستعمل المصطلحان وكأنهما يشيران الى معنى واحد مشترك..؟ الجواب عن ذلك ان "الشرق الادنى" مصطلح أقدم تاريخيا من مصطلح «الشرق الأوسط». كما انه مصطلح غير محدود ويشير الى مجموعة من الدول بدءا من مصر وانتهاء بايران. وبعبارة أخرى فإنه يفترض أن يغطي مساحة جغرافية تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وبحر إيجه حتى يصل الى الهند. ولم تكن الدراسات الأوروبية والأمريكية تشمل بعبارة «الشرق الأوسط» ايران باعتبارها تشكل جزءا منه فحسب، بل تعدتها الى أفغانستان والهند والتيبت وحتى بورما. أما مصطلح «الشرق الأدنى» قد اقتصر معناه على تركيا ودول البلقان. كما أن مصطلح «الشرق الأقصى» ملتبس بدوره ويذكرنا بالمصطلحين الآنفي الذكر من حيث افتقاره الى الدقة، فهو يشير عموما الى ما سمي بـ«الشرق». وهذا الشرق لا يقتصر معناه على الشرق العربي بل يشمل دول شرق وجنوب شرق آسيا كالصين واليابان وكوريا وتايلاند. المركز والأيديولوجيا: آية ذلك كله ان هذه المصطلحات، أو أدوات البحث المعرفي الغربية المنشأ والدلالة، صكت وشاعت وانتشرت رغم افتقارها الى الدقة، ولكنها لأسباب تتصل بقوة المركز الأوروبي وكونه صانعا لتاريخ العالم، صارت مصطلحات مألوفة تستمد شرعيتها منه. وهذا الاتجاه يبدو واضحا في الاعلام الغربي عموما عندما توصف الدول العربية بانها «جيران اسرائيل»، و عندما يتردد كلام عن ضرورة «احلال السلام بين اسرائيل وجيرانها». فكأن هذه المنطقة الحضارية بأكملها لا وجود لها يتعدى الوجود السكاني «الديمغرافي» فهي تستمد هويتها من كونها مجاورة للدولة العبرية، وهكذا ينقلب المصطلح الجغرافي الى مصطلح آخر تستبطنه الايديولوجيا. ويمكن القول ان فكرة أوروبا التي تمثل وحدة حضارة جامعة مانعة تمثل مركز العالم، وتدل على تفوق المركز على الاطراف تبلورت واكتملت في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر، وقد تعززت هذه الفكرة على نحو تزامن مع نجاح حركة الاكتشافات الجغرافية والاستعمار والتجارة، وما رافق ذلك من رسوخ السلطة الفكرية والمؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات التي أنشأها المركزالاوروبي في الاطراف، فتمكن بذلك من احلال القيم الحضارية الاوروبية محل القيم المحلية. ويبين إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق (8791 م) كيف ان النزعة المركزية الاوروبية لم تقتصر على التأثير في العرب والمسلمين فحسب، بل أدت الى صناعة تكوينات ثقافية بديلة تنسجم مع تَصور الغرب عن الشرق في مرحلة ما بعد عصر النهضة. كما رأى بعض دارسي الحضارة ان الانثروبولوجيا أي (علم الانسان) الذي يبحث في اصول الجنس البشري وأعراقه ومعتقداته وعاداته بدأ كشكل خام من أشكال البحث المعرفي الذي لم يكن قائما قبل حركة الاستعمار وما رافقها من مفاهيم مركزية أوروبية تشمل المعرفة والحضارة معا. وقد كانت صناعة «شرق» مغاير للغرب، يمتلك خصائص عنصرية ثابتة لا تتغير، إحدى نتائج هذه الأنثروبولوجيا الاستشراقية التي كشف عنها إدوارد سعيد الذي انطلق في نقده من فكرة ميشيل فوكو حول علاقة شرعية المعرفة بالقوة، مبرزا خطل مفاهيم شائعة مثل «العقل العربي» و«النفسية العربية» و«العقلية العربية» وغير ذلك من المصطلحات العنصرية ذات الطابع الجوهراني الذي يصطنع نقاط المغايرة اصطناعا فيفسد البحث الذي يزعم لنفسه نشدان الموضوعية. وهذا يعود إلى كونها صادرة عن المركز الأوروبي المهيمن الذي يفرضها على الأطراف المهيمن عليها بصرف النظر عن مجانبتها للحقيقة والواقع. النموذج الآري: وإذا استثنينا أبحاثا شهيرة مثل كتاب الغصن الذهبي للسير جيمس فريزر الذي عرف جبرا إبراهيم جبرا القراء العرب به، وهو سفر ضخم يعقد مقارنات بين ثقافات مختلفة بهدف البرهنة على وجود نقاط تشابه تجمع بينها، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية التي ازدهرت في مستهل القرن التاسع عشر أفرزت نظاما تراتبيا للتمييز بين الأعراق والأجناس البشرية يمكن اعتباره أحد أعمدة الفكر العنصري. وفي تلك الفترة ظهرت بفعل هيمنة النزعة المركزية الأوروبية فكرة عنصرية خطيرة مفادها أن الحضارة الإغريقية كما تتمثل في المناهج الدراسية الغربية، هي في حقيقتها أوروبية أو بالأحرى آرية تعكس ما يدعى بـ«النموذج الآري». ولكن هذا النموذج كما



بين الباحث البريطاني مارتن برنال في كتابه «أثينا السوداء» تمت عملية تلفيقه من قبل الباحثين العنصريين في القرن التاسع عشر عندما أصروا على حدوث غزو آري من الشمال (لا تشير إليه المصادر التاريخية إطلاقا). وهكذا أصبحت حضارة اليونان (الكلاسيكية) أوروبية المنزع، بينما ألح الباحثون أنفسهم على نفي الدور الذي قامت به الحضارتان المصرية والفينيقية في تكوين هذه الظاهرة. ويشير برنال إلى أن عام 5871م هو الذي حدثت فيه عملية تلفيق التاريخ هذه. ففي ذلك العام بدأ الترويج للمشروع العنصري الذي يؤكد النزعة المركزية الأوروبية، والذي أصبح جزءا لا يتجزأ من مناهج التعليم التي ما زالت تنكر الجذور الآسيوية والإفريقية للحضارة اليونانية (الكلاسيكية) على مدى قرنين من الزمان. مفهوم الحضارة المسيحية اليهودية: وقد تزامن مع عملية التلفيق هذه بروز مفهوم الحضارة (المسيحية اليهودية) المستمد من العهد القديم، والذي يصدر عن منطلقات مناهضة لحضارات سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين في الفترة التي سبقت الإسلام وأعقبته. وهذا المفهوم يمثل بدوره وجها آخر من وجوه النزعة المركزية الأوروبية التي أثرت وما زالت تؤثر في بلورة المناهج المدرسية. وثمة أمثلة عديدة على طبيعة الترسانة اللغوية الاصطلاحية التي ارتبطت بهذا المفهوم والتي تؤثر باستمرار على الطريقة التي تنظر فيها الأنظمة المعرفية الغربية الصنع إلى العالمين العربي والإسلامي. ولعل من أشد الكلمات الاصطلاحية هذه إثارة للانتباه كلمة enitsilihP أي (فلسطيني غير متمدن) التي تعتبر بصفتها هذه صفة تستعمل من أجل الدلالة على موصوف، وأما الاسم أو المصدر فيصبح msinitsilihP أي النزعة الفلسطينية (غير المتمدنة). وقد اخترت هذه الكلمة بالتحديد لأنها تصلح للكشف عن حقل شبه مهمل في دراسات النزعة المركزية الأوروبية يتعلق بالكلمات ذات المحمول المعرفي القائم على الهوى أو الغرض الأيديولوجي أو التحامل أي «الحكم المسبق». لقد أدى هذا النوع من الكلمات بما ينطوي عليه من انحيازات عنصرية مسبقة دورا مهما في بلورة بنية اللاوعي الثاوية في أعماق الأوروبيين تجاه القضية الفلسطينية. بل لعله يمثل أحد الأعمدة التي ينهض عليها التصور التربوي الغربي لوجود تفوق حضاري أوروبي لا تاريخي مطلق على الحضارات الأخرى غير الأوروبية وفي طليعتها الحضارة العربية الإسلامية. والمشكلة في هذا التصور كما أسلفنا تكمن في أنه ينطوي على حكم مسبق فكلمة (فلسطيني بربري غير متمدن) باعتبارها صفة تطلق على موصوف لا تشير إلى الفلسطيني الذي عاش في فلسطين القديمة فحسب، بل إن معناها الاصطلاحي الشائع (المستمد من العهد القديم) يشير أيضا إلى كل من يظهر شعورا بالعداء أو عدم الاهتمام تجاه القيم الجمالية والفكرية عموما. وتعليل وجود هذا النوع من الكلمات التي تنطوي على تحامل مسبق هو أنها تنتمي إلى ترسانة من المفردات العنصرية القائمة على تصور أيديولوجي مناهض للحضارة العربية أصلا. وتكمن المفارقة في ذلك أن الدور العربي الإسلامي في تكوين الحضارة الغربية بدءا من عصر النهضة في أوروبا قد استبعد من حسابات المؤرخين، هذا على الرغم من أن عصر النهضة في أوروبا كان في جوهره يمثل انتقالا من مرحلة هيمنت خلالها فلسفة ابن سينا إلى مرحلة أخرى سيطرت فيها فلسفة ابن رشد التي أعادت ربط أوروبا بالتراث الهليني بتأويلاته التي أصبحت أساسا للتقدم العلمي. وهذا الاستبعاد للدور العربي الإسلامي الذي لا تفرد له تواريخ الفلسفة الغربية أكثر من هوامش ثانوية ليس عفويا. فقد اقترن بإبراز مبالغ فيه لما عليه مصطلح (النزعة العبرانية) والمقصود بهذه النزعة الإشارة إلى التراث العبراني، وهو في أحد معانيه حصيلة قراءة حرفية (أصولية) للعهد القديم باعتباره كتابا في التاريخ. بل إن النزعة العبرانية هذه شأنها شأن النزعة الفلسطينية، صار معناها الذي يقوم على تصور وجود علاقة تفاضلية تبرز الأولى باعتبارها تدل على الحضارة، والثانية باعتبارها تدل على الهمجية، مستقرا في النقد الإنجليزي مع ظهور كتاب «الثقافة والفوضى» لناقد أدبي واجتماعي بارز هو ماثيو أرنولد (2281م 8881م) الذي يعتبر من أشد أدباء الإنجليزية تأثيرا. ففي هذا الكتاب يقدم أرنولد التعريف التالي للنزعة الفلسطينية (الهمجية) «أصحاب النزعة الفلسطينية هم الذين يعتقدون أن الثروة وحدها هي التي تدل على العظمة، ضاربين عرض الحائط بالفن والجمال والحضارة أو الأشياء الروحية عموما». وأما النزعة العبرانية فهو يُعرفها بمقارنتها مع النزعة الهلينية، يقول: «إن الهدف النهائي لكل من النزعتين الهلينية والعبرانية كما هو شأن جميع الأنظمة الروحية العظمى، هدف واحد بلا شك، هذا الهدف هو تحقيق كمال الإنسان أو خلاصه. بل إن اللغة التي تعتمدها كل من هاتين النزعتين في تبصيرنا بكيفية الوصول إلى هذا الهدف كثيرا ما تكون متطابقة أو متماهية مع هذين النظامين. إن الفكرة الأبرز والأعمق في النزعة الهلينية إنما تكمن في رؤية الأشياء كما هي في الواقع، وأما الفكرة الأبرز والأعمق في النزعة العبرانية فهي تكمن في السلوك والطاعة، ولا يوجد شيء قادر على محو هذا الفارق بين النزعتين. فصراع اليونانيين مع الجسد ورغباته يصدر عن كونه يحول دون التفكير السليم على نحو سليم، وأما صراع العبرانيين مع الجسد ورغباته فيصدر عن كونه يحول دون التصرف على نحو سليم (ويضيف): إن الفكرة المهيمنة في النزعة الهلينية تكمن في عفوية الوعي بينما تكمن فيما يتعلق بالنزعة العبرانية في صرامة الضمير». هذه المفاضلة، أو قل المقارنة بين هاتين النزعتين تهدف إلى تأكيد التكامل بينهما، وهي بهذا الاعتبار من المحاولات المهمة التي حاول بها هذا الناقد الذي يُعد من مؤسسي النقد الثقافي، القيام بعملية توليف بين الفكر والعمل. ولا ريب في أن خطورة مشروعه الثقافي تتجلى في الطريقة التي أثر بواسطتها على لغة النقد والفكر الإنجلوساكسوني عندما أصبحت بعض أدوات النظرية الثقافية هذه عبارة عن مفردات مشحونة بأبعاد اصطلاحية متحاملة على الثقافة العربية الإسلامية بشكل مسبق الصنع. بل إن خصومتها الاستباقية مع النزعة «الفلسطينية» التي يعتبرها ماثيو أرنولد صنوا للهمجية والبربرية والبعد عن روح الحضارة التي تحتفي بالفن والجمال، ليست مجرد رأي عابر متضمن في كتاب، وإنما هي خصومة تحفظها المعاني الاصطلاحية ذات السمة الاستمرارية التي أسبغتها على هذه الكلمات، فإذا بها تكرس عداء أيديولوجيا مضمرا لا يمكن لأي مشروع يحتضن حوارا بين الحضارات تجاهله دون أن

يعتبر غير منزه عن الهوى. واللافت أن أرنولد كان علما من أعلام النزعة الإنسانية (الهيومانيزم) فضلا عن أنه كان يهاجم التعصب الفكري باستمرار. وقد يكون افتتانه الشديد بالكتاب المقدس الذي اعتبره ينطوي على الأهمية نفسها التي ينطوي عليها الشعر من حيث كونه وسيلة للتغلب على ما سماه بـ «الكساح الروحي» هو الذي جعله يبدي هذا القدر من الانحياز والتحامل المسبق تجاه سكان فلسطين الأصليين. غير أن معاني الكلمات لا تتغير بسهولة، فعلى الرغم أن الاكتشافات الآثارية بينت بجلاء أن قراءة «العهد القديم» ككتاب تاريخي عملية غير مجدية إطلاقا، وذلك لأسباب كثيرة لعل في طليعتها حقيقة أن الحفريات التي قام بها الآثاريون لم تسفر عن نتائج تعزز صحة قراءة هذا الكتاب باعتباره تاريخا فقد ظل الباحثون متمسكين بهذه المصطلحات، وبعبارة أخرى، فإن هذا الانحياز الأيديولوجي الذي تفند مضامينه الاكتشافات الجديدة التي تؤكد باستمرار محدودية الإسهام العبراني إذا لم نقل غيابه عن تاريخ فلسطين، وغلبة العنصر الأسطوري المختلق فيه على الحقائق التي لا يرقى إليها الشك، ما زال كامنا في صميم الثقافة الغربية. وقد أصدر باحث بريطاني متمكن ويتمتع بسمعة أكاديمية جيدة، اسمه كيث ويتلام كتابا خطيرا يعبر عن هذا الوضع أفضل تعبير، أطلق عليه عنوانا مثيرا هو: «اختراع إسرائيل القديمة: إسكات صوت التاريخ الفلسطيني». ويحاول الباحث في هذا الكتاب الكشف عن المفارقات التي تنطوي عليها مواقف عدد كبير من المؤرخين الذين ما زالوا متمسكين بانحيازاتهم المسبقة في ما يتعلق بالدور الذي أداه العبرانيون في فلسطين على الرغم من أن الاكتشافات الآثارية الجديدة تكشف بما لا يدع مجالا للشك عن أن «العهد الجديد» لا يصلح للقراءة ككتاب في التاريخ. فالإشارات التاريخية والجغرافية وما تنطوي عليه من بعد ظرفي ما زالت تخيب آمال الآثاريين باستمرار. بل إن النتائج التي توصلوا إليها كشفت عن ضرورة إعادة النظر في التطور «العبراني» الذي ما زال يسبغ على الموضوعية التي يفترض أن يتسم بها البحث التاريخي نزعة عنصرية معادية سلفا لكل ما هو غير عبراني في فلسطين. كما أن لغة التحامل الأيديولوجية المنزع والمسبقة الصنع هي التي تسيطر بنزعتها الأسطورية أو قل الخرافية، على كتابات هؤلاء المؤرخين. سيطرة النزعة العبرانية: وأود أن أشير هنا إلى مثال على سيطرة النزعة العبرانية على شعر لورد بايرون شاعر الرومانتيكية الإنجليزية الشهير والذي توفى بعد مولد الناقد ماثيو أرنولد بعامين. إن هذه السيطرة ليست جمالية صرفة كما قد يتبادر لقارئ ديوانه (ألحان عبرية) للوهلة الأولى، فهو يقدم فيه شخصية «سنحاريب» الآشوري الذي يصفه بالذئب المنحدر من أعالي الجبال ليدمر الحضارة المتمثلة في التراث العبري وبذلك يصبح انتصار الآشوريين على العبرانيين رمزا لهزيمة الحضارة. وهناك مثال آخر ترتبط دلالته بأثر النزعة العبرانية السلبي على نظرة الثقافة الإنجليزية إلى التراث الإسلامي. فاسم «إسماعيل» الذي يظهر بصيغته العبرانية (إشماعيل) في قاموس أوكسفورد يعني الرجل المنبوذ من قبل المجتمع. وهذا المعنى كما هو واضح مستمد من تأويل الرواية التوراتية السلبي للقصة المعروفة. الدور العربي الإسلامي المنسي: وأخيرا هناك الوجه الثالث للنزعة المركزية الأوروبية الذي يتمثل في ما سأدعوه بمرض فقدان الذاكرة الحضارية، فالمناهج الدراسية الأوروبية، تصر باستمرار على تكريس مفهوم «الحضارة المسيحية اليهودية» مهملة بذلك وجود ثلاثة مصادر وليس مصدرين فقط للحضارة الغربية. وأساس هذا الإصرار أن الحضارة الغربية ذات جذر كلاسيكي (يوناني روماني) وآخر مسيحي يهودي، وأن العناصر الكلاسيكية ضاعت حتى أعيد اكتشافها مرة أخرى خلال عصر النهضة، ولكن الحقيقة كما يشير إليها hgalenaR.L.E في كتاب «الماضي المشترك»، هي أن «ثقافة العصر الوسيط تحتم على الغربيين الاعتراف بأن الحضارة الغربية ذات جذر ثلاثي: يوناني ولاتيني وعربي.صحيح أن الأدب اليوناني وصل إلى الغرب عن طريق الرومان وبواسطة اللغة اللاتينية. وصحيح أن القسط الأعظم من معارف اليونان التي اشتملت على العلوم والفلسفة انتقل من البيزنطيين إلى العرب عن طريق الترجمة من اليونانية إلى العربية. ولكن العرب قاموا بدورهم في تطوير هذه المعارف التي نقلت إلى اللاتينية. بل إن مشاريع الترجمة التي أنجزت في إسبانيا وصقلية خلال القرن الثاني عشر كانت بمثابة الجسور نقلت المعارف عبرها من العرب إلى أوروبا الغربية التي كانت متخلفة آنذاك». ويضيف المصدر: «إن ما يهمنا إلى حد كبير، نظرا لأنه ليس مألوفا، هو تراثنا العربي، إن الشعب الذي أطلق عليه في القرون الوسطى اسم «السراسنة» كان يشمل مجموعات عرقية مختلفة كان منها يونان وفرس وهنود وأقباط وأتراك وأرمن ويهود. وقد تمثلت الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية هذه الحضارات القديمة الغنية. ولكن انتشار الإسلام السريع في القرن السابع الميلادي فرض عليها حضارة جديدة هي حضارة فاتحيهم التي عبرت عن نفسها بنمط عربي جديد من الحياة، حقيقته المركزية هي الإسلام، الدين الرسمي، ووسيطه في التعبير هو العربية لغة القرآن». هذا الطرح لفكرة الاعتراف بالجذر الثالث، العربي الإسلامي للحضارة العربية، والذي يبدو للقارئ العربي بديهيا، ما زال خارج المناهج الدراسية المعتمدة في أوروبا والولايات المتحدة، كما أن دور الحضارات السورية والمصرية القديمة في صنع حضارة اليونان القديمة ما زال فكرة خلافية بعيدة عن تلك المناهج حتى الآن. آية ذلك كله أن حوار الحضارات لا يمكن أن يصبح مجديا ما لم يعد النظر مجددا في صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية الغربية عموما، ذلك لأن هذه الصورة السلبية المنمذجة هي إحدى مصادر الوعي الأوروبي وأدواته اللغوية بامتدادتها الفكرية والثقافية ■

لندن كنغستون هيل



بسمة الخطيب

الافلات من فكّي الذئب

القصّة القصيرة في زمن الرواية

"لماذا تكتبُ القصّة القصيرة في زمن الرواية؟ ولماذا لا تكتبُ رواية؟" نموذجان من أسئلة تلاحق القاصّ بنبرة آسفة وأحياناً هازئة لتتحول الى كابوسه الخاصّ. فحتى حين انعقد ملتقى خاص بالقصّة القصيرة في القاهرة نوفمبر 2009 هيمنت هذه الأسئلة على سواها، ولم يهدأ روع القاصّين الا حين وقف شيخهم زكريا تامر ليتسلّم جائزة الملتقى ويسأل السائلين: "لماذا تطلبون من صانع الخبز أن يزرع ورداً؟".

الفنّ الأنيق المرهف، الكريشندو السردي، الصعب المتطلّب، يهرب الجميع من أسئلته وتحدّياته إلى سؤال مقارنته بغيره. الأدب الأقرب إلى يوميّاتنا، الأشبه برسائلنا القصيرة إلكترونيةً أو هاتفية ومداخلاتنا الفايسبوكية أو تغريداتنا، الأحبّ الى الميديا والريبورتاجات التلفزيونية التي تقتحم بيوتنا وغرف نومنا، يعيش "أسوأ أيامه" لأنّه عالق بين أنياب الاهمال وسوء التقدير وليس لأنّه مهدّد الوجود، فهذا غير صحيح، بل هو موجود وإن طغى غثّه على سمينه ككثير من الفنون الأخرى. القصص القصيرة ستبقى تُكتب وتُقرأ وستصير أقصر وأكثف وستفشي أسرار علاقتها بقصيدة النثر قريباً.

في البدء كانت القصّة

من قصص الكتب المقدّسة إلى خرافيات ايسوب وبيرو والأخوين غريم وكليلة ودمنة وصولاً إلى ألف ليلة وليلة والديكاميرون.. تبيّن للدارسين أن رحلة القصّة القصيرة لم تكن حديثة كما شاع لفترة من الزمن، وأن المجموعات القصصية طالما وجدت - وان تحت مسميات أخرى - سواء جمعتها قصّة واحدة كما في الليالي وكليلة ودمنة أم أتت متفرّقة. أثبت المنظّرون مطلع القرن العشرين، بعد تأخّر ملحوظ في التحليل النقدي والأكاديمي، أن قصص الكتب المقدّسة والحكايات الخرافية هي نواة القصّة القصيرة، وأن تاريخ القصص القصيرة ليس أحدث من تاريخ الرواية، لحظ ذلك ادغار آلان بو في كتابه "فلسفة التأليف" 1846 ومن بعده براندر ماثيوز 1901 في كتابه "فلسفة القصّة القصيرة" واللذي يعدّ أول دراسة أكاديمية حول القصّة القصيرة.



للقصّة القصيرة اذا قصّتها الخاصة، تتقاطع حبكتها مع الحبكة التقليدية لأي قصّة، عليها أن تحمل السلّة وما فيها من أطايب وتعبر الغابة حيث يتربّص الذئب بها، وحيث فرص النجاة والهلاك متساوية. عليها النجاة من بين فكي الذئب كل مرة والحفاظ على ردائها الأحمر من دون خدش.

لأنها قصيرة

في دردشة شخصية مع الناقدة الدكتورة يمنى العيد قالت لي ان القصّة القصيرة مناسبة اليوم أكثر من أي وقت مضى للكاتبات، فالمرأة الكاتبة تشغل أكثر من دور في حياتها اليومية، انها الزوجة والأم والموظّفة ومدبّرة المنزل والابنة والقارئة... تتنازعها مسؤوليات تجاه عائلتها وعملها وثقافتها وكتابتها.. والقصّة القصيرة حلّ مثالي لمشكلة الوقت وتعدّد المهام، فهي لا تتطلّب تفرّغاً وانقطاعاً عن المسؤوليات - وعن العالم بأسره أحياناً - كما تتطلّب الرواية وكما يحدث مع الروائيين والروائيات اجمالاً.

***

لكنّ حجم القصّة القصيرة يبقى مسألة اشكالية، فهو في العموم ميزتها وفي الخصوص آفتها. بسبب حجم القصّة القصيرة استطعت - ككاتبة وأمّ وزوجة وموظّفة وربّة منزل وصحافيّة - أن أكتب وأنشر كتابين، لكن تبيّن لي أنّ "الحجم" قد يكون وراء نفور القرّاء منها والكتّاب وكذلك النقّاد.

***

في معرض حديثه عن طموح القصّة القصيرة في انتزاع مكان لها فوق مساحة تحتلّها بقوّة الرواية، يبيّن الكاتب الأميركي ستيفن ميلهوزر (روائي وقاصّ) أنه نادراً ما شهد تاريخ الأدب هيمنةً كالتي تفرضها الرواية على القصّة وأنّ السبب ببساطة "مسألةُ حجم"، ويضيف: "هنا في أميركا الحجم سلطة". هذا في أميركا التربة الأخصب للقصص القصيرة؛ أميركا مركز نهضة القصّة حيث الرواد والأنطولوجيات السنوية والجوائز والأسماء اللامعة ... حيث يمكن لقصّة قصيرة منشورة في صحيفة أن تهزّ الرأي العام الأميركي، كما فعلت قصّة "the lottery" للأميركية "شيرلي جاكسن" في "النيويوركر" عام 1948، التي تطرّقت لعادة اجتماعية وحشية متوارثة رفض معظم قراء النيويوركر تصديقها، فأرسلوا مئات آلاف الرسائل الغاضبة وقاطعوا المطبوعة، وألغى كثيرون منهم اشتراكاتهم فيها. وفي العام نفسه أجبر فنّ القصّة القصيرة جائزةَ البوليتزر النثرية على تغيير مضمونها واسمها الى "Pulitzer \o" "HYPERLINK "http://en.wikipedia.org/wiki/Pulitzer_Prize Prize"Pulitzer Prize for Fiction لتشمل مسابقتُها المجموعاتِ القصصيةَ بعدما بقيت لثلاثة عقود حكراً على الرواية، وذهبت الجائزة ذاك العام الى الكاتب James A. Michener عن مجموعته القصصية "Tales of the South Pacific". ورغم خفوت نجم القصّة القصيرة يتواصل الاصدار السنوي "BASS" أي "Best American Short Stories" وهي أنطولوجيا سنوية (انطلقت عام 1915) تضمّ أفضل القصص الأميركية القصيرة، وتتمّ استضافة كاتب بارز ليكون "المحرّر الضيف" الذي يختار أفضل قصص العام.

إيجاد قصّة جديدة وحبكة جديدة مرّة بعد مرّة أمر مرهق للكاتب - وإن كان مشوّقاً لما فيه من تحدّ - فهو يبدأ من الصفر مع كلّ قصّة، وفي كتاب واحد يضمّ عشرات القصص يصبح هذا الأمر مشقّة حقيقية.

وهي كذلك مشقّة على القارئ، وهذا وفق الكاتبة الانكليزية "تيسا هادلي" قد يكون وراء ابتعاد القرّاء عن القصّة القصيرة، إذ عليهم كلّ بضع صفحات الخروج من عالم والدخول الى عالم جديد وشخصيات جديدة.. بينما الأسهل لهم متابعة رواية واحدة لشخصيات محدودة يرافقونها على مدى صفحات الكتاب مهما طالت.

ملاحظة: كون القصّة مرهقة لا يعني أن الرواية نزهة استجمام، بل إنّ لها تقنياتها وخصوصيتها ومصاعبها، لكنها بالتأكيد أكثر أنانيةً وتسلّطاً على الكاتب، اذ تستحوذ عليه، تسرقه من وقته ومكانه ولفترة طويلة غالباً.

ملاحظة ثانية: أتكلم عن الروايات الحقيقية، فليس كل ما يدرج تحت اسم "رواية" هو كذلك بالضرورة، وليس كل من يعنون كتابه بكلمة "رواية" هو روائي.

***

- **فوكنر**: **لماذا تكتب الرواية؟**

تساءل وليم فوكنر مرةً ما اذا كان الكتّاب يصيرون روائيين بعد فشلهم في كتابة القصّة القصيرة، أكثر الأنواع الأدبية تطلّباً بعد الشعر، مضيفاً: لهذا السبب ربما لدينا عدد قليل من القصص القصيرة العظيمة مقارنة مع الروايات العظيمة.

وفق فوكنر ليس السؤال لماذا اخترتَ كتابة القصّة القصيرة بل لماذا تكتب الرواية. أما بورخيس فقال إنه من الغباء إهدار مئات الصفحات في فكرة لا يستغرق عرضها شفاهة خمس دقائق. قد يقول قائل ماذا عن فكرة تتطلب أكثر من الدقائق الخمس، الاجابة في قصص بورخيس نفسها في "حديقة الطرق المتشعبة" و"مكتبة بابل" حيث ضمن كليهما أفكاراً عميقة وفلسفية عن الكون والوجود.. اذاً لا فكرة الا ويمكن أن تقصّ في قصّة قصيرة وفق بورخيس.

وحين روى ماركيز حكايته مع الاثنتي عشرة حكاية تائهة كتب: "فكّرت في كتابة حكايات قصيرة تعتمد فنّ الكتابة الصحافية والحيل الشعرية، وفي منتصف الحكاية الثالثة كان أرهاقي قد بلغ حدّاً يفوق عناء عملٍ روائي... ثم أدركت أنّ الجهد الذي نصرفه في كتابة حكاية أشدّ كثافة من ذاك الذي يمليه مطلع رواية.

لست هنا أحاول اقناع أحد بتفوّق نوع أدبي على آخر، بل أبحث عن أحد أسباب الابتعاد عن كتابة القصّة القصيرة من باب تجنّب "شرورها"، وليس لعدم أهمّيتها أو تجاوز الزمن لها.

من غير العادل أن يكون كلّ ما يهمّ الآخر ناقداً أو قارئاً أو محرّراً هو سبب توجّه القاصّين إلى القصّة القصيرة واخلاصهم لها، وليس كتابتهم نفسها، قصصهم، رؤيتهم للحياة وللكتابة. فهل يُسأل الراوي لماذا يكتب الرواية ويُسأل الرسّام لماذا رسم هذه اللوحة؟ الأمر ليس الخيار بين "هذا وذاك"، وليس مقارنة الأجناس وعقدة "أفضل التفضيل" التي تلازم أذهاننا ... الأمر هو شغف وحبّ وحرّية. قد يكون خيار تمايز وتفرّد، أو اقلاعاً عكس التيّار اعتراضاً على التيّار نفسه، وجهة نظر غير مباشرة في الخيارات الأخرى، البحث عن سماء مختلفة هرباً من الضجيج والزحمة والتكرار والاستنساخ والاستسهال, والابتعاد عن الأضواء كرهاً لها، لأنّ الفعل الابداعيّ يتّجه إلى الداخل، من الروح وإليها، وليس معجباً جداً بالأضواء والصخب، وسواء انتبه الآخرون أم لا فإن هذا لا يعني الكاتب كثيراً لأنّ عمليّة الابداع نفسها تشبعه.

السؤال بنبرة الاستهجان وأحياناً الأسف عن سبب كتابتنا للقصّة القصيرة يثير احباطنا - نحن القصّاصين - وإن الى حين، نشعر أننا أتينا جُرماً أو خرجنا بالجلابية الى حفل أوبرا.

ليس السؤال لماذا نكتب القصّة القصيرة، وإن كنّا مصرّين على سؤالٍ ما فلنسأل أولاً "لماذا الكتابة بذاتها"،لا شكّ أنّ المسألة برمّتها هنا. أن نستمرّ في فعل الكتابة هو أمر وجودي ومبدئي.

"حين تقرأ قصتي أريدك أن تبكي أو تضحك.. أو الاثنين معاً، أريد قلبك". هكذا يقول القاصّ الأميركي ستيفن كينج في تحديد هدف القصّة القصيرة، وهكذا قال - وان بكلمات أخرى - منظّرو القصّة الأوائل مثل بو وجوجول وماثيوز وموباسان وتشيخوف...

لأجل هذا الهدف، لأجل ملامسة قلب الآخر يكتب القاصّ، ولا يمنع أن يكون هو نفسه أول قارئ يتوجه اليه، تلك طريقته ليشعر بفؤاده ينبض.

بين القصة القصيرة والقصيدة

اذاً، القصة القصيرة وفق فوكنر هي الأقرب الى الشعر لأنها تليه في قائمة اللآداب الأكثر تطلّباً وصعوبة. إن الخطوط المشتركة بين النوعين كثيرة. وليست مصادفة أنّ الكلمتين تبدآن بالحرفين قاف وصاد. وهما إن نبعتا من العين نفسها إلا أنّهما لا تصبّان في البحر نفسه بالضرورة. وهذا مصدر غنى وتميّز لكلّ منهما وليس نقيصة. فكل منهما تأخذنا الى عالم والى مرفأ.. وهذا تواطؤ تكاملي بين الفنّين.

ما يفرّق بين القصّة القصيرة والقصيدة ليس بسيطاً، بل ينسحب عليه ما يتميّز به الشعر عن النثر والعكس ما يتميز به النثر عن الشعر. وفي هذا السياق أيضاً يكون ما يجمع القصيدة والقصة هو التقاطع نفسه بين النثر والشعر. يتجلّى اللقاء في عدة نقاط: التكثيف والإيقاع التصاعدي والإيجاز وما يستتبعه من غموض، وتقنية الحذف التي هي للقاصّ كما للشاعر نصف عمله أو ربما أكثر.

وأخيراً، إذا كانت كتابة الشعر كإطلاق مارد من زجاجة فإنّ كتابة القصة هي إعادته إليها.

فنّ الزمن القادم

اثبات ريادة القصّة والتظلّم ليسا أولوية القاصّ، لأنه أكثر من يعرف أن أكثر الأنواع الأدبية شهرة ورغداً ليس في حال جيدة، وتحديداً في عالمنا العربي حيث الأرقام مخزية ومفزعة، من عدد الأميّين المهول إلى نسبة القرّاء شبه المعدومة بين غير الأميين (6 دقائق قراءة في السنة للفرد العربي!! وفق آخر دراسات مؤسسة الفكر العربي). القاصّ أكثر من يعرف أنّ الأجناس الأدبية تتنافس لتتكامل وليس ليمحو أحدها الآخر.

الرثاء واستجداء الشفقة لنوع أدبي جميل مهمّش ومنعزل ليسا همّ القاصّ الأول، يسبقه ويتفوق عليه همّ شكر القصّة القصيرة والوفاء لها، لأنّه بفضلها استطاع أن ينجو من الشراك التي نصبتها له الحياة، أن يكتب وينشر، يُكافأ ويُنتقد.. وأخيراً لأنها جعلته بطل حكايات كثيرة وقصص منمنمة وملوّنة بمثل ألعاب الطفولة وأحلام المراهقة ووعود الأمومة والأبوّة، لأنّها أمسكت بيده وسحبته من بين فكّي الذئب أكثر من مرة.

يكتب القاص القصّة القصيرة في غير زمنها ومن دون الاكتراث بمأزق العثور على قارئ أو ناشر أو مهلّل في الميديا أو داعم في المحافل الثقافية، يكتبها وهو في كامل وعيه و"قواه العقلية" ويأمل أن يكون الزمن القادم زمنها، زمن تبادل كلّ شيء عبر الانترنت، وكما صرنا نتبادل علاقاتنا الاجتماعية عبر الانترنت - كالفايس بوك مثلاً - ستتحوّل كلّ أنشطتنا إلى تلك المساحة الافتراضية، وسنتبادل الكتب والقراءات عبرها، وليس أنسب من القصّة القصيرة في التبادل الافتراضي.

يستحقّ هؤلاء الكتّاب الذي يسبحون عكس التيار التفاتةً بمناسبة ملتقى ما ومن غير مناسبة، فهم يكتبون القصّة من دون أية أطماع، يكتبونها رغم أنّهم يعرفون أنّ قرّاءها ومتذوّقيها قلائل، وأن لا عائد مادياً من ورائها - حتى نشرها في معظم الصحف والمجلات مجاني - ويعرفون أنّ مكانها في المعارض والمكتبات هو الرفّ الأخير، وأنّ المحرّر الثقافي في أيّ مطبوعة سيُسقط - بدعوى السهو- أسماءهم واصداراتهم وحتى الاختراقات التي قد يسجلونها من حيث المبيع أو تميّز النصوص، هذا في حال وجدوا بعد جهد مضنٍ ناشراً مغامراً يقبل نشر مجموعاتهم القصصية.

***

إن كان الشعر هو رحيق الكلام، كما يوصف، فإن القصّة القصيرة تتوق الى أن تكون عسل الكلام - الكثافة الحلوة من دون ادراكِ التقزز أو التخمة. حلمٌ وتوقٌ مشروعان ستبدي الأيام مستقبلهما.. وتلك قصّة أخرى ■

نوفل نيوف

نشأة الشكلانية وتَلقِّيها باللغة العربية

نستطيع القول، بشيء من الثقة، إن الشكلانية الروسية، كمدرسة في النقد الأدبي، لم تغدُ محطَّ أنظار الباحثين العرب إلا في بداية ثمانينات القرن الماضي. إذ لم يكن الاطلاع على هذه المدرسة ونصوصها ممكناً قبل ذلك الحين إلا عبر اللغتين الفرنسية والإنجليزية، أوّلاً، ثم الروسية، ثانياً.

ويعود السبب في تأخر معرفة القارئ العربي بالشكلانية إلى أن الثقافة الغربية لم تُلقِ الضوء المناسب على نصوص الشكلانيين الروس إلا ابتداء من أواسط الستينات، يوم ترجم البلغاري تزفيتان تودوروف، بتوجيه من رومان ياكبسون، أول عشر صفحات من نصوص الشكلانيين الروس إلى اللغة الفرنسية ونشرها عام 1965(بعد وصوله إلى فرنسا بعامين) بفضل جيرار جينيت.

ولم يمض إلا خمسة عشر عاماً حتى انتقلت حُمَى العدوى بالشكلانية والشكلانيين إلى الثقافة العربية لتنتشر معلومات عنها ("بالمفرَّق" و"عَ الريحة")، كما هي العادة، أي دون تقديم نصوصها الأساسية التي يمكن الحكم عليها من خلالها، وليس من خلال ما يكتب عنها هنا أو هناك.

(أرجو أن يكون واضحاً منذ البداية أنني لا أتباكى على تقصير، ولا أتَّهم أحداً، أو أنتقص من جهد أحد، إذ إن ذلك هو واقع الثقافة العربية اليومَ جملةً، ولا نحكم على الغد).

وهكذا، فإلى البدايات، إلى عام 1981 تعود مقالة، قد تكون الأولى باللغة العربية، نشرها محمد فتوح أحمد في مجلة "فصول" تحت عنوان يبعث على الفضول، هو: "الشكلية، ماذا يبقى منها؟". إذ تنبع الطرافةأو المفارقة، هنا من كون الحكمِ في هذه المقالة يأتي قبل اطِّلاع القارئ العربي أصلاً على ظاهرة أو مدرسة اسمها "الشكلية" أو (الشكلانية)!

وفي العدد الثاني من مجلة "ألف" عام 1982 نشر عبّاس التونسي جزءاً من مقالة فيكتور شكلوفسكي الشهيرة "الفن باعتباره تكنيكاً"، ووضع لهذه الترجمة مقدّمة موجزة تضمّنت تعريفاً سريعاً بالمدرسة الشكلانية الروسية، وذكر فيها أنه: "لم يترجَم شكلوفسكي إلى العربية - على علمنا - ما عدا مقال (!) بعنوان "ما صعوبة العمل الأدبي؟" قام بترجمته عادل العاملي" في مجلة "الأقلام" العراقية (شباط/1981).

وفي سنة 1982 نفسها نشرت د.فريال جبُوري غزول في العدد الخامس والعشرين من مجلة "الفكر



العربي" (العدد الأول من عام 1982) مقالة تعريفية جيدة عنوانها "الشكلية الروسية".
ثمّ تتالت بعد ذلك ترجمات نصوص متفرقة للشكلانيين الروس، نذكر منها، على سبيل المثال: مقالة فيكتور شكلوفسكي "بنية الرواية وبنية القصة القصيرة"، تقديم وترجمة سيزا قاسم (1982) ؛ ومقالة بوريس إيخنباوم "أو.هنري ونظرية القصة القصيرة" (1983) التي لم نتبيَّن على وجه الدقة اسم مترجمها الذي يشكر في الهامش "الدكتورة سيزا قاسم على الملاحظات التي قدمتها فأفادت الترجمة كل الإفادة" (ص 82)؛ ومقالة تزفيتان تودوروف "اللغة الشعرية عند الشكلانيين الروس"، ترجمة د.سامي سويدان (1986)...إلخ.
وبعد ثلاثين عاماً من بدء العرب بتداول مصطلح الشكلانية والتعامل مع مكوِّناتها وممارساتها ومصائرها، أصبح لدينا الآن كثير من الكتب المترجمة إلى العربية تتطرق للحديث عن الشكلانية الروسية، أو تخصص لها فصولاً كاملة، نذكر منها: "مفاهيم نقدية" لـ رينيه ويليك، و"الشعرية" لـ تزفيتان تودوروف، و"النظرية الأدبية الحديثة: تقديم مقارن" لـ آن جفرسون وديفيد روبي، و"بؤس البنيوية. الأدب والنظرية البنيوية" لـ ليونارد جاكسون، و"من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية" - تحرير رامان سلدن...إلخ.
أمّا الانتقال من المقالات التي تُعَرِّف بالشكلانية الروسية، ومن النصوص المتفرقة لبعض أعلامها إلى كتب مكرَّسة لهذه المدرسة فقد تجسّد حتى هذه اللحظة، على حدِّ علمنا، في كتابين، هما: "نظرية المنهج الشكلي. نصوص الشكلانيين الروس" الذي ترجمه ابراهيم الخطيب (1984)، فكان الأوّل (وربّما الأخير من نوعه حتى الآن)؛ والجزء الثاني من الكتاب الشهير الذي وضعه فيكتور إيرليخ، وترجمه الولي محمد عن الإسبانية تحت عنوان "الشكلانية الروسية" (2000).
ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى كتاب ليون تروتسكي "الأدب والثورة" القويِّ الصلة بموضوعنا، والذي ترجمه جورج طرابيشي عام 1975 وفيه فصلٌ كامل عنوانه "مدرسة الشعر الشكلية والماركسية". غير أننا لا نتوقف عند هذا الكتاب، رغم أهميته، وذلك لأنه سجاليٌّ عُدَّ وقُرِئ، بحكم ظروف زمانه، في سياق أيديولوجي صِرف، ما جعله يساعد على الإسراع بطيِّ صفحة الشكلانية وغيرها من التيارات الأدبية "المارقة" من وجهة نظر الثورة، بدلاً من الالتفات إلى المناخ الثقافي، النقدي والإبداعي، الذي كان يغلي غلياناً في روسيا خلال الثلث الأول من القرن العشرين.
ولئن كان عبّاس التونسي يشير في مقدمته إلى ما يراه "أبرز أفكار المدرسة الشكلية"، كما يسمّيها، ومنها: "اختلاف لغة الشعر عن لغة الحياة اليومية"، والـ"تغريب، أي جعْل موضوعات الإدراك تبدو غريبة"، و"موضوع الأدب والشعر لا يقع خارجه، بل هو ذات وموضوع"... فإن د.غزول تقدِّم دراسة محيطة وعميقة، تعتمد فيها على مرجعين أساسيين هما إيرلِخ وتودوروف. وتُجْمِل الباحثة أهم سمات ما كتبه الشكلانيون الروس ما بين عامَي 1916 و1920 في سبع نقاط أساسية:
"1) نبرة راديكالية استفزازية وتهجّمية تنفِّر من كل ميتافيزيقي ومغرق في الغموض. 2) منهجية تجريبية تعتمد على دراسة الظواهر والملاحظة الإمبريقية، مبتعدة عن الانطباعية. 3) تركيز على الشكل وعلى نسيج النص اللفظي، مما أدّى إلى دراسة الأصوات وتكرارها، والرَّخامة، والانسيابية، والإيقاع. 4) تمييز بين اللغة الشعرية واللغة العملية في استخدام الكلمات >...<. 5) استقراء المستويات المختلفة للنص وأساليبه وتفاعلها المبدع، كاجتماع السرد الساحر مع الصور العاطفية في قصة غوغول "المعطف"، كما بيَّن إيخنبوم في بحثه. 6) استكشاف الأدوات الأدبية والتقنية البلاغية المستعملة في النص>...<. 7) إرجاع الوظيفة الجمالية للنص الأدبي إلى الإدهاش والتغريب (Ostraneniye)، مما يثير القارئ، ويجعله يرى ويدرك غرابة المألوف" (ص 34).
وفضلاً عن ذلك تعرض الباحثة مادة غنية حول نشوء المدرسة الشكلانية وأعضائها والخلفيات الفكرية والفلسفية التي أحاطت بتلك المدرسة.
وعوداً على بدء، نشير إلى أن ما ترجم إلى العربية، عن الشكلانية ومنها، كان من الفرنسية والإنجليزية، أساساً. غير أن بعض المترجمين يوحون بأنهم يعرفون اللغة الروسية ولكن لم تتوفر لهم نصوص الشكلانيين بتلك اللغة (مثلاً، عبّاس التونسي: "وقد تعذّر علينا الحصول على الأصل الروسي لمقالة شكلوفسكي"، ود. فريال جبُوري غزول: "وتعتمد دراستنا هذه على الترجمات الإنكليزية والفرنسية، مع الرجوع إلى الأصل الروسي عند وجود النص بين أيدينا"). وهذا ما يجعل السؤال إلزامياً عن سبب تشويه كتابة أسماء أدباء روس كبار، مثل: بارتنسكي بدلاً من باراطينسكي، ومرزكفسكي بدلاً من ميريجكوفسكي، ودرزفن بدلاً من دِرْجافِن... عند عباس التونسي. كذلك تفعل د.غزول حين تجعل من ماندلشتام ماندلشتوم، ومن جيرمونسكي جيرمانسكي (فتقلب الألِف واواً تارة، والواو ألَفاً تارة أخرى)! ولدى الحديث عن مفهوم التغريب الذي أوجد شكلوفسكي له كلمة مكتوبة خطأً وليست موجودة في القواميس الروسية هي ostranenyie يدهشنا التونسي بقوله: "وبالرجوع إلى القاموس الروسي (أي قاموس؟) وجدنا أن أصل المصطلح يتضمّن فكرة التفرّد بالإضافة إلى الغرابة"! كذلك يتحدث التونسي عن شيء اسمه "جماعة السفرينين Severyanin"، فيما المقصود هو جماعة أو أتباع الشاعر الروسي سِفرياِنِن، وكان يُعَدُّ في ذلك الزمن واحداً من كوكبة شعراء مجدِّدين من وزن: خليبنيكوف وكلويف وماندلشتام..! والمؤسف أن الجهد الرائد الذي قدمه ابراهيم الخطيب بترجمته مختارات من "نصوص الشكلانيين الروس" يشكو كغيره من نواقص مشابهة كان يمكن تفاديها بسهولة. وإيجازاً، أكتفي بذكر مثال واحد، هو استخدامه كلمة "السيكطانط" التي يوردها دونما أي شرح أو حاشية...
وأياً كان الحال، فإن ثلاثين عاماً من التعرف على الشكلانية بخطوطها العريضة لم تتكلل، كما نرى، بترجمة لأعمال الشكلانيين الروس وافيةٍ بأي قدْر كان. ومن نافل القول أن مطالبتنا بترجمة وافية ليست دعوة إلى اعتناق الشكلانية والعودةِ إلى الوراء، وإنما هي دعوة إلى استكمال معرفي لا بد منه. ذلك أن "الإرث الشكلاني الحقيقي، - كما يقول جان فيربيه- ليس المذهب بحد ذاته، ولكنه الألْفُ وجهٍ للعمل الأدبي الذي (!) لم نكن نتحدث عنه (؟ عنها) قبل الشكلانيين، في حين أننا بدأنا الاهتمام بهذه الوجوه بعدهم: لقد رؤوها (؟!)، وعلّمونا كيف نراها". وللإنصاف، فإن هذا

النقص ليس مقصوراً في ثقافتنا العربية على الشكلانية وحدها.
على أن من الطرافة بمكان أيضاً وجودَ ظاهرة مرافِقة ومربكة، هي ظاهرة باختين، التي قد تكون أثَّرت سلباً في إدارة الظهر إلى الشكلانية قبل الأوان. إذ سرعان ما انتقل تودوروف، وهو الحُجَّةُ في هذا المجال، من الاهتمام بالشكلانية إلى الاهتمام بـ ميخائيل باختين وأعماله في أواخر السبعينات. فامتدّ هذا الاهتمام بالسرعة نفسها ليشمل دائرة من المثقفين العرب تنوس بين محمد برادة غرباً ويوسف حلاّق شرقاً. ليس العيب في الانتقال إلى الاهتمام بـ باختين، طبعاً، بل في ما ترتب على ذلك بطريقة من الطرق، أي في انتشار تصور باطل، ولكنه شائع بيننا كلاماً وكتابة، بأن باختين شكلاني، مثلُه مثل شكلوفسكي وإيخنباوم وطينيانوف... في حين أنه كان ممن انتقد الشكلانيين بقوة وبطريقة حوارية خصبة. أكتفي بمثال واحد من أقواله عام 1924:
"وبغضِّ النظر عمّا تتصف به الأعمال الروسية التي ظهرت في السنوات الأخيرة في مجال الشعرية من خصوبة وأهمية لا جدل فيهما، إلا أن الموقف العلمي العام الذي اعتمدته غالبية هذه الأعمال لا يمكن الاعتراف به صحيحاً ومُرضياً بشكل تام، وهذا يتعلق خاصة بأعمال ممثلي الطريقة الشكلية أو الصرفية (morphologique) لكنه يشمل أيضاً بعض الدراسات التي لم تأخذ بهذه الطريقة أخذاً كاملاً لكنها شاركتها بعض تقدُّماتها: تلكم على سبيل المثال، هي حال الأعمال الرائعة التي كتبها البروفيسور ف.م.جيرمونسكي".
وجدير بالذكر والأسف معاً أيضاً أن مصطلح "البوليفونيّا" الذي استعاره باختين من حقل الموسيقى لاستخدامه في تحليل أعمال ف.م.دَستويفسكي ما يزال كثيرون عندنا إلى اليوم يتباهون باستعماله بمعناه اللفظي، السطحي، المبتذل، بمعنى "تعدد الأصوات" بكل بساطة، وكأن هناك رواية لا يكون فيها أصوات متعددة؛ فلو كانت المسألة على هذه الشاكلة لاكتفى باختين بالكلمة الروسية (منوغوغولوسْي mnogogolosje) ولَما كلّف نفسه وكلّفنا عناء استخدام مصطلح موسيقي هو البوليفونيا. بل لكان استعمل من أجل التباهي والزينة مصطلحاً موسيقيا آخر، مثلاً، هو غامّوفونيا gammophonia الذي يعني بالضبط تعدد الأصوات أو كثرتها. غير أن مسوِّغ اللجوء إلى مصطلح بوليفونيا هو دلالته على وجود أصوات موسيقية متعددة ولكنها متساوية لا يعلو فيها صوت على صوت. في حين أن الغامّوفونيا تعني وجود صوت مهيمن بين أصوات متعددة تخضع له وترافقه بانسجام معه حتى نهاية المقطوعة الموسيقية. بهذا المعنى يكون تعدد الأصوات، البوليفونيا عند باختين، هو تعدد حالات الوعي، وليس كثرة الأصوات كما في سوق، أو سهرة، أو حمّام.

***

إذا صحّ القول بأن القرن التاسع عشر في روسيا، ابتداء من بوشكن الذي وُلِد سنة 1799، وانتهاء بـ ليف تلسطوي الذي توفّي عام 1910، كان عصرَ الرواية الذهبي ، وأن القصة القصيرة التي برزت على نحو خاص في ثمانينات ذلك القرن، متمثلة في أوسبينسكي وغارشِن على وجه الخصوص، بلغت ذروتها في إبداع أنطون تشيخَف (توفّي علم 1904)، فإن الشعر الروسي استعاد حضوره القوي من جديد على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا سيّما من خلال المدرسة الرمزية التي كان من أبرز أعلامها فاليري بريوسف، وألكسندر بلوك، وأندريه بيلي. غير أن المدرسة الرمزية التي كانت تولي الصورة الشعرية اهتماماً خاصاً عرفت أزمة حقيقية وتصدعاتٍ عميقةً بلغت مداها أواخر العقد الأول من القرن العشرين. ففي عام 1909، مثلاً، توقف عن الصدور أبرز مجلتين رمزيتين، وهما:"الميزان"، و "الجزّة الذهبية" (زَلَطوي رونو).
ما يهمّنا لفتُ النظر إليه هنا هو أن الشكلانية الروسية ظهرت إلى الوجود، بدأت بالتعبير عن نفسها، في ظل أزمة منهجية أخضعت الأدب لنقد سوسيولوجي ذي أبعاد سياسية وأيديولوجية، وفي أوج فراغ خلّفته أزمة الرمزية، بعد انفراط عقدها إلى عدد من التيارات الأدبية، والمدارس الشعرية كالأوجية (أكمييزم)، والصورية (إيماجينيزم)، والمستقبلية (فوتوريزم)، والتكعيبية (كوبيزم) ... إلخ.
على أن محطَّ أنظار الحركة النقدية التقليدية أيامَذاك ، أو مدارَ اهتمامها، يتلخّص، بكثير من التبسط طبعاً، في مفهومين، مقولتين، أو منطلقين أساسيين عريضين، هما:
1) البحثُ عن "مضمون" العمل الأدبي، أي عن منطوقه الاجتماعي والسياسي والفلسفي والنفسي .. إلخ.
2) الانطلاقُ من أن الشعر، بخلاف النثر، يعبر بالصور، وهي مقولة عاشت طويلاً، منذ أيام بيلينسكي في أربعينيات القرن التاسع عشر وحتى بَتِنيا مطلع القرن العشرين.
(بالطبع ، يندرج تحت هذين المفهومين كثير من التفرعات والتفاصيل التي لا يتسع المقام هنا لذكرها، ولو بعُجالة).
وطبيعي أن الحركة الوليدة، الشكلانية، وجّهت سهامها أوّل وأشدّ ما وجّهتها إلى الركنين المذكورين أعلاه، أي:
1) إلى المضمون الذي وضعته خارج إطار اهتمامها، خارج الفن والمقولات الجمالية، مغلّبة عليه الشكل ومكوناتِه؛ فما المضمون، في رأي شكلوفسكي، إلا جملةٌ من التقنيات الأسلوبية.
2) إلى الصورة في الشعر التي صنفتها واحدةً من أدوات اللغة الشعرية لا غير.
وهكذا شدّد الشكلانيون على القول باستقلالية العمل الأدبي، بعيداً عن شخصية مؤلفه، وعن الظروف التاريخية التي يُكتَب فيها، عن أشكال الوعي الأخرى، وإن كان ياكبسون ادّعى فيما بعدُ قائلاً: "لا تنيانوف، ولا شكلوفسكي، ولا موكاروفسكي، ولا أنا أعلنّا يوماً أن الفن مجال مغلق... وما نؤكد عليه ليس انفصالَ الفن بل استقلالُ الوظيفة الفنية". فقد أكد الشكلانيون أن ما يجب أن ينصبَّ الاهتمام عليه هو كيف صُنِع العمل الأدبي، ما الأدوات اللغوية والصرفية والتركيبية والإنشائية ... إلخ. التي جعلته عملاً أدبياً. وقد خلص رومان ياكبسون إلى القول بأن ما يهمه ليس العملَ الأدبي بحد ذاته، بل أدبيتُه، أي ما يجعل من نص ما عملاً أدبياً. وهذا ما حمل الشكلانيين

على رفض ثنائية الشكل والمضمون، وعلى عدّ الشكل القيمةَ الأساسية في الأدب. على أن فيكتور إيرليخ، مؤلفَ الكتاب الشهير "الشكلانية الروسية. تاريخ ومذاهب" الذي صدر بالإنكليزية عام 1955، وترجم الولي محمد جزأه الثاني من الإسبانية إلى العربية عام 2000، إذ يُشيد بانكباب الشكلانيين على تبيين خصوصية الأدب، تبيينِ ما يميز الأدب، لا يفوته تسجيلُ مأخذه عليهم، والتنبيهُ إلى أن اهتمامهم بهذه الخصوصية "أي بما هو أدبي خالص، كان أصلَ النزعة التي تسوّي الأدبية بالأدب والتي تختزل الأدب إلى سماته المميزة". وعلى العموم، فإن بافل ميدفيدِف، الذي ثمة من يظنّ حتى الآن بأنه أحد "الأقنعة" التي مرّر ميخائيل باختين أفكاره من خلالها، أجملَ منذ سنة 1924 أهم أطروحات الشكلانيين، في أربعٍ، هي:

- يجب أن ندرس "العمل الأدبي نفسه، وليس انعكاسَ ما يمثله ذلك العمل"؛
- "العملُ الأدبي شكل صِرف" ؛
- "ليس في الفن مضمون"، أو : "إن مضمون العمل الأدبي (وروحَه أيضاً) هو جملة تقنياته الأسلوبية"؛
- "يتألف العمل الأدبي من المادة والشكل" - المادة هي الكلمات، أمّا الشكل فهو تقنيات صياغتها.

هذه الأطروحات هي ما دفع رياكُبسون إلى قولته الشهيرة: "إذا كان العلم الخاص بالأدب يريد أن يصبح علماً، فإنه مرغم على الاعتراف بأن التقنياتِ بطلُه الوحيد".

ولكن، قبل الاسترسال والمضي في التعاطي مع مفاهيم الشكلانية وأدواتها الإجرائية، يتوجّب علينا أن نستعرض، بإيجاز كبير، نشأة الشكلانية الروسية وصيرورتَها خلال قرابة خمسة عشر عاماً (1916 - 1930) هي عمرُها القصير في روسيا.

التاريخ

تألفت عام 1915 في موسكو جماعة عُرِفت باسم "حلقة موسكو اللسانية". ومن ألمع ممثليها رومان ياكُبسون (-1896 1982) الذي كان يومها مهتماً بالإثنوغرافيا السلافية وفلسفة اللغة. وقد تعاونت هذه الحلقة مع نظيرة لها تأسست عام 1916 في سان بطرسبورغ (لينينغراد فيما بعد) اسمها "جماعة دراسة اللغة الشعرية"، وتُعرَف اختصاراً باسم (أوبوياز)، كان معظم أعضائها طلبة في الجامعة، أبرزهم فيكتَر شكلوفسكي (-1893 1984) الذي أصدر قبل ذلك (عام 1914) كراساً تحت عنوان " انبعاث الكلمة". ويعدُّ هذا الكرّاس أوّلَ تأسيس نظري للشكلانية الروسية. أمّا "جماعة دراسة اللغة الشعرية" هذه فقد أصدرت أوّل مطبوعاتها في عام تأسيسها (1916)، وهو كتاب صغير، عنوانه "مجموعات حول نظرية اللغة الشعرية. الإصدار الأوّل"، أعقبه العدد الثاني عام 1917 ، ثم صدر العدد الثالث عام 1919 تحت عنوان "الشعرية. مجموعة مقالات حول نظرية اللغة الشعرية"، والطريف أن ناشره هو الشاعر فلاديمِر ماياكوفسكي.

ومن أبرز أعلام الشكلانية الروسية:

فيكتَر شكلوفسكي (1893-1984)، ورومان ياكُبسون (-1896 1982)، و بوريس إيخنباوم (-1886 1957)، ويوري طينيانَف (-1894 1943)...إلخ. (يمكن أن نضيف إليهم أيضاً: توماشيفسكي، وجيرمونسكي، وفينوغرادَف، مثلاً).

المصير

كانت الشكلانية منذ أولى سنوات عمرها القصير مثارَ سجالات أدبية نقدية حامية، وموضعَ نقد أيديولوجي منذِر يمثّله قول تروتسكي في " الأدب والثورة" (1924):

"إذا ما تركنا جانباً الأصداء الضعيفة التي خلّفتها أنظمة أيديولوجية سابقة على الثورة ، نجد أن النظرية الوحيدة التي اعترضت الماركسية في روسيا السوفيتية، خلال السنوات الأخيرة، هي النظرية الشكلانية في الفن"؛ كما كانت موضعَ نقد اتهامي تجريمي أطلقه سنة 1930 لوناتشارسكي أولُ زيرِ ثقافة سوفيتي، حين وصف الشكلانية بأنها:

" تخريب إجرامي ذو طبيعة أيديولوجية".

وفي مجلة "الأدب والماركسية" (1929) نعت م. ك. دَبْرينِن الشكلانية بـ "العدو".

وبعد عام 1930 توقف عمل الشكلانيين المنظم، وغيّروا وجهات اهتماماتهم الأدبية، فاشتغل إيخنباوم وتوماشيفسكي بتأويل النصوص، والتحق شكلوفسكي بالواقعية الاشتراكية، بينما كان ياكبسون قد انتقل إلى براغ (1920) مترجماً في الهلال الأحمر السوفيتي، في البداية. وهناك شارك في تأسيس حلقة براغ الألسنية سنة 1926، ثم رحل إلى أمريكا عام 1939.

النشأة

لعل النظرة السائدة في أوساط واسعة حول أن الشكلانية الروسية ظاهرةٌ روسية الجذور والينابيع إنما تعود إلى ترجيح ب. ن. ميدفيدِف "عدم وجود علاقة نشوئية بين الشكلانية الروسية ونظيرتها الغربية"، وذلك في كتابه الشهير "المنهج الشكلاني في علم الأدب"(1928) الذي يشاع أن ميخائيل باختين هو من أوحى إليه بما ضمّنه من أفكار. غير أن ترجيح ميدفيدِف انقلب تأكيداً عند كل من أ. غ. تصيتلِن في الموسوعة الأدبية (1934)، وبعده عند د. إيفلِن في الموسوعة الأدبية الموجزة (1968) بأنه ما من جذور للشكلانية الروسية في الغرب.

أمّا الباحث السوفيتي، أ.مياسنيكوف، فقد خصّ هذه المسألة، أواسط سبعينات القرن العشرين، بدراسة، عنوانها "مشكلات الشكلانية الروسية المبكرة"، يخالف فيها هذا الرأي، ويخلص منها إلى القول بأن الشكلانية الأوروبية، أسهمت "بأكبر قدْر من النشاط في السجالات التي دارت منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بين الأدباء والمنظِّرين حول ما إذا كان يجب على الفن أن يعكس الحياة، أن يغيِّرها، أم أن يخلق تصميمات جديدة، واقعاً جمالياً جديداً، أبنية فنية مستقلة ذاتياً". ويأخذ مياسنيكوف على الشكلانيين أنهم يرون خصوصية الفن في "استقلاليته

الكاملة عن أشكال الوعي الأخرى". يقول شكلوفسكي إن: "الفن كان دائماً مستقلاً عن الحياة، ولم يعكس لونُه أبداً لون اللواء الذي يرفرف على قلعة المدينة". ويجزم مياسنيكوف بأن كثيرين من الشكلانيين الروس كانوا يعرفون نظريات الشكلانيين الأجانب ويستشهدون بأقوالهم.

ومن هؤلاء الأجانب إدوارد هانسليك (1825-1904) الذي كان أستاذاً في جامعة فينّا وواحداً من مؤسسي الشكلانية الأوروبية. وقد ترجم الروس سنة 1895النسخة المنقحة (1881) من رسالته المعروفة " في الجميل موسيقياً"(1854). إذ يفرّق هانسليك في الفن بين ما يسميه "الشكل الفني، بوصفه الوجود المباشر للفن، بوصفه واقعة لمرة واحدة، وبين العناصر غير الفنية" التي تفضي بالفن أحياناً، حسب تعبيره، إلى أفكار وتداعيات تقع خارج الفن.

ويشار أيضاً إلى الدور الذي لعبته في تاريخ الشكلانية حلقة صغيرة ظهرت أواخر ستينات القرن التاسع عشر تألفت من المنظّر وراعي الفنون كونراد فيدلر (1841-1895)، والرسّام هانس فون ماري (1837-1887)، والنحّات أدولف فون هيلديبراند (1827-1921).

لقد صاغ ماري وفيدلر نظرية "الرؤية" و"إبداع الشكل" انطلاقاً من أن العالم ، في رأيهما، فوضوي. وفوضوية المشاعر والأفكار التي تنجم عنه تقتضي من المرء أن يطوّر في نفسه "بصيرة مطلقة"، "تأملاً نقياً" لا تشوبه شائبة أخلاقية أو منطقية أو اجتماعية. وعلى هذا النحو يجلو الفنان لنفسه بنية الموضوع، "شكله النقي" الخالص، أي يلجم فوضى العالم والأحاسيس عن طريق "إبداع الشكل" الفني. فالفن عند فيدلر مستقل عن الحياة ولا يخضع إلا لقوانينه الداخلية، وليس هدفُ الفن محاكاةَ الواقع ولا تغييرَه، بل هدفه إنتاج واقع جديد. وهذا معناه أن الفن واقع جمالي مستقل عن الواقع ويتمتع باستقلال مطلق وليس نسبياً. أي أن العمل الأدبي يجب من حيث المبدأ أن ينوب عن الطبيعة. والواقعية في نظره هي الشكل الأدنى للنشاط الفني.

وفي عام 1893 صدر كتاب هيلديبراند "مشكلات الشكل في الفن التشكيلي" فاستقبله الرمزيون الروس استقبال "مطرٍ منعش عذبٍ في أرض أضناها الجفاف"، كما عبر غ.فيلفلين. ثم تُرجِم هذا الكتاب إلى الروسية عام 1914. وفيه يستنكر أدولف هيلديبراند مبدأ المحاكاة، ويعلي من دور الوظيفة البنائية، وظيفة الشكل، في الفن. فهو "ينظر إلى الفن بوصفه ظاهرة مستقرة في ذاتها وموجودة لأجل ذاتها".

وبناء على هذه المعطيات يؤكد مياسنيكوف دور الموروث الشكلاني الغربي في ولادة وتبلور الشكلانية الروسية، وإن كان لا ينفي ما لها من "ملامحَ أصيلة"، ويعدّها حلقة مميزة في السيرورة العامة لتطور الفكر الجمالي في القرن العشرين.

امّا فيكتور إيرلِخ فيعدّ حركة الشكلانيين الروس "ظاهرة قومية أساساً"، ويرى أن التأثير الغربي فيها "كان هزيلاً". كما يصف الشكلانية بأنها "جزء لا يتجزأ من الساحة الثقافية الروسية، وباعتبارها ردةَ فعل إزاء الميتافيزيقا الرمزية والسوسيولوجيا المبتسرة والنفيرِ النظري للمستقبلية، فإنها ظاهرةٌ روسية متميزة"، بل و"استجابةٌ محلية لداع محلي أيضاً"(163).

ويستشهد إيرلخ بالناقد إ. ن. يفيمَف الذي يسميه أحدَ خصوم الشكلانية "الشرفاء" لقوله عنها، منذ أواخر العشرينيات: "إنها شددت بقوة على المشاكل الأساسية للدراسة الأدبية. شددت قبل كل شيء على خصوصيات موضوعها، حيث غيَّرت تصورنا للعمل الأدبي وحللت أجزاءه المكوّنة، وفتحت مجالاتٍ جديدةً للبحث، وأغنت إغناء واسعاً معرفتَنا للتقنيات الأدبية ولتنظيرنا حول الأدب"، وحوّلت الشعرية من حقل انطباعات سائبة "إلى موضوع للتحليل العلمي، وإلى مشكلة ملموسةٍ لعلم الأدب"(179).

وإذ تُقدِّم آن جِفرسون عرضاً مستفيضاً وإيجابياً لـ "الشكلانية الروسية" قائلة: "إن الشكلانيين خطوا خطوة هامة للغاية بجعلهم اللغةَ عاملاً مركزياً في تعريفهم للأدب"، فإنها تعزو مواطن ضعفهم إلى "فشلهم في توسيع مدى نظرية اللغة لكي تشمل مجالات أخرى. وتبقى فكرتُهم عن الواقع حبيسةَ وجهةِ النظر الثقافية التي كانت نظريتُهم في الأدب تسعى إلى استبدالها". وتضيف: "فعلى الرغم من تعريفهم المبتكر للتاريخ الأدبي بأنه سلسلة متقطعة، كانوا عاجزين عن تفسير علاقته بغيره من السلاسل التاريخية".

ومن منظور أوسع، يتهم ليونارد جاكسون، في كتابه "بؤس البنيوية"، النظريةَ الأدبية الحديثة جملةً، ونحن نعتقد أن الشكلانية أحدُ مكوّناتها، يتهمها بهدر فضائل أعلام القرن العشرين، ماركس وفرويد وسوسور، والبناءِ على عيوبهم ونقاط الضعف عندهم، ثم يحكم بقسوة على هذه النظرية بأنها "تسحب البساط من تحت أقدامنا في كل مجال من مجالات الحياة، وهذا ما يولّد إحساساً مدوّخاً بل ولذيذاً حين نعتاد عليه، غير أنها لا تفسر شيئاً".

أمّا بيتر شتاينر، الأستاذ في جامعة بنسلفانيا، الذي يرى في الشكلانية الروسية نقيضاً لمشروعين عالميين هما السيميوطيقا الباختينية وبنيوية براغ، ومرحلةً انتقالية في تاريخ الدراسة الأدبية، فيقول إنه: "دون زعزعتها الحادة للنقد التقليدي، ودون بحثها الدؤوب عن تصورات بديلة، لم تكن لتظهر الحاجة إلى نُهُج معرفية جديدة في العلم. وكما أن النُّهُج المعرفية التي دشّنتها الشكلانية الروسية في نظرية الأدب، لا تزال معنا، فإنها تقف في الخطاب النظري ليومنا هذا، لا باعتبارها شيئاً تاريخياً لافتاً، بل بصفتها حضوراً حيّاً".

***

وما دمنا واجدين أنفسنا، في ختام هذا الحديث، أمام تجاذب بهذه القوّة يراوح بين الإلغاء والإنصاف إزاء الشكلانية، فإنني أقف إلى جانب تودوروف أثبّت له مكبِّر الصوت ليقول، وهو يختم فصل "تعريف الشعرية":

"أتمنى ألا تُعتبَر الخطوات الأولى في اتجاه جديد حُجّة على أنه اتجاه خاطئ" ■

م. وليد الزعبي

لا حرية بلا تحرير العقل

«إمبراطوريات المستقبل ستكون إمبراطوريات العقل»
ونستون تشرشل

إن تحرير عقل الإنسان من الرواسب التي يحملها يجعل منه إنساناً صالحاً قابلاً لتطوير علمه وعقله وفهمه بشكل أفضل، أمام الحوادث التي يمر بها، والتي تتطلب منه أن يقيمها بشكل أقرب إلى الدقة والمنطق، مما يمكنه من اكتساب المهارات في حل الاشكالات إنطلاقاً من نظرة الفهم الحقيقية هذه، والتي تعطي الإنسان درجة من الحكمة.
وفهمي لرسالة الأديان ومنها وخاتمتها الإسلام، نابعٌ من كونه دينٌ عادلٌ من ربٍ عادل، ذلك الفهم جعلني ألأنظر إلى الآخرين بعين الإنصاف والمساواة مع النفس، وتلك المساواة هي المدخل إلى قلوب الناس وبناء العلاقات الإنسانية الجيدة وبناء الثقة الحقيقية الصادقة مع الآخرين.
قال الله تعالى في الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بيتكم محرماً فلا تظالموا» وقال أيضاً «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجلعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»
وكل ما ورد في القرآن الكريم بالإجمال يعبر عن هذا الفهم ولا يعبر عن غيره، ولكن تفسير الناس للعدل والظلم هو ما يتفارق ويتقاطع، ويأتي على الأرجح من ثقافاتهم والجغرافيا التي قدموا منها واحتكاكهم بالحضارات والأديان الأخرى، أما القرآن الكريم فهو الذي لا يتغيّر بتغير العصور، ولا يتبدّل بتبدّل الأزمنة، وهو العلم النافع الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، من عند ربّه إلى الناس ليعلمهم وبرفع مستوى فهمهم وعلومهم وقيمهم وأخلاقياتهم فخاطب الناس جميعاً خطاباً مقنعاً ولم يخاطب المسلمين وحدهم.
وحين خرج الناس في سوريا طلباً لحريتهم، لم يخرجوا لأنهم أرادوا تحرير أجسادهم وأنفسهم من القيود وحسب، ولكن أيضاً لتحرير عقولهم، وتنوير أرواحهم من ظلام الاستبداد والقيم المتهالكة البالية، التي عاثت فساداً في المجتمع، وقلبت مفاهيمه، وجعلت العدل أن تظلم الناس والظلم أن تنصف بينهم وتحكم بينهم بما شرعته السماء والقوانين في العالم كله، والعقل مهما سلحته بالعلوم والمعارف لا قيمة له بلا العمل، وهو ضالتنا وصيدنا الذي نبتغي، فالعمل الآن



هو ما تتطلبه المرحلة الحالية، ولكن أي نوع من العمل. وعلى أي أسس سوف ينبني؟ وإلى أين سيتوجّه؟ وبأي مهارات وقيم وأخلاقيات وكفاءات؟ كل هذه الاسئلة هي ما يدور في خلدي، فيما أمرّ على الحوادث السورية الراهنة، من نشاط سياسي ونضال عسكري وشعبي كبير، تفاوض مع دولٍ إقليمية وعالمية، تركيبة السوريين أنفسهم، خمسين عاماً من التخريب، خمسين عاماً من العطالة، خمسين عاماً من القيد الذي بدأ العقل بتكسيره وعلى العمل أن يمحو آثاره الآن.

الوطن والمواطنة:

ليس الوطن الانهار والأشجار والتراب والأحجار والبيوت والآفاق الجميلة ساعات الغروب، ولكن الوطن هو الإنسان والأسرة والأهل والجيران وصولاً إلى كل مكونات المجتمع التي هي الوطن، ولا يعلو عليها شيء آخر، أما المواطنة، فهي مقدار الصلة ما بين المواطن. الإنسان بوطنه الذي حددناه قبل سطرين مضيا، فبقدر حب الإنسان لوطنه وعلى رأسه أخوه الإنسان الشريك له في هذا الوطن، يقاس مقدار وطنية هذا الإنسان، وعليه أن يترجم هذا الحب نفعاً وعطاءاً لأخيه الإنسان. وطنه الحقيقي.

ويرقى إحسان المواطن إلى أخيه المواطن بمعاملته وأخلاقه وحلمه وصدقه وعطائه من ثقافة وعلم ومال وصبر، ليصبح هو مقياس وطنيته، فلا يمكن أن نجرّد السنتنا سيوفاً بتارة على رقاب إخواننا المواطنين شركائنا في الحياة، فنقيّم أعمالهم وننقدها ونهتك سترهم ونؤذيهم، بينما لا نفعل نحن شيئاً يفيد ويقدّم للوطن، وندّعي نحن الوطنية ونزاود عليهم فيها.

وقد اتسع تداول مصطلح «المواطنة» لما يحمله من معاني المشاركة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إذ إن صفة «المواطن» لا تعني فقط الانتساب للوطن، والارتباط به كتابع ومنتمٍ، وإنما هو بهذه الصفة عنصر فاعل في مختلف المجالات، له كيانه المستقل، وقناعاته الخاصة، ومن حقه أن يعبر بحريّة عن آرائه واختياراته الشخصية، وأن يضطلع بدور إيجابي في الحياة العامة.

ولا يستقيم البناء الديموقراطي لأي دولة دون تجلّي روح «المواطنة» في علاقات كل فرد «مواطن» بمؤسسات الدولة التي يعد الهدف الأساسي من وجودها هو خدمة «المواطنين» وتوفير ما يحتاجون إليه في حياتهم الفردية والجماعية، من أمن واطمئنان واستقرار، والسهر على تنظيم شؤونهم العامة انطلاقا من خياراتهم، ووفق رغباتهم وحاجاتهم، وفي المقابل يرتبط الأفراد «المواطنون» بالولاء الكامل لـ «الوطن» الذي لا يعني مجرد حيز جغرافي، وإنما يشمل في مفهومه الواسع مجموعة من القيم والمبادئ والقضايا التي تعكس الإرادة العامة للمواطنين.

ومن أهم المقومات والشروط التي لا مجال للحديث عن المواطنة في غيابها:

المساواة وتكافؤ الفرص

لا تتحقق المواطنة إلا بتساوي جميع المواطنين والمواطنات في الحقوق والواجبات، وتتاح أمام الجميع نفس الفرص، ويعني ذلك التساوي أمام القانون الذي هو المرجع الوحيد في تحديد تلك الحقوق والواجبات، وإذا كان التساكن والتعايش والشراكة والتعاون من العناصر الأساسية التي يفترض توفرها بين المشتركين في الانتماء لنفس الوطن، فإنها تهتز وتختل في حالة عدم احترام مبدأ المساواة، مما يؤدي إلى تهديد الاستقرار، لأن كل من يشعر بالحيف، أو الحرمان دون حق مما يتاح لغيره، وتنغلق في وجهه أبواب الإنصاف، يصبح متمردا على قيم المواطنة، ويكون بمثابة قنبلة موقوتة قابلة للانفجار بشكل من الأشكال.

والوطن الذي تتعدد أصول مواطنيه العرقية، وعقائدهم الدينية، وانتماءاتهم الثقافية والسياسية، لا يمكن ضمان وحدته واستقراره إلا على أساس مبدأ المواطنة الذي يرتكز على منظومة قانونية وسياسية واجتماعية وأخلاقية متكاملة، والمساواة كمقوم رئيسي للمواطنة، تعني أنه لا مجال للتمييز بين المواطنين على أساس الجنس، أو اللون، أو الأصل العرقي، أو المعتقد الديني، أو القناعات الفكرية، أو الانتماء والنشاط السياسي والنقابي والجمعوي، واختلاف الفئات وصفاتها وانتماءاتها لا يجعل أيا منها أكثر حظا من غيرها في الحصول على المكاسب والامتيازات، كما لا يكون سببا في انتقاص الحقوق، أو مبررا للإقصاء والتهميش، وحسن تدبير الاختلاف والتعدد لا يتم إلا في إطار المواطنة التي تضمن حقوق الجميع، وتتيح لكل المواطنين والمواطنات القيام بواجباتهم وتحمل المسؤوليات في وطنهم على أسس متكافئة، وإرساء مبدأ المواطنة في منظومة الروابط والعلاقات التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد وبينهم وبين مؤسسات الدولة، لا يمكن أن يقوم على إلغاء الصفات والانتماءات والمعتقدات وغيرها من خصوصيات بعض الفئات، وإنما يقوم على احترامها، وإتاحة أمامها فرص المشاركة في إغناء الوطن وتنمية رصيده الثقافي والحضاري.

ولحماية مبدأ المساواة بين جميع المواطنين والمواطنات داخل المجتمع الذي تتناقض فيه المصالح والأغراض، فإنه لابد من وجود ضمانات قانونية وقضاء مستقل وعادل يتم اللجوء إليه من طرف كل من تعرضت حقوقه للمس أو الانتهاك من لدن الآخرين سواء كانوا أشخاصا طبيعيين أو اعتباريين.

المشاركة في الحياة العامة

لا يكفي ضمان المساواة والتكافؤ في القوانين المسطرة، والأنظمة المتبعة، وفي الممارسة، لكي يتجلى مبدأ المواطنة، وإنما لابد كذلك من المشاركة الفعلية للمواطنين والمواطنات في الحياة العامة، الأمر الذي يتطلب توفر استعدادات حقيقية لدى كل المشتركين في الانتماء للوطن، وهذه الاستعدادات لا تتوفر إلا في حدود ضيقة في ظروف قمع الحريات، ومصادرة الفكر

المتحرر من التبعية والخنوع، وفي ظل الأنظمة التي تناهض العمل السياسي الذي يحمل رؤية انتقادية، أو موقف معارض للحكام وللسياسات المتبعة؛ ففي مثل هذه الظروف التي تعرفها المجتمعات المتخلفة عموما، ومنها البلاد العربية والإسلامية، يلاحظ انزواء كثير من الكفاءات، وبروز الفردانية، والابتعاد عن المشاركة في الحياة العامة، والنفور من العمل السياسي، وغير ذلك من الظواهر المناقضة للمواطنة، فالأنظمة القمعية، ولو اختفت وراء ديموقراطيات شكلية، مسؤولة عن تقليص فرص المشاركة، ومدمرة لقيم المواطنة؛ ولا يتأتى نمو استعداد المواطنين والمواطنات للمشاركة في الحياة العامة إلا في ظل حرية الفكر والتعبير، وحرية الانتماء والنشاط السياسي والنقابي والجمعوي، وفي إطار الديموقراطية التي يكون فيها الشعب هو صاحب السيادة ومصدرا لجميع السلطات.

الولاء للوطن:

ويعني الولاء للوطن أن الرابطة التي تجمع المواطن بوطنه تسمو عن العلاقات القبلية والعشائرية والحزبية، ولا خضوع فيها إلا لسيادة القانون، وأن هذه الرابطة لا تنحصر في مجرد الشعور بالانتماء وما يطبع ذلك من عواطف، وإنما تتجلى إلى جانب الارتباط الوجداني، في إدراك واعتقاد المواطن بأن هناك التزامات وواجبات نحو الوطن لا تتحقق المواطنة دون التقيد الطوعي بها.

ولا تتبلور في الواقع صفة المواطن كفرد له حقوق وعليه واجبات، بمجرد توفر ترسانة من القوانين والمؤسسات، التي تتيح للمواطن التمتع بحقوقه والدفاع عنها في مواجهة أي انتهاك، واستردادها إذا سلبت منه، وإنما كذلك بتشبع هذا المواطن بقيم المواطنة وثقافة القانون، التي تعني أن الاحتكام إلى مقتضياته هو الوسيلة الوحيدة للتمتع بالحقوق وحمايتها من الخرق، وبالتالي لا مجال لاستعمال العلاقات الخاصة مع ذوي النفوذ، أو الاحتماء بمركز الفرد في القبيلة أو العشيرة.

ويعني الولاء للوطن شعور كل مواطن بأنه معني بخدمة الوطن، والعمل على تنميته والرفع من شأنه، وحماية مقوماته الدينية واللغوية والثقافية والحضارية، والشعور بالمسؤولية عن المشاركة في تحقيق النفع العام، والالتزام باحترام حقوق وحريات الآخرين، واحترام القوانين التي تنظم علاقات المواطنين فيما بينهم، وعلاقاتهم بمؤسسات الدولة والمجتمع، والمساهمة في حماية جمالية ونظافة المدينة أو القرية التي يقيم بها، وحماية البيئة فيها، والمشاركة في النفقات الجماعية، والانخراط في الدفاع عن القضايا الوطنية، والتضامن مع باقي المواطنين والهيئات والمؤسسات الوطنية في مواجهة الطوارئ والأخطار التي قد تهدد الوطن في أي وقت، والاستعداد للتضحية من أجل حماية استقلال الوطن.

ووفقاً لأحكام الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل المعتمدة سنة 1989، فإن الطفل الذي يجب أن يلتحق بالمدرسة، وأن يحظى بتنشئة اجتماعية في ظروف جيدة، لا يمكن النظر إليه كمجرد تلميذ ينبغي إعداده لكي يكون مواطنا في المستقبل، فهو مواطن في الأصل، وتربيته على المواطنة تعني تحضيره للمشاركة الفاعلة في خدمة وطنه، وتزويده بالمعارف والمهارات والقيم التي تؤهله لتحمل المسؤوليات في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية، وتُعده للمساهمة الإيجابية في تطوير المجتمع نحو الأفضل.

وهناك اهتمام متزايد في الدول الديموقراطية في غرب أوربا كفرنسا بموضوع التربية على المواطنة، وتأسست لجان للتنسيق على مستوى الاتحاد الأوربي في هذا المجال، سبق أن أعدت برنامج عمل مشترك للتربية على المواطنة الديموقراطية (E.C.D.) يهم الفترة (2001-2004) وتم التحضير لجعل سنة 2005 سنة أوربية للمواطنة بالتربية .

لا سبيل لقراءة الواقع إلا ..بتفاؤل

قال الشيخ الجليل مصطفي الغلاييني (ما استولي اليأس على أمة الا أخملها ولا خالط قلوب قوم إلا أضعفها) وهو أصاب عين الحقيقة في قوله، فكم نحتاج إلى الابتعاد عن اليأس في قراءتنا لما حولنا من أحداث، كي لا يستولي الفشل على أعمالنا، وعلى عقولنا وقلوبنا، فمن كان يتوقّع أن تتغير بلادنا كل هذا التغيّر؟ وأن يتغيّر إنساننا السوري، الذي عاش طيلاً في ظل القمع والعبودية، قابلاً راضياً ساكتاً، إلا قلة منه موجودة في كل المجتمعات والأوقات، ولكن الغالبية تابعت وتاقلمت مع الصعوبات، وعانت ما عانته، ولكنه اليوم تثور وتتمرد، وتتوسع دائرة تمردها وثورتها لتصل إلى الآفاق، وتعلّم الأمم وتلهمها، كيف لا نتفاءل ونحن ننتظر فرح الشعب بإعادة بناء ما تهدّم؟ كيف لا نتفاءل ونحن نرى فرح أم الشهيد بابنها وتضحيته؟ كيف لا نتفاءل ونحن نراقب انضمام المزيد من الأحرار إلى كوكبة الثورة وطريق الحرية والمستقبل؟ لا بدّ من التفاؤل لينجح العمل ولا أصدق من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (تفاءلوا بالخير.. تجدوه).

في ربيع العرب...أين مكان العمل؟

إن قيم العمل والصفات التي يتطلبها العمل الناجح، ستسبب الاستقرار في علاقاتنا البينية، بين بعضنا البعض، والعلاقات الرأسية مع المسؤولين عن أعمالنا والعاملين تحت إشرافنا، فبعد أن رأينا ما كان يحصل في الدولة السابقة ـ دولة ما قبل الربيع العربي ـ ممثلة بسوريا التي سادت فيها الازدواجية في القيم، والتناقض ما بين المعلن والمعمول به، بحيث كان المسؤولون واصحاب الأعمال يكثرون الحديث عن القيم الفاضلة والاستقامة بأسمى معانيها، ولكنهم على أرض الواقع يفعلون كل ما يخالف تلك القيم، فتجد كل شيء كل منحى من الحياة رديئاً متهالكاً بشكل غير مسبوق، الأذى والرشوة والسرقات والإساءة إلى الأمانة والآخرين والمكر بهم وتحطيمهم وإلصاق الاتهامات الكاذبة بهم، وحتى قتلهم من قبل أجهزة الكذب الأمنية التي تحولت إلى



مدارس في فنون الكذب والافتراء على الناس.
في مرحلة الربيع العربي، نأمل من بلدنا الجديد أن يكونه إنسانه جديداً أيضاً، بصفات تليق به، لأن تحولنا من دولة فاشلة واقتصاد فاشل إلى دولة ناجحة واقتصاد متحرر ومتطور يتطلب إنساناً جديداً تماما.
إن مكان العمل اليوم في مرحلة الربيع العربي، هي مركز كل شيء، فلا تقدم بلا عمل، ولن تهبط علينا مساعدات العالم، ولا الدول الصديقة ستقدم لنا تعويضاً عما لاقيناه من ضيم طويل، ولا من ضرر كبير بسبب الأنظمة المستبدة، فلن نأكل إلا من عمل أيدينا، ولن تتقدم بلادنا إلا بفضل عملنا نحن، وكي نتقدّم إلى ذلك المقام الكريم، علينا أن ننظر تحت أقدامنا لنرى جيداً ما هي عيوب حياتنا العملية في سنوات الظلام ومنها نخرج إلى النور مع خروجنا إلى نور الحرية من ظلمات الظلم.

صناعة الإنسان

يتعب المجتمع في تنشئة الإنسان، لتأهيله وتنميته وتزويده بكل ما يلزم ليعيش حياةً حرّة كريمة، ويتعب الإنسان في تأهيل نفسه أيضاً وصنع قيمه المختلفة وذلك حسب درجة تصنيفه(درجة تأهيله المهني والأخلاقي) ويمكنني أن أضرب مثلاً في طن من الحديد الخام الذي تبلغ قيمته حوالي 300 دولار، ولكنه غذا خضع للمعادلات التالية سيصبح الأمر على نحو مختلف:
فلو صنّع على شكل قضبان تصل قيمته إلى 650 دولار
ولو صنّع للسيارات تصبح قيمته 5000 دولار
ولو صنّع كمعدات مهمة ستصل قيمته إلى 10000 دولار
ولو أنه تحوّل في التصنيع إلى آلات دقيقة تصل قيمته إلى 1000000 دولار (مليون دولار) للخام ذاته الذي بدأ بـ 300 دولار، وكذلك الناس، وهم أعلى قدراً وأثمن قيمة من الحديد، فبقدر ما يجري تأهيل الإنسان تزداد قيمته وفهمه وبالتالي نفعه لنفسه واسرته والآخرين، فهناك من البشر من يحتاج إلى المساعدة في طعامه وشرابه (المعتوه) وهناك من يحتاج إلى مساعدة الآخرين في أمور الحياة (الجاهل والغبي) وهناك من البشر من لا يحتاج إلى مساعدة أحد ولكنه لا يساعد الآخرين ، وهناك من يساعد الناس، وهناك من يساعد الآلاف وهناك من يساعد الملايين من البشر ، وهناك من يؤذي الملايين، لذلك فقد احتاج الناس التأهيل الأخلاقي إضافة إلى تأهيلهم المهني، لأنك إذا أهّلت إنساناً مهنياً وتركته بلا تنمية وترقية قيمية وأخلاقية، فإنك تكون قد صمعت مسخاً ووحشاً مسلحاً بالعلوم التي قد يؤذي بها الناس.

المنافسة

اشتدت المنافسة في بيئات الظلام، التي سادت في الخمسين سنة الماضية في بعض البلدان ومنها بلادنا سوريا، التي اعتاد فيها الناس على التنافس الحاد، غير الشريف، الذي يقوم على مبدأ التزاحم، ولو عرف الناس أن لكل منهم رزقه، ونصيبه من نتائج عمله، لما تدافعوا أمام الأبواب وفي الطرقات، ولما حاولوا عرقلة نجاح غيرهم، فقد تصل درجة التنافس الشرس إلى مستويات لا يتصورها العقل، فيبدأ الكيد، والإساءة والأذى، وقد يصل حدود الاغتيال للتخلص من المنافس في العمل أو السياسة أو الحياة، وهذا واحد من أمراض المجتمعات العربية بشكل عام، وهو ما تعانيه الدول التي ظهرت فيها الثورات، ومنها الثورة السورية، التي تشهد ساحة تنافس تكون في أغلب أحيانها غير عادلة، وغير أخلاقية، تهدف إلى الزعامة والتسيّد على الآخرين، وقد وجدت في مشاركاتي وحضوري للكثير من المؤتمرات والفعاليات السورية، أن الأمر لا يستحق عناء التنافس غير الشريف عليه، فالمكسب هنا هو تكليف ومسؤولية وليس شرفاً يضاف إلينا، ولا غنيمة نحصل عليها، بل إننا نجاهد في العمل الوطني من أجل أن نتقدّم إلى عملٍ أصعب منه، واكثر مشقة، وأقل نفعاً فردياً، وما نجنيه سوى الذكر الطيب والحسنى في حياتنا وفي آخرتنا، وما نقدّمه لشعبنا العظيم، هو واجبنا، كلٌ حسب استطاعته وكلٌ حسب طاقته، وكلٌ كما يعرف.
وأول قيمة من قيم العمل الوطني هي المنافسة الشريفة التي لا تحلّ لأصحابها الإساءة للآخرين، أو تنحية أحدٍ من العمل والتأثير الوطني والمجتمعي، ولا تعني الإقصاء والإبعاد والتفرّد بالحراك السياسي، وهي قيمة عالية رفيعة، ولكنها مجهدة وتتطلب حرباً على الأنانية الفردية، والمصلحة الشخصية، وهو ما ثبت نفسي عليه، ولا أريد تغييره في أخلاقياتي، فكل ما يفعله الأفرقاء المختلفون والفصائل المعارضة السورية هو في النهاية خيرٌ يصبّ في مصلحة الثورة السورية والمجتمع السوري القادم، والبلاد المستقبلية، وفي كل جهد ثمار مباركة، فقد قررت ألا أشغل نفسي في التفكير في النوايا والأفكار العميقة البعيدة في النفوس، وأن التفت فقط إلى العمل من أجل صالح شعبي، وفي هذا رضا نفسي وضميري ومن قبله رضا ربي تعالى.

صور الماضي

الرشوة...هل يمكن أن نتخلص منها يوماً ما؟:
هذه الظاهرة التي لا تخفى عليكم ظاهرة شلت الدولة وقتلتها حتى انهارت المؤسسات وتحولت إلى أداة بيد الظالم، فدمرت البيوت وهلك الناس وسلبت أموالهم حتى لا تكاد ترى عملاً في سوريا بلا رشوة، وهذه الظاهرة غير موجودة إطلاقاً في الدول الناجحة، إذ أن الفساد المالي يعتبر من أهم مقاييس فشل الدولة أو نجاحها، ويظهر التقرير الاستراتيجي للأمم المتحدة مدى تدهور أحوال الدول التي حكمها الفساد، وارتباطه بالفشل العام، فيصبح الظلم حامياً للفساد والفساد أداة بيد الظلم وهكذا بلا نهاية، وأول ما تستعمله تلك الأنظمة هو حجة الدفاع عن الأوطان والتسلح من أجل القضايا الكبرى، فقد خلص التقرير الذي أعدته منظمة الشفافية العالمية في لندن الى أن ثلثي عدد الشركات الكبيرة المصدرة للاسلحة في العالم لا توفر أي

دليل كاف على وجود آليات لمكافحة الفساد والرشوة فيها، وتتضمن القائمة شركات من دول كبرى مثل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصين والمانيا والتي تشكل صادراتها من الاسلحة 90% من تجارة الاسلحة في العالم.وقال التقرير انه بحكم العقود الضخمة في قطاع التسلح وطبيعة السرية التي يتميز بها القطاع فانه يشكل ارضية خصبة لانتشار الفساد والرشوة وهو ما يكبد الحكومات ودافعي الضرائب خسائر فادحة.ويقدر البنك الدولي حجم الفساد في هذا القطاع بأكثر من عشرين مليار دولار سنويا، يقول مراقبون انه يعادل نفس حجم المساعدات التي تعهدت بها الدول الصناعية قبل ثلاث سنوات لمواجهة ازمة المجاعة في العالم.

وفي مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية قال مدير البرامج بمنظمة الشفافية الدولية في بريطانيا، ومعد التقرير، مارك بيمن ان «الفساد في قطاع الدفاع خطير، ليس لانه يتسبب في هدر الاموال العامة بل لانه يهدد حياة الجنود اذا استخدموا آليات او معدات عسكرية لم تصمم لهم، كما ان الرشوة يمكن ان تساهم في سباق التسلح، واذا كانت الحكومات المعنية لا تخضع لرقابة ما فان نهب المال العام يصبح اكثر سهولة».

وقد تقدمت دولة الإمارات إلى المرتبة 27 عالمياً على مؤشر مدركات الفساد لعام 2012 الصادر عن منظمة الشفافية الدولية، والذي يقيم مستويات النزاهة والشفافية لدى 174 دولة حول العالم، وتصدرت كل من دولة الإمارات العربية المتحدة وقطر، بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في مؤشر هذا العام متقاسمتين المرتبة 27 عالمياً والأولى شرق أوسطياً، وذلك بعد أن تساوتا في نقاط قياس الأداء، حيث سجل البلدان 68 نقطة من أصل 100 نقطة.

وتصدرت كل من الدنمارك وفنلندا ونيوزيلندا في مرتبة واحدة قائمة مؤشر مدركات الفساد، إذ حصلت كل منها على 90 نقطة، وهي نتيجة عززتها صلاحية الوصول النافذ إلى أنظمة المعلومات واتباع قواعد حاكمة لسلوكيات شاغلي المناصب العامة، بحسب التقرير.

وبحسب نتائج تقرير مؤشر مدركات الفساد السنوي، فإن ثلثي الدول «البالغ عددها 176 دولة» مصنفة على المؤشر للعام 2012 تحت مستوى 50 نقطة، مما يؤكد حاجة المؤسسات العامة إلى التزام المزيد من الشفافية وتوسيع نطاق المساءلة للمسؤولين النافذين.

وجاءت مملكة البحرين في المرتبة الثالثة عربياً، رغم تراجعها في التصنيف العالمي سبع مراتب عن العام 2011، وحلت في المرتبة 53 عالمياً، بعد أن كانت تحتل المرتبة 46 عالمياً، ثم الأردن التي جاءت في المرتبة 58 عالمياً، وسلطنة عمان في المرتبة 61 عالمياً وكل من الكويت والسعودية في المرتبة 66 عالميا والسابعة عربياً، وتونس في المرتبة 75، والمغرب في المرتبة 88، وجيبوتي في المرتبة 94، والجزائر في المرتبة 105، ومصر في المرتبة 118، ولبنان في المرتبة 128، وسوريا في المرتبة 144، واليمن في المرتبة 156، وليبيا في المرتبة 160، والعراق في المرتبة 169، والسودان في المرتبة 173، وأخيراً الصومال في المرتبة 174. بالمقابل، جاءت كل من أفغانستان وكوريا الشمالية والصومال في ذيل التصنيف، وذلك لانعدام المساءلة للقيادات في تلك الدول وضعف المؤسسات العامة فيها، وهو ما يتطلب ضرورة اتخاذ موقف أكثر صرامة بكثير في مواجهة الفساد، وفقاً لما أكده التقرير.

أما الدول المتراجعة على مؤشر مدركات الفساد، فشمل دول منطقة اليورو الأكثر تضررا من الأزمة المالية والاقتصادية.

كما أوردت المنظمة في بيانها المرفق ونتائج التقرير، أن الحملة المتصاعدة ضد الحكومات الفاسدة، أدت إلى الإطاحة بالعديد من القادة من مناصبهم خلال العام الماضي، إلا أنه ومع هدوء الأوضاع أصبح واضحاً أن مستويات الرُشى، وسوء استخدام السلطة، والتعاملات السرية لا تزال مرتفعة للغاية في الكثير من الدول. فوفقًا لمؤشر منظمة الشفافية الدولية لمفاهيم الفساد للعام 2012، لايزال الفساد ينخر في بناء المجتمعات في مختلف أنحاء العالم.

وتأكيداً على ما قلناه عن ارتباط فشل الدولة بظواهر الفساد والرشوة، قالت رئيس مجلس إدارة منظمة الشفافية الدولية هوغيت لابيل «لابد للحكومات من تضمين إجراءات مكافحة الفساد في صنع القرارات العامة، وهناك أولويات في هذا المقام من بينها صياغة قواعد أفضل بخصوص الحشد والتمويل السياسي، والتزام المزيد من الشفافية في الإنفاق العام والعقود العامة، وتوسيع نطاق مساءلة الهيئات العامة أمام الشعوب، و بعد عام من التركيز على الفساد، نتوقع من الحكومات اتخاذ مواقف أكثر صرامةً في مواجهة سوء استغلال السلطة، فنتائج مؤشر مفاهيم الفساد لعام 2012 تثبت أن المجتمعات لاتزال تتكبد تكلفة باهظة بسبب الفساد».و قال المدير التنفيذي لمنظمة الشفافية الدولية كوبوس دي سفاردت «يعتبر الفساد هو أكثر مشكلة يتحدث عنها العالم.. وعلى اقتصادات العالم الرائدة أن تقدم أمثلة تحتذى بأن تَحمِل مؤسساتها على التزام الشفافية التامة ومساءلة قادتها».

ويقيّم مؤشر مدركات الفساد الدول بحسب درجة إدراك وجود الفساد في القطاع العام في الدولة، وهو مؤشر مركب ويشكل مزيجاً من استطلاعات الرأي ويعتمد على بيانات ذات صلة بالفساد تم جمعها عن طريق استقصاءات متخصصة قامت بها مؤسسات مختلفة وحسنة السمعة، ويُقصد بالفساد، بحسب تقرير الشفافية، سوء استغلال الوظيفة العامة من أجل مصالح خاصة، وينطبق على القطاعين العام والخاص على حد سواء.

كيف نعالج الرشوة؟

قالت هيلين كيلر الأديبة والمحاضرة الأميركية وأيقونة الإرادة الإنسانية، التي عاشت وناضلت وتميزت رغم كونها فاقدة للسمع والبصر: «ستغلق كل السجون ، يوم تجد عملاً لكل إنسان» .. و نحن بالفعل يمكننا ان نحارب الظواهر الفاسدة المفسدة في المجتمع بعدد لا نهائي من الطرق، كلها تقود إلى خير الناس وصالح البيئة الإنسانية والأجيال...من تلك الطرائق.

أولاً: التدريب والتأهيل وزرع الروح الوطنية، فكما ضحى السوريون بارواحهم لرفع الظلم، حريٌ

بالموظفين أن يكفوا ايديهم الرشوة وتعطيل مصالح الناس.
ثانياً: صياغة اللوائح التنفيذية للقوانين بطريقة لا تدع للموظف مجالاً لكي يتحكم بمصالح المواطنين ويقوم بتعطيلها، بحيث تكون واضحة وصريحة وفي مصلحة المواطن وليس لجعل هذا الموظف وكأنه يمثل الدولة بينما المواطن عدوٌ لها كما كان يحدث في الماضي، فالموظف خادمٌ لمصلحة المواطن.
ثالثاً: القيام بحملات إعلامية وثقافية في المجتمع والمساجد ودور العبادة والمدرسة والدوائر والوزارات الحكومية بشكل عملي وصريح وواقعي بعيداً عن الكذب والنفاق والباطنية.
رابعاً: العمل على تحقيق الحد الأدنى من الرواتب التي تستر الموظف وعائلته حتى لا يضطر إلى مد يده إلى الرشوة.
خامساً: دعم التعليم والصحة سيساعد الموظفين على احترام أنفسهم وأوضاعهم، والاعتزاز بشخصيتهم، فلا يضعون أنفسهم في موقف الطالب المبتز للمال.
سادساً: إن سرعة الانتقال بالاقتصاد إلى الأفضل ستساعد في التقليل من الرشوة لأن ذلك سيملأ فراغ الناس بالإنجازات وتخفيف البطالة وسرعة تحسين أوضاع البلد بشكل عام سيعود بالخير على الدولة والمجتمع في الوقت نفسه بما في ذلك الموظفين.
سابعاً: الشعور الإيجابي بالانتماء إلى دولة ناجحة عادلة، ذلك الشعور الذي سيتشكل لدى الناس سيجعلهم شركاء في هذا النجاح مما يدفعهم إلى تحسين صورتهم لتلائم الصورة العامة للدولة الناجحة.
ثامناً: الأتمتة الالكترونية لأعمال الدوائر والوزارات ستساعد على التقليل من تدخل الموظفين في المعاملات وإعاقتها وعرقلتها.
تاسعاً: تحديد السقف الأعلى للهدية للوزراء وكبار المسؤولين، كما في بعض الدول مثل بريطانيا حيث يجب التصريح عن الهدية والإشارة إلى ذلك في ميزانية الدولة.
عاشراً: حسن اختيار الموظفين فهناك صفات خلقية يكون الإنسان مجبولاً عليها وهنا يجب اختيار الموظف ذي الطبع الأكثر استقامة، والأقل قابلية للانحراف في الأماكن الحساسة، إضافة إلى الكفاءات العلمية والمهارات والخبرات العملية.
حادي عشر: بعد كل هذه الترتيبات سيكون من المبرر لدولة القانون أن تضع العقوبات الملائمة لهذا الفعل المشين الذي يخرب المجتمع وينخر الدولة.

ثقافة الأذى التي نشرتها دولة الفساد

عندما عجزت الدولة السورية أو تعمدت عدم نفع اي مواطن سوري، عز عليها أن تكون غائبة عن مواطنيها، فبدأت تتفقدهم وتطلب منهم مراجعة الكثير من فروع المخابرات والخوف (وليس الأمن) لكي تشعرهم بأنها موجودة وأنها دولة تستطيع أن تضرب بيد من حديد على كل من يخالفها وليست غافلة عن المجتمع.
وهذا ما فعله بشار الأسد، فعندما هربت شبيحته ومرتزقته أمام الثوار وانسحب جيشه من أغلب مناطق سوريا، بدأت طائراته ومدافعه تقصف كل مكان في سوريا لاثبات أنه موجود وهذا الأذى ليس جديداً على ثقافة النظام الاستبدادي الذي عاش خمسين سنة ينكل بالسوريين في مختلف نواحي حياتهم.
سقت هذه التصرفات، كمثال، ولكنها موجودة في حياة السوريين، فقد اشتغل المجتمع ببعضه وتحولت تصرفات الدولة ومؤسساتها إلى ثقافة شاعت بين الناس لاثبات الوجود واصبحت مدرسة الأذى والتخريب والكذب على الناس وتهديدهم وابتزازهم والتكبر عليهم والافتراء عليهم دون ضمير أو رادع أو على أي إمكانية للرد على هؤلاء المؤذين فانتشروا في المجتمع وعاثوا في الأرض فساداً وأخرسوا الحق وتحكموا في كثير من الأمور والقضايا الحساسة التي تحكم حاجات الناس، ولابد من أجل أن تشغل المجتمع وتتحكم فيه من أن تبث الإشاعات وتنشر الفتنة بين الناس، فتكاثر هؤلاء ، كل حسب حجمه، وانتشر القيل والقال بين الناس وفي الانترنت والصحف والمجلات والفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة، مع أن هذا كلّه ينافي ويخالف طبيعة الأديان وجوهر الأخلاق، فقد قال الرسول الكريم صلة الله عليه وسلم: (إن الله كره لكم ثلاثاً..قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)وقال الله تعالى: (ومن يكسب خطيئة أو غثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً).
ما هي أسباب انتشار هذه الثقافة المؤذية في سوريا؟
جُبل الإنسانُ على الغيرة والمنافسة ولديه عقلٌ غذاؤه العلم بقدر ما يكتسب الإنسان من الفهم والعلم والتجربة بقدر ما تغلب طباعه النبيلة النافعة على طباعه التنافسية الحادة..
عدم تحقيق إنجازات يطمح إليها الفرد: فعندما يفشل في تحقيق كموحاته، فإنه لا يريد للناس أن تحققها، ويتفانى في الوقوف في دربهم لمنعهم من تحقيقها، فكيف إذا كان إنساناً اصابه الفشل ولم ينجز شيئاً في حياته، لا بدّ وأنه سيكره الخير للناس مهما عملوا ويؤذيهم بقوله وفعله إذا استطاع.
التكبّر: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) فالمتكبر يرى نفسه فوق الغير ويظن أنه أفضل من الآخرين، (إن في صدروهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه) أي عظمة لم يبلغوها لذلك يحتقرون الناس ويؤذونهم، أما المتواضع فينصف الناس ويرضى لهم الخير.
التعامي والتغافل عن العلم والعقل فالأذى سيعود بالأذى على الحميع في نهاية الأمر.

بلادٌ جديدة..ثقافة جديدة...كل ما ينفع الناس

(فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)
إن المجتمع السليم تسوده ثقافة التأهيل، فكل فرد يسعى إلى تأهيل ذاته بأجمل الثقافات النافعة

والمفيدة، والتي ترفع من شأن الفرد في الدنيا والآخرة، وتدخل عليه الساعدة وعلى الآخرين الذين يتعاملون معه، فتعود السعادة على المجتمع بأسره.
والتأهيل قادرٌ على تحويل الفرد وخطاب الفرد إلى خطاب جميل بعيدٍ عن الأذى والكذب والخداع فيكون كلاماً طيباً ينفع في الدنيا والآخرة.
إن التأهيل والتعليم الحقيقي البعيد عن الرياء والباطنية سيبعد الفرد عن الفضول والتدخل في ما لا يعنيه، وإن كثيراً من الأفراد في مجتمعنا يعرفون كل شيء، ويهتمون بكل شيء، ولكنهم لا يتقنون شيئاً ينتفعون به ، ومن الدعاء المأثور: «اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع» بكنت ترى أن حملة الشهادات العالية لا يتقنون أعمالهم بالمقاييس العالمية، لأنهم لم يتلقوا ثقافة التأهيل بل ثقافة مصلحية عابرة.
وبالتعليم المحدد والثقافة النافعة والتعلم من أجل العمل، سيكون التركيز في الموضوع وفي المهمة أعلى وأدق واقل هما وغماً على صاحبه، فكما في التجارة، هناك أناس يركزون في الصفقة بحيث تكون واضحة ودقيقة ورابحة يسمونهم Money Makers أي الذين يبرعون في صناعة المال وإدخال الأرباح إلى شركائهم بأفكارهم الخلاقة، أيضاً سيكون لدينا في مجالات العلوم والتأخيل أناسٌ يفكرون في العلم والبحث والعلمي والعملي بشكل دقيق وواضح لإنتاج الأفكار القابلة للتطبيق والعمل الواضح المتقن والنافع للمجتمع.
إن اهتمام الفرد بأموره الخاصة، وأسرته، وحبه لها، سيجعله سعيداً ومحباً لغيره، بعيداً عن إيذاء الناس، والتحاسد والتباغض معهم، ويستطيع أن يسلك سلوكاً منافساً شريفاً في التحصيل، منافسة حب، وليس منافسة كيد وحسد وحقد ألم يسمع الناس «قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله»؟!

الأنانية

هي صفة من صفات البشرية، فالناس يريدون كل شيء لأنفسهم، وطبيعة بشرية فطرية موجودة في الخلق، ولكن العقل الإنساني لابد وأن يقارن ويختار ويسلك الخط الأفضل والأنفع بين هذه الصفات البشرية، لذلك نجد أن الذين يحققون الفوز في العالم، ويصبحون من أعلام الإنسانية، إنما يسيطرون على أنفسهم فتحقق لهم ما يغنيهم عن منافسة بقية الناس.
وقد قال عنها الكاتب المصري القدير علي أمين ذات يوم: «الذين يحبونني علموني الحياة،والذين يكرهونني علموني الحذر،والذين لا يبالون علموني الانانية »
ولكن الناس جميعاً اصحاب طموح، ويسعون إلى أن يكونوا أفضل من غيرهم، وعندما يعجز البعض عن أن يكون في المقدمة سيسارع إلى إعاقة غيره في مضمار السباق،
ويبقى السلام الداخلي، والقناعة بالإنجاز الفردي، أهم من كل تلك الصفات السلبية في تكوين الإنسان التي شاعت وانتشرت في بيئة الفساد والظلم ■

* هذا المقال من كتاب قيد النشر

أحوال وأهوال في حي بابا عمر

أيام في بابا عمر
رواية:عبد الله مكسور
منشورات: فضاءات-عمان 2012

يتحرّك الكاتب السوريّ عبدالله مكسور في روايته هذه تحت ثقل الذاكرة، محفوفاً بالمخاطر والمصادفات، في رحلة البحث عن الذات وسط الخراب، في مهمّة تصوير فيلم وثائقيّ، يصوّر الراوي أحوال وطن، والأهوال التي يعانيها. يروي قصصاً أليمة موجعة، كما يصف بعضاً من رعونة التعامل مع الناس في هذه المرحلة المفصليّة.
يقرّ مكسور في استهلاله أنّ البحث عن الأوطان ضمن أحرف الأبجدية مهمّة قاتلة، كاستنهاض ذاكرة معطوبة مثقلة بالموت والجوع والفقر والذلّ، لينتقل إلى حديثه عن حبّ مفتقد يحفر عميقاً في الروح، حبّ يجبره على التذكّر.. كما نجده يصرّح بصعوبة الإبحار في الخيال في ظروف بعينها، وبخاصّة حين يتعلّق الأمر بالسجن والمنفى ومسرح الجريمة، يكتب بأنّ تخيّل يختلف عن محاولة كتابته، «قد ننجح وقد نفشل في تصويره أو نقله بحذافيره كاملة دون إعمال الخيال الأدبي في الكتابة عن الواقعة» ص46.

جروح نازفة

يستحضر مدينته حماة المنكوبة الجريحة في التاريخ السوريّ الحديث، وهي التي كان لها نصيب وافر في التمثيل والتنكيل بأهلها، واستمرّت في مقاومتها ومقارعتها للاستبداد. وبينما هو جالس في غربته، يشرب قهوته الصباحيّة، تجتاح ذاكرته صور الرعب الواردة من بلاده التي تحتلّ صدارة نشرات الأخبار في العالم بأخبار الدمار والحرب فيها. يحار في البدايات، كأنّه يعاني استعصاء في الشوق، أو نوعاً من التهرّب من ماضٍ مستمرّ، يهرب من عالم التكنولوجيا ومجتمعه الافتراضيّ، ليدخل العالم الآخر، عالمه الداخليّ الذي يسوح من خلاله الآفاق، ينتقل من حزن لآخر، من شتات إلى شتات، ومن ذكرى إلى أخرى أكثر تأثيراً ومرارة وشوقاً.
يستذكر قصص بعض الأهل والأصدقاء المؤثّرة. يذكر اختلاف الوقائع والمشاعر بين الوطن والمُغترَب، وكيف أنّه في الغربة تمرّ الأفكار دون أوامر العسكر ورقابتهم ودون نظرات الوشاة وأزلام القبيلة، في حين أنّ الصورة في الوطن كانت معكوسة، ويميّز

كذلك بين نوبات الحنين العرضيّة وذاك الشوق المضني الذي يستعر دوماً ولا يقبل أيّ تهدئة. وهنالك شخصية زياد الغريب أنّى حلّ وارتحل، الذي يحمل غربته معه ويمضي بها. ينزّل من الحافلة التي تقلّه، يوضَع في السجن، يعذَّب، وهناك يكتشف واقعاً مفجعاً، يتعرّف إلى أناس ألقي بهم في عتمة السجن، وآخرين تشوّهوا جرّاء التعذيب، وبعد مدّة يخرج ليجد نفسه أمام خيارين، الذهاب إلى حماة المنكوبة، أو التعريج على بابا عمرو التي تصدّرت عناوين الأخبار بمعاركها الطاحنة وحالتها الغريبة.

واجبُ العودة

يلحّ عليه واجب العودة، يعود في الوقت الذي يخرج الآخرون أو ينوون الخروج، رحلة معاكسة إلى الوطن، ليكون قريباً ممّا يجري، وليكتب شهادة حيّة من قلب الحدث المستعر. يعود إلى بلد ينتظر فرصته في الحياة، ويجاهد للخروج من ركام الموت والأنقاض. يُلقَى به في السجن، لينتقل من سجن الاغتراب إلى سجن موحش في بلده، وتؤلمه التفاصيل، يذكر أنّه «في الحب والحرب والسجن لا يمكن أن ننسى التفاصيل، التفاصيل مهمة كما العموميات، فلا ننسى أوّل قبلة وأول لمسة وأول صفعة وأوّل جرح».. ويصف كيف عومِل بوحشيّة، وكيف طولِب بالتعاون معهم وأن يكتب تعهّداً بأنّه سيخدم «الوطن». ويتساءل سؤالاً استنكاريّاً: «من يجب أن يقدّم التعهّد للآخر مصحوباً باعتذار؟ يسرقون أعمارنا من أيّامنا ويأمروننا بالاعتذار لهم..!».

وفي بابا عمر يكون الشاهد الشهيد، يرى المآسي التي يعجز عن كتابتها، يصوّر بإيلام بعضاً من مشاهد الرعب والتدمير والاغتصاب والتنكيل، تكون تلك الأيّام كفيلة بتقديم شهادة كاملة عن حجم الإجرام العابث المتنقّل في طول البلاد وعرضها.. مواقف في غاية الاسى والقهر، موت وولادة في اللحظة نفسها، أشلاء ممزّقة، شهداء، شظايا قاتلة، وتفجيرات مَهولة.. يجد نفسه قابعاً تحت برميل يتلصّص من ثقبٍ فيه على العالم الذي يحيط به، يستمتع لشكوى بضع فتيات، ويشهد على ما مورِس بحقّهنّ من إجرام منقطع النظير.. يكون الموت مخيّماً على المكان، مروّعاً الأرض والبشر. فيها بحث عن كثير من الأشياء.

هي رواية كولاج كما يجنّسها، أو «يقيّدها»، وهي أشبه ما تكون بالمذكّرات، يطلق فيها الكاتب العنان لذاكرته ومشاعره وأحلامه المجهضة ليبوح بما يعترك في روحه، يسرد بضمير الأنا الذي يعود عليه، كما يؤكّد في أكثر من موضع، وحيث التداعي الحرّ، والسرد المنطلق من عقال السبك والحبك، يروي مهجوساً بالحنين والشوق، لاهجاً بالوطن في كلّ صغيرة وكبيرة. وحين يربط الذكريات والوقائع، يحرص على الإبقاء على جانب السيرة من جهة، والانفتاح على غابة المآسي المستحضرة والمتخيّلة المرعبة من جهة أخرى.

يوصي الكاتب بنوع من «الخدعة» الأدبيّة بعدم جواز بيعها لأصحاب القلوب الضعيفة، وأظنّه بذلك يروم نوعاً من التحريض على القراءة، لاستكشاف دوافع النصيحة تلك، وما يمكن أن يشتمل عليه الكتاب من مشاهد فظيعة مفجعة، وربّما يذكّر في هذا بما أثبتته أحلام مستغانمي على غلاف كتابها «نسيان. كوم» بتحظير بيعه للرجال، وهذا مع اختلاف في الموضعين من حيث التصوير والتخييل..

لا يخلو السرد من لوم وتقريع يصلان حدّ جلد الذات. يمضي سريعاً متخطّياً مشقّات الطريق وغباء المفتّشين، ليصل إلى حيث المرام، كما لا يخلو من اندفاع وحماس، وبرغم أنّ «المعمعة» ما تزال مستعرة، فإنّ التصوّر والتصوير يبقيان رهناً باللحظة، في حين أنّ الرواية تنتظر تبلور الأحداث لتستطيع توثيقها وتدوين خيوطها المتشعّبة ■

هيثم حسين



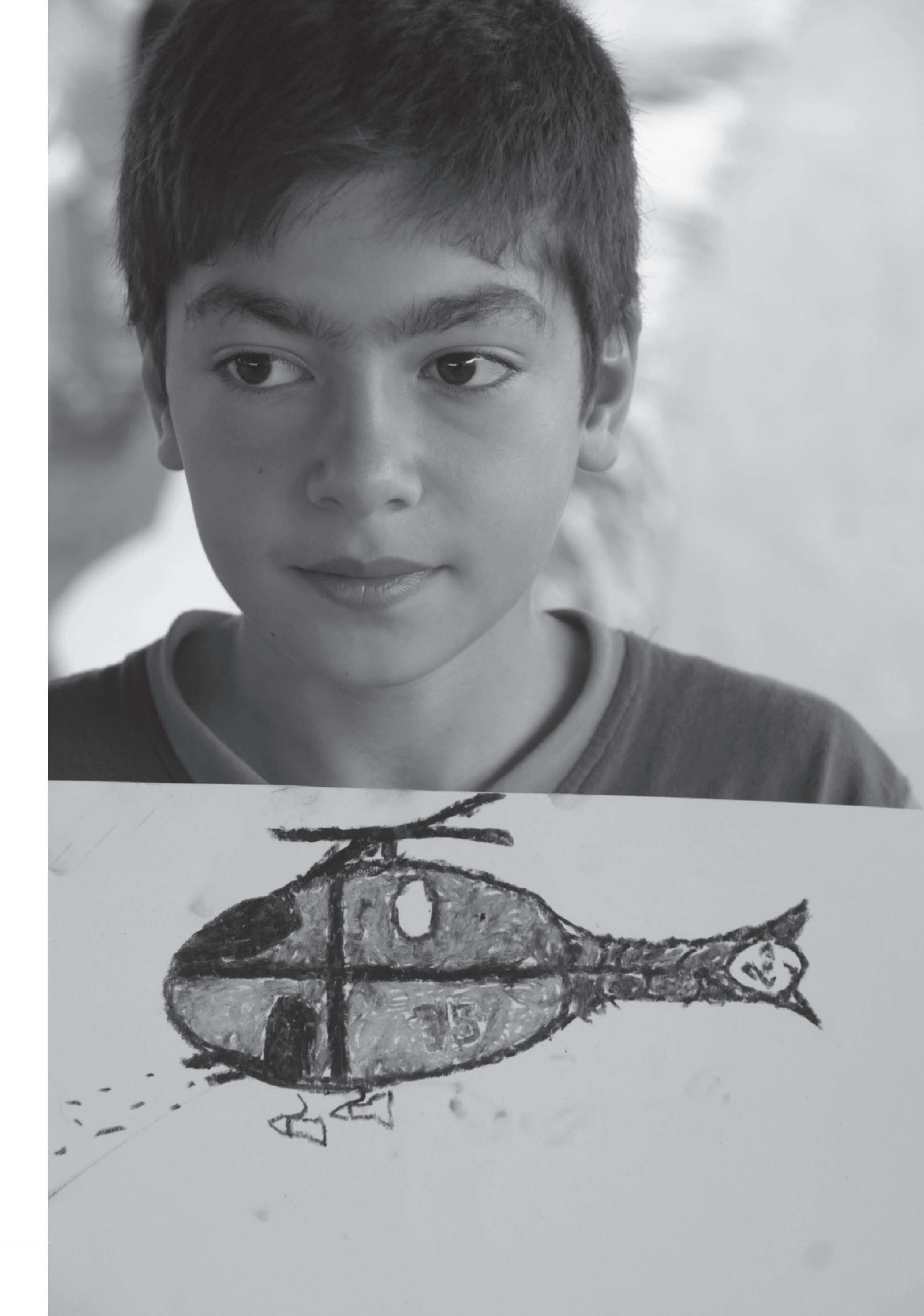
جذور الاستبداد في سوريا
قراءة في التاريخ الاجتماعي والسياسي السوري

-التسلطية في سوريا: صراع المجتمع والدولة
- ستيفن هايدمان - ت: حازم نهار
- دار الريس - بيروت 2011

يعيد الباحث الأمريكي ستيفن هايدمان في دراسته المهمة قراءة المشهد السياسي في سوريا وتفكيك بنيته التلسطية من خلال البحث والاستقصاء عن جذور هذه البنية وكيفية تشكلها وتناميها حتى بلغت المستوى الذي هيمنت فيه على المجتمع والدولة، وأخضعته لسطتها المستبدة. يركز الباحث رغم القراءة التاريخية لكيفية تشكل تلك البنية على المستوى الاجتماعي والسياسي، على المرحلة الراهنة لحكم الأسد الابن، انطلاقا من رؤيته بأن مرحلة الاسد الأب كانت تتويجا عمليا لسلطة الاستبداد، التي ارتبطت بطابع الشخصانية والتفرد بالسلطة، ما جعل المرحلة التالية للتوريث الذي جاء بالابن لحكم سوريا، تطرح اسئلة هامة وأساسية حول الاستقرار والصراع الاجتماعي في سوريا، وقدرة نظام بشار الاسد على الاستمرار في السلطة، على الرغم من عملية الانتقال السلس التي تمت للسلطة بعد موت الأب. منذ البداية يكشف الباحث عن مسألتين هامتين برزتا بعد عملية الانتقال تمثلت المسألة الأولى في تلكؤ بعض الأقسام داخل النخبة الحاكمة في إبداء الولاء والدعم، والثانية في بروز الشكوك حول قدرة الابن على إدارة السلطة والاستمرار فيها والسؤال عن صاحب القرار الفعلي في تلك السلطة الجديدة؟

الميراث والتحول

قبل الإجابة عن السؤال يخلص من مراجعته للتحليلات التي قدّمها المهتمون بالشأن السوري لمرحلة ما بعد حافظ الأسد إلى أن تلك الدراسات ركزت على ما سمته بسياسة (الأعيان) المتفككة، في حين أنها أهملت المدى الذي بلغته سلطة بشار بميراثه الذي تجاوز وجود شبكة من الصفوة المتسمة بالشخصنة والمحسوبيات الطائفية، متناسية حجم الدعم الذي تعتمد عليه السياسة السورية ، وسلطة بشار الأسد شخصيا التي استفادت كثيرا من عملية بناء المؤسسات وتوسع الدولة الذي امتد لزمن طويل. ضمن هذا الإطار يرى أن مشروع التحديث الذي قاده بشار في مؤسسات الدولة بهدف المواءمة مع المتغيرات الإقليمية والدولية نجح عبر التجربة والخطأ وخطوات متواضعة جدا وشديدة البطء لاكتشاف الآثار



الناجمة عنها. وفي هذا المسار عمل النظام على تلطيف موقفه من الإسلاميين دون المساومة على التزامه بالطائفية، واستشراف آفاق استراتيجيات جديدة لإدارة الصراع الطويل بين الدولة والحركات الإسلامية. كما استجاب النظام بانتقائية لمطالب اللبرلة الاقتصادية والاندماج الاقتصادي بالأسواق العالمية، فعمل على خلق الفرص أمام النخب الاقتصادية والاجتماعية التي تراكمت ثرواتها بشكل كبير. ومن الإجراءات التي قام بها النظام عمله على تطوير الإدارة وتسهيل الوصول الشعبي للانترنت، في حين كانت هناك انزياحات على صعيد السياسة الخارجية تمثلت في البحث عن روابط تجارية واستثمارية وسياسية مع دول تتعاطف معه، أو تشترك معه في النهج نفسه كبعض دول الخليج والصين، إضافة إلى إقامة علاقات تجارية مع الغرب تميزت باتباعها توجهات سياسية واقتصادية متنوعة. ويوضح الباحث استفادة النظام في تكريس سلطته من ردود فعل الوطنيين السوريين على الضغوط الأمريكي التي واجهها النظام في عهد سلطة بوش بعد احتلال العراق، ومن التلازم مع نجاحات حزب الله في لبنان ، وعلى الرغم من كل هذا يؤكد أن النظام ظل في عيون كثير من السوريين يفتقد إلى الشرعية.

النظام التسلطي الشعبي

تميز نظام الأسد بأنه نظام تسلطي شعبوي، ولم تكن قدرته على الاستمرارية في السلطة نابعة من مرونة النظام وقدرته على التكيف، وإنما بسبب عوامل أخرى أهمها سياسة الإكراه التي كان يمارسها على شعبه، وفي المقدمة منها سياسة القمع، والطائفية التي توفر له درجة عالية من الاستقرار والتماسك الداخلي. ويخلص البحث من تلك القراءة قراءته إلى أن التجربة السورية تنفي وجود مسار وحيد لتشكيل دولة شعبوية متسلطة، أو حدوث أزمة عالمية للتسلطية، ذلك أن خبرات الوصول إلى سدة الحكم التسلطي في العمليات اللاحقة لتشكيل الدولة أثرت في العمليات التالية لتشكيل دولة التسلط الشعبوي. من هنا فإنه يعود للبحث في الكيفية التي توطدت بها تلك السلطية والتي يجد أنها قد نشأت كرد فعل على الأزمات التي رافقت توسع الرأسمالية في اقتصاد سياسي تسيطر عليه طبقة حديثة العهد نسبيا، وقوية من ملاك الأراضي، فكانت الصراعات الاجتماعية هي التعبير عن تلك العلاقات التي رافقتها تبدلات أخرى جرى التنازع عليها بقوة حول نمط تدخل الدولة، الأمر الذي جاء التحول في النظام الاقتصادي يأتي مترافقا مع التحول في النظام السياسي. إن مسار تشكل الدولة التسلطية قد ارتبط بالعلاقة التي نشأت بين الدولة والرأسمال الخاص إذ كان لتلك العلاقة نتائج حاسمة في تحديد الاستراتيجيات السياسية للمجموعات المشتركة فيها وفي تشكيل شعبوية حزب البعث. وقد ساهمت وجهات النظر تلك في خلق مناخ سياسي سادت فيه خطابات وأيديولوجيات الإصلاح الاجتماعي والزراعي وتوبع الدولة والتنمية الاقتصادية.
وفي الإجابة عن السؤال المتعلق بالكيفية التي أسهمت فيها الآليات الداخلية للصراع الاجتماعي في مرحلة ما قبل البعث في ارتقاء التسلطية الشعبوية وتوطيدها يؤكد الباحث أن قواعد إرساء النظام تشكلت وفق شروط بنيوية ومؤسساتية وثيقة الصلة بسياسات محددة أهمها قدرة النخب التسلطية على تحطيم استقلال المجموعات ذات النفوذ والمصالح، ومركزة صنع القرار الاقتصادي داخل الدولة وتولي عملية التعبئة النقابية في القطاعات الشعبية.

دور الصراع الاجتماعي

يحاول الباحث من خلال التفاعلات التي حدثت بين ثلاث متغيرات مستقلة هي البيئة المؤسساتية والشروط البنيوية والخيارات الشخصية الاستراتيجية للشخصيات السياسية البارزة أن يوضح الدور الذي لعبته تلك المتغيرات في تحويل أنماط الصراع الاجتماعي وخلق شروط تسهِّل عملية توطيد حكم تسلطي شعبوي بعد هيمنة البعث على السلطة عام 1963 دون أن يغفل الدور الذي لعبته سنوات الوحدة السورية- المصرية في بناء القواعد التأسيسية لهذا النظام، وذلك من خلال التغييرات التشريعية والاجتماعية التي أسهمت في فشل قيام حلف اجتماعي جديد بين الرأسماليين السوريين، لذلك لعبت القبضة الحديدية والصراع الاجتماعي دورا استراتيجيا في تقوية سلطة البعث والحفاظ عليها. وفي حين ركز الباحث على دور مؤسسات السلطة الحزبية والشعبية في تكريس الاستبداد والتسلط نسي العامل الحاسم الذي قام به النظام على مستوى تعميم سلطة المؤسسة الأمنية، من خلال نشر مراكز الأمن، لتغطي جميع مناطق وبلدات سوريا، وإخضاع الدولة لمراقبة وهيمنة الأجهزة الأمنية عليها، باعتبارها العين والأذن والذراع الطولى التي تحمي النظام، وتبسط سلطة استبداده على البلاد والعباد، يضاف إلى ذلك وحدات النخبة العسكرية، التي يقودها عسكريون مخلصون للنظام من الطائفة، والذين يشكلون ركائز حماية للنظام، مثل سرايا الدفاع والحرس الجمهوري، والوحدات الخاصة والفرقة الثالثة، التي لعبت وما زالت - وإن اختلفت التسميات- الدور الأساس في إخضاع مدينة حلب أثناء أحداث الثمانينيات، وحماية سلطة الاستبداد بوصفها جزءا أساسيا من بنية الفساد والقمع والتسلط فيه، ما جعل البنية الأمنية والعسكرية تشكل العمود الفقري لجسم السلطة، في حين كانت وظائف الحزب والمنظمات الشعبية والهيئات الصناعية والتجارية هي تأطير المجتمع، واحتوائه، لكي تستطيع السلطة وأجهزتها الأمنية مراقبة كل شيء، والتحكم في حركته وضبط مساراته بما يتوافق ومصالح السلطة وأهدافها في تأبيد وجودها، بوصفه ■

بيان ضد العنصرية

(الضمير الثقافي اللبناني ينتفض ضد "العنصرية اللبنانية" نحو اللاجئين السوريين والفلسطينيين)

قد تصاعدت في الآونة الأخيرة وتيرة التصريحات السياسية المنطوية على خطاب عنصري صريح وخطير، على خلفية ازدياد حركة نزوح اللاجئين السوريين والفلسطينيين الهاربين من نيران القتال في سوريا. وقد ذهب البعض إلى حدّ المطالبة بإعادة النازحين من حيث أتوا، أي إرسالهم إلى موتهم المؤكّد. وبالطبع لم يردع هؤلاء أنّهم بهذا المواقف يشاركون في جريمة ضدّ الإنسانيّة.

اننا ندين كل المواقف العنصرية التي تستهدف السوريين والفلسطينيين وأي جماعة دينية او عرقية او طائفية أخرى بما هي كذلك، والصادرة عن مسؤولين رسميين لبنانيين او عن سياسيين يحتلون مواقع رئيسة في الحياة العامة في بلدنا. وندين أي تبعات او عواقب مادية قد تنجم عن الخطاب العنصري المسموم ونحمل أصحابه المسؤولية الجزائية المباشرة عن اي ضحيّة قد يسقط جراء تحريضهم.

ويؤكد الموقعون انهم غير معنيين بالأهداف السياسية والانتخابية الآنية التي تجعل أي شخص يلجأ الى الدعاية العنصرية التي يتولاها تيار سياسي بعينه من غير أن تقتصر عليه. وهم لا يعلنون تأييدا أو معارضة للتيار المذكور باستثناء التحذير من الافراط في انزلاقه في لعبة التجييش العنصري. ويذكّرون بأن مقدمة الدستور اللبناني (الفقرة "ب") تؤكد على الالتزام بالاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي يضمن استقبال اللاجئين من مناطق القتال.

كذلك يلفتون انتباه الرأي العام اللبناني الى ان نهاية المسار العنصريّ هذا قد تحمل عواقب وخيمة على صعد عدة. فتصدّر السياسيين، خصوصاً المسيحيين منهم، للدعوات العنصرية إلى وقف دخول النازحين السوريين والفلسطينيين واتخاذ قسم منهم، في ذاك التيار وفي عدد من الأحزاب الأخرى، مواقف متشنجة من مسألة في هذه الأهمية، سينعكس سلبا على المسيحيين في المنطقة وفي لبنان ويستعيد اجواء الحرب الأهلية المريرة. كما سيؤدي الخطاب القصير النظر هذا الى الحاق الأذى بمصالح مئات الآلاف من اللبنانيين المقيمين والعاملين في الخارج.

والحال أنّ هذا الكلام العفن والمريض لا تنجم عنه إلاّ الإساءة والتسخيف لطرح هواجس الأقليّات ومخاوفها، ولضرورة توسيع رقعة التسامح في حياتنا العامّة، وهي مسائل مشروعة وأساسيّة



لمستقبلنا ومستقبل بنائنا الوطنيّ. وهنا لا تفوتنا الإشارة إلى دور الوعي الطائفيّ في التمهيد للوعي العنصريّ عندنا، كما لا يفوتنا التحذير من شعبيّة هذا الوعي العنصريّ التي تجعل صغار السياسيّين يشهرونه ويتغنّون به بقصد تحقيق المكاسب والمغانم الرخيصة.

ويرفض الموقّعون رفضاً باتّاً أي استغلال لقضية اللاجئين السوريين في المزايدات السياسية الداخلية ويحمّلون الدولة اللبنانية مسؤولية توفير الظروف اللازمة لحياة اللاجئين حياة كريمة في لبنان في انتظار عودتهم الى بلادهم. كما يدينون الصمت والتواطؤ اللذين تعتمدهما الطبقة السياسية، بانقساماتها واطرافها كافة، حيال تصاعد الخطر العنصري المقيت.

ويدعو الموقّعون المحامين وهيئات المجتمع المدني الى البدء بإعداد ملف لطرحه امام القضاء المختص لملاحقة دعاة الحقن العنصري بتهم اثارة النعرات الطائفية وتهديد السلم الاهلي والاعتداء على امن الدولة.

فهذه اللغة المسمومة، فضلاً عن كونها لا تعبّر عنّا ولا تنطق باسمنا، تكشف عن وحش صغير يقيم في ربوعنا، مهدّداً إيّانا في إنسانيّتنا وجدارتنا الإنسانيّة. وهذا ما ينبغي ألاّ نتسامح معه بتاتاً.

الموقعون على البيان

ابراهيم خوري - ابراهيم شرارة - آدي سلامة - أحمد الباشا - أحمد جابر - أحمدك. حلبي - احمد حيدر - أحمد الديراني - احمد الرشواني - احمد زيتون - أحمد صاروط - أحمد عقل - احمد قعبور- أحمد مجذوب - أحمد محسن - إدمون رباط - أسامة الحمصي - أسامة وهبي - أسامة شقير - أسامة وهبه - أسامة هنيدي - أسعد بشارة - اسماعيل شرف الدين- إسماعيل رومية - افتيم عبيد- أكرم حيدر - أكرم زعتري - اكرم العراوي - اكرم عليق- أل لفساني - الياس خوري - إليانا بدر - أليكس الحلال - امال شريف - أمال حايك - آمنة منصور- أمير خليفة - امير عمر- أميمة نعمة - اندرو رينيه حبيب- انديرا مطر - أنس يوسف - أنطوان قربان - أنطوانيت جعجع - انور اسماعيل - آني غنام - أياد داغر - إيفا صافي - ايلي الحاج - ايما بقاعي - إيمان حميدان - أيمن حيدر - أيمن شروف - بادية فحص - باسل حافظ - باسل ف. صالح - باسل فقيه - باسم حسن - برهان دندن - بسام المقداد - بسمة الخطيب - بشار الحلبي - بشار حيدر- بشارة خيرالله - بشير العياش- بشير هلال - بطرس معوض - بلال الأرفه لي - بول شاوول - بومدين الساحلي - بيسان الشيخ - تمارا اسماعيل - توفيق علوش - توفيق فروخ - ثائر غندور - ثريّا بكّور - جاد الأخوي - جاد غريّب - جاد يتيم - جان رطل - جبران سعد - جبور الدويهي - جمال صبح - جمال قاسم بدران - جمال محفارة - جمال يانس - جمانة حداد- جميلة تات- جميلة حسين - جنان خليل - جهاد بزي - جهاد شماس - جهاد عقيل - جهينة خالدية - جوانا نصار - جورج أبو زيد - جورج اسطفان - جورج شواح - جورج نصار - جوزيف باحوط - جولي مراد - جيزيل خوري - جيلبير ضومط - حارث سليمان - حازم صاغية - حازم الأمين - حبيب ترياقي - حبيب فوعاني - حبيبه درويش - حسام عسكر - حسام عيتاني - حسان الزين - حسن الساحلي - حسن بليبل - حسن حركة - حسن كريّم - حسن مراد - حسن النادري - حسن هزيمة - حسين ابو ابراهيم - حسين درويش - حسين صالح - حسين قاسم - حسين الموزاني - حكمت السيد - حنين غدار- حيدر لقيس - خالد براج - خالد الحجيري - خالد خليفة - خالد سميسم - خالد عبدو - خليل حنون - دارين الحلوي - داؤود بهجت سعيد - ديالا حيدر - ديالا عبيد - ديانا مقلد - ديمة صادق - رائد عباس - رائد ياسين - راشد بشناتي - رامي الأمين- رانيا شعبان - رانيا صغير- ربيع الاتات - ربيع الشامي - ربيع زعرور - ربيع فاتحي - ربيع فران - ربيع كنعان - رداح القيسي أبيض - رشا الاطرش -رشا الأمير - رشا رفاعي- رنا زين - رنا خوري - رنا غندور - رنا صيداني - رانيا الزعبي جارودي- رجاء عفيف هاشم - رفعت المصري - رنا نجار - رندة قصار - رهام يموت - روجيه بجاني - روجيه عساف - روجيه عوطه - رولا حديب - رولا الايوبي - رولا الحسين - رولا رياشي - رولا صالح - رولا عبد الله - رولا نجم - رويدا مروة - رياض نجم - ريان ماجد - ريتا باسيل - ريم الجندي - ريما مسمار - ريمون حداد - ريميال نعمة مروّة - زاهر مروة - زهير الفقير - زهير منصور - زياد العيتاني - زياد سامي عيتاني- زياد بركات - زياد عبد الصمد - زياد ماجد - زياد مجذوب - زياد منصور - زياد هاشم - زينب حمادة - زينة علوش - زينة بيضون - ساره حتّوف - سارة سبيتي - سارة عباس حسون - سارة عساف - سامر جرجس - سامر العياش - سامر صالح - سامر فرنجية - سحر البساط - سراب العارف- سحر آغا - سعاد أبي سمرا - سعد فاعور - سعدى عبد الحميد - سعود المولى - سعيد أبو الفتح - سمعان خوّام - سمير فرنجية - سليم اللوزي- - سليم كامل المقدم- سليمان فقيه - سناء البنا- سناء الجاك - سهى عبدو - سهى غزاوي - سهيل شهاب - سوسن القيسي - سوسن نور الله - سوسن مهنا - سيمون نصار - شادي هنوش - شارل جبور - شاكر الأنباري - شاكر لعيبي - شذا شرف الدين - شفيق نعمه - شوقي داغر - صالح ابو يمان - صباح خراط زوين - صمود العمر - طارق اسماعيل - طلال خوري - طلال كحيل - طه مصطفى - طوني بطي - طوني حبيب - طوني شكر - عارف منصور - عاصم بدر الدين - عامر الرصاص - عباس ابو زيد - عباس بيضون - عباس الحسيني - عبد الحليم رمضان - عبد الحليم سرحان - عبد الستار اللاز - عبد اللطيف حسونه - عبد الله حداد - عبد حسونه - عبد الرحمن اياس - عبد المطلب بكري - عبد المنعم الشنتوف - عبد الوهاب مكاوي - عدنان أحمد - عدنان بعيون - عدنان ضاهر- عزام طيبا - عزة بيضون - عزيزة السبيني - عفيف العتر - عقل العويط - علا عطايا- علاء زيات - عماد الأطرش - عمر حرقوص - عمر عبدالصمد - عمر ولي الدين - علي احمد رباح - علي الامين - علي ج. حيدر - علي حسن جابر - علي الحسين - علي حسين - علي الحسيني - علي حمادة - علي خليل - علي الديراني - علي زراقط - علي سبيتي - علي غندور- علي الصميلي - علي القاروط - علي مراد - عماد بزي - عيسى الحجيري - غادة عريبي -

غاندي المهتار - غسان الحبال - غسان حلبي - غسان صالح - غسّان علم الدين - غيا العياش - فادي الأمين - فادي البغدادي - فادي توفيق - فادي درويش - فادي الجمل - فادي سعد - فادي طفيلي - فادي عاكوم - فادي ملحم - فداء عيتاني - فاروق عيتاني - فاروق يعقوب - فاطمة بري - فاطمة حوحو- فراس فاضل - فرحات فرحات - فرح شقير - فؤاد سلامة - فواز الخجا - فوزي ذبيان - فياض مكي - فيديل سبيتي- فيصل المير - فيكين شيتيريان - كابي لحود - كارولين عاكوم- كامل صالح - كريم حسنية - كريم فؤاد صالح - كمال قصّار - كنج حماده - لما الايوبي - لميا جريج - لونا صفوان - ليال ماجد - ليال ابو رحال - لينه كريدية - لينا خليل خليل - لينا شحادة - ليندا غاوي - مازن حمدان - مازن معروف - مارون عماد - مالك مروّة - ماهر دياب - مايسة عواد - مايلا بخاش - مجد نعسان - مجدي سموري- محاسن مرسل - محمد أبي سمرا - محمد أحمد العرب - محمد بزي - محمد الخطيب - محمد الأمين - محمد أحمد شومان - محمد أسعد النادري - محمد بدر- محمد الحجيري- محمد حوسه - محمد الدهيبي - محمد حمزه - محمد سويد - محمد شريتح - محمد اللادقي - محمد علي خفاجة - محمد علي قاسم - محمد نور الدين - محمود حلاق - مختار السيد - مراد مراد - مروان الامين - مروان ابي سمرا - مروان حمدان - مروان خورشيد - مروان العلي - مروان زغبي - مسعود محمد - مصطفى جلال البساط - مصطفى حبيب - مطيعة الحلاق - معروف الأسعد - معن الحاصباني - مفيد مصطفى - مكاوي سعيد - مكرم رباح - منال ابو عبس - منذر حمزة - منى جابر - منى الرفاعي - منى طيبي - منير توفيق الحلبي - منير الربيع - منير يونس - مها حطيط - مهى برو - مهى البيضاوي - مهى رضى - مهى عون - مهى يحيى - مهند الحاج علي - مهند فخر الدين - موس زينب - مي إليان - مي فرحات - ميرا المقداد - ميساء ضاهر - ميسم الهندي - ميثم قصير - ميشال حجي جورجيو - ميشال الدويهي - ميشال الهدّ - ميشال وهبة - نادر دياب- نادر فوز - ناديا الشيخ - ناجي أبو خليل - ناصر قلاوون - نبيل مروة - نبيلة غصن - نجاح سفر - نجوى بركات - نجيب عوض - ندى مهنا- ندى المصري- نديم جرجورة- نديم شرتوني - نديم قطيش- ندين فرغل - نزار جعفر مرتضى- نزار حريز - نزيه درويش - نسرين دبيان - نسرين رجب - نضال ابو شاهين - نضال كورية - نعمة نعمة - نهاد المشنوق - نهاد حدبا - نواف بهاء المقدم - نوال مدللي - نيقولا سلّوم يوسفان - هادي الأسعد - هاني جبر - هاني عياد - هاني النسبي -هاني يموت - هبة فرحات - هبة قدورة - هدى ابو شقرا - هدى الشمعة - هدى غالب - هدى نصار - هلال شومان - هشام أبو خزام - هشام الأيوبي - هنا جابر - هناء حمزة- هند درويش - هيام يارد - هيثم حسين - هيثم شمص - هيثم الصلح - وداد جربوع - وسام سعادة - وسام عبد الخالق - وضاح غنوي - وليد حسين - وليد فخر الدين - وليام عوطه - ياسمينا سعد - يحيى جابر - يحيى عضاضة - يسار أيوب - يوسف بزي - يوسف علي فاضل ■

في العدد القادم

راتب شعبو

حين تنفصل الجريمة عن العقاب

يوميات شاب في العشرينات بسجن تدمر

....

فرج بيرقدار

الخروج من الكهف

يوميات الحرية بعد السجن

....

محمد فؤاد

شاعر في حلب -دفتر يوميات

....

منذر مصري

تناديني وكأنها تنادي طيرا (عن الطيور والبشر)

....

صلاح فائق

هذا الشاعر

....

تيسير خلف

تمثال أبي تمام في جاسم

يرقب وصول الدبابات

....

شاكر لعيبي

التصوير الفوتغرافي بصفته مدونة

....

أثير عادل

الصمت الشعري

كتاب العدد الأول من مجلة دمشق

عمّار ديّوب
كاتب سوري، ينشر في الجرائد اللبنانية الرئيسية، وبعض المواقع الالكترونية الثقافية، مهتم بالنقد السياسي، والفلسفة، يساهم في تجذير يسار سوري، من أجل يسار أكثر انشغالاً بالطبقات المهمشة، مهتم بصحف الثورة السورية. خريج كلية الآداب، قسم الفلسفة.

سلامة كيلة
سلامة كيلة: كاتب عربي مواليد فلسطين، صدرت له العديد من الكتب الفكرية والسياسية، منها: نقد الحزب، المشكلات التنظيمية للحزب الشيوعي. وفوضى الأفكار، نقد الانحدار الليبرالي. والاشتراكية أو البربرية. والعولمة الراهنة، آليات إعادة إنتاج النمط الرأسمالي العالمي. والإمبريالية المأزومة. النهضة المجهضة. والانتفاضات العربية صراع الطبقات وممكنات التغيير. واليسار العربي في أفوله. والثورة السورية، واقعها صيرورتها وآفاقها. يكتب في العديد من الصحف.

عزيز تبسي
كاتب سوري مواليد حلب1962 درس في كلية التجارة والاقتصاد، اعتقل في آذار عام 1983 بتهمة الانتماء لحزب العمل الشيوعي في سوريا، أفرج عنه في حزيران 1998، يتابع نشاطه في إنتاج خط فكري-سياسي ليسار ثوري عربي، يكتب في المجلات والصحف الورقية والإلكترونية والعربية.

مفيد نجم
ناقد من سوريا، مواليد الجولان 1956، مقيم في الإمارات منذ 2004، ويعمل في التدريس. له أربعة مؤلفات نقدية في الرواية والشعر، واشتغل بحثيا على نصوص أدب الرحلة. قضى 13 سنة في السجن السياسي ما بين 1982-1995. عضو المكتب التنفيذي لـ"رابطة الكتاب السوريين".

بشار العيسى
فنان تشكيلي وكاتب ومعارض سوري. من مواليد الدرباسية 1950 ، مقيم في المهجر منذ 1980. اقام العديد من المعارض في سوريا ولبنان وفي فرنسا حيث يعيش اليوم.

زياد ماجد
كاتب سياسي واستاذ دراسات الشرق الأوسط والعلاقات الدولية في الجامعة الأميركية بباريس. عضو "رابطة الكتاب السوريين"

نجيب جورج عوض
شاعر وباحث أكاديمي من مواليد اللاذقية، سوريا، يعيش ويعمل في أمريكا أستاذا مشاركا لعلم اللاهوت المسيحي والمسيحي العربي وميدرا لقسم دراسات الدكتوراة في كلية هارتفورد للدراسات الدينية واللاهوتية في ولاية كونيكتكت، أمريكا. له ثلاثة دواوين شعرية بالعربية وأربعة كتب علمية بحثية، اثنان بالعربية واثنان بالانكليزية والعديد من الدراسات البحثية العلمية المنشورة في دوريات محكمة مختصة في أمريكا وبريطانيا وألمانيا وهولندا. عضو "رابطة الكتاب السوريين".

ماجد كيالي
كاتب فلسطيني . تولد حلب، 1954، يكتب في صحف يومية عربية وينشر الدراسات في مجلات: شؤون عربية. دراسات فلسطينية . شؤون فلسطينية . صدر له العديد من الكتب في الحقل السياسي، اخرها كتاب :"قيامة شعب.قراءة في دفتر الثورات العربية" عن دار نشر "جداول-دمشق. عضو "رابطة الكتاب السوريين".

ابرهيم الجبين
كاتب واعلامي سوري من مؤلفاته (يوميات يهودي من دمشق) و(الطريق إلى الجمهورية) و(لغة محمد) (تنفس هواءها عني) وعدد من البرامج التلفزيونية الحوارية (علامة فارقة) (باسم الشعب) (الطريق إلى دمشق) من مواليد 1971. "عضو رابطة الكتاب السوريين"

عصام العطار
سياسي وكاتب سوري وقائد تاريخي لجماعة الاخوان المسلمين في سوريا. من مواليد دمشق 1926. عضو "رابطة الكتاب السوريين".

صبحي حديدي
ناقد وباحث ومترجم سوري يقيم في فرنسا، ولد في القامشلي، سورية، عام 1951. تخرّج من جامعة دمشق - قسم اللغة الإنكليزية وآدابها، وتابع دراسته في فرنسا وبريطانيا.

رفيق شامي
روائي "سوري" سوري ولد في عام 1946 في مدينة 51 "دمشق" دمشق / "سوريا" سوريا , أسس 1965 مجلة حائطية "المنطلق" في حيه وإستمرت بالصدور حتى عام 1970 .سافر إلى ألمانيا عام 1971عمل في ورشات ومصانع إلى جانب دراسته من 1971-1979 حيث نال درجة الدكتوراة في الكيمياء العضوية المعدنية. عمل في شركة أدوية كبيرة من عام 1980 وحتى 1982 حيث قدم استقالته ليتفرغ للأدب. ونشر اعمالاً متفرقة من 1971 وحتى 1977 أسس عام 1980 مع كتاب أجانب آخرين المجموعة الأدبية "الريح الجنوبية" وإتحاد الفنانين الأجانب "بوليكونست" أصدر مع زملائه في مجموعة الريح الجنوبية 13 مجلداً تحتوي نخبة من أدب الكاتبات والكتاب الأجانب في ألمانيا من عام 1980 وحتى عام 1985 . منذ عام 1982 كاتب متفرغ. منذ 2002 عضو في أكاديمية الفنون الجميلة البافارية.

نوري الجراح
شاعر من سوريا، مواليد دمشق 1956. له العديد من المؤلفات الشعرية والكتابات في حقل ادب الرحلة، أسس العديد من المجلات الأدبية، ويشرف حاليا على "المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق" لندن/ابو ظبي. مقيم في لندن. عضو رابطة الكتاب السوريين.

بول ايلوار
والاسم الأدبي لـ يوجين إميل بول جريندل، (14 ديسمبر 1895-18 نوفمبر 1952)، شاعر فرنسي كان واحدا من مؤسسي الحركة السريالية.كان والده عاملا وكانت والدته خياطة ثياب. قام برحلة طويلة عام 1926 إلى بلدان شرق آسيا، وتعرف على شيوعيين كثر عام 1927، وانضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1932 في سياق العلاقات مع مجلس المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي. ومن أهم ما كتب ايلوار : «المهمة والثورة»، و«مت" وكن»، و«الحبّ والشاعر»، و« الحرية»، و« سبع قصائد حب" أثناء الحرب»، و« قصائد لأجل السلام»، و« نحن والألم»، و« الانتصار في قاف»، و« التيار الطبيعي»، و«أنشودة كاملة»،



و«كتاب مفتوح»، و« الحياة المباشرة».

شاكر لعيبي

شاعر وباحث واكاديمي من العراق، مواليد 1955 له العديد من المجموعات الشعرية والترجمات والدراسات في حقل الفنون الإسلامية والشعر والنقد السيميائي وغيرها من حقول المعرفة. مقيم في تونس ويدرس في جامعاتها. عضو فخري في "رابطة الكتاب السوريين".

أحمد أتاسي

فنان تشكيلي وشاعر من مواليد حمص 1960، خريج كلية الفنون في دمشق واقام العديد من المعارض الشخصية، وله مشاراكات في معارض دولية. مقيم في قبرص.

عبد الله غباش

موسيقي وشاعر وصحافي من سوريا من مواليد مدينة حلب عام 1988، درس آلة العود و تتلمذ على يد بعض الأساتذة في حلب. أصدر كتابين شعريين هما: "لا ترجع لذاكرة الهواء بل ابحث عن أصل الأوكسجين" 2011 ، "النسيان المؤقت" 2012 مقيم حاليا في تركيا.

وداد ملحاف: ناشطة مغربية من شباب 20 فبراير.

نائل بلعاوي

كاتب من فلسطين، مقيم في فيينا.

عائشة ارناؤوط

من مواليد دمشق 1946، شاعرة ومترجمة مقيمة في باريس وتحمل الجنسية الفرنسية. ترجم بعض شعرها إلى الإنجليزية واليوغسلافية والألبانية. من دواوينها الشعرية: الحريق 1981. على غمد ورقة تسقط 1986. الوطن المحرم 1987. مشروع قصيدة 1979، (بالفرنسية). عضو "في رابطة الكتاب السوريين".

راتب شعبو

كاتب سوري له كتابات سياسية وفكرية ودراسات في تاريخ الإسلام في المجلات، وسيصدر كتابه "سيرة سورية" عن يومياته في السجن السياسي حيث قضى عشرينياته وثلاثينياته في السجن.

فرج بيرقدار

ولد في مدينة حمص عام 1951، وسجن بدون تهمة لمدة سبع سنوات تقريبا بعد إلقاء القبض عليه عام 1987 بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي، حكم عليه بالسجن لمدة 15 عاما في 1993، ومن داخل زنزانته كتب الشعر الذي تم تهريبه للخارج. أطلق سراح بيرقدار عام 2000. وفي عام 2003 انتقل إلى مدينة لايدن الهولندية حيث عمل بتدريس اللغة العربية، قبل أن يعود إلى سوريا. وفي عام 2005 تمت دعوته ككاتب ضيف في العاصمة السويدية ولا يزال يقيم هناك. له العديد من المجموعات الشعرية، منها "انقاض". وله يوميات حول السجن.

سري علوش

كاتبة من سوريا.

محمد فؤاد

شاعر وطبيب من مواليد القامشلي 1960، له اربع مجموعات شعرية، اولها "طاغوت الكلام" 1990، "المتروك جانبا"، 1998، "قال بيدبا" 2004، وآخرها "أجزاء الجيوان" 2010. مقيم في حلب.

أحمد علي الزين

روائي وصحفي لبناني من مواليد عكار 1955. له عدة أعمال روائية بدءًا من "الطيون"، روايته الأولى، ثم "خربة النواح" فـ"معبر الندم" وصولا إلى "حافة النسيان" و"صحبة الطير"، وله إطلالات مسرحية كاتبا وممثلا، ومنها "رؤيا"، النص السرحي الذي عرض على مسرح قصر الأونسكو.

منذر مصري

شاعر من سوريا من مواليد اللاذقية 1949، إجازة في العلوم الاقتصادية /جامعة حلب/1971. له العديد من المجموعات الشعرية. وصدر له الجزء الأول من مجموع الأعمال الشعرية الأربع الأولى: آمال شاقة- بشر وتواريخ وأمكنة- الحب يرى الكره أعمى - دعوة خاصة للجميع. مقيم في اللاذقية.

ريم مجاهد

ناشطة من اليمن من مواليد تعز 1990.

أسماء الغول

ناشطة كاتبة وناشطة فلسطينية في مجال المرأه وحقوق الإنسان. (مواليد 17 يناير 1982, رفح). لها مجموعتان قصصيتان، أمينة سر مجلس إدارة المعهد الفلسطيني للاتصال والتنمية، وشاركت في العديد من المؤتمرات والنشاطات الحقوقية والثقافية المحلية والإقليمية والدولية.

تيسير خلف

كاتب وباحث سوري من قرية "الظاهرية" الجولانية المحتلة. خريج كلية الآداب قسم الإعلام. مؤلفاته فهي: قطط أخرى" (قصص) دمشق عام 1993. "دفاتر الكتف المائلة" (رواية) عام 1996، وطبعة ثانية 2009. "السينما الفلسطينية الجديدة" عام 1994. "دليل الفيلم الفلسطيني"، "إصدارات مهرجان الشاشة العربية المستقلة"، الدوحة 2001. رواية "عجوز البحيرة" عام 2004. "صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي الإسلامي" (جغرافيا تاريخية) 2004. "الجولان في مصادر التاريخ العربي" 2005. "الكتاب العزيزي" لـ"الحسن بن أحمد المهلبي". جمع وتحقيق دمشق 2006."استكشاف الجولان" 2005. "وثائق عثمانية حول الجولان"، 2006. "المسيح في الجولان" 2006. "الجولان الرائع"، منشورات جريدة الجولان 2007. "المرجع في الجولان"، مركز الشرق للدراسات، دمشق عام 2007. "كتاب الجولان المصور"، مركز الشرق للدراسات، دمشق 2007. "رجم الهري وحضارة الدوائر الغامضة" 2007. "كنيسة العرب المنسية" 2008. "رحلة حمود البوسعيدي" 2009. "رحلة نيقولا سيوفي" 2009، "رحلتان إلى الحجاز ونجد" 2009، "رحلة محمد سعيد الزعيم وعبد الحميد شومان" 2009. "الفتوحات الإسلامية في المصادر السريانية". "موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين". أصدر ثمانية مجلدات عام 2009.

جان دوست

جان دوست : روائي وشاعر ومترجم كردي مواليد 1965 كوباني/ سوري، مقيم منذ 2000عام في المانيا. من أعماله الروائية: مدينة الضباب 2003، ثلاث خطوات الى المشنقة2007، ميرنامه(الشاعر والأمير) 2008، مارتين السعيد.



مروان علي

شاعر سوري من مواليد القامشلي 1968، له ديوان "ماء البارحة" 2009، (العاجز) رواية للكاتب الكردي صلاح الدين بولوت/ ترجمة- مشروع الكلمة / أبوظبي. ينشر نصوصه ومقالاته في اهم وأبرز الدوريات العربية.

خلدون الشمعة

ناقد من سوريا، مقيم في بريطانيا، رأس تحرير مجلة المعرفة السورية. له "الشمس والعنقاء"، خلدون الشمعة 1974، النقد و الحرية 1977 ، المنهج والمصطلح: مدخل الى أدب الحداثة، دمشق 1979، وترجم قبل ذلك، لكولن ويلسن "رجل بلا ظلال: المفكرة الجنسية" 1968. له قيد الطبع بالإنكليزية اطروحة دكتوراه حول المركزية الأوروبية والثقافة. يعد من الكتاب الذين يمثلون النموذج الأكثر انسجاما مع الثقافة الغربية، فقد كتب عن الحداثة وما بعدها، وانطلق من النظريات الغربية.

بسمة الخطيب

كاتبة من لبنان تكتب القصة القصيرة ولها مجموعتان قصصيتان، الأولى بعنوان "دانتيل" صادرة عن دار المدى - عام 2005، والثانية "شرفة بعيدة تنتظر" صادرة عن دار الآداب عام 2009 التي حققت مرتبة الأكثر مبيعاً في معرض بيروت للكتاب عن فئة الكتب الأدبية. تكتب للأطفال وتعمل في حقل ثقافة الطفل. تقيم حاليا في الدوحة-قطر.

أثير عادل

ناقد واكاديمي من العراق مقيم في الولايات المتحدة الأميركية. له دراسات في فن الشعر. من مؤلفاته "تقديم الشخصية في الرواية العراقية" دراسة فنية صادرة عن دار الكتب والوثائق العراقية، بغداد 2005.

نوفل نيوف

شاعر ومترجم من سوريا، مقيم في كندا له العديد من المؤلفات الموضوعة والمترجمة.

وليد الزعبي

رجل أعمال سوري من مواليد درعا 1964 يقيم في المغترب. مؤسس "تيار بناة المستقبل" الاقتصادي العلمي الثقافي، له كتاب "رؤية من اجل المستقبل" القاهرة 2012.

■ صور العدد: أطفال سوريون في مخيم يايلا داغي على الحدود التركية - السورية.
■ اللوحات: لأطفال المخيم - عدسة نوري الجراح



عمّار ديّوب، سلامة كيلة، عزيز تبسي، مفيد نجم
بشار العيسى، زياد ماجد، نجيب جورج عوض، ماجد كيالي
ابرهيم الجبين، عصام العطار، صبحي حديدي، رفيق شامي
نوري الجراح، بول ايلوار، شاكر لعيبي، نائل بلعاوي، عائشة
ارناؤوط، راتب شعبو، فرج بيرقدار، سري علوش، محمد فؤاد
أحمد علي الزين، منذر مصري، ريم مجاهد، أسماء الغول
تيسير خلف، جان دوست، مروان علي، خلدون الشمعة
بسمة الخطيب، أثير عادل، نوفل نيوف، وليد الزعبي

